الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

روينتون ميستري
Rohinton Mistry

مرشّح ضمن القائمة النهائية لجائزة «مان بوكر» العالمية لعام 2011

بين اليأس والأمل

A FINE BALANCE



Book OPRAH'S Club

رواية

بين اليأس والأمل

A FINE BALANCE

بين اليأس والأمل

A FINE BALANCE

رواية

روينتون ميستري

Rohinton Mistry

ترجمة

حسان بستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

A FINE BALANCE

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Mistry Books Inc.

c/o Westwood Creative Artists

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts which last year invested $20.1 million in writing and publishing throughout Canada.

Nous remercions de son soutien le Conseil des Arts du Canada, qui a investi 20,1 millions de dollars l'an dernier dans les lettres et l'édition à travers le Canada.

Canada Council for the Arts | Conseil des Arts du Canada

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0274-3

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مقدمة: 1975

تقدّم القطار السريع المكتظ بالمسافرين ببطء، وتمايل بعد ذلك نحو الأمام فجأةً كما لو أنه يريد الانطلاق بأقصى سرعة. لقد أبهج القطار ركابه بسبب هذه الخدعة الوجيزة، فاتسعت رقعة انتشار الناس الواقفين في الممر كفقاعة صابون على وشك الانفجار.

كان مانيك كولاه داخل المقصورة متمسكاً بالدرابزين العُلوي بإحكام بسبب الزِّحام. فشعر أن مِرفق أحدهم يصطدم بقوة بكتابيه المدرسيّين اللذين يحملهما بيده. وفي المقعدين المجاورين، اندفع شاب واستقرّ بين ذراعَي الرجل الجالس في الجهة المقابلة. فسقط كتابا مانيك المدرسيان عليهما.

"آخ!"، قال الشاب لدى سقوط أول كتاب على ظهره.

فضحكا، وعملا على الابتعاد عن بعضهما. لقد ساعد إيشفار دارجي، الذي لديه خد أيسر مشوَّه، ابن شقيقه على النهوض من حضنه والعودة إلى مقعده. "كل شيء بخير، يا أوم؟".

"باستثناء الثقب في ظهري، كل شيء بخير". قال أومبراكاش دارجي ذلك ملتقطاً الكتابَين المغطّيَين بورق بنّي اللون. فرازهما بيديه النحيلتين، ونظر من حوله لاكتشاف من أوقعهما.

قال مانيك إن الكتابين له، وجعلته فكرة اصطدام كتابيه الثقيلين بذلك العمود الفقري الضعيف يرتعد. لقد تذكّر عصفور الدوري الذي قتله بحجر منذ سنوات، مما جعله يتقيّأ.

فاعتذر باضطراب قائلاً: "أنا شديد الأسف، لقد انزلق الكتابان و...".

"لا تقلق"، قال إيشفار، "لم يكن خطأَك". وأضاف قائلاً لابن شقيقه: "من الجيد أن الأمر لم يحدث بشكل معكوس، أليس كذلك؟ لو سقطتُ على حضنك لحطّم وزني عظامك". وضحكا مجدداً، وضحك مانيك أيضاً تتمةً لاعتذاره.

لم يكن إيشفار دارجي رجلاً بديناً، لكن أوصال أومبراكاش النحيلة كانت مصدر دُعاباتهما الصغيرة التي تتناول حجمه، فتَصدر عنهما ردود بارعة يوجّهها أحدهما إلى الآخر. وعندما يتناولان وجبتهما المسائية، يتأكد إيشفار من غَرف كمية كبيرة من الطعام وسكبها في طبق ابن شقيقه؛ وعندما يكونان في مكان عام على جانب الطريق، ينتظر إيشفار أومبراكاش حتى يذهب لشرب الماء، أو دخول المرحاض، ويغرف بسرعة بعضاً

من طعامه ويضعه في طبق ابن شقيقه.

وإذا اعترض أومبراكاش، يقول إيشفار: "ماذا سيظنون في قريتنا عندما نعود؟ أنني جعلت ابن شقيقي يتضور جوعاً في المدينة وتناولت كل الطعام بمفردي؟ كُل، كُل! إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ شرفي هي بأن أجعلك سميناً!".

"لا تقلق"، يجيب أومبراكاش ممازحاً، "إذا كان شرفك يزن نصف وزنك، فإن ذلك سيكون كافياً ولن تتأثر بفقدان جزء منه".

ولكن البنية الجسدية لأومبراكاش كانت تتحدى جهود عمّه، فقد بقي نحيلاً كعود ثقاب. واحتفظ حظاهما أيضاً، وبعناد، بمظهر هزيل، وبقيت عودتهما إلى القرية ظافرَين حلماً بعيد المنال.

مرةً أخرى، تباطأ القطار السريع المتوجه جنوباً. وصلصلت الإطارات المعدنية بهسهسة صادرة عن تقنية الهواء المضغوط، وتوقف القطار. كان بين محطتَين، واستمرت مكابحه في إطلاق الأبخرة للحظات قليلة قبل التوقف كلّياً عن إصدار هذا الصوت.

فنظر أومبراكاش إلى خارج النافذة لتحديد المكان الذي توقفوا فيه. كانت هناك أكواخ وضيعة وراء سياج سكة الحديد بمحاذاة خندق تجري فيه مياه صَرف صحّي خام، وأولاد يلعبون بالقضبان والحجارة، ويثب حولهم كلب صغير منفعل، محاولاً الانضمام إليهم. وفي الجوار، رجل عاري الصدر يحلب بقرة. كان بالإمكان رؤية مشاهد مماثلة في الأرجاء.

وانجرفت باتجاه القطار رائحة حادة ناجمة عن إحراق الرَّوث. وفي الأمام مباشَرةً، كان هناك حشد من الناس بالقرب من تقاطع مستوٍ، فقفز عدد قليل من الرجال من القطار وساروا على خط سكة الحديد.

"آمل الوصول في الوقت المحدد"، قال أومبراكاش، "إذا سبقنا شخص ما، ينتهي أمرنا بالتأكيد".

فسألهما مانيك كولاه إذا كانا متوجهين إلى مكان بعيد، فقال له إيشفار اسم المحطة.

"إنها المحطة نفسها التي أقصدها"، قال مانيك متحسساً شاربه غير الكثّ بأصابعه.

آملاً رؤية مينا ساعة ما، نظر إيشفار إلى أجَمة من الأرسغ المرفوعة. "كم الساعة، رجاءً؟"، سأل أحدهم من فوق كتفه. فرفع الرجل طرف كمّه بأناقة وكشف عن الساعة: الثامنة وخمس وأربعون دقيقة.

"هيا، تحرك!"، قال أومبراكاش، ضارباً بكفّه المقعد بين فخذَيه.

"ثيراننا المخصية في قريتنا أكثر طواعية منه، أليس كذلك؟"، قال العمّ، فضحك مانيك. وأضاف إيشفار قائلاً إن الأمر صحيح؛ مذ كان طفلاً، لم تخسر قريته أي سباق

لعربات تجرّها ثيران في أثناء المباريات التي تقام في المهرجانات.

"أعطِ القطار جرعة من الأفيون فينطلق كالثيران المخصية"، قال أومبراكاش.

وشقّ بائع أمشاط طريقه عبر المقصورة المزدحمة، ناقراً بإصبعه الأسنان البلاستيكية لمشط كبير. فتأفف منه الركاب، ممتعضين من حضوره المزعج.

"أنت!"، قال أومبراكاش للفت انتباهه.

"عصابة شعر بلاستيكية غير قابلة للكسر، مِشبك شعر بلاستيكي على صورة زهرة، على صورة فراشة، مشط ملوّن غير قابل للكسر". وعرض بائع الأمشاط بضاعته بصوت رتيب وفاتر، غير واثق مما إذا كان أومبراكاش زبوناً حقيقياً أم ممازحاً يريد تمرير الوقت. "مشط كبير، ومشط صغير زهريّ اللون، برتقالي، كستنائي، أخضر، أزرق، مشط أصفر... غير قابل للكسر".

قام أومبراكاش باختبار الأمشاط على شعره قبل اختيار واحد أحمر يمكن وضعه بالجَيب الأحمر. وبحث في سرواله وأخرج قطعة نقود معدنية. كان بائع الأمشاط يعاني من مَرافق ومناكب عدوانية في أثناء بحثه عن فكّة، واستخدم كمّ قميصه لمسح دهون الشعر عن الأمشاط المرفوضة قبل إعادتها إلى حقيبته المدرسية، محتفظاً بمشط مزدوج مسنَّن في يده لإكمال عملية النقر خلال عبوره المقصورة.

"ماذا حلّ بمشطك الأصفر؟"، سأل إيشفار.

"انكسر إلى قطعتَين".

"كيف حدث ذلك؟".

"كان في جَيبي الخلفي. لقد جلست عليه".

"إنه المكان غير الصحيح لوضع مشط. هو مخصص لرأسك، يا أوم، وليس لمؤخرتك". كان يدعو ابن شقيقه أوم على الدوام، ولا يستخدم اسم أومبراكاش إلا عندما يكون مستاءً منه.

"لو كانت مؤخرتك، لتحطم المشط إلى مئة قطعة"، أجاب ابنُ شقيقه، فضحك إيشفار. لم يكن خدّه الأيسر المشوَّه يشكل أي عائق أمام ارتسام ابتساماته بشكل مجعَّد حول المنطقة المتصلّبة كمرساة.

ربّت تحت ذقن أومبراكاش بلطف. كان عمراهما - ستة وأربعون عاماً، وسبعون عاماً - مؤشّراً مضلِّلاً في معظم الأحيان لعلاقتهما الفعلية. "ابتسم، يا أوم. لا يلائم فمك الغاضب تسريحة شعرك البطولية". وغمز مانيك لإشراكه بالمرح. "بوجود شعر مفروق على هذا النحو، سيلاحقك عدد كبير من الفتيات. ولكن، لا تقلق، سأختار لك زوجة

لطيفة، امرأة بدينة وقوية البنية فيها لحم يكفي كليكما".

فابتسم أومبراكاش ابتسامة عريضة ولوّح بالمشط الجديد كما لو أنه يمشط شعره. لم يكن هناك ما يشير إلى تحرك القطار. وعاد الرجال الذين قاموا بجولة في الخارج مع أنباء عن العثور على جثة أخرى بجانب خط سكة الحديد بالقرب من التقاطع المستوي. وتقدم مانيك شيئاً فشيئاً باتجاه الباب لاستراق السمع، وقال في سرّه إنها طريقة سريعة وجيدة للانتحار بما أن القطار صدم ذلك الشخص مباشَرةً.

"ربما للأمر علاقة بحالة الطوارئ"، قال أحدهم.

"أي حالة طوارئ؟".

"ألقت رئيسة الوزراء كلمة عبر الإذاعة في الصباح الباكر من هذا اليوم. يتعلق الأمر بتهديد يتعرض له البلد من الداخل".

"الأمر مرتبط بإجراءات حكومية أخرى كما يبدو".

"لماذا يختار الجميع خطوط سكك الحديد للموت؟"، تأفّف شخص آخر، "لا مراعاة لأشخاص مثلنا. قتل متعمَّد، انتحار، قتل على أيدي إرهابيي ناكزاليت، موت في السجن... كل شيء يؤدي إلى تأخير مواعيد القطارات. ما خَطب السمّ أو المباني الشاهقة أو السكاكين؟".

أخيراً، سُمع في المقصورات هدير طال انتظاره، وانطلق القطار بعموده الفقري الطويل، وشعّت وجوه الركاب ارتياحاً. وبمرور المقصورات بجانب التقاطع المستوي، مدّ الجميع أعناقهم لمشاهدة سبب التأخير. كان هناك ثلاثة رجال شرطة بلباسهم الرسمي واقفين بالقرب من الجثة التي غُطيت على عجَل بانتظار رحلتها إلى المشرحة. فلمس بعض الركاب جباههم وضمّوا أياديهم اليمنى إلى اليسرى مهمهمين، "رام، رام".

نزل مانيك كولاه وراء العمّ وابن شقيقه، وغادروا رصيف الركاب معاً. "عُذراً"، قال وهو يخرج رسالة من جَيبه، "أنا حديث العهد في المدينة، هل يمكنك أن ترشدني إلى هذا العنوان؟".

"أنت تسأل الشخص غير المناسب"، قال إيشفار من دون قراءة الورقة، "نحن أيضاً حديثو العهد هنا".

ولكن أومبراكاش ألقى نظرة سريعة على الرسالة وقال: "انظر، إنه الاسم نفسه!".

وأخرج إيشفار ورقة مربّعة بالية من جَيبه وقام بمقارنة الورقتين. فابن شقيقه مُحِق: دينا دلال، ويلي هذا الاسم العنوان.

فنظر أومبراكاش إلى مانيك بعدوانية مفاجئة وقال: "لماذا أنت ذاهب إلى دينا دلال؟ هل أنت خياط؟".

"أنا، خياط؟ لا، إنها صديقة والدتي".

ربّت إيشفار على كتف ابن شقيقه وقال: "أرأيت، كنتَ مذعوراً ليس إلا. هيا بنا، لنعثر على المبنى".

لم يفهم مانيك ما عنياه حتى شرح له إيشفار الأمر خارج المحطة: "أوم وأنا خياطان. لدى دينا دلال عمل لخياطَين. نحن ذاهبان للتقدّم بطلب للعمل".

"وظننتَ أنني كنت مسرعاً إلى هناك لسرقة عملك"، وابتسم مانيك، "لا تقلق، أنا مجرد طالب. كانت دينا دلال ووالدتي ترتادان المدرسة نفسها. ستوفر لي المأوى في منزلها لبضعة أشهر، هذا كل ما في الأمر".

سألوا عن الاتجاه الذي يتعيّن عليهم الذهاب فيه، وسلكوا الشارع المحدَّد. كان أومبراكاش لا يزال مرتاباً بعض الشيء. "إذا كنتَ ستقيم معها لأشهر قليلة، فأين صندوقك، ومقتنياتك؟ لديك كتابان فقط؟".

"اليوم، سأذهب للقائها، وسأنقل أغراضي من سكن الطلاب في الكلّية في الشهر القادم".

مرّوا بمتسوّل جالس على منصة خشبية صغيرة مزوَّدة بدواليب صغيرة، رفعته أربع بوصات عن الأرض. ليس لديه أصابع وإبهامان، وساقاه مبتورتان حتى الرِّدفين تقريباً. كان يغنّي، هازّاً صفيحة معدنية صغيرة بين راحتَي يديه المضمّدتَين.

"إنه أحد الأشخاص الأسوأ حالاً الذين رأيتهم منذ قدومي إلى المدينة"، قال إيشفار، ووافقه الآخران الرأي. وتوقف أومبراكاش لوضع قطعة نقود معدنية في الصفيحة.

عبروا الطريق، وسألوا مجدداً عن الاتجاهات. "أقيم في هذه المدينة منذ شهرين"، قال مانيك، "ولكنها كبيرة جداً وأشعر بالارتباك. باستطاعتي تمييز شارعين كبيرين فقط. كل الأزقة تبدو متشابهة".

"نقيم هنا منذ ستة أشهر ولا نزال نواجه المشكلة نفسها. كنا تائهين تماماً في بادئ الأمر. في المرة الأولى، لم نتمكن من الصعود على متن القطار... لكن، بعد محاولتين أو ثلاث، تعلّمنا كيف نشقّ طريقنا".

فقال مانيك إنه يكره المكان ويتحرّق شوقاً للعودة إلى منزله في الجبال في العام التالي، بعد إنهاء دراسته في الكلّية.

قال إيشفار: "لقد جئنا أيضاً لوقت قصير فقط، لكسب بعض المال، ومن ثم سنعود إلى قريتنا. ما الحاجة إلى هذه المدينة الكبيرة؟ ضجيج وحشود، لا مكان للعيش فيها، شحّ في الماء، قُمامة في كل مكان. إنه أمر رهيب".

قال أومبراكاش: "قريتنا بعيدة عن هنا، يتطلب الأمر يومَين في القطار - من الصباح وحتى المساء - لبلوغها".

قال إيشفار: "وسنعود إليها. لا مكان يضاهي مسقط الرأس جمالاً".

قال مانيك: "موطني في الشمال. يتطلّبني الأمر يوماً وليلة، إضافةً إلى يوم آخر، للوصول إلى هناك. من نافذة منزلنا، يمكنكما رؤية قمم الجبال المكلَّلة بالثلوج".

"يجري نهر قرب قريتنا"، قال إيشفار، "يمكنك أن تراه متلألئاً، وتسمعه يغنّي. إنه مكان جميل".

ساروا بهدوء لبعض الوقت، مفكرين في موطنَيهم. كسر أومبراكاش الصمت، مشيراً إلى منصة يوجد عليها شراب البطيخ الأحمر: "ألن يكون هذا الشراب جيداً في مثل هذا اليوم الحار".

فحرّك البائع مِغرفته في الوعاء الكبير، مصلصلاً قطع الثلج الطافية في بحر من الشراب الأحمر القاتم. قال مانيك: "لنحصل على بعض منه، يبدو لذيذاً".

"ليس بالنسبة إلينا"، قال إيشفار بسرعة، "تناولنا وجبة فطور كبيرة صباح اليوم"، وزال عن وجه أومبراكاش التوق إلى تناول بعض الشراب.

"حسناً"، قال مانيك بارتياب، وطلب كوباً كبيراً. وتأمّل الخياطَين اللذين أشاحا بنظرهما عنه، متجنّبَين النظر إلى الكوب الكبير المُغري والبارد. ونظر إلى وجهَيهما المتعبَين، وثيابهما البالية.

فشرب نصف الكوب وقال: "لقد شبعت. هل تريدانه؟".

فهزّا رأسيهما.

"سيذهب هدراً".

"حسناً، في هذه الحالة أنا موافق". قال أومبراكاش، وأخذ كوب الشراب. فتناول بعضاً منه، ومن ثم مرّر الكوب لعمّه.

أفرغ إيشفار الكوب، وأعاده إلى البائع قائلاً: "مذاقه لذيذ جداً". وأشرق وجهه من شدة السرور، "إن مشاطرتنا الشراب بادرة لطيفة جداً من قِبلك، لقد استمتعنا به حقاً، شكراً لك". ورمقه ابن شقيقه بنظرة غير موافقة لجعل الشكر أكثر اعتدالاً.

امتنان كبير لقاء كمية قليلة من الشراب، قال مانيك لنفسه. كم بدوَا متضوّرَين جوعاً من دون أن يفقدا لطفهما.

* * *

كانت هناك لوحة من النحاس الأصفر تحمل اسم: السيد والسيدة راستوم كيه دلال معلّقة قرب باب الشرفة، وقد ازداد لون الحروف قتامةً بفعل الزنجار المتراكم على مرّ السنين. ففتحت دينا دلال الباب لهم، واستلمت قطعة الورق المتغضّنة بعد التعرف إلى خطها.

"أنتم خياطون؟".

"أجل"، قال إيشفار، وأومأ برأسه بعزم. ودخل الثلاثة إلى الشرفة نزولاً عند رغبتها، شاعرين بالحرَج.

لقد حُوّلت الشرفة التي كانت رواقاً مفتوحاً إلى غرفة إضافية عندما كان زوج دينا دلال الراحل فتيًّا؛ إذ قرر والداه أن تكون غرفة للّعب متمِّمة للطابق الصغير. وكان المدخل المظلَّل مغطّى بالآجرّ ومزوَّداً بنافذة يحميها حاجز مشبَّك.

"ولكنني بحاجة إلى خياطَين فقط"، قالت دينا دلال.

"عُذراً، أنا لست خياطاً. أدعى مانيك كولاه". وخطا إلى الأمام من وراء إيشفار وأومبراكاش.

"آه، أنت مانيك! أهلاً وسهلاً بك! آسفة، لم أتمكن من تمييزك. مرّت سنوات على رؤيتي والدتك للمرة الأخيرة، ولم يسبق لي أن رأيتك من قبل".

فتركت الخياطَين على الشرفة، واصطحبته إلى الداخل، إلى الغرفة الأمامية ثمّ قالت له: "هل يمكنك الانتظار هنا لدقائق قليلة بينما أتفق مع ذَينك الاثنَين؟".

"بالتأكيد".

ألقى مانيك نظرة حَوله على الأثاث الرث. كانت هناك أريكة متهالكة، وكرسيّان مع مقعدين باليين، ومنضدة شاي مكسوّة بالخدوش، وطاولة طعام مع غطاء متشقق وباهت اللون. فاعتبر أنها لا تقيم هناك؛ من المحتمَل أن يكون المنزل مؤسسة للعائلة أو نُزلاً. كانت الجدران بحاجة ماسّة إلى الطلاء. وتأمّل البقع الموجودة على المِلاط كما يتأمّل السحُب، متخيّلاً حيوانات ومناظر طبيعية؛ كلباً يصافح، صقراً ينقضّ بقوة، رجلاً يتسلّق الجبل متكئاً على عصا.

على الشرفة، مرّرت دينا دلال يدها على شعرها الأسود الذي لم يجتحه اللون الرمادي بعد، وركزت نظرها على الخياطَين. ففي سنّها البالغة اثنين وأربعين عاماً، كان جبينها لا يزال أملس، ولم تقسِّ ستة عشر عاماً من الاهتمام بنفسها نظراتها التي حملت منذ مدة طويلة أصدقاء شقيقها على التنافس للتأثير فيها.

سألت عما إذا كان هناك أشخاص على صلة بهما يمكنهم تأكيد خبرتهما في ميدان

الخياطة. فادّعى الخياطان معرفتهما بكل شيء عن ملابس النساء. "حتى إنه باستطاعتنا أخذ قياسات على جسم الزبون مباشَرةً وخياطة أي زِيّ تريدينه"، قال إيشفار بثقة، وتولى مهمة الحديث طوال الوقت بينما كان أومبراكاش يومئ برأسه.

"في هذه الوظيفة، لن يكون هناك زبائن لأخذ قياساتهم"، شرحت، "ستكون الخياطة وفقاً لنماذج ورقية. عليكما إعداد دزينتَين أو ثلاث دزينات كل أسبوع، وفقاً لطلب الشركة، على أن يكون هناك تصميم واحد للفستان".

"إنه عمل في غاية السهولة"، قال إيشفار، "ولكننا سنقوم به".

"ماذا عنك؟"، قالت لأومبراكاش الذي كانت نظرته تنم عن ازدراء، "لم تقل أي كلمة".

"ابن شقيقي يتكلم فقط عندما لا يوافقني الرأي"، قال إيشفار، "صمته علامة جيدة".

لقد راق لها وجه إيشفار، فهو من النوع الذي يرتاح له الناس ويشجع على المحادثة. ولكن الشخص الآخر مُطبَق الفم ويُخفي الكلمات. فذقنه صغير جداً مقارنةً مع قسمات وجهه، ولكن ملامح وجهه تبدو متناسقة عندما يبتسم.

وعرضت شروط التوظيف: سيكون عليهما إحضار آلتي الخياطة الخاصتين بهما والعمل بالقطعة. "كلما أنجزتما مزيداً من الملابس، كلما كسبتما المزيد"، قالت، ووافق إيشفار قائلاً إنه أمر منصف. ويحدَّد السعر وفقاً لمدى صعوبة كل نموذج، ويكون دوام العمل من الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً؛ أقل من الدوام العادي، ويرحَّب بهما للعمل لمدّة أطول. كان التدخين أو مضغ التبغ ممنوعاً خلال العمل.

"لا نمضغ التبغ"، قال إيشفار، "ولكننا نحب التدخين أحياناً".

"سيكون عليكما التدخين في الخارج".

وتمت الموافقة على الشروط. "ما هو عنوان مشغلك؟"، سأل إيشفار، "إلى أي مكان ننقل آلتي الخياطة؟".

"هنا بالذات. عندما تأتيان في الأسبوع القادم، سأدلّكما على مكان وضعهما، في الغرفة الخلفية".

"حسناً، شكراً لك، سنعود يوم الاثنين بالتحديد". ولوّحا لمانيك لدى مغادرتهما. "سنراك مجدداً في وقت قريب".

"بالتأكيد"، قال مانيك، ملوِّحاً. وبعد أن لاحظ تساؤل دينا دلال الصامت، شرح لها عن التقائهم في القطار.

"يجب أن تكون حذِراً حيال مَن تتحدث إليه"، قالت، "لا تعرف أبداً أي نوع من

النصّابين قد تلتقيهم. هذه ليست قريتك الصغيرة في الجبال".

"يبدوان لطيفَين جداً".

"همم، أجل"، قالت هذا متحفّظةً على الحكم السابق الذي أطلقته بشأنهما. واعتذرت بعد ذلك لافتراضها أنه خياط. "لم أتمكن من رؤيتك بالشكل الملائم لأنك كنت واقفاً وراءهما، فنظري ضعيف". يا لغبائي، قالت في سرّها، لأنها كوّنت فكرة غير صحيحة عن هذا الفتى الوسيم، معتبرةً إياه خياطاً متقوّس الساقَين. وبُنيته قوية أيضاً؛ لا بد من أنه هواءُ الجبل الممتاز الذي يتحدثون عنه، والطعامُ والماءُ الصّحّيّان.

حدّقت إليه، دانيةً منه أكثر فأكثر ومُميلةً رأسها إلى جانب واحد: "لقد مرّ أكثر من عشرين عاماً، ولكن أستطيع تمييز والدتك من خلال وجهك. تعلم أن آبان وأنا كنا نرتاد المدرسة نفسها".

"أجل"، قال هذا شاعراً بعدم الراحة من نظراتها المركّزة والممحِّصة، "أخبرتني والدتي ذلك في رسالتها. وأرادت أن أُعلمك أنني سأنتقل إلى هذا المكان في الشهر القادم، وبأنها سترسل إليك شيك الإيجار عبر البريد".

"أجل، أجل، لا تقلق"، قالت هذا صارفةً النظر عن قلقه حيال التفاصيل، ومُنساقةً مجدداً مع الماضي، "كنا فتاتين مروِّعتين في أيام المدرسة، إضافةً إلى فتاة ثالثة تدعى زنوبيا". ورسمت الذكرى على وجهها ابتسامة متلهّفة ملؤها الحزن والشوق. "على أيّ حال، دعني أُريك منزلي، وغرفتك".

"أنت تُقيمين هنا أيضاً؟".

"وأين يمكن أن أُقيم؟". وفي أثناء عبورهما المنزل الصغير المتّسخ، سألت عن تخصصه في الكلّية.

"تبريد الهواء".

"إذاً، آمل أن تقوم بأمر ما حيال هذا الطقس الحار، وتُضفي راحةً أكبر على منزلي".

ابتسم ابتسامة واهنة بعد أن أحزنه المكان الذي سيقيم فيه. هو ليس أفضل من مسكن الطلاب في الكلّية، قال في سرّه. ومع ذلك، كان يتطلّع إلى الإقامة في هذا المنزل؛ فهو مستعدّ للقيام بأي شيء بعد ما حدث هناك. وارتعد وحاول التفكير في أمر آخر.

"هذه الغرفة ستكون غرفتك".

"إنها جميلة جداً. شكراً لك يا سيدة دلال".

كانت هناك خزانة للأمتعة في الزاوية، وعلى ظهرها حقيبة للملابس مخدوشة ومشوَّهة، وبجانب الخزانة طاولة صغيرة. وكان سقف تلك الغرفة قاتماً ومتقشّراً على

غـرار الغرفـة الأماميـة. والجـدران فقدت لونها، وهناك قطع مفقودة من المِلاط في أماكن عـدة، ورُقـع بـارزة وحديثـة العهـد من المِلاط كما لـو أنها جروح شُـفيت حديثاً. وهناك سريران مفردان متعامدان مع الجدران. فتساءل عما إذا كانت ستنام في الغرفة نفسها.

"سأنقل سريراً إلى الغرفة الأخرى لأجلي".

نظـر عبـر البـاب، ورأى غرفة أصغر حجماً وأسـوأ حـالاً مكتظة بخزانة للأمتعة (مع حقيبة للملابس على ظهرها)، وطاولة مخلّعة، وكرسـيَّين، وثلاثة صناديق صدئة مكدَّسـة على مِسند.

"أنا أطردك من غرفتك الخاصة"، تمتم مانيك، وقد أحزنه المنظر على الفور.

"لا تكن سـخيفاً"، قالت بنبرة سـريعة، "أردت ضيفاً يدفع إيجاراً، ومن حسـن حظي الكبير أنني حصلت على فتى زِرادشتي؛ ابن صديقتي في المدرسة".

"أنت شديدة اللطف يا سيدة دلال".

"وهناك أمر آخر. يجب أن تدعوني الخالة دينا".

فأومأ مانيك برأسه.

"يمكنـك إحضـار أغراضـك إلـى هنـا في أي وقت. إذا لم تكن سـعيداً في مسـكن الطـلاب، فهـذه الغرفـة جاهـزة لاسـتقبالك، ليس علينـا انتظار حلول التاريـخ المحدَّد في الشهر القادم".

"لا، لا بأس. ولكن، شكراً لك، يا سيدة...".

"آه، حاذِر".

"أعني، يا خالتي دينا". وابتسما.

عندما غادر مانيك شقتها، بدأت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، شاعرةً باضطراب فجائي كما لو أنها على وشك الانطلاق في رحلة طويلة. فلا حاجة لها لزيارة شقيقها واستجداء إيجار الشهر التالي. وتنفست الصُّعداء. لقد حافظت على استقلالها الهش مرةً أخرى.

فـي اليـوم التالـي، ستُحضر إلـى المنزل أول دُفعة من أقمشـة الخياطة من أوروفوار إكسبورتس.

الفصل الأول

مدينة بجانب البحر

نادراً ما كانت دينا دلال تعود بالذاكرة إلى حياتها الماضية بندم ومرارة، أو تتساءل عن سبب أخذ الأمور المنحى القائم، أو تخدع نفسها بالمستقبل الزاهر الذي توقعه لها الجميع عندما كانت لا تزال في المدرسة واسمها دينا شروف. وإذا غاصت في أحد هذه المزاجات النادرة، كانت تخرج منه بسرعة. ما الفائدة من تذكّر القصة مراراً وتكراراً - سألت نفسها - في حين تنتهي باستمرار في الواقع نفسه وفي الغرفة نفسها.

كان والد دينا طبيباً عاماً يزاول مهنته بشكل متقطّع لأنه اتّبع القَسَم الأبوقراطي بشغف أكبر من سواه. وفي السنوات الأولى من ممارسته مهنة الطب، شخّص نظراؤه، وأفراد العائلة، والأطباء الأكبر سنّاً، وفاءه لعمله بحماسة الشباب وعزمهم. "كم هي حماسة الشباب هذه مجدِّدة للقوى"، كانوا يقولون ويبتسمون، ويومئون برؤوسهم بحصافة، واثقين من أن الزمن سيطفئ نيران المثالية من خلال جرعة قوية من المسؤوليات العائلية.

ولكن الزواج، وولادة ابن، وولادة ابنة بعد أحد عشر عاماً، لم تُبدّل شيئاً من مفاهيم الطبيب شروف. لقد عزّز الزمن لديه حالة اختلال التوازن بين حماسته لتخفيف معاناة المرضى وبين رغبته في كسب دخل مريح.

"يا له من أمر مخيِّب للآمال!"، كان أصدقاؤه وأنسباؤه يقولون، هازّين رؤوسهم، "كم بنينا الآمال على مستقبله، وهو لا يزال يكدح كموظف مكتبي، وكمتعصّب يرفض الاستمتاع بالحياة. يا للسيدة شروف المسكينة! لا إجازات، ولا حفلات؛ إنها لا تحصل على أي مرح وتسلية في حياتها".

في الحادية والخمسين من عمره، وعندما بدأ معظم الأطباء العامّين بالتفكير مليًّا في خياراتهم كالعمل بدوام جزئي، مستعينين بخدمات طبيب متدرّج منخفض التكلفة، أو التخلّي عن مزاولة مهنة الطب لصالح تقاعد مبكّر، لم يكن الطبيب شروف يملك الرصيد المصرفي أو المِزاج اللذَين يسمحان له بالانسياق وراء هذه الملذات. لقد تطوّع عوضاً من ذلك ليكون على رأس حملة للمتخرّجين في ميدان الطب لخدمة المرضى في الأقاليم الداخلية. هناك، حيث التيفوئيد والكوليرا كانا لا يزالان يحصدان أرواح القرويين

ويعجز العلم والتكنولوجيا عن مواجهتهما، حاول الطبيب شروف القضاء عليهما أو كبح جماحهما على الأقل.

ولكن السيدة شروف اتّبعت نوعاً آخر من الحملات: ثَني زوجها عن الذهاب إلى ما شعرت بأنه فكّا موت محتوم. فحاولت تدريب دينا على قول كلمات لوالدها بهدف استمالته. فقد كانت دينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً محبوبة والدها، وتعلم السيدة شروف أن ابنها، نوسوان، لا يستطيع تقديم أي مساعدة في هذه المهمة. فإشراكه في الأمر قد يضيّع أي فرصة لتبديل رأي زوجها.

لقد ظهرت نقطة التحول في العلاقة بين الوالد وابنه قبل سبع سنوات من هذا الحدث في ذكرى مولد نوسوان السادسة عشرة. لقد دُعي الأنسباء إلى العشاء، وقال أحدهم: "حسناً، يا نوسوان، ستدرس الطب قريباً على غرار والدك".

"لا أريد أن أصبح طبيباً"، أجاب نوسوان، "سأدخل ميدان الأعمال: استيراد وتصدير".

وأومأ بعض الأنسباء برؤوسهم موافقين، واشمأزّ آخرون وقد بدا على وجوههم امتعاض ساخر. "هل هذا صحيح؟ لا شراكة بين الأب وابنه؟".

قال: "هذا صحيح بالطبع، ابني وابنتي حرّان بالتخصص في ما يسعدهما".

ولكن دينا البالغة من العمر خمس سنوات رأت الأسى على وجه والدها قبل أن يتمكن من إخفائه. فركضت إليه وتسلّقت حضنه قائلةً: "أبي، أريد أن أكون طبيبة، مثلك تماماً، عندما أكبر".

فضحك الجميع وصفّقوا، وقالوا إنّها فتاة ذكية تعرف كيف تحصل على ما تريده. وفي وقت لاحق، همسوا قائلين إن الابن ليس سرّ أبيه؛ فلا طموح لديه، ولا قيمة له.

كررت دينا رغبتها في السنوات التالية، مستمرةً في اعتبار والدها رجلاً عظيماً يكافح المرض، وينجح أحياناً في إبعاد شبح الموت مؤقتاً. كان الطبيب شروف مسروراً بذكاء طفلته. وفي الليالي المخصصة للأهالي في مدرسة معتزل الأخوات، كانت المديرة والمدرّسون يشيدون بها على الدوام، ويعلم الطبيب شروف عِلم اليقين أنها ستنجح إذا أرادت ذلك.

كانت السيدة شروف واثقة أيضاً من أن ابنتها هي الشخص المناسب الذي يتعيّن عليها الاستعانة به في الحملة ضد مخطط زوجها الخيري الجنوني المتمثل بالعمل في قرى غودفورسايكن النائية. ولكن دينا رفضت التعاون؛ لم توافق على الوسيلة الملتوية لإبقاء والدها المحبوب في المنزل.

حينئذٍ، لجأت السيدة شروف إلى طرائق أخرى، غير معتمِدة على المال أو على سلامته الشخصية أو سلامة عائلته لإقناعه، لأنها تعرف أن مصير خطتها سيكون الإخفاق. فعوضاً من ذلك، استنجدت بمرضاه، مدّعيةً أنه يتخلى عنهم، لا سيّما وأنهم مسنّون وضعاف وعاجزون. "ماذا سيفعلون إذا ذهبتَ بعيداً جداً؟ هم يثقون بك ويتكلون عليك. كيف يمكن أن تكون بهذه القساوة؟ لا فكرة لديك عمّا تعنيه بالنسبة إليهم".

"لا، لا أريد الإضرار بهم"، قال الطبيب شروف. كان معتاداً على الحجج الملتوية التي تستخدمها ببراعة بسبب حبها له. وشرح لها بصبر أن هناك عدداً وافراً من الأطباء العامّين في المدينة الذين يمكنهم معالجة آلام وأوجاع متنوّعة، في حين لا يوجد أي طبيب في المنطقة التي سيقصدها. وطمأنها إلى أنها مهمة مؤقتة، وعانقها وقبّلها أكثر من المعتاد. قال: "أعدك بالعودة قريباً، حتى قبل أن تعتادي غيابي".

لكن الطبيب شروف لم يتمكن من الوفاء بوعده. فبعد ثلاثة أسابيع من انطلاق الحملة الطبية توفّي، ليس بسبب التيفوئيد أو الكوليرا بل بسبب عضة كوبرا. ولم يتمكن الترياق المضاد لسمّ الأفاعي من إنقاذ حياته.

تلقّت السيدة شروف النبأ بهدوء. وردّ الناس سبب ذلك إلى كونها زوجة طبيب وأكثر اعتياداً على الموت من الآخرين. واستنتجوا أن الطبيب شروف كان يحمل لها في غالب الأحيان أنباءً مماثلة عن مرضاه، مهيّئاً إيّاها للمحتوم.

وعندما تولت مسؤولية القيام بإجراءات المأتم بحيوية، وتدبّرت القيام بكل شيء بفعالية كبيرة، تساءل الناس عن وجود أمر غير طبيعي في سلوكها. وبين عملية دفع أموال وأخرى من حقيبة يدها، كانت تتقبّل التعازي، وتواسي الأنسباء المحزونين، وتضع قنديل الزيت فوق رأس سرير الطبيب شروف، وتغسل ساريها الأبيض وتكويه، وتتأكد من وجود مخزون من البخور وخشب الصندل في المنزل. لقد زوّدت الطاهية بنفسها بمعلومات عن وجبة الخضار الخاصة لليوم التالي.

بعد انتهاء مراسم الدَّفن التي دامت أربعة أيام كاملة، كانت دينا لا تزال تبكي. وقالت السيدة شروف المنهمكة بتسجيل نفقات مأتم زوجها: "تعالي يا ابنتي، تحلّي بالوعي. ما كان والدك ليحب ما تقومين به". وهكذا، بذلت دينا قصارى جهدها للسيطرة على مشاعرها.

بعد ذلك، واصلت السيدة شروف تحرير الشيك شاردة الذهن، وقالت: "كان باستطاعتك إيقافه لو أردتِ، كان يقيم وزناً لرأيك".

انفجرت دينا بكاءً مرة أخرى بقوة أكبر. وبالإضافة إلى حزنها على والدها، كانت

دموعها تتضمن غضباً حيال والدتها، لا بل كرهاً أيضاً. وتطلّبها الأمر أشـهراً قليلة لتفهم أن ما قيل لا ينطوي على أي سـوء نيّة أو اتهام، ولا يتعدى كونه تفريجاً بسـيطاً وحزيناً عن مكنونات الصدر.

بعد ستة أشهر من وفاة الطبيب شروف الذي كان ركناً يمكن للجميع الاستناد إليه، بدأت السـيدة شـروف تنهار تدريجياً. فانسـحبت من الحياة اليومية، وقلّ اهتمامها بتسـيير شؤون المنزل أو بشخصها.

لم يكن الأمر ذا أهمية كبرى بالنسـبة إلى نوسـوان البالغ من العمر ثلاثة وعشـرين عاماً والمنهمك بالتخطيط لمستقبله. لكن الأمر تتطلب مرور بضع سنوات إضافية لتتمكن دينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً من التأقلم مع فقدان أحد والديها. كانت تفتقد إلى والدها كثيراً، وازدادت حالها سوءاً مع انسحاب والدتها من الحياة الاجتماعية.

* * *

بدأ نوسـوان شـروف بكسـب عيشـه كرجل أعمال قبل عامين من وفاة والده. كان لا يزال أعزب، ويُقيم في المنزل، ويدّخر المال لشراء شقة مناسبة والاقتران بزوجة مناسبة. وبوفاة والده وعُزلة والدته، أدرك أن البحث عن شقة وزوجة لم يعد ضرورياً ومُلحّاً.

فلعب دور رأس العائلة، والوصيّ القانوني على دينا. ووافق كل أنسبائه على الوضع القائم، فأشادوا بقراره غير الأناني، مُقرّين بخطئهم حيال قدراته. واضطلع أيضاً بالشؤون المالية للعائلة، متعهداً بتأمين متطلبات والدته وشقيقته كافةً من ماله الخاص، بالرغم من عِلمه بأنهما ليستا بحاجة إلى دعمه المالي؛ فالمال المتأتي عن بيع عيادة الطبيب شروف كان كافياً.

القرار الأول الذي اتخذه نوسوان بصفته رأس العائلة هو تخفيض عدد الخدَم. فتم الاحتفاظ بالطاهية التي تعمل يومياً بدوام جزئي وتُعدّ الوجبتَين الرئيسـتين؛ وصُرفت من الخدمـة الخادمـة ليلـي المقيمة في المنزل. "لا يمكننا الاسـتمرار في الرفاهية نفسـها كما في السابق"، أوضح، "لا أستطيع تأمين الأجور".

فعبّرت السـيدة شـروف عن ارتيابها من التغيير قائلةً: "من سـيقوم بأعمال التنظيف؟ لم تعد يداي وقدماي بالقوة نفسها كما في السابق".

"لا تقلقي، يا أمي، سنتشاطر الأمر كلنا. يمكنك القيام بالأمور السهلة كإزالة الغبار عن الأثاث. ويمكننا غسل أكوابنا وأطباقنا الخاصة بالطبع. ودينا فتاة صغيرة مليئة بالنشاط، والاعتناء بالمنزل مفيد لها. علّميها كيفية القيام بذلك".

"أجل، ربما أنت مُحق"، قالت السيدة شروف، غير مقتنعة تماماً بالحاجة إلى تلك التدابير لادّخار المال.

ولكن دينا كانت تعرف أن هناك أسباباً إضافية. ففي الأسبوع السابق، وفي أثناء مرورها بالمطبخ في طريقها إلى الحمّام بعد منتصف الليل، لاحظت وجود شقيقها مع الخادمة ليلي في وضع مشين. فزحفت بعد ذلك عائدةً إلى السرير من دون دخول الحمّام، وقد احمرّت وجنتاها. ولكن، لا بد من أنها تمهّلت قليلاً في المغادرة لأن نوسوان رآها.

لم يتم التطرق إلى الأمر قطّ. وغادرت ليلي (مع مكافأة متواضعة لم تعرف السيدة شروف بها)، دامعةً ومعلنةً أنها لن تجد مجدداً عائلة لطيفة مماثلة لتعمل لديها. وشعرت دينا بالأسف على حالها، ولكنها كانت تكرهها أيضاً.

بعد ذلك، طُبّقت التدابير الأُسرية الجديدة، وبذل الجميع جهوداً صادقة. لقد بدت خبرة الاعتماد على الذات مسلّية. "الأمر أشبه بالذهاب للتخييم"، قالت السيدة شروف.

"هذا هو جوهر الأمر"، قال نوسوان.

مع مرور الأيام، بدأت مهام دينا الروتينية تزداد. ولكن نوسوان استمر في غسل كوبه، وصحن الكوب، وطبق الفطور، قبل الذهاب إلى العمل، وذلك عملاً بمبدأ المشارَكة. عدا عن ذلك، لم يكن يقوم بأي شيء.

ذات صباح، وبعد ابتلاع جرعة الشاي الأخيرة، قال: "لقد تأخرتُ اليوم كثيراً. رجاءً، اغسلي أغراضي".

"لست خادمتك! اغسل أطباقك القذرة بنفسك!". وطفح الكيل بعد أسابيع من الامتعاض المكبوت. "قلتَ إننا سنقوم بأعمالنا الخاصة! ولكنك تترك كل أغراضك النتنة لي!".

"استمعوا إلى النَّمِرة الصغيرة"، قال نوسوان ضاحكاً.

"يجب عليك عدم التحدث إلى شقيقك الأكبر على هذا النحو"، قالت السيدة شروف بلطف، مؤنِّبة، "تذكّري، يجب علينا أن نتشاطر الأعمال بالطريقة نفسها".

"إنه يغشّ! هو لا يقوم بأي عمل! أنا أقوم بكل شيء!".

وعانق نوسوان والدته قائلاً: "إلى اللقاء، يا أمي"، وربّت على كتف دينا بوِدّ استرضاءً لها، ولكنها رفضت الأمر. "ما زالت النَّمِرة غاضبة"، قال، وغادر إلى المكتب.

حاولت السيدة شروف تهدئة دينا، واعدةً إيّاها بمناقشة الأمر مع نوسوان في وقت لاحق وإقناعه ربما بالاستعانة بخادمة بدوام جزئي، ولكن عزمها تلاشى في غضون ساعات. واستمرت الأمور كما في السابق. وبمرور الأسابيع، وبدلاً من إحلال العدل

في المنزل، بدأت تُضيف إلى لائحة ابنتها المتزايدة باستمرار عملاً تِلوَ الآخر.

بلغت السيدة شروف حالةً يتعيّن فيها إعلامها بما يجب عليها القيام به. فعندما يوضع الطعام أمامها، كانت تتناوله من دون أن يفيدها بشيء لأنها تستمر في فقدان الوزن. ويجب تذكيرها بوجوب الاستحمام وتغيير ملابسها. وهي لا تنظّف أسنانها إلا عندما يعُصَر معجون الأسنان ويسلَّم إليها على الفرشاة. بالنسبة إلى دينا، إن مساعدة والدتها على غسل شعرها هي المهمة الأكثر إزعاجاً بالنسبة إليها؛ إذ تسقط خصل على أرض الحمّام، ويسقط المزيد عندما تمشّطه لها.

كانت السيدة شروف تَحضر الصلوات المرفوعة لراحة نفس زوجها مرة واحدة في الشهر، وتقول إن سماع نغمات رجل الدين فرامجي المُسنّ المهدّئة والمتضرّعة يحملها على الشعور براحة كبيرة. كانت دينا تتغيّب عن المدرسة لمرافقة والدتها مخافة أن تضلّ الطريق.

وقبل بدء الاحتفال الديني، يصافح فرامجي السيدة شروف بتملّق، ويعانق دينا طويلاً كما يعانق الفتيات والشابات. لقد أكسبته شهرته في المعانقة بقوة والتربيت بحنان عدوانية زملائه الذين لا يمتعضون من أفعاله بقدر امتعاضهم من افتقاره إلى التهذيب، ورفضه إضفاء طابع الاهتمام الأبوي أو الروحي على معانقاته. كانوا يخشون من أن يذهب بعيداً بتصرّفاته ذات يوم ويتخطى حدود اللياقة أو ما شابه، ويُلحق بهم العار.

كانت دينا تتلوّى في أثناء قيامه بمعانقتها والتربيت على رأسها، وفرك عُنُقها، وتمسيد ظهرها، وضمّها إليه بقوة. كما أن لحيته قصيرة جداً وشُعيراتها القاسية مماثلة لنُدفات جوز الهند المبشورة، مما يؤلم خدَّي دِينا وجبينها. فيقوم بإفلاتها عندما تستجمع شجاعة كافية لانتزاع جسدها من بين ذراعيه.

بعد الاحتفال الديني كانت دينا تمضي بقية اليوم محاولةً حمل والدتها على التكلم، فتطلب النُّصح منها في شأن المنزل أو وصفات الطهو. وعندما كانت تفشل في ذلك، كانت تسألها عن والدها وعن حياتهما عندما كانا متزوّجين حديثاً. وبمواجهة صمت والدتها الحالمة، شعرت دينا بالعجز. وبعد فترة قصيرة، تراجعت حدة قلقها على والدتها بسبب فِطرة الشباب؛ ستحصل بالتأكيد على نصيبها من الحزن والأسى في الوقت المناسب، ولا حاجة إلى حمل العبء قبل الأوان.

كانت السيدة شروف تنطق كلمات أحادية المقطع أو تُطلق تنهدات، محدّقةً إلى وجه دينا ومنتظرةً الإجابات. وفي ما يتعلق بإزالة الغبار عن الأثاث، فإن كل ما تقوم به هو مسح الإطار الذي تظهر فيه صورة تخرّج زوجها، وتمضي معظم وقتها محدّقةً إلى

خارج النافذة.

كان نوسوان يفضّل اعتبار انهيار والدته نكرانَ أرملةٍ لذاتها. فهي تضع اهتمامات الحياة جانباً للتركيز على المسائل الروحية. وركز انتباهه على تربية دينا. كانت المسؤولية الضخمة المُلقاة على عاتقه تقلقه باستمرار.

لقد اعتُبر والدُه على الدوام مربّياً صارماً؛ كان مَهيباً ويخشاه قليلاً. وإذا أراد أن يحلّ مكانه، يتعيّن عليه زرع الخوف عينه في نفوس الآخرين، وكان يصلّي بانتظام مستلهماً الشجاعة والتوجيه في مهمته. وأسرّ للأنسباء - الأعمام والأخوال والعمات والخالات - بأن تمرّد دينا، وعنادها، يقودانه إلى الجنون، وقدرة العليّ وحدها تمنحه القوة للقيام بواجبه.

لقد أثّر إخلاصه فيهم. "لا تقلق، يا نوسوان، كل شيء سيكون بخير. سنضيء شمعة في دار العبادة لأجلك".

ومتشجِّعاً بدعمهم، بدأ نوسوان باصطحاب دينا معه إلى دار العبادة مرة في الأسبوع. هناك، كان يحمل عصا من خشب الصندل بيده ويهمس بأُذُنها بحدة: "الآن اطلبي من داداجي أن يجعلك فتاة صالحة، اطلبي منه أن يجعلك مطيعة".

وفي أثناء انحنائها، كان يسير على امتداد الجدار الخارجي الذي يحمل صوراً لكبار رجال الدين، فيمرّ أمام كل صورة، لامساً أكاليل الزهر، ومعانقاً الأطر، ومقبّلاً الزجاج، وصولاً إلى الصورة الطويلة لزاراتوسترا، فيُلصق شفتَيه عليها طوال دقيقة من الزمن. بعد ذلك، يأخذ قليلاً من الرماد من وعاء موضوع عند المدخل، ويضع قسماً منه على جبينه، وقسماً آخر على حَلقه، ويفك الزرَّين العُلويَّين لقميصه ليمسح صدره بما تبقّى.

كالبودرة المعطِّرة المطريّة للجِلد، قالت دينا لنفسها وهي تراقب من طرَف عينها، منحنيةً وباذلةً الجهد للامتناع عن الضحك. لم ترفع رأسها حتى فرغ من حركاته المضحكة.

"هل مارستِ الطقوس بالطريقة الصحيحة؟"، سأل عندما خرجا.

فأومأت برأسها.

"جيد. الآن، ستغادر كل الأفكار السيئة رأسك، وستشعرين بالسلام والهدوء في قلبك".

لم يعد يُسمح لدِينا بتمضية الوقت في منازل صديقاتها في أثناء أيام الإجازات. "لا حاجة إلى ذلك"، قال نوسوان، "فأنت ترينهنّ كل يوم في المدرسة". كان باستطاعتهنّ زيارتها بعد أن يمنحهنّ الإذن، ولكن الأمر لم يعُد مسليّاً بسبب مكوثه في المنزل طوال

الوقت.

ذات مرة، سمعها تسخر من أسنانه مع صديقتها زنوبيا في الغرفة المجاورة. ولم يؤدِّ ذلك إلا إلى تعزيز اعتقاده بأن الشريرتَين الصغيرتين تحتاجان إلى مراقبة. لقد قالت زنوبيا إنه يبدو كجواد.

"أجل، جواد مع طقم أسنان اصطناعية بخسة الثمن"، أضافت دينا.

"سيكون الفيل فخوراً بهذا المقدار من العاج"، أضافت زنوبيا، رافعةً الرهان.

كانتا عاجزتَين عن التوقف عن الضحك عندما دخل الغرفة. ورمق كلاًّ منهما بنظرة عابسة قبل المغادرة ببطء مهدِّد، مخلّفاً وراءه صمتاً وتعاسة. أجل، لقد نجح الأمر، قال لنفسه متفاجئاً مع شعور بالانتصار، لقد نجح الترهيب.

كان نوسوان حساساً على الدوام حيال أسنانه السيّئة، وحاول في السنوات الأخيرة من سنّ المراهقة تقويمها. وكانت دينا البالغة من العمر آنذاك ستة أو سبعة أعوام تغيظه بلا رحمة. ولكن العلاج الذي خضع له لتقويمها كان مؤلماً جداً، فتخلّى عن الأمر، متذمّراً بأنه من المستغرَب عدم الاهتمام بحالته في طفولته بالرغم من كون والده طبيباً. كان يشير إلى فم دينا المثالي كدليل على تفضيل ابن على آخر.

ومع شعورها بغمّ كبير، حاولت والدتهما شرح الأمر: "الذنب ذنبي، يا ابني. لم أكن أعلم أنه يُفترض تدليك أسنان الأطفال يومياً وضغطها نحو الداخل برِفق. لقد علّمتني الممرضة المسنّة عند ولادة دينا الخِدعة، ولكن الأوان كان قد فات بالنسبة إليك".

لم يقتنع نوسوان قطّ. وبعد مغادرة صديقة دينا، دفعت شقيقته الثمن. لقد طلب منها تكرار ما قالته، فامتثلت بشجاعة.

"طالما اعتدتِ نطق كل ما يتبادر إلى ذهنك بلسانك غير المنضبط ومن دون تفكير. ولكنك لم تعودي طفلة. على أحدهم أن يعلّمك الاحترام"، وتنهّد، "من واجبي تعليمك ذلك، كما أفترض". وبدأ بصفعها من دون سابق إنذار، ولم يتوقف إلا عندما جرح شفتها السفليّة.

"أيها الحيوان!"، قالت باكية، "أردتني أن أبدو قبيحة مثلك!". حينئذٍ، تناول مسطرة ووجّه إليها ضربات قوية أينما تمكّن من تسديدها خلال ركضها في الأرجاء، محاولةً الفرار.

فلاحظت السيدة شروف للمرة الأولى وجود خَطب ما وسألت: "لماذا تبكين يا ابنتي؟".

"إنه دراكولا الأحمق ذاك! لقد ضربني وجعلني أنزف!".

"هدّئي من روعك، يا صغيرتي المسكينة". وعانقت دينا، وعادت إلى مقعدها بجانب النافذة.

بعد يومين من الشجار، حاول نوسوان إحلال السلام مع دينا من خلال شراء مجموعة من الشرائط لها. خاطبها قائلاً: "ستبدو جميلة على ضفيرتيك".

فتناولت حقيبتها المدرسية، وأخرجت المقص الخاص بالحِرف اليدوية الفنية، وقصّت الشرائط إلى قطع صغيرة.

"انظري، يا أمي!"، قال وهو دامع العينَين، "انظري إلى ابنتك الحقودة! أُنفق عليها مالي الذي أكسبه بمشقة، وهذا هو شكرها لي".

أصبحت المسطرة أداة نوسوان في سعيه إلى فرض الانضباط، وكانت ملابسه السبب الرئيس لمعاقبة دينا. فبعد غسلها، وكيّها، وطيّها، يتعيّن عليها وضعها فوق بعضها في أربع مجموعات منفصلة في خزانة ملابسه: قمصان بيضاء، قمصان ملوّنة، سراويل بيضاء، سراويل ملوّنة. أحياناً، كانت تضع على نحو استراتيجي قميصاً مقلَّماً بخطوط رفيعة مع القمصان البيضاء، أو قطعة قماش ذات نقوش مربَّعة بين السراويل البيضاء. وبالرغم من الضرب، لم تكلّ قطّ من إثارة غضبه.

"بطريقة تصرّفها، أشعر بأن الشرير نفسه يسكن قلبها"، كان يقول بسأم للأنسباء الذين يسألونه عن المستجدات، "ربما يُفترض بي نقلها إلى مدرسة داخلية".

"لا، لا، لا تقم بتلك الخطوة الجذرية"، كانوا يجيبونه مناشدين، "لقد تسببت المدرسة الداخلية بتدمير حياة العديد من الفتيات الزِرادشتيات. كن على ثقة بأنك ستكافأ على صبرك وتفانيك. وستشكرك دينا أيضاً عندما تكبر بما يكفي لتفهم أن ما تقوم به هو لصالحها". ويغادرون بعد ذلك، متمتمين بأن الرجل صالح؛ كل فتاة تحظى بشقيق مثل نوسوان تكون سعيدة الحظ.

مستعيداً ثقته بنفسه بعد تلقّيه جرعة من التشجيع، يواظب نوسوان على سلوكه السابق، فكان يشتري لها كل ملابسها، مقرّراً بنفسه ما يلائم فتاة صغيرة. ولكن المشتريات لم تكن على مقاسها في العادة لأنه لم يكن يُسمح لها بأن تكون موجودة خلال التسوّق. "لا أريد جدالات مُتعبة بحضور صاحب المتجر"، قال، "أنت تُحرجينني على الدوام". وعندما تكون بحاجة إلى بذلة رسمية، كان يرافقها إلى المدرسة يوم قدوم الخياطين للإشراف على القياسات. ويمتحن الخياطين في شأن الأسعار والأقمشة، محاولاً اكتشاف العمولة التي تحصل عليها المديرة. كان هذا الحدث السنوي يوقع الرهبة في نفس دينا، متسائلةً عن الإذلال الذي ستشعر به أمام زميلات صفها.

أرادت ذات مرة قص شعرها على غرار كل صديقاتها، فتوسّلت إلى نوسوان للسماح لها بالحصول على الامتياز نفسه. "إذا سمحتَ لي بقص شعري، سأمسح غرفة الطعام كل يوم بدلاً من مسحها بشكل دَوري"، قالت لشقيقها، محاولةً المساومة، "أو يمكنني تلميع حذائك كل ليلة".

"لا"، قال نوسوان، "أنت في الرابعة عشرة من العمر ولا تزالين صغيرة جداً على قصات الشعر المزركشة. الضفائر مناسبة لك. كما أنني لا أستطيع تحمّل تكلفة مصفّف الشعر". ولكنه أضاف من دون تأخير تلميع الأحذية إلى لائحة مهامها الروتينية.

بعد أسبوع من مناشدتها الأخيرة، لفّت دينا ضفيرتَيها في حمّام المدرسة على صورة حلقة بمساعدة زنوبيا. كانت هذه الأخيرة تطمح إلى أن تصبح مصفّفة شعر، ووجدت في رأس صديقتها فرصة جيدة للتدريب. "لنقصّ كل هذا الشعر"، قالت، "لنقصّره".

"هل أنت مجنونة؟"، قالت دينا، "سيقفز نوسوان إلى القمر". لذلك، اتفقتا على تسريحة إسدال الشعر حتى الكتفَين، وشذّبت زنوبيا شعر دينا بمقدار بوصة واحدة فوق كتفَيها. لقد بدا غير مستوٍ، ولكن الفتاتَين سُرَّتا بالنتيجة.

ترددت دينا حول رمي الضفيرتين في صندوق القمامة، فوضعتهما في حقيبتها المدرسية، وعادت إلى البيت مُسرعة. وتنقلت بفخر في أرجاء المنزل، ومرّت تكراراً أمام المرايا المتعددة لإلقاء نظرة سريعة على رأسها من زوايا مختلفة. وقصدت بعد ذلك غرفة والدتها وانتظرت... بهدف مفاجأتها، أو إسعادها، أو أي شيء آخر. ولكن السيدة شروف لم تلاحظ شيئاً.

"هل تُعجبك تسريحة شعري الجديدة، يا أمي؟"، سألت أخيراً.

فحدّقت السيدة شروف بوجه خالٍ من التعبير قائلةً: "إنها جميلة جداً، يا ابنتي، جميلة جداً".

عاد نوسوان إلى المنزل في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم. فسلّم على والدته، وقال إن مقداراً كبيراً من العمل كان في انتظاره في المكتب. ومن ثم رأى دينا، فأخذ نفساً عميقاً، ووضع يده على جبينه. وبسبب شعوره بالإرهاق، تمنى وجود طريقة ما للتعاطي مع الأمر من دون الدخول في نزاع آخر. ولكن، لم يكن بالإمكان عدم معاقبتها بسبب وقاحتها وتحدّيها له، وإلا فكيف سينظر إلى نفسه في المرآة؟

"رجاءً، تعالي إلى هنا، يا دينا. اشرحي لي سبب قيامك بمخالفة أوامري".

فحكّت عُنقها حيث توجد قُصاصات شعر بالغة الصغر وقالت: "كيف خالفتُ أوامرك؟".

صفعها قائلاً: "لا تطرحي عليّ أي سؤال عندما أسألك".

"قلتَ إنه ليس باستطاعتك تحمّل تكلفة قص شعري. كان الأمر مجانياً. لقد قصصته بنفسي".

صفعها مجدداً: "لا تقللي من احترامي، أنا أحذرك". حمل المسطرة، وضربها بناحيتها المسطحة على راحتَي يدَيها، ومن ثم على براجمها بحافة المسطرة لأنه اعتبر سلوكها مهيناً إلى حدٍّ كبير. "هذا سيعلّمك كيف تبدو المرأة الفاجرة".

"هل رأيتَ شعرك في المرآة؟ أنت تبدو كمهرّج". قالت، رافضةً الترهيب.

فقصة شعر نوسوان، برأيه الخاص، تعبّر عن أناقة محترَمة. كان لديه فرق في الوسط، والشعر يبدو مرتّباً من جانبيَه على نحو مهيب، ويضع عليه مرهماً عطريًّا. لقد أثار استهزاءُ دينا غضبَ المربّي. فوجّه إليها ضربات على رَبلتَي ساقَيها وذراعَيها، واصطحبها إلى الحمّام حيث بدأ بتمزيق ملابسها.

"لا أريدك أن تتفوّهي بأي كلمة أخرى! أي كلمة! اليوم، لقد تخطّيتِ الحدود! استحمّي أولاً، أيتها المخلوقة الملوَّثة! اغسلي قُصاصات الشعر تلك قبل أن تنثريها في مختلف أنحاء المنزل وتجلبي لنا الحظ العاثر!".

"لا تقلق، سيخيف وجهك أي حظ عاثر على أيّ حال". كانت تقف عارية على البلاط، ولكنه لم يغادر. قالت: "أنا بحاجة إلى مياه ساخنة".

فتراجع إلى الوراء، ورمى ملء إبريق من الماء البارد عليها من الدلو. فبدأت بالارتجاف وحدّقت إليه بتحدٍّ.

ثم استدارت وبدأت بالبكاء، ويداها على وجهها.

غادر، راضياً عن سلوكها. ولفتت حقيبتُها المدرسية الموضوعة على سريرها انتباهَه. ففتحها لتفتيشها، وعثر على الضفيرتين في الأعلى. فدلّى إحداهما بين إبهامه وسبّابته، وصرّ على أسنانه قبل أن تهدّئ ابتسامةٌ ملامح الغضب على وجهه ببطء.

عندما أنهت دينا استحمامها، أحضر لفافة شريط بلاستيكي لاصق أسود وألصق ضفيرتَيها بشعرها وقال: "ستضعينهما على هذا النحو، كل يوم، وإلى المدرسة أيضاً، حتى ينمو شعرك مجدداً".

فتمنّت لو أنها رمتهما في حمّام المدرسة. لقد بدتا كما لو أنهما جرذان نافقان متدلّيان من رأسها.

في صباح اليوم التالي، أخذت لفافة الشريط اللاصق إلى المدرسة سرّاً. ونزعت الضفيرتين قبل دخول الصف. كان الأمر مؤلماً بوجود شريط لاصق أسود مشدود بإحكام.

وبعد انتهاء المدرسة، قامت بتثبيتهما بمساعدة زنوبيا. بهذه الطريقة، تجنّبت عقاب نوسوان اليومي.

لكـن، بعـد أيـام قليلـة، حدثت أعمال شـغب في المدينة غداة تقسـيم البلاد ورحيل البريطانييـن، وعلقـت دينـا فـي المنـزل مع نوسـوان. كان هناك حظر للتجـوّل نهاراً وليلاً فـي كل حـيّ. وبقيت المكاتب، والمؤسسـات، والكلّيات، والمـدارس مقفَلة. وهكذا، لم تتمكن دينا من التخلص من الضفيرتين البغيضتين. لقد سمح لها شقيقها بنزعهما في أثناء الاستحمام فقط، وكان يراقب عملية إعادة ربطهما بعد انتهائها على الفور.

وباضطراره إلى البقاء داخل المنزل، أسـف نوسـوان على الكارثة التي حلّت بالبلد، متأففـاً باسـتمرار. "كل يـوم يمـرّ وأنـا جالـس فـي المنزل أخسـر مالاً. هـؤلاء الهمجيون الحقيـرون الجاهلـون لا يسـتحقون الاسـتقلال. إنهم يقطّعون بعضهم إرَبـاً إرَباً، أتمنى لو أنهـم يذهبـون إلـى مـكان آخـر ويقومون بالأمـر بهدوء في قراهم ربمـا، ومن دون إزعاج مدينتنا المحبوبة الواقعة بجانب البحر".

عندما رُفع حظر التجوّل، انطلقت دينا إلى المدرسة بأقصى سرعة، سعيدة كعصفور أُطلـق مـن قفصـه، ومتلهّفـة لتمضية ثماني سـاعات بعيداً عن نوسـوان. وشـعر هو الآخر بالارتيـاح بسـبب عودتـه إلـى مكتبه. وفي مسـاء اليوم الأول من عـودة المدينة إلى الحياة الطبيعيـة، عـاد إلـى المنـزل بمزاج مبتهج وقـال: "انتهى حظر التجـوّل، وانتهت عقوبتك. يمكننا رمي ضفيرتيك الآن"، ثمّ أضاف: "أتعلمين؟ الشعر القصير يناسبك تماماً".

فتـح حقيبتـه، وأخـرج عصابة شـعر جديـدة. "يمكنك وضعها على شـعرك بدلاً من الشريط البلاستيكي اللاصق"، قال ممازحاً.

"ضعها على شعرك"، قالت، رافضةً أخذها.

* * *

بعد ثلاث سـنوات على وفاة والده، تزوج نوسـوان. وبعد أسـابيع قليلة، انسـحبت والدته من الحياة تماماً. كانت تطيع قبل ذلك التوجيهات - انهضي، تناولي الشاي، اغسلي يديك، ابتلعي دواءك - ولكنها أصبحت وكأنّها جدار؛ إذ لم تكن تفهم شيئاً.

فاقت مهمة الاعتناء بها قدرة دينا على ذلك. وعندما يصعب تجاهل الرائحة المنبعثة من غرفة السـيدة شـروف، كان نوسـوان يتطرّق إلى الموضوع مع زوجته بخجل. لم يكن يجرؤ على طلب المسـاعدة منها بشـكل مباشَـر، ولكنه أمل أن يحثّها مزاجها الجيد على التطوع. "يا عزيزتي روبي، يزداد حال والدتي سوءاً. هي بحاجة إلى قدر كبير من الاهتمام

باستمرار".

قالت روبي: "ضعها في دار للعجزة، ستكون أفضل حالاً هناك".

فأومأ برأسه مطيِّباً خاطرها، واتخذ خطوة أقل تكلفة وأكثر إنسانية من شحن والدته إلى مصنع الشيخوخة - كما يقول بعض الأنسباء القساة - واستعان بخدمات ممرضة بدوام كامل.

كانت مهمة الممرضة قصيرة الأمد؛ فلقد توفيت السيدة شروف في وقت لاحق من ذلك العام، وفهم الناس أخيراً أن حزنها على الطبيب أفقدها الرغبة في الحياة. لقد توفيت على غرار زوجها في اليوم ذاته من روزنامة شاهنشاهي. وكان فرامجي يقيم الصلوات على روحَيهما، وعلى التوالي، في دار العبادة نفسها. لقد تعلّمت دينا كيفية تجنّب فخ معانقاته الودودة بشكل مفرط. فعندما كان يقترب منها، كانت ترفع يداً لمصافحته وتعود خطوة إلى الوراء، وتستمر في التراجع. وبعد وقت قصير من تعقّبها في أرجاء المكان وسط المباخر الكبيرة التي تحتوي على خشب الصندل المشتعل، كان يبتسم على نحو مرتبك ويتخلى عن مطاردتها.

بعد الشهر الأول من الصلوات التي رُفعت لراحة نفس السيدة شروف، قرر نوسوان أنه لا فائدة من انتساب دينا إلى الجامعة. لم يكن التقرير المدرسي الأخير مشجِّعاً، ولو لم تفضّل المديرة الوفيّة لذكرى الطبيب شروف اعتبار العلامات زلّة عابرة، لأبقتها في صفها.

قال نوسوان: "إن قيام الآنسة لامب بترفيعك صفاً بادرة لطيفة من قِبلها. ولكن، يبقى واقع أن علاماتك ميؤوس منها. لن أبذّر المال على نفقات عام مدرسي آخر".

"تحملني على التنظيف والفرك طوال الوقت. لا أتمكن من الدرس ولو لساعة واحدة في اليوم! ماذا تتوقع؟".

"لا تبتدعي أعذاراً. شابة قوية تقوم بالأعمال المنزلية ما علاقة ذلك بالدرس؟ هل تعرفين كم أنت محظوظة؟ هناك آلاف الأولاد الفقراء في المدينة يلمّعون الأحذية عند محطات سكك الحديد، أو يجمعون الأوراق، والقناني، والأواني البلاستيكية ويرتادون المدرسة في الليل. وها أنت تتذمّرين؟ ما ينقصك هو الرغبة في العِلم. كفاك ذهاباً إلى المدرسة".

لم تكن دينا راغبة في التسليم بالأمر من دون نضال. لقد أملت أن تتدخّل زوجة نوسوان لصالحها، ولكن روبي فضّلت البقاء خارج الشجار. وعندما أُرسلت في صباح اليوم التالي إلى السوق مع لائحة بمستلزَمات المنزل، ركضت دينا إلى منزل جدها.

كان الجد يُقيم مع أحد أعمامها في غرفة تفوح منها رائحة بَلسم غير مستساغ.

فحبست أنفاسها وعانقته، وروت له ما تواجهه من مشاكل بدَفق من الكلمات: "رجاءً، يا جدي! رجاءً، قل له أن يتوقف عن معاملتي بهذه الطريقة!".

كان الجد على وشك الإصابة بالخَرَف، وتطلّبه الأمر بعض الوقت ليدرك صلته بدينا، وتاق إلى فهم ما تريده. لم يكن يضع طقم أسنانه الاصطناعية، مما جعل حلّ رموز كلماته صعباً. سألته: "هل أُحضر لك طقم أسنانك يا جدي؟".

"لا، لا، لا!"، ورفع يدَيه وهزّهما بحدّة، "لا أسنان. كلها ملتوية وتؤلم الفم. طبيب أسنان غبي، لا طائل منه. يمكن لنجّاري أن يصنع أسناناً أفضل".

كررت كل شيء ببطء، وفهم أخيراً الموضوع. "المدرسة؟ من، أنت؟ بالطبع، يجب أن ترتادي الكلّية. بالطبع. بالطبع. يجب أن ترتادي الكلّية. أجل، بالطبع، سأطلب من ذلك النَّذل الوقح أن يرسلك، سآمر نوزر ذاك. لا، نفيل، أقصد نوسوان، أجل، سأُجبره على القيام بذلك".

أرسل خادماً مع رسالة يطلب فيها من نوسوان القيام بزيارته في أقرب وقت ممكن. لم يستطع نوسوان الرفض؛ كان لرأي العائلة أهمية كبيرة بالنسبة إليه. وبعد تأجيل الزيارة أياماً عدة بسبب كثرة العمل في مكتبه، كما ادّعى، ذهب واصطحب معه روبي لتكون حليفاً له. لقد طُلب منها تملّق الرجل العجوز بأي طريقة ممكنة.

كان الجد قد فقد مزيداً من ذاكرته منذ زيارة دينا، ولم يتذكر أي شيء من حديثهما. كان يضع طقم أسنانه هذه المرة، ولكن لم يكن لديه الكثير ليقوله. وبعد بذل جهد لاسترجاع الذكريات، تمكن من معرفتهما كما يبدو. وبعد ذلك، وبتجاهل روبي تماماً، قرر بشكل مفاجئ أن نوسوان ودينا زوج وزوجة. ورفض التخلي عن هذا الاعتقاد بالرغم من قيام روبي بملاطفته ومداهنته.

فجلست روبي على الأريكة ممسكةً بيد العجوز. وسألته عما إذا كان يرغب في تدليك قدمَيه. ومن دون انتظار الجواب، أمسكت قدمه اليسرى وبدأت بتدليكها. كانت أظفاره صفراء طويلة، وقد فات موعد تقليمها.

ولكنه انتزع قدمه من قبضتها غاضباً: "ماذا تفعلين على أريكتي؟ انتظري في المطبخ!".

مُجفَلة بسبب مخاطبتها باللغة الهندية، جلست روبي هناك محدّقة بفم فاغر. فالتفت الجد إلى نوسوان. "ألا تفهم؟ بأي لغة تتحدث خادمتك؟ اطلب منها النهوض عن أريكتي والانتظار في المطبخ".

نهضت روبي مستاءة، ووقفت بجانب الباب. "عجوز فظّ!"، قالت مهمهسة، "كل

ذلك لأن بشرتي قاتمة قليلاً!".

ألقى نوسوان تحيّة الوداع بصوت أجشّ وتبع زوجته، وتوقف، واستدار، ونظر إلى دينا بزهوّ الانتصار. كانت تحاول معالجة حالة الفوضى هذه. وبقيت وراءه، آملةً أن يستجمع جدها بعض ذكرياته وينقذها. وبعد ساعة من الزمن، تخلّت عن محاولاتها، وقبّلت جبينه، وغادرت.

كانت المرة الأخيرة التي رأته فيها على قيد الحياة. لقد توفّي في أثناء نومه في الشهر التالي. في الجنازة، تساءلت دينا عن الطول الذي بلغته أظفار الجدّ تحت الملاءة التي تحجب كل شيء عن الأنظار باستثناء وجهه.

* * *

طوال أربع سنوات، قام نوسوان بادّخار المال لأجل تغطية نفقات زفاف دينا. لقد جمع مبلغاً كبيراً، وخطط لتزويجها في المستقبل القريب. كان على ثقة تامة بأنه لن يجد صعوبة في العثور على زوج صالح. لقد أصبحت دينا شابة جميلة ولا تستحق أقل من الأفضل، كما قال لنفسه بفخر. سيكون احتفالاً سخيّاً يليق بشقيقة رجل أعمال ناجح، وسيتحدث الناس عن الأمر لمدة طويلة من الزمن.

عندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها، بدأ بدعوة عُزّاب لائقين إلى منزلهم. كانت دينا تجدهم مثيرين للاشمئزاز على الدوام لأنهم أصدقاء شقيقها، وكل ما يقولونه ويفعلونه يذكّرها بنوسوان.

كان نوسوان على ثقة بأنها ستقابل شخصاً يُعجبها عاجلاً أم آجلاً. ولم يعُد يضع قيوداً على خروجها وقدومها، لقد كبرت على عمليات المراقبة تلك، وساد الهدوء النسبي المنزل ما دامت تقوم بالأعمال المنزلية والتسوّق اليومي وفقاً للائحة روبي. وإذا حدثت شجارات، فتكون بين روبي ودينا لأن نوسوان فوّض زوجته للقيام بهذه المهمة.

في السوق، كانت دينا تبادر إلى الاستيعاض عن القنبيط بالملفوف، أو تشعر بحنين فجائي إلى الشيكو وتشتريها بدلاً من البرتقال. ولا تتوانى روبي عن اتهامها بتخريب الوجبات المخطط لها بعناية: "امرأة شريرة وماكرة تخرّب عشاء زوجي". كانت تُلقي التُّهم وتُصدر الأحكام بطريقة تلقائية لأن هذا الأمر جزء من دورها كزوجة مطيعة.

لكن الشجارات والمحاججات لم تكن تحدث بينهما باستمرار. لقد باتت المرأتان تعملان معاً بودّ أكبر. ومن الأغراض التي أحضرتها معها روبي بعد زواجها آلة خياطة مع ذراع تدوير يدويّة. فعلّمت دينا كيفية استخدامها وصنع أغراض صغيرة كأغطية الوسادات،

وملاءات الأسرة، والستائر.

عندما وُلد طفل روبي الأول الذي دُعي كزرسس، ساعدت دينا على الاهتمام به. فخاطت ملابس أطفال، وحاكت قلنسوات وكنزات صوفية صغيرة، وأعدّت له جورباً محبوكاً بمناسبة ذكرى مولده الأولى. في صباح ذلك اليوم السعيد، قاموا بتزيين كزرسس بأكاليل من الورود والزنبق.

"كم هو جميل!". قالت دينا ضاحكةً بسرور كبير.

"وهذا الجورب الذي أعددتِه ظريف جداًا!"، قالت روبي معانقةً إيّاها.

ولكن، لم يكن يوم واحد يمرّ تقريباً من دون جدال. فبعد قيام دينا بإنهاء أعمالها الروتينية، كانت تفضّل تمضية أكبر قدر من الوقت خارج المنزل. ولكن مواردها المالية للقيام بنزهات اقتصرت على ما يمكنها ادّخاره من مال التسوّق. كان ضميرها مرتاحاً في هذا الشأن لأنها تعتبر هذا الادّخار جزءاً من أجرها لقاء العمل الشاق الذي تقوم به، ويكاد يكون جزءاً صغيراً مما يدينون لها به.

وطلبت روبي كشف حساب على عملية التسوّق الأخيرة قائلةً: "أريد رؤية الفواتير والإيصالات لكل غرض". وضربت طاولة المطبخ بقوة بقبضة يدها، مما جعل غطاء المقلاة يصدر صوتاً.

"منذ متى تعطي بائعات السمك والخضار على الرصيف إيصالات؟"، أجابت دينا بحدة، راميةً لها كل فواتير المبيعات من المتجر، إضافةً إلى الفكة التي تحتفظ بها بعد التلاعب بالأسعار غير الموثّقة. وغادرت المطبخ في أثناء قيام زوجة أخيها بالتقاط قطع النقود عن الأرض وعدّها.كانت المدّخرات كافية لدفع أجرة حافلة. لذا، كانت دينا تذهب إلى المتنزهات العامة، وتجوب المتاحف والأسواق، وتزور دور السينما (من الخارج فقط للنظر إلى الملصقات)، وتغامر بدخول المكتبات العامة بخجل. فالرؤوس المنحنية فوق الكتب تجعلها تشعر بأنها في المكان غير المناسب؛ يبدو الجميع هناك على درجة عالية من الثقافة، في حين أنها لم تخضع لامتحان دخول إلى الكلية.

لقد زال هذا الانطباع عندما أدركت أن مادة القراءة الموجودة بين أيدي هؤلاء الأفراد المهمين يمكن أن تتراوح بين مخطوط لا يمكن لفظه مثل أريوباجيتيكا لجون ميلتن وذي إيللاسترايتد ويكلي أوف إينديا. في النهاية، أصبحت غرف القراءة القديمة والكبيرة بسقوفها المرتفعة، وألواحها الأرضية التي تُحدث صريراً، وألواحها التزيينية القاتمة، ملاذَها المفضَّل. وكانت مراوح السقف الفخمة المتدلية تدفع الهواء بقوة وبطريقة تبعث على الراحة، والكراسي الجلدية المريحة، والروائح العفِنة، وحفيف تقليب الصفحات،

ذات مفعول مهدّئ. والأفضل من كل شـيء أن الناس يتحدثون همسـاً. فالصياح الوحيد الذي سمعته دينا صدر عن الحاجب عندما وبّخ متسوّلاً يحاول التسلل إلى الداخل. وتمرّ سـاعات وهي تقلّب صفحات الموسـوعات، وتحدّق إلى كتب الفنون، ويدفعها الفضول إلى فتح مجلَّدات طبية يغطيها الغبار، وتختم زيارتها بالجلوس لبضع دقائق مغمَضة العينَين في زاوية مُظلمة في المبنى القديم حيث يمكن للوقت أن يتوقف إذا أراد المرء ذلك.

كانـت المكتبـات العصريـة مجهَّزة بغرف للموسـيقى تحتوي علـى مصابيح فلوريّة، وطـاولات فورمايـكا، ومكيّفـات هـواء، وجـدران مطليّة بطلاء بـرّاق، وتكون مكتظة على الدوام. لقد وجدتها باردة وغير مِضيافة، ولم تكن تقصدها إلا إذا أرادت الاسـتماع إلى أسطوانات. لم تكن تعرف الكثير عن الموسيقى؛ بضعة أسماء مثل برامز، موزار، شومان، وباخ، الذين التقطت أُذُنها أسـماءهم في طفولتها في أثناء قيام والدها بتشـغيل الراديو أو الاسـتماع إلى أسـطوانة ما على الفونوغراف، فيضعها في حضنه ويقول: "تُنسيك مشـاكل هذا العالم، أليس كذلك؟". فتومئ دينا برأسها بجدّية.

في المكتبة، تقوم باختيار أسـطوانات بشـكل عشـوائي، محاولةً استظهار أسماء تلك المعزوفات الموسـيقية التي تسـتمتع بها كي تتمكن من سـماعها مجدداً في يوم آخر. كان الأمر معقَّداً لأنه يمكن تمييز السيمفونيات والكونشيرتو والسوناتا بواسطة الأرقام المسبوقة بحروف مثل أو بي، وكيه، وبي دبليو في، ولم تكن تعرف معنى ذلك. وإذا حالفها الحظ، كانـت تعثـر علـى معزوفة موسـيقية تحمل اسـماً ينعش ذكرياتها؛ وعندما تملأ الموسـيقى المألوفة أذنيها، تعود إلى الماضي لفترة وجيزة وتشـعر بالنشـوة بسـبب ما أنجزته كما لو أنها استعادت أحد أوصالها المفقودة.

كانت ترغب في هذه الخبرات الموسـيقية الحادة وتخشـاها في آن واحد؛ إذ كانت الغبطة التامة التي تشـعر بها في غرفة الموسـيقى تسـتبدل بالغضب عندما تعود إلى الحياة مع نوسوان وروبي. وتحدث النزاعات الأكثر عنفاً في الأيام التي تستمع فيها إلى مجموعة الأسطوانات.

لكن المجلات والصحف أقل تعقيداً. لقد اكتشفت من خلال قراءة الصحف اليومية وجود مجموعات ثقافية عدة ترعى الكونشيرتو وحفلات موسيقية في المدينة. ومعظم هذه الحفلات مجانية، لا سـيما تلك التي يحييها هواة أو أجانب مغمورون. وبدأت باسـتخدام أجرة الحافلة لحضور الكونشيرتو، ووجدت مجموعة من المعزوفات الموسيقية في المكتبة. مما لا شك فيه أن العازفين كانوا ممتنّين لحضورها بسبب قلة المهتمين بهذه الأمسيات.

كانت تتسـكع في محيط الحشـد في الرَّدهة كما لو أنها شـخص مخادع. فالجميع

يعرفون الكثير عن الموسيقى كما يبدو، وعن العازفين في الأمسيات، ويُصدرون أحكاماً من خلال مدى تطور طريقة إقامة حفلاتهم ونوعية المعزوفات الموسيقية التي يؤدونها. كانت تتوق إلى فتح الأبواب، وإلى الأضواء الخافتة داخل القاعة لإخفاء مكامن ضعفها.

في صالة الحفلات، لم تتمكن الموسيقى من التأثير فيها كما هي الحال في المكتبة خلال تمضيتها ساعات بمفردها. ففي الصالة، تتشاطر الكوميديا البشرية الوقت مع الموسيقى. وبعد تأدية عدد قليل من المعزوفات المنفردة، تمكنت من تمييز أولئك الذين يواظبون على حضور هذا النوع من الحفلات الموسيقية.

كان هناك رجل مسنّ ينام بعد أربع دقائق بالتحديد من بدء المقطوعة الموسيقية الأولى، ويتجنب القادمون في وقت متأخر الجلوس في صفه لتفادي الاصطدام بركبتَيه. وعند الدقيقة السابعة، يبدأ بالشخير. وعند الدقيقة الحادية عشرة (إذا استمرت المقطوعة الموسيقية طوال هذه المدة ولم يوقظه التصفيق) يبدأ طقم أسنانه الاصطناعية بالنتوء من فمه، مذكّراً دينا بجدها.

تجلس شقيقتان في العقد السادس من العمر، طويلتا القامة ونحيلتان، وخدودهما مستدقّة، في الصف الأول على الدوام، وغالباً ما تصفقان في اللحظة غير المناسبة، مزعجتين العجوز النائم. لم تكن دينا تفهم شيئاً عن السوناتا والحركات، ولكنها تدرك أنه إذا حدث توقف مؤقت في العزف، فإن ذلك لا يعني أن المعزوفة قد انتهت. لذلك، اتّبعت خطى شخص ذي لحية صغيرة مدبَّبة في أسفل الذَّقن، ويضع نظارة مستديرة ذات إطار سِلكي معدني ويعتمر بيريه، ويبدو كما لو أنه خبير، ويعرف على الدوام متى يتعيّن عليه التصفيق.

هناك شخص مُضحك متوسط العمر يرتدي البذلة البنّية نفسها في كل الحفلات، وكان صديق الجميع إذ يندفع في أرجاء الرَّدهة بجنون، محيّياً الناس، وهازًّا رأسه على نحو جامح، ومؤكداً لهم أن الأمسية ستكون رائعة. كانت ربطات عُنقة محطّ تأمّل مستمر. ففي بعض الأمسيات تكون طويلة بحيث تصل إلى نقطة التشعّب بين ساقَيه. وفي أحيان أخرى، تكاد لا تبلغ حجابه الحاجز. ويتراوح حجم العُقد بين عقد بالغة الصِّغر وحجم الساموزا الكبير. كان ينتقل من شخص إلى آخر متبختراً، وجاعلاً تعليقاته موجَزة بسبب تبقّي دقائق قليلة لرفع الستارة، كما يحب أن يشرح، ولا يزال يتعيّن عليه إلقاء التحية على العديد من الحاضرين.

لاحظت دينا في الرَّدهة شاباً منهمكاً على غرارها بمراقبة مرتادي الكونشيرتو وهم يتخالطون بمرح. وبما أنها اعتادت الوصول باكراً للخروج من المنزل في أسرع وقت

ممكن، رآه يصل إلى المدخل على دراجته الهوائية، ويترجل عنها بأناقة، ويقتادها عبر البوابات. لقد سمح له الحاجب بذلك لقاء إكرامية. وفي جانب المبنى، أقفل على الدراجة، متأكداً من إخراج محفظته من السّلّة الخلفية. وانتزع المشبكين عن سرواله ووضعهما في المحفظة. ومن ثم لجأ إلى زاويته المفضَّلة في الرَّدهة للتمعّن في البرنامج والحضور.

كانت نظراتهما تلتقي أحياناً فتنكشف مؤامرتهما المُضمَرة. ترك الرجل المضحك ذو البذلة البنّية دينا بمفردها وانتقل إلى الشاب شاملاً إيّاه في جولة إلقاء التحية. "مرحباً، يا راستوم! كيف حالك؟"، صاح، وهكذا عرفت دينا اسم الشاب.

"بأفضل حال، شكراً لك"، قال راستوم، ناظراً من فوق كتف ذلك الرجل إلى دينا وهي تراقب ما يحصل مع شعور بالتسلية.

"أخبرني، ما رأيك بعازف البيانو اليوم؟ هل هو قادر على تأدية النوتات المنخفضة المطلوبة للتعبير عن حركة بطيئة؟ هل تظن أن العزف ببطء ووقار... آه، اعذرني، اعذرني، سأعود بعد لحظة، بعد أن أُلقي التحية على السيد ميدورا هناك"، وغادر. وابتسم راستوم لدينا، وهز رأسه دلالةً على أنه لا أمل يُرجى من ذلك الرجل.

ورن الجرس وفُتحت أبواب قاعة الاستماع. فسارعت الشقيقتان طويلتا القامة إلى الجلوس في الصف الأول بخطى واثبة وبشكل متزامن، وفتحتا المقعدَين كستنائيَّي اللون المنجّدَين، وجلستا بزهو الانتصار، وإحداهما تنظر إلى الأخرى ببشاشة لأنهما فازتا مرة أخرى بلعبتهما السرّية المتمثلة بالاحتفاظ بمقعدَيهما. وجلست دينا كالعادة على مقعدها عند طرف الممر الأوسط الموجود وسط القاعة تقريباً.

مع بدء امتلاء المكان، دنا راستوم من دينا، ووقف قرب مقعدها. "هل هذا المقعد شاغر؟".

فأومأت برأسها.

جلس. "السيد توديوالا شخص مميَّز، أليس كذلك؟".

"هل هذا اسمه؟ أجل، إنه مضحك جداً".

"حتى عندما تكون الحفلة متوسطة الجودة، يمكنك الاعتماد عليه على الدوام للحصول على بعض التسلية".

عُتِّمت القاعة، وظهر العازفان على المسرح وسط تصفيق متفرّق. "بالمناسبة، أنا راستوم دلال"، قال، ومال باتجاهها، ومدّ يده عندما التقت أنغام الناي نوتات البيانو.

فهمست: "دينا شروف". من دون أن تمدّ يدها لمصافحته لأنها لم تلاحظ في الظلام أن يده ممدودة. وعندما مدت يدها، كان الأوان قد فات لأنه بدأ بسحب يده.

خلال فترة الاستراحة، سألها راستوم إذا كانت ترغب في تناول القهوة أو شراب بارد.

"لا، شكراً لك".

شاهدا الحاضرين في الممرات يتوجهون إلى الحمّامات أو إلى نقاط البيع للحصول على المرطِّبات. فوضع ساقه فوق الأخرى على نحو متصالب وقال: "أتعلمين؟ أراك في هذه الحفلات بشكل منتظم".

"أجل، أستمتع بها جداً".

"هل تجيدين العزف على البيانو، أم...؟".

"لا".

"آه، لديك أصابع جميلة. كنت على ثقة تامة بأنك تجيدين العزف على البيانو".

"لا، لا أعزف على البيانو". كررت. وشعرت بحرارة وجنتَيها، ونظرت إلى أصابعها.

"لا أعرف شيئاً عن الموسيقى. أستمتع بالاستماع إليها فقط".

"إنها أفضل طريقة باعتقادي".

لم تكن واثقة مما عناه، ولكنها أومأت برأسها سائلةً إياه: "وماذا عنك؟ هل تجيد العزف على البيانو؟".

"على غرار كل الأهالي الزِرادشتيين الصالحين، لقد حملني والداي على أخذ دروس في الكمان عندما كنت صغيراً جداً". أتبع جملته هذه بضحكة.

"لم تعد تعزف على الكمان؟".

"آه، أعزف مرة واحدة في فترات متباعدة. عندما أشعر بالرغبة في تعذيب نفسي، أُخرجه من حقيبته، وأجعله يُصدر صوتاً حادّاً".

فابتسمت قائلةً: "على الأقل، لا بد من أن والدَيك يسعدان عندما يسمعان عزفك".

"لا، هما متوفيان. أُقيم بمفردي".

انهارت ابتسامتها خلال استعدادها للتعبير عن أسفها، ولكنه أضاف بسرعة: "الجيران فقط يعانون عندما أعزف"، وضحكا مجدداً.

كانا يجلسان معاً على الدوام بعد ذلك اللقاء، وفي الأسبوع التالي، قبلت دعوته لتناول مرطِّبات مانغولا خلال فترة الاستراحة. وخلال وجودهما في الرَّدهة وهما يرتشفان الشراب من الزجاجتَين الباردتَين، ويشاهدان قطرات الندى التي تزيّن ناحيتَهما الخارجية، دنا منهما السيد توديوالا.

"إذاً، يا راستوم، ما هو رأيك بالنصف الأول من الحفلة؟ برأيي، كان أداء متوسطاً.

يُفترض بذلك العازف القيام بتمارين للتنفس قبل التفكير في إحياء حفلة موسيقية أخرى". تباطأ في المغادرة كي يتم تعريفه إلى دينا التي قدِم لأجلها في المقام الأول. وغادر بعد ذلك بخطى واثبة، قاصداً ضحاياه الآخرين.

بعد الحفلة، توجّه نحوها راستوم، ورافقها إلى موقف الحافلة على دراجته. كانت أنظار الحضور مسلَّطة عليهما. ولكسر الصمت، سألت: "هل أغاظك يوماً ركوب الدراجة في حركة المرور هذه؟".

فهز رأسه قائلاً: "أقوم بذلك منذ سنوات. إنها عادة راسخة لدي". وانتظر وصول حافلتها، وقاد دراجته وراء الحافلة ذات الطابقَين حتى افترقا. لم يكن باستطاعته رؤيتها وهي تراقبه من الطابق العُلوي. وتبعته بنظرها فيما كان حجمه يتضاءل شيئاً فشيئاً، وكانت تفقده أحياناً وتراه مجدداً تحت ضوء مصباح الشارع. لقد رافقته برحلتها حتى أصبح بقعة بالغة الصغر ولم يعُد بإمكانها الادّعاء بأنه راستوم إلا من خلال مخيّلتها.

بعد أسابيع قليلة، رآهما المواظبون على حضور الحفلة الموسيقية معاً، وكانوا يراقبون كل خطوة يقومان بها باهتمام وفضول. سُرّ راستوم ودينا بذلك، ولكنهما فضّلا صرف النظر عن الأمر كما صرفا النظر عن حركات السيد توديوالا المُضحكة.

ذات مرة، ولدى وصوله، نظر راستوم حوله فلم يجد دينا وسط الحشد. فدنت منه على الفور إحدى الشقيقتَين اللتين تجلسان في الصف الأول، وهمست بخجل: "إنها هنا، لا تخف. لقد ذهبت للتوّ إلى غرفة السيدات".

كانت تُمطر بغزارة، وحاولت دينا المبلَّلة التهندم في الغرفة، ولكن مِنديلها الصغير لم يكن على مستوى المهمة، ولم تعد المنشفة المعلَّقة على قضيب معدني مُغرية. فبذلت قُصارى جهدها لتجفيف نفسها، وخرجت وشعرها لا يزال يقطر ماءً.

"ماذا حدث؟"، سأل راستوم.

"عصف الهواء بمظلتي. لم أتمكن من تقويمها بالسرعة الكافية".

فقدّم لها منديله الكبير. ولم يغب معنى هذا العرض عن أذهان من يراقبونهما: هل ستقبل المنديل أم لا؟

"لا، شكراً"، قالت، ممرّرةً أصابعها عبر شعرها المبلَّل، "سيجفّ قريباً". وحبس مُرتادو الكونشيرتو أنفاسهم.

قال مبتسماً: "منديلي نظيف، لا تقلقي. ادخلي وجفّفي نفسك، وسأشتري كوبَي قهوة لكلينا". وعندما استمرت في التردد، هدّد بخلع قميصه وتجفيف رأسها به في الرَّدهة. فقبلت المنديل ضاحكة، وعادت إلى غرفة السيدات. وتنفس الحاضرون الصُّعداء بسعادة.

في الداخل، جفّفت دينا شعرها بالمنديل. رائحته زكيّة، قالت في سرّها. ليست رائحة عطرية، بل رائحة شخص نظيف. إنها رائحته؛ الرائحة نفسها التي تلاحظ وجودها أحياناً عند جلوسها قربه. ووضعت المنديل بالقرب من أنفها، وتنشّقت بعمق، ومن ثم أعادت طيّه، مُحرَجة.

كانت لا تزال تمطر بشكل خفيف عندما انتهت الحفلة الموسيقية. وسارا إلى موقف الحافلة وسط حفيف أوراق الأشجار بسبب المطر الخفيف؛ كما لو أنه يتم قَلي الأوراق. فارتجفت دينا.

"هل تشعرين بالبرد؟".

"قليلاً".

"آمل ألا تكوني محمومة بسبب كل ذلك التبلّل. اسمعي، لماذا لا ترتدين معطفي وآخذ مظلتك؟".

"لا تكن سخيفاً. إنها مكسورة. على أيّ حال، كيف يمكنك ركوب دراجتك حاملاً المظلة؟".

"يمكنني ذلك بالطبع. أستطيع ركوبها واقفاً على رأسي عند الضرورة". وأصرّ على الأمر، وجرت عملية التبادل تحت ظُلّة موقف الحافلات. وساعدها على ارتداء المعطف من ماركة داكباك، ومسّت يدُه كتفَها، وبدت أصابعه دافئة على بشرتها الباردة. كان الكمّان طويلَين قليلاً، وإلا لكان مقاس المعطف ملائماً لها. لقد أدركت أن جسده أعاد الحرارة إلى جسدها.

وقفا بجانب بعضهما وهما يشاهدان المطر ينهمر في خطوط مائلة إزاء ضوء مصباح الشارع. وأمسكا بيدَي بعضهما للمرة الأولى، وبدا أنه من الطبيعي القيام بذلك. كان من الصعب عليهما إفلات يدَيهما عندما وصلت الحافلة.

مذاك الحين، لم يعُد راستوم يستخدم دراجته إلا للذهاب إلى العمل والعودة منه، ويستقل الحافلة في الأمسيات كي يتمكن من مرافقتها ورؤية منزلها.

كانت دينا أكثر سعادة لدى لقائها إيّاه، وشعرت بأنه يُفترض به الإقلاع عن ركوب الدراجة أيضاً بسبب حركة السير الخطرة في المدينة.

"سأتزوج"، أعلنت دينا على طاولة العشاء.

"آه!"، قال شقيقها، وأشرق وجهه، "جيد، جيد. أيّ منهما، سولي أم بوروس؟". هما السيدان اللذان عرّفها إليهما مؤخراً.

فهزت دينا رأسها نافيةً.

"إذاً، لا بد من أن يكون دارا أو فيردوش"، قالت روبي، مبتسمةً بشكل معبّر: "هما مجنونان بك".

"يدعى راستوم دلال".

فتفاجأ نوسوان، إذ لم يكن الاسم من بين أسماء المرشحين العديدين الذين عرّفهم إلى دينا في السنوات الثلاث الأخيرة. ربما كان شخصاً التقته في أثناء أحد تجمعات العائلة التي يمقتها بشدة. "ومتى التقيناه؟".

"لم نلتقِه. أنا التقيته".

لم يرُق الجواب لنوسوان. لقد جُرحت مشاعره لأن كل مساعيه وخياراته ذهبت سُدًى، مفضّلةً غريباً على الآخرين. "تريدين الزواج بهذا الرجل بهذه البساطة؟ ماذا تعرفين عنه وعن عائلته؟ ماذا يعرف عنك، وعن عائلتك؟".

قالت دينا بنبرة أقلقته: "كل شيء، أقابل راستوم منذ عام ونصف".

"أقابل؟ سرّ احتفظتِ به جيداً"، قال بتهكّم، "وماذا يفعل دلال هذا، راستوم الذي لا عِلم لنا به؟".

"إنه صيدلاني".

"هاه! صيدلاني! مركِّب أدوية ملطَّخ بالدماء! لماذا لا تستخدمين الكلمة المناسبة؟ هذا ما هو عليه، يمزج مساحيق الوصفات الطبية طوال اليوم وراء منضدة".

ذكّر نفسه أن الوقت لم يحِن بعد للإصابة بثورة غضب. "إذاً، متى ستلتقين مالك مبلغ أربعمئة ألف روبل ذاك؟".

"لماذا؟ كي تتمكن من إهانته شخصياً؟".

"لا سبب يدعوني لإهانته. ولكن من واجبي أن ألتقيه، وأقدّم لك النُّصح بعد ذلك على النحو الملائم. في النهاية، يعود القرار إليك".

في اليوم المحدَّد، وصل راستوم حاملاً علبة حلوى لنوسوان وروبي وضعها بين يدَي كزرسس الصغير الذي ناهز عمره ثلاثة أعوام. وقدّم لدينا مظلة جديدة. لقد فهمت معنى ذلك، وابتسمت. كان يغمزها عندما لا ينظر إليهما الآخرون.

قالت له: "إنها رائعة"، وفتحتها، "يا لشكلها الجميل!". كان القماش أخضر مائلاً إلى زُرقة البحر، والجِذع مصنوعاً من الفولاذ الذي لا يصدأ وفي أعلاه رزّة رائعة.

قال نوسوان ممازحاً: "إنه سلاح خطر، احرصي على توجيهه إلى الشخص الصحيح".

تناولوا الشاي مع شطائر بالجبن وبسكويت بالزبدة أعدّتها روبي ودينا، مرّ الوقت من دون حدوث أي أمر غير مستساغ. ولكن، في تلك الليلة، وبعد مغادرة الزائر، قال نوسوان

إن ليس باستطاعته أن يفهم ماذا يوجد في عقل شقيقته؛ أهو دماغ أم نُشارة خشب؟

"اختيار شخص غير بهيّ الطلعة، لا مال لديه، ولا حظوظ له في الترقّي. بعض الخطّاب يقدّمون خواتم من الماس، ويقدّم آخرون ساعة جيدة أو مِشبكَ زينة صغيراً على الأقل. ماذا حمل رجلك معه؟ مظلة ملطّخة بالدماء! بعد التفكير في الوقت الذي هدرتُه والجهد الذي بذلتُه لتعريفك إلى محامين، ومحاسبين مُجازين، ومفتشي شرطة، ومهندسين مدنيين من عائلات محترَمة، كيف سأتمكن من رفع رأسي عندما يسمع الناس بخبر زواج شقيقتي بمغفّل غير طموح يقوم بإعداد الأدوية؟ لا تتوقعي مني أن أبتهج أو أحضر زفافك. بالنسبة إليّ، سيكون يوم حداد".

أسِف قائلاً إنها تُفسد حياتها لا لشيء سوى لحمله على الاستياء. "تذكّري كلامي، سيرتد عليك حقدك ويقضّ مضجعك على الدوام. لا قدرة لي على منعك، أنت في الحادية والعشرين من عمرك، ولم تعودي فتاة صغيرة أعتني بها. إذا كنت عازمة على هدر حياتك هباءً، فكل ما يمكنني القيام به هو مشاهدتك وأنت تقومين بذلك من دون أن يكون باستطاعتي تحريك أي ساكن".

كانت دينا قد توقعت كل ذلك، ولكن كلامه لم يؤثّر فيها البتة، وذهب أدراج الرياح. لقد تذكّرت تدحرج قطرات المطر على معطف راستوم الجميل في تلك الليلة الجميلة. لكنها تساءلت مجدداً، كما سبق لها أن فعلت مراراً، عن كيفية تعلّم شقيقها التكلّم بمهارة. لم يكن والداهما يتمتّعان بهذه المهارة.

بعد أيام قليلة، أصبح نوسوان أكثر هدوءاً. فإذا تزوجت دينا وغادرت المنزل نهائياً، فمن الأفضل أن يحدث ذلك بودّ ومن دون جلَبة. لقد كان مسروراً أيضاً لأن راستوم دلال لم يكن على قدر كبير من الأهمية وإلا لما تمكّن من تحمّل تعرّض أصدقائه للرفض بسبب شخص أعلى شأناً منهم.

لقد شارك في مخططات الزفاف بحماسة فاقت توقعات دينا. وأراد حجز قاعة للاستقبال وتسديد كل النفقات من المال الذي جمعه لها. "سنُقيم الزفاف بعد غروب الشمس، وبعد ذلك العشاء. سنُريهم كيفية القيام بذلك؛ سيحسدك الجميع. فرقة موسيقية مزوَّدة بأربع آلات موسيقية، تزيين بالزهور، أضواء. يمكنني تحمّل تكلفة ثلاثمئة ضيف تقريباً. ولكن، لا مشروب؛ إنه مرتفع التكلفة ومحفوف بالمخاطر. فأفراد شرطة الحَظر موجودون في كل مكان، ما إن ترشين أحدهم حتى يظهر عشرة آخرون مطالبين بحصصهم".

في ليلة ذلك اليوم، كانت روبي في السرير، حاملاً بطفلهما الثاني، قد عبّرت عن هلعها بسبب إسراف نوسوان. "تقع على عاتق راستوم دلال مهمة الإنفاق إذا أرادا الزواج.

هذه ليست مسؤوليتك، لا سيّما وأنها لم تدعك تختار لها زوجاً. لا تقدّر أي عمل تقوم به من أجلها".

من جهة أخرى، كانت لراستوم ودينا أولويات أكثر بساطة. لقد جرى الزفاف في الصباح، نزولاً عند رغبة دينا. كان احتفالاً هادئاً في دار العبادة نفسها حيث تُرفع الصلوات لراحة نفسَي والدَيها في ذكرى وفاتهما كل عام. لقد شاهد رجل الدين فرامجي، المسنّ والمُحدَودب، حفلة الزفاف من وراء الظلال، مستاءً بسبب عدم دعوته للقيام بشعائر الزفاف. لقد أبطأ الزمن حركته، ونادراً ما كان يعانق الشابات بمهارته المعهودة. ولكن اسم رجل الدين المعانق بقوة والمربِّت ملتصق بخريف عمره بالرغم من ذبول كل شيء آخر في حياته. "إنه أمر مُخزٍ"، قال لأحد زملائه متأففاً: "ولا سيما بعد صداقتي الطويلة مع عائلة شروف. في الموت، قدِموا إليّ، ولكنني رُفضتُ في المناسبات السعيدة كالزفاف".

في المساء، أقيمت حفلة في منزل شروف. لقد أصرّ نوسوان على إجراء هذه الحفلة على الأقل، واتفق مع متعهّد طعام. كان هناك ثمانية وأربعون ضيفاً، ستة منهم أصدقاء راستوم، إضافةً إلى عمته شيرين وعمه داراب. أمّا الباقون فكانوا من المقرَّبين من نوسوان بمن فيهم أفراد العائلة الموسَّعة الذين لم يكن بالإمكان تجاهلهم والتعرّض لانتقاد الأنسباء؛ انتقاد من خلال التلميح والهمس يؤثّر في مشاعره.

أعيد ترتيب غرفة الطعام، وغرفة الرسم، ومكتب نوسوان، وغرف النوم الأربع، لتسهيل الحركة، وأُعدّت الطاولات للطعام والشراب. كان كزرسس الصغير يركض مع أصدقائه من غرفة إلى أخرى بحيوية ومغامرة، صارخين وضاحكين. لقد أثارهم الاستمتاع بحرية مفاجئة في المنزل الذي بدت زياراتهم السابقة إليه كمن يمضي وقتاً في السجن تحت إشراف والد كزرسس الصارم. وكلما اصطدم نوسوان بأحدهم، كان يستنكر الأمر في سرّه، ولكنه لا يلبث أن يبتسم ويربّت للطفل لدى مروره.

خلال المساء، قدّم أربع قناني من الشراب الاسكتلندي لقيت استحسان الجميع. "الآن، سنُضفي بعض الحياة على الأمسية، وعلى هذَين الزوجَين الجديدَين!"، قال الرجال لأحدهم الآخر مع قدر كبير من إيماءات الرأس والضحك، وهمسوا بعض الأمور التي لا يجدر بالنساء سماعها.

"حسناً، يا صهري". قال نوسوان، قارعاً كأسَين فارغتين أمام راستوم، "أنت الخبير، من الأفضل البدء بمزج جرعة من الشراب لكل من الحاضرين".

"بالتأكيد". قال راستوم برحابة صدر، وتناول الكأسين.

"أنا أمازحك فقط، أنا أمازحك فقط". قال نوسوان، حاملاً القنّينة، "كيف يُسمح

للعريس بالعمل ليلة زفافه؟". كانت تلك هي ملاحظته الوحيدة عن العمل الصيدلي خلال الأمسية.

بعد ساعة من تناول الشراب الاسكتلندي، دخلت روبي المطبخ؛ لقد حان وقت تقديم العشاء. كان قد تم نقل طاولة العشاء ووضعها بمحاذاة الجدار، ووضع الطعام عليها. وشرع نُدُل متعهّد الطعام بإحضار أطباق ساخنة وثقيلة، متمايلين ومنادين: "تنحّوا رجاءً! تنحّوا رجاءً!". وفتح الجميع الطريق للطعام باحترام.

فجأةً، ملأت الروائح الزكيّة المكان، وكانت قد ملأت المنزل طوال المساء، منبئةً بأصناف مثيرة للشهية، مثيرة رغبة الأنوف وساخرةً من حاسّة الذَّوق. وساد الصمت في القاعة. وضحك أحدهم بصوت مرتفع، قائلاً إن الطعام في المقام الأول وتبادل الحديث في المقام الثاني. وصحّح له شخص آخر، قائلاً إنّ تبادل الحديث يأتي في المقام الثالث، ولا يمكن الإشارة إلى ما يأتي في المقام الثاني بسبب وجود السيدات والأطفال. فبادر أولئك الذين سمعوا الفكاهة السخيفة إلى الضحك.

صفّقت روبي بيدَيها: "حسناً، ليُصغِ إليّ الجميع! العشاء جاهز! رجاءً اسكبوا الطعام بأنفسكم ولا تشعروا بالخجل، هناك الكثير من الطعام!". جالت في المكان للعب دور المضيفة بطريقة عريقة، مكررةً أسفها أمام كل ضيف: "سامحونا، رجاءً، أنتم جديرون بطعام أفضل". فيجيبون: "ماذا تقولين، يا روبي، يبدو كل شيء رائعاً". وخلال سكبهم الطعام بأنفسهم كانوا يغتنمون الفرصة للاستعلام عن حَملها وموعد ولادتها.

تفحّص نوسوان الأطباق المارّة أمامه، موبّخاً بطريقة ممازحة الضيوف الذين سكبوا القليل من الطعام: "ما هذا يا مينا؟ لا بد من أنك تمزحين. إن عصفوري الدوري المدلَّل يبقى جائعاً مع هذه الكمية". وسكب مزيداً من البيرياني لمينا. "انتظري، انتظري، خذي قطعة كباب أخرى، إنها لذيذة، صدّقيني، قطعة أخرى، هيا، لتكنْ روحك رياضية". ووضع بحِذق قطعتين على الطبق الممانع. "عودي لأخذ المزيد، هل تعدينني؟".

عندما سكب الجميع لأنفسهم، لاحظت دينا وجود شيرين، عمة راستوم، وعمه داراب على الشرفة، معزولَين قليلاً عن الآخرين، فقصدتهما. "رجاءً، كلا جيداً. هل أخذتما ما يكفي؟".

"أكثر مما يكفي يا ابنتي، أكثر مما يكفي. الطعام لذيذ". أومأت العمة شيرين لدينا لتقترب منها، وأومأت ثانيةً لحملها على الانحناء حتى يصبح فم شيرين قريباً من أذنها وهمست: "إذا احتجتِ يوماً إلى أي شيء... تذكّري، أي شيء على الإطلاق، يمكنك القدوم إليّ وإلى داراب".

فأومـأ العـم داراب برأسـه؛ كان سـمعه حـادّاً جـداً. "أيًّا تكن المشـكلة. نحن بمثابة الوالدَين لراستوم، وأنت بمثابة ابنتنا".

"شكراً لكما". قالت دينا، مُدركةً أنها بادرة غير عادية من الجانب الآخر. فجلست معهما خلال تناولهما الطعام. وبجانب طاولة العشاء، أشار نوسوان الذي كان يومئ بالطبق والشـوكة إلى دينا لتناول بعض الطعام. في وقت لاحق، أجابته بلغة الإيماء، وبقيت مع العمة شيرين والعم داراب اللذين كانا يراقبانها بعينَين هائمتَين خلال تناولهما الطعام.

كان قـد تبقـى عـدد قليـل من الضيوف عندما طلب نوسـوان من نُـدُل متعهّد الطعام الشروع بالتنظيف. فأومأ المتلكئون بالمغادرة شاكرين ومودّعين.

في طريقهم إلى الخارج، أمسك أحدهم طيّة صدر السترة التي يرتديها راستوم وقهقه هامسـاً في أُذُنه، ورائحة الشـراب تفوح من فمه، بأن العروس والعريس محظوظان لعدم وجود حَماة من كلا الجانبَين. "الأمر غير منصف! غير منصف! لا وجود لمن يسـألكما إذا سـار كل شـيء على الوجه الصحيح في الليلة الأولى، أيها الوغد المحظوظ! لا أحد يتفقد ملاءة السرير!"، ووخز معدة راستوم بإصبعه، "تنجو من العواقب برشاقة كبيرة!".

قال نوسوان وروبي. "ليلة سعيدة، ليلة سعيدة. شكراً جزيلاً لقدومكم".

بعد مغادرة آخر ضيف، قال راستوم: "كانت أمسية جميلة جداً. شكراً لكما لأنكما أقمتما هذه الحفلة".

"أجل، لقد كانت كذلك حقاً، شكراً جزيلاً لكما"، أضافت دينا.

"على الرحب والسعة، لقد أسعدنا ذلك"، قال نوسوان، وأومأت روبي برأسها، "إنه واجبنا".

كانت دينا وراسـتوم قد وافقا في البدء على اقتراح نوسـوان المتمثل بتمضية الليلة هناك. ولكنهما أدركا بعد ذلك أنه يتعيّن إعادة ترتيب الغرف بعد الحفلة. لذلك، كان من الملائم التوجه مباشَرةً إلى شقة راستوم.

"الآن، لا تقلقا بشأن أي شيء، سيقوم هؤلاء الرجال بأعمال التنظيف؛ لأجل ذلك يتقاضون أجورهم". قال نوسـوان. "اذهبا أنتما"، وعانقهما. كانت معانقة نوسـوان الثانية لهـا فـي ذلـك اليـوم. لقد عانقها للمرة الأولى في الصباح بعد منحه بركة الزفاف، وكانت المعانقة الأولى بعد سبع سنوات.

فشـعرت بغصـة فـي حَلقهـا خـلال تمرير نوسـوان أصابعه على عينيه قائـلاً: "أتمنى لكما سعادة غامرة".

وأحضـرت دينـا حقيبـة موضَّبـة وجاهـزة لتمضية ليلة الزفاف، علـى أن يتم نقل بقية

أغراضها في وقت لاحق. وقرر نوسوان إعطاءها بعض أثاث والدَيهما. فرافقهما إلى الممر المرصوف بالحجارة حيث كانت سيارة أجرة في انتظارهما، ولوّح لهما مودّعاً. لقد لاحظت ارتعاش صوته عندما قال: "أتمنى لكما الأفضل! باركَكما الله!". وفاجأها الأمر.

* * *

استيقظا في وقت متأخر من صباح اليوم التالي. كان راستوم قد حصل على إجازة من العمل لمدة أسبوع، عِلماً أنه لم يكن باستطاعتهما تحمّل تكلفة تمضية شهر العسل في أي مكان.

أعدّت دينا الشاي في المطبخ المُظلم، وكان راستوم يراقبها بقلق. فالمطبخ هو الغرفة الأكثر اتساخاً في الشقة، وقد اسودّ سقفه والملاط بسبب الدخان. لقد طهت والدة راستوم على نيران الفحم طوال حياتها، ولم يكن استخدامها الوجيز للكاز ميموناً؛ إذ حصل تسرّب، واشتعلت النيران، وأحرقت فخذَيها. كان الفحم أكثر طواعية، كما استنتجت.

أراد راستوم طَلي المطبخ والغرف الأخرى قبل الزفاف، ولكن المال لم يكن كافياً. فبدأ بتقديم اعتذاره بسبب حالة الشقة: "لستِ معتادة على هذه الحياة. انظري إلى هذه الجدران المريعة".

"لا يهمّ، لا بأس بها"، قالت بسعادة، "سنطليها في وقت لاحق".

وفي أثناء تناول الفطور، وعلى غير عادة، بدأ يلاحظ عيوباً جديدة حوله ربما بسبب وجودها في الشقة. "بعد وفاة والدَيّ، تخلصت من كل شيء. لقد اختلطت الأمور عليّ، وكنت أخطط للعيش كناسك هندوسي، كما ترين، وبرفقتي كمان ليس إلا. وبدلاً من النوم على سرير مثبَّت بمسامير، فضّلت صرير الوتَر المِعوي لإماتة شهواتي".

"هل الأوتار مصنوعة حقاً من الأمعاء؟".

"كانت كذلك في الأيام الغابرة. وفي أيامنا هذه، يتعيّن على عازفي الكمان الخروج والحصول على أوتارهم. لم تكن هناك متاجر تبيع الآلات الموسيقية آنذاك مثل أل. أم. فورتادو أو غولين وشركاه. كانوا يدرّسون الموسيقى ونزع أمعاء الحيوانات في معاهد الموسيقى الكبرى كافة في أوروبا".

"الآن، لا تكن سخيفاً في الصباح الباكر"، قالت موبّخة. ولكن حس الفكاهة الغريب لديه هو ما أحبّته فيه أكثر من أي شيء آخر.

"على أيّ حال، لقد عثرتُ على حبي الجميل، وانتهت أيام الناسك الهندوسي. يمكن للوتر المِعوي أن يستريح".

"أستمتع بعزفك. يجب عليك مزاولة العزف أكثر فأكثر".

"هل تمزحين؟ أبدو أسوأ من ذاك الرجل في باتكار هول في الأسبوع الماضي".

"يا للقذارة!".

ضحك بسبب تعابير وجهها وقال: "لا أستطيع تمالك نفسي... هكذا يقولون. تعالَي، دعيني أريك ثقوبي"، وأنزل علبة الكمان من أعلى الخزانة. "هل ترَين شكل الفتحتَين في اللوحة المصوِّتة؟".

"آه! تبدو على شكل f". تبعت المنحنيات بإصبعها، ولمست الأوتار برِفق. "اعزف شيئاً بما أنك فتحت العلبة".

أقفل العلبة، ووقف على رؤوس أصابعه، ودفعها إلى أعلى الخزانة. "اعزف، اعزف، اعزف... هذا ما اعتاد والداي قوله لي"، وأخذ يدها وضغطها على شفتَيه، "ليتني احتفظتُ بسريرهما المزدوج على الأقل". ومن ثم سألها بخجل، "هل كنتِ مرتاحة في الليلة الماضية؟".

"آه، أجل". واحمرّ وجهها لدى تذكّرها السرير المفرَد الضيّق الذي ناما عليه.

بعد تناول فطور مؤلّف من عُجّة بيض وشريحة خبز محمّص بالزبدة، فتح الباب الأمامي وقال إنه يحتفظ لها بمفاجأة. "لم أُرِك إيّاها ليلة أمس لأن الظلام كان حالكاً".

"ماذا هناك؟".

"عليك الخروج".

ورأت اللوحة النحاسية الجديدة تومض تحت أشعة الشمس، وقد نُقشت عليها عبارة السيد والسيدة راستوم كيه دلال. فسُرّ لسرورها. "لقد علّقتها قبل يومَين".

"تبدو جميلة".

"كان تبديل اللوحة أمراً سهلاً"، وضحك في سرّه، "إن تغيير الاسم على إيصال الإيجار أكثر صعوبة".

"ماذا تعني؟".

"يُجبى الإيجار باسم والدي بالرغم من وفاته منذ تسع سنوات. يأمل صاحب المُلك في أن أفقد صبري وأعرض عليه المال لتحويل الشقة إلى اسمي. وهو يستمر في التلميح إلى ذلك".

"هل ستقوم بذلك؟".

"بالطبع لا. لا يستطيع اتخاذ أي تدبير، فقانون الإيجار يحمينا. والاسم الموجود على إيصال الإيجار لا يبدّل في الأمور شيئاً، وأنت مؤهَّلة للعيش معي أيضاً بصفتك

زوجتي حتى ولو متُّ غداً".

"يا راستوم! لا تقل أموراً مماثلة!".

فضحك قائلاً: "عندما يأتي جابي الإيجار مع الإيصال الذي يحمل اسم والدي، أشعر بالرغبة أحياناً في أن أطلب منه الذهاب حيث العنوان الجديد للمستأجر".

ووضعت دينا رأسها على كتفه، فشدّها نحوه وعانقها. بعد ذلك، قام بتلميع اللوحة بكمّه. وخلال تأمّلهما إياها، توقفت عربتا نَقل أمام بابهما يجرّهما شخصان، كانتا محمّلتين بالأغراض المُرسلة من منزل شروف.

في بادئ الأمر، كان راستوم قد تدبّر أمر إرسال شاحنة صغيرة لأن دينا طلبت من نوسوان الحصول على خزانة ملابس والدها الكبيرة، تلك التي تحتوي على ظُلّة من خشب الورد نُقش عليها انبثاق فجائي لأشعة الشمس إضافةً إلى زهور، على أن تتخلى عن كل شيء آخر، كما قالت. فوعدها نوسوان بالتفكير في الأمر مليّاً، ولكنه رفض اقتراحها في النهاية، قائلاً إن إقحام الخزانة عبر الباب الضيّق لشقة راستوم قد يُلحق الضرر بها، ومن غير المنصف أن تكون فيها خدوش تسيء إلى ذكرى والدهما، كما أن حجمها لن يتلاءم مع حجم الغرف الصغيرة.

لذلك، سمح لها بالحصول على خزانة أخرى أصغر حجماً ولا نتوءات فيها، وطاولة صغيرة، وسريرَين مُفرَدَين، إضافةً إلى علبة كبيرة تحتوي على أدوات مطبخية كانت روبي قد وضّبتها بعد الاستعلام ما إن كان مطبخ راستوم مزوَّداً بتجهيزات ملائمة. ولمفاجأتهما، أضافت أوعية وطناجر، وجهاز طهو، وبعض أدوات المائدة، ولوحاً خشبياً وشَوبكاً.

أُفرغت حمولة عربتَي النقل، وجُمع السريران المفرَدان. وعرض أحد سائقَي العربتَين شراء السرير المفرَد القديم. فباعه إيّاه راستوم بثلاثين روبيّة، وحصل على عشر روبيّات من الرجل الآخر لقاء الفراش.

بينما كانت دينا تراقبهما وهما يبتعدان به قالت: "أعلم ما تفكر فيه. ولكن، لا مكان في هذه الشقة لسرير إضافي". وتساءلت عن كيفية نومهما بجانب بعضهما بعد أن حصلا على سريرين مفرَدين.

عندما استيقظا في صباح يومهما التالي، بدا أحد السريرين كما لو أن أحداً لم ينم فيه. وبشعورها بالاطمئنان، أمضت اليوم في تنظيم منزلها الجديد كما يحلو لها. أولاً، تابعت برنامج سيفا سيدان، واضعةً حدًّا لشراء الوجبات المسائية الجاهزة التي اعتاد راستوم تناولها. وفي ما يتعلق بالغداء، كان لديها بعض الوقت لتتعلم إعداد وجبات له عندما يعود إلى العمل في الأسبوع التالي.

قالت: "لا مزيد من هراء تناول الطعام في الخارج، وإلا فمن الأفضل لك عدم تناول الطعام أبداً". ثمّ وقفت على كرسيّ لتفحّص الرف الأعلى في المِطبخ. فاكتشفت مجموعة أوانٍ مصنوعة من النحاس الأصفر والأحمر، ومِغلاة، ومجموعة سكاكين مطبخية.

قال راستوم: "كل تلك الأشياء غير صالحة للاستخدام، كنت أعتزم بيعها كخُردة. سأقوم بذلك غداً، أعدك".

"لا تكن سخيفاً، إنها أشياء قديمة سليمة يمكن إصلاحها وتصفيحها بالقصدير. في هذه الأيام، لا يمكنك شراء سلع بهذه الجودة".

عندما سمعت مصلّح أوانٍ مطبخية متجوّلاً ينادي خارج نافذة منزلهما، طلبت منه إصلاح الإناء الذي تتسرب منه السوائل، وتثبيت المِقبض المكسور للمغلاة. وراقبت المصلّح للتأكد من أنه يقوم بعمله بشكل صحيح. وبعد إنهائه تصليح كل وعاء، كانت تحمله إلى الحمّام لاختباره من خلال وضع الماء فيه.

ومرّ قرب منزلهما مجلّخ سكاكين يضع دولاب التجليخ على كتفه. فتوقف المجلّخ عن الضرب بمطرقته بعد أن صفّقت للفت انتباهه.

سرعان ما بدأت الشفرات الكليلة تومض وتتحوّل إلى حافات حادة. فتذوّقت طعم النشاط، والعناية، والضربات القوية التي ستُدخل عائلتها المنظَّمة في حالة من الهناء الزوجي طوال عقود من الزمن. هناك حياة يجب عيشها ببراعة كأي أمر آخر، قالت لنفسها، ويتعيّن قولبتها ومعالجتها وصقلها للحصول على أفضل نتيجة.

كان المجلّخ يُبعد وجهه في أثناء تطاير الشرارات من حجر التجليخ، وكان قرع مطرقة المجلّخ بالنسبة إليها كما لو أنه ألعاب ديغالي النارية.

* * *

احتفلت دينا وراستوم بالذكرى الأولى لزواجهما بالذهاب إلى السينما وتناول العشاء خارجاً. فشاهدا فيلم سابمارين كومند الذي لعب ويليام هولدن دور البطولة فيه بصفته رائداً بحرياً أميركياً في كوريا. لقد أمسكا بيدَي بعضهما خلال مشاهدة الفيلم، وتناولا بعد ذلك البيرياني بالدجاج في وايسايد إين.

في العام التالي، أرادت دينا مشاهدة فيلم أقل ترويعاً، لذلك اختارا هاي سوسايتي لبينغ كروسبي بإصداره الجديد. كانت قد اشترت لهذه المناسبة ثوباً جديداً، أزرق اللون.

قال راستوم: "لا أدري إذا كان يُفترض بك ارتداء هذا". ودنا منها.

"لماذا؟"، سألت، وابتسمت محاولة إغراءه.

"ستُفقدين الرجال في الشوارع صوابهم. من الأفضل لك أن تحملي مظلتك لحماية نفسك".

"ألن تحميني منهم؟".

"حسناً. في تلك الحالة، سأصطحب الكمان معي... سيخيفهم الزعيق أكثر فأكثر".

استمتعا بالفيلم كثيراً. كان الثوب الأزرق دُعابتهما الخاصة طوال المساء خلال تخيّلهما نساءً غيورات ورجالاً شهوانيين متعطشين لملامسته. وقصدا مطعم مونجيني لتناول العشاء؛ فلأطباق التحلية هناك سمعة رائعة.

في الذكرى الثالثة لزواجهما، قررا دعوة نوسوان وروبي، وولديهما، إلى العشاء. كانت العلاقات بينهم وديّة منذ الزفاف، وتتم دعوة دينا وراستوم بمناسبة ذكرى مولد الولدين، وبمناسبة ذكرى النافروز وخورداد سال كذلك. كانت دينا تعرّج على منزل شقيقها بمفردها أحياناً، ومع راستوم أحياناً أخرى، حاملةً الحلويات لابنَي شقيقها، أو لإلقاء التحية فحسب. لقد زالت المشاعر المعادية تماماً لدرجة أنه كان من الصعب تذكّرها بوضوح، فيميل المرء إلى الاستنتاج بأنها مشاعر من نسج الخيال مبالَغٌ فيها.

جرت حفلة ذكرى زواجهما بودّ. لم تستطع دينا تحمّل تكلفة شراء ملابس جديدة، فارتدت الثوب الأزرق الذي اشترته في العام السابق. فأُعجبت به روبي، وامتدحت طهو دينا. قالت إن البولاو دال طيّب المذاق حقاً. فأجابت دينا بلطف قائلةً إنها تعلّمت الكثير من زوجة أخيها. "ولكن لا يزال هناك طريق طويل أقطعه قبل الوصول إلى مستواك".

بالنسبة إلى الولدين اللذين كانا في السادسة والثالثة من عمرهما، طهت دينا لكل منهما على حِدة، ومن دون توابل. ولكن كزرسس وزارير أصرّا على تناول ما يتناوله البالغون. فسمحت لهما روبي بتذوّق طعامهم، وأرادا المزيد بالرغم من مدّهما لسانَيهما إلى الخارج.

قالت دينا ضاحكة: "لا بأس، المثلجات ستطفئ النار".

"هل يمكنني الحصول عليها الآن؟"، سأل الولدان معاً.

قالت دينا: "سيذهب العم راستوم لإحضارها، ليس لدينا بعد ثلاّجة كثلاّجتكم لتخزينها. إليكما هذه في الوقت الحاضر". وأدخلت قِطع سكر في فاهَيهما حصلت عليها من الصينية التي أحضرتها معها لهذه المناسبة، وتحتوي على أكاليل زهر وجوز الهند.

في وقت لاحق، وفي أثناء قيامها برفع الأغراض عن الطاولة بمساعدة روبي، قرر راستوم الذهاب إلى كواليتي فاميلي باك. "في حال عدم وجود مثلجات بنكهة الفراولة، أيّ مثلجات أشتري؟ بنكهة الشوكولا أو الفانيلا؟".

"الشوكولا". قال كزرسس.

"لانيلا". قال زارير، وضحك الجميع.

"لانيلا!". قال راستوم، ممازحاً، "يجب أن تكونا مختلفَين على الدوام، أليس كذلك؟".

قال نوسوان: "أتساءل، من الذي أورثه هذه الميزة، ليس والده بالتأكيد". ضحكوا جميعاً مجدداً. واغتنم الفرصة ليضيف: "ولكن، ماذا عنكما يا راستوم؟ حان الوقت لإنشاء عائلة كما أعتقد. ثلاث سنوات إجازة طويلة بما يكفي".

فابتسم راستوم، غير راغبٍ في الدخول في نقاش. وفتح الباب ليغادر، فبادره نوسوان إلى القول: "هل أرافقك؟".

"آه، لا، استرحِ فقط، أنت الضيف. كما أن الأمر قد يتطلب وقتاً طويلاً إذا ذهبنا سَيراً على الأقدام. بمفردي، يمكنني الذهاب على دراجتي والعودة بعد عشر دقائق".

أخرجت دينا أطباقاً وملاعق نظيفة للمثلجات، ووضعت المغلاة قائلة: "يُفترض بالشاي أن يكون جاهزاً عندما يعود".

بعد خمس عشرة دقيقة، كانوا لا يزالون في الانتظار. "أين يمكن أن يكون؟ يصبح الشاي مركَّزاً. ربما يُفترض بكما تناول كوبَيكما الآن".

قالت روبي: "لا، سننتظر راستوم".

قال نوسوان: "لا بد من أن هناك ازدحاماً في متجر المثلجات".

وغلت دينا إبريقاً ثانياً من الماء لتخفيف الشاي المركَّز، ووضعت الغطاء عليه. "مرت خمس وأربعون دقيقة على مغادرته".

قال نوسوان: "ربما نفدت المثلجات من المتجر الأول، نكهة الفراولة شعبية جداً، وتنفد على الدوام. ربما قصد مكاناً آخر أكثر بُعداً".

"ما كان ليفعل ذلك لأنه يعلم أن ذلك يقلقنا".

قالت روبي: "ربما ثُقب دولاب دراجته".

"إن العودة بدولاب مثقوب لا تتطلب أكثر من عشرين دقيقة".

خرجت إلى الشرفة للتحقق مما إذا كان باستطاعتها أن تراه قادماً من بعيد. لقد ذكّرها الأمر بالليالي التي كانا يغادران فيها بعد انتهاء الحفلات الموسيقية، فتجلس في الطابق العلوي للحافلة، محاولةً إبقاء دراجته المتوارية عن الأنظار في مجال بصرها.

لقد جعلتها الذكرى تبتسم، ولكن الابتسامة خبت بسرعة تحت وطأة قلقها. "أعتقد أنني سأذهب للتحقق من المسألة".

"لا، أنا سأذهب"، عرض نوسوان.

"لكنك لا تعرف مكان المتجر أو الطريق الذي يسلكه راستوم. قد يُغفل أحدكما الآخر".

في النهاية، ذهبا معاً. وللتخفيف من توتر دينا، استمر في القول تكراراً: "لا بد من وجود تفسير بسيط تماماً". فتومئ دينا برأسها، حاثّةً الخطى. كان يتعيّن عليه بذل مزيد من الجهد للّحاق بها.

تخطى الوقت التاسعة، وكانت الشوارع هادئة تماماً. وفي الدرب الضيّق الذي يوجد متجر المثلجات في نهايته، كانت هناك مجموعة صغيرة من الناس المتجمّعين بجانب الرصيف. وباقترابهما أكثر فأكثر، لاحظ نوسوان ودينا وجود الشرطة أيضاً.

قال نوسوان، محاولاً إخفاء ذُعره: "ماذا جرى؟".

كانت دينا هي من رأت الدراجة. "إنها دراجة راستوم"، قالت، وتحوّل صوتها إلى صوت شخص غريب بدا غير مألوف لأُذُنيها.

"هل أنت واثقة؟". كان يعلم أنها واثقة من ذلك. كانت الدراجة مسحوقة، ومقعدها سليماً. فشقّ طريقه عبر الحشد نحو رجال الشرطة. وملأت أذنيها عاصفة هادرة، ولم تسمع كلماتهم جيداً كما لو أن مسافة كبيرة تفصلهم عنها.

قال المفتش المساعد: "سائق شاحنة وغد، صدمه وهرب. لا أمل في نجاة الرجل المسكين، كما أعتقد. لقد تحطم رأسه كلّياً، ولكن سيارة الإسعاف نقلته إلى المستشفى على أيّ حال".

كان هناك كلب شارد يلعق من البركة السميكة زهرية اللون بالقرب من الدراجة. إن المرطبات بنكهة الفراولة متوافرة، قالت دينا في سرّها من دون إحساس. وركل شرطي الكلب، فنبح وتراجع، ومن ثم عاد طلَباً للمزيد. وعندما ركله مجدداً، صرخت.

"توقف! أيّ أذى يُلحقه بك؟ دعه يأكل!".

فقال الشرطي، مُجفَلاً: "أجل، يا سيدتي". وتراجع إلى الوراء. وشرق الكلب السائل بجوع كبير، مُحدثاً أنيناً خافتاً تعبيراً عن سعادته، ومحترساً من قدم الرجل.

حصل نوسوان على اسم المستشفى، وأخذ المفتش المساعد عنوانه، وطلب من دينا المحدّقة إلى الدراجة المسحوقة عنوانها، شارحاً بلطف أنه سيتم الاحتفاظ بالدراجة كدليل في حال تم العثور على سائق الشاحنة، ثم عرض عليهما أن يقلّهما إلى المستشفى.

قال نوسوان: "شكراً لك، ولكنهم سيتساءلون في المنزل عمّا حدث".

قال المفتش المساعد: "لا تقلق. سأرسل شرطيّاً ليطلب من سكان المنزل عدم

القلق، ويُخبرهم بوقوع حادث وأنكما في المستشفى، يمكنكما شرح كل شيء في وقت لاحق".

بفضل مساعدة المفتش المساعد، تمّ تسريع الإجراءات في المستشفى، وتمكن نوسوان ودينا من المغادرة بسرعة. قال نوسوان: "لنستقلّ سيارة أجرة".

"لا، أريد المشي".

وعندما وصلا إلى المنزل، كانت الدموع تسيل على خدَّيها بصمت. فأسندها نوسوان ولاطفها، ممرّراً يده على رأسها. قال هامساً: "يا شقيقتي المسكينة، يا شقيقتي المسكينة. ليتني أستطيع إعادته إليك. ابكي الآن، لا بأس، ابكي قدر ما تشائين". ذرف قليلاً من الدَّمع، وأخبر روبي عن الحادث هَمساً.

قالت روبي منتحبة: "آه! يا الله! ما معنى هذا الحظ العاثر!؟ في غضون دقائق قليلة، انهار عالم دينا برمّته! كيف يمكن أن يحدث ذلك؟". هدّأت من رَوعها قبل إيقاظ الولدين، في حين ذهبت دينا لتبديل ثوبها الأزرق.

"هل يمكننا تناول المثلجات بنكهة الفراولة الآن؟"، سأل كزرسس وزارير، وكانا لا يزالان يشعران بالنعاس.

"العم راستوم ليس بخير، علينا الذهاب إلى المنزل"، قالت روبي، مرتئيةً أنه من الأفضل شرح الأمر لهما تدريجيًّا.

خرجت دينا من غرفتها بعد قليل، وتوجّه نوسوان إليها ووقف بجانبها قائلاً: "يجب أن ترافقينا إلى المنزل، لا يمكنك البقاء هنا بمفردك".

قالت روبي ممسكةً يدها وضاغطةً عليها: "بالتأكيد، من دون شك".

أومأت دينا برأسها، ودخلت المطبخ، وبدأت تُعِدّ رزمة مما تبقى من البولاو دال. وراقبتها روبي بفضول وبقليل من الخوف قبل أن تسأل: "هل يمكنني المساعدة؟".

فهزت دينا رأسها قائلة: "لا معنى لتبذير هذا الطعام. في طريقنا إلى المنزل، يمكننا إعطاؤه إلى متسوّل عند الزاوية".

في وقت لاحق، أخبر نوسوان كل من أطلعه على الأحداث بمدى تأثّره بسلوك شقيقته الوقور في تلك الليلة المؤلمة. "لا نحيب، لا ضرب على الصدر أو شدّ شعر كما قد تتوقع من امرأة تعرّضت لصدمة مماثلة ولخسارة كبيرة". لكنه تذكّر أيضاً وقار والدتهما في مناسبة مماثلة، والانهيار الذي أُصيبت به بعد وفاة والدهما. وأمل ألا تُصاب دينا بأمر مماثل.

وضّبت دينا حقيبتها، واضعةً فيها الساري الأبيض الذي أحضرته معها في ليلة زفافها

قبل ثلاث سنوات وأغراضاً أخرى قد تكون بحاجة إليها في الأيام القليلة التالية.

* * *

بعد المأتم بأربعة أيام، استعدت دينا للعودة إلى شقتها. قال نوسوان: "لِمَ العجَلة؟ ابقَي هنا لمدة أطول".

وقالت روبي: "بالتأكيد، أنتِ هنا مع عائلتك. ماذا ستفعلين هناك بمفردك؟".

ترددت دينا بسهولة لأنها لم تكن تشعر بأنها مستعدة للعودة. فالساعات الأكثر صعوبة هي التي تسبق الفجر. كانت تنام، واضعةً إحدى ذراعَيها على وسادة، ودافعةً برِفق الوسادة بمِرفقها، وهي إشارة لراستوم ليقوم بوضع ذراعه حولها. وعندما لا تشعر بثِقل ذراعه، كانت تستيقظ في الظُّلمة التي تسبق شروق الشمس فتَعي مجدداً خسارتها. ومن حين إلى آخر، كانت تناديه باسمه. وإذا سمعها نوسوان، دخل غرفتها وأمسكها بإحكام، وهو يلامس شعرها.

"لن يشكّل بقاؤك عبئاً علينا"، قال نوسوان: "في الواقع، ستكونين رفيقة روبي".

هكذا، بقيت دينا. وانتشر نبأ إقامتها المؤقتة في منزل شقيقها، ووصل سَيل من الأنسباء في زيارات تعزية. وبعد التعاطي مع الهدف الرسمي للزيارات، كان الحديث المتبادَل يتخذ منحى اجتماعياً أنيساً. واستمتع نوسوان وروبي بالعلاقات الاجتماعية، واتفقا في الرأي على أنه أفضل شيء ممكن لدينا.

كانت شيرين، عمة راستوم، وعمه داراب قد شاركا في الصلوات التي أُقيمت طوال أربعة أيام في أبراج الصمت، ولكنهما قدِما مجدداً بعد أسبوع. فجلسا لبعض الوقت، وتناول كلّ منهما كوب شراب بنكهة الليمون وقالا: "بالنسبة إلينا، الأمر أشبه بفقدان ابن. ولكن، تذكّري، أنتِ لا تزالين ابنتنا. إذا احتجتِ إلى أي شيء، يمكنك القدوم إلينا. تذكّري، أيّاً يكن ما تحتاجين إليه".

فسمعت روبي ذلك وانتابها إحساس بالضيق فقالت: "هذا لطف كبير منكما. ولكننا موجودان، نوسوان وأنا، للاعتناء بها".

"أجل، بالطبع"، قال المُسنّان مرتبكَين من حدة صوتها، "لتُمنحا حياة مديدة ومُعافاة. دينا محظوظة جداً لأنكما بجانبها". وغادرا بعد قليل، آملَين أن يكونا قد تمكنا من تهدئة مشاعر روبي.

مرّ شهر، وعادت دينا إلى روتينها القديم، محتلّةً منزلتها السابقة في العائلة. وصُرفت الخادمة من دون أن يكون لدينا أيّ مانع لأنها حظيت بما يشغل أيامها الفارغة. لقد

شعر كزرسس وزارير بالإثارة بالطبع، بسبب إقامة العمة دينا معهما. كان كزرسس في الصف الثاني وزارير في روضة الأطفال. وتطوّعت لاصطحابهما إلى المدرسة؛ سيكون من السهل عليها المرور في سوق البازار في الصباح.

في أمسيات أيام الأحد، كان نوسوان ينظّم ألعاباً بالورق، فيلعب الراشدون الثلاثة لعبة الرامي طوال ساعتين بينما يقوم الولدان بالمشاهدة. وفي بعض الأحيان، كانت دينا تسمح لكزرسس وزارير بحمل أوراقها. وعند السابعة، تبدأ المرأتان بإعداد العشاء، فيُلهي نوسوان نفسه ببناء منزل مع الولدين بواسطة أوراق اللعب، أو يُلقي نظرة على صحيفة الأحد للمرة الثانية.

كانت دينا تقصد شقتها الفارغة مرة واحدة في الأسبوع لإزالة الغبار وتنظيفها. وهناك، كانت تقوم بالعمل المنزلي كما اعتادت تماماً عندما كان راستوم على قيد الحياة. وبعد انتهاء التنظيف، كانت تُعِدّ الشاي، وتجلس بمفردها في المطبخ المتّسخ مع كوبها، وتتذكر، وتبكي أحياناً بهدوء، فيبرد الشاي، وترمي في غالب الأحيان ما تبقّى منه بعد تناول نصف كوب.

بعد اتّباع هذا النمط السرّي للحِداد طوال أسابيع قليلة، سمحت لجزء من ذاتها بالادّعاء بأن كل شيء يجري بشكل طبيعي، وأن الشقة ليست شاغرة، والفراق مؤقت. لم يكن يبدو لها وجود أي ضرر في ذلك، وشعرت بعزاء كبير بسبب عملية إقناع الذات هذه.

ذات مساء، ولدى حلول الغسَق وبدء السيارات بإضاءة مصابيحها الأمامية، وجدت نفسها تحدّق إلى خارج الشرفة لرؤية ما إذا كانت دراجة راستوم قادمة. فشعرت بقشعريرة تمتد عبر عمودها الفِقري، وقررت وضع حدّ لذلك. إن التودد إلى الجنون أمر، ولكن عندما يبدأ الجنون بالتودد إليك فهو أمر آخر يستدعي الإقلاع عنه.

فتخلت عن شعائر التنظيف الأسبوعي، وفضّلت عدم زيارة الشقة بمفردها بل كانت تصطحب معها ابنَي شقيقها اللذين استمتعا باستكشاف مكان غير مسكون، فبدت لهما الغرف المألوفة مَشوبة بالغموض، ومليئة بأثاث غير مستخدَم لسبب لا يمكن تفسيره. لقد أربكهما السكون المماثل لسكون المتاحف، وبدأا بالصياح والركض والقفز في أرجاء الشقة للتحقق مما إذا كان باستطاعتهما طرد الفراغ.

بعد ظهر أحد الأيام، وعندما توقفت دينا عن جمع بعض أغراضها، عثرت على مغلّف من صاحب المُلك. وبدأ الولدان بتنظيم سباق عبر الأرياف، ولعب كزرسس دور مستكشف الطريق. "سنبدأ من الشرفة، ونركض إلى المطبخ، ومن ثم نتوجّه إلى الحمّام، ونعود أدراجنا بعد ذلك مروراً بكل الغرف. مفهوم، يا زارير؟".

"حسناً"، قال زارير. فأعطت دينا إشارة الاستعداد والانطلاق، وفتحت النوافذ في الغرفة الأمامية وقرأت الرسالة. لقد جاء فيها أنه نظراً إلى شغور المنزل، يوجِّه إنذار لإخلاء الشقة من محتوياتها وإعادة المفاتيح في غضون ثلاثين يوماً.

في تلك الليلة، استشاط نوسوان غضباً عندما أرته الرسالة، وقال لها: "انظري إلى صاحب المُلك النذل والوقح. لم تمر بعد ثلاثة أشهر على وفاة راستوم المسكين، وها هي الحية جاهزة للانقضاض. لا يمكننا فعل أي شيء. يجب عليك الاحتفاظ بالشقة".

"أجل، أظن أنني سأعود إلى هناك بدءاً من الأسبوع القادم". قالت، موافقةً إيّاه الرأي.

"لم أعنِ ذلك. ابقَي هنا عاماً، عامين... قدر ما تشائين. ولكن، لا تتخلّي عن حقك. تذكري كلامي، لن يطول الوقت حتى يصبح من المستحيل العثور على منزل في المدينة. ستُعتبر شقة قديمة كشقتك منجمَ ذهب".

قالت روبي: "هذا صحيح، سمعتُ أن ابن بوتلي ماسي اضطُر إلى دفع اثني عشر ألف روبيّة لتطأ قدمه عتبة الباب، والإيجار هو خمسة آلاف روبيّة شهرياً. حتى إن شقته أصغر من شقتك".

"أجل"، قالت دينا، "ولكن إيجاري...".

"لا تقلقي، سأسدده"، قال نوسوان، "وسيقوم محاميّ بالرد على هذه الرسالة".

كان يستبق الأمور: ستتزوج دينا عاجلاً أم آجلاً. عندها، قد يحول الافتقار إلى شقة دون زواجها. ولن يرغب أبداً في إقامة الزوجين معه لأن من شأن ذلك التسبب بنزاع وشجار.

* * *

في الذكرى الأولى لوفاة راستوم، لم يذهب نوسوان إلى العمل في الصباح. كان في اليوم السابق قد أعلم مدرسة كزرسس وروضة أطفال زارير بأنهما "سيتغيّبان بهدف المشاركة في الصلوات التي ستُقام لأجل عمّهما الراحل". وشعرت دينا بالامتنان بسبب حضور كل أفراد العائلة.

"يصعب تخيّل ذلك"، قال نوسوان عندما عادا إلى المنزل، "عام كامل يمرّ. كيف ينقضي الزمن بهذه السرعة".

وبعد أيام قليلة، أشار رسمياً إلى انتهاء فترة الحداد من خلال دعوة بعض الأصدقاء لتناول الشاي.

كان من بين المدعوّين بورروس وسولي، وهما عازبان من العازبين الأكثر أهليّة. ولقد نصح دينا بهما منذ سنوات قليلة. كانا لا يزالان عازبَين ومناسبَين، وفقاً لنوسوان، إذا غضضنا الطرف عن بعض العيوب الصغيرة كالبطن الناتئ والشعر المائل إلى اللون الرمادي.

مفتخراً ببراعته، قال لدينا سرًّا: "أتعلمين؟ إن أيًّا من بورروس أو سولي لن يُغفل فرصة الزواج بك. فبورروس يزاول المحاماة، محققاً نجاحات لا تصدَّق. وسولي الآن شريك في مؤسسة محاسبة. وكونك أرملة لن يطرح أي مشكلة بالنسبة إليهما".

"يا للُطفهما!".

لم يرُق له تهكّمها. لقد ذكّره ذلك بدينا السابقة؛ العنيدة، الوقحة، الشقيقة المتمرّدة التي افترض أنها تحوّلت إلى شخص أفضل. ولكنه ازدرد ريقه وتابع كلامه بهدوء.

"أتعلمين، يا دينا؟ أنا شديد التأثر بك. لا يمكن لأحد أن يتهمك بالعبث خلال فترة الحداد. كانت تصرّفاتك صائبة ومثالية طوال العام المنقضي".

"لم أكن أمثّل دوراً، ولم يكن الأمر صعباً".

"أعلم، أعلم"، قال بعجَلة، آسفاً لاختيار الكلمات، "ما عنيتُه هو أنني أحترم وقارك. ولكنك لا تزالين شابة. لقد مرّ أكثر من عام، ويجب عليك التفكير في مستقبلك".

"لا تقلق، أفهم ما تعنيه".

"حسناً، هذا كل ما أردتُ أن أقوله. هيا، حان وقت لعب الورق. روبي!"، نادى روبي التي كانت في المطبخ، "حان وقت لعبة الرامي!". كان نوسوان واثقاً من حدوث تحسّن.

في الأسابيع القليلة التالية، استمر في دعوة التشكيلة القديمة من العازبين، وكان يقول: "تعالي يا دينا، دعيني أعرّفك إلى الحاضرين". وبعد ذلك، ومتظاهراً بحدوث سَهو، يدّعي قائلاً: "انتظري، انتظري، ماذا أقول، أين عقلي؟ أنت تعرفين تِمتون. إذاً، فلأُعرّفك إليه مجدداً".

كان كل ذلك يحدث بطريقة توحي بأن علاقة ذات معنى عميق قد استؤنفت، وأُثيرت عاطفة قوية مجدداً. لقد أغضب الأمر دينا، ولكنها حاولت عدم العبوس في أثناء سكب الشاي وتقديم الشطائر. وبعد مغادرة الزائرين، كان نوسوان يستأنف تلميحاته التي تنزل على دينا نزول مِطرقة كبيرة على رأسها، مُشيداً بطلعة أحدهم، وممتدحاً مزايا آخر، ومشيراً إلى الإرث الذي ينتظر الثالث.

بعد أربعة أشهر من استقبال العازبين من دون ظهور أي دلالة على تعاون دينا، فقد نوسوان صبره. "كنت لبِقاً، كنت لطيفاً، كنت منطقياً. ولكن من هو ابن الراجا الذي

تنتظرينه؟ كل شاب أعرّفك إليه، تشيحين بنظرك عنه، وتقصدين الجانب الآخر للغرفة. ماذا تريدين؟".

"لا شيء".

"أيعقل أنك لا تريدين شيئاً؟! ستذهب كل حياتك هباء. تحلّي بالوعي".

"أعلم أنك تقوم بذلك لأجل مصلحتي، ولكنني غير مهتمة".

ذكّر الجواب نوسوان مرة أخرى بدينا القديمة، الشقيقة الصغيرة الجاحدة. فاشتبه بأنها تزدري أصدقاءه، وكانوا جميعاً أشخاصاً صالحين. لا بأس، لن يدعها تُغضبه.

"حسناً. كما قلتُ، أنا شخص منطقي. إذا لم يُعجبك هؤلاء الرجال، فلا أحد يُجبرك على ذلك. اعثري على زوج بنفسك، وإلا استعنّا بخدمات وسيط زواج. بلغني أن السيدة غينوالا لديها أفضل سجلّ في تدبّر الزيجات. أعلميني كيف تفضّلين أن يكون زوجك؟".

"لا أريد الزواج في هذا الوقت المبكّر".

"هذا الوقت المبكّر! أتعتبرين الوقت مبكّراً؟ أنت في السادسة والعشرين من عمرك. ما الذي تأملينه؟ عودة راستوم؟ احذري وإلا جُننتِ كالعمة بابسي... كان لديها عذر على الأقل، لم يتم العثور قطّ على جثة زوجها بعد انفجار في حوض السفن".

"يا لقولك الرهيب!"، وانصرفت دينا مشمئزة، وغادرت الغرفة.

كانت صغيرة في السنّ عندما حدث ذلك، ولكنها تتذكر ذلك اليوم بوضوح، في زمن الحرب، عندما انفجرت سفينتا ذخائر بريطانيتان بعد الرسو، مما أدى إلى مقتل الآلاف في نطاق قطر كبير حول المرفأ. وكانت شائعات حول وجود جواسيس نازيين قد بدأت بالانتشار خلال وقوع التفجيرات. وأعلنت السلطات أن العديد من المفقودين تبخّروا في الانفجارات الفتاكة، ولكن العمة بابسي رفضت هذه النظرية. لقد شعرت بأن زوجها حيّ، وهائم على وجهه، وفاقد الذاكرة في مكان ما، وأن تحديد مكانه مسألة وقت. وتمثّل التخمين الآخر بأن إرادته مسلوبة، أو أن ناسكاً هندوسياً غير نزيه أطعمه شيئاً ما وسيق عَبداً إلى مكان بعيد. في كلتا الحالتين، كانت على ثقة بأنه سيتم العثور على زوجها، ولم تُضعف الأعوام السبعة عشر التي مرّت على الكارثة ثقتها. كانت تمضي وقتها وهي توجّه حديثها إلى صورته الموجودة في إطار فضي ثقيل الوزن موضوع بجانب سريرها، وتروي له الأخبار اليومية والأقاويل بالتفصيل.

"ما يذكّرني بالعمة بابسي هو سلوكك الذي يوقع الكآبة في النفس"، قال نوسوان، تابعاً دينا إلى الغرفة المجاورة، "ما هو عُذرك؟ كنتِ في الجنازة، رأيتِ جثّة راستوم، سمعتِ الصلوات التي أُقيمت له. لقد مات وتحلّل منذ أكثر من عام". وما إن قال ذلك

حتى قلّب عينَيه نحو السماء طالباً الغفران على هذه الوقاحة.

"هل تدركين مدى حُسن حظك في مجتمعنا؟ في الوسط غير المتنوّر، تُعامَل الأرامل كالقُمامة. لو كنتِ هندوسية في الأزمنة القديمة، لتعيّن عليك أن تكوني ساتي صالحة وتقفزي في مَحرقة زوجك، وتُشوَين معه".

"باستطاعتي على الدوام الذهاب إلى أبراج الصمت وحمل النسور على التهامي إذا كان ذلك يُسعدك".

"امرأة وقحة! يا لفمك غير المنضبط! كل ما أقوله هو أنك يجب أن تقدّري حسن حظّك. باستطاعتك عيش حياة كاملة، والزواج مجدداً، وإنجاب أطفال. أم تفضّلين العيش إلى الأبد على إحساني؟".

لم تُجب دينا. ولكن، في اليوم التالي، وخلال وجود نوسوان في العمل، بدأت بنقل مقتنياتها إلى شقة راستوم.

فحاولت روبي إيقافها، تابعةً إيّاها من غرفة إلى أخرى مناشدة: "أنت تعرفين مدى اندفاع شقيقك. هو لا يعني كل ما يقوله".

فأجابتها دينا: "ولا يقول كل ما يعنيه". وواصلت توضيب أغراضها.

في المساء، أخبرت روبي نوسوان بما جرى. "هاه!". قال ساخراً، وبصوت مرتفع ليبلغ الأمر مسامع دينا. "دعيها تذهب إذا أرادت ذلك. أودّ فقط أن أرى كيف ستُعيل نفسها".

بعد العشاء، وبينما كانوا لا يزالون جالسين إلى المائدة، تنحنح: "بصفتي رأس العائلة، من واجبي أن أُعلمك بعدم موافقتي على ما تقومين به. أنتِ تقترفين خطأ كبيراً، وستندمين على ذلك. العالم قاسٍ في الخارج، ولكنني لن أتوسّل إليك لتبقي. أنتِ مرحَّب بك هنا إذا أردتِ أن تكوني منطقية".

"شكراً لك على خطبتك". قالت دينا.

"أجل، اهزئي بي. لقد قمتِ بذلك طوال حياتك، لماذا تتراجعين الآن. تذكّري، إنه قرارك، لا أحد يطردك من هنا. لن يُلقي أيّ من أنسبائنا اللوم عليّ، لقد بذلتُ قُصارى جهدي لمساعدتك، وسأستمرّ في ذلك".

لم يمضِ وقت طويل حتى فهم الولدان أن العمة دينا مغادرة. لقد ارتبكا في بادئ الأمر، ومن ثم غضبا. فخبّأ كزرسس حقيبة يدها، صارخاً: "لا، يا عمتي! لا تستطيعين الذهاب!". وعندما هددت بالمغادرة من دونها، أحضرها لها زارير من المكان الذي خُبّئت فيه باكياً.

"يمكنكما زيارتي على الدوام"، قالت محاولةً تهدئة الاثنين، ومعانقةً إيّاهما، وماسحةً عيونهما، "يومي السبت والأحد، وربما خلال العُطَل المدرسية. سيكون الأمر ممتعاً". فتحمّسا للفرصة السانحة لهما، ولكنهما كانا يفضّلان بقاءها معهما إلى الأبد.

في صباح اليوم التالي لعودتها إلى شقتها، ذهبت دينا لزيارة داراب، عمّ راستوم، وعمته شيرين. "يا داراب! انظر من جاء!"، صاحت العمة شيرين بحماسة، "يا عزيزتنا دينا! ادخلي، يا صغيرتي، ادخلي!".

ظهر العم داراب، وكان لا يزال بلباس نومه، وعانق دينا، قائلاً إنهما انتظرا هذه الزيارة منذ مدة طويلة. قال: "اعذري مظهري". وجلس قبالتها، وارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة.

كما هي الحال على الدوام، تأثرت دينا بسعادتهما لدى رؤيتها. لقد شعرت بحبهما الكبير ينسكب عليها كما لو أنه أمر ملموس، وذكّرها ذلك بحمّام الحليب الذي كانت تحصل عليه في طفولتها بمناسبة ذكرى مولدها، فتقوم والدتها بسكب نصف كوب من الحليب الساخن مع أوراق ورد طافية، فيتقاطر ببطء على بشرتها البنّية الفاتحة فوق وجهها وعُنُقها وصدرها.

قالت دينا: "الجزء الأصعب، هو ترك الولدين الصغيرين. لقد تعلّقت بهما كثيراً".

قالت العمة شيرين: "أجل، هكذا تكون الحال مع الصغار. أتعلمين؟ لقد أخبرنا راستوم عن ظلم شقيقك لك في السنوات التي سبقت زواجكما".

"ليس شخصاً سيّئاً"، أجابت دينا مخالِفةً إيّاهما الرأي، "لديه أفكاره الخاصة عن الأمور".

"أجل، بالطبع"، قالت العمة شيرين، شاعرةً بأهمية الولاء للعائلة، "على أيّ حال، يمكنك البقاء معنا. نحن سعيدان جداً بقدومك".

"آه!"، قالت دينا، ولم ترغب في أن يسيئا فهمها، "في الواقع، لقد قررت العيش في شقة راستوم منذ الآن فصاعداً. جئت فقط لأسألكما عما إذا كان باستطاعتكما العثور لي على عمل".

لقد جعلت كلماتها فم العم داراب يتحرك. فبذل جهداً لابتلاع خيبة الأمل التي ملأته فجأةً، في حين لعبت العمة شيرين بمعطفها بيأس. "عمل؟"، قالت مشدوهة وعاجزة عن التفكير، "يا صغيرتي العزيزة... أجل، عمل، يجب أن تعملي. أي عمل، يا داراب؟ أي عمل لها، هل تفكر؟".

انتظرت دينا جوابه بصمت ملؤه الشعور بالذّنب. ولكنه كان لا يزال يناضل بفمه.

قالـت لـه العمـة موبِّخـة: "اذهب وبدّل ملابسـك، حلّ بعد الظهر تقريباً ولا تزال تتسـكع بلباس نومك".

نهـض بامتثـال وتوجّـه إلـى الداخل. وأفلتت العمة شـيرين معطفها، وفركت وجهها بيدَيها، وجلست منتصبة. ولدى عودة العم داراب بعد استبداله لباس نومه المخطّط باللون الأزرق بسروال كاكيّ اللون وقميص متغضّن، كانت قد فكرت في بدايات حل لدينا.

"أخبريني يا صغيرتي، هل تجيدين الخياطة؟".

"أجل، قليلاً. علّمتني روبي كيفية استخدام آلة الخياطة".

"جيد. إذاً، سيكون لديك عمل. لديّ آلة خياطة إضافية يمكنك أخذها. إنها قديمة جداً، ولكنها تعمل بشكل جيد".

طوال سنوات، أضافت العمة شيرين إلى راتب زوجها الذي كان يتقاضاه من مؤسسة نقـل الولايـة مبلغـاً إضافيـاً من المال تقاضته من خياطة حاجيات عدد قليل من العائلات، كألبسـة النـوم، والقمصـان، وكنـزات للأطفـال، ومـلاءات للأسـرّة، وأغطيـة للوسـادات، وسِـماطات. "يمكنـك أن تكونـي شـريكتي"، قالـت، "هنـاك الكثيـر من العمـل، أكثر مما يمكنني القيام به الآن مع نظري الضعيف. سنبدأ غداً".

فالتقطـت دينـا حقيبة يدها، وعانقت العمة شـيرين والعـم داراب اللذين رافقاها إلى الباب الأمامي. بعد ذلك، حملهم اضطراب في الشارع على الخروج إلى الشرفة؛ كانت هناك مسيرة احتجاجية في الطريق.

"إنها مسيرة غبية أخرى بسبب اللغة"، قال العم داراب بعد أن رأى اللافتات، "يريد هؤلاء الأغبياء تقسيم الولاية على أسس لغوية".

قالـت العمـة شـيرين: "الجميـع يريدون تغييـر الأمور، لماذا لا يسـتطيع الناس تعلّم العيش بسـعادة، وإبقاء الأمور على حالها؟ على أيّ حال، لنعُد إلى الداخل. لا تسـتطيع دينا المغادرة الآن. لقد توقفت حركة السير". قالت بسرور، وتمتعت برفقة دينا لساعتين إضافيّتين حتى عادت الشوارع إلى طبيعتها.

فـي الأيـام القليلـة التالية، تم اصطحاب دينا وتعريفها إلى الزبائن. وفي كل مشـغل، كانت تقف بجانب العمة شـيرين بمزاج عصبي، وتبتسـم بخجل، محاوِلةً حفظ الأسـماء والتوجيهات. واستمرت العمة شيرين في تسليمها معظم الأعمال الجديدة.

وفي نهاية الأسبوع، اعترضت دينا أخيراً: "لا أستطيع قبول هذا الكمّ من الأعمال، لا يمكنني تجريدك من دَخلك".

"يـا صغيرتـي العزيـزة، أنت لا تجرّدينني من أي شـيء. فراتـب تقاعد داراب يكفينا

كلَينا. كنت سأُقلع عن الخياطة على أيّ حال لأن الأمر بات شاقًّا بالنسبة إليّ. هنا، لا تنسَي هذا التصميم الجديد".

إضافةً إلى المهام، زوّدت العمة شيرين دينا بمعلومات عن الزبائن تساعدها في معاملاتها التجارية معهم. "عائلة مونشي هي الفضلى... تدفع من دون تأخير على الدوام، وعائلة باريخ أيضاً، غير أن أفرادها يحبون المساومة. كوني ثابتة في موقفك فحسب، قولي لهم إنني حددت الأسعار. مَن هناك أيضاً؟ آه! أجل، السيد سافوكشاو. كان يواجه مشكلة كبيرة مع الشراب. في نهاية الشهر، يتبقى لزوجته المسكينة القليل من المال. تأكدي من الحصول على دفعة مُسبَقَة".

كان الوضع فريداً مع عائلة سورتي. فكلما تشاجر السيد والسيدة سورتي، تمتنع عن طهو أي وجبة طعام وتسحب كل ألبسة نومه من خزانة الملابس وتُضرم النار فيها، وتضع الرماد والقطع المسودّة في طبق تقدّمه له عندما يعود من العمل إلى المنزل.

قالت العمة شيرين: "وتكون النتيجة هي المزيد من العمل لك. وبعد تسوية الخلافات بينهما كل شهرين أو ثلاثة أشهر، تسلّمك السيدة سورتي طلبية كبيرة من ألبسة النوم. ولكن، يجب عليك التظاهر بأن الأمر طبيعي وإلا تخلّصت منك".

استمرت مجموعة أوصاف الزبائن التي تتلقاها دينا في الازدياد بعد قيام العمة شيرين بتزويدها بمعلومات عن عائلات دافار، كوتوال، مِهتا، بافري، فاتشا، وسيرفاي، وأضافتهم إلى مجموعة الزبائن. قالت: "لا بد من أن كل هذه التفاصيل تضايقك. هناك أمر واحد أخير فقط، وهو الأكثر أهمية: لا تأخذي قياس السادة عندما تكون هناك درزات داخلية. اطلبي نموذجاً للحصول منه على القياسات التي تكونين بحاجة إليها. وإذا تعذّر ذلك، تأكدي من وجود شخص ما، زوجة أو والدة أو شقيقة، عندما تأخذين القياس، وإلا زجّوك في متاعب لا تريدين الدخول فيها. صدّقيني، اختبرت أمراً غير سارّ عندما كنت شابة وبريئة".

لقد ترسّخت هذه النصيحة في ذِهن دينا أكثر من أي نصيحة أخرى عندما تم اصطحابها لمقابلة فريدون، وهو عازب يُقيم بمفرده. لقد حذّرتها العمة شيرين من عدم الذهاب إلى شقته بمفردها. "بالرغم من كونه سيداً كريم الأخلاق، فألسنة الناس مؤذية. سيُشيعون حدوث أمر ما بينكما، ويشوِّهون سمعتك".

لم تكن دينا تهتم بأقاويل الناس، ولم تشعر بأي خطر من فريدون، بل كانت مستعدة لأخذ قياس اللفقة الداخلية إذا طُلب منها ذلك. ولطمأنة العمة شيرين، قالت إن إحدى صديقاتها ترافقها باستمرار. وما لم تقله هو أن تلك الصديقة ليست سوى فريدون لأنه أصبح صديقها بعد

مدة قصيرة. كانت المهام التي يكلّفها القيام بها تتألف بشكل رئيس من خياطة جلابيب صغيرة، وسراويل قصيرة، ومرابيل يقدّمها لأطفال أصدقائه وأنسبائه في ذكرى مولدهم بدلاً من مغلفات محشوّة بالروبيّات.

نمت صداقتهما، وغالباً ما كانت دينا ترافقه إلى متاجر النسيج لمساعدته على اختيار أقمشة الهدايا. وبعد التسوّق، كانا يتوقفان لتناول الشاي والكعك في استراحة باستاني. وكان فريدون يدعوها أحياناً إلى شقته لتناول العشاء، مشترياً في طريقه إلى المنزل قِطع لحم غنم مقليّة. كان يشجعها على الدوام لخياطة نماذج جديدة من الجلابيب، وفرض نفسها على زبائنها، وطلب أسعار أكثر ارتفاعاً.

في الأشهر العديدة التالية، ازدادت ثقة دينا بقدراتها. كانت الخياطة سهلة بفضل تدريب زوجة شقيقها. وواجهت بعد ذلك أمراً معقَّداً، فطلبت مشورة العمة شيرين. لقد حملت زياراتها سعادة كبيرة للعجوزين لدرجة أنها كانت تقصدهما باستمرار، متظاهرةً أن هناك أمراً ما يُربكها: ياقات مزمومة، أكمام راغلان، ثنيات أكورديون.

كانت الخياطة تخلّف وراءها كل يوم قصاصات من القماش، فاقترحت العمة شيرين جمعها. "لا تهدري أي شيء... تذكّري، يمكننا استخدام كل شيء. قد تكون هذه القصاصات مفيدة جداً". وأثبتت لها ذلك على الفور من خلال إعداد فُوَط صحية.

قالت دينا: "يا لها من فكرة جيدة!". فميزانيتها بحاجة إلى تلقّي كل مساعدة ممكنة. وبالرغم من قدرة الحشوات القماشية على الامتصاص أقل من الفُوَط الصحية التي اعتادت شراءها، غير أنه يمكن استبدال الفُوَط الصحية منزلية الصنع مراراً وتكراراً لأن تكلفتها منخفضة. ولمزيد من الاحتراس، ارتدت تنورة قاتمة اللون طوال مدة استخدام هذه الفُوَط.

لقد جعل العمل الوقت يمر بسرعة في الشقة الصغيرة. وباستغراق عينيها وأصابعها في الخياطة، اكتسبت قدرة عالية على سماع الأصوات المحيطة بها. كانت تجمع الأصوات، وتفرزها، وتعيد تذكّرها، مكوّنةً صورة عن الكائنات الحية المقيمة في جوارها، وذلك على غرار قيامها بتحويل القياسات إلى ملابس.

كانت سياسة راستوم المتعلقة بالجيران تقوم على تجنّبهم قدر الإمكان. فإلقاء التحية كافٍ - كما قال - وإلا انتشرت الشائعات، وخرجت الأمور عن السيطرة. لكن، ماذا عن غسل الأوعية والطناجر، وقرع أجراس المنازل، ومساومة الباعة، والضجيج الصادر عن غسل الملابس بالماء والصابون، والنزاعات العائلية، والجدال مع الخدام؛ فكل ذلك ليس سوى كشف عن الأسرار الشخصية. لقد أدركت أن الأصوات الصادرة عن شقتها

تكشف عن قصة حياتها للجيران إذا تكبّدوا عناء الاستماع إليها. لم تكن الخصوصية التامة موجودة، فالحياة حفلة عزف منفرد دائمة بحضور مجموعة من المستمعين.

أحياناً، كانت هوايتها القديمة المتمثلة بحضور حفلات موسيقية مجانية تُغويها، ولكنها ترددت في معاودة ذلك. فكل ما يذكّرها بالأيام الغابرة يجعلها حذِرة؛ لا يمكن للطريق المؤدّي إلى الاعتماد على الذات أن يمرّ عبر الماضي.

بعد مدة قصيرة، وعندما أصبحت خياطة الملابس روتيناً مريحاً بالنسبة إلى دينا، علّمتها العمة شيرين حياكة كنزات صوفية. قالت: "لا يوجد طلب كبير على الملابس الصوفية، ولكنّ بعض الناس يطلبونها بهدف التميّز، أو عندما يخرجون في أيام العُطلة". وعندما كادتا تصلان إلى النماذج المعقدة، قدّمت لها العمة شيرين مجموعتها الكاملة من كتب التصميم وصنّارات الحياكة.

أخيراً، علّمت دينا التطريز، وحذّرتها قائلة: "حياكة مناديل المائدة وأغطية طاولات الشاي بالصنّارة هو أمر شديد الرواج، ومردوده المالي جيد. ولكنه يضعف العيون. لا تزاولي هذا العمل كثيراً وإلا أضرّ بك بعد سنّ الأربعين".

هكذا، وعندما توفيت العمة شيرين بعد ثلاث سنوات، وتلاها العم داراب بعد أشهر قليلة، شعرت دينا بثقة بالنفس وصار بإمكانها تدبّر شؤونها الخاصة. وشعرت أيضاً بالوحدة، لا سيما وأنها فقدت والدَين آخرين.

* * *

بخلاف اقتناع نوسوان بأن أحداً لن يُلقي باللائمة عليه بسبب مغادرة دينا، انقسم الأنسباء بسرعة إلى معسكرَين. ففي حين التزم عدد قليل منهم الحياد، شاعرين بالراحة على جانبَي خط الانقسام، دعم نصفهم على الأقل دينا بعناد. ولإظهار موافقتهم على شخصيتها المستقلة، طرحوا عدداً كبيراً من الأفكار تتناول القيام بمشروعات لجَني المال.

"بسكويت بالزبدة. هناك تكمن السيولة النقدية".

"لماذا لا تؤسسين دار حضانة؟ أي والدة تفضّلك عن سواك للاهتمام بأطفالها بدلاً من الاستعانة بخادمة".

"أعدّي شراب ورد جيّداً ولن يكون عليك الالتفات إلى الوراء. سيشتريه الناس بالغالونات".

كانت دينا تُصغي إلى كل شيء بامتنان، مُميلةً رأسها باهتمام خلال قيامهم بعرض مشروعاتهم. لقد اكتسبت خبرة الإيماء برأسها من دون الالتزام بأي شيء. وعندما يتباطأ

عملها في خياطة الملابس، كانت تقوم بإعداد طلبات الطعام المقدَّمة لها.

بعد ذلك، التمعت فكرة في ذهن صديقتها زنوبيا تتمثل بقص شعر الأطفال في منازلهم. كانت زنوبيا قد حققت ما طمحت إليه في صباها: لقد أصبحت مصفّفة شعر رئيسة في فينوس بيوتي سالون. وبعد إقفال الصالة في الليل، كانت تعلّم دينا بواسطة شعر مستعار معلَّق على جمجمة، وكان المشط يعلق باستمرار في خُصَل الشعر المتشابكة منخفضة الثمن.

طمأنتها دينا: "لا تقلقي، الأمر أكثر سهولة مع الشعر الحقيقي". من الفائض في الصالون، جمعت مجموعة من المقصّات، وآلات قصّ الشعر، وفرشاة، ومشط، وبودرة معطِّرة، ومنفخ للبودرة. أعدّتا بعد ذلك لائحة بأسماء الصديقات والأنسباء والأطفال الذين يمكن استخدامهم كحقل تجارب. ولم يتم تسجيل اسمَي كزرسس وزارير؛ كان نوسوان سيرحّب بهذه الفرصة لادّخار تكلفة قص الشعر، ولكن دينا لم تكن تشعر بالراحة في منزله.

قالت زنوبيا: "اسعَي وراء الأطفال واحداً تِلو الآخر وقصّي شعرهم قصة قصيرة، إنها مسألة تمرين ليس إلا". وراقبت النتائج، وبعد فترة قصيرة، أعلنت أن دينا فرغت من التدريب وباتت جاهزة. وبدأت دينا تتنقل من منزل إلى منزل.

بعد أيام قليلة، أفلس المشروع ولم تحظَ دينا بفرصة قص شعر أحد. لقد غاب عن ذهنها وذهن زنوبيا أن معظم الناس يعتبرون قصاصات الشعر في منازلهم نذير شؤم. وروت دينا لصديقتها العثرات التي واجهتها، وكيف أن فكرة سقوط الشعر على الأرض تجعل الزبائن المحتمَلين يضربون رؤوسهم بالسقف. "يا سيدة، ألا تراعين مشاعر الآخرين؟ ماذا فعلنا لك كي تحملي الحظ العاثر إلى داخل جدراننا؟".

سمح لها بعض الأشخاص بالتدرب على قص شعر أطفالهم، لكنهم اشترطوا عليها القيام بذلك في الخارج. فرفضت دينا ذلك بسبب وجود حدود لما تقوم به. إنها مصففة شعر للأطفال داخل منازلهم، وليست حلاّقة على الرصيف في الهواء الطلق.

بعد ذلك، واصلت دينا عملها كمصففة شعر، واستمر أطفال صديقاتها في الاستفادة من مهاراتها. وكان بعض الفتيان والفتيات الصغيرات يختبئون عندما تصل العمة دينا بسبب تذكّرهم كيفية قيامها بقص شعرهم. وبتحسّن أدائها، تضاءلت خشيتهم من الأمر.

في غضون ذلك، مرّت بأوقات عصيبة عندما لم تتمكن من دفع إيجار المنزل أو تسديد فاتورة الكهرباء. فعندما كانت العمة شيرين والعم داراب لا يزالان على قيد الحياة، كانا يقرضانها أربعين أو خمسين روبيّة. أما بعد وفاتهما، فلم تجد سوى نوسوان بديلاً

عنهما.

قال: "بالطبع، إنه واجبي، هل أنت واثقة من أن ستين روبيّة ستكون كافية؟".

"أجل، شكراً لك. سأُعيدها لك في الشهر القادم".

"لا تستعجلي الأمر. إذاً، أخبريني، هل عثرتِ على حبيب؟".

"لا"، أجابت متسائلةً ما إذا كان يشتبه بأمر ما في شأن فريدون. هل شاهدهما شخص ما معاً، وأخبر نوسوان بالأمر؟

في السنتين اللتين تلتا وفاة العمة شيرين، تطوّر وضع العازب من صديق إلى حبيب. وبالرغم من صعوبة تفكير دينا بالزواج، كانت تستمتع برفقة فريدون بسبب رغبته التامة في تمضية الوقت معها من دون شعوره بوجوب إجراء حديث ذكي، أو المشاركة في النشاطات الاجتماعية العادية التي يقوم بها الثنائي. كانا سعيدين بالجلوس في شقته أو السير في حديقة عامة.

لكن، عندما جازفا بدخول الحديقة الخاصة بالصداقات الحميمة، مرت صداقتهما بمرحلة من التوتر. كانت هناك أمور لم تستطع القيام بها.

لكنه استمر في عدم التذمّر، لذلك أحبّته دينا. لقد عقدت العزم على عدم الكشف عن علاقتها بفريدون لنوسوان لأطول مدة ممكنة.

"لا صديق لديك حتى الآن؟"، قال نوسوان وهو يعدّ المال الذي أخرجه من محفظة نقوده. "تذكّري، لقد بلغتِ الثلاثين. متى جففتِ يكون الوقت قد تأخر للإنجاب. ما زال باستطاعتي أن أجد لك زوجاً محترَماً. لماذا تكدحين في العمل؟".

وضعت المال في حقيبة يدها، ومنحته فرصة للتعبير عن رأيه. لقد سحب الفائدة المستحَقّة على رصيده، قالت في سرّها برباطة جأش: إنه مبلغ زائد عن حدّه قليلاً، ولكن باستطاعتها تسديده لشقيقها الذي يوافق على إقراضها المال.

* * *

كان الكمان لا يزال موجوداً على خزانة الملابس منذ خمس سنوات، ولم يلمسه أحد. ففي أثناء التنظيف نصف السنوي للشقة، كانت دينا تلف قطعة قماش بيضاء على رأسها، وتنظف الجدران والسقوف بمكنسة ذات مقبض طويل، وتمسح أعلى الخزانة من دون تحريك الحقيبة السوداء.

طوال ستة أعوام إضافية، واصلت اعتماد الاستراتيجية نفسها حيال الكمان، غير معترفة تقريباً بوجوده. وحلّت الذكرى الثانية عشرة لوفاته. عندها، قررت أنه من الأفضل

لشخص آخر أن يستخدم هذه الآلة الموسيقيّة ويعزف عليها، بدلاً من تكدُّس الغبار عليها. فوقفت على كرسي وأنزلت الحقيبة. وأصدرت المِشبكات المعدنية الصدئة صوتاً حاداً عندما فتحتها أصابعها. ورفعت الغطاء بعد ذلك، وشهقت.

كانت المنطقة المحيطة بالثقوب التي تحمل شكل f في اللوحة المصوِّتة تالفة، والأوتار الأربعة رَخوة بين الذَّيل وأوتاد الدَّوزنة، وبطانة العلبة ممزَّقة وبالية بفعل الحشرات. والتصقت بيدَيها خيوط صوفية حمراء مائلة إلى اللون الأرجواني. فشعرت بالغثيان. وبيدَين مرتجفتَين، سحبت القوس من حُجَيرته داخل الغطاء. وتدلّى شعر الجياد من أحد طرفَيه كذَيل حصان طويل ورفيع؛ كانت لا تزال هناك بعض الخيوط غير المقطوعة. فأعادت كل شيء إلى مكانه، وقررت اصطحابه إلى أل. أم. فورتادو وشركاه.

في طريقها إلى هناك، كان عليها التنحّي جانباً داخل المكتبة في أثناء قيام المتظاهرين بأعمال شغب في الشارع، محطّمين نوافذ المتاجر، ومُطلقين شعارات ضد تدفّق الهنود الجنوبيين إلى المدينة وسرقة وظائفهم. ووصلت سيارات الشرطة رباعيّة الدفع، لكنّ المتظاهرين كانوا قد أنهوا عملهم وغادروا. فانتظرت دينا بضع دقائق إضافية قبل الخروج من المكتبة.

في أل. أم. فورتادو وشركاه، كان السيد ماسكارنهاس يُشرف على تنظيف قطع الزجاج الكبيرة المحطَّمة المتلألئة والمتناثرة بين قيثارتَين، وبانجو، ونقّارتَين، وذلك على وقع موسيقى أغاني رال كليف ريتشارد. وعاد السيد ماسكارنهاس إلى وراء المنضدة عندما دخلت دينا المتجر مع الكمان.

"يا للعار!"، قالت مشيرةً إلى النافذة.

قال: "إنه ثمن القيام بالأعمال في مثل هذه الأيام". وفتح العلبة التي وضعتها أمامه. لقد حمله المحتوى على العبوس. "وكيف حدث ذلك؟". لم يعرف دينا لأن وقتاً طويلاً مرّ منذ قيام راستوم بتعريفه إليها عندما اشتريا وتراً. "ألا يعزف عليه أحد؟".

"لم يعزف عليه أحد منذ سنوات قليلة".

فحك السيد ماسكارنهاس أُذُنه اليمنى، وعبس بشدة من وراء نظارته السوداء السميكة. "عندما يتم تخزين الكمان، يُفترض إرخاء أوتاره، ووضع القوس بشكل غير مُحكَم"، قال بصرامة، ثم أضاف: "نحن البشر نُرخي أحزمتنا عندما نعود إلى المنزل ونسترخي، أليس كذلك؟".

فأومأت دينا برأسها، شاعرةً بالخجل وسألته: "هل يمكن إصلاحه؟".

"أي شيء يمكن إصلاحه. ولكن السؤال المطروح هو: كيف سيبدو صوته بعد إصلاحه؟".

"كيف سيبدو صوته؟".

"مُريعاً، كالهررة المتقاتلة. ولكن، يمكننا إعادة تبطين العلبة بلبّاد جديد. إنها علبة صلبة وجيدة".

فباعت العلبة للسيد ماسكارنهاس لقاء خمسين روبيّة، تاركةً وراءها بقايا الكمان. وقال إن شخصاً مبتدئاً قد يشتري الآلة المصلَّحة بسعر منخفض. "المبتدئون يُصدرون نوتات حادّة على أيّ حال، ولن تشكل النغمة أي فارق. إذا بيع، فسأدفع لك خمسين روبيّة إضافية".

لقد أراحتها فكرة قيام شاب متحمّس بالحصول عليه. كان راستوم سيحبّ فكرة استمرار كمانه في تعذيب الجنس البشري.

من وقت إلى آخر، كان شعور دينا بالذَّنب بسبب بَيع الكمان يقضّ مضجعها. يا للغباء! قالت لنفسها، صار بحالة سيئة بسبب تجاهله على أعلى الخزانة طوال اثنَي عشر عاماً، فأصيب بالتلف. كان بإمكانها على الأقل إعطاؤه لكزرسس وزارير، وتشجيعهما على أخذ دروس.

ذات صباح، قدِم أحدهم إلى الشقة وقال إن لديه ما يسلّمه للسيدة دلال.

قالت: "أنا هي".

عاد الشاب إلى عربة النقل المقفَلة لإحضار الغرض. كان يرتدي سروالاً ضيّقاً وفقاً للزيّ الشائع، وقميصاً أصفر برّاقاً أزراره العلوية الثلاثة مفكوكة. فتساءلت دينا عمّا إذا كان الكمان. لقد مرت ستة أشهر على أخذه إلى أل. أم. فورتادو وشركاه. ربما أعاده إليها السيد ماسكارنهاس لأن أحداً لم يشتره.

حضر الشاب إلى الباب مجدداً، جارّاً دراجة راستوم المسحوقة، وقال: "إنها من مركز الشرطة".

وقبل أن يطلب منها التوقيع لتأكيد استلام البضاعة، انزلقت يدها عن حافّة الباب، وسقطت على الأرض؛ لقد أُغمي عليها.

قال فتى التسليمات مذعوراً: "يا سيدتي! هل أطلب سيارة إسعاف؟ هل أنتِ مريضة؟". وبدأ يحرّك باضطراب جدول التسليمات، ملوّحاً به أمام وجهها بزوايا مختلفة، آملاً في أن تكون هذه التيارات الهوائية مُجدية، وأن تُعيد النفَس إلى منخريها.

وحين تحرّكت بدأ يلوّح بالجدول بقوّة أكبر وقد شجعه تحسّنها. أمسك مِعصمها

كما لو أنه يبحث عن النبض. لم يكن يعرف ما الذي يتعيّن عليه القيام به بالتحديد، ولكنه كان قد رأى عدة مرات حركة تؤدّى في فيلم سينمائي حيث يكون البطل طبيباً والبطلة ممرّضته الأمينة.

تحركت دينا مرة أخرى، فأفلت فتى التسليمات مِعصمها، مسروراً بنجاحه في الإسعافات الأولية. "يا سيدتي! ماذا حدث؟ هل أُحضر أحداً؟".

فهزت رأسها قائلة: "إنها الحرارة... أنا بخير الآن". ورأت مجدداً الإطار الملتوي والمِقودَين. وتساءلت للحظات عن سبب قيام الشرطة بطلاء الدراجة بلون بنّي مائل إلى الحمرة؛ كانت سوداء.

وبعد قليل، عاد نظرها إلى طبيعته، فقالت: "إنها صدئة تماماً".

"تماماً". وأومأ برأسه، ومن ثم تحقق من بطاقة التعريف التي تحمل رقم الملف والتاريخ. "لا عجب في ذلك. لقد بقيت اثنَي عشر عاماً في غرفة الأدلّة حيث النوافذ محطَّمة والسقف يرشح. مرّ اثنا عشر موسم أمطار، وتعرّضت خلالها للرياح التي تجعل العظام البشرية تصدأ أيضاً".

فصبّت دينا غضبها على الشاب: "هل هكذا يتم التعاطي مع دليل هام؟ إذا ألقوا القبض على المجرم، فكيف سيُثبتون ذلك في المحكمة؟ بواسطة دليل متضرّر؟".

"أوافقك الرأي. ولكن، كل المبنى يرشح، ويبتلّ الموظفون على غرار الأدلّة والملفات الهامة أيضاً. للمدير فقط مكتب جاف".

لقد أراحها قليلاً الشرح الذي قدّمه الشاب، وحاول مجدداً: "أتعلمين، يا سيدتي؟ كان لدينا ذات مرة كيس من الحِنطة في غرفة التخزين. لقد قتل أحدهم المالك لسرقته. كانت هناك لطخات دماء على كيس الخيش، وعندما تسلّمت المحكمة القضية، كانت الجرذان قد نخرت الخيش وأكلت معظم الحِنطة. فرفض القاضي القضية بسبب نقص في الأدلّة". ضحك عندما أنهى الرواية، آملاً أن تدرك الناحية المضحكة.

قالت دينا بغضب: "تجد ذلك مُضحكاً؟ المجرم حرّ طليق. ماذا جرى للعدالة؟".

"الأمر مريع، مريع جداً"، أجاب، موافقاً إيّاها الرأي، وهو يسلّمها جدول التسليمات للتوقيع عليه. شكرها بعد ذلك، وغادر.

تفحّصت نسخة الإيصال الخاص بها. لقد جاء فيه أن الملف أُقفل وأُعيد المُلك إلى أقرب الأنسباء.

لم تكن دينا تصدق الخرافات، ولكنّ ظهور الدراجة مجدداً، بعد مصير الكمان، حدث فاق قدرتها على التحمل. فاعتبرت أن هذه المصادفة تحمل في طيّاتها رسالة لها.

فأكملت الطلب التجاري الأخير الخاص بفريدون والمتمثل بخياطة جِلباب للحفلات لإحدى بنات أشقائه، وسلّمته إيّاه، ثم صافحته، وقالت إنه لن يكون بإمكانها رؤيته بعد ذلك لأنها تخلت عن الخياطة وستتزوج.

* * *

ومنذ ذلك الحين، لم تلتقِ دينا فريدون مرة أخرى. ولتتجنّب لقاءه مصادَفةً، تخلّت عن زبائن آخرين في ذلك المبنى. كان لديها مقدار كافٍ من العمل لإعالتها.

ومرت خمس سنوات كاملة على هذه الحال. وبعد ذلك، تحقق توقع العمة شيرين في الوقت المحدد. ففي الثانية والأربعين من عمرها، ظهر خلل في عينَي دينا. وفي غضون اثنَي عشر شهراً، اضطُرت إلى تغيير نظارتها مرّتَين.

قال الطبيب: "أوقفي إجهاد عينَيك، وإلا يجدر بك تقبّل العمى". كان رجلاً صغير الحجم، نحيلاً، ولديه طريقة مضحكة لثني أصابعه في أثناء التحقق من رؤية المحيط. لقد ذكّر دينا بالأطفال الذين يمارسون لعبة الفراشات.

ولكن صراحته أغاظتها وأخافتها قليلاً. لم تكن تعرف ما الذي يتعيّن عليها القيام به إذا أصبحت الخياطة أمراً مستحيلاً.

لحسن حظها، توصلت إلى حل. لقد أخبرتها صديقتها زنوبيا عن مديرة تصدير في شركة كبيرة للأقمشة. "السيدة غوبتا هي إحدى زبوناتي المنتظمات. لقد قدّمت لها العديد من الخدمات، وباستطاعتها أن تجد لك عملاً بالتأكيد".

بعد ظهر أحد الأيام من ذلك الأسبوع، وفي فينوس بيوتي سالون، ووسط روائح بيروكسيد الهيدروجين الكريهة، ومواد التجميل الكيميائية الأخرى، انتظرت دينا لقاء السيدة غوبتا التي كانت مستكينة تحت مجفِّف للشعر. "دقائق قليلة إضافية أخرى فقط". همست زنوبيا. "فأنا أسرّح لها شعرها بطريقة تجعله يبدو أكثر حجماً، ستكون في مزاج رائع".

راقبت دينا من كرسيّها في منطقة الاستقبال زنوبيا وهي تصفف شعر مديرة التصدير بفنّ هندسي، لا بل نَحتي، وتبتكر نُصُباً تذكارياً. ومع استكمال البناء، ألقت دينا نظرة جانبية على المرآة، متخيّلةً الصَّرح المرتفع على رأسها.

بعد قليل، أُزيلت المشابك ومجعِّدات الشعر باحتراس، وانتهت التسريحة. وقدِمت المرأتان إلى منطقة الانتظار. كانت إطلالة السيدة غوبتا مُشرقة.

"يبدو جميلاً"، قالت دينا بعد انتهاء عملية تعريف إحداهما بالأخرى، شاعرةً أنها مُكرَهة على ذلك.

قالت مديرة التصدير: "آه، شكراً لك. ولكن كل الفضل يعود إلى زنوبيا وموهبتها. ما أقوم به هو تزويدها بالمواد الأولية فقط".

ضحكنَ، وأصرّت زنوبيا على أن الفضل لا يعود لها، وتابعت: "إن بنية وجه السيدة غوبتا - انظري إلى عظمتَي خدَّيها - هي المسؤولة عن النتيجة".

"توقفي! توقفي! أنت تجعلينني أحمرّ خجلاً!"، قالت السيدة غوبتا، مُطلقةً صوتاً حاداً.

بعد مناقشة سحر الشامبو ورذاذ الشعر المستورَدين، حوّلت زنوبيا الحديث باتجاه صناعة الملابس، وذلك بمهارتها المعهودة في لفّ الشعر بشكل حلَزوني ولولبي. كانت السيدة غوبتا سعيدة بالتحدث عن إنجازاتها في أوروفوار إكسبورتس.

قالت: "في غضون عام واحد فقط، ضاعفتُ رقم المبيعات. والآن، ماركات ذات مكانة عالية من مختلف أنحاء العالم تسعى وراء ابتكاراتي". كانت شركتها - استخدمت ضمير المتكلم - قد بدأت بتزويد متاجر في أميركا وأوروبا بملابس نسائية، وأُنجزت خياطتُها محلّياً في معامل صغيرة وفقاً لمواصفات خارجية.

"هذه الطريقة أفضل بالنسبة إليّ بسبب منحاها التوفيري. إنها أفضل من التعاقد مع معمل كبير واحد قد تتوقف أعماله بسبب إضراب. من يريد التعاقد مع العمال المنتمين إلى النقابة إذا كان بالإمكان تجنّب ذلك؟ في هذه الأيام بصفة خاصة، وبوجود كل هذا الاضطراب في البلد، وقادة مثل جاي براكاش نارايان يشجعون على العصيان المدني، لا لشيء إلا للتسبب بمشاكل. هو يظن أنه الماهاتما غاندي الثاني".

بحضّ من زنوبيا، سلّمت السيدة غوبتا أن دينا ستكون مثالية للعمل: "أجل، يمكنك استخدام خياطين بسهولة والإشراف عليهم. ليس عليك إجهاد نفسك".

"لكن، لم يسبق لي أن تولّيت شؤون ملابس معقّدة أو أحدث الأزياء الشائعة"، اعترفت دينا، وقطّبت زنوبيا جبينها، محدّقةً إليها. "كنت أخيط ثياباً بسيطة فقط؛ جلابيب للأطفال، ملابس رسمية للمدارس، ملابس نوم".

أكدت السيدة غوبتا: "الأمر بسيط أيضاً. كل ما يتعيّن عليك القيام به هو اتّباع النماذج الورقية كما تتبعين أنفك".

قالت زنوبيا، منزعجة من تردد دينا: "بالتحديد، ولا حاجة إلى أي استثمار. باستطاعة خياطَين الجلوس في غرفتك الخلفية".

سألت دينا: "ماذا عن صاحب المُلك؟ باستطاعته التسبب بمتاعب جمّة لي إذا شرعت بورشة عمل في الشقة".

قالت زنوبيا: "ليس عليه أن يعرف، لا تُحدثي ضجيجاً فحسب، ولا تُخبري جيرانك أو أي شخص آخر".

سيكون على الخياطَين إحضار آلتي الخياطة الخاصّتين بهما. والعمل بالقطعة أفضل لأنـه يشـكل حافـزاً، فـي حين أن الأَجر اليومي قد يكـون طريقة لإضاعة الوقت. "تذكّري على الدوام أمراً واحداً"، قالت مشدِّدة: "أنت المسؤولة. يجب عليك أن تضعي القوانين. لا تفقدي السيطرة على زمام الأمور أبداً. الخياطون أشخاص غريبو الأطوار جداً؛ يعملون بإبر بالغة الصغر، ولكنهم يتبخترون كما لو أنهم يحملون سيوفاً كبيرة".

فاقتنعـت دينـا، وشـرعت في البحث عن خياطَين، متنقّلـةً في الأزقّة القذرة للمدينة. ويومـاً بعـد يـوم، كانـت تدخل مباني ومتاجـر متصدّعة وغير آمنة كمنزل مصنوع من ورق لعـب تـمّ اسـتخدامه بكثـرة. لقـد صادفت عدداً كبيراً مـن الخياطين؛ جاثميـن في عُلّيات ضيّقة أو في غرف أرضية تبدو كما لو أنها أوكار تحت الأرض، أو منحنين في حُجيرات كريهة الرائحة، أو جالسـين في زوايا الشـارع واضعين أقدامهم بشـكل متصالب؛ ولكنهم كانـوا منهمكيـن بتشـكيلة منوّعـة من المهـام تتراوح ما بين خياطة أغطيـة للفُرش وخياطة ملابس زفاف.

أولئك الذين أبدوا لهفة للانضمام إليها لم تبدُ عليهم القدرة على التعاطي مع العمل المصدَّر. لقد رأت نماذج من أعمالهم: ياقات ملتوية وغير مسـتوية، أكمام غير متلائمة. وأولئك الماهرون بما يكفي أرادوا العمل في أماكن إقامتهم. ولكنه الشرط الصارم للسيدة غوبتـا: يجـب القيـام بأعمال الخياطة تحت إشـراف المتعهد. لا اسـتثناءات؛ ولا حتى إن كانت المتعهّدة صديقة زنوبيا، لأن نماذج أوروفوار سرّية للغاية.

أفضل ما كان باسـتطاعة دينا القيام به هو تدوين عنوانها على أوراق مربّعة صغيرة، ووضعها في مشاغل ذات جودة معقولة. "إذا كنتم تعرفون شخصاً ما يُجيد العمل مثلكم ويحتاج إلى عمل، أرسلوه إليّ". ورمى العديد من مالكي المشاغل الورقة حالما غادرت، وقام بعضهم بلفّها على صورة مخروط مُحكم الإغلاق لحك المنطقة الداخلية من آذانهم قبل رميها.

في غضون ذلك، طرحت زنوبيا اقتراحاً آخر على دينا: إيواء نزيل. فالأمر لا يتطلب أكثـر مـن تأميـن أمور أساسـية قليلة كالسـرير، وخزانة الملابس، والحمّـام؛ وفي ما يتعلق بالوجبات، طهو كمية إضافية قليلة مما تأكله.

قالـت دينـا: "تعنيـن، كمـا لو أنه ضيف مسـتأجِر؟ لا، أبداً. فالضيوف المسـتأجِرون يسـببون متاعـب جمـة. أتذكّـر تلك الحالة في فيروشـا باغ. يا للوقـت المريع الذي قضاه

أولئك المساكين!".

"لا تكوني مصابة بالذُّهان الارتيابي إلى هذا الحد. لن نسمح للنصّابين أو المخبولين بدخول الشقة. فكري في الإيجار الشهري، إنه دَخل مضمون".

"لا، لا أريد المجازفة. لقد بلغني تعرّض العديد من المسنّين والعازبات للمضايقة".

لكنها لانت بسبب تناقص مدّخراتها الضئيلة. وأكدت لها زنوبيا أنهما لن تقبلا إلا بشخص يعوَّل عليه، والأفضلية لشخص يزور المدينة مؤقتاً ولديه منزل يعود إليه. قالت: "أنت ستبحثين عن خياطين، وأنا سأعثر على نزيل".

هكذا، واصلت دينا توزيع اسمها وعنوانها على مشاغل الخياطين، لا بل إنها ابتعدت عن ديارها، مستقلّةً القطار إلى الضواحي الشمالية، إلى نواحٍ في المدينة لم يسبق لها أن زارتها منذ اثنين وأربعين عاماً. وكثيراً ما كانت المسيرات والتظاهرات ضد الحكومة تُعيق جولتها، فتشاهد أحياناً من الطابق العُلوي للحافلة الحشود الصاخبة، ورايات وشعارات تتهم رئيسة الوزراء بسوء ممارسة الحكم والفساد، طالبة منها الاستقالة وصدور حكم قضائي في شأن المسؤول عن سوء إجراء الانتخابات.

تساءلت دينا في سرّها:حتى وإن قامت رئيسة الوزراء بالتنحي عن منصبها؛ فهل سيكون ذلك مفيداً؟

ذات مساء، وبينما كان القطار المحلي البطيء ينتظر تبدّل الإشارة، حدّقت وراء سياج سكة الحديد حيث تتدفّق مياه الصّرف الصحي السوداء من مجرور في باطن الأرض. كان الرجال يسحبون حبلاً اختفى تحت الأرض، وسواعدهم قاتمة اللون حتى المرافق، وتتقطّر من أيديهم ومن الحبل مادة لزجة. وفي الحيّ الفقير وراءهم، تحتدم نيران الطهو، ويلطّخ الدخان الهواء. كان العمال يحاولون فتح المجرور الفائض.

بعد ذلك، خرج فتى من فتحة في الأرض متمسّكاً بطرف الحبل. كانت مياه الصَّرف الصحي اللزجة تغطيه، وعندما وقف، سطع وتلألأ تحت أشعة الشمس بجمال مريع. كان شعره المتصلّب بسبب الأقذار منتصباً كتاج من ألسنة لهب سوداء، ويرتفع وراءه دخان الحيّ القذر نحو السماء، متلوّياً؛ لقد اكتمل المنظر الجهنّمي للمكان.

حدّقت دينا مرتعدةً ومسمَّرةً في مكانها بسبب مظهر الفتى إلى ما يحصل، وغطّت أنفها كي لا تشم الرائحة الكريهة حتى يغادر القطار المنطقة. ولكن مشهد العالم السُّفلي لازمها بقيّة اليوم وطيلة أيام لاحقة.

لقد أرهقتها الرحلات الطويلة والضاغطة، والمشاهد القذرة، وتلاشت معنوياتها أكثر من أي وقت مضى. كان باستطاعة زنوبيا رؤية ذلك في عينَيها. "ما سبب اكتئاب هذا

الوجه؟"، قالت قارصةً خدّ دينا برفق.

"لقد أعياني هذا الجهاد. لا يمكنني مواصلة البحث".

"لا يجب أن تستسلمي الآن. انظري، لقد اتصل بي المزيد من الأشخاص بخصوص ضيوف مستأجِرين، وأحدهم مانيك كولاه؛ ابن آبان. هل تتذكرينها؟ كانت في المدرسة معنا. لقد وجّهت لي رسالة أخبرتني فيها أن مانيك يكره دار السكن في كلّيته، وأنّه متلهّف للانتقال. أريد فقط التأكد من اختيار شخص صالح".

"كل أجور السفر بالقطار هدر للمال"، قالت دينا، غير مُصغية. أرادت موافقة صديقتها على التخلي عن الرحلات المستنزِفة للنشاط.

"ولكن، فكّري في الأمر؛ بعد عثورك على خياطَين، ستغدو حياتك سهلة للغاية. هل تريدين التخلي عن استقلالك والعيش مع نوسوان أم ماذا؟".

"لا تذكري هذا الأمر وإن كان على سبيل المزاح". لقد أقنعها ذلك بمواصلة ترك عنوانها في مزيد من مشاغل الخياطة. وبدت كالطفلَين التائهَين في قصة الجنيات تلك التي نسيت عنوانها، اللذين تركا وراءهما قطع خبز لتحديد طريق المَسير، أملاً في إنقاذهما. ولكن الطيور التهمت الخبز. هل سيتم إنقاذها؟ تساءلت، أم أن خط مَسيرها المؤلف من أوراق ستلتهمه الرياح، ومياه الصَّرف الصحي السوداء، وجيش جامعي الأوراق الذين يطوفون في الشوارع حاملين حقائبهم؟

مُرهَقة ومثبَطة العزيمة، دخلت زُقاقاً يتدفق في وسطه جدول مياه مبتذَلة، تتمايل على صفحته قشور الخضار، وأعقاب السجائر، وقشور البيض. وفي مكان أبعد، يضيق الزقاق، ويتحول بأكمله تقريباً إلى أُخدود. كان الأطفال يحرّكون المراكب الورقية على صفحة السائل، مطاردين إيّاها وهي تنساب ببطء في التيار. وفوق الجدول، وُضِعت ألواح خشبية لتشكل ممرات إلى داخل المشاغل والمنازل. وعندما يُبحر مركب تحت لوح خشبي، ويظهر من الجانب الآخر، كان الأطفال يصفقون فرِحين.

وسمعت دينا قعقعة آلة خياطة صادرة من مدخل منزل أحدهم. فقررت أن يكون الخياط الأخير لذلك اليوم، وعبرت اللوح الخشبي بحذَر، وتوجهت إلى المنزل مباشَرةً.

وفي منتصف المسافة التي تفصلها عن المنزل، غرقت قدمها في بقعة متعفّنة. فأطلقت صرخة وجيزة وحافظت على توازنها، ولكنها فقدت أحد حذاءيها. فتدخّل الأطفال صائحين، وباحثين تحت صفحة السائل الأسود، ومتنافسين لانتشال حذائها.

ووصلت إلى مدخل المشغل، واستردت حذاءها المبلَّل، وأعطت الفتى الصغير المتحمس الذي عثر عليه قطعة نقدية من فئة خمس وعشرين بايزاً. كان صوت آلة

الخياطة قد توقف، ووقف الخياط عند مدخل الباب بعد أن لفتت حالة الهيجان انتباهه.

"ما الذي تخططون للقيام به مجدداً، يا أيها الأوغاد؟". صاح في وجه الأطفال.

"إنهم يساعدونني"، قالت دينا، "كنت قادمة إلى مشغلك عندما سقط حذائي من قدمي".

"آه"، قال مهمهماً، "إنه سلوكهم السيّئ على الدوام". وبدّل نبرة صوته بعد أن علِم أنها زبون محتمَل. "رجاءً، ادخلي رجاءً".

لقد أثبط استعلامها عن خيّاطين عزيمته. فصرفها قائلاً بلا مبالاة: "حسناً، سأحاول"، محرّكاً شريط القياس بأصابعه في أثناء تدوينه اسمها وعنوانها.

وفجأةً، أشرق وجهه: "لكنك قدمتِ إلى المكان المناسب. لديّ خيّاطان رائعان. سأرسلهما إليك غداً".

"حقاً؟". سألت مرتابةً من تبدّل موقفه.

"آه أجل. إنهما خياطان ماهران، وإن لم يكونا كذلك لتبرّأتُ من اسمي نواز. هما لا يملكان مشغلاً خاصاً بهما، فهما يخرجان للعمل. ولكنك ستكونين سعيدة بعملهما".

"حسناً، سأراهما غداً". وغادرت من دون توقّع أي شيء. لقد قُطعت عليها وعود كاذبة في الأسابيع القليلة الماضية.

لدى وصولها إلى المنزل، غسلت قدمَيها ونظفت حذاءها، شاعرةً بالغثيان لدى تفكيرها في ذلك الزقاق حيث كان الأطفال يلعبون بمراكبهم الورقية. ولم تتعزز آمالها؛ لا بوعد الخياط، ولا بتأكيد زنوبيا بوجود نزيل في متناول اليد هو ابن زميلتها في المدرسة، مانيك كولاه، وبقدومه في أي يوم لمعاينة الغرفة.

وهكذا، عندما رنّ جرس الباب في صباح اليوم التالي، رحّبت دينا بتبدّل حظها بذراعَين مفتوحتَين. لقد وقف الضيف المستأجِر عند بابها، وبرفقته خياطان يُدعيان إيشفار وأومبراكاش دارجي.

كما قالت زنوبيا، لقد وصل الثلاثي إلى شقتها معاً.

لتكبر الأحلام

كان مظهر مكاتب أوروفوار إكسبورتس ورائحتها مماثلَين لمظهر مخزن بضائع ورائحته. فعلى الأرض رُزم أقمشة مكدَّسة وملفوفة بالخَيش. وتفوح رائحة مواد كيميائية حادة من الأقمشة الجديدة. وتتبعثر على الأرض المغطاة بالغبار قصاصاتُ أقمشة غير ملوّثة، وورق، وخيوط مصّيص، ومواد للتوضيب. ورأت دينا المديرة جالسة وراء مكتب مخفي خلف رفوف معدنية.

"مرحباً يا صديقة زنوبيا، يا سيدة دلال، كيف حالك؟"، قالت السيدة غوبتا.

تصافحتا، ونقلت إليها دينا خبر العثور على خياطَين ماهرَين، واستعدادها للشروع بالعمل.

"رائع، رائع تماماً!"، قالت السيدة غوبتا. ولكن، من الواضح أن حسّ الفكاهة الممتاز لديها لم يتسبب به خبر دينا فقط، وسرعان ما ظهر السبب الحقيقي: كان لديها موعد آخر في فينوس بيوتي سالون بعد ظهر ذلك اليوم. سيتم ترويض الخُصل المتمردة التي أفلتت من مكانها في الأسبوع السابق ويُعاد لفّها.

فهذا الحدث وحده كافٍ لإسعاد السيدة غوبتا. ولكن، كانت هناك أخبار أكثر إبهاجاً: لقد أُزيلت أسباب مزعجة أخرى من حياتها، فقد سُجن معظم أعضاء المعارضة البرلمانية، إضافةً إلى آلاف المنتسبين إلى نقابة العمال، والطلاب، والعاملين الاجتماعيين، وذلك بعد إعلان رئيسة الوزراء في اليوم السابق حالة الطوارئ الداخلية. "أليس خبراً جيداً؟"، سألت بفرح.

فأومأت دينا برأسها، متشككة. "ظننتُ أن المحكمة وجدتها مذنبة بالغش في الانتخابات".

قالت السيدة غوبتا: "لا، لا، لا!، كل ذلك هراء. سيتم استئناف الحكم. لقد سُجن كل أولئك المتسببين بالشغَب الذين اتهموها بشكل زائف. لا مزيد من الإضرابات والمسيرات والاضطرابات السخيفة".

"آه، جيد"، قالت دينا بعصبية.

فتحت المديرة دفتر الطلبات التجارية، واختارت نموذجاً للمهمة الأولى. "الآن، هذه الملابس البالغ عددها ستة وثلاثين اختبار لك. إنها اختبار للمهارة، والدقة، والتماسك. إذا أثبت خيّاطاك جدارتهما، فسأستمر في تزويدك بطلبات؛ طلبات أكبر حجماً"، قالت واعدة، "كما أخبرتك في السابق، أفضّل التعاطي مع متعهّدين خاصّين. المتكاسلون المنتمون إلى نقابة العمال يريدون العمل وقتاً أقل، وتقاضي المزيد من المال. هذه هي مصيبة هذا البلد؛ الكسل. وبعض القادة الأغبياء يشجعونهم، طالبين من الشرطة والجيش عصيان الأوامر غير القانونية. أخبريني الآن، كيف يمكن للقانون أن يكون غير قانوني؟ إنّه هراء مثير للسخرية. إنه ملائم لهم تماماً، لقد رُموا في السجن".

"أجل، إنه ملائم لهم تماماً"، كررت دينا، مستغرقة في تأمّل تصميم الفستان. لقد تمنّت قيام المديرة بالانصراف إلى العمل والكف عن التحدث عن السياسة. "انظري، يا سيدة غوبتا، عرْض الهُدب في الفستان العيّنة يبلغ ثلاث بوصات، ولكنه بوصتان فقط وفقاً للنموذج الورقي".

كان التباين قليلاً جداً بالنسبة إلى السيدة غوبتا، فأومأت برأسها، وهزت كتفَيها مما جعل الساري ينزلق عن كتفها. فمدت يدها بسرعة لإيقاف الانزلاق قائلة: "لله الحمد لأن رئيسة الوزراء خطت خطوات حازمة، كما قالت في الإذاعة. نحن محظوظون بوجود شخص قوي في هذا الوقت الخطر".

لوّحت بيدها، طارحةً مزيداً من الأسئلة: "أنا أثق بك، يا سيدة دلال، اتّبعي عيّنتي فحسب. ولكن، هل رأيت المُلصقات اليوم؟ لقد وُضعت في كل مكان".

لم ترها دينا. كانت تريد بشدة قياس الأقمشة المخصصة للملابس البالغ عددها ستة وثلاثين للتحقق من عدم وجود نقص. وبعد إعادة التفكير، قررت ألا تقوم بذلك لأن من شأنه جرح مشاعر المديرة.

"الحاجة الفورية إلى الانضباط. إنها رسالة رئيسة الوزراء على المُلصق. وأظن أنها مُحقة تماماً". وانحنت السيدة غوبتا أكثر فأكثر باتجاهها وأسرّت لها بهدوء: "إن وضع عدد قليل من المُلصقات عند مدخل أوروفوار لن يكون فكرة سيّئة. انظري إلى ذَينك الوغدَين في الزاوية. إنهما يتبادلان أطراف الحديث بدلاً من تعليق رفوفي".

فأطلقت دينا صوتاً متعاطفاً وهزت رأسها قائلة: "هل أعود بعد أسبوع؟".

"أجل، رجاءً. وأتمنى لك الحظ الأفضل. تذكّري، كوني حازمة مع خياطَيك وإلا جلسا على رأسك".

شرعت دينا بتوضيب الثوب، ولكنها أُوقفت عن ذلك. لقد طقطقت المديرة مرتين

بأصابعها لاستدعاء رجل لحمل المواد إلى المصعد.

"سأوصل سلامك إلى زنوبيا بعد ظهر هذا اليوم. تمنّي لي بعض الحظ أيضاً"، قالت السيدة غوبتا مقهقِهة. "سيكون شعري المسكين تحت رحمة النصل مرة أخرى".

"أجل، بالطبع، حظاً سعيداً".

أحضرت دينا إلى المنزل لفّات الأقمشة، وأعدّت مكاناً للخياطَين في الغرفة الخلفية. فالضيف المستأجِر لن ينتقل حتى الشهر التالي مما سيمنحها الوقت لتعتاد على أمر تِلوَ الآخر. حدّقت جيداً إلى النماذج الورقية، وتفحّصت رُزمة اللُّصاقات: شانتال بوتيك، نيويورك. ومن دون الحصول على أي قسط من الراحة، قررت البدء بقص النماذج وإعدادها ليوم الاثنين. فتساءلت عن حالة الطوارئ. إذا وقعت أحداث شغب، فقد لا يتمكن الخياطان من القدوم، حتى إنها لم تكن تعرف مكان إقامتهما. إذا لم تلتزم بتاريخ تسليم هذه الشحنة الاختبارية، فستترك انطباعاً رهيباً.

وصل فردَي آل دارجي يوم الاثنين عند الثامنة صباحاً مستقلّين سيارة أجرة مع آلتي الخياطة الخاصتين بهما. "شراء بالتقسيط"، قال إيشفار، مربّتاً بفخر على الآلتين، "بعد ثلاث سنوات، ستصبحان مُلكاً لنا بعد تسديد الدَّفعات".

مما لا شك فيه أن كل ما كان باستطاعة الخياطَين ادّخاره دفعاه للقسط الأول، وذلك لأنها اضطُرت إلى دفع أجرة سائق السيارة الذي أقلّهما. "رجاءً، احسمي الأجرة مما سنكسبه هذا الأسبوع"، قال إيشفار.

أُدخلت آلتا الخياطة إلى الغرفة الداخلية، ثم وضع الخياطان أحزمة التشغيل في مكانها، وعدّلا أدوات ضبط الشدّ، ووضعا البكَرات، واختبرا الدرزات على أقمشة مُهمَلة. وبعد خمس عشرة دقيقة، أصبحا مستعدَّين للبدء بالخياطة.

كانا يخيطان كشخصين وديعين، قالت دينا في سرّها. وتأرجحت دوّاستا آلتي الخياطة، ونشط دولابا ضبط السرعة بينما كانت الإبرتان تثبان على القماش في خطوط ضيّقة ومرتَّبة. وشيئاً فشيئاً بدأت لفّات القماش غير المطوية تتحول إلى أكمام، وياقات، وأجزاء أمامية، وأجزاء خلفية، وثنيات، وتنانير.

كان عليها تذكير نفسها باستمرار بأنها المشرفة وأنه لا يجب عليها المشاركة في العمل. فجالت في أرجاء الغرفة، متفحّصةً القطع المنجَزة، ومشجعةً إيّاهما، ومقدّمةً النصائح. وأمعنت النظر إلى الخياطين المنحنيَين فوق الآلتين، بجبينَيهما المجعَّدَين. لقد أثارت أظفار أصابعهما الصغيرة التي يبلغ طولها بوصة واحدة اهتمامها؛ كانا يستخدمانها لثَني الدرزات وصنع طيّات. كان خدّ إيشفار المشوَّه هزليّ المظهر برأيها: ما الذي تسبب

له بذلك؟ فهو لا يبدو من النوع الذي يدخل في قتال بالسكاكين، كما أن ابتسامته وشاربَيه المضحكَين تميل إلى التخفيف من الضرر. وحوّلت نظرها إلى أومبراكاش الصامت. فمظهره الخارجي شديد النحول المماثل للهيكل العظمي يبدو امتداداً تلقائياً لآلة الخياطة. إنه هشّ ككوب من الكريستال، قالت لنفسها بقلق. وفي ما يتعلق بشعره المشبَع بالدهون، أملت ألا يلطّخ الملابس.

حلّ وقت الغداء وانقضى، واستمرا في العمل، غير متوقفَين إلا لطلب جرعة ماء. "شكراً لك"، قال إيشفار، مبتلعاً إيّاها، "إن المياه لذيذة جداً وباردة".

"ألا تتناولان الغداء في هذا الوقت؟".

هزّ رأسه بحماسة كما لو أن الاقتراح غير معقول. "وجبة واحدة في الليل كافية، وما زاد عن ذلك هدر للوقت والطعام". وبعد توقف قليل، سأل: "يا سيدة دينا، ما قصة حالة الطوارئ هذه التي سمعنا بها؟".

"إنها مشاكل حكومية؛ خِدَع يمارسها من هم في السلطة. هي لا تؤثّر في الأشخاص العاديين أمثالنا".

همهم أومبراكاش: "هذا ما قلتُه. كان عمي قلِقاً بلا مبرِّر".

وعادا إلى آلتي الخياطة، وشعرت دينا بأن العمل بالقطعة فكرة لامعة. فغسلت الكوب ووضعته في مكان منفصل. فمنذ الآن فصاعداً سيكون كوب الخياطَين.

بمشارفة فترة بعد الظهر على الانتهاء، بدا إيشفار غير مرتاح وراء آلة الخياطة الخاصة به. فلاحظت أنه مائل إلى الأمام على نحو مُحدَودب، وقد ألصق ساقَيه ببعضهما كما لو أنه مصاب بتشنّج مِعَوي. وبدأت قدماه تتعثّران على الدوّاسة.

"ما الأمر؟".

"لا شيء، لا شيء"، وابتسم مُحرَجاً.

وهبّ ابن شقيقه لنجدته، رافعاً إصبعه الصغيرة: "يريد دخول الحمّام".

"لماذا لم تقل ذلك من قبل؟".

"كنت مُحرَجاً من طلب ذلك"، قال إيشفار خجِلاً.

فأرشدته إلى الحمّام. وأُقفل الباب، وسمعت تدفّق الماء في المرحاض.

دخل أومبراكاش بدَوره إلى الحمّام عندما عاد إيشفار. "لن تتمكن من استخدام ماء الخزان الخاص بالمرحاض قبل مدة قصيرة"، قالت له دينا، منادية، "اسكب بعض الماء من الدلو".

لقد أزعجتها الرائحة المنبثقة من الحمّام. فقالت لنفسها إن إقامتها بمفردها طوال

هذه المدة جعلتها شـديدة الحساسـية. أنظمة غذائية مختلفة، عادات مختلفة؛ من الطبيعي أن تكون رائحة بولهما غريبة.

* * *

ازدادت كومة الملابس المنجَزة من دون أن يكون على دينا القيام بأي شيء باستثناء فتح الباب لهما كل صباح، فيحيّيها إيشفار أو يبتسم لها، في حين يمرّ أومبراكاش الهزيل بالقرب منها بسرعة من دون قول أي كلمة. ثم يجثم على كرسيّه كبومة صغيرة متذمّرة.

لقـد أُنجـزت الدزينـات الثـلاث من الملابس قبل الموعد المحدَّد، وسُـرّت السـيدة غوبتـا بالنتائـج. فمنحـت دينـا مهمة جديدة قوامها خياطة سـت دزينات مـن قِطع الثياب، ووضعـت دينـا فـي حقيبـة يدها أَجر أول دفعة من الملابس. فشـعرت بالذَّنب لأنها تجني المـال مـن دون القيـام بـأي عمـل. فهذه الطريقة أسـهل من إلحاق الأذى ببصرها بسـبب الخياطة والتطريز.

شـعر الخياطان بارتياح كبير بسـبب موافقة شـركة التصدير على عملهما. "إذا قُبلت المجموعة الأولى، فلن نواجه أي مشـكلة مع الثياب الأخرى". قال إيشـفار بثقة مفاجئة، خلال قيامها بدفع أجرتهما.

أجابـت دينـا، محـذّرة: "أجـل، ولكنهم سـيتحققون من الجودة باسـتمرار. لذلك لا يمكن أن نكون مهمِلين، وعلينا التسليم في الوقت المحدد".

قـال إيشـفار: "لا تقلقـي، يـا سـيدتي. إنتاج بأعلـى جودة على الـدوام، وفي الوقت المحدد". وتجرّأت دينا على الاعتقاد بأن أيام الكدّ والعناء شارفت على الانتهاء.

بدأ الخياطان بأخذ فترات استراحة منتظمة لتناول الغداء. واستنتجت دينا أن صيغة الوجبة الواحدة في اليوم التي أشـار إليها إيشـفار في الأسـبوع السـابق لا تعود إلى الرغبة في التقشّـف أو إلى نظام عمل صارم، بل إلى أسـباب اقتصادية. ولكنها سُرّت بتحسـن مشروعها التجاري.

أعلن أومبراكاش: "أنا جائع، لنذهب". فوضعا الملابس جانباً، وأعادا مِقص الخياط إلى الدُّرج، وغادرا.

لقد تناولا الطعام في فندق فيشـرام فيدجيتريان أوتل القائم عند زاوية الشـارع. لم تكن هناك أي أسرار في فيشرام؛ إذ يتم إعداد كل شيء في الخارج: رجل يقطّع الخضار، وآخـر يقليهـا فـي طنجرة سـوداء مرتفعة الأطراف، وفتى يغسـل الأطبـاق. وبوجود طاولة واحدة فقط في المطعم الصغير، لم ينتظر إيشـفار وأومبراكاش شـغور مقعدَين بل تناولا

الطعـام وهمـا واقفـان مع الحشـد في الخارج. وبعد ذلك، أسـرعا فـي العودة إلى العمل، ومرّا بمتسوّل مبتور الساقَين يتدحرج إلى الوراء والأمام على منصته التي تُحدث دواليبها الصدئة صريراً.

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت دينا تلاحظ أن الخياطة لم تعُد تتم بالسرعة نفسها كما في السـابق. وازداد عدد التوقفات المؤقتة عن العمل. لقد قالت لنفسـها إنهما كسـبا قليلاً من المال وبدأا يتكاسلان كما هي الحال على الدوام.

تذكـرت نصيحـة زنوبيـا والسـيدة غوبتـا: يجب أن تكون مسـؤولة حازمة. فأشـارت بصوت اعتبرته صارماً إلى أن العمل يتباطأ.

قال إيشـفار: "لا، لا تقلقي، سـينتهي كل شـيء في الموعد المحدد. ولكن يمكننا التدخين في أثناء الخياطة للاستفادة من الوقت إذا رغبتِ في ذلك".

كانت دينا تكره رائحة السـجائر، كما أنه من شـأن انطلاق شـرارة إحداث ثقب في الثوب. قالت: "لا يُفترض بكما التدخين في أي مكان، في الداخل أو في الخارج. فَداء السرطان سيلتهم رئاتكما".

قـال أومبـراكاش: "ليـس علينا القلق بشـأن السـرطان، هـذه المدينة مرتفعـة التكلفة ستلتهمنا أولاً ونحن حيّان بالتأكيد".

"ما هذا؟ أخيراً أسمعك تتكلم؟".

فضحك إيشفار قائلاً: "قلتُ لك إنه لا يتكلم إلا عندما يخالف أحدهم الرأي".

قالت: "ولكن، لا تقلقا بشأن المال. اعملا بكدّ وستكسبان الكثير منه".

"أنت لا تقصدين المبلغ الذي نتقاضاه منك"؛ همهم أومبراكاش هَمساً.

"ماذا؟".

قال إيشفار بسرعة: "لا شيء، لا شيء، كان يتحدث إليّ. إنه مُصاب بصُداع".

فسـألته عمـا إذا كان يرغـب فـي تنـاول حبة دواء لتخفيف الألـم، ولكن أومبراكاش رفض، ومنذ ذلك الحين بات يتكلم أكثر فأكثر.

سأل: "هل تُضطرين إلى الذهاب بعيداً لإحضار لوازم العمل؟".

قالـت دينـا: "ليـس بعيـداً، يتطلب الأمر سـاعة واحدة تقريباً". وسَـرّها تأقلمه، وبذله جهداً للانسجام مع الجوّ المحيط به.

"إذا كنتِ بحاجة إلى مساعدة على نقل الملابس إلى هناك، أعلمينا بالأمر".

يا للطفه! فكّرت في سرّها.

"وما اسم الشركة التي تقصدينها؟".

سعيدةً بانتهاء فترات صمته الكئيبة، كادت تلفظ اسم الشركة، ولكنها ادّعت عدم سماعها السؤال. فكرّره.

قالت: "لماذا القلق بشأن الاسم، كل ما يهمّني هو العمل".

"تماماً". وافقها إيشفار الرأي، "هذا ما يهمّنا أيضاً".

فتجهّم وجه ابن شقيقه، وحاول مجدداً بعد فترة وجيزة: هل هناك شركة واحدة أم عدة شركات مختلفة؟ هل تحصل على عمولة؟ أم على أجر محدد لقاء إنجاز المهمة بأكملها؟

فأُحرج إيشفار وقال له: "قلّل كلامك، يا أومبراكاش، واعمل أكثر".

حينذاك، تاقت دينا إلى عودة أومبراكاش إلى صمته. لقد أدركت ما الذي يسعى إليه، وتأكدت منذ ذلك اليوم فصاعداً من عدم حمل المواد التي تصطحبها من أوروفوار إكسبورتس أي علامة عن مَنشئها، وصارت تُمزّق اللصاقات وبطاقات التعريف عن الرُّزم، وتقفل على الفواتير في الخزانة. وبدأ تفاؤلها يتضاءل في أثناء محاولتها التواصل مع الخياطَين. لقد علمت أن الطريق بات وعراً.

* * *

كان الخياطان يقيمان بعيداً تحت رحمة سكك الحديد. ومع ذلك، فقد كان تأخرهما يُقلقها، وكانت تخشى من تخليهما عنها لأجل أعمال ذات أجور أفضل. وبما أنها لم تكن تريد منهما أن يشتبها في مخاوفها، كانت تُخفي ارتياحها على الدوام لدى وصولهما، مُظهرةً أمارات الاستياء.

قبل يوم واحد من موعد التسليم، لم يصلا حتى العاشرة. شرح إيشفار: "لقد وقع حادث، وأُرجئت رحلة القطار، كان هناك شخص فقير آخر مَيت على خطوط سكك الحديد".

قال أومبراكاش: "تقع أحداث مماثلة في كثير من الأحيان".

كانت رائحة معدتَيهما الفارغتين التي تفوح من فاهَيهما غير مستساغة، ولم تكن مهتمة بأعذارهما. فكلما جلسا أمام آلتي الخياطة في وقت مبكّر كان ذلك أفضل.

لكن صمتها قد يساء تفسيره على أنّه ضعف، لذلك قالت بجفاء: "بالرغم من حالة الطوارئ، تقول الحكومة إن القطار يسير في الوقت المحدد. من الغريب أن قطاركما يستمر في التأخر".

"لو التزم أعضاء الحكومة بوعودهم لزيّنوا بالأكاليل"، قال إيشفار ضاحكاً وهو يومئ

برأسه بشكل دائري مهدّئ للخواطر.

لقد سرّها منحاه السلمي فابتسمت، وشعر بالارتياح لأن تعريض الدخل المنتظم للخطر سيكون أمراً غبياً؛ فأومبراكاش وهو محظوظان جداً للعمل لصالح دينا دلال.

فسحبا كرسيَّيهما الخشبيَّين، ووضعا مكّوكَين جديدَين، وبدأا بالخياطة بينما كانت السماء تستعدّ لإنزال المطر. وألقت السُّحب الرمادية الموحية بالكآبة بظلالها على الغرفة الخلفية. فألمح أومبراكاش إلى أن المصباح الكهربائي بقوة أربعين واطاً قليل الإضاءة.

قالت: "إذا تجاوزتُ الكوتا الشهرية، فسيتم فصل عدّادي. وحينذاك ستكون الظلمة تامة".

واقترح إيشفار نقل آلتي الخياطة إلى الغرفة الأمامية الأكثر إنارة.

"هذا غير ممكن. ستُرى الآلتان من الشارع، وعندها سيسبب لنا صاحب المُلك المتاعب. من غير القانوني استخدام الشقة كمعمل، حتى وإن كانت هناك آلتا خياطة فقط. إنه يضايقني لأسباب أخرى".

لقد فهم الخياطان الأمر؛ هما يدركان أيضاً مضايقات أصحاب المُلك. فعملا طوال الصباح بانتظام وبطناهما يقرقران بانتظار استراحة الظُّهر. لم يأكلا شيئاً منذ مغادرتهما المنزل.

قال أومبراكاش: "كوب شاي مزدوج لي اليوم، وفطيرة مغمَّسة بالزبدة".

قال إيشفار: "انتبه إلى آلتك، وإلاّ سينتهي بك الأمر مزدوجَ الأصابع بدلاً من الحصول على شاي مزدوج". استمرا في التحقق من الوقت. وعندما حان وقت استراحتهما، رفعا أقدامهما عن الدواستَين، وانتعلا خفَّيهما.

قالت دينا: "لا تذهبا الآن، إنه عمل طارئ، ولقد تأخرتما هذا الصباح. ستغضب المديرة بشدة إذا تمّ إرجاء تسليم الملابس". كانت قلقة بشأن موعد التسليم، ماذا لو قدِما متأخرَين في صباح اليوم التالي أيضاً. كوني حازمة، كوني صارمة، ذكّرت نفسها.

فتردد إيشفار لأن ابن شقيقه لن يُسرّ بالاقتراح. لقد أكدت نظرته المستفهِمة الأمر، وكذلك حملقته الغاضبة.

همهم أومبراكاش من دون النظر إلى دينا: "لنذهب أنا جائع".

قالت لإيشفار: "ابن شقيقك جائع على الدوام، هل يعاني من الديدان؟".

"لا، لا، أوم بخير".

لم تقتنع دينا. كان الارتياب قد زحف إلى عقلها في الأسبوع الأول من بدء عملهما لديها. فبالإضافة إلى نحول أومبراكاش وتذمّره المتواصل من آلام في الرأس ومن الجوع، كثيراً ما كانت تلمحه وهو يحكّ مؤخرته. فشعرت بأنه دليل قاطع على صحة شكوكها.

"يُفترض بك اصطحابه إلى طبيب لإجراء فحص شامل له".

"لا، لا، هو بخير. ومن يملك المال لدفع أجرة الطبيب؟".

قالت مُلاطِفة: "اعملا بكدّ، وسيكون لديكما الكثير منه. أنهيا هذا العمل بسرعة، كلما أسرعتُ بتسليمه، حصلتما على مالكما بسرعة".

قال أومبراكاش بحدّة: "خمس دقائق لارتشاف الشاي لن تُحدث فَرقاً".

"دقائقكما الخمس تصبح على الدوام خمساً وثلاثين دقيقة. اسمعا، سأُعدّ لكما الشاي في وقت لاحق. إنّه شاي فاخر، وليس ذاك المخمَّر بإفراط. ولكن أنهيا العمل. بهذه الطريقة، يكون الجميع سعداء؛ أنتما، وأنا، والمديرة".

"حسناً"، قال إيشفار مستسلِماً، وخلع خفَّه وعاد إلى مكانه. لم تكن الدواسة التي ازدادت حرارتها قد بردت بعد لأنه لم يتسنَّ لها الوقت لذلك.

رغم عمل آلتي الخياطة بأقصى سرعة، بلغت همسات أومبراكاش الغاضبة مسامع عمّه عبر صخَب الإبرتين اللتين كانتا تُحدثان طرَقات متكررة: "تسمح لها بالتعالي علينا باستمرار. لا أعرف ما خطبك. دعني أتكلم منذ الآن فصاعداً".

أومأ إيشفار برأسه، مهدّئاً غضب ابن شقيقه. كان يتجنب الدخول في جدال مع أوم أو توبيخه على مسمع من دينا.

عند الساعة الثانية، وفي أثناء تسبب ضجيج الآلتين بخفقان في صدغَيها، قررت دينا تسليم ما تم إنجازه. كانت متضايقة من نفسها. فاختلاق الحُجج ورشوة الخياطَين بالشاي ليس مثالاً جيداً عن مسؤولة حازمة. فاستنتجت أن الأمر يتطلب مزيداً من الممارسة للتعوّد على تطويعهما.

فسحبت من تحت طاولة العمل الملاءة البلاستيكية البيضاء والورقة البنّية اللتين وصلت فيهما لفّات القماش من أوروفوار. ومتذكرةً نصيحة العمة شيرين، لم تهدر شيئاً. فقُصاصات القماش الصغيرة تستمر في التكدس بكميات كبيرة بما يكفي لصنع فُوَط صحية لأخوات الأديرة، كما قالت لنفسها. وجُمعت القصاصات الأكبر حجماً في كدسة منفصلة؛ لم تكن واثقة بعد من كيفية استعمالها؛ ربما ستستعملها لصنع لحاف.

رزمت الملابس المنجَزة، وأحضرت حقيبة يدها. فتسليم البضاعة قبل يوم واحد من الحد الزمني الأقصى يترك انطباعاً إيجابياً في نفس السيدة غوبتا.

بعد ذلك، أقفلت الباب من الخارج تحسّباً للحاقهما بها، آخذةً بعين الاعتبار أسئلة أومبراكاش الاستعلامية.

* * *

في أثناء جلوسهما على مقعدَيهما مع الشعور بالأسى، وتحديقهما بشكل غير واضح، تاق الخياطان إلى الانتقال إلى الغرفة الأمامية. وبعد تحمّل قساوة كرسيَّيهما الخشبيَّين طوال الصباح، شعرا براحة قصوى لدى جلوسهما على الأريكة القديمة بالرغم من رفّاصها المكسور، وبسعادة غامرة لأنهما تمكنا من سرقة هذه اللحظات. وتلاشى شعورهما بتيبّس عظامهما بسبب وضعيتهما في أثناء العمل، وغاصا بين المساند. فرفعا أقدامهما العارية على منضدة الشاي، وسحبا علبة صغيرة من ماركة غانيش بيديس وأشعل كل منهما سيجارة، وسحب منها نفساً عميقاً. واستخدما جزءاً ممزَّقاً من العلبة كمِنفضة.

وحك أومبراكاش رأسه، وتفحّص القشرة التي حصدتها أصابعه. نظّف بظفر خنصره البالغ طوله بوصة واحدة ما تجمّع تحت أظفاره الأخرى، نافضاً التراكمات الدهنية على الأرض. لم يُقرّ بأنه يشعر بالملل؛ فهو بإضاعة الوقت، يكون قد تغلّب على دينا دلال بفطنته. إنها مخطئة إذا ظنت أن باستطاعتها سَوقهما كثورين أخرقَين مشدودَين إلى المحراث. لا يزال يملك رجولته، قال لنفسه بمرارة، عِلماً أن عمّه يتصرف بشكل مختلف أحياناً.

سمح إيشفار لابن شقيقه بتمضية ساعة من الوقت من دون عمل، وقد أرخى الجوع بثقله على بطنَيهما الفارغَين. وتسلّى بمراقبة أومبراكاش وهو يتلوى ويستكنّ على المساند، عازماً على اختلاس أقصى قدر من الراحة على أريكة دينا دلال. وتحسّس بأصابعه الشيك الذي أبقى نصف ابتسامته مسجونة في لحم متجمّد، متأمّلاً فيه.

لقد أمضيا الوقت ضاحكَين، ومتثائبَين، وممدِّدَين أوصالهما، وكانا مَلكَي الأريكة المكسورة مؤقتاً، وسيّدَي الطابق الصغير، عندما اجتاح قَرع على الباب الأمامي توقفهما المحظورة عن العمل.

صاح الزائر: "أعرف أنكِ في الداخل! هذا القفل الموضوع على الباب لا يخدعني!".

فتسمّر الخياطان في مكانهما. واستمر القَرع. "إن دفع الإيجار لا يعني شيئاً! نعرف ما الذي يجري وراء القفل! سيتم رميك مع عملك غير الشرعي في الشارع!".

فهم الخياطان؛ للأمر علاقة بصاحب المُلك. ولكن ماذا عن القفل؟ وتوقف قَرع

الباب. "بسرعة، على الأرض!". همس إيشفار، تحسّباً من قيام قارع الباب بالنظر عبر النافذة.

أُسقط شيء ما عبر شق البريد، وساد الصمت بعد ذلك. فانتظرا للحظات قليلة قبل المجازفة بالاقتراب من الباب. كان هناك على الأرض مغلّف كبير موجَّه إلى السيدة راستوم دلال. فأدار إيشفار المزلاج، وفُتح الباب بمقدار نصف بوصة واصطدم بالرِّتاج الخارجي، مما يؤكّد وجود القفل.

قال أومبراكاش مستشيطاً غضباً: "لقد أقفلت علينا، تلك المرأة. ماذا دهاها؟".

"لا بد من وجود سبب لذلك. لا تقلق".

"لنفتح الرسالة".

فانتشلها إيشفار من يده ووضعها جانباً. وحاولا الحصول على مزيد من الراحة على المساند، مُشعلَين سيجارتين جديدتين، ولكن التطفّل أفسد المتعة. استحال الغوص المريح في الأريكة إلى كتل من الاستياء، وذكّرتهما الخيوط الملتصقة بملابسهما بالعمل الذي ينتظرهما في الغرفة الخلفية. أطلقت الساعة تحذيرها: ستعود إلى المنزل قريباً، وسيتوقف كل هذا السلوك المحظور.

قال أومبراكاش متأففاً: "إنها تخدعنا، يُفترض بنا أن نخيط لشركة التصدير مباشَرةً. لماذا يجب أن تكون الوسيط بيننا؟". ظهرت على شفتَيه حركات صغيرة وحذِرة تحوّلت إلى كلمات، فيما تدلّت سيجارته المشتعلة من إحدى زاويتَي فمه بتوازن متقلقل.

فارتسمت على وجه إيشفار ابتسامة متسامحة. كانت السيجارة المتدلية مصوَّبة كمسدس فتاك باتجاه دينا دلال. "مع اقتراب قدومها، سيبدو وجهك كما لو أنك تناولت حبة ليمون حامض".

أضاف بنبرة تنمّ عن جدّية أكبر: "إنها الوسيط لأن لا مشغل لدينا. تسمح لنا بالخياطة هنا، تُحضر القماش، تتلقى الأوامر من الشركة. وإضافةً إلى ذلك، نتمتع باستقلال أكبر من خلال العمل بالقطعة...".

"لا تدافع عنها. إنّها تعاملنا كالعبيد، وأنت تتكلم عن الاستقلال. تكسب المال من عرَقنا من دون أن تقوم بأي درزة بأصابعها. انظر إلى منزلها، فيه كهرباء، وماء، وكل شيء. وماذا لدينا؟ كوخ حقير نتن في الحيّ الفقير. لن نجمع أبداً ما يكفي من المال للعودة إلى قريتنا".

"هل تستسلم سلَفاً؟ لا يمكن تحقيق انتصار في الحياة بهذه الطريقة. ناضل وكافح، يا أوم، حتى وإن واجهتك الحياة بمحنة قاسية". حمل سيجارته بين إصبعيه رافعاً إيّاها

إلى شفتَيه.

قال أومبراكاش: "سأكتشف المكان الذي تقصده، راقبني فحسب". محرّكاً رأسه بحدة وتحدٍّ.

"الدخان يتحرك بشكل جميل عندما تقوم بذلك".

"انتظر فحسب، سأحصل على عنوان الشركة".

"كيف؟ هل تظن أنها ستخبرك؟".

ذهب أومبراكاش إلى الغرفة الخلفية وعاد مع مِقصّ مسنَّن. فأمسك به بيديه، وسدّده بقوة في الهواء بشكل مسرحي. "ضع المقص على عنُقها فتخبرنا بكل ما نريد معرفته".

فوجّه له عمه صفعة قوية على رأسه قائلاً: "ماذا يقول والدك لو سمعك؟ كلمات غبية تتدفق من فمك كتدفق الدرزات من آلة الخياطة الخاصة بك، وبإهمال".

أعاد أومبراكاش المقص بخجل قائلاً: "في أحد الأيام سأقطعها من الوسط؛ سأتبعها إلى الشركة".

"لم أكن أعلم أن باستطاعتك عبور الأبواب المقفَلة مثل غوفيا باشا العظيم. أم أنه أومبراكاش باشا؟". وتوقف قليلاً ليدخّن، ثمّ أخرج الدخان من منخريه، وابتسم للوجه المتجهّم قائلاً: "اسمع، يا ابن شقيقي، هكذا يعمل العالم. يكون بعض الناس في الوسط، وآخرون عند الطرف. يتطلب الأمر بعض الصبر لتنمو الأحلام وتُثمر".

"الصبر جيد عندما تريد إطلاق لحيتك. بما نتقاضاه منها، لا يمكننا تحمّل تكلفة السَّمن والحطب للصلوات التي ستُقام في جنازتنا". وحك شعره بطريقة شرسة. "ولماذا تتحدث إليها باستمرار بتلك النبرة الغبية كما لو أنك شخص جاهل من الريف؟".

قال إيشفار: "ألستُ كذلك؟ يحب الناس أن يشعروا بأنهم أرفع منزلة. إذا كانت نبرتي تساعد السيدة دينا على الشعور بأنها بخير، فما الخطأ في ذلك؟". ومستمتعاً بالمباهج النهائية لسيجارته المتضائلة، كرر قائلاً: "صبراً، يا أوم. لا يمكن تغيير بعض الأمور، عليك قبولها فقط".

"تريد للأمور أن تجري بالطريقتين؟ قلتَ أولاً ناضل، لا تستسلم. والآن تقول اقبل الأمور كما هي. تتأرجح من جانب إلى آخر كقِدر ملساء من دون قعر".

قال إيشفار ضاحكاً: "اعتادت جدتك روبا قول ذلك".

"اتخذ قراراً، اختر أمراً واحداً".

"كيف يمكنني ذلك؟ لستُ سوى بشري". أجاب ضاحكاً مرة أخرى، ولكن الضحكة تحوّلت إلى سعال هزّه بقوة. فتوجه إلى النافذة، ووضع الستارة جانباً، وبصق. ولو كان

قريباً بما يكفي لرأى بقعة الدم المعتادة.

اقتربت سيارة أجرة بينما كان يسحب رأسه من النافذة. "أسرع، لقد عادت!"، همس بصوت مبحوح.

شرعا بإزالة آثار سلوكهما السيئ: إعادة المساند إلى شكلها الطبيعي، إعادة منضدة الشاي إلى مكانها، إخفاء عيدان الثقاب والرماد. وتطايرت شرارة من السيجارة إلى داخل فم أومبراكاش، كما لو أن الصُّدفة تسخر من غضبه الناري السابق. فأبعد السيجارة عن الأثاث. وبعد التدخين للمرة الأخيرة في أثناء إسراعهما إلى الغرفة الخلفية، أطفأا عقبَي السيجارتَين ورمياهما من النافذة الخلفية.

دفعت دينا أجرة السيارة، وبحثت عن حلقة المفتاح داخل حقيبة يدها. كان القفل النحاسي الذي فقد لمعانه مقيتاً وثقيل الحركة. فأدارت المفتاح وهي تشعر بالذَّنب.

مدّ أومبراكاش يدَيه وأراحها من عبء رزمتها قائلاً: "سمعتك تَصلين".

"هناك الكثير منها"، قالت مشيرةً إلى رُزم من القماش المكدَّسة خارج الباب. فتفحّصها، محاولاً رؤية اسم الشركة أو عنوانها.

بعد إدخال كل شيء، سلّمها إيشفار المغلف. "قدم أحدهم، وقرع الباب قائلاً إن القفل لا يخدعه. لقد ترك لك هذا المغلف".

"لا بد من أنه جابي الإيجار". ووضعت الرسالة جانباً من دون فتحها. "هل رآكما؟".

"لا، لقد اختبأنا".

"جيد". ذهبت لوضع حقيبة يدها وانتعال خفّ بدلاً من حذائها.

سأل إيشفار: "هل أقفلتِ علينا عندما غادرتِ؟".

"ألم تعلما؟ أجل، كان عليّ القيام بذلك".

"لماذا؟"، سأل أومبراكاش بسرعة، ثم تابع: "أتظنين أننا لصّان؟ وأننا سنأخذ مقتنياتك ونهرب؟".

"لا تكن سخيفاً. ما هي المقتنيات الهامة التي يجب عليّ القلق بشأنها؟ صاحب المُلك هو السبب. باستطاعته الدخول في أثناء غيابي ورميكما إلى الخارج في الشارع. ولكن، إذا كان هناك قفل، فلن يجرؤ على ذلك. فخلع القفل خرق للقانون".

قال إيشفار: "صحيح". كان متلهّفاً لرؤية تصميم الملابس الجديدة. وفي أثناء تحديق ابن شقيقه بغضب، رُفع الغطاء عن المائدة لوضع النماذج الورقية.

"كم سنتقاضى عن كل فستان هذه المرة؟"، سأل أومبراكاش مقاطعاً، ولامساً بأصابعه البوبلين الجديد.

فتجاهلته في أثناء قيام إيشفار بإلقاء نظرة على أجزاء النماذج الورقية. وسرعان ما استرعت هذه التعقيدات انتباهه كطفل وُضِع أمام أُحجية صورة مقطّعة. حاول أومبراكاش مجدداً رفع أجرهما، "إنّه نموذج شديد الصعوبة. انظري إلى كل الحشوات التي يجب إضافتها إلى التنورة. سيكون علينا تقاضي مبلغ أكبر هذه المرة بالتأكيد".

قالت موبِّخة: "كفى، دع الأكبر سنّاً منك يعملون. احترم عمّك على الأقل إذا كنت غير قادر على احترامي".

كان إيشفار يطابق الأجزاء مع الثوب النموذج، متحدثاً إلى نفسه: "الكُمّ، أجل. والظهر مع درزة في الوسط... أجل، الأمر سهل". فعبس ابن شقيقه بسبب موافقته على ما قالته.

قالت دينا: "أجل، إنه سهل للغاية، أبسط من خياطة تلك الثياب التي أنهيتها للتوّ. والخبر الجيد هو أنهم ما زالوا يدفعون خمس روبيّات لكل ثوب".

قال أومبراكاش: "الأمر غير ممكن لقاء خمس روبيّات، قلتِ إنك ستُحضرين معك ملابس مرتفعة الثمن. هذا المبلغ غير جدير بالوقت الذي نمضيه ونحن نخيطها".

"عليّ إحضار ما تعطيني إياه الشركة، وإلا حذفونا من لائحتهم".

قال إيشفار: "سنقوم بالأمر، من الخطأ رفض الأجور المعروضة".

قال أومبراكاش: "إذاً، قم بذلك بنفسك... لا أستطيع القيام بذلك لقاء خمس روبيّات". ولكن إيشفار أومأ برأسه مطمئناً دينا.

دخلت دينا المطبخ لإعداد الشاي الذي كانت قد وعدت به. إن الشقاق الحاصل بينهما جيد؛ سيضع العم حدًّا لتمرّد ابن شقيقه. ونظرت شزَراً إلى الأكواب والصحون الصغيرة التي تحمل نقوش ورود على حافاتها. أتستعمل تلك زهريّة اللون أم الحمراء؟ فقررت أن تكون الزهرية للخياطَين، وأن توضع جانباً مع كوب الماء؛ مفصولة عن سواها. وستكون الحمراء لها.

في أثناء انتظار المِغلاة، تحققت من سياج الدجاج عبر زجاج النافذة، وعثرت على فجوة. فاستشاطت غضباً مجدداً من تلك الهررة المزعجة التي تحاول التسلل، أو التجوّل خلسةً طلباً للطعام، أو للاحتماء من المطر. ومن يعلم أي نوع من الجراثيم تحمل معها!

أعلنت المغلاة عن استعدادها، دافقةً كمية كبيرة من البخار. فابتعدت عنها بسبب غليان الماء بقوة، واستمتعت بالضباب الشفاف الكثيف وخرير الماء: أوهام الثرثرة، الصداقة، الحياة الصاخبة.

خفّفت قوة النار، فتبدّدت السحابة البيضاء في خُصَل صغيرة غير منتظمة. ملأت

ثلاثة أكواب، وحملت إليهما الكوبين اللذين يحملان نقوش ورود زهرية اللون.

قال إيشفار متنهّداً: "آه". وتناول الشاي بامتنان. واصل أومبراكاش الخياطة بوجه متجهّم من دون رفع أنظاره. فوضعت الكوب بجانبه.

قال مهمهماً: "لا أريد تناول أي شاي". وعادت دينا إلى المطبخ لإحضار كوبها من دون قول أي كلمة.

قال إيشفار عندما عادت: "إنه لذيذ". كان يرتشف الشاي، مُحدثاً صوتاً لإغواء ابن شقيقه. "أفضل بكثير من الشاي في فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل".

قالت دينا: "لا بد من أنهم يدَعونه يغلي طوال اليوم، هذا الأمر يفسده. لا شيء يضاهي الشاي الطازج عندما تكون متعَباً".

"تماماً". تناول رشفة أخرى وتنهّد بإغراء مجدداً. فتناول أومبراكاش كوبه، وتظاهر الآخران بعدم ملاحظة ما يجري. فابتلع الشاي بعطش من دون إزالة ملامح الاستياء عن وجهه.

تبقّت ساعتان للخياطة أمضاهما أومبراكاش بالتذمر وبإحداث درزات معوجّة. كان إيشفار ممتنّاً عندما أشارت الساعة إلى السادسة. لقد أصبحت المحافظة على الوئام بين ابن شقيقه والسيدة دينا أمراً صعباً.

* * *

انقضى الصباح بسرعة، ومال الوقت إلى الظهر عندما كان جامع الإيجارات، إبراهيم، يسير ببطء وبخطى متثاقلة على الرصيف، استعداداً لزيارة دينا دلال والحصول على ردّ على الرسالة التي سلّمها إيّاها في اليوم السابق. كان يرتدي الشروان الأسود ويضع على رأسه طربوشه البني الذي يُضفي عليه الوقار، وكان يبتسم للمستأجرين الذين يلتقيهم على امتداد الطريق، قائلاً سلامات وكيف حالك؟ لقد أُنعم عليه بابتسامة تلقائية ترتسم على وجهه كلما فتح فمه للتكلم. لكن هذه الخدعة الموفَّقة لم تكن لصالحه عندما يقتضي الأمر أن يكون وجهه رزيناً لدى توجيه رسالة ما؛ قليل من التجهّم ربما، بسبب إيجارات تأخر تسديدها.

إبراهيم رجل متقدم في السنّ، ويبدو أكبر من عمره. كان يحمل بيده اليسرى، التي لا تزال تؤلمه بسبب قَرع الباب في اليوم السابق، إضبارة بلاستيكية يضمن رباطان عريضان من المطاط سلامة محتوياتها. فهي تحتوي على إيصالات، وفواتير، وطلبات ترميم، وسجلات لنزاعات وقضايا متعلّقة بالمباني الستة التي يُعنى بشؤونها. ويعود تاريخ

بعض هذه النزاعات إلى أيام شبابه، عندما كان في التاسعة عشرة من عمره ويعمل مع والد صاحب المُلك الحالي. وتعود قضايا أخرى إلى زمن أبعد ورثها عن سلفه.

كان كل شيء موثّقاً بدقة، ويشعر إبراهيم أحياناً بأنه يجرجر المباني معه. ولم تكن الإضبارة التي سلّمها جامع الإيجارات المتقاعد إلى خلفه منذ نصف قرن تقريباً مصنوعة من البلاستيك، بل من لوحَين خشبيَّين مربوطَين بشريط من الجِلد المراكشي، وتحمل في طياتها رائحة المالك السابق. وكان اللوحان الداكنان المتشققان مشوّهَين إلى حدٍّ كبير؛ ولدى فتحهما، كانا يُصدران صريراً وتنبعث منهما رائحة تبغ.

بسبب سنّه الصغيرة وطموحه، كان ابراهيم يخجل من أن يراه الناس حاملاً تلك الإضبارة القديمة. وبالرغم من احتوائها على إيصالات إيجار جديرة بالاحترام ليس إلا، فقد كان يعلم أن الناس يُصدرون أحكاماً عليه من خلال غلافها الذي يشبه الغلافات القذرة التي يحملها المتوقعون الدجالون في ساحة السوق لحماية رسومهم البيانية الزائفة. وهكذا، كان بالإمكان اعتباره عن طريق الخطأ أحدَ أولئك المحتالين المقيتين. وبدأت تعتريه شكوك كبيرة حيال عمله الذي فرض عليه حمل إضبارة مثيرة للشبهات؛ شعر بأنه مخادع كما لو أنه بائع بازار يعبث بالأوزان ويُميل دفة الميزان بطريقة غير مشروعة.

وذات يوم سعيد، انقطع العمود الفقري المصنوع من جلد مراكشي. فأعاده إبراهيم إلى مكتب صاحب المُلك. تفحّصه الموظف المكتبي، وأكد وفاته لأسباب طبيعية، وملأ استمارة الطلب الرسمي الملائم. فأُعطي إبراهيم قطعة سِلك لتدبّر أمره بواسطتها ريثما تنتهي الإجراءات المكتبية.

بعد إرجاء دام أسبوعين، وصلت الإضبارة الجديدة. كانت مصنوعة من كرتون مقوّى مغلّف بالقماش، عصريّة المظهر، ولونها أحمر داكن يوحي بالوقار. فسُرّ إبراهيم، وبدأ يشعر بالتفاؤل حيال فُرصه في هذا العمل.

بوجود إضبارته الجديدة تحت ذراعه، كان باستطاعته رفع رأسه عالياً والتبختر خلال القيام بجولاته كما لو أنه محامٍ. كانت على الموضة أكثر من الإضبارة القديمة وتحتوي على عدد كبير من الجيوب. لقد بات بالإمكان تنظيم القضايا، والشكاوى، والمراسلات، بطريقة منهجية، وهو أمر جيد بسبب ازدياد مهام إبراهيم في العمل والمنزل.

أصبح إبراهيم زوجاً، ومن ثم والداً، وكان والداه مسنَّين. وبدأت مسؤولياته تزداد أيضاً كجابي إيجارات. لقد عُيّن جاسوساً لصاحب المُلك، ومُبتزّاً، ومُنذِراً، ومضايقاً للمستأجرين. باتت مهمته تتضمن جمع الأقاويل السارية في المباني الستة، وكشف النقاب عن العلاقات الغرامية خارج إطار الزواج. لقد لقّنه مستخدِمه كيفية تحويل هذه العلاقات

إلى زيادات على الأجور؛ لن يعترض الجانب المُذنب أبداً أو يجرؤ على ذِكر قانون الإيجار. وعند الحاجة، يمكن لإبراهيم أن يلعب أيضاً دور المحتجّ والمتملّق إذا ذهب صاحب المُلك بعيداً في غيّه، واستدعى الأمر ردّاً قانونياً من قِبل المستأجر. فدموع جامع الإيجارات تُقنع المستأجر بالتراجع عن خطوته، والصفح عن صاحب المُلك المسكين، شهيد الإسكان في العصر الحديث والذي لم يكن يُضمر أي أذى.

لفرز مختلف الأدوار الموكَلة إلى إبراهيم، كانت جيوب الإضبارة أساسية. في هذه المرحلة من مهنته، بدأ يشعر بعائق ارتسام بسمته التلقائية الجميلة على فمه. لقد اكتشف أن تسليم التهديدات والإنذارات المُريعة في أثناء الابتسام ليس استراتيجية جيدة. فمن الأفضل تعديلها لتغدو ابتسامة مهدِّدة. ولكنه لم يستطع التحكم بعضلات وجهه. وكانت المناسبات التي يتعيّن عليه فيها التعبير عن بالغ أسفه لإرجاء أعمال التصليح، أو تقديم التعازي بوفاة أحد أفراد عائلةٍ مستأجِرة، صعبة أيضاً. لقد عاد عليه ذلك بسمعة لا يستحقها إذ اعتُبر قاسي القلب، وفظاً، وغير كفوء، ومُعوَّقاً، لا بل شريراً أيضاً.

هكذا، كان يبتسم بطريقته المنحوسة حاملاً ثلاث إضبارات من القماش المقسّى ذات لون أحمر داكن على غرار الإضبارة الأولى، مُضيفاً أربعة وعشرين عاماً إلى تاريخه العملي. إنها أربعة وعشرون عاماً من العمل الشاق والحِرمان لم يستمتع خلالها بشبابه، وتلطّخ طموحه المشرق في الفترة الذهبية من عمره بالمرارة. ومقابل شعوره باليأس بسبب عِلمه بانعدام حظوظه، كانت زوجته وابناه وابنتاه لا يزالون يثقون به، مما زاد من عذابه. فتساءل عما فعله ليستحق حياة مُملّة، خالية من أي أمل، أم أن هذا الشعور ينتاب كل البشر؟

لم يعُد يعي جدوى الذهاب إلى المسجد كما اعتاد في غالب الأحيان، وبات يحضر صلوات الجمعة بشكل غير منتظم، وبدأ باتّباع الطرائق التي كان يزدريها في ما مضى بسبب كونها من اهتمامات الجاهل.

لقد وجد راحة أكبر برفقة المتوقعين الدجالين في ساحة السوق. كانوا يعرضون عليه حلولاً لمشاكله المالية، ويقدّمون له النُّصح لتحسين مستقبله الذي سرعان ما يصبح من الماضي. واكتشف أن آراءهم الواثقة بمثابة عقار مهدّئ.

لم يقتصر توقه إلى معرفة المستقبل على قرّاء الكف والاستماع إلى المتوقعين. ففي إطار سعيه إلى عقاقير أكثر قوة، لجأ إلى ناقلي رسائل غير مألوفين على نطاق واسع: حمائم ناقلة للبطاقات، ببّغاوات قارئة للرسوم البيانية. وبسبب خشيته من قيام أحد المعارف برؤيته في أثناء رحلاته المثيرة للجدل، قرر بعد تردد كبير عدم اعتمار طربوشه

المميَّز. كان الأمر بالنسبة إليه أشبه بالتخلي عن صديق عزيز. والمرة الوحيدة الأخرى التي تخلى فيها عن طربوشه كانت في أثناء التقسيم عام 1947 عندما تسببت مجزرة جماعية عند الحدود الجديدة بأعمال شغب في كل مكان، وكان اعتمار الطربوش آنذاك في حيّ هندي أمراً مهلكاً بقدر امتلاك قُلفة في حيّ مسلم. وفي بعض المناطق، من الحكمة أن يكون المرء عاري الرأس لأن من شأن اختيار طربوش غير مناسب، أو قلنسوة بيضاء، أو عِمامة، أن يؤدي إلى فقدانه رأسه.

لحسن الحظ، كانت جلساته في الأماكن حيث تتولى الطيور مهمة التوقع سرّية نسبياً. فباستطاعته الجثوم في زاوية رصيف مع راعي المخلوق من دون أن يلاحظ وجوده أحد، وطرح السؤال، فتقفز الحمامة أو الببغاء إلى خارج قفصها لتنويره.

من جهة أخرى، تُعتبر جلسة البقرة عرضاً كبيراً حيث تتولى أبقار كبيرة الحجم مهمة التنوير. فيسوق رجل يحمل طبلاً البقرة المغطاة بأقمشة مقصَّبة وملوَّنة، وبعقد من الأجراس الفضية الصغيرة حول عُنُقها، إلى داخل حلقة المشاهدين. وبالرغم من كون قميص الرجل وعِمامته برّاقين، إلاّ أنّه كان يبدو أشهب اللون مقارنةً بالبقرة المزيَّنة بكثير من الألوان. ويسير الاثنان على نحو دائري: مرةً واحدة، مرتين، ثلاث مرات... مهما تطلّبه الأمر من وقت لسرد بيان سيرة البقرة، ويشدّد الرجل في أثناء ذلك على التوقعات التي تحققت حتى ذلك التاريخ. كان صوته خشناً يصمّ الآذان، وعيناه محتقنتَين، وإيماءاته جنونية، ويبدو كل ذلك الهياج طِباقاً مُتقناً مع سلوك البقرة الهادئ. وبعد سرد السيرة الموجَزة، يحين دور الطبل المتدلّي بصمت من كتفه. فهذا الطبل غير مُعَدّ للضرب عليه بل لفركه. ويستمر الرجل بسَوق البقرة على نحو دائري، فاركاً جِلد الطبل بعصا ومُحدثاً خواراً مُريعاً، وأنيناً، وعويلاً.

عندما يكف الرجل عن فرك الطبل، يطرح سؤال الزبون على البقرة، صائحاً في أُذُنها بما يكفي ليسمع كل الأشخاص الموجودين في الحلقة. فتجيب عن السؤال بالإيجاب بإيماءة معقَّدة بالرأس، أو بالنفي من خلال هزّ رأسها، فترنّ الأجراس الفضية الصغيرة حول عُنُقها. ويصفّق الحضور بدهشة وإعجاب. ويُستأنف بعد ذلك فرك الطبل في أثناء جمع التبرّعات المالية.

ذات يوم، وبعد طرح سؤال إبراهيم على البقرة في أُذُنها الطريّة، البنّية، وغير المحميّة، بطريقة أشبه بالخوار، لم تصدر عنها أي إجابة. فكرر الرجل السؤال، بصوت أعلى، واستجابت البقرة هذه المرة. فسواء أجاء ذلك بسبب الطبل المزعج الذي تحمّلته طوال سنوات، أو بسبب الخوار الخشن في أُذُنها يوماً بعد يوم، فقد طعنت راعيها بقرنَيها.

ظن المشاهدون للحظة من الزمن أن رد فعل البقرة على السؤال أكثر قوة من العادة. غير أنها بعد ذلك رمت الرجل على الأرض، ساحقةً إيّاه بقوائمها. فأدركوا أن ما حدث ليس جزءاً من عملية التوقع ولا سيما عندما بدأ دم الرجل بالتدفق.

تفرّق الحشد صائحاً: "بقرة مجنونة! بقرة مجنونة!". وبعد التعاطي مع معذِّبها، وقفت بهدوء، طارفةً عينَيها ذواتي الأهداب الطويلة بلطف، وطاردةً بذَيلها الذباب عن ضَرعها.

لقد أقنعت وفاة الرجل غير المألوفة إبراهيم بأنها لم تعد طريقة يعوَّل عليها للحصول على النصح. وبعد أيام، حلّ في تلك الزاوية فريق جديد مؤلف من بقرة وفارك طبل، ولكن إبراهيم تجنّب حضور العرض. كانت هناك أنظمة أخرى أكثر أماناً لتقديم مساعدة خارجة عن المألوف.

في حين لازم حادث البقرة المجنونة مخيّلته، شهد وفاةً أخرى. هذه المرة، كان ثعبان متوقع المستقبل هو السبب فقد عضّ بشكل غير متوقع جسد الشخص الذي يرافقه. ومذاك الحين يرتجف إبراهيم لدى تخيّله الحادثة: كان بالإمكان أن يكون هو الشخص الذي غرست الكوبرا نابَيها في جسده بسبب جثومه في مكان قريب منها لمشاهدة الحركات المستنزِلة للإلهام.

مصدوماً بالحادثين المميتين، تخلى جامع الإيجارات عن مشاهدة أنواع الحيوانات المتوقعة كافة. وكما لو أنه خارج من كابوس، عاد إلى اعتمار طربوشه المهجور، وشرع باستعادة ذاته التائهة. وفي أثناء جلوسه بجانب البحر متأملاً المسجد الذي غمرته أشعة شمس المحيط الغاربة والعائمة عند طرف الجسر، أدرك مقدار المال الذي حجبه عن عائلته بسبب إدمانه التجديفي. وحدّق إلى المدّ المنحسر الذي يكشف عن الأسرار تحت الأمواج، وارتعد. لقد طفت أسراره القاتمة مجدداً من أعماق الإرباك واليأس المُظلمة. كان قد حاول إبعادها وإبقاءها في الأعماق لإغراقها، ولكنها استمرت في الانزلاق كثعابين الماء، طافيةً على صفحة حياته، وملازمة ذاكرته. كانت هناك طريقة واحدة فقط للتغلب عليها؛ لقد عاد إلى المسجد تائباً.

لقد مرّت أربعة وعشرون عاماً على الكرتون المقسّى المغلّف بالقماش، وحل عصر البلاستيك في مكتب صاحب المُلك. لكن إبراهيم لم يعد يهتم. لقد تعلّم أنه لا يمكن اكتساب الاحترام بواسطة التجهيزات والكماليات. ولو سلّمه المكتب سلّة حمّال لنقل الملفات على رأسه من مكان لآخر، لأذعن من دون تذمّر.

لكن، للإضبارة البلاستيكية فائدة؛ فهي تُبقي الرياح الموسمية في وضع يائس. فنادراً ما كان يتعيّن عليه إعادة نسخ المستندات التي كان الحبر قد قرر المرَح عليها مع المطر

فـي حـركات دائريـة مجنونـة. وعندما بدأت يداه بالارتجاف، بدا الأمر نعمة بالنسـبة إليه. فبتمرير قطعة قماش مبلَّلة فوقها مرة واحدة، تزول كل البقع التي خلّفها العَطس والنّشوق، واللونان الأخضر البرّاق والبنّي، من دون أن تسبب له الإحراج مجدداً لدى مقابلة صاحب المُلك.

حدثـت تغييـرات فـي المنـزل أيضاً تقبّلهـا بإذعان. فبالرغم من كل شـيء، هل لديه خيـارات أخـرى؟ لقـد توفيت ابنته الكبرى بداء السـلّ الرئوي، وتبعتها زوجته. بعد ذلك، توارى ابناه في عالم الرذائل والإجرام، وكانا يعودان بشكل دَوري للإساءة إليه. أما الابنة المتبقيـة فغـادرت المنـزل لتعمـل في البغاء، وذلك عندما بدأ يفكر في أنها سـتعوّض عما ارتكبه من أخطاء. فقال لنفسه إن حياته أصبحت حبكة رواية تصلح لفيلم سينمائي هندي، ولكن من دون نهاية سعيدة.

تسـاءل عن سـبب اسـتمراره في العمل والقيام بجولاته على المباني السـتة، وجباية الإيجارات؟ لماذا لا يقفز من أعلى إحداها؟ لماذا لا يبلل نفسه بالكاز ويُشعل الإيصالات والسيولة النقدية؟ لماذا يستمر قلبه في الخفقان بدلاً من الانفجار؟ ولماذا لا يزال سليم العقـل بـدلاً مـن التهشّـم كمـرآة سـقطت علـى الأرض؟ هـل كل ذلك مصنـوع من مواد اصطناعية على غرار الإضبارة البلاستيكية غير القابلة للتلف؟ ولماذا يتم إغفال المخرِّب الهمجي في ذلك الوقت؟

لكن البلاستيك أيضاً لا يدوم سوى أيّام أو سنوات. لقد اكتشف أنه يتشقق ويتمزق علـى غـرار الكرتـون المقسّـى المغلّـف بالقماش، وعلى غرار البشـرة والعظام؛ كما أدرك بارتياح. فالمسـألة ببسـاطة مسـألة صبر. فالإضبارة التي في حوزته هي الثالثة من نوعها في غضون واحد وعشرين عاماً.

كان يتفحصها من وقت إلى آخر، ويرى انعكاس التجاعيد في جبينه على غلافها المُنهك. لقـد بـدأت الأقسـام البلاسـتيكية الداخليـة بالتمزق، وبدت الأقسـام المرتَّبة مستعدة للعصيان؛ وجسـده أيضاً يشـهد عصياناً منذ مدة. وعندما وصل إلى الشـقة، تسـاءل عمّن سـيفوز في هذا السـباق المثير للسـخرية، هل هو البلاسـتيك أم اللحم؟ مسـح النّشـوق عن منخريه وأصابعه، ورنّ جرس الباب.

لـدى رؤيتهـا طربوشـه البنّـي من خلال ثقب الباب، طلبت دينـا من الخياطَين التزام الصمت. همست: "لا تُصدرا أي صوت خلال وجوده هنا".

"كيف حالك؟". وابتسـم جابي الإيجار، كاشـفاً عن أسـنان مغطاة ببقع قاتمة اللون وعن فجوتَين: الابتسامة الجميلة والبريئة لبريء مُسِنّ.

فقالت من دون الاهتمام بتحيّته: "ماذا تريد؟ لم يحن موعد دفع الإيجار بعد".

نقل الإضبارة إلى اليد الأخرى قائلاً: "لا، يا أختاه، لم يحن بعد. جئت لأحصل على جوابك عن رسالة صاحب المُلك".

"لقد فهمت. انتظر دقيقة". أغلقت الباب، وذهبت للبحث عن المغلّف غير المفتوح.

"أين وضعتُه؟"، سألت الخياطَين هامسة.

بحث الثلاثة في مجموعة أشياء موضوعة بغير انتظام على الطاولة. وانتبهت إلى أنها تراقب أومبراكاش وطريقة تحريكه أصابعه ويدَيه. لم تعد عظامه الناتئة تُقلقها. لقد اكتشفت فيه جمالاً نادراً مماثلاً لجمال الطيور.

وجد إيشفار المغلف تحت كومة من الملابس. ففضّته وقرأته بسرعة في المرة الأولى، وببطء في المرة الثانية لاستيعاب اللغة القانونية. وسرعان ما اتضح لها فحوى الرسالة: يُمنع القيام بعمل تجاري في المساكن، ويجب عليها إيقاف نشاطاتها التجارية على الفور، أو أنها ستواجه الطرد.

أسرعت إلى الباب بخدَّين محمرَّين: "ما هذا الهراء؟ قل لصاحب المُلك إن مضايقته لن تُجديه نفعاً!".

فتنهد إبراهيم، ورفع كتفَيه وصوته قائلاً: "لقد بلغك التحذير، يا سيدة دلال! لن يتم التساهل مع خرق القوانين! في المرة القادمة، لن تكون هناك رسالة لطيفة بل سيكون إشعاراً بالإخلاء! لا تظنّي أن...".

وأغلقت الباب بقوة. فتوقف عن الصراخ فجأةً، مرتاحاً لإعفائه من إكمال ما يتعيّن عليه قوله. فلهث، ومسح حاجبه وغادر.

قرأت دينا الرسالة مرة أخرى بهلع. لم تمضِ ثلاثة أسابيع على وجود الخياطَين، وها هي المتاعب تبدأ مع صاحب المُلك. فتساءلت عما إذا كان يُفترض بها إطلاع نوسوان عنها، وطلبُ النُّصح منه. غير أنها قرّرت عدم القيام بذلك لأنه سيعظّم الأمر، وفضّلت تجاهل الأمر ومواصلة عملها بسرّية.

لم تجد أمامها سوى خيار ائتمان الخياطَين على أسرارها، وإقناعهما بمدى أهمية إبقاء عملهما معها سرّياً. فناقشت المسألة مع إيشفار.

لقد توافقا على الرواية التي سيعتمدونها إذا صادف جابي الإيجار يوماً الخياطَين قادمَين إلى شقتها أو مغادرَين لها. سيقولان له إنهما قادمان للقيام بأعمال الطهو والتنظيف.

شعر أومبراكاش بالإهانة، وقال لعمّه بعد مغادرتهما العمل في مساء ذلك اليوم: "أنا خياط، ولست خادماً يكنس ويمسح".

"لا تتصرّف كالأطفال يا أوم. إنها مجرد رواية لتجنّب المتاعب مع صاحب الملك".

"لمـن المتاعـب؟ إنهـا متاعـب بالنسـبة إليها. لمـاذا يُفترض بي القلـق؟ حتى إننا لا نتقاضى أجراً عادلاً منها. إذا متنا غداً، فستُحضر خياطين جديدين".

"هل ستتكلم إلى الأبد من دون تفكير؟ إذا طُردت من شقتها، فلن يكون لدينا مكان للعمل. ما خطبك؟ إنه عملنا المحترم الأول منذ قدومنا إلى المدينة".

"ويُفترض بي الابتهاج بسبب ذلك؟ هل سيجعل هذا العمل كل شيء جيداً بالنسبة إلينا؟".

"ولكن، لم تمضِ سوى ثلاثة أسابيع. صبراً، يا أوم. هناك فرص عديدة في المدينة، يمكنك تحقيق أحلامك".

"لقد سئمتُ من المدينة. لم أرَ فيها شيئاً سوى البؤس منذ قدومنا. ليتني متّ في قريتنا. ليتني احترقت أيضاً حتى الموت كبقية أفراد عائلتي".

اكفهرّ وجه إيشفار، وارتعش خدّه المشوّه بسبب الألم الذي يشعر به ابن شقيقه. فوضع ذراعه حول كتفه، وقال له مناشداً: "سيتحسن الوضع، يا أوم. صدّقني، سيتحسن الوضع. وسنعود قريباً إلى قريتنا".

الفصل الثالث

في قرية بجانب النهر

في قريتهما، اعتاد الخياطان العمل كإسكافيّين لأن عائلتهما تنتمي إلى طبقة شامار الاجتماعية المؤلفة من دبّاغي جلود وعاملين في ميدان الجلود. ولكن، قبل ولادة أومبراكاش، وعندما كان والده نارايان، وعمه إيشفار، لا يزالان صغيرين في السنّ في العاشرة والثانية عشرة من عمرهما، أرسلهما والدهما لتعلّم الخياطة.

فخشي أصدقاء والدهما على العائلة. "لقد جُنّ دوكي موشي"، قالوا راثين، "بعينيه المفتوحتين على اتساعهما، يجلب الدمار لأسرته". وساد الذُّعر القرية: لقد تجرّأ شخص ما على قطع السلسلة الأبدية للطبقة الاجتماعية، وسيكون العقاب سريعاً بالتأكيد.

كان قرار دوكي موشي تحويل ابنَيه إلى خياطين شجاعاً بالفعل، فقد اعتبر أنه قضى ربيع حياته مُذعناً لتقاليد نظام الطبقة الاجتماعية. وعلى غرار أسلافه قبله، تقبّل منذ طفولته المهنة المقدَّرة له في حالة التقمّص التي يعيشها.

كان دوكي موشي في الخامسة من عمره عندما بدأ يتعلّم مهنة الشامار بجانب والده. وبوجود عدد قليل من المسلمين في المنطقة، لم يكن هناك مسلخ في الجوار حيث يمكن للشاماريين الحصول على جلود حيوانات. كان عليهم انتظار موت بقرة أو جاموس بطريقة طبيعية في القرية، فيُستدعَون حينذاك لنقل الجيفة التي تُمنح مجاناً في بعض الأحيان، أو لقاء ثمن أحياناً أخرى، وفقاً للعمل المجاني الذي يمكن أن يحصل عليه مانح الجيفة من الشاماريين خلال العام.

يسلخ الشاماريون الجيفة، ويأكلون لحمها، ويدبغون جلدها الذي يتحول إلى صنادل، وسياط، وعدّة للجياد. لقد تعلّم دوكي أن يُقدّر كيفية قيام الحيوانات النافقة بتوفير الرزق لعائلته. وباكتسابه المهارات، أصبحت بشرة دوكي مشبَّعة - بطريقة غير ظاهرة ولكن من دون هوادة - بالرائحة التي كانت جزءاً من رائحة والده؛ رائحة عامل الجلود النتنة التي لا تزول حتى بعد الاستحمام والفرك في نهر مطهِّر.

لم يُدرك دوكي أن مسامّ بشرته قد تشرّبت الأدخنة أيضاً حتى قامت والدته بمعانقته ذات يوم، فغضّنت أنفها وقالت بصوت يعبّر عن مزيج من الفخر والأسى: "تصبح راشداً

يا بُنيّ، باستطاعتي اشتمام التغيير".

كان يرفع ساعده إلى أنفه للتحقق من استمرار وجود الرائحة، ويتساءل عما إذا كان بإمكان السلخ التخلص منها، أم أنه يتعيّن عليه بلوغ المنطقة القائمة تحت الجلد أيضاً؟ فوخز نفسه مرّة ليشمّ رائحة دمه، ولكن الاختبار لم يكن حاسماً لأن نقطة الدم الأحمر القاني الصغيرة في طرف إصبعه لم تكن عيّنة كافية. وماذا عن العضلات والعظام، هل ما زالت الرائحة فيها أيضاً؟ لم يكن يريد إزالة الرائحة، بل شمّها كوالده.

إضافةً إلى الدباغة والعمل بالجِلد، تعلّم دوكي كيف يكون المرء شمارياً منبوذاً في المجتمع القروي. لم تكن هناك توجيهات ضرورية في هذا الجزء من تربيته. ولكن، على غرار قذارة الحيوانات النافقة التي تغطيه وتغطي والده في أثناء عملهما، تنتشر روح الجماعة بين الشاماريين في كل مكان. وإذا لم يكن ذلك كافياً، فإن حديث الراشدين، والحوارات بين والدته ووالده، تملأ الفراغات في معرفته للعالم.

كانت القرية تقع بجانب نهر صغير، ويُسمح للشاماريين بالعيش في ناحية قائمة باتجاه مجرى النهر على مقربة من البَرَهميين ومالكي الأراضي. في المساء، يجلس والد دوكي مع الشاماريين الآخرين تحت شجرة في الجزء التابع لهم من المستوطَنة، فيدخّنون، ويتحدثون عن اليوم المنقضي واليوم الجديد الذي سيطلع في اليوم التالي، في حين يعكّر زعيق الطيور في الجوار صفو مسامراتهم. على الضفة الأخرى من النهر، يشير دخان الطهو إلى وجود أشخاص جائعين، في حين تنساب مياه الصرف الصحي في النهر ببطء.

كان دوكي يراقب من بعيد، منتظراً عودة والده إلى المنزل. ومع اشتداد ظلمة الغسق، أصبحت الخطوط الكفافية للرجال مُبهَمة، ولم يكن باستطاعة دوكي سوى رؤية رؤوس مشاعلهم المتّقدة التي تتحرك في أيديهم كذبابات سراج الليل. بعد ذلك، تُطفأ الرؤوس المشتعلة واحداً تِلو الآخر، ويتفرق الرجال.

وفي أثناء تناول والد دوكي الطعام، يكرر لزوجته كل ما تعلّمه في ذلك اليوم. "بقرة الباندي ليست صحيحة الجسم. هو يحاول بيعها قبل أن تَنفق".

"من يحصل عليها إذا ماتت؟ ألم يحن دورك بعد؟".

"لا، إنه دور بهولا. ولكنهم يتهمونه بالسرقة حيث يعمل. حتى وإن سمح له الباندي بالحصول على الجيفة، فسيكون بحاجة إلى مساعدتي؛ لقد قطعوا أصابع يده اليمنى اليوم".

"بهولا محظوظ"، قالت والدة دوكي، "في العام الماضي، فقد شهاغان يده من الرسغ للسبب نفسه".

فتناول والد دوكي جرعة ماء وحرّكها في فمه بشكل دائري قبل ابتلاعها. ومرّر قفا

يده على شفتَيه. "تعرّض دوسو للضرب بالسوط بسبب اقترابه كثيراً من البئر. لا يتعلم أبداً". تناول الطعام بصمت لمدة قصيرة من الزمن، مستمعاً إلى نقيق الضفادع في الليلة الرطبة، ومن ثم سأل زوجته: "لماذا لا تتناولين أي شيء؟".

"إنه يوم صومي". وفقاً لمصطلحاتها كان ذلك يعني أنه لا وجود لطعام كافٍ.

أومأ والد دوكي برأسه، متناولاً لُقمة أخرى: "هل رأيتِ زوجة بودو مؤخراً؟".

فهزت رأسها قائلة: "لم أرها منذ عدة أيام".

"ولن ترَيها لأيام عديدة أخرى. لا بد من أنها مختبئة في كوخها. لقد رفضت الذهاب إلى الحقل مع ابن الجابي، لذلك حلقوا رأسها وقادوها عارية في الساحة".

هكذا، كان دوكي يستمع كل مساء إلى والده وهو يروي الوقائع غير المنمَّقة لأحداث جرت في القرية. وفي سنوات طفولته، حفظ مجموعة كاملة من الجرائم الحقيقية والخيالية التي يمكن لشخص من الطبقة الدنيا ارتكابها، وانطبعت العقوبات في ذاكرته. وعندما بلغ سنّ المراهقة، كان قد اكتسب كل المعرفة التي يحتاج إليها لرؤية ذلك الخط غير المرئي بين الطبقتَين الدنيا والعليا الذي لن يتمكن أبداً من اجتيازه، وللاستمرار في العيش في القرية على غرار أسلافه بذُلّ وسَعة صدر على غرار رفاقه الدائمين.

بعد فترة قصيرة من بلوغ دوكي موشي الثامنة عشرة من عمره، زوّجه والداه بفتاة شامارية تدعى روبا، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها. فولدت ثلاث بنات في السنوات الست الأولى من زواجهما، ولم تعش أيّ منهنّ أكثر من أشهر قليلة.

ورُزقا بعد ذلك بابن، فابتهجت العائلة كثيراً. ودُعي الطفل إيشفار، وكانت روبا تسهر على راحته بغيرة ووفاء، وتعمل على تأمين ما يكفي من الطعام له، عِلماً منها أن هذا الاهتمام مخصَّص للأطفال الذكور. فشعورها بالجوع أمر طبيعي... إذ إنها تعاني الجوع في غالب الأحيان لإطعام دوكي. ولكنها لم تكن لتتردد في السرقة لأجل هذا الطفل. ولم تكن تعرف أي والدة غير مستعدة للمجازفة بالطريقة نفسها من أجل ابنها.

وبعد جفاف حليبها، بدأت روبا تقوم بزيارات ليلية إلى أبقار مالكي الأراضي المتنوّعين. ففي أثناء نوم دوكي والطفل، كانت تتسلل إلى الكوخ مع إناء نحاسي صغير، بين منتصف الليل وصياح الديك أحياناً. لقد حفظت في أثناء النهار الدرب شديد السواد الذي تسلكه من دون أن تتعثر، لا سيّما وأن حمل مصباح أمر شديد الخطورة. ويمسّ الظلام خدَّيها برِفق على غرار نسيج عنكبوت، وتكون خيوط العنكبوت حقيقية أحياناً.

كانت تأخذ القليل من كل بقرة؛ وهكذا لا يشعر المالك بانخفاض المنتوج. وعندما يرى دوكي الحليب في الصباح، يُدرك ما جرى. وحين كان يستيقظ ليلاً في أثناء مغادرتها،

لم يكن يقول شيئاً، وكان يلازم مكانه مرتعشاً بانتظار عودتها، ويتساءل في غالب الأحيان إذا كان يُفترض به عرض الذهاب مكانها.

بعد مدة، اقتلع إيشفار أسنان الحليب، وبدأت روبا بزيارة البساتين أسبوعياً في المواسم عندما تكون جاهزة للقطاف. فتتحسس أصابعها حبّة الفاكهة في الظلام للتحقق من نُضجها قبل قطفها. كانت تكتفي بقطف عدد قليل منها من كل شجرة كي لا يلاحَظ فقدانها. لم يكن يُسمع من حولها سوى صوت نفَسها في الظلام، وصوت فرار مخلوقات سريعة من طريقها إلى برّ الأمان.

ذات ليلة، وبينما كانت تملأ كيسها برتقالاً، رُفع فانوس فجأةً وسط الأشجار. فجلس رجل في بَراح صغير على سريره المصنوع من الخيزران والخيوط، وراقبها. لقد انتهى أمري، قالت لنفسها، وأفلتت كيسها من يدها واستعدت للركض.

قال الرجل: "لا تخافي". كان يتكلم برِفق، ممسكاً بعصا كبيرة. "لا آبه إذا أخذتِ بعضاً منها". فنظرت حَولها لاهثةً من شدة الخوف، ومتسائلةً عمّا إذا كان يُفترض بها تصديقه أم لا.

"هيا، اقطفي القليل منها"، كرر مبتسماً، "لقد استأجرني المالك لمراقبة البستان. ولكنني لا آبه. إنه وغد ثريّ".

فالتقطت روبا الكيس بعصبية، وواصلت القطف. فأسقطت أصابعها المرتجفة حبة برتقال في أثناء محاولة وضعها داخل الكيس. ألقت نظرة سريعة من فوق كتفها. كانت عيناه تتبعان حركات جسدها بشرَه، فأقلقها الأمر. قالت له: "أنا ممتنّة لك".

فأومأ برأسه. "أنتِ محظوظة بسبب وجودي هنا وليس رجلاً آخر سيّئ الطباع. هيا، اقطفي قدر ما تشائين". وهمهم شيئاً ما بلحن ناشز، وبدا كما لو أنه مزيج من التأوّهات والتنهدات. وتوقف عن الهمهمة محاولاً تصفير اللحن. ولكن النتائج لم تكن موسيقية. فتثاءب ولزم الصمت، ولكنه استمر في مراقبتها.

وقررت روبا أنه بات لديها ما يكفي من الفاكهة، وحان الوقت لشكره والمغادرة. فقال قارئاً حركاتها: "صرخة واحدة مني ويأتون راكضين".

"ماذا؟". واختفت ابتسامتها فجأةً.

"ليس عليّ سوى الصراخ، ويحضر المالك وأبناؤه إلى هنا في الحال. سيجرّدونك من ملابسك ويضربونك بالسياط بسبب السرقة".

فارتجفت، وعادت البسمة إلى وجهه. "لا تقلقي، لن أصرخ". وربطت فوّهة الكيس، وأضاف: "بعد ضربك بالسياط، ربما سيقلّلون من احترامك ويلطّخون شرفك. سيتناوبون

على القيام بأمور مُخزية لجسدك الطريّ الجميل".

ضمّت روبا يدَيها إلى بعضهما تعبيراً عن امتنانها مودِّعة.

قال: "لا تذهبي، خذي قدر ما تشائين".

"شكراً لك، لقد اكتفيت".

"هـل أنـت واثقـة؟ يمكننـي إعطـاؤك المزيد بسـهولة إذا أردتِ". ووضع عصاه على الأرض ونهض من سريره.

"شكراً لك، هذه تكفي".

"حقـاً؟ ولكـن، انتظـري، لا يمكنـك المغـادرة على هذا النحو. لم تعطيني شـيئاً في المقابل". وسار ضاحكاً نحوها.

فتراجعـت خطـوة إلـى الـوراء، وضحكـت مُكرَهة ثم قالت: "لا أملك شـيئاً. لذلك قدمت إلى هنا في الليل لأجل طفلي".

"لديك شيء ما".

"أتوسّل إليك، دعني أذهب".

"تذكري ليس عليّ سوى الصراخ مرة واحدة".

بكت برفق، وسـمعت حفيف النسـيم بين أوراق الأشـجار الواقفة كحراس عديمي الجدوى. ونبح كلب، حاثّاً كلاباً أخرى على النباح بشكل جماعي. لقد خلّف زيت جوز الهند الموجود في شعر الرجل خطوطاً على وجهها وعُنُقها، ولطّخ صدرها. كانت رائحته قوية في منخريها.

بعـد دقائـق، ابتعـد عنها... وعبرت بسـتان البرتقال. وعندما تأكـدت من عدم لحاقه بها، توقفت...

تظاهر دوكي بأنه نائم عندما دخلت الكوخ. وسـمع شـهقاتها المنخفضة عدة مرات فـي الليـل، وعلـم مـن رائحتها بما حدث لها عندما كانت في الخارج. وشـعر بالرغبة في الذهاب إليها، والتحدث إليها، ومواساتها، ولكنه لم يعرف أي كلمات يستخدم، كما شعر بالخشـية من معرفة المزيد. فبكى بصمت، منفّسـاً عن عاره، وغضبه، والذُلّ الذي يشـعر به. لقد تمنى الموت في تلك الليلة.

فـي صبـاح اليـوم التالـي، تصرفت روبا كما لو أن شـيئاً لم يحـدث. لذلك، لم يقل دوكي شيئاً، وأكلا البرتقالات.

بعـد عاميـن مـن ولادة إيشـفار، رُزقـت روبا ودوكـي بابن آخر دُعـي نارايان. كانت هناك علامة حمراء داكنة على صدره، وقالت إحدى الجارات المتقدمات في السـن التي

ساعدت روبا في أثناء الولادة إنه سبق لها أن رأت علامة مماثلة من قَبل: "تعني أن لديه قلباً شجاعاً ومِعطاء. سيجعلك هذا الطفل فخورة جداً".

لقد نجم عن خبر ولادة ابن ثانٍ حسدٌ في منازل الطبقة العليا حيث عُقدت زيجات أيضاً في الفترة التي شهدت زواج دوكي وروبا من دون أن تُرزق النساء بأطفال، أو كنّ ينتظرنَ ذرّية من الذكور. كان من الصعب عليهنّ عدم الامتعاض... إذ غالباً ما كنّ يتعرّضنَ للضرب من أزواجهنّ ومن عائلات أزواجهنّ عندما يلِدنَ البنات. ويُطلب منهنّ أحياناً التخلص من المولودات الجديدات، ويكون خيارهنّ الوحيد خنق الطفلات بأقمطتهنّ، أو تسميمهنّ، أو تركهنّ يتضورنَ جوعاً.

"ماذا يحدث للعالم؟"، قالوا متذمّرين، "لماذا يولد ابنان في منزل منبوذ، ولا يولد ابن واحد في منزلنا؟". ما الذي يمكن للشاماري أن يقدّمه لأبنائه ليُكافأ بهذه الطريقة؟ هناك خطب ما: لقد أُفسد قانون مانو. شخص ما في القرية ارتكب عملاً مسيئاً. هناك حاجة ماسّة بالتأكيد إلى إقامة بعض الاحتفالات الخاصة للاسترضاء، ولملء هذه الأوعية الفارغة بثمار ذكورية.

لكن، كان لإحدى الزوجات اللواتي لم ينجبن نظرية أكثر واقعية لشرح عدم إنجابهنّ أبناء. لقد قالت إنه من المحتمَل ألا يكون الفتَيان ابنَي دوكي حقاً. ربما انطلق الشاماري في رحلة بعيدة واختطف مواليد جدداً من البَرَهميين؛ قد يفسّر ذلك كل شيء.

عندما بدأت الشائعات بالانتشار، خشي دوكي على سلامة عائلته. فاعتمد التذلل احتراساً. وكلما التقى أشخاصاً من الطبقة العليا على الطريق، خرّ لهم ساجداً بوضاعة، ولكن على مسافة آمنة منهم؛ كي لا يُتهم بتلويثهم بظلّه. وحلَق شاربَيه عِلماً أن طولهما ومظهرهما مطابقان لقواعد طبقته الاجتماعية إذ يكون طرفاهما منحنيَين بتواضع نحو الأسفل بخلاف الشوارب المتجهة نحو الأعلى التي تميّز المنتمين إلى الطبقة العليا. وألبس ابنيه أقذر قطع قماش بالية تمكّن من العثور عليها بين مقتنياته اليسيرة. ولتجنّب التّهم بالتدنيس، طلب من روبا عدم الظهور في أي مكان بجوار بئر القرية؛ كانت صديقتها بادما تُحضر ماء الشرب لهم. وأيّاً تكن المهمة التي يُطلب من دوكي القيام بها، كان يلبّي الطلب من دون طرح أي سؤال أو التفكير في الأجرة، متفادياً النظر إلى وجه المنتمي إلى الطبقة العليا، ومثبّتاً عينَيه على الأقدام. كان يعلم أن أي مضايقة يتسبب بها للآخرين، مهما كانت صغيرة، قد تتحول إلى نيران تلتهم عائلته.

لحسن الحظ، كان معظم المنتمين إلى الطبقة العليا مكتفين بالنظرة الفلسفية لمشكلة الرَّحم المُراح، ولم يسعوا إلى تعقيد الأمور أكثر فأكثر. قالوا إنه من الواضح أن العالم يعبر

عصر الظلمة، والزوجات اللواتي لم يُنجبنَ أبناء لسنَ الشذوذ الوحيد في النظام الكوني. "انظروا إلى احتباس المطر الذي حدث مؤخراً. احتباس حدث بالرغم من ممارستنا كل الشعائر بطريقة صحيحة. وعندما تهطل الأمطار، فهي تهطل بسيول جارفة؛ تذكروا الفيضانات، والأكواخ التي جُرفت. وماذا عن العِجل ذي الرأسين في الإقليم المجاور؟".

لم يسبق لأحد في القرية أن شاهد العجل ذا الرأسين لأن المسافة بعيدة جداً، ومن المستحيل القيام بالرحلة والعودة إلى أكواخهم الآمنة قبل حلول الظلام. ولكن الجميع سمعوا بولادة المِسخ. "أجل، أجل"، قالوا متفقين في الرأي؛ "البانديون مُحقّون. كاليوغ سبب متاعبنا".

نصح البانديون بأن يكون العلاج أكثر حرصاً على مراعاة شريعة الدارما. فلكل شخص مهمة مناسبة في العالم، وما دام الجميع يقومون بمهامهم فإنهم سيَثبتون في مواقعهم، ويعبرون ظلمة كاليوغ سالمين من أي أذى. ولكن، إذا حدثت تجاوزات - إذا لُوّثت الشريعة - فلا يمكن معرفة الكوارث التي ستحل بالكون.

بعد بلوغ هذا الإجماع، شهدت القرية زيادة حادة في عدد الجلدات الموزَّعة على أفراد الطبقة الاجتماعية الدنيا في محاولة لقيام التاكوريين والبانديين بفرض النظام. وكانت الجرائم منوّعة وخيالية: لقد تجرّأ أحد البونغيين على النظر بعينَيه غير الطاهرتَين إلى عينَي أحد البَرَهميين، وسار شاماري على الجانب الخاطئ من طريق المعبد ودنّسه، وضلّ آخر طريقه ومرّ بالقرب من معبد تؤدّى فيه الصلاة الهندوسية فسمح لأُذنَيه غير المستحقتَين باستراق السمع، لم تُزِل طفلة من البونغيين آثار قدمَيها عن الغبار بشكل جيد في باحة التاكوريين بعد إنهاء مهامها هناك؛ ولم يُقبل التماسها بأن مكنستها متآكلة وغير صالحة.

ساهم دوكي أيضاً من خلال تعرّضه للسياط في إنقاذ الكون من قبضة الظلمة. لقد استُدعي ليرعى قطيعاً من الماعز لأن المالك سيكون خارج القرية طوال اليوم. قال الرجل: "راقبها بحرص، ولا سيما تلك التي لديها قرن مكسور ولحية طويلة. إنها شقية حقيقية". ووُعد بالحصول على كوب من حليب الماعز مقابل العمل.

قضى دوكي الصباح معتنياً بالقطيع، وحالماً بالسرور الذي سيوفره الحليب لإيشفار ونارايان. ولكن، مع مُضيّ اليوم، وازدياد الحرارة بعد الظهر، شعر بالنعاس. وشردت الحيوانات في مُلك الجار. وعندما عاد المالك في المساء، تعرّض دوكي للجَلد بدلاً من حصوله على حليب الماعز.

لقد شعر بأنه ثمن زهيد يؤديه، وتأمّل في المكاسب التي كان سيحصل عليها لو حظي بإعجاب الرجل. في تلك الليلة، انسلّت روبا خارج المنزل لسرقة زبدة، ودَهن

الكَدمات الموجودة على ظهر زوجها وكتفَيه.

كان باستطاعة روبا سرقة الزبدة من دون التفكير في الأمر مرتين. في الواقع، لم تفكر مليّاً بنتيجة سرقتها. بالرغم من كل شيء، ألم يتخذ كريشنا من سرقة الزبدة عملاً له بدوام كامل في سنّ المراهقة منذ دهور في ماتورا؟

في العمر المناسب، بدأ دوكي بتلقين ابنَيه المهارات التجارية التي لم يكن بإمكانهم ممارستها بسبب القيود الطبقية. كان إيشفار في السابعة من عمره عندما اصطُحب إلى أول حيوان نافق. وأراد نارايان الذهاب أيضاً، ولكن دوكي قال إن الوقت لم يحن لاصطحابه معه بعد لأنه لا يزال صغيراً جداً. ووعد بالسماح للطفل بالمشاركة في بعض المهام كتمليح الجِلد، وكشط الشعر واللحم المتعفّن بسكين غير حاد، وقطف الثمار من شجرة الإهليلج لدبغ جِلد الحيوان. لقد أسعد ذلك الأمر نارايان.

وصل دوكي وإيشفار مع عدد قليل من الشاماريين إلى مزرعة التاكور بريمجي، وتم اصطحابهم إلى الحقل حيث يرقد الجاموس. كانت هناك مجموعات كبيرة من الذباب تطنّ فوق الحيوان، وطائر بَلَشون أبيض جاثم على الكومة السوداء وهو يلتقط الحشرات عن الجِلد. فطار عندما اقترب الرجال.

سأل دوكي: "هل هو ميت؟".

"بالطبع ميت"، قال الرجل الذي يعمل لحساب التاكور، "هل تظن أن باستطاعتنا التخلي عن ماشية حية؟". ثم تركهم بمفردهم ليقوموا بعملهم، هازًّا رأسه ومتمتماً بسبب غباء هؤلاء الجاتيّين.

ووضع دوكي وأصدقاؤه عربة النقل وراء الجاموس؛ ومُدِّد لوح خشبي بشكل مائل بين أرضية العربة والحيوان. فأمسكوا بقوائمه وبدأوا برفعه ببطء على اللوح الخشبي، مُبقين الخشب مبلَّلاً كي يكون بالإمكان تحريكه بسهولة أكبر.

قال أحدهم: "انظروا! إنه حيّ، إنه يتنفس!".

قال دوكي: "لا تتكلم بصوت مرتفع، يا أراي شوتو، وإلا منعونا من أخذه. على أيّ حال، يكاد يكون ميتاً... ساعات قليلة فقط على الأكثر وسيموت".

وواصلوا مهمتهم متعرّقين، في حين قام شوتو بلعن التاكور: "منافق أحمق. يجعلنا نكسر ظهورنا. من الأسهل قتله وسلخ الجيفة هنا بالذات، وتقطيعها إلى قطع صغيرة".

قال دوكي: "هذا صحيح. ولكن، هل يسمح لنا السيد هراء المنتمي إلى الطبقة العليا بذلك؟ ستدنَّس طهارة أرضه".

قال شوتو: "الأمر الوحيد الذي يشير إلى كونه من الطبقة العليا هو امتناعه المزعوم

عن تناول اللحوم".

ضحك الرجال في سرّهم، وجددوا نشاطهم بعد ذلك. فقال أحدهم: "إنّه يشاهَد في المدينة مرتين كل أسبوع وهو يلتهم الدجاج، ولحم الغنم والبقر، وكل ما يحلو له".

قال دوكي: "كلهم متشابهون؛ فهم نباتيّون في العلَن وآكلو لحوم في السر. هيا، ادفع!".

كان إيشفار يُصغي جيداً إلى حديث الرجل، وشارك في الجهود المبذولة بيدَيه الصغيرتَين خلال تشجيع الرجال له. "الآن سننجح. ادفع يا إيشفار، ادفع! بقوة أكبر، بقوة أكبر!".

ووسط المزاح والشتائم والسخرية، عاد الجاموس إلى الحياة فجأةً، رافعاً رأسه للمرة الأخيرة قبل أن يموت. فصاح البالغون متفاجئين، وقفزوا إلى الوراء لتجنّب قرنَيه، ولكن رأس أحد القرنَين اصطدم بالخدّ الأيسر لإيشفار وأفقده وعيه، فانهار.

أمسك دوكي الفتى بذراعَيه وانطلق إلى كوخه راكضاً. فقطعت ساقاه المسافة بسرعة كبيرة، وكان ظلهما غير النامي في فترة الظهيرة متشبّثاً بعَقبيه، فيما العرق ينسكب من جبينه على وجه ابنه. عندئذٍ تحرك إيشفار، ومدّ لسانه، وتذوّق ملح والده على شفتيه. فتنفّس دوكي بسهولة أكبر، متشجّعاً لدى ظهور علامة تشير إلى الحياة.

فصاحت روبا عندما رأت ابنها الذي كان ينزف: "ماذا فعلتَ بطفلي، يا أبا إيشفار! لماذا العجَلة الكبيرة لاصطحابه اليوم؟ ألم تستطع الانتظار حتى يصبح أكبر سنًّا؟".

أجاب دوكي بهدوء: "إنه في السابعة من عمره، اصطحبني والدي حين كنت في الخامسة من عمري".

"وهل يبرّر ذلك ما قمتَ به اليوم؟ ماذا لو أُصبتَ وقُتلت حين كنت في الخامسة من عمرك، هل تفعل الأمر نفسه لابنك؟".

"لو قُتلتُ حين كنت في الخامسة من عمري، لما أنجبت ابناً"، قال دوكي بهدوء أكبر. وخرج لجمع الأوراق التي تُشفي الجرح، وقطّعها إلى أجزاء رفيعة وعجنها. وعاد بعد ذلك إلى العمل.

غسلت روبا الجرح البليغ، ووضعت عليه المرهم الأخضر ذا اللون الداكن. بعد ذلك، خمد حُنقها على دوكي عندما هدأ روعها. وربطت تمائم وقائية بذراعَي طفلَيها، معتبرةً أن ما حدث لابنهما مردّه العيون المؤذية للنساء البرهميات.

اطمأنت أيضاً النساء اللواتي لم يُنجبنَ: يعود الكون إلى طبيعته؛ لم يعد الطفل المنبوذ جميل الوجه بل صار مشوَّهاً، وهكذا يجب أن يكون.

عـاد دوكـي إلـى المنـزل في المسـاء، وجلس على الأرض فـي الزاوية حيث يتناول الطعام. كان إيشـفار ونارايان يجلسـان بجانبه، مسـتمتعَين برائحة الدخان الملتصقة بنفَسـه التـي تُضعـف مؤقتـاً الرائحة الكريهة لجلـود الحيوان، وحمض التنيك، وفضلات الذبائح. وجعلتهمـا رائحـة العجيـن المخبوز الزكيّة يشـعران بالجوع خـلال قيام روبا بإعداد أرغفة التشوباتي الطازجة.

لقد تقيّح الجرح لمدة أيام قليلة قبل أن يبدأ بالشفاء، وبعد مدة قصيرة لم يعد هناك سـبب للقلق. من جهة أخرى، جعلت الإصابة ذلك الجزء من وجه إيشـفار متجمّداً إلى الأبد. وقال والده محاولاً الاستخفاف بالأمر: "يريد الله من ولدي أن يبكي بمقدار نصف ما يبكي البشر الآخرون".

كان يفضّل التغاضي عن عدم تمكن إيشفار من الابتسام بشكل كامل.

كان المطر ممتازاً في عام بلوغ إيشفار العاشرة من عمره ونارايان الثامنة من عمره. وناضل دوكي خلال الأشهر التي تشهد أمطاراً ورياحاً، مستجدياً بعض القش لمنع تسرّب المياه إلى داخل الكوخ. واستعادت الحقول وضعها السويّ والمواشي عافيتها بعد انتهاء فترة احتباس المطر، وكان دوكي ينتظر عبَثاً موت الحيوانات للاستفادة من جلودها.

بالرغـم مـن اسـتمرار الطقـس الجيد؛ واعداً بغلّة وافـرة للإقطاعيين، كان فصلاً كئيباً للمنبوذين. فهم لن يحظوا بعمل إلا عندما يحين موسم الحصاد. ولكن، عليهم الاعتماد على الإحسان، أو الحصول سرّاً على بقايا الطعام التي يرميها المالكون.

بعد أيام عدة من البطالة، كان دوكي ممتنّاً بسبب إرساله للعمل لدى التاكور بريمجي. وتم اصطحابه إلى الناحية الخلفية من المنزل حيث يوجد كيس من الفلفل الأحمر الجاف فـي انتظـار تحويلـه إلى مسـحوق. سـأل التاكـور بريمجي: "هل يمكنك إنهـاء العمل عند الغروب؟ أو ربما يُفترض بي الاتصال برجلَين".

متـردداً بمشـاطرة أي مكافـأة مهمـا كانت صغيرة مع شـخص آخـر، قال دوكي: "لا تقلـق، يـا سـيدي التاكـور، سـأُنهيه قبـل غروب الشـمس". فملأ المِهـراس الكبير بالفلفل الأحمـر، واختـار إحـدى المِدقات الثلاث الطويلة والثقيلة الملقاة بجانبه. وبدأ يدقّ بقوة، ساخراً تكراراً من التاكور الذي بقي للمراقبة لمدة قصيرة.

تباطأ دوكي بعد مغادرة التاكور. فلا يمكن المحافظة على الإيقاع السريع إلا عندما يكون هناك ثلاثة أشخاص عند المِهراس يتناوبون على العمل. وعندما حان وقت الغداء، كان قـد أنهـى نصـف الكيـس، فتوقف لتناول الطعام. نظر حوله للتحقق مما إذا كان هناك من يراقبه، ثم مدّ يده إلى داخل المِهراس ووضع رشة من مسحوق الفلفل الأحمر على

رغيف التشوباتي. وأرسل له التاكور في الوقت المناسب شخصاً يحمل صفيحة ماء.

في وقت متأخر من بعد الظهر، كان الكيس قد فرغ تقريباً عندما وقع الحادث. فمن دون سابق إنذار، وبينما كانت المدقّة تهبط وترتد طوال اليوم، انشطر المِهراس إلى جزأين وانهار، فسقط أحد الجزأين على قدم دوكي اليسرى وسحقها.

كانت زوجة التاكور تراقب من نافذة المطبخ فصرخت: "يا زوجي! تعال بسرعة! الحمار الشاماري حطّم مِهراسنا!".

فأيقظ صراخها التاكور بريمجي المتكاسل تحت الظُلّة في الجهة الأمامية من المنزل، مؤرجحاً أحد أحفاده بين ذراعيه. فمرّر الطفل النائم إلى الخادمة وهرع إلى الجهة الخلفية. كان دوكي ممدّداً على الأرض، وهو يحاول وضع ضِمادة على قدمه النازفة بواسطة قطعة القماش التي يلفّها عادةً حول رأسه على غرار عِمامة.

"ماذا فعلتَ، أيها الحيوان الغبي! ألهذا السبب استخدمتك؟".

فرفع دوكي نظره قائلاً: "سامحني، يا سيدي التاكور، لم أفعل أي شيء. لا بد من وجود عيب في الحجر".

"كاذب!". ورفع عصاه مهدِّداً: "أولاً تحطمه، وتكذب عليّ بعد ذلك! إذا لم تفعل أي شيء، فكيف تحطم إذاً؟ إنّه حجر ضخم! هل هو مصنوع من زجاج ليتحطم على هذا النحو؟".

"أُقسم برأسي ولديّ"، قال دوكي متوسّلاً، "كنت أدقّ الفلفل الأحمر ليس إلا، كما كنت أفعل طوال اليوم. انظر، يا سيدي التاكور، الكيس فارغ تقريباً، العمل...".

"انهض! اترك يدي على الفور! لا أريد أن أراك مجدداً!".

"ولكن، يا سيدي التاكور، العمل...".

ضرب التاكور دوكي على ظهره بعصاه قائلاً: "قلت انهض! واخرج!".

فرفع دوكي قدمه، عارجاً باتجاه الخلف: "يا سيدي التاكور، ارحمني، لم أعمل منذ أيام، لا...".

قال التاكور، متهجّماً: "اسمع، أيها الكلب النتن! لقد دمّرت ما هو ملك لي، ومع ذلك أسمح لك بالذهاب! لو لم أكن أحمق رحوماً، لسلّمتك إلى الشرطة بسبب الجُرم الذي ارتكبته. الآن اخرج!". وواصل التلويح بالعصا.

حاول دوكي الفرار، ولكنه لم يتمكن من التحرك بسرعة كافية بواسطة قدمه المصابة. فتلقى العديد من الضربات قبل أن يتمكن من الانسلال خارج البوابة. وتوجه وهو يعرج إلى المنزل، شاتماً التاكور وذرّيته.

"دعيني وشـأني"، قال مهسهسـاً رداً على اسـتفهامات روبا الخائفة. وعندما أصرّت علـى ذلـك، متشـبثةً بمكانهـا بجانبه، ومتوسّـلةً إيّاه ليسـمح لها بتفحـص قدمه المتضررة، ضربهـا. ولـزم الكـوخ طـوال المسـاء صامتاً، وشـاعراً بالغضـب والإذلال. فذُعر إيشـفار وناريان؛ إذ لم يسبق لهما أن شاهدا والدهما على هذه الحال.

بعـد قليـل، سـمح لروبـا بتنظيف الجـرح ووضع ضمادة عليه، وتنـاول الطعام الذي حملته إليه، ولكنه كان لا يزال يرفض الكلام. قالت: "ستشعر بتحسن إذا أخبرتني".

فأخبرها بعد يومين، وفاض مرارةً كما يفيض الطين الموحِل من قدمه. لم يكن قد مانع تعرّضه للضرب بسـبب الماعز الضالّة؛ فقد كان ذلك خطأه لأنه اسـتغرق في النوم. ولكنـه لـم يُخطـئ بـأي شـيء هذه المرة. لقد كـدّ في العمل طوال اليـوم، ومع ذلك فقد ضُـرب بالعصـا وحُـرم مـن أجرته. قال: "فوق كل ذلك، سُـحقت قدمي، كان باسـتطاعتي قتل التاكور ذاك. ليس سوى لص وضيع. وهم كذلك. يعاملوننا كالحيوانات. طالما فعلوا ذلك منذ أيام أجدادنا".

قالت روبا: "اصمت. ليس من الجيد أن يسمع الفتَيان أموراً مماثلة. كان حظاً عاثراً فحسب، تحطم المِهراس، هذا كل ما في الأمر".

"أَبصق على وجوههم المنتمية إلى الطبقة العليا. لست بحاجة إلى أعمالهم البائسة منذ الآن فصاعداً".

بعد شـفاء قدمه، أدار دوكي ظهره للقرية. فغادر عند الفجر ووصل إلى البلدة قبل الظهـر، مسـتقلاً عربـة يجرّهـا ثـور مَخصي، وشـاحنة. واختار زاوية في الشـارع حيث لا يوجـد بجانبـه أي إسـكافي آخـر. وجلس على الرصيف، واضعـاً قالب الأحذية المعدني، والمِخرز، والمِطرقة، والمسامير، وحافظات النعال، والرُّقع الجلدية، بشكل نصف دائري حوله، وانتظر إصلاح أحذية قاطني البلدة.

مرت قربه أحذية وموكاسّان من مختلف التصاميم والألوان؛ أثارت اهتمامه وأقلقته. فإذا اختار أحدهم التوقف، فهل سـيتمكن من إجراء التصليحات؟ لقد بدا كل شـيء أكثر تعقيداً؛ فهي ليست مجرد صنادل بسيطة كالتي اعتاد تصليحها.

بعـد قليـل، توقـف أحدهـم أمـام دوكي، وخلع حذاءه الأيمن، وأشـار إلى الشـريط الجلدي المقطوع عند إصبعه الكبيرة: "كم يكلّفني تصليح هذا؟".

فالتقطه دوكي وقلّبه بين يدَيه: "يكلّفك آنتين".

"آنتين؟ هل أنت لص أم ماذا؟ باسـتطاعتي شـراء حذاء جديد إذا كنت سـأدفع لغبيّ مثلك آنتَين".

"من سيبيعك حذاء جديداً بآنتَين؟". تساوما قليلاً، ومن ثم اتفقا على آنة واحدة. حرّر دوكي نعل الحذاء للكشف عن الأخدود الذي توجد فيه الدرزات المفكوكة، فتناثر السُّخام المتراكم. وقرر أن لا فارق بين سُخام القرية وسُخام البلدة، فالشكل والرائحة غير مختلفَين.

أدخل الشريط الجلدي في شقّه الطولي ودرزه. وقبل تجربة الحذاء، سحب الرجل الشريط بقوة. وقام بخطى تجريبية، وحرّك أصابعه يمنةً ويسرة، وهمهم موافقاً، ودفع الأجرة.

بعد ست ساعات وخمسة زبائن، حان وقت العودة. فاشترى دوكي بعض الأغراض بواسطة المال - القليل من الدقيق، ثلاث حبات من البصل، أربع حبات من البطاطا، وقرنَين من الفلفل الأخضر الحاد - وسلك الطريق المؤدي إلى المنزل. كانت حركة السير غير ناشطة بخلاف الصباح. فسار لمدة طويلة من الزمن قبل أن يستقلّ وسيلة نقل. وعند المساء، بلغ القرية، وكانت روبا والطفلان ينتظرونه بقلق.

بعد أيام قليلة من جلوسه عند زاوية الشارع، رأى دوكي صديقه أشرف يتوجه نحوه بخطوات واسعة على الرصيف. قال أشرف متفاجئاً لدى رؤيته إيّاه: "لم أكن أعلم بأنك تصلّح الأحذية في حيّي".

كان أشرف الخياط المسلم في البلدة، وهو في سنّ دوكي، وقد اعتاد خياطة ملابس لروبا والطفلَين في مناسبات نادرة؛ عندما يستطيع تحمّل تكلفة ذلك؛ فالخياط الهندي لا يخيط للمنبوذين.

عالماً بالنكبات التي تعرّض لها دوكي في القرية، سأل أشرف: "هل ترغب في امتهان عمل مختلف؟ أتريد تعلّم عمل يعود عليك بمزيد من المال؟".

"أين؟".

"تعال معي".

فجمع أدواته ورافق أشرف. سارا إلى فناء الأخشاب في الجانب الآخر من البلدة، عابرَين خط سكة الحديد. هناك، تم تعريف دوكي بعم أشرف الذي يدير المكان.

مذاك الحين، بات لديه عمل مستمر في الساحة: تحميل شاحنات وإفراغها، أو المساعدة على إيصال طلبيّات. كان دوكي يفضّل إلى حدّ كبير أعمال الرفع والنقل والتنقل بشكل منتصب بين الناس، بدلاً من الجثوم طوال اليوم على الرصيف، متحدّثاً إلى أقدام الغرباء. وكانت الرائحة الزكيّة للخشب الجديد فترة استراحة مُرحّباً بها بعيداً عن الرائحة الكريهة للأحذية القذرة.

ذات صباح، وفي أثناء توجّهه إلى فناء الأخشاب، صادف دوكي حركة مرور كثيفة، وابتلعت سُحب من الغبار عربته التي يجرّها ثور مخصي. كان يتعيّن على السائق التوقف جانباً، وانتهى به الأمر ذات مرة في خندق لدى مرور حافلة كبيرة.

سأل دوكي سائقَ العربة: "ماذا يحدث؟ أين يذهب الجميع؟". فهز الرجل كتفَيه، مركزاً على إعادة ثوره إلى الطريق. ولكن نخزاته باءت بالفشل، وكان على الرجلين القفز ومساعدة الحيوان.

لدى وصولهما إلى البلدة، رأى دوكي الشوارع مزيَّنة باللافتات والرايات. فعلم أن بعض قادة مجلس النواب الوطني الهندي يزورون المكان. وقصد مشغل أشرف لإخباره بما يجري، وقررا الانضمام إلى الحشود.

بدأ القادة خُطبهم. لقد قالوا إنهم قدِموا لنقل رسالة المهاتما المتعلقة بالنضال في سبيل الحرية والعدالة. "كنا عبيداً في بلدنا لمدة طويلة من الزمن، وقد حان الوقت للنضال في سبيل الحرية. في هذا النضال، لسنا بحاجة إلى أسلحة أو سيوف. لسنا بحاجة إلى قول كلمات قاسية أو إلى الكراهية. فبواسطة الحقيقة، سنُقنع البريطانيين بأن لحظة مغادرتهم قد حانت".

صفّقت الجماهير، وأضاف الخطيب: "ستوافقونني الرأي أنه يجب علينا أن نكون أقوياء بهدف التخلص من العبودية. لا يمكن لأحد المجادلة في هذا الشأن. فالقوي الحقيقي هو من يستخدم سلطة الحقيقة ويتجنّب العنف. ولكن، كيف يمكننا البدء بأن نكون أقوياء عندما يكون هناك داء في وسطنا؟ أولاً، يجب علينا التخلص من هذا الداء الذي يُزعج جسد وطننا.

ما هو هذا الداء؟ قد تتساءلون. هذا الداء، يا إخوتي وأخواتي، هو مبدأ النَّبذ الذي أفسد حياتنا طوال قرون، حارماً إخواننا البشر من الكرامة. يجب استئصال هذا الداء من مجتمعنا، ومن قلوبنا، ومن عقولنا. لا أحد منبوذ لأننا جميعاً متساوون. تذكّروا ما يقوله غاندي؛ فهو يقول ما معناه أن النَّبذ يسمّم الديانة الهندوسية كما تُسمّم نقطة من الزرنيخ الحليب".

بعد ذلك، توجّه خطباء آخرون إلى الجماهير، متناولين مسائل مرتبطة بالنضال في سبيل الحرية، وبأولئك الذين يمضون الوقت في السجن على نحو مشرّف بسبب العصيان المدني ورفضهم التقيّد بالقوانين الجائرة. لقد بقي دوكي وأشرف حتى النهاية، واستمعا إلى الخطباء عندما طلبوا من الجماهير التعهد بإخراج كل تعصّب طبقي من أذهانهم، وكلامهم، وأعمالهم. "ننقل هذه الرسالة إلى كل مكان في البلد، ونطلب من الناس أينما

كانوا الاتحاد ومقاومة هذا النظام المتعصّب والشرير".

فتعهّد المحتشـدون باتّباع ما أوصى به المهاتما، مردِّدين الكلمات بحماسـة. وانتهى المهرجان.

قـال دوكـي لأشـرف: "أتسـاءل، عمـا إذا كان الإقطاعيـون في قرانا سـيصفّقون يوماً لخطبة تتناول التخلص من النظام الطبقي".

قال أشرف: "سيصفّقون ويستمرون في الطريقة القديمة عينها. لقد سرق الشر حسّ العدالـة منهـم؛ لـذا فهـم لا يسـتطيعون أن يروا أو يشـعروا. ولكن، يُفتـرض بك أن تغادر قريتك وتصطحب عائلتك إلى هنا".

"وأيـن نقيـم؟ هنـاك، لدينا كوخ على الأقـل. علاوةً على ذلك، هناك عاش أجدادي على الدوام. كيف يمكنني مغادرة تلك الأرض؟ ليس من الجيد الابتعاد عن قريتك الأم وإلا نسيتَ من تكون".

قـال أشـرف: "هـذا صحيـح. ولكن، على الأقل، أرسـل ابنَيك إلـى هنا لمدة قصيرة من الزمن ليتعلما مهنة".

"لن يُسمح لهما بمزاولتها في القرية".

فعيل صبر أشـرف من تشـاؤمه وقال: "سـتتبدل الأمور. لقد سـمعتَ أولئك الرجال في الاجتماع. أرسل إليّ ابنَيك، وسأعلّمهما الخياطة في مشغلي".

التمعت عينا دوكي للحظات، وتخيّل مستقبلاً مُشرقاً، وقال: "لا، من الأفضل لهما البقاء حيث ينتميان".

حان وقت الحصاد، فتوقف دوكي عن الذهاب إلى فناء الأخشاب. لقد تلاشى العهد الذي قطعه على نفسه بتجنب أصحاب المُلك لأن المسافة إلى البلدة تكون طويلة عندما لا يمكـن التعويـل علـى وسـائل النقل. كان يغادر إلـى الحقول قبل الفجر لقطف الغلال، ويعـود إلـى عائلتـه بعد الغسـق مع ألم في الظهـر، وكل الأخبار من القرى المجاورة التي فاتته في الأشهر القليلة الأخيرة.

وكانت الأخبار مماثلة لتلك التي كان يسـمعها دوكي مسـاءً تلو الآخر في طفولته، ولكن الأسـماء مختلفة. لقد تعرضت سـيتا للرجم بالحجارة لأنها سـارت على الجانب المخصص لأفراد الطبقة العليا، ولكن ليس بقصد قتلها لقد توقفت الحجارة لدى سقوط أول قطرة دماء. لم يكن غامبير محظوظاً بقدْرها؛ لقد سُكب رصاص منصهر في أُذُنيه لأنه جـازف بالاسـتماع إلـى الصلـوات المقامَة في دار العبادة. وأُجبر دايـارام، الذي لم يعمل بموجب اتفاقٍ بينه وبين صاحب الملك، على أكل غائط صاحب الملك في ساحة القرية.

وحاول ديراج التفاوض مُسبَقاً مع الباندي غانشيام في شأن أجور قطع الحطب، وذلك بدلاً من الاكتفاء بالقضبان القليلة التي يمكنه توقّع الحصول عليها في نهاية اليوم؛ فاستاء الباندي، واتهم ديراج بتسميم أبقاره وشنقه.

بينما كان دوكي يكدّ بالعمل في الحقول من دون أن يكون العمل بالجلود كافياً، لم يكن هناك عمل لابنَيه. وحاولت روبا إبقاء إيشفار ونارايان منشغلَين من خلال إرسالهما للبحث عن حطب للوقود. فكانا يجدان من حين إلى آخر رَوث أبقار متناثراً يقوم راعٍ بمراقبته لأن مالكي الأبقار يقومون بجمع السلعة الثمينة بحماسة. لم تكن روبا تستخدم الرَّوث كوقود، مفضّلةً دهن مدخل الكوخ به. وبعد أن يجفّ ويصبح صلباً وناعماً، كانت تستمتع لفترة من الزمن بعتبة صلبة كصلابة الطين المحروق في فناءات القيّمين على المواشي.

بالرغم من مهامهما الروتينية، كان للفتيَين ساعات فراغ عديدة يركضان فيها بجانب النهر أو يطاردان الأرانب. كانا يعلمان بالتحديد ما الذي تسمح به طبقتهم الاجتماعية أو تحظّره؛ فالفطرة واستراق السمع إلى أحاديث الأكبر سنًّا رسما الحدود في وعيهما بشكل واضح وضوح الجدران الحجرية. ومع ذلك، كانت والدتهما قلقة من تعرّضهما للمشاكل، فكانت تنتظر انتهاءهما من درس الحنطة لتقوم بغربلة العُصافة، واضعةً إيّاهما أمام ناظرَيها.

في بعض الأحيان، كان الشقيقان يمضيان الصباح بالقرب من مدرسة القرية، فيستمعان إلى أولاد الطبقة العليا وهم يسمّعون الأحرف الأبجدية، ويغنّون أغاني صغيرة عن الألوان، والأعداد، والرياح الموسمية. وتخرج الأصوات المرتفعة من النافذة كأسراب الدوري. وفي وقت لاحق، يحاول الشقيقان تكرار ما حفظته ذاكرتاهما من أغانٍ ينشدها الأولاد، وذلك بين الأشجار القائمة بجانب النهر وبشكل سرّي.

وإذا حمل الفضول إيشفار ونارايان على الاقتراب كثيراً من المدرسة ورآهما المدرّس، كانا يتعرّضان للطرد على الفور: "حماران صغيران وقحان! اِرحلا وإلا كسرت عظامكما!". ولكن إيشفار ونارايان كانا ماهرَين في التجسس على الصف، فكانا يزحفان إلى مكان قريب بما يكفي لسماع الطباشير وهي تَصرّ على ألواح الأردواز.

كانت الطباشير وألواح الأردواز تفتنهما ويتوقان إلى حمل الأصابع البيضاء بأيديهما، وإحداث خطوط قصيرة متعرّجة على غرار الآخرين، ورسم صور لأكواخ، وأبقار، وماعز، وأزهار. فجعل الأشياء تظهر من لا شيء مهماً بالنسبة إليهما.

ذات صباح، وعندما كان إيشفار ونارايان مختبئَين وراء الشُجيرات، أُخرج الأولاد

إلى الباحة الأمامية للتدرب على رقصة بمناسبة مهرجان موسم الحصاد. كانت السماء صافية، ويمكن سماع مقاطع قصيرة من الأغنية التي يردّدها العمال في الحقول البعيدة. وكانت هذه الأغاني تشتمل على آهات ناجمة عن آلام شديدة في الظهر، واحتراق بشراتهم تحت أشعة الشمس الحادة. فاستمع إيشفار ونارايان إلى صوت والدهما من دون أن يتمكنا من تمييز أصوات جَوقة المغنّين.

رفع أولاد المدرسة أياديهم، وشكلوا حلقتَين، وتحركوا باتجاهَين متقابلَين بأقدام عارية. ومن حين لآخر، كان نموذج الحركة يجري باتجاه معاكس، مما يتسبب بكثير من الضحك بسبب تأخر بعض الأولاد في الاستدارة، وحدوث إرباكات وتشابكات.

بعد المراقبة لفترة من الزمن، أدرك إيشفار ونارايان فجأةً أن المدرسة فارغة. فزحفا حول الباحة حتى وصلا إلى الصف، ودخلا من النافذة.

في إحدى الزوايا، كانت أحذية الأولاد موضوعة في صفوف مرتَّبة. وفي زاوية أخرى، شاهدا أوعية الطعام الخاصة بهم بجانب اللوح الأسود، وشمّا روائح الطعام الممتزجة مع غبار الطباشير. توجّه الفتَيان إلى الخزانة حيث يتم الاحتفاظ بألواح الأردواز والطباشير. فالتقط كل منهما لوحاً، وجلسا على الأرض متربّعَين وواضعَين اللوحَين على حضنَيهما على غرار الأطفال الذين سبق لهما أن شاهداهم. ولكن الاثنين لم يكونا واثقَين مما سيفعلانه بعد ذلك، فانتظر نارايان شقيقه الأكبر للقيام بالخطوة التالية.

كان إيشفار عصبيّ المزاج قليلاً، وسمَّر طبشورته فوق اللوح خائفاً مما قد يحدث. فلامست طبشورته اللوح بحذر، ورسم خطاً، ومن ثم خطاً آخر، وكرر الأمر. وابتسم لنارايان ابتسامة عريضة؛ يا لسهولة رسم هذه العلامة!

بدوره رسم نارايان الذي كانت أصابعه ترتجف من فَرط الحماسة خطاً أبيض قصيراً، وعرَضه بفخر. وازدادت مغامرتهما، منطلقَين من خطوط مستقيمة، ومغطّيَين اللوحَين بحلقات، ومتوقفَين فقط للتأمل في ما حققاه. فدُهشا من سهولة الأمر، ومحوَا بعد ذلك كل شيء، وأعادا ابتكار ما يشاءان. وحملهما غبار الطباشير الموجود على راحات أيديهما وأصابعهما على الضحك أيضاً؛ يمكن رسم خطوط سميكة ومُضحكة على الجبين مماثلة لعلامات الطبقة العليا الموضوعة على جبين البرهميين بواسطة الغبار.

عادا إلى الخزانة لتفحص بقية محتوياتها، ففتحا خرائط مصفوفة وفقاً للتسلسل الأبجدي، واطّلعا على كتب مصوَّرة. وفيما كانا تائهَين في العالم المحظور، لم يلاحظا انتهاء الرقص في الباحة، ولم يسمعا تسلّل المدرّس وراءهما. فأمسك بأُذُنيهما وجرّهما إلى الخارج.

"أيهـا النـذلان الشـاماريان! أصبحتما شـجاعَين، وتتجرأان على دخول المدرسـة!". فلوى أُذُنيهما بقوة حتى صاحا من الألم، وبدأا بالبكاء. واحتشد تلاميذ المدرسة حولهما.

"هـل هـذا مـا علّمكمـا إيّاه والداكما؟ تدنيس أدوات العِلـم والمعرفة؟ أجيباني! هل هذا ما علّماكما إيّاه؟". وأفلت أُذُنيهما، وكانا طويلَي القامة جداً مما حال دون تمكنه من تسديد ضربات على الرأس، وأمسك بهما مجدداً.

فقال إيشفار، شاهقاً: "لا، يا سيدي. لم يعلّمانا القيام بهذا الأمر".

"إذاً، لماذا أنتما هنا؟".

"أردنا فقط أن نلقي نظرة...".

"أردتما إلقاء نظرة! حسـناً، سـأريكما الآن! سـأريكما قفا يدي!". وفيما كان ممسـكاً بنارايان، صفع وجه إيشـفار سـت صفعات متتالية، وصفع وجه أخيه العدد نفسـه. "وماذا يوجد على جبينَيكما، أيها المخلوقان الوقحان؟ يا للتجديف!". وصفعهما مجدداً، فآلمته يده.

طلب من إحدى الفتيات: "أحضري الخيزرانة الموجودة على الخزانة. وأنتما، أَنزلا سـرواليكما. بعد الانتهاء منكما، لن يحلم أي منكما أيها الفَتيان الغبيان بالعبث بالأشـياء التي لا يُفترض بكما لمسها".

وأُحضرت الخيزرانة، وطلب المدرّس من أربعة طلاب أكبر سنّاً تثبيت الآثمَين على الأرض ووجهاهما نحو الأسفل. وبدأت العقوبة بتسديد ضربات للاثنين بشكل متناوب، وكان الأولاد يجفلـون كلمـا ارتطمـت الخيزرانـة بالمؤخّرتَيـن العاريتَيـن. وبدأ فتى صغير بالبكاء.

عندمـا تلقـى كل منهمـا اثنتَـي عشـرة ضربة، توقف المدرّس، وقـال لاهثاً: "يُفترض بذلك تأديبكما. الآن، اخرجا، ولا تدعا وجهَيكما القذرَين يُشاهدان هنا مجدداً".

فرّ إيشفار ونارايان قبل رفع سروالَيهما، متعثّرَين وراكضَين بخطى سريعة على نحو هزلي. واغتنم الأولاد الآخرون الفرصة للضحك؛ كانوا ممتنّين للارتياح الذي شعروا به.

لم يعرف دوكي بالعقوبة التي نالها ابناه حتى المساء. فطلب من روبا بعبوس إرجاء خَبز أرغفة التشوباتي. "لماذا؟"، سألت خائفة، "بعد يوم كامل في الحقول، ألستَ جائعاً؟ إلى أين تذهبون؟".

"إلى الباندي لالورام. يجب عليه القيام بأمر ما حيال ما جرى".

"انـسَ الأمـر فـي الوقـت الحاضر"، قالت متوسّـلة، "لا تُزعج هـذا الرجل الهام في وقت العشاء". ولكن دوكي غسل غبار اليوم عن يدَيه وغادر.

لـم يكـن البانـدي لالـورام مجرد برهمي، بل كان برهميًّا من سـلالة شـيت - بافان، ومتحـدّراً مـن أطهـر السـلالات القيّمـة علـى المعرفة. لم يكـن رئيس القرية أو مسـؤولاً حكوميـاً، بـل يقـول نظراؤه إنه يحظى باحترام ثابت بسـبب سـنّه، وحـسّ الإنصاف لديه، ووجود المعرفة داخل جمجمته الكبيرة البرّاقة.

كانت تُعرَض عليه أنواع النزاعات حول الأرض، أو الماء، أو الحيوانات كافة للفصل فيهـا. وتشـمل سـلطته القضائيـة الخلافـات العائليـة التي تتنـاول الكنّات غيـر المطيعات، والزوجـات العنيـدات، والأزواج الخائنيـن. وبفضـل أحكامه المنزَّهة عن كل عيب، يغادر الجميـع برضـى تـام: تتوّهـم الضحية أن العدالة قد تحققت، ويسـتمر الآثـم باتّباع طرائقه القديمة؛ ويتلقى الباندي لالورام الهدايا من الجانبَين؛ من ثياب، وحبوب، وفاكهة، وحلوى.

يتمتع الباندي المثقَّف أيضاً بشهرة تشجيع التناغم المشترَك. فعلى سبيل المثال، وفي أثناء الاحتجاجات الدَّورية ضد المسلمين وناحري الأبقار، أقنع الباندي لالورام أتباع دينه بأنه لا يحق للهندوس إدانة آكلي لحوم الأبقار.

وبسبب سجلّه الذي لا عيب فيه، كان أنصار الباندي لالورام عديدين، ويقولون إنه نزيه وعادل لدرجة أنه يمكن للمنبوذ الحصول على العدالة عن طريق اللجوء إليه. ولكنّ أيًّا مـن أولئـك المنبوذيـن لا يمكنـه تأكيد هذا الأمر. فالناس يذكـرون بغموض كما يبدو قيام صاحب مُلك بضرب شـخص من البونغيين حتى الموت بسـبب وصوله متأخراً إلى المنزل بعد شروق الشمس لنقل غائط الأسرة بالعربة ورميه بعيداً. فحكم الباندي لالورام - أو ربما والده، أو جده؛ على أيّ حال، أحدهم أصدر حكماً - بأن الجُنحة خطِرة ولا تبرّر عملية القتل، وبأنه يجب على صاحب الملك التعويض على زوجة المتوفّى وأطفاله بتوفير الطعام، والمأوى، والثياب، في السنوات الست التالية، أو لستة أشهر، أو ربما لستة أسابيع؟

بالاسـتناد إلـى هذه الشـهرة الأسـطورية، جلس دوكـي عند قدمَي البانـدي لالورام، وأخبـره عـن الضـرب الـذي تعرّض له إيشـفار ونارايان. كان الرجل المثقَّف جالسـاً على كرسـي ذي ذراعيـن، وأنهـى للتوّ عشـاءه، وتجشـأ عـدة مرات خلال قيام زائـره برواية ما جـرى. كان دوكـي يتوقـف بداعي التهذيب عند تجشـؤ لالورام، فـي حين يهمهم الباندي لالورام شاكراً الله لأنه أنعم عليه بقناة هضمية قوية.

"لقـد ضـرب ابنَـيّ؛ يُفتـرض بك رؤية وجهيهما المتورّمَين، يا سـيدي الباندي"، قال دوكي، "وتبدو مؤخرتاهما كما لو أن نمراً غاضباً قد تسبب لهما بألم شديد بمخالبه".

قال الباندي لالورام، متعاطفاً: "ولدان مسكينان". ونهض وتوجّه إلى رف في الداخل

قائلاً: "إليك هذا، ضع هذا المرهم على مؤخّرتَيهما، فهو سيخفف من الألم المُحرق".

حنى دوكي رأسه: "شكراً لك، يا سيدي الباندي، أنت شديد اللطف حقاً". ورفع قطعة القماش عن رأسه ولفّ بها العلبة الصفيحية الصغيرة المسطحة. "يا سيدي الباندي، منذ بعض الوقت، تعرضتُ لضرب شديد من قِبل التاكور بريمجي بسبب خطأ لم أرتكبه. ولكنني لم آتِ إليك. لم أشأ أن أزعجك".

فرفع الباندي لالورام حاجبَيه، وفرك إصبع قدمه الكبيرة، وأومأ برأسه، ورفع عَرقاً وقذارة عن أصابعه وصنع منها كتلاً صغيرة سوداء.

قال دوكي: "في ذلك الوقت، عانيتُ بصمت، ولكنني قدمتُ إليك لأجل ابنَيّ. لم يكن يُفترض بهما أن يتعرضا لضرب غير عادل".

ملتزماً الصمت، شمّ الباندي لالورام أصابع يدَيه التي أنهت تدليك الإصبع الكبيرة. ودار بشكل مِحوري على رِدف واحد، وأطلق ريحاً. فانحنى دوكي إلى الوراء للسماح له بالمرور، متسائلاً عن عقوبة إعاقة مرور ريح البرهمي.

قال متوسلاً: "إنهما مجرّد فتيَين، ولم يتسببا بأي أذى". وانتظر الإجابة. "لم يتسببا بأي أذى، يا سيدي الباندي"، كرر، راغباً في أن يوافقه الرجل المثقَّف الرأي، "يجب معاقبة ذلك المدرّس على فعلته".

فتنهّد الباندي لالورام طويلاً وبصعوبة. ثم انحنى جانباً، ونفخ دفقاً سميكاً من الإفرازات خارج أنفه على الأرض الجافة ممّا أدّى إلى تحرّك الغبار، وحك أنفه وتنهّد مجدداً قائلاً: "يا دوكي موشي، أنت رجل صالح تعمل بكدّ. أعرفك منذ مدة طويلة. تحاول باستمرار القيام بواجبك، أليس كذلك؟ وفقاً لمكانتك الاجتماعية؟".

فأومأ دوكي برأسه.

أقرّ الباندي لالورام: "وهو أمر حكيم، لأنه الطريق إلى السعادة، وإلا عمّت الفوضى الكون. تعلم أن هناك أربع مجموعات في مجتمعنا: البرهمية، الكشاترية، الفايشية، والشودرية. وكل منا ينتمي إلى إحدى هذه الجماعات، وهي لا يمكنها الاختلاط. أليس كذلك؟".

فأومأ دوكي برأسه مرة أخرى، خافياً نفاد صبره. لم يأتِ لسماع محاضرة حول النظام الطبقي.

"فكما تقوم بواجبك حيال عائلتك وفقاً للشريعة الهندوسية كعامل في الجلود، يجب على المدرّس القيام بواجبه أيضاً. لا يجب عليك إنكار هذا الأمر، أليس كذلك يا دوكي؟".

فهز دوكي رأسه.
"معاقبة ابنيَك بسبب أخطائهما جزء من واجب المدرّس. لم يكن لديه أي خيار. هل فهمت؟".
"أجل، يا سيدي الباندي، المعاقبة ضرورية أحياناً. ولكن بهذا الضرب الرهيب؟".
"كانت إساءة رهيبة لدرجة أنهما...".
"ولكنهما ليسا سوى فتيَين فضوليَّين، على غرار كل...".
فقلّب الباندي لالورام عينيَه بسبب المقاطعة، مشيراً إلى السماء بسبّابة يده اليمنى لإسكات دوكي: "كيف أُفهمك؟ لا تملك المعرفة التي تساعدك على تقدير هذه المسائل حق قدرها". حلّت نبرة أكثر قسوة مكان نبرة الصبر في صوته. "دخل ابناك الصف. لقد لوّثا المكان، ولمسا أدوات التعليم، ودنّسا الألواح والطباشير التي يلمسها أولاد الطبقة العليا. أنت محظوظ لعدم وجود كتاب كالباغافاد غيتا في تلك الخزانة، أو أي نصوص مبجلة، وإلا لكانت العقوبة قاسية جدًّا".
كان دوكي هادئاً عندما لمس خفَّي الباندي لالورام لاستئذانه بالانصراف قائلاً: "أفهم تماماً، يا سيدي الباندي. شكراً لأنك شرحت لي. أنا محظوظ للغاية. أنت برهمي شيت - بافان تضيّع وقتك الثمين على شاماري جاهل مثلي".
رفع الباندي لالورام يده مودّعاً. كان لديه ارتياب في شأن ما إذا كان يُمتدح أم يُشتم. ولكنّ تجشؤه الشديد الذي خرج من معدته، أزال الارتياب وهدّأ العقل والبطن.
في طريقه إلى المنزل، التقى دوكي أصدقاءه الذين كانوا لا يزالون يدخّنون تحت شجرة بجانب النهر. "يا دوكي، أنت في تلك الناحية من القرية في وقت متأخر؟".
"ذهبت لرؤية البرهمي شيت - بافان ذاك"، قال دوكي، وروى لهم زيارته بالتفصيل. "كان يُفترض بك الذهاب إلى البرهمي غو - كافان بدلاً منه".
وضحكوا مسرورين، ووافق شوتو على أن البرهمي آكل - الغائط هو اسم أكثر ملاءمة. "ولكن، كيف تكون لديه شهيّة لتناوله بعد التهام رطل من السمن ورطلَين من الحلوى على كل وجبة؟".
"لقد أعطاني هذا المرهم لابنَيّ"، قال دوكي. ومرّروا العلبة الصفيحية إلى بعضهم، متفحصين العلبة، وشامّين المحتوى.
"يبدو لي كما لو أنه مادة تلميع للأحذية"، قال شوتو، "يجب عليه مسح رأسه به كل صباح. لذلك، هو يسطع كالشمس".
"أنت تربك الرأس بهذا الهراء. فمن هناك تشرق الشمس وفقاً لأفراد طبقته العليا".

"لديّ نصيحة لهم جميعاً"، قال دايارام، وطلب منهم باللغة السنسكريتية أمراً منافياً للطبيعة.

فزمجر الرجال، ورمى دوكي العلبة الصفيحية في النهر، وغادر إلى المنزل، تاركاً أصدقاءه يخمّنون ما يوجد بالتحديد تحت كُتل الشحم التي تشكل بطن الباندي لالورام.

أخبر روبا بأنه سيغادر باكراً في صباح اليوم التالي إلى البلدة. "لقد اتخذت قراري. سأتحدث إلى أشرف الخياط".

لم تسأل عن السبب. كان عقلها منشغلاً بالتخطيط لاستراتيجية لشن هجوم ليلي آخر على مِمخضة الزبدة في منزل أحدهم، وهذه المرة لأجل مؤخرتَي ابنَيها.

لم يشأ أشرف تقاضي أي أجر لقاء تدريب ابنَي دوكي. قال: "سيكونان مصدر عون لي، وما هي كمية الطعام التي يتناولها فتَيان صغيران؟ أيّاً يكن الطعام الذي نطهوه، فهما سيُشاطراننا إيّاه. أنت موافق، أليس كذلك؟ هل هناك قيود على مأكولات محدّدة؟".

"لا قيود"، قال دوكي.

بعد أسبوعين، عاد إلى مشغل الخياط مع إيشفار ونارايان. "أشرف بمثابة شقيق لي"، شرح للفتيَين، "لذلك، يجب أن تنادياه باستمرار العم أشرف".

فشعّ وجه الخياط فَرَحاً بسبب احترامه من خلال إطلاق لقب العمّ عليه، وأضاف دوكي: "ستبقيان مع العم أشرف لبعض الوقت، وتتعلمان منه. أصغيا بحرص إلى كل ما يقوله، وعاملاه بالاحترام نفسه الذي تعاملانني به".

كان الوالد قد أعدّ الفتيَين مسبَقاً للفراق، وكل ما أجابا به هو: "أجل، يا بابا".

"سيحوّلكما العم أشرف إلى خياطَين على غراره. من الآن فصاعداً، لستما إسكافيَّين. إذا سألكما أحد عن اسمَيكما، لا تقولا إيشفار موشي أو نارايان موشي. من الآن فصاعداً، أنتما إيشفار دارجي ونارايان دارجي".

بعد ذلك، ربّت دوكي على ظهريهما، ودفعهما برفق كما لو أنه يضعهما في عهدة الرجل الآخر. فغادرا جانب والدهما وتوجها نحو الخياط الذي بسط يديه لاستقبالهما.

لقد راقب دوكي أصابع أشرف، وحرارة إمساكه بكتفَي ابنَيه. فأشرف رجل صالح، ويعلم أنه سيعتني بابنَيه بشكل جيد. لقد شعر بألم شديد البرودة في قلبه.

خلال رحلة العودة إلى القرية، كان مسترخياً في العربة التي يجرها ثور مخصي، ومصاباً بالإرهاق، وغير شاعر تقريباً بوثوب العجلات فوق الأخاديد والنتوءات، مُحدثةً ارتجاجاً في عظامه. في الوقت نفسه، شعر بموجات شديدة من الطاقة تحمله على الرغبة في القفز من العربة والركض. كان يعلم أنه قام بأفضل شيء ممكن لابنَيه، ورُفع عبء

عن كاهله. لماذا لا يشعر إذاً أنه أكثر رشاقة؟ ما هو ذلك الأمر الآخر الذي يضغط عليه؟

في وقت متأخر من بعد الظهر، قفز من العربة بجانب طريق القرية. كانت روبا جالسة في الكوخ وتحدّق إلى المدخل عندما ظهر ظلّه عند الباب. فأخبرها بأنه تم تدبّر كل شيء.

رمقته بنظرة اتهامية. لقد أحدث فراغاً في حياتها لا يمكن ملؤه. فكلما فكّرت في ابنَيها، وفكرت في أنهما يقيمان مع غريب، ومن غير دينهما، على بُعد أميال كانت تشعر بالأسى، وبأنها ستختنق، كما أخبرت زوجها. ففكر بمرارة في أنّ صديقه يعامله بشكل أفضل من إخوته الهندوسيين.

تقع مؤسسة مظفّر للخياطة في شارع مؤسسات عائلية صغيرة. كان هناك متجر للخردوات، وتاجر فحم حجري، وسمّان، وطحّان في صف واحد وكانت المتاجر متماثلة في الشكل والحجم ولا يتميّز أحدها عن الآخر إلا بالضجيج والروائح الداخلية. ومؤسسة مظفّر للخياطة هي الوحيدة التي تضع لافتة باسمها.

كان مشغل أشرف محصوراً بسبب وجود منزل فوقه؛ غرفة واحدة ومطبخ. لقد تزوج قبل عام ولديه ابنة في شهرها الأول. لم تكن زوجته ممتاز، مسرورة جداً عندما أخبرها بإقامة شخصين إضافيين معهم. واتُخذ قرار بأن ينام المبتدئان في المشغل.

لقد شعر إيشفار ونارايان بالارتباك بسبب التبدل المفاجئ في حياتهما: مبانٍ، أضواء كهربائية، مياه تتدفق من الصنابير؛ كل شيء مختلف عن القرية ومثير للدهشة. في اليوم الأول، جلسا برهبة على الدرَجات الحجرية خارج المشغل، وهما يراقبان الشارع وعالم الفوضى المخيفة. وشيئاً فشيئاً، لاحظا نهر حركة المرور الكثيفة في الشارع، وتيارات من العربات التي تُجرّ باليد، ودراجات هوائية، وعربات تجرّها ثيران مخصية، وحافلات، وشاحنة من حين لآخر. لقد تعرّفا طبيعة النهر الهائج، واطمأنّا إلى أن الأمور تتّبع نمطاً محدداً ولا يمكن اعتبارها ضجيجاً أو جنوناً.

راقبا الناس يدخلون متجر السمانة لشراء الملح، والتوابل، وجوز الهند، وحبوب القطّاني، والشمع، والزيت. ورأيا الحبوب تُنقل إلى المطحنة لتحوَّل إلى دقيق. وراقبا ذراعي الطحان وهما تصبحان بيضاوَين ببطء خلال العمل؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى وجهه وحاجبيه أيضاً في بعض الأحيان. وغدت ذراعا تاجر الفحم ووجهه سوداء مع تقدّم الوقت. وطوال اليوم، كان الفتيان الذين يسلّمون الطلبيّات يدخلون ويخرجون حاملين سلالاً من الفحم. لقد أحب إيشفار ونارايان مراقبة الجيران وهم يغتسلون ليلاً ويخرجون بلونهم البنّي بعد إزالة ألوان النهار عن بشراتهم.

لقد تركهما أشرف على سجيّتهما لمدة يومين إلى أن تحوّل فضولهما بملء إرادتهما نحو مشغل الخياطة. كانت آلة الخياطة اهتمامهما الرئيس بالطبع. ولإشباع رغبتهما، سمح لكل منهما بتشغيل الدوّاسة في أثناء قيامه بتحريك قصاصة قماش تحت الإبرة. فشعر الشقيقان بالإثارة بسبب تمكنهما من تشغيل آلة الخياطة. كان الأمر مُلهماً على غرار رسم خطوط بالطبشورة على لوح الأردواز.

باتا مستعدَّين للتعاطي مع الأمور الأقل تشويقاً كإدخال خيط في إبرة والتقطيب باليد. لقد تركا أثراً إيجابياً في نفس أشرف بسبب تلهّفهما للتعلّم بسرعة. فقرر أنه سيسمح لإيشفار بتدوين قياسات الزبون التالي الذي يدخل مؤسسة مظفّر للخياطة.

كان الزبون يحمل قماشاً مقلّماً لخياطة قميص. ففتح أشرف صفحة جديدة في دفتر الطلبات، ودوّن اسم الرجل، وفضّ بعد ذلك شريط القياس المزخرف الذي يهيم به الفتَيان ببساطة. كانا قد بدأا بالتدرب عليه سرّاً، وهو ما أسعد أشرف.

"الياقة، أربعون بوصة ونصف"، قال مُملياً، "الصدر، اثنتان وثلاثون". وألقى نظرة سريعة على إيشفار المنحني فوق الدفتر ولسانه ناتئ من فمه في تركيز كبير. وملتفتاً إلى الزبون، أضاف أشرف: "أتريد أن يكون الكمّان قصيرين أم طويلين؟".

قال الرجل: "يجب أن يكونا طويلَين، سأرتديه بمناسبة زفاف أحد أصدقائي". وانتهت الإجراءات الشكلية، وغادر الزبون، واثقاً من أن قميصه سيكون جاهزاً في الوقت المحدد للزفاف في الأسبوع التالي.

قال أشرف: "الآن، لنرَ القياسات".

فسلّمه إيشفار الدفتر مبتسماً بفخر. كانت الصفحة مغطاة بخربشات سوداء وكتابات غير مقروءة.

"آه، أجل، فهمت". ضبط أشرف هلعه، مربّتاً على ظهر الفتى. "أجل، جيد جداً". ودوّن على عجَل الأرقام التي تمكّن من تذكرها.

بعد العشاء، بدأ يعلّمهما الحروف الأبجدية والأعداد. لم تكن ممتاز مسرورة. "الآن، أصبحتَ مدرّسهما أيضاً. ماذا بعد؟ هل ستجد لهما زوجتين أيضاً عندما يصبحان في سنّ مناسبة؟".

في اليوم التالي، أنهى قميص ضيف الزفاف، وقدم الرجل في نهاية الأسبوع وارتداه لاختباره. لقد خاط أشرف القميص بشكل جيد باستثناء الطول الذي وصل حتى الركبتَين. نظر الرجل إلى صورته المنعكسة على المرآة مرتاباً، ومستديراً إلى اليسار واليمين.

قال أشرف مُبدياً إعجابه: "ممتاز، أصبح هذا الطراز البتهاني الشمالي على الموضة

في هذه الأيام". وغادر الرجل متشككاً إلى حدٍّ ما، وانفجر الثلاثة ضاحكين.

بعد شهر من بدء المبتدئَين، أيقظ أنين ضعيف أشرف في الليل. فجلس للإصغاء، ولكنه لم يسمع المزيد. فاستلقى وبدأ بالتقلّب في فراشه.

بعد دقائق قليلة، عكّر الصوت مجدداً صفو نومه: "ما الأمر؟"، سألت ممتاز، "لماذا تستمر في الاستيقاظ؟".

"أسمع صوتاً. هل الطفلة تبكي؟".

"لا، ولكنها ستبكي إذا استمررتَ في القفز".

سُمع النحيب الخفيف مجدداً. "إنه صادر من الأسفل". فنهض من سريره وأضاء المصباح.

"إذاً، لماذا يتعيّن عليك الذهاب؟ هل أنت والدهما؟".

فتبعه تأنيبها في أثناء نزوله الدرج إلى المشغل. دخل ورفع المصباح الذي أضاء خدَّي نارايان المتألّقَين بالدموع. فركع على الأرض بجانبه، وفرك ظهره بلطف.

"ما خطبك، يا نارايان؟"، سأل، بالرغم من معرفته الجواب. لقد توقّع شعورهما بالوحشة بعيداً عن والدَيهما عاجلاً أم آجلاً. "سمعتك تبكي. هل يؤلمك شيء ما؟".

فهزّ الفتى رأسه. ووضع أشرف ذراعه حوله. "عندما لا يكون والدك موجوداً، أحلّ مكانه. والعمة ممتاز بمثابة والدتك؟ يمكنك أن تخبرنا بكل ما يحلو لك".

لدى سماعه ذلك، انفجر نارايان بالبكاء، فاستيقظ إيشفار أيضاً وفرك عينَيه، وحماهما من ضوء المصباح.

سأل أشرف: "هل تعرف سبب بكاء شقيقك؟".

فأومأ إيشفار برأسه برزانة وقال: "يفكر في المنزل كل ليلة. أفكر فيه أنا أيضاً، ولكنني لا أبكي".

"أنت فتى شجاع".

"لا أريد البكاء أنا أيضاً"، قال نارايان، "ولكنني أفكر في والدي ووالدتي عندما يحلّ الظلام وينام الجميع". مسح أنفه وعينَيه وتابع قائلاً: "أفكّر في كوخنا. وهذا الأمر يجعلني شديد الحزن، ومن ثم يحملني على البكاء".

فوضعه أشرف في حضنه، قائلاً إنّه لا بأس بالتفكير في والدَيه. "ولكن لا تحزن، سيصل والدك بعد أسابيع قليلة لاصطحابك إلى المنزل في زيارة. وعندما تتعلم كل تفاصيل الخياطة، ستفتح مشغلك الخاص وتكسب الكثير من المال. كم سيكون والداك فخورَين بك؟".

قال للفتيَين إنه كلما شعرا بالحزن، باستطاعتهما القدوم إليه وإخباره عن قريتهما، والنهر، والحقول، وأصدقائهما. فالتحدث عن الأمر يبدل الحزن إلى فرح، كما أكد لهما. واستلقى بجانبهما حتى ناما، وتسلل بعد ذلك إلى الطابق العُلوي وضوء المصباح خافت.

كانت ممتاز جالسة في الظلام تنتظره. "هل هما بخير؟"، سألت بقلق.

فأومأ برأسه، مطمئنًا لاهتمامها، وقال: "هما يشعران بالوحدة ليس إلا؟".

"ربما يُفترض بنا السماح لهما بالنوم في الطابق العُلوي بدءاً من يوم غد".

لقد ترك عرضها أثراً عميقاً في نفسه، والتمعت عيناه حباً. "هما فتَيان شجاعان. سيتعلمان النوم بمفردهما، من الجيد لهما أن يصبحا صلبَي العود".

لم يمضِ وقت طويل حتى انتشر في قرية دوكي خبر تعلّم ابنَيه عملاً آخر غير العمل بالجلود. في ما مضى، كان يُحكم بالموت على من يخرج عن مبادئ طبقته الاجتماعية. لقد أُبقي على حياته، ولكنها أصبحت حياة صعبة جداً. فلم يعد يُسمح له بالحصول على الجِيَف، وصار يتعيّن عليه السفر مسافات طويلة للعثور على عمل. كان يحصل في بعض الأحيان على جلد حيوان بشكل سرّي من زملائه الشاماريين بالرغم من معرفتهم بالنتائج السلبية المترتّبة على ذلك إذا افتُضح أمرهم. وكان عليه بيع السلع التي يصنعها من هذا الجلد المحظور في أماكن بعيدة حيث لم يسمع أحد به وبابنَيه.

كانت روبا تقول يومياً تقريباً: "يا لهذه المعاناة التي جلبتها لنفسك! لا عمل، ولا طعام. وولدانا بعيدان. ما الخطأ الذي ارتكبتُه لأعاقَب عليه على هذا النحو؟ لقد أصبحت حياتي ظلاماً دائماً".

لكنّ نوراً ظهر في الأُفق عندما اقترب يوم زيارة ابنَيها. فحلمت ووضعت خططاً، وتبدد حزنها بسبب متعة انتظارهما ورغبتها في استضافتهما. وإذا لم تكن قادرة على تحمّل تكلفة ذلك، فهي عازمة على الحصول على الطعام مجّاناً تحت جُنح الظلام.

للمرة الأولى منذ ولادة الفتيَين، اعترف دوكي بأنه على عِلم بخروجها في الليل. ففي أثناء نهوضها خلسةً بعد منتصف الليل قال: "اسمعي، يا أم نارايان، لا أظن أنه يُفترض بك الذهاب".

فجفلت روبا: "آه، كم أخفتني! ظننت أنك نائم!".

"من الغباء المجازفة بهذه الطريقة".

"لم تقل ذلك من قبل".

"كان الأمر مختلفاً آنذاك لأن الفتيَين قد يتضوّران جوعاً من دون زبدة أو درّاقة أو القليل من السكّر الأسمر".

وذهبت روبا على أيّ حال، واعدةً نفسها بأن تكون المرة الأخيرة. فبالرغم من كل شيء، بقي ابناها بعيدَين عن المنزل طوال ثلاثة أشهر، وعليها تقديم شيء مميَّز لهما.

في اليوم الذي طال انتظاره، غادر دوكي عند الفجر، واصطحب ابنَيه للإقامة معهما لمدة أسبوع. فجلس الفتَيان قرب والدهما، ولم يتمالكا نفسَيهما عن لمسه طوال الرحلة، والانحناء عليه من الجانبَين؛ إذ كان نارايان يمسكه من ركبته، ويتشبّث إيشفار بذراعه. تحدّثا من دون توقف، وكرّرا كل شيء لوالدتهما عندما وصلا إلى المنزل في فترة متأخرة من بعد الظهر.

قال إيشفار: "آلة الخياطة مثيرة للدهشة، الدولاب الكبير...".

"تحركين قدمَيك على هذا النحو"، قال نارايان، ملوّحاً بيديه لتقليد الدواسة، "وتقفز الإبرة نحو الأعلى والأسفل، من الجيد أن...".

"يمكنني القيام بذلك بسرعة كبيرة، ولكن باستطاعة العم أشرف القيام بذلك بسرعة أكبر".

"أحب العمل بالإبرة الصغيرة أيضاً بأصابعي. هي تدخل وتخرج من الثوب بسلاسة. إنها مستدقة الرأس جداً، ووخزتني ذات مرة في إبهامي".

فطلبت والدتهما على الفور رؤية الإبهام. ومطمئنّةً إلى عدم وجود ضرر دائم، سمحت بإكمال القصة. وعندما حل موعد العشاء، كان الفتَيان مرهَقَين، وكادا أن يناما فوق الطعام. فمسحت روبا أيديهما وفمَيهما، واصطحبهما دوكي بعد ذلك إلى حصيرتَيهما.

لقد حدّقا إليهما وهما نائمان لفترة طويلة قبل بسط حصيرتَيهما. قال: "يبدوان بصحة جيدة. انظري إلى خدودهما".

قال دوكي: "آمل في ألا يكون انتفاخاً غير صحي، على غرار بطون الأطفال المنتفخة في زمن المجاعة".

"ما كل هذا الهراء؟ من خلال غريزة الأمومة، أعرف على الفور إذا لم يكن ابناي بخير". لكنها فهمت أن سبب ارتيابه يعود إلى استيائه من أن صحة ابنَيهما تغدو أفضل في منزل رجل غريب، وهو أمر غير متوافر لهما في منزلهما؛ فشاطرته الشعور بالعار. ناما وهما يشعران بالفرح والحزن معاً.

استمرت حماسة العائلة في صباح اليوم التالي. كان الفتَيان قد أحضرا معهما شريط قياس، وورقة فارغة، وقلماً من مؤسسة مظفّر للخياطة، وأرادا أخذ قياسات والديهما. لقد علّمهما أشرف رمزاً تصويرياً يعبّر عن كلمات مثل عُنُق، وخصر، وصدر، وكمّ.

لم يتمكن الفتَيان من مدّ أيديهما بما يكفي، لذلك كان على الزبونَين الانحناء أو

الجلوس على الأرض لأخذ بعض القياسات: والدتهما أولاً، وبعد ذلك والدهما. وفي أثناء تدوين قياسات دوكي، نادت روبا صديقاتها في الأكواخ المجاورة للقدوم والمشاهدة. فشعر إيشفار بالارتباك وابتسم خجِلاً، ولكن نارايان فضّ الشريط المزخرف، فاتحاً يدَيه أكثر فأكثر خلال القياس، ومستمتعاً بما يحظى به من انتباه من قِبل الآخرين.

صفّق الجميع بسرور كبير عندما انتهيا. وفي المساء، أخذ دوكي قطعة الورق ليريها لأصدقائه تحت الشجرة بجانب النهر. لقد احتفظ بها بقية الأسبوع.

حان وقت عودة الفتيَين إلى مؤسسة مظفّر للخياطة. وشعر الوالدان بالهلع مرة أخرى عندما لاح في الأفق غياب ابنَيهما عن الكوخ. فطلب إيشفار من والده الورقة التي تحمل القياسات.

سأل دوكي: "هل يمكنني الاحتفاظ بها؟". ففكر الفتَيان مليّاً في طلب والدهما، ومن ثم بحثا عن قطعة ورق أخرى، ونقلا الأرقام كي يتمكن من الحصول على الورقة الأصلية.

مرت ثلاثة أشهر أخرى قبل الزيارة التالية. هذه المرة، أحضر الفتَيان معهما هدايا لوالدَيهما. لقد خطط إيشفار ونارايان أن يقولا لهما إنهما اشتريا الهدايا من متجر كبير في البلدة على غرار الأثرياء.

قالت روبا باضطراب: "ما كل هذا؟ من أين حصلتما على المال؟".

قال نارايان متجاهلاً دُعابته الصغيرة: "لم نشترِها، يا أمي! لقد خطناها بأنفسنا!". وشرح إيشفار بحماسة أن العم أشرف ساعدهما على اختيار الأقمشة المتبقية من طلبات الزبائن. كانت خياطة صُدرة والدهما سهلة بسبب وجود الكثير من بقايا البوبلين البيضاء، في حين أن كنزة والدتهما تطلّبت المزيد من التخطيط. كانت الجهة الأمامية من الكنزة مصنوعة من قماش نُقشت عليه أزهار حمراء وصفراء، والجهة الخلفية مصنوعة من قماش أحمر، والكمّان مصنوعين من عيّنتَي قماش قرمزيّتَين.

انهمرت دموع روبا حالما ارتدت الكنزة. ونظر إيشفار ونارايان إلى والدهما بقلق، فقال لهما إنها تبكي من الفرح.

قالت وهي تشهق مؤكِّدةً على ما قاله: "أجل، أنا سعيدة!". ركعت أمامهما وعانقتهما على التوالي، ومن ثم عانقتهما معاً. ورأت دوكي يراقبهم، فاصطحبت الفتيَين إليه. قالت: "عانقا والدكما أيضاً، إنه يوم مميّز جداً".

وغادرت الكوخ بحثاً عن جاراتها. "يا بادما، يا سافيتري، تعاليا وانظرا! يا آمبا ويا بياري، تعاليا أيضاً! انظرنَ إلى ما حمله ابناي معهما!".

فابتسم دوكي ابتسامة عريضة للفتيَين قائلاً: "لن يكون هناك عشاء اليوم. إن الكنزة الجيدة ستجعل الوالدة تنسى كل شيء، ستمضي اليوم بأكمله بعرضها على الأخريات". وربّت على الجهة الأمامية من الصُّدرة وعلى جانبَيها. "إنها تلائمني أكثر من القديمة. والقماش أجمل أيضاً".

قال نارايان: "انظر، يا بابا، هنا يوجد جَيب أيضاً".

ارتدت روبا ودوكي الملابس الجديدة طوال الأسبوع. وبعد ذلك، وعندما عاد الفتَيان إلى البلدة، خلعت كنزتها، وطلبت صُدرته.

سألها: "لماذا؟".

"لغسلهما".

ولكنها رفضت إعادتها إليه بعد جفافها، وقالت له: "ماذا لو مزّقتها أو ما شابه؟". وطوت القطعتَين، ولفّتهما بخَيش، وربطت الرزمة بخيط، وعلّقتها بسقف الكوخ بمأمن من فيضان الماء والقوارض.

* * *

تخللت سنوات تعلّم إيشفار ونارايان المهنة استراحة كل ثلاثة أشهر قاما خلالها بتمضية أسبوع كامل في قريتهما. لقد بلغا الثامنة عشرة والسادسة عشرة من العمر على التوالي، وشارف تدريبهما على الانتهاء، وكان عليهما مغادرة مؤسسة مظفر للخياطة في وقت ما في أثناء الرياح الموسمية. ونمت عائلة أشرف؛ إذ بات لديه أربع بنات: الصغرى في الثالثة من عمرها، والكبرى في الثامنة. كانت ممتاز تبدي اهتماماً شديداً بمخططات المتدربَين. فكلما تحقق هدفهما بوقت أسرع، ازدادت المساحة المتوافرة لبناتها؛ عِلماً أنها باتت تحب الشابَّين الهادئين اللذين يقدّمان المساعدة على الدوام.

كان نارايان يفضّل الاستقرار في القرية والخياطة لأقاربه. في حين أن إيشفار كان يميل إلى البقاء في هذه البلدة أو سواها، وأن يصبح مساعداً في مشغل أحدهم. وقال لأخيه: "لا يمكنك كسب الكثير في القرية. فالجميع فقراء. هناك فرصة أكبر في مكان كبير".

في غضون ذلك، كانت أعمال الشغب المتفرّقة التي استُهلت مع الحديث عن الاستقلال تنتشر مع غدوّ تقسيم البلد أمراً واقعاً. قال أشرف، بينما كانت ممتاز تحدق إليه: "ربما من الأفضل البقاء حيث أنتما في الوقت الحاضر. الشر غير فعال في بلدتنا. أنتما تعرفان كل الجيران. لقد عشتما هنا طيلة سنوات عدة. وحتى وإن كانت قريتكما

مسالمة، يبقى الوقت غير مناسب للشروع بعمل جديد".

وجّه إيشفار ونارايان رسالة إلى والدَيهما أعلماهما فيها بأنهما سيبقيان مع العم أشرف حتى انتهاء حالة الاضطراب. فحزنت روبا بسبب انفصالهم عن بعضهم طوال هذه السنوات، وها هما ابناها يُرجئان موعد العودة... متى ترأف بنا الأقدار وتُنهي عقوبتها؟

لقد خُيّب أمل دوكي أيضاً، ولكنه قبِل القرار نظراً لكونه الخيار الأفضل. فالأمور المقلقة تحدث حولهم: يزور الإقليمَ منذ مدة غرباء منتمون إلى منظمة هندوسية، يرتدون قمصاناً بيضاء وسراويل كاكية اللون، ويدرّبون عناصرهم على السير على غرار الجنود. لقد حملوا معهم روايات عن مسلمين يهاجمون هندوساً في نواح عدة من البلد.

في قرية دوكي، كان المسلمون قليلي العدد، ولا يشكلون تهديداً على أحد، ولكن أصحاب الملك وجدوا في تحذيرات الغرباء فرصة ملائمة. فبذلوا قُصارى جهدهم لإثارة الناس ضد خطر وهمي قائم وسطهم. "من الأفضل إبعادهم قبل أن نُحرَق أحياء في أكواخنا".

واصل الرجال ذوو القمصان البيضاء والسراويل كاكية اللون مهمتهم لأيام قليلة أخرى، ولكنهم لم يكونوا محظوظين مع الغالبية العظمى. فأفراد الطبقة الدنيا لم يتأثروا في اللغة المنمَّقة؛ فلقد عاشوا بسلام مع جيرانهم المسلمين. إضافةً إلى ذلك، كانوا مرهَقين جداً.

هكذا، أخفقت محاولة تجريد مسلمي القرية من ممتلكاتهم. وانتقل رجال المنظمة الهندوسية إلى مكان آخر بعد إطلاق تهديدات شريرة من مغبّة التعاطي مع الخوَنة، بمن فيهم الخائن الأعلى موهانداس كرامشاند غاندي. لقد وفرت لهم الأماكن ذات الكثافة السكانية الأكبر والمتاجر والخدمات التجارية فُرصاً أكبر للنجاح، إضافةً إلى الستار الذي توفره المدن، والذي يمكن الاختباء وراءه حيث تجد الخِدع والشائعات أرضاً خصبة للنموّ.

ناقش دوكي وأصدقاؤه التطورات عند المساء بجانب النهر. كانوا مربَكين بسبب الروايات المتنوعة التي تبلغ مسامعهم، وتتناول أحداثاً وقعت في بلدات وقرى بعيدة.

"طالما عاملنا الإقطاعيون كحيوانات".

"أسوأ من الحيوانات".

"لكن، ماذا لو كان الأمر صحيحاً؟ ماذا لو اجتاح الحشد المسلم قريتنا كما قال لنا مرتدو السراويل كاكية اللون؟".

"لم يسبق لهم أن ضايقونا من قبل. فلماذا سيقومون بذلك الآن؟ لماذا يُفترض بنا

أن نُلحق الضرر بهم بسبب روايات بعض الغرباء؟".

"أجل، إنّه أمر غريب أننا أصبحنا جميعاً هندوساً أشقّاء".

"لقد تصرف المسلمون كما لو أنهم إخوة لنا أكثر من الأوغاد البرهميين والتاكوريين".

لكن الروايات استمرت في التزايد: طُعن أحدهم بسكين في البازار في البلدة، ضُرب ناسك هندوسي حتى الموت في محطة الحافلات، دُمّرت مستوطنة. وانتشر التوتر في أنحاء الإقليم كافة، وكان كل شيء قابلاً للتصديق لأنه يشبه بالتحديد ما قرأه الناس في الصحف في الأيام القليلة السابقة. فهناك تقارير عن إحراق متعمَّد وأعمال شغب في بلدات كبرى ومدن، وأعمال عنف ومجازر في كل مكان، وعن التبادل السكاني المروِّع الذي يحصل على نطاق واسع والذي بدأ عبر الحدود المستحدَثة.

* * *

بدأت أعمال القتل في القسم الأكثر فقراً من البلدة وانتشرت. في اليوم التالي، كان البازار فارغاً. لم تكن هناك أي فاكهة أو خضار لشرائها، وبائع الحليب لم يمرّ كالعادة، والمخبز الوحيد في البلدة الذي يملكه مسلم أُحرق ودُمّر.

قال أشرف: "يصبح الخبز أندر من الذهب. يا للجنون! لقد عاش هؤلاء الناس معاً طوال أجيال، ضاحكين وباكين معاً. والآن، ها هم يذبحون بعضهم". لم يعمل في ذلك اليوم، وأمضى الساعات محدّقاً إلى الشارع المُقفِر كما لو أنه ينتظر ظهور أمر مُرعب.

"يا عم أشرف، العشاء جاهز"، قال نارايان، نزولاً عند رغبة ممتاز. لم يتناول زوجها الطعام طوال اليوم، وأملت في أن ينضم إليهم.

قال لممتاز: "هناك أمر يجب أن أخبرك به، وأنتما أيضاً". والتفت إلى إيشفار ونارايان.

قالت: "تعالَ، الطعام جاهز. يمكننا التحدث في وقت لاحق. لم أُعدّ سوى التشوباتي اليوم، ولكن يجب أن تأكل قليلاً على الأقل". وأنزلت القِدر بعد إخراجها من الفرن.

"لست جائعاً. كلي مع الصغيرات"، قال أشرف، دافعاً الطفلات الأربع باتجاه الطعام. غير أن الفتيات لم يشأنَ تناول الطعام لأنهنّ شعرنَ بقلق والدَيهنّ. "هيا، أيها الفتَيان، تناولا الطعام أنتما أيضاً".

قالت ممتاز: "لقد تكبّدت عناء الطهو ولم تلمس أصابع زوجي طعام العشاء".

وفقاً لمزاجه الحالي، أوحى تذمّرها العادي بأنها سيئة الطباع. فصاح في وجهها، وهو أمر نادر الحدوث. "ماذا تريدينني أن أفعل إذا لم أكن جائعاً؟ أربط الطبق ببطني؟

تكلّمي بشكل منطقي ولو لمرة واحدة!". وبدأت الفتاتان الأصغر سنّاً بالبكاء، وقلب مرفق أحدهم كوب ماء.

قالت ممتاز باستهزاء وهي تمسح ما أُريق: "لا بد من أنك راضٍ الآن. تحاول إخافتي بصياحك. دعني أخبرك بأن الصغيرات هنّ من شعرنَ بالهلع".

فأخذ أشرف الطفلتَين الباكيتَين بين ذراعَيه قائلاً: "حسناً، حسناً، لا تبكيا. هل تريان، سنتناول الطعام معاً". فأطعمهما من طبقه، واضعاً لقمة صغيرة في فمه عندما كانتا تشيران إلى ذلك. وسرعان ما أصبحت لعبة جديدة، وابتهجتا.

انتهى تناول العشاء بسرعة. وهمّت ممتاز بنقل القِدر والمِغرفة إلى صنبور الغسيل في الخارج. فأوقفها أشرف قائلاً: "كنت أريد قول شيء ما قبل العشاء، قبل أن يبدأ صياحك".

"أنا أُصغي الآن".

"الأمر متعلق بهذا... بما يجري في كل مكان".

"ماذا هناك؟".

همس بحدة: "تريدين مني أن أصف ما يجري أمام الطفلات؟ لماذا تتصرفين بغباء؟ عاجلاً أم آجلاً ستنتقل حالة الاضطراب إلى هذا المكان. مهما حدث، لن يعود الأمر كما كان بين الجماعتَين".

ولاحظ أن إيشفار ونارايان يُصغيان السمع إليهما بهلع، فأضاف على عجَل: "لا أقصد بكلامي وضْعنا نحن، أيها الفتَيان. سنبقى دائماً كعائلة واحدة؛ حتى وإن افترقنا".

قال نارايان: "ولكن، يا عم أشرف، ليس علينا أن نفترق، إيشفار وأنا لا نخطط للمغادرة بعد".

"أجل، أعلم ذلك. ولكن، يجب على العمة ممتاز والطفلات وأنا أن نغادر".

قالت ممتاز: "يا لزوجي المسكين! لقد جُنّ تماماً، يريد المغادرة مع أربع طفلات؟ إلى أين تريد المغادرة؟".

"إلى المكان نفسه حيث يذهب الجميع. عبر الحدود. ماذا تريدين أن تفعلي؟ الجلوس هنا وانتظار قدوم الكراهية والجنون مع سيوف وهراوات وكيروسين؟ ما أقوله هو أنني ذاهب صباح الغد إلى المحطة لشراء تذاكر القطار".

فأصرّت ممتاز على أن رد فعله يوحي بأنه عجوز أحمق. ولكنه رفض السماح لها بإدارة ظهرها للخطر. كان عازماً على الجدال طوال الليل - كما قال - بدلاً من التظاهر بأن الأمور طبيعية.

"سأقوم بما هو ضروري لإنقاذ عائلتي. كيف يمكنك أن تكوني عمياء إلى هذا الحد؟ سأسحبك من شعرك إلى محطة سكة الحديد إذا اضطُررت إلى ذلك". لدى سماعهنّ هذا التهديد، بدأت الطفلات بالبكاء ثانيةً.

فجففت دموعهنّ، وكفّت عن معارضة المخطط. لم تكن غافلة عن الخطر؛ إذ يمكن اشتمام رائحته على بُعد أميال، فزوجها مُحقّ. ولكنّ رفع العصابة عن عينيها أمر صعب بسبب ما قد تراه.

قالت: "لن يكون بالإمكان نقل الكثير إذا كان علينا المغادرة على عجَل. ملابس، فرن واحد، بعض أقدار الطهو. سأبدأ بتوضيبها الآن".

قال أشرف: "أجل، فلتكن جاهزة ليوم غد، سنُقفل على الباقي في المشغل. إن شاء الله، سنتمكن يوماً ما من العودة والمطالبة به". وجمع الطفلات للنوم قائلاً لهنّ: "تعالَينَ، يجب علينا النوم باكراً الليلة. علينا البدء برحلة طويلة غداً".

شعر نارايان بأن سماع ما يقولانه، ومشاهدة استعداداتهما المَشوبة بالاضطراب أمر لا يُحتمَل. وشكّ في أن يؤدي أي شيء يقوله إلى إحداث فَرق. فتسلل إلى الخارج من الجهة الخلفية للمنزل، متظاهراً بالنزول إلى المشغل، وأطلع الجار على الفرار المخطَّط له.

قال مالك متجر الخردوات: "هل هو جِدّي؟ عندما تحدّثنا هذا الصباح، وافق على عدم وجود ما يُقلق في حيّنا".

"لقد بدّل رأيه".

"انتظر، سأذهب إليه في الحال".

اصطحب معه تاجر الفحم الحجري، والسمّان، والطحان، وقرع على باب أشرف قائلاً له: "اعذُر إزعاجنا لك في هذه الساعة. هل يمكننا الدخول؟".

"بالطبع. هل تأكلون شيئاً؟ أم تريدون شراباً؟".

"لا شيء، شكراً لك. جئنا بسبب تلقّينا أنباء تسبّب لنا حزناً عميقاً".

"ما الأمر؟ ماذا هناك؟". فقلق أشرف، متسائلاً عما إذا كانت هناك إصابات في صفوف عائلة ما بسبب أعمال الشغب. "هل يمكنني المساعدة؟".

"أجل، يمكنك. يمكنك أن تقول لنا إن الأمر غير صحيح".

"ما هو الأمر غير الصحيح؟".

"هو أنك تريد مغادرتنا، ومغادرة المكان الذي وُلدتَ فيه ووُلدت فيه بناتك. هذا ما يسبب لنا الألم".

"يا لكم من أشخاص طيّبين!". ودمعت عينا أشرف. "ولكن، لا خيار لي في الواقع".

"اجلس معنا وفكر بهدوء"، قال مالك متجر الخردوات، واضعاً ذراعه حول كتف أشرف، وتابع: "الوضع سيّئ، أجل، ولكن محاولة المغادرة ضرب من الجنون".

أومأ الآخرون برؤوسهم، وهم يوافقونه الرأي. فوضع تاجر الفحم يده على ركبة أشرف قائلاً: "كل يوم تعبر القطارات تلك الحدود الجديدة، حاملةً الجثث ليس إلا. وصل عميلي يوم أمس من الشمال، رأى ذلك بأمّ عينَيه. يتم إيقاف القطارات في المحطة، ويُذبح الجميع، على جانبَي الحدود".

"إذاً، ماذا يجب أن أفعل؟".

حمل اليأس في صوته مالك متجر الخردوات على وضع يده على كتفه مجدداً. "ابقَ هنا. أنت مع أصدقائك. لن ندع شيئاً يصيب عائلتك. متى حدثت اضطرابات في حيّنا؟ لطالما عشنا هنا بسلام".

"ولكن، ماذا سيحدث عندما يصل مثيرو المتاعب الموجودون في الخارج؟".

"مشغلك هو المشغل المسلم الوحيد في الشارع. أتظن أنّه ليس باستطاعتنا جميعاً حماية مشغلك؟". وعانقوه، مؤكدين أنّه ما من داعٍ لخوفه. "في أي وقت تريد، نهاراً أم ليلاً، إذا شعرتَ بالقلق حيال أمر ما، تعالَ إلى منزلنا مع زوجتك وطفلاتك".

بعد مغادرة الجار، التمعت فكرة ما في رأس نارايان فقال: "أتعرف؟ يجب أن نغيّر اللافتة في الخارج؛ مؤسسة مظفّر للخياطة. باستطاعتنا وضع لافتة أخرى مكانها".

سأل أشرف: "لماذا؟".

فقال نارايان، متردداً: "لافتة جديدة...".

وفهم أشرف المغزى وقال: "أجل، تحمل اسماً جديداً؛ اسماً هندوسيًّا. إنها فكرة جيدة".

قال إيشفار: "لنقم بذلك على الفور. يمكنني الحصول على لوح خشبي جديد من فناء الأخشاب التابع لعمّك. هل يمكنني استخدام الدراجة؟".

"بالطبع. ولكن، احذر، لا تمرّ عبر منطقة مسلمة".

بعد ساعة، عاد إيشفار فارغ اليدَين من دون أن يتمكن من بلوغ المكان المقصود. "الكثير من المتاجر والمنازل مشتعلة. وأكملت طريقي ببطء شديد. بعد ذلك، رأيت أشخاصاً يحملون فؤوساً. كانوا يقطّعون رجلاً. لقد أخافني ذلك، وعدت".

فجلس أشرف بوهَن: "كنتَ حكيماً. ماذا سنفعل الآن؟". كان شديد الخوف، فلم يتمكن من التفكير.

"لماذا نحتاج إلى لوح خشبي جديد؟"، سأل نارايان، "يمكننا استخدام خلفيّة هذا اللوح القديم. كل ما نحتاج إليه هو بعض الطلاء".

فقصد المتجر المجاور، وسمح له مالك متجر الخردوات بالحصول على علبة صفيحية زرقاء مفتوحة، وقال له: "إنها فكرة جيدة، ما هو الاسم الذي ستضعه؟".

قال نارايان عشوائياً: "خياطو كريشنا، كما أعتقد".

"سيكون اللون الأزرق مثالياً". وأشار إلى الأُفق حيث يملأ الدخان والتوهج الأحمر السماء ثم تابع: "بلغني أنه فناء الأخشاب".

كان الليل قد حلّ عندما أنهيا كتابة الحروف، وأعادا تعليق اللافتة. "يبدو الطلاء جديداً على تلك الخشبة القديمة"، قال أشرف.

قال إيشفار: "سأفركها بقليل من الرماد غداً صباحاً، عندما تجفّ".

قال أشرف بهدوء: "إذا لم نتحوّل نحن جميعاً إلى رماد خلال نومنا". كان الشعور الهش بالأمان الناجم عن تأكيدات جيرانه قد بدأ بالزوال.

في سريره، كان يعتبر كل ضجيج يسمعه في الظلام خطراً داهماً يهدد عائلته حتى يتبيّن له أنه غير مؤذٍ. ووضع نُصب عينَيه الأصوات المألوفة التي نام على صداها طوال حياته: خبطة السرير الخفيف لتاجر الفحم الذي يحب النوم في العراء في الباحة الخلفية (يفتحه بقوة كل ليلة لطرد البقّ)، إقفال باب متجر السّمانة كل ليلة الذي كان بحاجة إلى يد قوية بسبب انتفاخه، صلصلة دلو أحدهم؛ لم يكتشف أشرف قطّ مالك الدلو وسبب استخدامه في هذا الوقت المتأخر.

استيقظ بعد منتصف الليل مُجفَلاً، ونزل الدرَج إلى المشغل، وبدأ بإزالة الآيات القرآنية الثلاث الموضوعة في أطُر معلَّقة على الجدار وراء طاولة القص. فاضطرب إيشفار ونارايان اللذان أيقظهما تلمّسه أشياء لا يراها في الظلمة، وأضاءا النور.

قال لهما: "لا بأس، عودا إلى النوم، لقد تذكرت هذه الأطر فجأةً". كان الطلاء أكثر قتامةً حيث كانت الأطر معلّقة، ولم ينجح أشرف في إزالة فارق اللون بواسطة خِرقة مبلَّلة.

قال نارايان: "لدينا شيء ما يمكنك وضعه مكانها". وسحب صندوقهما الكبير من تحت طاولة القص، وعثر فيه على ثلاث صور من الكرتون المقوّى مزوَّدة بسلاسل معدنية صغيرة لتعليقها. "رام وسيتا، كريشنا، ولاكسمي".

قال أشرف: "أجل، بالتحديد. وغداً سنحرق هذه المجلات والصحف الأوردية".

عند الثامنة والنصف صباحاً، فتح أشرف المشغل كالعادة، وفتح قفل الأبواب الفولاذية الخارجية القابلة للطيّ من دون طيّها. لقد أُبقي الباب الخشبي الداخلي مفتوحاً

جزئياً. وعلى غرار اليوم السابق، كان الشارع مُقفِراً.

وعند العاشرة تقريباً، نادى ابن تاجر الفحم من خلال الحاجز المشبَّك: "طلب والدي أن أسألك إذا كنت تريد أي شيء من السوق إذا فُتحت أبوابها. قال إنه من الأفضل لك ألا تذهب".

قالت ممتاز: "ليباركك الله يا بُنَيّ. أجل، القليل من الحليب، إذا أمكن، للطفلات. وأي نوع من الخضار؛ قليل من البطاطا أو البصل، أي شيء يمكنك العثور عليه".

عاد الفتى فارغ اليدَين بعد خمس عشرة دقيقة؛ كانت السوق فارغة. في وقت لاحق، أرسل تاجر الفحم إبريق حليب من بقرته. كانت ممتاز تعتمد على مخزون الدقيق أو العدس الموجود لديها في المنزل لإعداد الوجبات اليومية، والذي كان يتضاءل شيئاً فشيئاً. وقبل الغسق، أقفل أشرف الحاجز المشبّك وثبّت الأبواب بالمزاليج.

عند وقت العشاء، أرادت الطفلتان الأصغر سنّاً من أشرف أن يُطعمهما كاليوم السابق. فقال مبتسماً: "آه، أنتما مولَعتان بتلك اللعبة".

بعد الوجبة، نهض إيشفار ونارايان للعودة إلى الطابق السفلي ليدَعا العائلة تستعد للنوم. قال أشرف: "ابقيا، ما زال الوقت باكراً. من دون زبائن، تمرّ الساعات ببطء".

قال إيشفار: "يُفترض بالأمور أن تتحسن بدءاً من يوم غد. قالوا إن الجنود سيتولون المهمة في وقت قريب".

قال أشرف "إن شاء الله". وراقب ابنته الصغرى وهي تلعب بدُمية من القماش كان قد صنعها لها، في حين كانت الطفلة الأكبر سنّاً تقرأ في كتاب مدرسي. أمّا الطفلتان الأخريان فألهتا نفسَيهما بقصاصات قماش، مدّعيتَين أنهما خياطتان. فأومأ لإيشفار ونارايان، طالباً منهما مراقبة أعمالهما المبالَغ فيها.

قال: "اعتدتما القيام بذلك عندما كنتما جديدَين هنا. وكنتما تحبان التلويح بشريط القياس، وتجعلانه يُحدث طقطقة". فضحكا لدى تذكر الأمر، ولزما الصمت مجدداً.

قاطع الهدوءَ طَرقٌ على باب المشغل. فقفز أشرف، ولكن إيشفار أوقفه قائلاً: "سألُقي نظرة".

من نافذة الطابق العُلوي، رأى مجموعة من عشرين أو ثلاثين رجلاً على الرصيف. فلاحظوا وجوده وصرخوا: "افتح الباب! نريد التحدث إليك!".

فصرخ قائلاً: "بالتأكيد، لحظة واحدة!". ثمّ همس لأشرف قائلاً: "اذهبوا كلكم إلى المنزل المجاور بهدوء تام، من ممر الطابق العُلوي. نارايان وأنا سننزل إلى الطابق السفلي".

"يـا اللـه!"، قالـت ممتـاز بصوت منخفض، "كان يُفترض بنا المغادرة عندما سنحت لنا الفرصة! كنت على حق، يا زوجي، ودعَوتك أحمق، أنا الحمقاء التي لم...".

قـال أشـرف: "اصمتـي وتعالَـي، بسـرعة!". بـدأت إحـدى الفتيات بإصـدار صوت. فحملت ممتاز الطفلة بين ذراعيها وهدّأتها. وقادهما أشرف إلى الخارج، فيما كان إيشفار ونارايان ينزلان إلى المشـغل. كان هناك طَرق عنيف بواسـطة أدوات صلبة على الأبواب الخشبية من خلال الحاجز المشبّك.

صاح إيشفار: "صبراً! عليّ فتح الأَقفال أولاً!".

صمـت الحشـد عندمـا أصبـح الشـخصان مرئيَّين مـن خلال الحاجز المشـبّك. كان معظمهم يحملون نوعاً من أنواع السلاح؛ عصا أو حَربة، وآخرون يحملون سيوفاً، ويرتدي عدد قليل من الرجال قمصاناً بلون الزعفران، ويحملون رماحاً مثلّثة الشُّعُب.

لقد ارتجف إيشـفار لدى رؤيتهم. وللحظات، كان على وشـك البوح لهم بالحقيقة والتنحّـي جانبـاً. غيـر أنـه شـعر بالخجل مـن تبادر الفكـرة إلى ذهنه، وفتـح قفل الحاجز المشبّك، ثم فتح الباب قليلاً وقال: "أهلاً بكم، أيها الإخوة".

سأل الرجل الواقف في الأمام: "من أنت؟".

"والدي يملك مؤسسة خياطو كريشنا. هذا شقيقي".

"وأين والدك؟".

"ذهب إلى مسقط رأسنا. أحد الأنسباء مريض".

جرى بعض التشاور، ومن ثم قال القائد: "معلوماتنا تقول إنه مشغلُ مسلم".

قال إيشفار ونارايان بصوت واحد: "ماذا؟ إنه مشغل والدنا منذ عشرين عاماً!".

وصـدرت تذمّـرات مـن الجهـة الخلفيـة للحشـد: "لا حاجة إلى كل هـذا الحديث! أحرقوهمـا! نعلـم أنـه مشـغلُ مسـلم! أحرقوه! وذانـك اللذان يكذبان لحمايتـه أحرقوهما أيضاً!".

سأل القائد: "هل من الممكن أن يكون هناك مسلمون يعملون في هذا المشغل؟".

قـال إيشـفار: "الأعمـال غير جيدة بما يكفي لاسـتخدام أحد، يـكاد العمل لا يكفينا شـقيقي وأنا". وحاول الرجال الواقفون بجانبه النظر إلى داخل المشـغل. كانوا يتنفسـون بصعوبة، واشـتمّ رائحة تعرّقهم. قال متنحّياً: "رجاءً، انظروا أينما شـئتم، ليس لدينا شـيء نُخفيه".

فألقى الرجال نظرة سريعة على أرجاء المكان بسرعة، ورأوا الصور الهندوسية على الجدار وراء طاولة القص. وتقدّم أحد الرجال، وكان يرتدي قميصاً زعفرانيّ اللون قائلاً:

"اسمع، أيها الفتى الذكي. إذا كنت تكذب، فسأطعنك بنفسي بالرؤوس الثلاثة لرمحي".

قال إيشفار: "لماذا أكذب؟ أنا مثلك. أتظنّ أنني أريد أن أموت لأنقذ مسلماً؟".

جرى مزيد من التشاور خارج المشغل. قال القائد: "قفا على الرصيف واخلعا ثياب نومكما؛ كلاكما".

"ماذا؟".

"هيا، أسرع! وإلا لن تكونا بحاجة إلى ثياب نوم بعد الآن!".

كان هناك نفاد صبر في صفوف الحشد. فضربوا رماحهم بالأرض، وصاحوا مطالبين بإحراق المكان. فأنزل إيشفار ونارايان بنطاليهما بإذعان.

صاح القائد: "الظلمة شديدة ولا يمكننا أن نرى. أعطني مصباحاً". فسُلّم المصباح من الخلف، وانحنى إلى الأسفل، وقرّبه من منطقة تشعّب الساقَين لكل منهما، واقتنع. وتجمهر الآخرون لإلقاء نظرة أيضاً. كانت هناك موافقة عامة على أنهما لم يخضعا للتطهير.

عندئذٍ، فتح مالك متجر الخردوات نافذة الطابق العُلوي وصاح: "ماذا يحدث؟ لماذا تضايقون هذين الفتيين الهندوسيين؟ هل نفد منكم المسلمون؟".

"ومن أنت؟".

"من أنا؟ أنا والدكم وجدكم! هذا أنا! ومالك متجر الخردوات هذا أيضاً! إذا أصدرتُ الأمر، توحّد كل الشارع ليجعل منكم لحماً مفروماً! أليس لديكم مكان آخر تقصدونه؟".

لم يجد القائد أن قبول التحدي جدير بالعناء. فبدأ رجاله بالابتعاد، متفوّهين بكلمات بذيئة لإنقاذ ماء الوجه. وعادوا للجدال في ما بينهم لأن الليلة ذهبت هدراً بسبب معلومات خاطئة جعلتهم يبدون كحمقى.

قال مالك متجر الخردوات: "كان تمثيلاً رائعاً". مربّتاً بقوة على ظهرَي إيشفار ونارايان. "كنت أشاهد الأمر برمّته من الطابق العُلوي. أتعرفان؟ لو كان هناك أي خطر من تعرّضكما للأذى، لناديتُ الجميع للمساعدة. ولكنني اعتبرتُ أنه من الأفضل عدم حدوث أي مواجهة إذا استطعتما إقناعهم بالمغادرة بهدوء". ونظر حوله للتأكد من أن الجميع يصدّقونه.

فسقطت ممتاز على ركبتَيها أمام المبتدئَين. وانزلق لفاحها عن عُنُقها وغطّى قدمَيها. قال إيشفار وهو يعود إلى الوراء: "رجاءً، يا عمّة، لا تفعلي ذلك".

"أدين لكما إلى الأبد بحياتي، وحياة طفلاتي، وحياة زوجي، ومنزلي... كل شيء،

أدين لكما به!". وتمسكت بهما، باكية: "لا شيء نقدّمه لكما في المقابل يمكن أن يفي بالغرض!".

قال إيشفار متوسّلاً: "رجاءً، انهضي". وحاول رفعها وهو يمسك بمعصمَيها لتقف. "من الآن فصاعداً، هذا المنزل منزلكما، ما دمتما تشرّفاننا بحضوركما!".

نجح إيشفار أخيراً بتحرير كاحلَيه من يدَيها. "يا عمّة، أنت بمثابة والدتنا. لقد شاطرناكم طعامكم ومنزلكم طوال سبع سنوات".

"إن شاء الله، ستبقيان وتأكلان معنا طوال سبع سنوات أخرى". ومستمرةً بالنشيج، أعادت وضع اللفاح حول عُنُقها، ممسكةً بإحدى زواياه لمسح عينَيها.

عاد إيشفار ونارايان إلى الطابق السفلي. وبعد خلود الطفلات إلى النوم، نزل أشرف إلى الطابق السفلي أيضاً. لم يكن الفتَيان قد فرشا حصيرتَي النوم بعد. فجلس الثلاثة بصمت لبضع دقائق، ومن ثم قال أشرف: "أتعلمان؟ عندما بدأ القرع على الباب، ظننت أنه قُضي علينا".

قال نارايان: "لقد شعرت بخوف شديد أنا أيضاً".

دامت فترة الصمت التالية مدة أطول. وتنحنح أشرف، ثم قال: "نزلتُ لأقول أمراً واحداً فقط". كانت الدموع تسيل على خدَّيه، وسكت قليلاً لمسحها، ثم تابع قائلاً: "يوم التقيت والدكما – يوم طلبت من دوكي أن يرسل إليَّ ابنَيه لتدريبهما على الخياطة – كان ذلك اليوم الأوفر حظاً في حياتي". وعانقهما، وقبّل خدودهما ثلاث مرات، وعاد إلى الطابق العُلوي.

* * *

لم يكن أشرف يرغب في عودة الشقيقين إلى القرية، وكانت ممتاز تدعمه في ذلك. قال: "ابقيا هنا كمساعدَين لي مع أجرة". بالرغم من عِلمه بعدم تمكنه من تحمّل التكلفة.

في القرية، احتجّت روبا قائلةً لدوكي إن وقتاً طويلاً قد مرّ على آخر زيارة لابنَيها. "أرسلتَهما لتعلّم المهنة. الآن، لقد تعلّماها، فلماذا لا يزالان يقيمان مع غرباء؟ هل والدهما ووالدتهما متوفيان أم ماذا؟".

لكنّ أحداً لم يكن باستطاعته التوقع كيف أن شاماريَّين أصبحا خيّاطَين سينجحان في القرية. حقاً، كانت تلك الأزمنة الجديدة مليئة بالأمل، وتعمّ التبدّلات، ويسطع التفاؤل الذي رافق الاستقلال. حتى إن أشرف شعر بما يكفي من الأمان ليعيد وضع اللافتة كما كانت سابقاً، بحيث يظهر اسم مؤسسة مظفّر للخياطة.

مع ذلك، من غير المؤكد ما إذا كان بالإمكان قلب قرون من التقاليد بهذه السهولة. لذلك، اتفقوا على بقاء إيشفار كمساعد لأشرف، وعودة نارايان لتفقّد الأجواء. لقد أراح هـذا الأمـر الأطـراف كافـة: بالـكاد تتحمل مؤسسـة مظفـر للخياطة تكلفة مسـاعد واحد؛ ويحظى دوكي بالمساعدة المالية المرسَلة من البلدة؛ ويعود ابن روبا.

أنزلت روبا الرزمة المدلاّة من السقف طوال سبع سنوات. كانت عُقَد الحبل منكمشة ولم يكن بالإمكان حلّها، فقطعت الحبل، وفتحت كيس الخَيش، ومن ثم غسلت الصُّدرة والكنزة. لقد حان الوقت لارتدائهما مجدداً، احتفالاً بعودة ابنها إلى المنزل.

قال: "صُدرتي متهدّلة قليلاً".

قالت روبا: "وكنزتي أيضاً، لا بد من أن القماش قد مطّ".

فأحب التفسير الذي أعطته إيّاه. فهو أسهل من التأمل في السنوات العقيمة التي قلّصته وزوجته.

في القريـة، كانـت جماعـة الشـامار فخـورة بنارايـان مـن دون إحـداث أي جلَبـة. وبالتدريـج، وجـدوا الشـجاعة ليصبحـوا زبائنه، عِلماً أن نارايان لـم يكن يجني الكثير من المـال لأنهـم غيـر قادريـن تقريباً على تحمّـل تكلفة خياطة ثياب جديـدة. فالملابس التي يرميهـا أفـراد الطبقة العليا تكسـو أجسـادهم. لذلك، لجأ نارايـان إلى إصلاح الملابس أو تعديل قياسـاتها، مسـتخدماً آلة خياطة قديمة يتم تحريك ذراع التدوير فيها باليد، ولكنها كافية للعمل الذي يقوم به.

تحسـن العمل عندما انتشـر في القرى المجاورة خبر ذلك الشـاب الذي قام بما لا يمكـن تخيّلـه؛ فقـد تخلّـى عن الجلـود لأجل الملابس. فقدم عدد كبيـر من الناس لرؤية هذا الخياط الشاماري الشجاع، بالرغم مما تحمله العبارة من تناقض، وأوكلوا إليه مهمة الاعتنـاء بملابسـهم. لقـد خُيِّـب أمـل القليلين بالزيارة. لم يكن هناك أي شـيء غير عادي داخل الكوخ، فقط شاب مع شريط قياس حول عُنُقه، وقلم وراء أُذُنه.

لقـد احتفـظ نارايـان بسـجل يحتـوي علـى الأعمـال والصفقات كما علّمه أشـرف، مدوّنـاً الأسـماء والتواريـخ والمبالـغ التـي يدين له بها الزبائن. وأخـذت روبا على عاتقها مهمـة إدارة العمـل، واقفـةً فـي أرجـاء الغرفـة بطريقة توحي بأهميّتها فـي أثناء قيامه بأخذ قياسات الزبون وتدوين الأرقام على دفتره. كانت تُبقي قلمه مستدقّ الرأس بواسطة سكين للتشـذيب. لم تكن تسـتطيع قراءة ما كتب على الدفتر، ولكنها أبقت كشـف حسـاب دقيقاً في رأسـها. فعندما يحضر شـخص ما لخياطة ملابس جديدة من دون أن يكون قد سـدّد كامل الحساب المتوجّب عليه لقاء خياطة سابقة، كانت تقف وراء الزبون، وتفرك إبهامها

وسبّابتها ببعضهما لتذكير ابنها.

ذات صباح، وبعد ستة أشهر تقريباً من عودة نارايان إلى القرية، جازف أحد البونغيين بالاقتراب من الكوخ. كانت روبا تسخّن ماء فوق النار في الخارج، سعيدةً بالاستماع إلى الصوت المكتوم لآلة الخياطة، عندما رأت الشخص يقترب بحذر صاحت قائلة: "أين تظن نفسك ذاهباً؟". وأوقفته على الفور.

قال الرجل: "أبحث عن الخياط نارايان". وكان يحمل بعض الخِرق بخجل.

"ماذا؟!". لقد أذهلتها جرأته. "لا تنطق بالهراء! سأغمر بشرتك القذرة بهذه المياه المغليّة! لا يخيط ابني لأمثالك!".

صرخ نارايان وهو يخرج من الكوخ فيما كان الرجل يفرّ مسرعاً: "أمي! ماذا تفعلين؟ انتظر، انتظر!". وخوفاً من أن يكون العقاب في إثره، ركض البونغي بسرعة أكبر.

"عُد، لا تقلق!".

صاح الرجل الخائف: "مرة أخرى، ربما غداً".

قال نارايان: "حسناً، سأنتظرك، رجاءً، عُد بالتأكيد". وعاد إلى الكوخ، هازّاً رأسه ومتجاهلاً والدته التي حدّقت إليه بغضب.

قالت: "لا تهز رأسك لي! ما كل هذا الهراء!؟ تطلب منه العودة غداً؟ لن نعقد صفقة مع هؤلاء الأشخاص المنتمين إلى الطبقة الدنيا! كيف تفكر في أخذ قياسات شخص ينقل بعربته الغائط من منازل الناس؟".

لم يُجب نارايان. وبعد العمل لدقائق قليلة، خرج إلى الموقد حيث كانت لا تزال تصبّ غضبها الشديد على ما يوجد داخل القِدر.

"أعتقد، يا أمي، أنك مخطئة"، قال بصوت منخفض جداً لدرجة أن كلامه ضاع تقريباً مع صوت حسيس النار. "أظن أنه يُفترض بي الخياطة لكل من يقصدني، سواء أكان برهمياً أم بونغياً".

"ستخيط للجميع، أليس كذلك؟ انتظر حتى يعود والدك إلى المنزل، لنرى ما الذي سيقول في هذا الشأن! للبرهمي أجل، للبونغي لا!".

في ذلك المساء، أخبرت روبا دوكي عن أفكار ابنهما الفظيعة، فالتفت إلى نارايان قائلاً: "أعتقد أن والدتك على حق".

فأسقط نارايان يده عن ذراع التدوير، وأوقف دولاب الموازنة قائلاً: "لماذا أرسلتني لأتعلم الخياطة؟".

"هذا سؤال سخيف. لتحسين حياتك. لماذا إذاً؟".

"أجل، لأن المنتمين إلى الطبقة العليا يعاملوننا بشكل سيّئ جداً، وها أنت الآن تتصرف مثلهم. إذا كان هذا ما تريده، إذاً فسأعود إلى البلدة. لا أستطيع العيش على هذا النحو بعد الآن".

فصُعقت روبا بالإنذار الأخير، ورُوّعت عندما التفت دوكي إليها وقال: "أظن أنه على حق".

"يا أبا إيشفار، اتخذ قراراً! أولاً، تقول إنني مُحقة. وبعد ذلك، تقول إنه مُحق! تتأرجح من جانب إلى آخر كقِدر من دون قعر مستوٍ! هذا ما حصلنا عليه نتيجة إرساله إلى البلدة! تجاهل الطرائق المتَّبعة في قريتنا! لن يؤدي الأمر إلا إلى المتاعب!". وغادرت الكوخ وهي تغلي من الغضب، وطلبت من آمبا، وبياري، وبادما، وسافيتري، القدوم ليسمعنَ كل ما يجري من أمور مجنونة في العائلة المشؤومة.

قالت سافيتري: "مسكينة روبا، إنها مستاءة جداً لدرجة أنها ترتجف".

قالت بياري رافعةً يدَيها: "يا للأبناء، كم ينسون بسهولة مشاعر الوالدة".

قالت آمبا: "ما العمل؟ نُرضعهم الحليب من ثدينا عندما يكونون أطفالاً. ولكن، لا يمكننا إطعامهم التفكير السليم".

قالت بادما: "كوني صبورة، سيكون كل شيء بأفضل حال".

بعد الحصول على تعاطفهنّ الكبير، أصبحت روبا أكثر هدوءاً. ففكرة فقدانها ابنها مرة أخرى جعلتها تفكّر بحذر. فغفرت له اقتراحاته المتهوّرة ووافقت بدَورها على غضّ الطرف عنها بعد التوصل إلى تسوية: ستحتفظ بحق مراقبة الداخلين إلى الكوخ؛ سيكون على بعض الزبائن عقد صفقاتهم في الخارج.

* * *

بعد عامين، أصبح بإمكان نارايان تحمّل تكلفة بناء كوخه الخاص بجانب كوخ والدَيه. فبكت روبا لأنه يتخلى عنهما. "يفطر قلب والدته مراراً وتكراراً"، قالت متذمّرة، "كيف سأعتني به وبأعماله؟ لماذا يجب علينا أن نفترق؟".

قال نارايان: "ولكن يا أمي، إنه على بُعد ثلاثين قدماً فقط. أهلاً وسهلاً بك متى أردتِ شحذ أقلامي".

"يقول شحذ الأقلام! كما لو أن هذا الأمر هو كل ما أقوم به من أجله!".

في النهاية، اعتادت على الفكرة وجعلتها مصدر فخر لها، وصارت تتكلم مع صديقاتها عن الكوخ الآخر كما لو أنه معمل ابنها. واشترى نارايان طاولة عمل كبيرة،

ومنصة للملابس، وآلة خياطة جديدة تعمل بواسطة القدم يمكنها القيام بدرزات مستقيمة ومتعرّجة.

لأجل عملية الشراء الأخيرة، كان نارايان قد قصد العم أشرف لطلب النُّصح منه. لقد كبرت البلدة الصغيرة منذ رحيله، وازدهرت مؤسسة مظفّر للخياطة، واستأجر إيشفار غرفة بالقرب من المشغل، ورقّعه أشرف من مساعد إلى شريك. فاتفق الشقيقان على أن والدهما لم يعد بحاجة إلى العمل، وأنهما سيعيلان معاً والدَيهما.

قال دوكي عندما أطلعه نارايان على القرار: "أنتما ولدان صالحان فلتباركا".

أحضرت روبا الصُّدرة والكنزة اللتين خاطهما لهما ابناهما، وقد بهتت ألوانهما: "هل تتذكرها؟".

"لم أكن أعلم أنكما ما زلتما تحتفظان بهما".

قالت وقد شرعت بالبكاء: "يوم أحضرتماهما أنت وإيشفار لنا، كنتما صغيرَين. ولكن، حتى في ذلك الحين، كنت أعلم في صميم قلبي أن كل شيء سيكون بأفضل حال في النهاية". ذهبت لتنقل الأخبار السارّة لصديقاتها اللواتي عانقنَها ومازحنَها، قائلاتٍ لها إنها ستصبح ثرية في وقت قريب، وستقطع علاقتها بهنّ.

قالت بادما: "ولكن، هناك أمر واحد مؤكد. لقد آن أوان الزواج".

قالت سافيتري: "يجب عليك البدء بالبحث عن كنّتَين مناسبتَين".

قالت بيتاري: "لا تُرجئي الأمر أكثر من ذلك".

قالت آمبا: "سنساعدك على القيام بكل شيء، لا تقلقي".

انتشر النبأ السارّ ضمن الجماعة وخارجها. وفي أوساط الطبقة العليا، كان لا يزال هناك غضب واستياء بسبب ما حققه الشاماريّ. لقد تعرض الخياط للسخرية بشكل دَوري، ولا سيما من قِبل التاكور دارامسي؛ الذي يتولى باستمرار مهمة توجيه الناخبين في الإقليم في زمن الانتخابات للاقتراع لصالح حزب سياسي من اختياره.

أُبلغ نارايان بواسطة أحد الخدم: "هناك بقرة ميتة في انتظارك". فمرر نارايان الرسالة إلى شاماريين آخرين كانوا سعداء بالحصول على الجيفة. وعندما نفقت معزاة في إحدى قنوات الصَّرف الصحي الموجودة في مِلكية التاكور دارامسي، أرسل في طلب نارايان ليقوم برفعها. فوجّه نارايان رسالة جوابية مهذَّبة مُعرباً عن امتنانه للعرض المقدَّم له، ولكنه لم يعُد يمارس هذا العمل.

بين شاماريي القرية، بات نارايان الناطق بلسان طبقتهم الاجتماعية، والقائدَ غير المنتخَب. كان دوكي يتلقى بتواضع الإطراءات بشأن نجاح ابنه، ويمتّع النفس أحياناً

بهذا الإنجاز عندما يجلس للتدخين مع أصدقائه تحت الشجرة بجانب النهر. وشيئاً فشيئاً، أصبح ابنه أكثر شهرة من قرويّي الطبقة العليا. وعاد هذا الأمر على نارايان بالفائدة إذ حفر بئراً جديدة في الناحية المنبوذة من القرية. وأجّر الأرض التي يوجد عليها الكوخان، واستبدلهما بمنزل حقيقي، وهو أحد المنازل السبعة الوحيدة في القرية، وكبير بما يكفي لإيواء والدَيه، وليقوم بعمله. وكان يتّسع لزوجة وأطفال كما كانت والدته تريد.

كان دوكي وزوجته يفضّلان تزويج الابن البكر أولاً، ولكن عندما عرضا عليه فكرة إيجاد زوجة له، أوضح إيشفار أنه غير مهتم بذلك. لقد تعلّمت روبا أن لا جدوى من محاولتها حمل ابنَيها على القيام بما لا يرغبان في القيام به. قالت متأففة: "تعلّم طرائق البلدة الكبيرة، ونسي طرائقنا القديمة". وتخلّت عن محاولاتها، مركزةً اهتمامها على نارايان.

لقد بحثت كثيراً، وأُوصي بفتاة ملائمة من قرية أخرى، وحُدّد يوم المشاهَدة، وهو اليوم الذي تقوم فيه عائلة الفتى بزيارة عائلة الفتاة. وتأكدت روبا من إشراك آمبا، وبياري، وبادما، وسافيتري في مخططات الزيارة؛ فهنّ كعائلة واحدة. واختار إيشفار عدم الذهاب، ولكنه تدبّر أمر الحصول على حافلة ليلاند تحتوي على سبعة وعشرين مقعداً لنقل المشاركين في حفلة مشاهدة العروس.

وصلت الحافلة الصغيرة المتهالكة إلى القرية عند التاسعة صباحاً، وتوقفت وسط سحابة من الغبار. لقد اجتذبت فرصة الانتقال بواسطة الحافلة عدداً من المتطوعين لمواكبة الحدث أكبر مما تتسع له وسيلة النقل المتواضعة.

قالت إحداهنّ: "ناريان بمثابة ابنٍ لي، ومن واجبي مرافقتكم. هل يمكنني أن أخذله في هذا الوقت الهام؟".

التمست أخرى، رافضةً عدم الاستجابة لطلبها: "لن أتمكن من رفع رأسي إذا لم تصطحبوني معكم. رجاءً، لا تذهبوا من دوني".

تبجّحت أخرى: "لقد حضرتُ حفلات مشاهدة العرائس كافة، أنتم بحاجة إلى خبرتي".

واعتبر العديدون أنّ مرافقتهم عائلة العريس أمراً مسلّماً به، وصعدوا إلى متن الحافلة من دون تكبّد عناء مناقشة الأمر مع دوكي أو روبا. وعندما حان وقت انطلاق الرحلة الجماعية، كانت الحافلة محشوّة بثمانية وثلاثين شخصاً، إضافةً إلى عشرة أشخاص تقريباً متربّعين على السطح. فرفض السائق الانطلاق لأنه شاهد وقوع حوادث بغيضة بسبب أغصان منخفضة على امتداد الطرقات الريفية، وصرخ قائلاً: "انزلوا عن السطح! لينزل

الجميع، انزلوا!". ونظر إلى وجوه أولئك الجالسين في وضعية زهرة اللوتس. وانطلقت الحافلة من دونهم بشكل بطيء.

بلغوا المكان المقصود بعد ساعتين ونصف. لقد تركت الحافلة وحجم الوفد الزائر أثراً كبيراً في نفس أهل العروس والقرية بأكملها. ووقف الزائرون الثمانية والثلاثون غير واثقين من كيفية تدبّر أمورهم بسبب عدم وجود مكان للجميع داخل المسكن. وبعد جهد كبير، اختار دوكي مجموعة من سبعة أشخاص تتضمن أفضل أصدقائه: شوتو ودايارام. وكانت بادما وسافيتري من هذه المجموعة أيضاً، وانتظرت آمبا وبياري في الخارج مع الأصدقاء البالغ عددهم واحداً وثلاثين غير المحظوظين وشاهدوا الإجراءات من حيث يقفون عند المدخل.

في الداخل، تناولت المجموعة المختارَة الشاي مع الأهل ووصفوا الرحلة. قال دوكي لوالد الفتاة: "هناك مناظر طبيعية جميلة على امتداد الطريق".

قال شوتو: "لقد أحدثت الحافلة ضجة كبيرة فجأةً وتوقفت مرة واحدة، تطلّبنا الأمر الانتظار بعض الوقت قبل الانطلاق مجدداً. لقد خشينا من التأخر على الموعد".

قارن الأهل سلسلتَي نسَب العائلتَين وتاريخَيهما، في حين كانت روبا تُحدّث والدة الفتاة بتواضع عن نجاح نارايان: "لديه عدد كبير من الزبائن. الجميع يريدون ارتداء ملابس من صنع نارايان دون سواه، كما لو أنه لا يوجد خياط آخر في كل البلد. يعمل ابني المسكين من الصباح وحتى المساء، فيخيط، ويخيط، ويخيط. ولكن آلة الخياطة الجديدة مرتفعة الثمن التي ابتاعها مؤخراً جيدة جداً. يمكنها القيام بأمور عديدة رائعة".

بعد ذلك، حان وقت مشاهدة العروس. نادت الوالدة ابنتها قائلة: "تعالَي يا ابنتي، أحضري معك شيئاً حُلو المذاق لضيوفنا".

دخلت الفتاة رادا، البالغة من العمر ستة عشر عاماً، حاملةً طبقاً من الحلوى. وكفّ الجميع عن التحدث، ونظروا إلى الفتاة بإمعان في أثناء تنقلها في المكان ورأسها منخفض دلالةً على التواضع، ومتجنّبةً النظر إلى أي شخص. في الخارج، حدث كثير من الهمس والتسابق لإلقاء نظرة على الفتاة.

لم يرفع نارايان نظره عن طبق الحلوى عندما توقفت أمامه. كان عصبيّ المزاج ولم يشأ النظر إليها، في حين انتظرت عائلتها رد فعله. كان الطبق قد أكمل دورته تقريباً، وإذا لم يرها في تلك المرحلة فلن تُتاح له فرصة أخرى لأنها لن تعود بالتأكيد، وسيكون عليه اتخاذ قرار متهوّر. انظر، انظر! حاول إقناع نفسه، ونظر. فشاهد منظراً جانبياً لقسمات وجهها في أثناء انحنائها أمام والدتها.

قالت الوالدة: "لا، يا ابنتي، لا أريد شيئاً". وتوارت رادا عن الأنظار.

بعد ذلك، حان وقت العودة إلى المنزل. وخلال رحلة العودة، تمّ إخبار أولئك الذين لم يتمكنوا من الرؤية أو السماع من الخارج بما حدث. وباتت الوقائع في متناول الجميع، وأصبح بإمكانهم المشاركة في النقاشات النهائية بعد عودتهم إلى القرية، وعرض الحاضرون آراءهم بدءاً بالأكبر سنّاً.

"طول قامتها جيد، ولون بشرتها جيد".

"وتبدو العائلة نزيهة أيضاً، وتعمل بكدّ".

"ربما يُفترض بنا مقارنة بُرجَي كل منهما قبل اتخاذ القرار النهائي".

"لا قراءة للطالع! لماذا قراءة الطالع!؟ كل ذلك هراء بَرَهمي، وجماعتنا لا تقوم بذلك".

استمر الوضع على هذا المنوال، وأصغى نارايان بصمت. وعززت موافقته في نهاية المطاف - بالرغم من كونها غير أساسية - الإجماع، فشعر والداه بالارتياح وصفّق الحاضرون.

بدأ الأهل بالإجراءات، وأصرّ نارايان على تجنّب النفقات التقليدية لأنه لم يشأ أن تكون عائلة رادا مدينة للمُرابي إلى الأبد. فكل ما سيقبله منهم هو ستة أوعية من النحاس الأصفر.

فغضبت روبا: "ما الذي تعرفه عن الأمور المعقَّدة كالدوطة؟ هل تزوجتَ من قَبل؟".

استاء دوكي أيضاً، وقال: "الأمر يستحق أكثر من ستة أوعية. إنه حقنا".

سأل نارايان بهدوء: "منذ متى تلتزم جماعتنا بالدوطة؟".

"المنتمون إلى الطبقة العليا يلتزمون بها، ويمكننا نحن أيضاً القيام بذلك".

لكن نارايان أصرّ على موقفه بدعم من إيشفار. قالت والدتهما، متأففة ومُحبَطة: "تعلُّم طرائق البلدة الكبيرة، جعلهما ينسيان طرائقنا القديمة".

كانت هناك عقبة في الدقيقة الأخيرة. فقبل يومين من الزفاف، تراجع موسيقيّو القرية عن تقديم خدماتهم بسبب ممارسة التاكور دارامسي وآخرين الضغوط عليهم. كانوا شديدي الخوف حتى من التقاء العائلة ومناقشة المسألة. هكذا، تدبّر إيشفار أمر الحصول على بدلاء عنهم من البلدة. ولم يجادل نارايان بشأن التكلفة الكبيرة لنقلهم مع آلاتهم الموسيقية لأنه شعر بأنه ثمن زهيد لقاء تخييب أمل أصحاب الملك.

لم يكن الموسيقيون الجدد يعرفون بعض أغاني الزفاف المحلية. فقلق الضيوف الأكبر سنّاً؛ إذ قد تكون الأناشيد والأغنيات الغريبة غير ملائمة للزواج. قالت امرأة عجوز

اعتادت حضور الولادات قبل وَهَنها. "إنّ الاستماع إلى الموسيقى الملائمة ضروريّ ولا سيما لإنجاب الأطفال. لا يصبح الرَّحم خصباً ببساطة من دون اتّباع إجراءات صائبة".

قالت أخرى: "هذا صحيح، لقد شاهدتُ ذلك بأمّ عينَيّ. عندما لا تُنشَد الأغاني الملائمة، كل ما يحصل عليه الزوج والزوجة هو سوء الحظ". توزّعوا إلى مجموعات وهم يشعرون بالقلق، مجادلين ومناقشين، ومحاولين تحديد العلاج الذي من شأنه تجنّب الحظ العاثر الوشيك. نظروا إلى أولئك المستمتعين بكل تلك الموسيقى والرقص الغريبَين، غير موافقين.

دامت الاحتفالات ثلاثة أيام، قامت خلالها العائلات الشامارية في القرية بتناول أفضل الوجبات في حياتها. وتم إيواء أشرف وعائلته - ضيوف الشرف - في منزل نارايان، والاعتناء بهم والسهر على راحتهم، مما أتعس بعض الأشخاص. كانت هناك همهمات عن وجود مسلم، ولكن الاحتجاجات كانت قليلة وخافتة. وفي الليلة الثالثة، تمكن الموسيقيون من عزف العديد من الأغاني المحلية، مما أراح المسنين.

* * *

رُزق رادا ونارايان بابن دعوَاه أومبراكاش. وقدم الناس للغناء والابتهاج معهما في هذه المناسبة السعيدة. وحمل الجدّ الفخور الحلوى بنفسه إلى كل منزل في القرية.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، قدم صديق دوكي، شوتو، مع زوجته لرؤية المولود الجديد. وانفرد بدوكي ونارايان، وهمس قائلاً: "أفراد الطبقة العليا يرمون الحلوى في القُمامة".

لم يشكا في كلامه لأنه يجمع نفايات العديد من تلك المنازل. كان الخبر مؤلماً، ولكنّ دوكي سخر من الأمر قائلاً: "إذاً هناك المزيد للذين يعثرون على الزُّزم".

استمر الزائرون في الوصول، مندهشين من صحة الطفل الشاماري الجيدة ومن ابتسامته الدائمة. قالت رادا بعد أن أصبحت مولَعة بالتبجّح: "حتى عندما يكون جائعاً، لا بكاء ولا أنين، يبكي قليلاً ويتوقف حالما يصل إلى ثَدييّ".

ووُلدت ثلاث فتيات بعد أومبراكاش نجت منهنّ اثنتان، واسماهما ليلا وريكا. وعندها لم توزَّع أي حلوى.

بدأ نارايان بتعليم ابنه القراءة والكتابة بينما كان يخيط. وكان الرجل يجلس وراء آلة الخياطة، فيما يحمل ابنه لوحاً من الأردواز وطبشورة. وعندما أصبح أومبراكاش في الخامسة من عمره، كان باستطاعته أيضاً خياطة الأزرار بطريقة رائعة، مقلّداً والده بالتلويح

بيـده عندمـا يلعـق الخيـط ويضعه في ثقب الإبرة، أو بقدرته المميَّزة على غرس الإبرة في الثوب.

تأففـت رادا بسـعادة، ممعنـةً النظـر إلى الوالد المُحب وابنـه، وكانت تقول: "يمضي اليوم بأكمله ملتصقاً بوالده".

كانت حماتها تستعرض المشهد بذاكرتها، مسرورة وتقول: "البنات هنّ من مسؤولية الوالدة، ولكن الأبناء هم من مسؤولية الوالد". أعلنت كما لو أن خبراً جديداً أُنزل عليها، فتلقّفته رادا بالطريقة نفسها، وأومأت برأسها بوقار.

في الأسـبوع التالي لذكرى مولد أومبراكاش الخامسـة، اصطحبه نارايان إلى مدبغة الجلود حيث يكون الشـاماريون منهمكين في العمل. فمنذ عودته إلى القرية، كان ينضم إليهم بشـكل دَوري، ويسـاعدهم على السـلخ، أو التقديد، أو الدَّبغ، أو الصَّبغ. لقد شـعر بالفخر لأنه يُري ابنه كيفية القيام بذلك.

لكن أومبراكاش امتنع عن مسـاعدته. لم يحب نارايان هذا السـلوك، وأصرّ على أن يقوم الفتى بتوسيخ يدَيه.

صرخ أومبراكاش: "إنها رائحة نتنة!".

"أعلم أن الرائحة نتنة، قم بالأمر على أيّ حال". فأمسك بيدَي الفتى، وغمّسهما في حوض الدَّبغ حتى المِرفقَين. لقد شعر بالخجل من تصرف ابنه أمام أصدقائه الشاماريين.

"لا أريـد القيـام بهـذا الأمـر! أريـد الذهـاب إلـى المنـزل! رجاءً يا أبـي، خذني إلى المنزل!".

قال نارايان بقسوة: "سواء أبكيتَ أم لم تبكِ، ستتعلم هذا العمل".

فبكـى أومبـراكاش، ونـاح وأصيب بنوبات غضب، منتزعـاً يدَيه من الحوض بعنف. فقال له والده مهدّداً: "قُم بذلك وسـأرميك في الداخل". وغطّس يدَي ابنه في الحوض مراراً وتكراراً.

فحاول الآخرون إقناع نارايان بالتخلي عن الأمر، فقد خشُـوا من إصابة الفتى بنوبة من نوع ما بسـبب طريقة صراخه الهسـتيرية. قالوا: "إنه يومه الأول، في الأسـبوع التالي، سـيكون أداؤه أفضل". ولكن نارايان أجبره على إبقاء يديه في الحوض طوال سـاعة من الزمن.

كان أومبراكاش لا يزال يبكي عندما وصلا إلى المنزل. في الرُّواق الخارجي، كانت رادا تدلّك فروة رأس حماتها بزيت جوز الهند. فقلبتا القنينة لدى إسـراعهما لمؤاسـاته. حاولـت روبـا معانقـة حفيدهـا، ولكـن خُصل شـعرها الرفيعـة والرمادية الزَّلقـة والجامدة

الموجودة على جبينها جعلته يتراجع. لم يسبق له أن رأى جدته بهذا الشكل المخيف.

"ما الذي يكدّره؟ هل فعلتَ له شيئاً؟ يا طفلي الصغير المسكين الضحوك اللعوب!".

وشرح نارايان كيف أمضيا الصباح، وضحك دوكي لدى سماعه ذلك. فغضبت رادا من كل ما جرى، وقالت: "لماذا يجب عليك أن تعذّب الفتى؟ لا حاجة إلى حمل أوم على القيام بهذا العمل القذر!".

"عمل قذر؟ أنتِ ابنة شاماري وتقولين إنه عمل قذر!".

لقد أجفلتها ثورة غضبه. إنها المرة الأولى التي يصرخ نارايان في وجهها: "ولكن لماذا...".

"كيف سيقدّر ما لديه حق قَدْره إذا لم يعرف ما الذي كان يفعله أجداده؟ سيأتي معي مرة واحدة في الأسبوع! سواء أأحب ذلك أم لا!".

فاحتكمت رادا إلى حماها بصمت، وبدأت بالبكاء فوق زيت جوز الهند. فاستجاب لها دوكي من خلال الإيماء برأسه. في وقت لاحق، عندما كان ونارايان بمفردهما، قال: "يا بُنَيّ، أوافقك الرأي. ولكن، بصرف النظر عما نعتقده، مرة واحدة في الأسبوع لن تُجديه نَفعاً. لن يكون الأمر بالنسبة إليه كما كان بالنسبة إلينا. والحمد لله على ذلك".

أمضى أومبراكاش بقية اليوم في المطبخ في حالة من البؤس، ملتصقاً بوالدته. واستمرت رادا في التربيت على رأسه خلال قيامها بعملها. قالت لحماتها بسعادة وهي تتظاهر بأنها تتأفّف: "لن يدعني أقوم بعملي، لا يزال يتعيّن عليّ تقطيع السبانخ وإعداد التشوباتي. الله يعلم متى سأنتهي".

فغضّنت روبا جبينها قائلة: "عندما يكون الأبناء تعساء فهم يتذكرون أمهاتهم".

في المساء، وبينما كان والده مسترخياً في الرُّواق الخارجي، زحف أومبراكاش إلى الخارج، وبدأ بتدليك قدمي والده مقلِّداً والدته. فأجفل نارايان، وفتح عينَيه، ثم نظر إلى الأسفل، ورأى ابنه فابتسم، وفتح له ذراعَيه.

قفز أومبراكاش إلى أحضان والده، واضعاً يدَيه حول عُنُق والده. وبقيا على هذا النحو لدقائق قليلة من دون التفوّه بأي كلمة. بعد ذلك، أمسك نارايان بأصابع الطفل وشمّها. وقرّب أصابعه من منخريه قائلاً له: "هل ترى؟ لدينا الرائحة نفسها. إنها رائحة شريفة".

فأومأ الفتى برأسه وقال: "أبي، هل أقوم بمزيد من التدليك لقدمَيك؟".

"حسناً". راقب نارايان ابنه بحنان وهو يفرك له كاحلَيه، وباطن القدم، ويدلّك أخمص القدم وكل إصبع، مقلّداً طريقة رادا المنهجية. كانت روبا ورادا تقفان صامتتين

عند المدخل، وهما تنظران إلى بعضهما بابتهاج.

استمرت الدروس الأسبوعية في العمل بالجلود طوال ثلاث سنوات. فتعلّم أومبراكاش كيفية حزم الجلود بالملح لحفظها، وقطف ثمار شجرة الإهليلَج لصناعة محلول حمض التنيك. وتعلّم كيفية إعداد الصِّباغات ودَمغ الجلود. لقد كانت المهمة الأكثر قذارة بالنسبة إليهم جميعاً، وجعله الأمر يتقيّأ.

انتهت المحنة حين بلغ الثامنة من عمره؛ عندما أُرسل إلى عمه إيشفار لتعرّف مجموعة أوسع من مهارات الخياطة في مؤسسة مظفّر للخياطة. إضافةً إلى ذلك، باتت مدرسة البلدة تقبل أفراد المجتمع كافة، سواء أكانوا من الطبقة العليا أم الدنيا، في حين أن تلقّي العِلم في مدرسة القرية كان لا يزال مقتصراً على أبناء الطبقة العليا.

* * *

لم تكن رادا ونارايان يشعران بالوحدة على غرار روبا ودوكي عندما غادر ابناهما لتعلّم مهنة الخياطة مع العم أشرف. فالطريق الجديد وخدمة التنقل بواسطة الحافلات قلّصا الهوة بين القرية والبلدة، وبات باستطاعتهما التطلّع إلى قيام أومبراكاش بزيارات عديدة، ناهيك عن أنّ ابنتيهما الصغيرتين موجودتان في المنزل.

مع ذلك، شعرت رادا بأنها محرومة من رؤية ابنها. كانت تستمع إلى أغنية شعبية تتحدث عن عصفور كان الرفيق الدائم للمغنّي؛ وقرّر العصفور الابتعاد عنه لسبب لا يمكن تفسيره. وأصبحت هذه الأغنية المفضَّلة لدى رادا، فكانت تسرع إلى الترانزستور الجديد من ماركة مورفي، وتشغّله، وترفع صوته، مُسكتةً الجميع عندما تنطلق مقدمة الأغنية ببطء. وعندما يعود ابنها إلى المنزل، لا يعود للأغنية أي معنى بالنسبة إليها.

كانت شقيقتا أومبراكاش تمتعضان من زياراته، لأن أحداً لا يُعرهما أي اهتمام عندما يكون شقيقهما في المنزل. ويبدأ تجاهلهما حالما يدخل الباب.

تقول رادا، متذمّرة: "انظروا إلى طفلي! كم صار نحيلاً! هل يُطعمك عمّك أم لا؟".

فيجيب نارايان شارحاً: "يبدو نحيلاً لأنه يزداد طولاً".

لكنها تستخدم الأعذار للإنفاق بغير حساب على إعداد وجبات خاصة له كالكريما، والفواكه المجفَّفة، والكعك المحلّى، فيبتهج لدى تناولها. ومن حين لآخر، كانت أصابعها تنقضّ على طبقه، وتلتقط لقمة تنقلها بحنان إلى فمه. لم تكن تعتبر أي وجبة منتهية ما لم تُطعمه شيئاً بيدَيها.

كانت روبا أيضاً تستمتع بمنظر إطعامه بالقوة، فتجلس كالحَكَم، وتمد يدها لمسح

الطعـام عـن زاويـة فمـه، وتعيـد ملء طبقه، وتضـع كوب عصير في متناول يده. وترتسـم ابتسامة على وجهها المتجعّد، وتعود بالذاكرة إلى تلك الليالي المُظلمة منذ سنوات عدة عندما كانت تتسلل إلى أرض العدوّ لجمع مأكولات لذيذة لإيشفار ونارايان.

كانـت شـقيقتا أومبـراكاش مشـاهدتَين صامتتَيـن خـلال طقس تناول الوجبـة. وكانتا تراقبان بحسد، وهو أفضل من الاعتراض لدى البالغين. وفي أحيان نادرة، كان أومبراكاش يتشاطر معهما الأطعمة اللذيذة عندما لا يكون هناك أحد في الجوار. وكانتا تبكيان بهدوء في سريريهما في الليل في أغلب الأحيان.

جلس نارايان عند الغسـق في الرُّواق الخارجي، ووضع والده قدمَيه المسـنّتَين في حضنـه، فدلّـك أخمصيهمـا المتشـققَين والمتعبَيـن. كان أومبراكاش في الرابعة عشـرة من عمره، ويُتوقع حضوره إلى المنزل في اليوم التالي في زيارة طويلة تدوم أسبوعاً كاملاً.

قـال دوكـي، متنهّـداً بسـرور: "آه". ومـن ثم سـأل نارايان عمـا إذا كان قد تحقق من ربلة ساق المولود الجديد.

فلم يُجب. فكرر والده السـؤال، واخزاً صدر نارايان بإصبعه الكبيرة: "يا بُنيّ؟ هل تسمعني؟".

"أجـل، يـا أبـي، كنـت أفكر وحسـب". وواصل التدليك، محدّقاً إلى الغسـق. كانت أصابعه تعمل بنشاط إضافي للتعويض عن صمته.

"ما الأمر؟ ما الذي يضايقك؟".

"كنت أفكر... أفكر كيف أن شيئاً لم يتبدل. لقد مرت السنوات، ولم يتبدل شيء".

فتنهّـد دوكـي مجـدداً مـن دون أن يكون مسـروراً، وقال: "كيـف يمكنك قول هذا؟ هنـاك أمـور كثيـرة تغيّـرت؛ حياتك، حياتي؛ مهنتك، مـن الجلود إلى الملابس. وانظر إلى منزلك...".

"تلـك الأمـور، أجـل. ولكـن مـاذا عن الأمـور الأكثر أهميـة؟ الحكومة تُقـرّ قوانين جديـدة، وتقـول إن لا مزيـد مـن النَّبـذ، ولكـن كل شـيء بقـي على حاله. فأوغـاد الطبقة العليا لا يزالون يعاملوننا أسوأ من الحيوانات".

"تلك الأنواع من الأمور تتطلب وقتاً لتتغيّر".

"مرّ أكثر من عشـرين عاماً منذ الاسـتقلال. كم علينا الانتظار بعد؟ أريد أن أتمكن من الشرب من بئر القرية، والتعبد حيث أشاء، والسير حيثما أشاء".

فسـحب دوكـي قدمـه من حضن نارايان وجلس، وتذكر تمـرّده الخاص على النظام الطبَقي عندما أرسل ابنَيه إلى أشرف. لقد شعر بالفخر بسبب ما قاله نارايان، ولكنه شعر

بالخوف أيضاً فقال: "يا بُنيّ، أنت تتوق إلى أمور خطرة. لقد تحوّلتَ من شاماري إلى خياط. اكتفِ بذلك".

فهز نارايان رأسه: "كان انتصارك وليس انتصاري".

وواصل تدليك قدمَي والده فيما كانت الظلمة تغمر المكان حولهما. في الداخل، كانت رادا منهمكة بالاستعدادات السعيدة لاستقبال ابنها في اليوم التالي. وبعد قليل، أحضرت مصباحاً إلى الرُّواق الخارجي، وسرعان ما اجتذب مجموعة من الذباب. بعد ذلك، وصلت عُثّة بنّية اللون للحصول على حصتها من النور. وراقبها دوكي وهي تحاول اختراق زجاجة المصباح بجناحَيها الهشَّين.

في ذلك الأسبوع، أُجريت انتخابات برلمانية، وحوصر الإقليم من قِبل السياسيين، ورافعي الشعارات، والمتملّقين. وكالعادة، ضمنت المجموعة المتنوعة من الأحزاب وحملاتها ترفيهاً حيّاً لسكان القرية.

وتذمّر بعض الأشخاص من صعوبة الاستمتاع بالأمر على نحو ملائم بسبب الهواء الذي كان ساخناً بما يكفي للَفح الرئات؛ يُفترض بالحكومة انتظار هطول الأمطار أولاً. وشارك نارايان ودوكي في التجمعات مع أصدقائهما، مصطحبَين معهما أومبراكاش طلَباً للمرح والتسلية. وامتعضت روبا ورادا من الوقت المسروق من زيارة الفتى الوجيزة.

كانت الخُطَب مليئة بوعود من الأشكال والأحجام كافة: وعود بمدارس جديدة ومياه نظيفة وعناية صحية، وعود بأراضٍ للفلاحين الذين لا يملكون الأراضي من خلال إعادة التوزيع وتطبيق أكثر صرامة لقانون الحد الأقصى لتملّك الأراضي، وعود بقوانين قوية لمعاقبة أي تمييز ومضايقة تتعرض لهما الطبقة الدنيا من قِبل الطبقة العليا، وعود بإلغاء احتجاز العمال، وعمالة الأطفال، ونظام الدوطة، وزواج الصغار.

قال دوكي: "لا بد من وجود الكثير من التكرار في قوانين بلدنا. فكلما حان وقت الانتخابات، يتحدثون عن إقرار القوانين نفسها التي أُقرّت قبل عشرين عاماً. يُفترض بأحدهم أن يذكّرهم بضرورة تطبيق القوانين".

قال نارايان: "بالنسبة إلى السياسيين، إن إقرار القوانين أشبه بالتغوّط؛ إذ ينتهي كل شيء في بالوعة الصرف الصحي".

في يوم الانتخاب، يصطف الناخبون المؤهلون في القرية خارج مركز الاقتراع. وكالعادة، يتولى التاكور دارامسي مهمة توجيه عملية الاقتراع كما يحصل بشكل كامل منذ سنوات بدعم من أصحاب الملك الآخرين.

فتُقدَّم الهدايا لمأمور الانتخابات، ويتم اصطحابه للاستمتاع بيومه، متناولاً الطعام

والشـراب. وتُفتـح الأبـواب، ويدخـل الناخبـون واحـداً تِلـوَ الآخـر. يقول المسؤول عن الطابور: "مُدّوا أصابعكم".

فيُذعـن الناخبـون. ويرفـع الموظف الجالس إلى الطاولة غطـاء قنَينة صغيرة، ويضع على الإصبع الممدودة حبراً أسود لا يمكن إزالته لتجنّب الغش.

يقول الموظف: "الآن، ابصُم بإبهامك هنا".

فيبصم الناخبون على السجل دلالةً على ممارستهم حق الاقتراع، ويغادرون.

بعـد ذلـك، يمـلأ رجـال أصحـاب الملـك أوراق الاقتـراع البيضـاء. ويعـود مأمـور الانتخابـات فـي وقـت الإقفـال ليشـرف على نقل صناديـق الاقتراع إلى مركـز الإحصاء، ويشهد على حدوث عملية الانتخاب بطريقة منصفة وديموقراطية.

فـي بعـض الأحيـان، يكـون هنـاك مزيد من الحماسـة إذا لـم يتمكـن أصحاب ملك منافسون في الإقليم من معالجة خلافاتهم، وينتهي بهم الأمر وهم يدعمون المرشحين في اللائحة المنافسة. بعد ذلك، تتقاتل عصاباتهم في ما بينها. ومن الطبيعي أن يُنتخب مرشح أولئك الذين يتمكنون من السيطرة على معظم مراكز الاقتراع والتحكم بمعظم الصناديق.

مع ذلك، لم تحدث شـجارات أو معارك بالأسـلحة في ذلك العام. كان يوماً مُملاً بالإجمـال، وكان أومبـراكاش مكتئباً عندمـا عـاد إلى المنزل مع والده وجـده. ففي اليوم التالي، يتعيّن عليه العودة إلى مؤسسة مظفّر للخياطة. لقد مرّ الأسبوع بسرعة كبيرة.

جلسـوا على السـرير خارج المنزل للاسـتمتاع بهواء المسـاء خلال قيام أومبراكاش بإحضار الماء لهم. كانت الأشـجار مليئة بالطيور الهائجة التي تصدر زقزقة صاخبة. قال نارايان: "في الانتخابات القادمة، أريد ملء ورقة الاقتراع الخاصة بي".

قال دوكي: "لن يسمحوا لك بذلك. ولماذا تُزعج نفسك؟ هل تظن أن ذلك سيبدّل شـيئاً؟ سـتكون خطوتك كدلوٍ يسـقط في بئر عميقة عمقاً يدوم قروناً. فلن يُسـمع صوت ارتطامه أو يُرى".

"لا يزال هذا الأمر حقي، وسأمارسه في الانتخابات القادمة، أعدك".

"تُطيـل التفكيـر مؤخـراً فـي الحقوق. أقلع عن هذه العادة الخطرة". وصمت دوكي، نافضـاً طابـوراً مـن النمـل الأحمـر المتجه نحـو قائمة السـرير. فاختفـت المخلوقات في الاتجاهـات كافـة، مذعـورة. "افتـرض أنك وضعتَ الإشـارة بنفسـك. هـل تعتقد أنهم لا يستطيعون فتح الصندوق وإتلاف أوراق الاقتراع التي لا تروق لهم؟".

"لا يستطيعون ذلك. يجب على مأمور الانتخابات مراقبة كل ورقة".

"تخلَّ عن هذه الفكرة. أنت تضيّع وقتك، ووقتك هو حياتك".

"لا قيمة للحياة من دون كرامة".

تجمّع النمل الأحمر مجدداً بالرغم من عدم تمكن دوكي من الرؤية بسبب الظلام. فأخرجت رادا المصباح إلى الرُّواق الخارجي المكسوّ بالغبار الذي امتلأ على الفور بالظلال. والتصقت رائحة دخان الخشب الزكيّة بملابسها، وبحثت عن وجه زوجها في السكون.

تذمّر الناس بسبب انتخابات مجلس النواب: "الحكومة غير مدركة لواقع الحال، غير مدركة لواقع الحال البتة. هذا الشهر غير مناسب؛ مع جفاف الأرض والهواء الساخن، من لديه الوقت للتفكير في الاقتراع؟ لقد ارتكبوا الخطأ نفسه منذ عامين".

لم ينسَ نارايان الوعد الذي قطعه على والده قبل عامين. فذهب بمفرده للاقتراع في صباح ذلك اليوم. كان عدد المقترعين منخفضاً، وهناك صف معوج من الأشخاص أمام باب مبنى المدرسة التي حُوّلت إلى مركز للاقتراع. في الداخل، حملته رائحة غبار الطبشور والطعام غير الطازج على تذكّر ذلك اليوم عندما كان فتى صغيراً وتعرّض للضرب هو وإيشفار من قِبل المدرّس بسبب لمس ألواح الأردواز والكتب الخاصة بأطفال الطبقة العليا.

فابتلع خوفه، وسأل عن ورقة الاقتراع الخاصة به. شرح الرجال وراء الطاولة: "لا، لا تقلق، ابصم بإبهامك هنا فحسب، وسنقوم بما تبقى".

"أَبصم؟ سأوقّع اسمي بالكامل بعد أن تُعطوني ورقتي".

فحذا رجلان واقفان خلف نارايان حذوه وقالا: "أجل، أعطونا أوراقنا، نريد أيضاً اختيار مرشحنا".

"لا يمكننا القيام بذلك، لا تعليمات لدينا في هذا الشأن".

"لستم بحاجة إلى تعليمات. إنه حقنا كناخبين".

فتهامس الموظفون، ومن ثم قالوا: "حسناً، انتظروا رجاءً". وغادر أحدهم مركز الاقتراع.

وعاد بعد قليل مع عشرة رجال تقريباً، ومن بينهم التاكور دارامسي الذي أمر الموسيقيين منذ ستة عشر عاماً بعدم العزف في زفاف نارايان. سأل من الخارج بصوت مرتفع: "ما الأمر؟ ما المشكلة؟".

فأشاروا إلى نارايان.

همهم التاكور دارامسي: "كان يُفترض بي أن أعرف. ومن هما هذان الرجلان؟".

لم يعرف مساعده اسمَيهما.

"لا يهـمّ"، قـال التاكـور دارامســي. ودخـل معـه رجالـه، واكتظ المـكان في الداخل. فمسـح جبينه ووضع اليد المبلّلة تحت أنف نارايان قائلاً: "في هذا اليوم الحار، تجعلني أغـادر منزلـي متعرّقـاً. هل تحاول إذلالـي؟ أليس لديك بعض الملابس لتخيطها؟ أو بقرة لتسمّمها وتسلخها؟".

قال نارايان: "سنغادر حالما نقترع بواسطة أوراقنا الانتخابية، إنه حقنا".

فضحـك التاكـور دارامسـي، وانضمّ إليه رجاله فـي الضحك، وتوقفوا عندما توقف: "كفى دُعابات. ابصُم، واذهب".

"بعد أن نقترع".

هذه المرة، لم يضحك، ولكنه رفع يده كما لو أنه يلقي تحية الوداع، وغادر حُجَيرة الاقتـراع. فأمسـك الرجـال بنارايان والآخرَيـن، وأجبروهم على تغميـس أباهيمهم بالحبر وإتمـام عمليـة التدويـن. وهمس التاكور دارامسـي في أُذُن مسـاعده، طالباً منه اصطحاب الثلاثة إلى مزرعته.

لقـد جُلـدوا طـوال اليـوم، وعلى فترات، وهم عراةٌ ومعلَّقـون من كواحلهم بأغصان شجرة تين البنغال. وكان يخفت صراخهم بين حين وآخر بعد إصابتهم بالإغماء. لقد أُبقي أحفاد التاكور دارامسـي في الداخل. قال لهم: "أَنهوا دروسـكم، اقرأوا كتبكم، أو العبوا بألعابكم؛ بالقطار الجديد الذي اشتريته لكم".

قالوا ملتمسين: "ولكنه يوم عطلة، نريد أن نلعب في الخارج".

"ليس اليوم؟ هناك بعض الرجال الأشرار في الخارج".وأبعدهم عن النوافذ الخلفية.

في الناحية البعيدة من المزرعة، في الحقل البعيد، تبوّل الرجال على الوجوه الثلاثة. وفـي حالـة مـن الوعـي الجزئـي، كانت الأفواه الجافة ممتنّة بسـبب وجـود بعض النَّداوة، فكانـت تلعـق التقطـر البطـيء بإلحاح عاجز. وحذّر التاكور دارامسـي موظفيه من انتشـار الخبر في الوقت الحاضر، ولا سيما في المستوطنة القائمة باتجاه مجرى النهر لأن ذلك الأمـر قـد يوقـع الفوضى في عملية الاقتراع، ويُجبـر لجنة الانتخابات على إبطال النتائج، مبدّدةً أسبوعاً من العمل.

في المساء، وبعد نقل صناديق الاقتراع، وُضع فحم مشتعل على الأعضاء التناسلية للرجـال الثلاثـة، وأُقحـم بعـد ذلـك في أفواههم. لقد سُـمعت أصواتهم في كل مكان في القرية حتى ذابت شفاههم وألسنتهم. وأُنزلت الأجساد الساكنة عن الشجرة. وعندما بدأت بالتحـرك، نُقلـت الحبـال مـن كواحلهم إلى أعناقهم، وشُـنق الثلاثـة، وعُرضت جثثهم في ساحة القرية.

بعـد أن أنهـى مرتزَقـة تاكور دارامسـي مهامهـم الانتخابية، تحوّلوا إلـى أفراد الطبقة الدنيا. "أريد تلقين أولئك الجاتيّين درسـاً"، قال موزّعاً المشـروب على رجاله قبل القيام بمهمتهـم التاليـة. "أريـد عـودة الأمور إلى ما كانت عليه في الأيام الغابرة عندما كان هناك احتـرام وانضبـاط ونظـام فـي مجتمعنـا. وراقبوا منزل ذلك الخياط الشـاماري. تأكدوا من عدم فرار أيّ منهم".

انطلق المرتزَقة إلى حيّ المنبوذين. فضربوا أشـخاصاً في الشـوارع بشـكل عشوائي، وجرّدوا بعض النساء من ملابسهنّ، واغتصبوا أخريات، وأحرقوا عدداً قليلاً من الأكواخ. وسرعان ما انتشرت أخبار العنف. فاختبأ الناس بانتظار هبوب العاصفة.

قال التاكور دارامسي، عند هبوط الليل، وبعد تسلّمه تقارير عن نجاح رجاله: "حسناً، أظن أنهم سيتذكرون هذا الأمر لمدة طويلة من الزمن". فأصدر أمراً برمي جثّتَي الشخصين مجهولَي الهوية بجانب ضفة النهر ليتم التعرّف إليهما من قِبل أنسبائهما. "قلبي منفطر على تينك العائلتَين أيّاً كانتا"، قال، "كفاهما معاناة. دعوهما تندبان ابنَيهما وتُحرقان جثّتَيهما".

كانت تلك نهاية العقوبة، ولكن ليس بالنسبة إلى عائلة نارايان. قال التاكور دارامسي: "لا يستحق إحراقاً لائقاً لجثته، وتقع اللائمة على الوالد أكثر منه على الابن. لقد طالت عجرفته كل أمورنا المبجلة". فما بات متعارَفاً عليه عبر العصور، تجرّأ دوكي على خرقه؛ لقـد حـوّل الإسـكافيين إلـى خياطين، مُخلاً بالتوازن الأزلـي للمجتمع. كان يجب معاقبته بقسوة شديدة بسبب تخطّيه حدود الطبقية.

قال لرجاله: "ألقوا القبض على الجميع؛ على الوالدين، والزوجة، والابن والابنتين. تأكدوا من عدم فرار أحد".

فـي أثنـاء اقتحـام المرتزقـة منزل نارايان، صرخت آمبا وبياري وسـافيتري وبادما من الرُّواق الخارجي لترك أصدقائهنّ وشأنهم: "لماذا تضايقونهم؟ لم يُخطئوا بأي شيء!".

فقامت عائلات النساء بإبعادهنّ خوفاً على سلامتهنّ. ولم يجرؤ جيرانهم حتى على النظر إلى الخارج، ولزموا أكواخهم شاعرين بالعار والخوف، ومصلّين لمرور الليل بسرعة من دون أن يحصد العنف مزيداً من الأبرياء. وعندما حاول شوتو ودارايام التسلل لطلب المساعدة، تمت مطاردتهما وطعنهما بالسكاكين.

قُيّد دوكي وروبا ورادا والابنتان وسُحبوا إلى الغرفة الرئيسة. قال التاكور دارامسي: "هنـاك اثنـان مفقـودان، الابـن والحفيد". فاسـتعلم أحدهم عنهما فـي الأكواخ المجاورة، وعرف أنهما يقيمان في البلدة. "حسناً، لا يهمّ، سيفي هؤلاء الخمسة بالغرَض".

أُدخلت الجثة المشوّهة، ووُضعت أمام الأسرى. كانت الغرفة مُظلمة، فطلب التاكور

دارامسي إحضار مصباح كي تتمكن العائلة من رؤيتها.

لقد مزّق الضوء ستارة الظلام. كان وجه الجثة العارية محروقاً ومهشَّماً. فلم يتمكنوا من التعرف إلى نارايان إلا من خلال العلامة الخلقية على صدره.

فأطلقت رادا ولولة طويلة، ولكن سرعان ما اختلط صوت الأسى بآهات العذاب التي رافقت موت العائلة؛ فقد أُضرمت النار في المنزل، وطالت ألسنة اللهب أجزاء الجسم المقيَّدة في المقام الأول. وزادت الرياح الجافة من حدة النار، موفّرةً ومضة الرحمة الوحيدة خلال تلك الليلة؛ لقد قضت عليهم النيران بسرعة.

* * *

كان الرماد قد برد عندما بلغ الخبر مسامع إيشفار وأومبراكاش في البلدة. لقد قُطّعت الجثث السوداء، وتمت بعثرتها في النهر. فأبقت العمة ممتاز أومبراكاش بجانبها بينما رافق العم أشرف إيشفار إلى مركز الشرطة لتقديم بلاغ أوّلي.

استمر المفتش المساعد الذي يعاني ألماً في الأُذن بإقحام إصبعه الصغيرة فيها. ووجد أنه من الصعب عليه التركيز. "أي اسم؟ هجِّه مجدداً. ببطء".

للتودد إلى ممثل السلطة، نصحه أشرف بعلاج منزلي، عِلماً أنه كان يغلي من الغضب، وأراد صفع الرجل على وجهه لحمله على الإصغاء. قال: "سيمنحك زيت الزيتون الفاتر الراحة، اعتادت والدتي وضعه في أُذُني".

"حقاً؟ ما هي الكمية؟ هل أضع نقطتين أم ثلاثاً؟".

حينئذٍ، ذهبت الشرطة بعد تردد كبير إلى المنزل للتحقق من الادعاءات المذكورة في التقرير الأولي. فرفعوا تقريراً جاء فيه أنهم لم يجدوا شيئاً يدعم تهمتَي الإحراق المتعمَّد والقتل.

فانزعج المفتش المساعد من إيشفار: "ما هذا المكر؟ أتحاول ملء التقرير الأولي بالأكاذيب؟ أنت وطبقتك الاجتماعية النجسة تتسببون بالمتاعب باستمرار! اخرج قبل أن أتهمك بافتعال الفِتَن!".

مصعوقاً، نظر إيشفار إلى أشرف الذي حاول التدخل. فقاطعه المفتش المساعد بفظاظة: "هذه المسألة لا تتعلق بجماعتكم. نحن لا نتدخل عندما تناقشون مشاكل جماعتكم، أليس كذلك؟".

في اليومَين التاليين، أبقى أشرف مشغله مقفَلاً، وكان محطَّم الفؤاد بسبب شعوره بالعجز. ولم يجرؤ وممتاز على مواساة أومبراكاش أو إيشفار؛ فأي كلمات باستطاعتها

أن تعوّض عن هذه الخسارة؟! فأفضل ما كان باستطاعتهما القيام به هو البكاء معهما.

في اليوم الثالث، طلب منه إيشفار فتح المشغل، وشرعوا بالخياطة مجدداً.

* * *

"سأجمع جيشاً صغيراً من الشاماريين، وأزودهم بالأسلحة، ونزحف بعد ذلك إلى منازل أصحاب الملك"، قال أومبراكاش، مشغّلاً آلة الخياطة بأقصى سرعة، "سيكون من السهل العثور على عدد كافٍ من الرجال. سنقوم بالأمر على طريقة الناكسلاييين". وفيما كان منكبّاً على الشرح وهو منحني الرأس، وصف لإيشفار والعم أشرف الاستراتيجيات التي اعتمدها فلاحو المنطقة الشمالية الشرقية في ثوراتهم قائلاً: "في النهاية، سنقطع رؤوسهم ونضعها على رزّات في ساحة السوق. لن يجرؤوا أبداً على اضطهاد جماعتنا مجدداً".

لقد سمح له إيشفار بالتعبير عن أفكاره الانتقامية. كان رد فعله الأولي مماثلاً؛ كيف يمكنه لَوم ابن شقيقه؟ فمن السهل إلهاء اليدَين بالخياطة، ولكن من الصعب تحرير الفكر المعذَّب من الاضطراب. "أخبرني يا أوم، كيف تعرف كل هذه الأمور؟".

"قرأت عنها في الصحف. ولكن، ألا يعتمد الأمر على الفطرة السليمة؟ في كل عائلة من الطبقة الدنيا شخص أساء الإقطاعيون معاملته. سيكونون متلهّفين للانتقام، بالتأكيد. سنذبح التاكور مع مرتزقتهم، إضافةً إلى رجال الشرطة الأشرار".

"وبعد ذلك، ماذا؟"، سأل إيشفار بلطف عندما شعر بأن الوقت قد حان لإبعاد فكرة الموت عن ذهن ابن شقيقه ودفعه إلى التمسك بالحياة، "سيقودونك إلى المحكمة ويشنقونك".

"لا أُبالي. لكنت ميتاً على أيّ حال لو صودف وجودي مع والدَيّ بدلاً من إقامتي بأمان في هذا المشغل".

قال أشرف: "يا أوم، يا بُنَيّ، لا يُفترض بالانتقام أن يكون شغلنا الشاغل. القتلة سيعاقَبون، إن شاء الله، في هذا العالم أو في الآخرة. ربما عوقِبوا، من يدري؟".

"أجل، يا عمي، من يعلم؟". كرر أومبراكاش بتهكم، ولجأ إلى السرير.

منذ تلك الليلة الرهيبة قبل ستة أشهر، توقف إيشفار وأومبراكاش عن الإقامة في النُّزل نزولاً عند إصرار أشرف. فقد قال لهما إنّ هناك مكاناً واسعاً في المنزل بعد أن تزوجت بناته جميعاً وغادرنَ. وقسم الغرفة القائمة فوق المشغل إلى قسمين؛ قسم لممتاز وله، والقسم الآخر لإيشفار وابن شقيقه.

سمعا أومبراكاش يتنقل في أرجاء الطابق العلوي استعداداً للنوم. فجلست ممتاز في الناحية الخلفية من المنزل وقالت: "لا بأس في أن يبقى هذا الحديث عن الانتقام مجرد حديث. ولكن، ماذا لو عاد إلى القرية وقام بعمل أخرق".

فقلقوا طوال ساعات على مستقبل الفتى، وكان ذلك مصدر ألم لهم، وصعدوا بعد ذلك الدرَج للخلود إلى النوم. فتبع أشرف إيشفار إلى القسم الذي ينام فيه أومبراكاش، ووقفا معاً هنيهة وهما يراقبانه.

همس أشرف: "فتى مسكين، إن معاناته كبيرة. كيف يمكننا أن نساعده؟".

تكمن الإجابة في الحظ العاثر الذي ستواجهه مؤسسة مظفّر للخياطة في ما بعد.

كان عام قد مرّ على أعمال القتل عندما فُتح متجر للملابس الجاهزة في البلدة. وقبل ذلك بمدة طويلة، بدأت لائحة زبائن أشرف بالتقلص.

فقال إيشفار إن الخسارة قد تكون مؤقتة. "متجر جديد وكبير مع كدسات من القمصان للاختيار من بينها. إنها تجذب الزبائن. يجعلهم ذلك يشعرون بالأهمية لأنهم يجرّبون نماذج مختلفة. ولكن الخوَنة سيعودون عندما لا تعود هناك ملابس غير مألوفة ولا تعود الثياب تناسب مقاساتهم".

لم يكن أشرف كثير التفاؤل، وقال: "ستهزمنا تلك الأسعار الأكثر انخفاضاً. إنهم يصنعون ملابس بالمئات في معامل كبيرة في المدينة. كيف يمكننا منافستهم؟".

لم يمضِ وقت طويل حتى وجد الخياطان والمبتدئ أنفسهم محظوظين بالانشغال ليوم واحد في الأسبوع. قال أشرف: "هذا غريب، أليس كذلك؟ هناك أمر لم أشهده من قبل يدمّر المؤسسة الذي امتلكتها منذ أربعين عاماً".

"ولكنك رأيت متجر الملابس الجاهزة".

"لا، أعني المعامل في المدينة. ما مدى حجمها؟ من يملكها؟ ما الأجور التي يدفعونها؟ لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور سوى أنهم يُفقروننا. ربما ذهبتُ للعمل لديهم في سنّي المتقدمة".

قال إيشفار: "أبداً. ولكن، ربما يُفترض بي الذهاب".

قال أشرف، وضرب طاولة العمل بقبضة يده: "لن يذهب أحد، سنتشاطر ما نحصل عليه من عمل، قلتُ ذلك على سبيل المُزاح ليس إلا. هل تظنان أنني سأتخلى عن ابنيّ؟".

"لا تستأ، يا عمي، أعلم أنك لم تقصد ذلك".

فقبل فترة طويلة، تحولت روح الدُّعابة إلى تفكير مليّ بسبب توجّه الزبائن إلى متجر الملابس الجاهزة. قال أشرف: "إذا استمر الوضع على هذه الحال، فسنقضي ثلاثتنا

الوقت منذ الصباح وحتى المساء ونحن نقتل الذباب، بالنسبة إليّ، الأمر غير ذي أهمية. لقد عشت حياتي، وتذوّقت فاكهتها: الحلوة والمرة. ولكن الأمر غير منصف بالنسبة إلى أوم". وأخفض صوته: "ربما قد يكون من الأفضل له العمل في مكان آخر".

قال إيشفار: "ولكن أينما يذهب، سيكون عليّ الذهاب معه، لا يزال صغيراً في السنّ، وتنتابه أفكار جنونية عديدة".

"هذا ليس خطأه. فالشرير يشجّعه. يجب أن تكون معه بالطبع، فأنت بمثابة والده الآن. ما يمكنكما القيام به هو مغادرة المكان لمدة قصيرة من الزمن. من غير الضروري أن تكون مغادرتكما دائمة. غادرا عاماً واحداً أو عامين. اعملا بكدّ، اكسبا المال، وعودا".

"ما تقوله صحيح. يقولون إن باستطاعتك جمع المال بسرعة كبيرة في المدينة حيث يوجد الكثير من العمل والفرص".

"بالتحديد. وبواسطة ذلك المال، يمكنكما فتح مؤسسة تجارية عندما تعودان؛ كشك لبيع الفاكهة أو الألعاب. حتى إنه قد يكون بإمكانكما بيع ملابس جاهزة، من يعلم". فاتّفقا في الرأي على أن العمل في مكان آخر لمدة عامَين سيكون لصالح أومبراكاش.

قال إيشفار: "قد تعترضنا عقبة واحدة فقط، لا أعرف أحداً في المدينة. فكيف سنعثر على عمل؟".

"كل شيء في أوانه. لديّ صديق صالح سيساعدكما على العثور على عمل. يدعى نوّاز. إنه خياط أيضاً، ويملك مشغله الخاص هناك".

فأطالوا السهر حتى ما بعد منتصف الليل، واضعين خططاً، ومتخيّلين المستقبل الجديد في المدينة القائمة بجانب البحر؛ المدينة المليئة بمبانٍ كبيرة، وطرقات واسعة وجميلة، وحدائق غنّاء، وملايين الأشخاص الذين يكدون في العمل ويكدّسون الثروات.

قال أشرف: "انظرا إليّ وإلى حماستي. أبدو متحمّساً وكأنني سأغادر برفقتكما. لو كنت أصغر سناً، لفعلتُ. سأشعر بالوحدة هنا. كان حلمي أن تلازمني وأوم حتى نهاية أيامي".

قال إيشفار: "ولكننا سنبقى معك، سأعود وأوم قريباً. أليس هذا ما خططنا له؟".

كتب أشرف لصديقه، طالباً منه تقديم الطعام والمسكن لإيشفار وأومبراكاش عندما يصلان، ومساعدتهما على الاستقرار في المدينة. وسحب إيشفار مدّخراته من مكتب البريد، واشترى بطاقتَين للسفر بالقطار.

في الليلة السابقة لرحيلهما، أهداهما أشرف المِقصّ العزيز على قلبه. فاعترض إيشفار قائلاً إنهما أثقلا كاهله: "لقد فاض لطفك على عائلتنا طوال أكثر من ثلاثين عاماً".

قال أشرف، مزدرداً ريقه بصعوبة: "لا يمكن للطف أبدي أن يجازيك ونارايان على ما فعلتماه لعائلتي. هيا، ضعا المِقص في صندوقكما وأسعِدا رجلاً مسنّاً". وجفّف عينَيه، ولكنهما دمعتا مجدداً. "تذكّرا، أهلاً وسهلاً بكما في أي وقت إذا لم تسر الأمور بشكل جيد".

فوضع إيشفار يده على صدره: "ربما قمتَ بزيارة إلى المدينة قبل عودتنا".

"إن شاء الله. طالما أردت الذهاب إلى الحج مرة واحدة قبل أن أموت. وكل المراكب الكبيرة تُبحر من المدينة. لذلك، من يعلم؟".

في صباح اليوم التالي، استيقظت ممتاز باكراً لتُعدّ الشاي لهما، وتحضّر لهما رزمة من الطعام ليأخذاها معهما في رحلتهما. وجلس أشرف صامتاً خلال تناولهم الطعام، مفكراً في رحيلهما. ولم يتكلم إلا مرة واحدة ليسأل: "هل عنوان نوّاز في جَيبك؟".

فشربا كل محتوى كوبَيهما، وهمّ أومبراكاش بغسلهما، فقالت له ممتاز بعينَين دامعتَين: "دعهما، سأغسلهما بعد قليل".

حان وقت المغادرة. فعانقا أشرف وممتاز، وقبّلا وجناتهما ثلاث مرات. قال أشرف: "آه، يا لمَحجريّ المسنَّين عديمي النفع، هما يرشحان باستمرار، إنه مرض".

قال إيشفار خلال قيامه وأومبراكاش بمسح عيونهما: "لقد أصابتنا العدوى". لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما حملا الصندوق والبطانيات واتجها نحو خط سكة الحديد.

* * *

كان المساء قد حلّ عندما وصل الخياطان إلى المدينة. ودخل القطار المحطة، مُحدثاً صليلاً، ودوّى إعلان من مكبّرات الصوت. وتدفّق الركاب نحو جمهرة من الأصدقاء وأفراد العائلات المنتظرين. كانت هناك صيحات تشير إلى معرفة الناس لبعضهم، ودموع فرح. وتحوّل رصيف الركاب إلى دوّامة من البشر، وشنّ العمّال غزوات مثيرة للاشمئزاز لعرض خدماتهم التي تتطلب عضلات مفتولة.

تسمّر إيشفار وأومبراكاش في مكانهما عند حافة الهيجان، وتلاشى حس المغامرة الذي ظهر شيئاً فشيئاً في أثناء الرحلة. قال إيشفار: "يا للحشد الضخم!". متمنّياً رؤية وجه مألوف.

قال أومبراكاش: "هيا بنا". فحمل الصندوق، ومرّ بصعوبة عبر حاجز من الأجساد وحقائب السفر، كما لو أنهما واثقان من أن كل شيء سيسير على نحو جيد ما إن يخرجا من المكان؛ المدينة الموعودة موجودة وراء هذه العقبة النهائية.

شقا طريقهما عبر منصة الركاب، وخرجا إلى ساحة العبور الضخمة التابعة لمحطة سكة الحديد بسقوفها المرتفعة كالسماء، وأعمدتها الشاهقة كأشجار باسقة. فهاما على وجهيهما مذهولَين، ومستعلمَين، وطالبَين المساعدة، وكان الناس يجيبون عن أسئلتهما بسرعة، أو يشيرون، فيومئان برأسَيهما ممتنَّين من دون أن يحصلا على معلومات إضافية. لقد تطلّبهما الأمر قرابة الساعة ليكتشفا أنهما بحاجة إلى قطار محلّي ليصلا إلى صديق أشرف. ودامت الرحلة عشرين دقيقة.

لدى طرح سؤال عن الوجهة التي يتعيّن عليهما اتّباعها، أشار لهما أحدهم إلى الجهة اليمنى من الطريق. كان المسكن - المشغل على بُعد عشر دقائق من المحطة سَيراً على الأقدام، وكانت الأرصفة مغطاة بأشخاص نائمين. وبدت الأضواء الصفراء الرفيعة المنبثقة من مصابيح الشارع كمطر ملوَّث يسقط على الأجساد الملفوفة بقطع القماش البالية، فارتعد إيشفار، وهمس: "يبدون كالجثث". وحدّق إليهم، باحثاً عن دليل على الحياة؛ صدر يتحرك، إصبع تهتزّ، جفن يخفق. ولكن ضوء المصباح لم يكن كافياً للتحقق من أدق الحركات.

بدأ الارتياح يحل مكان مخاوفهما عندما اقتربا من منزل صديق العم أشرف. كان كابوس الوصول على وشك الانتهاء. وللوصول إلى المشغل، عبرا الألواح الخشبية المُلقاة فوق المجرور المفتوح. وكاد أومبراكاش يتعثّر برقعة متعفّنة من الخشب، فأمسك إيشفار بمِرفقه. وقرعا الباب.

قالا: "السلام عليكم". ألقيا التحية على نوّاز، وحدّقا إليه كما لو أنه مُحسن.

فلم يردّ نوّاز التحية بالشكل المناسب كما كانا يتوقعان. لقد تظاهر بعدم معرفته أي شيء عن سبب قدومهما. وبعد عدة إنكارات، اعترف بتسلّمه رسالة من أشرف، ووافق على مضد على السماح لهما بالنوم تحت الظُلّة وراء المطبخ لمدة أيام قليلة حتى يعثرا على مسكن. قال مشدداً: "لا أقوم بهذا الأمر لأجل أي شخص آخر غير أشرف. في الواقع، يكاد المكان لا يتّسع لعائلتي".

قال إيشفار: "شكراً لك، يا سيدي نوّاز، أجل، لمدة أيام قليلة فقط، شكراً لك".

كان باستطاعتهما شمّ رائحة الطهو، ولكن نوّاز لم يدعُهما لتناول الطعام. وبعثورهما على صنبور خارج المبنى، غسلا أيديهما ووجهَيهما، وشربا بِراحات أيديهما. وتسرّب ضوء من المنزل من خلال نافذة المطبخ. فجلسا تحته، وأنهيا التشوباتي التي كانت العمة ممتاز قد أعدّتها لهما، وأصغيا إلى الضجيج الصادر من المباني المحيطة بهما.

كانت الأرض تحت الظُلّة مكسوّة بأوراق الشجر، وقشور البطاطا، ونوى ثمار لم

يتمكنا من تعرّف نوعها، وحسك أسماك، ورأسَي سمكتَين مَحاجر عيونهما فارغة. قال أومبراكاش: "كيف يمكننا النوم هنا؟ المكان قذر".

فنظر حوله، ورأى مكنسة بجانب الباب الخلفي لمنزل نوّاز، مُلقاة على المِزراب. فاستعارها ليكنس القُمامة، في حين أحضر إيشفار أكواباً مليئة بالماء ورشّ الأرض قبل كنسها مرة أخرى.

حمل الصوت نوّاز على الخروج مستقصياً، وقال: "هذا المكان ليس جيداً بما يكفي لكما؟ لا أحد يُجبركما على البقاء".

قال إيشفار: "لا، لا، إنه مثالي. ولكنّنا ننظفه قليلاً ليس إلا".

"أنتما تستخدمان ممتلكاتي". وأشار إلى المكنسة.

"أجل، كنا...".

قال نوّاز: "في الواقع، يجب أن تطلبا الإذن قبل أخذ أي شيء". ودخل.

فانتظارا جفاف الأرض تحت الظُلّة، وفرشا بعد ذلك بساطَي النوم والغطاءين. لم يخفّ الضجيج الصادر من المباني المجاورة: أجهزة راديو تلعلع، رجل يصيح في وجه امرأة ويضربها، ويتوقف قليلاً عندما تصرخ طلَباً للمساعدة، ويبدأ بعد ذلك من جديد، مدمن على الشراب يصيح بسبب إساءة معاملته، ويلي ذلك ضحك عاصف. كان ضجيج حركة المرور متواصلاً. وأثار توهّج وامض وراء إحدى النوافذ فضول أومبراكاش. فنهض واختلس النظر إلى الداخل. فأومأ لإيشفار بالقدوم وإلقاء نظرة. وبعد دقيقة أو دقيقتين، رآهما أحدهم من الداخل وهما يحدّقان إلى التلفاز، وطلب منهما الكف عن ذلك.

فعادا إلى فراشَيهما وناما بشكل سيّئ. لقد أوقظا في إحدى المرات على زعيقٍ بدا كما لو أنه صادر من حيوان يتم ذبحه.

لم يقدّم لهما أحد من سكان المنزل شاي الصباح، وهو أمر اعتبره أومبراكاش مهيناً. قال إيشفار: "العادات مختلفة في المدينة". فاغتسلا، وشربا الماء، وانتظرا قيام نوّاز بفتح مشغله. فرآهما عند الدرَجات وهما يمدّان عُنُقيهما محاولَين النظر إلى الداخل، وقال لهما: "أجل؟ ماذا تريدان؟".

قال إيشفار: "نأسف لإزعاجك. ولكن هل تعلم أننا خياطان أيضاً؟ هل يمكننا الخياطة لك؟ في مشغلك؟ أخبرنا العم أشرف...".

قال نوّاز، منسحباً إلى الداخل في أثناء تكلّمه: "في الواقع، لا يوجد عمل كافٍ، سيكون عليكما البحث في مكان آخر".

عبّر إيشفار وأوم عن حَيرتهما بصوت مرتفع عند الدرجات في الخارج، هل هذا

كل ما يمكن لنوّاز تقديمه من مساعدة؟ ولكنه عاد بعد قليل مع قلم وورقة، مُملياً عليهما أسماء مشاغل للخياطة وتوجيهات حول كيفية الوصول إليها. فشكراه على نصيحته.

قال إيشفار: "بالمناسبة، لقد سمعنا زعيقاً مروّعاً في الليلة الماضية. هل تعرف ما حدث؟".

"إنهم أولئك القاطنون على الرصيف. كان أحدهم نائماً مكان شخص آخر. لذلك، تناول هذا الأخير حجراً وضربه به على رأسه. حيوانات، هذا ما هم عليه". وعاد إلى عمله، وغادر الخياطان.

بعد التوقف لتناول الشاي في كشك عند زاوية الطريق، أمضى الاثنان يوماً مخيفاً وبلا جدوى في البحث عن العناوين المدوَّنة. لم تكن لافتات الشارع موجودة أحياناً، أو كانت مغطاة بمُلصقاة سياسية وإعلانات. كان عليهما التوقف في كثير من الأحيان للاستعلام عن الوُجهات من أُمناء المخازن والبائعين الجوّالين.

لقد حاولا اتّباع التوجيهات المكررة على العديد من لوحات الإعلانات: "أيها المشاة! سيروا على الرصيف!". لكن الالتزام بهذه التعليمات كان صعباً بسبب الباعة الذين جعلوا متاجرهم على الإسمنت. لذلك، سارا على الطريق مع سائر المشاة، مروَّعَين بالسيارات والحافلات، ومندهشَين من الحشود التي تعبّر عن استيائها من حركة السير، ومستخدمَين فطرتهما للتنحّي عندما يتطلبهما الأمر القيام بذلك.

قال أوم: "ما ينقصنا هو بعض الممارسة فقط". موحياً بخبرة مكتسَبة في هذا المجال.

"ممارسة ماذا؟ القتل أم التعرض للقتل؟ لا تتذاكَ، قد تدهس".

لكن الحادث الوحيد الذي صادفاه في ذلك اليوم جرى مع عربة يجرّها شخص؛ فلقد انقطع الحبل الذي يربط مجموعة من الصناديق، وتبعثرت السلع. فساعداه على إعادة تحميل العربة.

سأل أوم شاعراً بالفضول بسبب الخشخشة: "ماذا يوجد في داخلها؟".

قال الرجل: "عظام".

"عظام؟ أهي عظام أبقار وجواميس؟".

"عظام أشخاص مثلك ومثلي، معَدّة للتصدير. إنه عمل مزدهر".

شعرا بالسعادة عندما ابتعدت العربة. قال إيشفار: "لو علمتُ بمحتوى الصناديق لما توقفتُ لتقديم المساعدة".

عند المساء، كانا قد مرّا على العناوين المدوَّنة على الورقة كافة من دون العثور على عمل. وحاولا العودة إلى مشغل نوّاز. وبالرغم من سلوكهما ذلك الطريق في الصباح،

لـم يبدُ أي شـيء مألوفـاً لهمـا، أم أن كل الأشـياء متشـابهة. لقد شـعرا بالارتباك، وازادد الأمـر سـوءاً بسـبب دنـوّ حلـول الظلام. واللوحـات الإعلانية لدُور السـينما التي أَمِلا في استخدامها كمعالم جعلتهما يتوهان لأنها بدت فجأةً عديدة. هل يجب أن يسلكا الطريق المتفـرّع إلـى اليميـن أم ذاك المتفـرّع إلى اليسـار عند إعلان بوبـي؟ هل هو الدرب الذي يوجد فيه مُلصَق لأميتاب باشـان في مواجهة وابل من الطلقات النارية خلال ركل رجل شرير يرفع مِدفعاً رشاشاً في وجهه، أم الدرب الذي قام فيه بإطلاق ابتسامة رزينة تحمل طابعاً بطولياً لفتاة ريفية؟

شـاعرَين بالجـوع والإرهـاق، عثـرا أخيـراً على الشـارع الذي يقيم فيه نوّاز، وناقشـا مسألة شراء الطعام قبل العودة إلى الظُلّة. قرر إيشفار: "من الأفضل عدم شرائه، فسيشعر نوّاز وزوجته بالإهانة إذا كانا ينتظراننا لتناول الطعام معهما اليوم. في الليلة السـابقة، لم يكونا مستعدَّين".

كان مضيفهما جالسـاً إلى آلة الخياطة عندما مرّا بجانب المشـغل. فلوّحا له ولكنه لـم يلاحظهمـا كمـا يبدو، وتوجها إلى الناحية الخلفية. قال أومبراكاش: "أنا منهَك جداً". وبسط الفراش وارتمى عليه.

خـلال اسـتلقائهما علـى ظهرَيهمـا، أصغيـا إلى زوجة نوّاز وهي تعمـل في المطبخ. وفتحت الصنبور، وقعقعت الأكواب، وسمعا رنيناً ومن ثم صوت نوّاز ينادي: "ميريام!". فغـادرت المطبـخ، ولـم يميّـزا كلماتها جيداً. بعد ذلك، انطلق صوتـه المرتفع من الناحية الأمامية، وقال بنبرة حازمة: "لا حاجة إلى كل ذلك، لقد قلتُ لك ذلك من قَبل".

قالت ميريام: "ولكنه قليل من الشاي ليس إلا". ودخل الزوج والزوجة المطبخ.

"لا تجادلينـي! لا يعنـي لا!". وسـمعا صـوت صفعـة حـادة، فجفـل أومبـراكاش. وصرخـت الزوجـة فيمـا قال زوجها: "دعيهما يذهبـان إلى مطعم! أنت تدلّلينهما وهذا ما سيجعلهما لا يغادران أبداًا!".

وحال نشيج ميريام دون سماع ما تقوله، باستثناء بعض الكلمات: "ولكن، لماذا..."، ومن ثم، "... عائلة أشرف...".

"ليس من أفراد عائلتي". وبصق.

فغادر الخياطان الظُلّة، وتوجها إلى الكشـك حيث كانا قد توقفا في الصباح لتناول الشـاي. وبعد تناول طبق من الطعام، قال أومبراكاش: "ما أسـتغربه هو كيف يكون للعم أشرف صديق مريع إلى هذه الدرجة".

"الناس لا يتشابهون، كما أنه لا بد من أن السنوات التي أمضاها نوّاز في المدينة قد

غيّرته. يمكن للأماكن أن تغيّر الناس كما تعلم؛ نحو الأفضل أو الأسوأ".
"ربما. ولكن العم أشرف قد يشعر بالخجل إذا سمع ما يقوله نوّاز. ليتنا نجد مكاناً آخر للإقامة فيه".
"صبراً، يا أوم. إنه يومنا الأول. سنجد شيئاً عما قريب".
لكن، بعد أربعة أسابيع من البحث، حصلا على مجرد عمل لمدة ثلاثة أيام في مكان يدعى أدفانسد تايلورينغ. لقد استخدمهما المالك، جيفان، كي لا يتخطى الحدّ الزمني الأقصى لتسليم البضاعة. كان العمل بسيطاً جداً: دوتيّات وقمصان، مئة من كل نوع.
سأل أومبراكاش منذهلاً: "من يحتاج إلى هذه الكمية؟".
فداعب جيفان شفتَيه المتغضّنتَين بإصبعه. كان يلجأ إلى هذه الحركة كلما شارف على القيام بما يعتبره نُطقاً. "لا تخبرا أحداً. الملابس للرشَوات. لقد طلبها شخص مرشح للانتخابات وسيقوم بتوزيعها على أشخاص هامّين في دائرته الانتخابية".
كان هناك مكان لخياط واحد فقط في أدفانسد تايلورينغ، ولكن جيفان حوّل الناحية الخلفية من المشغل بسرعة إلى ورشة عمل تتسع لثلاثة خياطين بسبب وجود أثاث ملائم لذلك. فوضع بشكل أفقي ألواحاً خشبية سميكة على سِنادات معدنية مثبّتة في الجدار على ارتفاع أربع أقدام عن الأرض، مُعِدّاً دوراً عُلوياً مؤقتاً، وأسند الألواح الخشبية من الأسفل بدِعامات من الخيزران، واستأجر بعد ذلك آلتي خياطة، ورفعهما إلى العلّية، وأرسل إيشفار وأوم إلى الأعلى.
جلسا بحذر على كرسيَّيهما. قال جيفان، مداعباً شفتَيه: "لا تخافا، لن يحدث لكما أي شيء. قمت بذلك عدة مرات في السابق. انظرا، أنا أعمل تحتكما. وإذا سقطتما، تهشّمتُ أنا أيضاً".
كانت البنية متزعزعة، وترتجف بقوة عندما تعمل الدواستان. وجعلت حركة السير في الشارع إيشفار وأوم يهتزان صعوداً ونزولاً على الكرسيَّين. وإذا أُغلق أحد الأبواب بقوة في مكان ما من المبنى، قعقعت مقصّاتهما. ولكنهما سرعان ما اعتادا على وجودهما غير المستقر.
بعودتهما إلى الأرض الصلبة بعد العمل أربع عشرة ساعة في اليوم طوال ثلاثة أيام، اعتبرا غياب الارتجاجات أمراً غريباً. فشكرا جيفان، وساعداه على تفكيك العلّية، وعادا منهكَين إلى ظُلّتهما.
قال أومبراكاش: "لنحصل على بعض الراحة الآن، أريد النوم طوال اليوم".
كان نوّاز يقصد مكانهما تكراراً خلال استلقائهما للتعبير عن عدم موافقته، فيقف

عند الباب الخلفي، مشمئزاً، أو مهمهماً لميريام عن الأشخاص الكسالى الذين لا طائل منهم. وقال حاضًا إياهما: "لا يحصل على العمل إلا أولئك الذين يريدونه في الأصل. هذان الاثنان عديما النفع".

كان إيشفار وأومبراكاش مرهقَين جداً ليغضبا من أي أمر مهما كان مثيراً للغضب. بعد يوم من الراحة واسترداد العافية، كان لا بد من العودة إلى الروتين. لذا كانا يسألان عن الوجهات في الصباح، ويبحثان عن عمل حتى المساء.

"الله يعلم المدة التي سنعاني فيها من هذين الاثنين"، سُمع التذمر من خلال نافذة المطبخ، ولم يتكبد نوّاز عناء تخفيض صوته، "طلبت منكِ رفض طلب أشرف. ولكن، هل أصغيتِ إليّ؟".

"إنهما لا يزعجاننا"، همست، "هما...".

"حذارِ، هذا الظِّفر مؤلم، ستقصّين إصبع قدمي!".

تبادل إيشفار وأومبراكاش نظرات مستفهمة خلال مواصلة نوّاز خُطبته الحماسية. "في الواقع، إذا رغبتُ في إقامة أشخاص تحت ظُلّتي الخلفية، لأجّرتها بمبلغ جيد. أتعرفين مدى خطورة إبقائهما طوال هذه المدة؟ كل ما يتعيّن عليهما القيام به هو تقديم طلب للحصول على مكان، وحينئذٍ نعلق في المحكمة. لذلك طلبتُ منك الحذر يا حرمنا! ستجعلينني أعرج إذا استمررت في تشطيبي بشفرتك!".

جلس الخياطان مُجفلَين، وهمس أومبراكاش: "عليّ أن أرى ما يجري".

فوقف على أطراف أصابع قدمَيه، وألقى نظرة متفحّصة عبر نافذة المطبخ. كان نوّاز جالساً على كرسي، وقدمه فوق كرسيّ منخفض بلا ظهر، وميريام راكعة أمامه حاملةً شفرة حلاقة آمنة وتُزيل البُقع الجلدية المتصلّبة وشظايا الجِلد القاسية عن مسامير قدمَيه.

ابتعد أومبراكاش عن النافذة، ووصف المشهد لعمّه. فضحكا في سرّهما طويلاً على الأمر. قال أومبراكاش: "ما أتساءل بشأنه هو كيفية ظهور مسامير في قدمَي ذلك المتكاسل إذا كان يجلس وراء آلة الخياطة طوال اليوم".

قال إيشفار: "ربما يسير كثيراً في أحلامه".

بعد أربعة أشهر تقريباً من وصول الخياطَين، بدأ نوّاز بتوبيخهما ذات صباح عندما طلبا النُّصح منه: "تزعجانني كل يوم خلال عملي. إنها مدينة كبيرة جداً. أتظنّان أنني أعرف أسماء كل الخياطين فيها؟ اذهبا وابحثا بنفسَيكما. وإذا لم تستطيعا العثور على عمل في الخياطة، حاولا القيام بأعمال أخرى. اعملا في محطة سكة الحديد. استخدما عقليكما، احملا دقيقاً وأرزّاً لزبائن متجر الإعاشات. قوما بشيء ما، أي شيء".

كان باستطاعة أومبراكاش رؤية الانزعاج على وجه عمه بسبب ثورة غضب نوّاز، فأجاب بسرعة: "ما كنا لنمانع القيام بأي عمل، ولكن ذلك قد يُعتبر إهانة للعم أشرف الذي درّبنا سنوات عدة ومنحنا مهاراته".

فشعر نوّاز بالإحراج لدى تذكيره بهذا الاسم، وقال: "في الواقع، أنا شديد الانشغال الآن"، تمتم، "اذهبا، رجاءً".

في الشارع، ربّت إيشفار على ظهر ابن شقيقه: "أحسنت، يا أوم. كانت إجابتك له في محلها".

قال أومبراكاش: "في الواقع، أنا شخص من الدرجة الأولى". وضحكا، وشربا كوبَين مليئين حتى نصفهما شاياً عند زاوية الشارع نخب انتصارهما الصغير. ولكن الاحتفال لم يدُم طويلاً بسبب مدخراتهما المتضائلة. وبعيداً عن أي شعور باليأس، تسلّم إيشفار عملاً لمدة أسبوعين في مشغل إسكافي متخصص في الأحذية والصنادل الجاهزة، وتمثّل عمله بإعداد جلود النِّعال والكعاب. وللحصول على الصلابة المطلوبة لهذا النوع من الجلود، يستخدم المشغل الدباغة الحيوانية. كان إيشفار معتاداً على هذه العملية منذ أن كان في قريته.

لقد حافظا على سرّية العمل بسبب خجل إيشفار منه. كانت الرائحة المنبعثة من يدَيه قوية، فلم يقترب من نوّاز.

مرّ شهر آخر، وهو السادس لهما في المدينة، وكانت حظوظهما في العمل لا تزال ضعيفة كالعادة عندما فتح نوّاز الباب الخلفي ذات مساء وقال: "ادخلا، ادخلا. تناولا بعض الشاي معي. يا ميريام! ثلاثة أكواب من الشاي!".

فاقتربا، هل سمعاه جيداً؟!

قال مبتهجاً: "لا تقفا هناك. تعاليا، اجلسا، هناك خبر جيد. في الواقع، تدبّرت لكما عملاً".

قال إيشفار، مندفعاً للتعبير عن امتنانه: "آه، شكراً لك! إنه أفضل خبر! لن تندم على ذلك، سنخيط بشكل جميل لزبائنك...".

أجاب نوّاز بفظاظة: "ليس في مشغلي، ستعملان في مكان آخر". حاول أن يكون لطيفاً مجدداً، فابتسم وأضاف. "ستستمتعان بهذا العمل، صدّقاني. دعاني أخبركما المزيد عنه. يا ميريام! طلبت منك إعداد ثلاثة أكواب من الشاي! أين أنت؟".

دخلت ميريام حاملة ثلاثة أكواب. فوقف إيشفار وأومبراكاش، وكل منهما يضمّ راحتَي يدَيه قرب صدره: "السلام عليكم". لقد سمعا صوتها الناعم والرنّان مراراً في

السابق، ولكنها المرة الأولى التي يقفان فيها أمامها وجهاً لوجه. كان برقع أسود يُخفي ملامح وجهها، وتتلألأ عيناها وراء فتحتَين مغطاتَين بقماش مخرَّم.

قال نوّاز: "آه، جيد، الشاي جاهز أخيراً". وأشار إلى المكان حيث يريد وضع الأكواب، ومن ثم لوّح لها بيده بجفاء للانصراف.

بعد تناول رشفات قليلة، عاد إلى العمل. "قدمت سيدة زرادشتية ثرية إلى هنا بعد ظهر هذا اليوم خلال وجودكما في الخارج. وسقط حذاؤها في قناة مياه الصرف الصحي". ضحك بمكر. "في الواقع، لديها شركة تصدير كبيرة جداً، وهي تبحث عن خياطَين بارعَين. تدعى دينا دلال، وقد تركت عنوانها لكما". وسحبه من جَيب قميصه.

"هل ألمحت إلى نوع الخياطة؟".

"عالية الجودة، أحدث الطرازات، ولكنه سهل. قالت إن نماذج ورقية ستكون متوافرة". وراقبهما بقلق. "ستذهبان، أليس كذلك؟".

قال إيشفار: "أجل، بالطبع".

"جيد، جيد. في الواقع، قالت إنها تركت قصاصات الورق هذه في عدة مشاغل. لذلك، سيتقدم العديد من الخياطين بطلبات للحصول على العمل". على ظهر الورقة، دوّن الاتجاهات، وموقع محطة القطار الذي يُفترض بهما أن يستقلاه. "الآن، لا تضلاّ الطريق إلى هناك. اذهبا للنوم باكراً الليلة، واستيقظا باكراً في الصباح بذهن صافٍ كي تفوزا بالعمل لدى السيدة".

على غرار والدة تسرع في القيام بواجباتها في اليوم الأول من المدرسة، فتح نوّاز الباب الخلفي عند الغسق وأيقظهما من خلال هزّهما من كتفيهما، مُطلقاً ابتسامة عريضة أمام جفونهما المتثاقلة. "لا تريدان أن تتأخرا. رجاءً، ادخلا لشرب الشاي بعد الاغتسال والغرغرة. يا ميريام! أحضري كوبين من الشاي لصديقَيّ!".

فهمهم، مشجّعاً إياهما، ومقدّماً النُّصح لهما، وطالباً منهما الحذر خلال احتساء الشاي. "في الواقع، عليكما ترك انطباع جيد في نفس السيدة. ولكن، لا تكثرا الكلام. أجيبا عن كل أسئلتها بتهذيب، ولا تقاطعاها أبداً. لا تحكا رأسَيكما أو أي ناحية أخرى، فالنساء اللطيفات على غرارها يكرهنَ هذه العادة. تكلما بثقة وبصوت معتدل، وخذا معكما مشطاً، وتأكدا من أن تكونا أنيقَي المظهر، ومرتّبَين، قبل أن تقرعا جرس بابها. فالشعر غير المرتَّب يُعطي انطباعاً سيّئاً".

كانا يصغيان بتلهّف، ودوّن أومبراكاش ملاحظة ذهنية لشراء مشط جديد؛ لقد كسر مشطه في الأسبوع السابق. وعندما أنهيا احتساء الشاي، استعجلهما نوّاز وحثّهما على

المغادرة: "لا تتأخرا في العودة. عودا وقد حققتما نجاحاً".

عادا بعد الساعة الثالثة، وشرحا بخجل لنوّاز القلِق قائلَين إنه بالرغم من وصولهما في الوقت المحدد، إلاّ أن العثور على محطة القطار لرحلة العودة كان أمراً صعباً.

"ولكنها المحطة نفسها التي انطلقتما منها في الصباح".

قال إيشفار وابتسم مُحرَجاً: "أعلم، لا أستطيع أن أخبرك بما حدث. كان المكان بعيداً جداً. لم يسبق لنا أن زرنا ذلك المكان، و...".

قال نوّاز بشهامة: "لا عليك، يبدو المكان الجديد المقصود أبعد مما هو في الواقع على الدوام".

"كل شارع يبدو مماثلاً. وعندما تسأل الناس، تكون الاتجاهات مُربكة. حتى إن فتى الكلّية اللطيف ذاك الذي التقيناه على متن القطار كان يعاني المشكلة نفسها".

"اختر بعناية من تتحدث إليه. هذه ليست قريتك. باستطاعة فتى لطيف سرقة مالك، وقطع حلقك ورميك في قناة مياه الصرف الصحي".

"أجل، ولكنه كان شديد اللطف، حتى إنه تشاطر معنا شراب البطيخ الأحمر و...".

"في الواقع، هل حصلتما على العمل؟".

قال إيشفار: "أجل، سنبدأ يوم الاثنين".

"هذا رائع. تهانيّ الحارة. ادخلا، اجلسا معي، لا بد من أنكما مُرهقان. يا ميريام! ثلاثة أكواب من الشاي!".

قال أومبراكاش: "أنت شديد السخاء، على غرار العم أشرف تماماً".

"آه، أنا مسؤول عن مساعدة أصدقاء أشرف. أما وقد عثرتما على عمل، فإن واجبي التالي يقضي بالعثور على مكان لكما للإقامة فيه". ولم يظهر التهكم على وجه نوّاز.

قال إيشفار: "لا تستعجل الأمر، يا سيدي نوّاز. نحن سعيدان حيث نقيم، فظُلّتك جميلة ومريحة جداً".

"دَعا الأمر لي. في الواقع، يستحيل العثور على منزل في هذه المدينة. عندما يتوافر مسكن ما، يجب التشبث به. هيا، أنهيا شايكما، لنذهب".

"التوقف الأخير". نادى قاطع التذاكر، مُحدثاً رنيناً بمِثقب التذاكر على الدرابزين المصنوع من الكروم. وتجنّبت الحافلة الأزقة القذرة والمُظلمة، وأحدثت صريراً خلال التفافها عند الزاوية، وتوقفت.

قال نوّاز: "إنها المستوطنة الجديدة". مشيراً إلى الحقل الذي يُعمَل على إلحاقه بالحي الفقير. "لنعثر على المسؤول".

فدخلوا بين صفَّين من الأكواخ، وسـأل نوّاز إحداهنّ عما إذا كان نافالكار موجوداً في الجوار، فأشارت المرأة بإصبعها، ووجدوه في كوخ هو بمثابة مكتب له.

قال نافالكار: "أجل، ما زالت لدينا أماكن قليلة للإيجار". كان شارباه غير المشذّبين يخفقان بمبالغة مقصودة فوق فمه عندما يتكلم. "دعوني أريكم".

عـادوا مـن الممـر الذي سـلكوه بين صفَّي الأكواخ. قـال نافالكار: "هذا المنزل عند الزاوية، إنه شاغر إذا أردتموه. تعالوا، انظروا إلى الداخل".

خـلال فتـح بـاب الكـوخ، فـرّ كلـب عبر فتحة في الجـدار الخلفـي. كانت الأرضية المصنوعة من الطين مغطاة جزئياً بألواح خشبية. "يمكنكم وضع مزيد من الألواح الخشبية إذا أردتم"، اقترح نافالكار. كانت الجدران مرقَّعة؛ فجزء منها مصنوع من خشب رقائقي، والجزء الآخر من ألواح معدنية. أما السـقف فمصنوع من حديد قديم مضلّع محميّ من تسرّب الماء في مناطق متآكلة بواسطة قطع بلاستيكية شفافة.

"الصنبور في الخارج هناك وسط الزقاق. مكانه ملائم تماماً. لن يكون عليكم الابتعاد كثيراً للحصول على الماء كما هو الحال في المستعمرات الأدنى مرتبة. إنه مكان جميل". ولوّح بذراعه، مشـيراً إلى المكان. "أُنشـئَ حديثاً، وهو غير مكتظ كثيراً. والإيجار هو مئة روبيّة في الشهر، والدفع مقدَّماً".

ربّت نوّاز على الجدران بأصابعه كطبيب يفحص صدر مريض، ومن ثم ضرب لوحاً خشبياً بقدمه، جاعلاً إياه يهتزّ. وظهرت على وجهه أمارات الموافقة، وهمس للخياطَين: "إنّه مبنيّ بشكل جيد".

وأومأ نافالكار بشكل دائري قائلاً: "لدينا أكواخ أفضل. هل تريدون رؤيتها؟".

قال نوّاز: "لا ضرر في إلقاء نظرة".

تـم اصطحابهـم وراء صفوف من السـياج الصفيحي والبلاسـتيكي إلى مجموعة من ثمانيـة أكـواخ جدرانهـا مـن الآجـرّ. كانت السـقوف مصنوعـة أيضاً من الحديـد المضلَّع الصـدئ. "إيجـار الكـوخ منهـا يبلغ مئتين وخمسـين روبية في الشـهر. ولكنكم تحصلون على أرضية حقيقية ومصباح كهربائي". وأشار إلى الأعمدة التي تغذّي الأكواخ بالأسلاك الكهربائية التي سُحبت من الشارع.

في الداخل، تفقّد نوّاز أحجار الآجرّ المكشوفة، وخدش أحدها بظفر إبهامه، وقال: "نوعية ممتازة، هل تريدان أن تعرفا رأيي؟ في الشـهر الأول، خذا الكوخ الأرخص. بعد ذلك، إذا سار عملكما بشكل جيد وتمكنتما من تحمّل تكلفة هذا الكوخ، تنتقلان إليه".

استمر نافالكار في الإيماء بشكل دائري. وأصاب صمتُ الخياطَين نوّازَ بالاضطراب،

فسألهما: "ما الأمر؟ ألا يعجبكما؟".

"لا لا، إنه جميل جداً. ولكن المشكلة تكمن في المال".

قال نافالكار: "المال مشكلة الجميع، ما لم تكونا سياسيِّين أو تاجرَين في السوق السوداء".

ولدى انتهاء الضحكة المفتعَلة، قال إيشفار: "يصعب علينا دفع الإيجار مسبقاً".

سأل نوّاز وهو غير مصدِّق: "ألا تملكان مئة روبيّة؟".

"سيدة الخياطة هي السبب في ذلك. طلبت منا إحضار آلتي الخياطة الخاصتَين بنا. وما كنا نملكه من مال سددنا به الدفعة الأولى. خلال هذه الأشهر القليلة الماضية، كنا ننفق المال و...".

"يا لكما من شخصين عديمَي النفع!". وبصق نوّاز لدى رؤيته انهيار مخططه للتخلص منهما، وتابع قائلاً: "كنتما تبددان مالكما!".

قال إيشفار، ملتمساً: "إذا كان باستطاعتنا البقاء لديك لمدة أطول. يمكننا ادّخار مزيد من المال...".

قال بغضب: "أتعتقدان أن هذا المنزل سينتظركما؟". وهز نافالكار رأسه.

فاقداً الأمل، التفت نوّاز إليه قائلاً: "هل يمكن أن يكون هناك استثناء، يا سيد نافالكار؟ خمس وعشرون روبيّة سأدفعها لك اليوم بنفسي. وخمس وعشرون روبيّة يدفعها الخياطان كل أسبوع تسديداً لما تبقى من إيجار الشهر".

ضمّ نافالكار شفتَيه، وأعاد شعره المبلَّل إلى الوراء بواسطة بُرجمات أصابعه، ثم قال: "لأجلك فقط. لأنني أثق بك".

عدّ نوّاز المال قبل أن يُبدّل أحد رأيه. وعادوا إلى الكوخ الأول حيث وضع نافالكار قفلاً على الباب المصنوع من الخشب الرقائقي، وأعطى إيشفار المفتاح. "إنه منزلكما الآن. هنيئاً لكما".

عادوا أدراجهم على الدرب المتصدّع، وانتظروا في موقف الحافلات. وبدا الخياطان قلقَين. قال نوّاز: "أهنّئكما مجدداً، لقد وجدتما عملاً ومنزلاً جديداً في يوم واحد".

قال إيشفار: "بمساعدتك، هل نافالكار هو صاحب الملك؟".

فضحك نوّاز قائلاً: "نافالكار غشاش صغير يعمل لدى غشاش كبير يدعى توكراي، وهو مالك الحيّ الفقير ويشرف على كل شيء في هذه المنطقة: الشراب الريفي، الحشيش، القِنّب الهندي. وعندما تحدث تظاهرات، هو الذي يقرر من يُحرَق ومن ينجو".

لدى رؤيته الخوف على وجه إيشفار، أضاف: "ليس عليك التعاطي معه. ادفع

إيجارك بانتظام، وستكون بخير".

"ولكن، من يملك هذه الأرض؟".

"لا أحد. المدينة تملكها. هؤلاء الأشخاص يرشون البلدية، والشرطة، ومفتش المياه، ومأمور الكهرباء، ويؤجّرون أشخاصاً مثلكما. لا ضرر في ذلك. أرض فارغة ومن دون فائدة. إذا كان باستطاعة الذين ليس لديهم مأوى العيش هناك، فما المشكلة في ذلك؟".

في تلك الليلة الأخيرة، أظهر نوّاز مزيداً من السخاء بسبب الارتياح الذي شعر به. قال داعياً إيّاهما: "رجاءً، تناولا الطعام معي، يشرّفني ذلك مرةً واحدة على الأقل قبل مغادرتكما. يا ميريام! ثلاثة أطباق على العشاء!".

سأل عما إذا كانا سعيدين تحت الظُلّة الخلفية. "يمكنكما النوم في الداخل إذا رغبتما في ذلك. في الواقع، كنت سأضعكما هنا على أيّ حال عندما وصلتما. ولكنني قلت في نفسي إن المنزل ضيّق ومكتظ، ومن الأفضل لكما أن تقيما في الخارج في الهواء الطّلق".

قال إيشفار: "أجل، أجل، أفضل بكثير، علينا أن نشكرك على لطفك لأنك آويتنا طيلة ستة أشهر".

"هل هذه هي المدة التي أمضيتماها في منزلي؟ كم يمر الوقت بسرعة!".

أحضرت ميريام الطعام إلى الطاولة وغادرت. فبالرغم من حجب البرقع لوجهها، تمكن إيشفار وأومبراكاش من رؤية عينَيها المحرجتَين بسبب رياء زوجها.

عقبات صغيرة

مرآة، موسى للحلاقة، فرشاة للحلاقة، كوب بلاستيكي، وعاء ماء من النحاس الأحمر... وضّبها إيشفار على كرتونة مقوّاة مطويّة إلى الأعلى وموضوعة في إحدى زوايا الكوخ، وشغل الصندوق الكبير والفَرشتان معظم المساحة المتبقية. وعلّقا ملابسهما على مسامير صدئة مثبّتة في جدران مصنوعة من الخشب الرقائقي. "إذاً، كل شيء يسير على نحو جيد. لدينا عمل، لدينا منزل، وسنجد لك زوجة في وقت قريب".

فلم يبتسم أوم بل قال: "أكره هذا المكان".

"تريد العودة إلى نوّاز وظُلّته".

"لا. أريد العودة إلى العم أشرف ومشغله".

"مسكين العم أشرف، لقد تخلّى عنه زبائنه". والتقط إيشفار الوعاء النحاسي وتوجّه نحو الباب.

قال أوم: "سأُحضر الماء".

ذهب إلى الصنبور في الزقاق حيث كانت امرأة رمادية الشعر تراقبه وهو يحاول فتح الصنبور مُربَكاً. ولكنّ شيئاً لم يحدث. فركل الماسورة القائمة، وقعقع الأنبوب، مُسقطاً عدداً قليلاً من قطرات الماء.

نادت المرأة: "ألا تعلم؟ يتم إمدادنا بالماء في الصباح فقط".

فالتفت أوم ليرى من يتكلم. كانت المرأة قصيرة القامة، وتقف عند باب منزلها المُظلم. كررت: "يتم إمدادنا بالماء في الصباح فقط".

"لم يُعلمني أحد بذلك".

قالت موبِّخة: "هل أنت طفل كي يقال لك كل شيء؟". وخرجت من كوخها. وبات بإمكانه التحقق من أنها ليست قصيرة القامة، بل كانت منحنية عند الباب. "هل يمكنك استخدام ذكائك؟".

فحاول أن يتخذ قراراً بشأن أفضل ما يثبت ذكاءه: الرد أم الابتعاد. قالت: "تعال". ودخلت كوخها. فألقى نظرة عبر الباب، وتكلمت مجدداً من الظُّلمة: "هل تخطط للانتظار

بجانب الصنبور حتى الفجر؟".

فتحت غطاء إناء فخاري كبير ومستدير القعر، ونقلت ملء كوبَين من الماء إلى وعائه النحاسي. "تذكّر، عليك أن تعبّئ الماء باكراً. استيقظ متأخراً تعطش. الماء لا ينتظر أحداً على غرار الشمس والقمر".

كان صف طويل من الناس قد تشكل عند الصنبور في صباح اليوم التالي عندما قدِم الخياطان مع فرشاتَين للأسنان وصابونة لانتظار دورهما. وخرج رجل من الكوخ المجاور وهو يضحك، قاطعاً عليهما الطريق. كان عارياً من الأعلى، وشعره متدلّياً على كتفَيه. فحيّاهما وقال: "لكن، لا يمكنكما الذهاب ببساطة".

"لِمَ لا؟".

"إذا وقفتما عند الصنبور ونظفتما أسنانكما واغتسلتما، فإنكما ستثيران قتالاً كبيراً. يريد الناس ملء أوعيتهم قبل انقطاع الماء".

قال إيشفار: "ولكن، ما العمل؟ ليس لدينا دلو".

"لا دلو لديكما؟ إنها عقبة صغيرة". وتوارى جارهما داخل كوخه، وعاد حاملاً دلواً، ثم قال لهما: "استخدما هذا حتى تحصلا على آخر".

"وماذا عنك؟".

"لديّ دلو آخر؛ ملء دلو من الماء يكفيني". جمع شعره على صورة ذَيل، وشدّه بقوة قبل أن يتدلّى مجدداً. "الآن، ما الذي تحتاجان إليه أيضاً؟ صفيحة معدنية صغيرة أو ما شابه للحمّام؟".

قال إيشفار: "لدينا وعاء، ولكن أين يُفترض بنا الذهاب؟".

"تعاليا معي، المكان ليس بعيداً". فجمعا الماء، ووضعا الدلو الثقيل في كوخهما، وتوجها بعد ذلك إلى خطوط سكك الحديد وراء مجموعة الأكواخ مصطحبَين معهما الوعاء. كان هناك القليل من الماء عندما تسلّقوا أكوام دَبش الإسمنت والزجاج المحطّم. ورشح سائل كريه الرائحة عبر الأكوام، حاملاً معه مجموعة متنوعة من النفايات الطافية.

قال: "تعاليا إلى الجانب الصحيح. الجانب الأيسر للسيدات فقط". تبعاه، وهما سعيدان بوجود مرشد معهما؛ فمن غير المناسب ارتكاب الأخطاء. وانبثقت من ذلك الاتجاه أصوات نساء، وأمهات يحاولنَ إقناع أطفالهنّ بالملاطفة، إضافةً إلى رائحة كريهة. وفي مكان أبعد، كان الرجال جالسين القرفصاء على المجازات أو بمحاذاة الخندق الجانبي بالقرب من الشُجيرات الشائكة ونبتات القُرّاص، وظهورهم إلى سكة الحديد. كان الخندق امتداداً لمجرور على جانب الطريق حيث يرمي المقيمون في مجموعة الأكواخ نفاياتهم.

وجد الثلاثة مكاناً مناسباً قرب الرجال الجاثمين. قال جارهما: "سكة الحديد الفولاذية مفيدة جداً، فهي تصلح كرصيف، وتجعلكما أعلى عن الأرض فلا يلامس ذلك الهواء مؤخرتيكما عندما يمرّ".

قال أوم بينما كانا يخلعان سروالَيهما وينتظران دورَيهما: "تعرف كل الخُدع بالتأكيد".

"يتطلب الأمر القليل من الوقت للتعلّم". أشار إلى الرجال الموجودين بين الشُجيرات الشائكة. "إن الجلوس القرفصاء هناك قد يكون خطِراً. فأم أربع وأربعين السامة تدبّ هناك. لو كنت مكانهم، لما كشفتُ عن نواحي جسدي الطريّة لها. وإذا فقدتما توازنكما بين هذه الشُجَيرات، فسينتهي بكما الأمر ومؤخرتاكما مليئتان بالشوك".

سأل أوم مترنّحاً على سكة الحديد وضاحكاً: "هل تتكلم من منطلق خبرة؟".

قال محذّراً: "أجل... خبرة الآخرين. انتبه إلى محتويات إنائك، إذا أرقتَ الماء فسيتوجب عليك العودة مع مؤخّرة غير نظيفة".

فتمنى إيشفار لو أن الرجل يلزم الهدوء للحظات. لم يجد المزاح مفيداً في هذه المهمة، ولا سيما عندما تتفاعل أحشاؤه بشكل سلبي مع الحمّام المشترَك. لقد مرت عقود على اغتساله في النهر مع والده في الصباح الباكر عندما كان طفلاً، والعصافير تزقزق بصوت عالٍ فيما القرية هادئة. ولكن السنوات التي أمضاها مع العم أشرف علّمته أن الطرائق المتّبَعة في البلدات الكبيرة تُنسيه الطرائق المتّبَعة في القرية.

قال جارهما طويل الشعر: "هناك مشكلة واحدة فقط متأتية من جلوس القرفصاء على سكة الحديد، وهي أنّه يتوجب عليكما النهوض عندما يصل القطار سواء أأنهيتما الاغتسال أم لا. فسكة الحديد لا تحترم اغتسالنا في الهواء الطلق".

قال إيشفار: "تخبرنا الآن!". ومدّ عُنُقه في الاتجاهين، باحثاً فوق سكة الحديد وتحتها.

"اهدأ، اهدأ. لن يمرّ أي قطار قبل عشر دقائق على الأقل. باستطاعتك على الدوام الابتعاد إذا سمعتَ هديراً".

قال إيشفار بتذمّر: "إنها نصيحة ممتازة ما دام الشخص غير أصمّ، وما اسمك؟".

"راجارام".

قال أوم: "نحن محظوظان لوجودك معنا كمعلّم روحي".

قال ضاحكاً: "أجل، أنا معلّمكما الروحي الذي لن يتخلى عنكما أبداً".

لم يضحك إيشفار، ولكن أوم انفجر ضاحكاً، وقال: "أخبرني، أيها المعلم الروحي الذي لن يتخلى عنا أبداً، هل تنصحنا بشراء جدول مواعيد لحركة القطارات إذا كنا نريد

الجلوس القرفصاء على سكة الحديد كل صباح؟".

"لا حاجة إلى ذلك يا تلميذي المطيع. بعد أيام قليلة، ستتعلّم أمعاؤك مواعيد القطار بشكل أفضل من ناظر المحطة".

لم يُسمع صوت القطار التالي حتى أنهوا، واغتسلوا، وزرّروا سراويلهم. فقرر إيشفار التسلل في صباح اليوم التالي قبل استيقاظ راجارام. لم يشأ جلوس القرفصاء بجانب فيلسوف التغوّط.

على امتداد الخط، ابتعد الرجال والنساء عن سكة الحديد، وانتظروا بجانب الخندق انتهاء مقاطعة القطار لهم ولازم أولئك الموجودون بين الشجيرات أماكنهم. فأشار راجارام إلى إحدى مقصورات القطار خلال انزلاقها ببطء أمامهم.

صاح: "انظرا إلى أولئك الأوغاد الذين يحدّقون إلى الناس الذين يتغوّطون كما لو أن لا أمعاء لديهم، وكما لو أن الغائط الخارج من مؤخّراتنا عرض فنّي في السيرك". فقام بإيماءات بذيئة للركاب، جاعلاً بعضهم يستديرون، عدا مشاهداً واحداً بصق من مقعد النافذة، ولكنّ ريحاً مؤاتية أعادت البصقة باتجاه القطار.

قال راجارام: "أتمنى لو أنني أستطيع الانحناء فوقهم، والتسديد، وإطلاق الغائط على وجوههم، وأجعلهم يأكلونه ما داموا مهتمين بالأمر". وهزّ رأسه لدى عودتهم إلى أكواخهم. "ذلك النوع من السلوك المخزي يجعلني شديد الغضب".

قال أوم: "صديقُ جَدّي، دايارام، أُجبر على أكل غائط أحد أصحاب الملك ذات مرة لأنه تأخر على حراثة حقله".

أفرغ راجارام آخر نقطة ماء من وعائه في راحة يده، وملّس شعره إلى الوراء. "هل طوّر دايارام ذاك أي قدرة سحرية بعد ذلك؟".

"لا، لماذا؟".

"سمعت بوجود طبقة من المشعوذين. إنهم يأكلون الغائط البشري لأنه يمنحهم قدرات على القيام بممارسات عجيبة".

قال أوم: "حقاً؟ إذاً، يمكننا الشروع بعمل تجاري. بإمكاننا جمْع كل هذه الكُتل عن سكة الحديد، ورزمها وبيعها لتلك الطبقة الاجتماعية. أطباق جاهزة للغداء، وجبات سريعة لأوقات احتساء الشاي، ساخنة وطازجة". ضحك وراجارام، ولكن إيشفار مشى بخطوات واسعة، مشمئزاً، ومتظاهراً بعدم سماعه ما يقولانه.

عاد أوم إلى الصنبور لملء دلو آخر بالماء. كان الصف قد ازداد إلى حدٍّ كبير. ورأى فتاة قادمة باتجاهه تحمل إناء نحاسياً كبيراً يتأرجح عند رِدفها. وعندما كانت ترفع ذراعَيها

لوضعه على رأسها، كانت أنظاره تتجه إلى الناحية المنتفخة من كنزتها. وقد أدى وزن الإناء الموضوع على رأسها إلى ظهور رِدفَيها تحت ثوبها بشكل واضح في أثناء مرورها بجانبه. كانت المياه تفيض من الإناء وتنسكب على شعرها وأهدابها. كندى الصباح، قال أوم لنفسه. آه، كم هي جذّابة! وشعر بقية اليوم بأنه يتحرّق شَوقاً وسعادة.

عندما نضب الماء من الصنبور، كان المقيمون في المستوطنة قد أنهوا اغتسالهم الصباحي، مخلّفين وراءهم جداول صغيرة من الرَّغوة والزَّبَد ما لبثت أن جفّت تحت حرارة الشمس. وتدوم الرائحة المنبثقة من مرحاض سكة الحديد مدة أطول، ويحمل النسيم المتقلّب الرائحة الكريهة طوال ساعات إلى الأكواخ قبل أن يغيّر اتجاهه.

في وقت متأخر من المساء، كان راجارام يطهو على جهاز طبخ برايموس خارج كوخه عندما عاد الخياطان من عملية استكشاف للمنطقة المحيطة بالحي الفقير. فسمعا الزيت يُصدر صوت فحيح في المقلاة. سألهما: "هل أكلتما؟".

"في المحطة".

"قد يكون ذلك مرتفع الكلفة. احصلا على بطاقة تموين في أسرع وقت ممكن، واطهيا طعامكما الخاص".

"إننا لا نملك جهاز طبخ".

"ليست سوى عقبة صغيرة. يمكنكما استعارة جهازي". وأخبرهما عن المرأة في المستوطنة التي تتجوّل وتبيع الخضار والفاكهة في الأحياء السكنية. "إذا بقي شيء ما في سلّتها في نهاية اليوم - قليل من البندورة، والبازيلاء - تقوم ببيعها بأسعار متهاودة. يُفترض بكما أن تشتريا منها مثلي".

قال إيشفار: "إنّها فكرة جيدة".

"هناك شيء واحد لن تبيعكما إياه؛ الموز".

فضحك أوم، متوقعاً بيت القصيد، ولكن راجارام لم يكن يُضمر أي معنى مضحك. فمالك السعادين في المستوطنة متفق مع المرأة التي تدّخر الموز المسودّ أو المتضرر لسعدانَيه. قال راجارام: "ولكن، يتعيّن على الكلب المسكين العثور على طعامه".

"أي كلب؟".

"كلب مالك السعادين. يلعب دوراً في التمثيلية. السعدانان يركبان على ظهره. ولكنه يكون موجوداً عند القُمامة على الدوام باحثاً عن الطعام. لا يستطيع مالك السعادين تحمّل تكلفة إطعامها كلها". وطشطش جهاز الطبخ برايموس مرتَين؛ فهزّه بقوة وحرّك المقلاة.

مسّ الخضار المقطَّعة للتحقق من نضوجها، ومن ثم أطفأ جهاز الطبخ، وسكب

بالملعقة حصة على طبق بلاستيكي للخياطَين.

"لا، لقد تناولنا الطعام في المحطة، حقاً".

"لا تهيناني، تناولا لُقمة على الأقل".

فقبلا الطبَق. وسمعهم رجل تتدلّى آلة قَدمية موسيقية من عُنُقه في أثناء مروره. قال: "رائحته زكيّة، احتفظا لي بلُقمة أيضاً".

"أجل، بالطبع، تفضّل". لكن الرجل أطلق نغمات موسيقية، ولوّح بيده، وواصل السير.

"هل التقيتَه من قَبل؟ هو يقيم في الصف الثاني". وحرّك راجارام المقلاة وسكب لنفسه. "يبدأ عمله في المساء. يقول إن الناس يكونون أكثر سخاءً إذا غنّى خلال تناولهم الطعام أو الاسترخاء. هل تريدان المزيد؟".

كان رفضهما نهائياً هذه المرة، وتناول راجارام الكمية المتبقية. قال: "من الجيد بالنسبة إليّ أنكما استأجرتما هذا المنزل، في الجهة المقابلة لمنزلي"، وانخفض ليهمس، "يقيم شخص عديم النَّفع يكون مخموراً طوال الوقت في ذاك الكوخ. وهو يضرب زوجته وأبناءه الخمسة أو الستة إذا لم يعودوا بمال كافٍ بعد التسوّل".

فنظرا إلى الكوخ حيث كان كل شيء هادئاً، ولم يشاهدا الأبناء. "إنه نائم ليبدأ مجدداً يوم غد. ولا بد من أن الزوجة في الشارع مع صغارها".

جلس الخياطان مع جارهما طوال المساء، متحدّثَين عن قريتهما، وعن مؤسسة مظفّر للخياطة، والعمل الذي سيشرعان به يوم الاثنين لدى دينا دلال. فأومأ راجارام برأسه لدى سماعه القصة المألوفة، وقال: "أجل، آلاف وآلاف يأتون إلى المدينة بسبب الأوقات العصيبة التي يمرّون بها في مسقط رأسهم. لقد جئت للسبب نفسه".

"ولكننا لا نريد البقاء لمدة طويلة".

قال راجارام: "لا أحد يريد ذلك، من يريد العيش على هذا النحو؟". وحرّك يده بشكل نصف دائري، شاملاً الأكواخ الحقيرة، والحقل المثلّم، والحيّ الفقير الضخم القائم في الناحية الأخرى من الطريق، والذي يضع تاجاً نتناً من دخان الطهو والأبخرة الصناعية كريهة الرائحة. "لكن الناس لا يجدون أنفسهم أمام خيار آخر في بعض الأحيان. فالمدينة تتشبث بك أحياناً، وتغرز مخالبها فيك رافضةً إفلاتك".

قال أوم: "ليس نحن، بالتأكيد. نحن هنا لجمع بعض المال والإسراع في العودة".

لم يشأ إيشفار مناقشة خططهما فسأل مبدّلاً الموضوع: "ما هي مهنتك؟".

"أنا حلاّق. ولكنني تخلّيت عن مهنتي منذ بعض الوقت. لقد أزعجتني تذمّرات

الزبائـن. قصيـر جـداً، طويل جداً، غير منتفخ بشـكل كافٍ، العِذاران غير عريضَين بشـكل كافٍ، هـذا الأمـر لا يعجبنـي، وذلـك الأمـر لا يعجبنـي. كل شـخص قبيـح يريد أن يبدو كنجـم سـينمائي. لذلـك، قلـت كفى. ومذاك الحين، قمت بكثير مـن الأعمال. والآن، أنا جامع شَعر".

قال إيشفار بتردد: "جيد، ما الذي تقوم به بوصفك جامع شَعر؟".

"جَمْع الشَّعر".

"وهذا العمل، هل يعود عليك بالمال؟".

"إنه عمل يدرّ أرباحاً كثيرة. هناك طلب كبير على الشَّعر في البلدان الأجنبية".

سأل أوم، متشككاً: "ماذا يفعلون به؟".

"أمـوراً مختلفـة. إنهم يصنعون منه شـعراً اصطناعيًّا ويطلونـه، بألوان مختلفة أحياناً: أحمر، أصفر، بنّي، أزرق. تستمتع النساء الأجنبيات بوضع شعر الأخريات على رؤوسهنّ. والرجال أيضاً، ولا سـيما إذا كانوا من دون شَـعر. في البلدان الأجنبية، يخشـون الصَّلَع. إنهم فاحشوا الثراء، وباستطاعتهم تحمّل تكلفة شراء كل الأشياء السخيفة".

سـأل أوم: "وكيـف تجمـع الشَّـعر؟ هـل تسـرقه مـن رؤوس النـاس؟". وكان هناك استهزاء في صوته.

فضحـك راجـارام برحابـة صدر وقال: "أقصد حلاّقي الأرصفة الذين يسـمحون لي بأخذه لقاء علبة شفرات، أو صابونة، أو مشط. في صالونات قص الشعر، يقدّمونه مجاناً إذا مسحتُ الأرض بنفسي. ادخلا منزلي، سأريكما مخزوني".

أضـاء راجـارام مصباحـاً لتبديد أول ظلال الغسـق داخل الكوخ. فارتعشـت الشُّـعلة قليـلاً، ثـم ثبتـت فـي مكانهـا، وتحوّلـت إلى اللـون البرتقالي، كاشـفةً عـن أكياس خَيش وحقائب بلاستيكية موضوعة في كدسة عالية إزاء الجدار.

"الأكيـاس مصدرهـا حلاّقـو الأرصفـة"، قال فاتحاً أحدها تحـت أنظارهما الفضولية والمتفرّسة. "انظرا، هذا شعر مقصوص".

فرجعا إلى الوراء بسبب المحتويات المثيرة للاشمئزاز، ودسّ يده لرفع كتلة مدهنة. "لا يبلغ طولها أكثر من بوصتَين أو ثلاث بوصات. تعود عليّ بأربع وعشرين روبيّة للكيلو الواحد من عميل الصادرات. لا تنفع إلا لصناعة المواد الكيميائية والأدوية، كما قال لي. ولكن، انظر إلى داخل هذه الحقيبة البلاستيكية".

فك الرِّباط، وسـحب حفنة من الضفائر الطويلة. "مصدرها مصفّف شـعر للسـيّدات. إنّهـا جميلـة جـداً، أليـس كذلـك؟ إنها البضاعـة مرتفعة الثمن. عندما أجـد هذا النوع من

الشعر، يكون يوم حظٍّ بالنسبة إليّ. إذا كان طول الشعر يتراوح بين ثماني بوصات واثنتَي عشرة بوصة، فهو يعود عليّ بمئتَي روبيّة للكيلو الواحد، وبستمئة روبية إذا كان أطول من اثنتَي عشرة بوصة". وأشار بإصبعه إلى شعره وأمسكه على غرار كمان.

"إذاً، لهذا السبب تُطيل شعرك".

"هذا طبيعي. إنّه رزق من عند الله".

فأخذ أوم الضفائر، ومرّر يده عليها من دون أن يشمئز منها على غرار أكوام قُصاصات الشعر القصيرة، وقال: "يبدو الشعر جيداً، وناعماً وأملس".

قال راجارام: "أتعلم؟ عندما أعثر على شعر مماثل، أشعر دائماً بالرغبة في مقابلة المرأة. أبقى مستيقظاً في الليل، مستلقياً ومتمنّياً لو أنني أعرفها. كيف تبدو؟ لماذا قصّت شعرها؟ لأجل الموضة؟ عقاباً لها؟ أم أن زوجها قد تُوفّي؟ لقد قُصّ الشعر، ولكن هناك حياة كاملة متصلة به".

قال أوم: "لا بد من أنه شَعر امرأة ثريّة".

"ولماذا تعتقد ذلك؟"، سأل راجارام كما لو أنّه معلّم مُخلص يفحص مبتدئاً.

"بسبب رائحته الزكيّة المماثلة لرائحة مقوّي الشعر. فالمرأة الفقيرة تستخدم زيت جوز الهند الخام".

"هذا صحيح تماماً". وربّت على كتف أوم، موافقاً إيّاه الرأي وقال: "من شعرهنّ تعرفهنّ. تعرف إن كنّ سليمات الصّحة أم مريضات، شابّاتٍ أم مسنّات، ثريات أم فقيرات. كل شيء ظاهر في الشعر".

قال أوم: "الدّين والطبقة الاجتماعية أيضاً".

"بالتحديد. تملك مؤهلات جامع شَعر. أعلمني متى تعبتَ من الخياطة".

"ولكن، هل سيكون بإمكاني تمرير يدي على الشعر قبل قصّه؟ كل الشعر؟ من الأعلى إلى الأسفل؟".

"إنه وغد ذكي، أليس كذلك؟"، قال راجارام لإيشفار الذي كان يهدد بضرب ابن شقيقه. "ولكنني خبير. أعترف بأنني عندما أرى أحياناً امرأة شعرها طويل، أرغب في تمرير أصابعي عليه، ولفّه حول مِعصمي. ولكن عليّ التحكم بنفسي. لا يمكنني إلا أن أحلم به حتى يقصّه مصفّف الشعر".

قال أوم: "ستحلم كثيراً بمستخدمتنا الجديدة إذا رأيتها، شعر دينا دلال جميل. قد لا يكون لديها ما تقوم به طوال اليوم سوى غسله، ودهنه بالزيت، وتمشيطه بالفرشاة، والمحافظة على مظهره المثالي". ووضع الضفائر بجانب رأسه، متصرّفاً كمهرّج. "كيف

أبدو؟".

قال عمه: "كنت أخطط للعثور على زوجة لك، يمكننا العثور على زوج لك إذا كنت تفضّل ذلك". واستعاد راجارام الشعر ضاحكاً، ووضعه في مكانه في الحقيبة البلاستيكية بحرص شديد.

قال إيشفار: "ولكنني أفكر! ألا يحصل جامع شَعر على مزيد من العمل في مكان مثل ريشيكيش؟ أو في بلدة يوجد فيها معبد مثل هاردوار؟ حيث يحلق الناس رؤوسهم ويقدّمون شعرهم كنذور؟".

قال راجارام: "أنت مُصيب، ولكن هناك عقبة كبيرة في الطريق. لقد ذهب أحد أصدقائي، وهو جامع شعر أيضاً، إلى تيروباتي في الجنوب ليتحقق فقط من الإنتاج في المعابد هناك. هل تعرف ماذا وجد؟ وجد هناك عشرين ألف شخص تقريباً في اليوم يأتون للتضحية بشعرهم. ستمئة حلاق يعملون في نوبات من ثماني ساعات".

"لا بد من أن تلّة ضخمة من الشعر تنجم عن ذلك".

"تلة؟ إنه جبل هملايا من الشعر. ولكن لا فرصة للوسطاء مثلي لجمعها. فبعد تكريس الشعر كنذر أو التضحية به، يقوم رجال الدين البَرَهميون بوضعه في مستودع. وكل ثلاثة أشهر، ينظّمون مزاداً علنياً حيث تقوم شركات التصدير بشرائه منهم مباشَرةً".

قال إيشفار: "ليس عليك أن تخبرنا عن البَرَهميين ورجال الدين، جشع الطبقات العليا معروف جداً في قريتنا".

قال راجارام موافقاً إياه الرأي: "هذا ما هو عليه الحال في كل مكان، ما زلت أنتظر التقاء من يعاملني كندّ له، كإنسان؛ هذا كل ما أريده لا أكثر".

قال أوم بسخاء: "منذ الآن فصاعداً، يمكنك الحصول على شَعرنا".

"شكراً لكما. يمكنني أن أقصّه لكما مجاناً، إذا رغبتما، ما دمتما غير نيّقَين". وأبعد حقائب الشعر وأخرج مشطه ومقصه، عارضاً قصة شعر قصيرة في الحال.

قال أوم: "انتظر، يُفترض بي أولاً إطالته على غرار شعرك كي تحصل على مزيد من المال".

قال إيشفار: "لا حيلة لنا في ذلك، لا يمكننا إطالة شعرنا. لن تحبّذ دينا دلال أن يكون شعر الخياط طويلاً".

قال راجارام: "هناك أمر واحد أكيد، الطلب على الشعر أمر لا نهاية له. إنه على الدوام العمل الذي يدرّ الكثير من المال". وخلال عودتهما إلى كوخهما متمتعين بهواء المساء. كان دخان الطهو يملأ الأجواء. وصاح صوت في الظلام: "يا شانتي! أَسرعي

بإحضار الحطب!". أجابت فتاة. فنظر أوم، وقال لنفسه: إنها فتاة الإناء النحاسي الكبير. شانتي، كرر بصمت، فاقداً الاهتمام بقصة جامع الشعر.

أسند راجارام باب كوخه بحجر كي لا يفتحه الهواء، ورافق الخياطَين بعد ذلك في جولة في الحيّ. فدلّهما على طريق مختصر إلى محطة القطار عبر فجوة في سياج سكة الحديد. "واصِلا السير على امتداد ذلك المجرور حتى تريا الإعلانات الكبيرة لأمول باتر ومودرن بريد. سيوفّر عليكما هذا الطريق عشر دقائق على الأقل عندما تذهبان إلى العمل".

وحذّرهما أيضاً من الحي الفقير المتاخم للحقل. "معظم الناس محتشمون هناك، ولكن بعض الأزقة شديدة الخطورة. قد تتعرضان للقتل أو السرقة إذا مررتما بها". في الناحية الآمنة من الحيّ، أرشدهما إلى كشك لبيع الشاي كان يعرف مالكه، وحيث يمكنهما احتساء الشاي وتناول وجبات طعام سريعة على الحساب، ويسددون الفاتورة في نهاية الشهر.

في وقت متأخر من تلك الليلة، وخلال جلوسهما خارج كوخهما وهما يدخّنان، سمعا عازف آلة القدميّة. كان عائداً من العمل ويعزف لمجرد الاستمتاع. لقد بدت نوتاته المزمارية في ذلك المحيط الموحش مريحة، وأزالت أغنية الحب والصداقة لسعة الدخان الحاد الناجم عن النيران المحتدمة.

* * *

لم يكن مأمور الإعاشات وراء مكتبه. فقال أحد الموظفين إن المدير في استراحة تأملية. "يُفترض بكما العودة يوم الاثنين".

قال إيشفار: "ولكن، علينا البدء بعملنا الجديد يوم الاثنين، كم تدوم استراحة التأمل؟".

فهز الموظف كتفَيه، وأجاب: "ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات. يتوقف الأمر على العبء الذي يُثقل فكره. يقول إنه قد يصاب بالجنون في نهاية الأسبوع إذا لم يحظَ بالاستراحة". فقرر الخياطان الانتظار في الصف.

لا بد من أن الأسبوع كان سهلاً نسبياً بالنسبة إلى مأمور الإعاشات لأنه عاد بعد ثلاثين دقيقة وقد بدا عليه الارتياح، وطلب من الخياطَين ملء استمارة، مُعلِماً إيّاهما بوجود خبراء على الرصيف يمكنهم ملؤها لقاء أجرة زهيدة.

"لا تقلق، نحن نُجيد الكتابة".

"حقاً؟". وشعر بأنه تعرض للصدّ. فتباهى بقدرته على اكتشاف معلومات عن المتقدّمين بالطلبات، وذلك من النظرة الأولى وخلال مرورهم بجانب مكتبه كل يوم: مسقط رأسهم، وضعهم المالي، ثقافتهم، طبقتهم الاجتماعية. واختلجت عضلات وجهه وتقلّصت بالرغم من إنهائه تأمّله للتوّ. كانت إجادة الخياطَين القراءة والكتابة إهانة لعِلمه الكلّي. "املأا الاستمارة وأعيداها إليّ". وصرفهما بتلويح غاضب بالأصابع.

أخذا الاستمارة إلى الممر لملء الفراغات، مستخدمَين حافة إحدى النوافذ الناتئة للكتابة عليها. كان سطح الحافة غير مستوٍ، وحاولا إعادة الورقة التي تبدو عليها آثار مماثلة للندوب إلى حالتها الطبيعية بتمرير أظفار أصابعهما عليها، وانضما مجدداً إلى الصف لمقابلة مُحاوِرهما.

فتمعّن مأمور الإعاشات بالاستمارة وابتسم. كانت ابتسامة فوقية: ربما تعلّما كيفية الكتابة، ولكنهما لا يعرفان شيئاً عن الإتقان. وقرأ إجاباتهما وتوقف عند خانة العنوان، وبدت على وجهه أمارات الانتصار. "ما هذا الهراء؟". ونقر الورقة بإصبعه الملطّخة بالنيكوتين.

قال إيشفار: "إنه المكان حيث نقيم". كان قد دوّن اسم الطريق المؤدّي إلى صف الأكواخ حيث يقيمون في الجانب الشمالي، وترك المكان المخصص لاسم المبنى، ورقم الشقة، ورقم الشارع، فارغاً.

"وأين منزلكما بالتحديد؟".

فقدّما معلومات إضافية: أقرب تقاطع طرقات، والشوارع القائمة إلى الشرق والغرب من الحي الفقير، ومحطة القطار، وأسماء دُور السينما المجاورة، والمستشفى الكبير، ومتجر الحلوى الشعبي، وسوق السمك.

قال مأمور الإعاشات، مغطياً أُذُنَيه: "توقف، كفى لا أريد سماع كل هذا الهراء". وأخرج دليل المدينة، وقلّب عدداً قليلاً من الصفحات، وتفحّص الخارطة. "كما ظننتُ تماماً. منزلكما موجود في حي الأكواخ، أليس كذلك؟".

"إنه سقف يأوينا؛ في الوقت الحاضر".

"حي الأكواخ ليس عنواناً. ينص القانون على عدم إصدار بطاقات تموين إلا للأشخاص الذين يملكون عنواناً حقيقياً".

قال إيشفار، ملتمساً: "منزلنا حقيقي، يمكنك المجيء ورؤيته".

"رؤيتي إيّاه لا تفيد بشيء. ما يهم هو القانون، وكوخكما لا يشمله القانون". والتقط كدسة من الاستمارات وقوّم حافاتها على الطاولة، ولكنها فقدت ترتيبها بعد أن أعاد

وضعها في الزاوية حيث يتكدس عليها الغبار. "ولكن، هناك طريقة أخرى للحصول على بطاقة تموين إذا كنتما مهتمَّين بالأمر".

"أجل، رجاءً. نحن مستعدّان للقيام بكل ما هو ضروري للحصول عليها".

"إذا سمحت لي بتدبّر أمر قطع قناة المنيّ لديك، يمكن الموافقة على طلبكما على الفور".

"قطع قناة المنيّ؟".

"كما تعلم، لأجل المخطط العائلي. الإجراء النوسباندي؛ الخضوع لعملية تعقيم".

قال إيشفار كاذباً: "ولكنني قمتُ بذلك في الماضي".

"أرِني ش. م. ع الخاصّة بك".

"ش. م. ع؟".

"شهادة المخطط العائلي".

"آه، ولكنني لا أملكها". وقال بعد التفكير بسرعة: "شبّ حريق في كوخنا في مسقط رأسي واحترق كل شيء".

"لا مشكلة في ذلك. إن الطبيب الذي سأرسلك إليه سيقوم بذلك مرة أخرى كخدمة خاصة ويعطيك شهادة جديدة".

"العملية نفسها مرتَين؟ ألا يسيء ذلك إلى صحتي؟".

"الكثير من الناس يقومون بذلك مرتين. للأمر فوائد إضافية. ستحصل على جهازي راديو ترانزستور".

سأل إيشفار مبتسماً: "لماذا أكون بحاجة إلى جهازَي راديو؟ هل أستمع إلى محطتَين مختلفتين، كل محطة بأُذُن؟".

"انظر، إذا كانت العملية الجراحية الصغيرة التي لا تُحدث أي ضرر تخيفك، أَرسل هذا الشاب. كل ما أحتاج إليه هو شهادة عُقم واحدة".

"ولكنه في السابعة عشرة من عمره فقط! يريد الزواج وإنجاب بعض الأطفال قبل قطع قناة المنيّ لديه!".

"القرار قرارك".

غادر إيشفار غاضباً، وتبعه أوم مُسرعاً لتهدئة رَوعه بعد أن أشعل سيجارة بسبب الاقتراح الشنيع والتجديفي. ولم يلاحظ أحد ما جرى بسبب اكتظاظ الممر بأشخاص يائسين ومُربَكين على غرار إيشفار، ويحاولون مناقشة وضعهم مع المكاتب الحكومية. كانوا ينتظرون في المكان، وتبدو على وجوههم مستويات متنوّعة من الكَرْب. بعضهم

يكون، فيما بعضهم الآخر يسخرون بشكل هستيري من الحماقات البيروقراطية، في حين أن عدداً قليلاً منهم كانوا يقفون في مواجهة الجدار وهم يتمتمون بتشاؤم.

قال إيشفار غاضباً: "الإجراء النوسباندي! يا لوقاحة الوغد! الطريقة النوسباندية تطبَّق على شاب! يُفترض بأحدهم قطع قناة مَنَيّ ذلك النَّذل القبيح خلال قيامه بالتأمل!". وعبَر الممر، ونزل الدرَج، وخرج من الباب الرئيس للمبنى.

على الرصيف، لاحظ رجلٌ قصير القامة يبدو كما لو أنه موظف مكتبي انزعاج إيشفار، فنهض عن كرسيّه الخشبي لإلقاء التحية عليه. كان يضع نظارة ويرتدي قميصاً أبيض، وأمامه أدوات للكتابة على بساط، قال له: "لديك مشكلة. هل يمكنني المساعدة؟".

قال إيشفار رافضاً الاستماع إلى الرجل: "أي مساعدة يمكنك أن تقدّم؟".

فلمس الرجل مِرفق إيشفار لحمله على الوقوف والإصغاء إليه، وقال: "أنا أسهّل الأمور. يقضي عملي وتخصصي بمساعدة الناس في معاملاتهم مع المكاتب الحكومية". وجعله أنفه الراشح يتنشق مراراً خلال التعريف عن نفسه.

"أنت تعمل للحكومة؟"، سأل إيشفار بارتياب، وأشار إلى المبنى الذي غادراه للتوّ.

"لا، أبداً، أعمل لك ولي. لمساعدتك على الحصول على ما يجعله موظفو الحكومة صعب المنال. من هنا لقبي: مسهّل المعاملات. شهادات ولادة، شهادات وفاة، وثيقة زواج، ورُخص وتراخيص على أنواعها، يمكنني الحصول عليها بأجمعها. ليس عليك سوى تزويدي بالمعلومات التي تريد أن تظهر عليها، فأقوم بتأمينها لك". ورفع نظارته وأطلق ابتسامة لبِقة، ولكنها ما لبثت أن زالت بسبب ست عطسات عنيفة. فقفز الخياطان إلى الوراء لتجنّب الرذاذ.

"كل ما أردناه هو بطاقة تموين، يا سيّدي، وأراد ذلك الرجل رجولتنا مقابل ذلك! أي خيار هو هذا الخيار، إمّا الطعام أو الرجولة؟".

"هل أراد شهادة ش. م. ع؟".

"أجل، هكذا دعاها".

"كما تعلم، منذ بدء حالة الطوارئ، صدر قانون جديد؛ يتعيّن على كل مأمور تشجيع الناس على قطع قنوات المنيّ لديهم. وإذا لم يجعل عدداً محدداً من الناس عقماء لا يحصل على أي ترقية. ما العمل؟ إنّه رجل مسكين، إنه عالق أيضاً بين المطرقة والسندان، أليس كذلك؟".

"ولكن الأمر غير منصف بالنسبة إلينا!".

"لهذا السبب أنا هنا، أليس كذلك؟ اختر الأسماء التي تريد ظهورها على بطاقة

التموين، على ألا يتخطى عددها ستة، والعنوان الذي تريد ظهوره. التكلفة هي مئتا روبيّة فقط. مئة الآن، ومئة لدى تسلّمك البطاقة".

"ولكننا لا نملك كل هذا المبلغ".

فقال مسهّل المعاملات إنّ باستطاعتهما العودة عندما يجمعان المبلغ، فهو سيلازم مكانه. "ما دامت الحكومة موجودة، سيكون هناك عمل لي". تمخط وعاد إلى مكانه على الرصيف.

* * *

خلال سلوكهما الطريق المختصر الذي أرشدهما إليه راجارام، عبر الخياطان رصيف الركاب التابع لمحطة القطار، ومرّا بالأرض القاحلة التي تحتوي على خطوط سكة الحديد ونُفايات المعادن، مراقبَين القطار وهو ينطلق من المحطة ليختفي في غياهب المساء. قال إيشفار: "كلما دنا الجواد المُرهَق من الإسطبل، عدا واثباً بسرعة أكبر". وأومأ أوم برأسه.

انتهى يومهما الأول لدى دينا دلال. مدفوعَين بالمجموعة الكبيرة من الناس المتجهين نحو منازلهم، ومرهقَين من عشر ساعات من الخياطة، تشاطرا الساعة مع الحشد المتوجّه من الإرهاق إلى الأمل. كان الليل على وشك الحلول، وقررا اقتراض جهاز الطبخ الذي يمتلكه راجارام، وطهو شيء ما، وتناول الطعام، ووضع خططهما والحلم بالمستقبل حتى يحين موعد الصعود على متن القطار في صباح اليوم التالي.

تنحدر نهاية رصيف الركاب لتمتزج مع الحصى التي تعانق خطوط سكك الحديد. هناك، توجد فتحة في السياج الحديدي اللامتناهي حيث تآكل أحد القضبان مستدقّ الرأس بفعل الصدأ وقُطع بمساعدة أيادٍ بشرية.

كان الرجال والنساء المحتشدون يتقاطرون عبر الفتحة بعيداً عن المخرج الرئيس حيث يقف قاطع التذاكر. وابتعد آخرون بأقدامهم العارية أو غير المحمية تماماً بالأحذية، راكضين برشاقةٍ من لا تذكرة لديه باتّجاه خطوط سكة الحديد فوق نُفايات المعادن والحصى. ركضوا بين قضبان سكة الحديد بخطى واسعة، قافزين فوق عارضة خشبية وأخرى، وواثبين فوق السياج، وبالغين مسافة آمنة بعيداً عن المحطة.

بالرغم من وجود تذكرة معه، تاق أوم إلى اللحاق بهم في اندفاعهم البطولي نحو الحرية. لقد شعر أن باستطاعته التحليق أيضاً إذا كان بمفرده. ومن ثم، ألقى نظرة جانبية على عمّه؛ فهو أكثر من مجرّد عم ولا يستطيع أبداً التخلي عنه. كانت حراب السياج منتصبة في الغسق كأسلحة جيش وهميّ صدئة. وبدا الرجال الذين لا يحملون تذاكر كما

لـو أنهـم يخترقـون صفـوف الأعداء، محلّقين فوق شُـوَك الرماح من دون أن تكون لديهم الرغبة في النزول على الأرض.

فجأةً، خرجت مجموعة من رجال الشـرطة من الغسـق، وأحاطت بالحشـد المتوجه نحو الفجوة. وقام عدد قليل منهم بمطاردة فاترة سعياً وراء القافزين. كان الشخص الوحيد الممتلئ حماسة مفتشاً يلوّح بعصا قصيرة مكسوّة بالجِلد، ويصيح موجّهاً الأوامر.

"ألقـوا القبـض عليهـم كلهـم! تحركـوا، تحركـوا، تحركـوا! لا تدعوا أحـداً يهرب! عودوا إلى رصيف الركاب أيها الحمقى! أنتم هناك!". ولوّح بالعصا. "كفّوا عن التقاعس! سنعلّمكم كيف تسافرون من دون تذاكر!".

تلاشـت وسـط الضجيج والإرباك محاولة الخياطَين إبلاغ الشـرطة بأنهما يحملان تذكرتَيـن. "رجـاءً، يـا حضـرة الشـرطي، كنا نسـلك طريقـاً مختصراً ليـس إلا". قالا ذلك لأقرب شـرطي، ملتمسَـين، ولكنهما سـيقا مع البقية. وهزّ قاطع التذاكر بإصبعه معنِّفاً في أثناء مرور صف المقيَّدين أمامه. في الخارج، وُضع الأسـرى على متن شـاحنة للشـرطة، ودُفِع العددِ القليل المتبقي إلى الشاحنة. قال أحدهم: "لقد أنهينا، سمعت أنه وفقاً لقانون الطوارئ، إن عدم امتلاك تذكرة يعني اعتقالاً لمدة أسبوع".

تمّ إبقاؤهم في الشاحنة وهم يتعرّقون لمدة ساعة خلال قيام المفتش ببعض الأعمال في مكتب التذاكر. بعد ذلك، انطلقت الشاحنة على طريق المحطة تتبعها سيارة المفتش. دامت الرحلة عشـر دقائق، وتوجهوا إلى موقف سـيارات شـاغر حيث فُتح الباب الخلفي للشاحنة.

"إلـى الخـارج! جميعكم إلى الخـارج! اخرجوا، اخرجوا، اخرجوا!"، صاح المفتش الذي لديه ولَع بضرب إطار الشاحنة ثلاث مرات متتالية بعصاه. "الرجال على هذا الجانب، والنساء على ذاك الجانب!". ونظّم المجموعتَين في تشكيلة من ستة صفوف طويلة.

"الجميع، انتباه! أمسكوا جيداً بآذانكم! هيا، أمسكوا بها! أمسكوا، أمسكوا، أمسكوا! ماذا تنتظرون؟ الآن سـتنحنون القرفصاء خمسـين مرة! هل أنتم جاهزون؟ ابدأوا! واحد! اثنـان! ثلاثـة!". وتجـوّل بيـن الصفوف، مُشـرفاً علـى عملية ثني الرُّكَب وعادّاً، ومسـتديراً بشكل مفاجئ لمفاجأتهم على حين غرّة. وإذا وجد أحدهم يغش من خلال عدم الانحناء بشكل كامل أو إفلاته أُذُنيه، كان يُجبره على القيام بذلك بواسطة عصاه.

"... ثمانية وأربعون، تسعة وأربعون، خمسون! انتهينا! وإذا قُبض عليكم مرة أخرى من دون تذكرة، فسـأجعلكم تتذكرون جداتكم! الآن، يمكنكم العودة إلى منازلكم! هيا، اذهبوا! ماذا تنتظرون؟ هيا، هيا، هيا!".

وتفرّق الحشد بسرعة، مُطلقين دُعابات حول العقوبة والمفتش. قال أوم: "يا لراجارام الغبـي! منـذ الآن فصاعـداً لـن أصـدّق أي كلمة تخرج من فمه. احصلا على بطاقة تموين الأمر شديد السهولة. اسلكا الطريق المختصر، ستوفران بعض الوقت".

قال إيشفار بلطف: "آه، لم يحدث أي ضرر". ولدى العودة إلى محطة سكة الحديد، كان لا يزال يشـعر بالخوف. "انظر، لقد وفّرت علينا الشـرطة بعض المشـي، كدنا نصل إلى المستوطنة".

عبرا الطريق، وواصلا السير باتجاه مجموعة الأكواخ. ولاح السياج الخشبي المألوف فـي الأُفـق، ولكـن الإعـلان المُلصَق عليـه كان مختلفاً. قال أوم: "مـاذا حدث؟ ماذا حلّ بمودرن بريد وأمول باتر؟".

لقـد تـم اسـتبدال الإعلانين بصورة لرئيسـة الوزراء وهي تعلـن إرادة حديدية! عمل شـاق! هـذا مـا سـيحملنا علـى المحافظة على اسـتمراريتنا! كانـت عيّنـةً نموذجية للوجه المنتشـر علـى مُلصقـات إعلانية في مختلف أنحاء المدينـة. كانت وجنتاها زهريتي اللون كما تبدو الفتيات في لوحات إعلانات الأفلام السينمائية، في حين تعاني قَسَمات أخرى من الوجه من عدم تناسق. وتوحي عيناها بوجود رغبة عارمة بحَك مكان ما من الجسد الوزاري، متوسّلتَين قيام أحدهم بذلك. ولم ينجح الفنان في إظهار ابتسامة لطيفة؛ فكانت ابتسـامتها تجمـع بيـن الاسـتهزاء والصرامـة. أما تلـك الرقعة الصغيرة المألوفة من الشـعر الأبيض الموجودة فوق جبينها وسط شعرها الأسود فترتمي على فروة الرأس كزَرق طائر كبير جداً.

"انظـر إلـى الصـورة، يا أوم. يبدو وجهها كمن تنـاول الليمون الحامض. هذا الوجه يشبه وجهك عندما تكون مستاءً".

فكرر أوم الجملة مقلِّداً عمه، وضحكا. واسـتمر الوجه القاسـي في إرسـال تحذيره إلى القطارات الهادرة من جانب، والحافلات والسيارات المتزاحمة في سُحب من الأبخرة المنبعثة من العوادم من الجانب الآخر، خلال توجّه الخياطَين إلى مستوطنة الأكواخ.

ظهر جامع الشـعر بينما كانا يفتحان قفل كوخهما. وقال لهما متذمّراً: "أيها الفتيان المتمردان، لقد تأخرتما كثيراً".

"ولكن...".

"لا تهتما، إنها مجرّد عقبة صغيرة. سيغدو الطعام ساخناً بعد قليل. لقد أطفأت جهاز الطبـخ لأن الخضـار كادت تجـفّ". وتـوارى فـي الداخـل ليعود مع مقـلاة وثلاثة أطباق. "بهاجي وتشوباتي للاحتفال بيومكما الأول في العمل".

قال إيشفار: "شكراً لأنك تهتم بأمرنا".

"آه، هذا من دواعي سروري".

ترك راجارام الطعام يسخن للحظات، وبعد ذلك قدّم لكل منهما طبقاً وضعت فيه أربع قطع بترتيب وإتقان. وتبقّت كمية كبيرة من الطعام في المقلاة. قال إيشفار: "إنك تطهو الكثير".

"جنيتُ مبلغاً إضافياً صغيراً اليوم، ولذلك اشتريت لهم كمية إضافية من الخضار". وأشار بمِرفقه إلى الكوخ الآخر. "أطفال ذلك المدمن على الشراب جائعون باستمرار".

خلال تناولهم الطعام، وصف له الخياطان الإجراء الذي اتخذته الشرطة بحق المسافرين من دون تذاكر. وخفف العشاء الذي قُدِّم لهما نبرة أوم المتهِمة التي كان قد خطط لاعتمادها، فقال له عوضاً عن ذلك إن ما مرّا به أشبه بالمغامرة.

فضرب راجارام جبينه بيده على نحو مسرحي، وقال: "يا لغبائي! نسيتُ كلّياً أن أحذّركما. أتعلمان؟ لقد مرّت أشهر على الغارة الأخيرة". ضرب جبينه بيده مجدداً وقال: "بعض الناس يسافرون طوال عمرهم من دون شراء تذكرة واحدة، وأنتما اعتُقلتما في اليوم الأول بالرغم من وجود تذكرتَين معكما". وضحك.

مقدّرَين حس الفكاهة، شرع إيشفار وأوم بالضحك أيضاً. "إنّه مجرد سوء طالع. لا بد من أنها سياسة جديدة متّبَعة بسبب حالة الطوارئ".

"ولكنه استعراض كبير. لماذا سمح المفتش للجميع بالذهاب إذا كانوا يريدون التشدد حقاً؟".

فكر راجارام في الأمر قليلاً فيما كان يمضغ الطعام، وأحضر كوب ماء لكل منهم. "ربما لم يكن يوجد لديهم أي خيار آخر. استناداً إلى ما بلغني، السجون مليئة بأعداء رئيسة الوزراء؛ بعمّال منتمين إلى النقابات، وصحفيين، ومدرّسين، وطلاب. لذلك، قد لا يكون هناك متّسع في السجون".

بينما كانوا يتأملون في الحادث، صدرت صرخات فرح بالقرب من صنبور الماء. لقد بدأت المياه تبقبق! وفي وقت متأخر من الليل! فانتظر الناس تدفق الماء، حابسين أنفاسهم. وخرجت قطرات قليلة، وجرت المياه بعد ذلك. فابتهجوا بها كحصان سباق مُقنِع يستجمع قواه ويندفع بقوة. إنها أعجوبة! وصفّق قاطنو الأكواخ وصاحوا بحماسة.

قال راجارام: "حدث ذلك مرة واحدة من قبل، أظن أن أحدهم ارتكب خطأ في مركز توزيع المياه، ولم يفتح الصّمام الصحيح".

قال إيشفار: "يُفترض بهم ارتكاب أخطاء مماثلة في غالب الأحيان".

ركضت النساء إلى الصنبور للاستفادة من الماء إلى أقصى درجة. وكان الأولاد يصرخون بين أذرعهنّ مسرورين بانسياب الماء البارد على بشراتهم الدّبقة. ووثب أطفال آخرون ابتهاجاً، مؤدّين رقصات لا إرادية، ومتطلّعين إلى مزيد من التبلّل بدلاً من الاكتفاء بالقليل عند الغسق.

قال أوم: "ربما يُفترض بنا ملء بعض الماء الآن، وتوفير الوقت الذي يستغرقه الأمر في الصباح".

قال راجارام: "لا، دَع الصغار يستمتعون. من يعلم متى سيحظون بفرصة مماثلة أخرى".

دامت الاحتفالات أقل من ساعة، وجفّت الماء فجأةً كما تدفقت. وتعيّن إزالة الصابون عن الأولاد، وتجفيفهم، وإرسالهم إلى النوم خائبي الأمل.

في الأسبوعين التاليين، نصب مالك الحي خمسين كوخاً آخر متداعياً للسقوط في الحقل، وقام نافالكار بتأجيرها في يوم واحد، مضاعفاً عدد السكان، ولم تعد رائحة المجرور النتنة تبارح المكان، لا بل إنها فاقت رائحة الدخان حِدّةً. ولم يعد هناك ما يميّز مستوطنة الأكواخ الصغيرة عن الحي الفقير الكبير القائم في الناحية الأخرى من الطريق؛ لقد تم ضمّه إلى المكان الجهنّمي. وشهدت الزحمة عند صنبور المياه حالة من الفوضى؛ إذ كان يتم تبادل الاتهامات كل صباح بتجاوز الصف، ويحدث تدافع ومشاحنات، وتُفرَّغ أوعية من محتوياتها، وتصرخ أمهات، ويبكي أطفال.

بدأت الرياح الموسمية، وفي الليلة الأولى من هطول المطر، استيقظ الخياطان بسبب رشح السقف على فراشَيهما. فجثما في الزاوية الجافة الوحيدة. كان المطر ينصبّ بجانبهما في دفق متواصل، فغلبهما النعاس شيئاً فشيئاً وناما. بعد ذلك، قلّ هطول المطر، وأصبح الرشح تقطّراً سريعاً. وشرع أوم بعدّ الرذاذ المتساقط على رأسه، وبلغ المئة، ومن ثم الألف، وعشرة الآلاف، وواصل العدّ كما لو أنه يأمل في أن يجفّ رأسه لدى بلوغ رقم مرتفع.

انتهى بهما الأمر حاصلَين على قسط يسير من النوم. في الصباح، تسلّق راجارام إلى السطح لتفحّص الحديد المضلَّع، وساعدهما على وضع قطعة بلاستيكية غير عريضة بما يكفي لسدّ منطقة الرشح.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، وبفضل الأجرة التي تقاضياها من دينا دلال، كان باستطاعة إيشفار التخطيط للقيام بنزهة صغيرة لشراء لوح بلاستيكي كبير وعدد قليل من السلع الأخرى. "ما رأيك، يا أوم؟ الآن يمكننا جعل منزلنا أكثر راحة، أليس كذلك؟".

فقوبل اقتراحه بصمت حزين. وتوقفا عند كشك على الرصيف لشراء طاسات من البوليتين، وصناديق، وأدوات مائدة متنوعة. "إذاً، ما لون الأطباق والأكواب التي سنحصل عليها؟".

"لا يهمّ".

"منشفة؟ تلك الصفراء مع الزهور، ربما؟".

"لا يهمّ".

"هل تريد خفَّين جديدَين؟".

قال مجدداً: "لا يهمّ". وفقد إيشفار صبره في النهاية وقال له: "ما خطبك في هذه الأيام؟ تُخطئ على الدوام مع السيدة دلال وتجادلها. لا تهتم أبداً بالخياطة. عندما أسألك عن شيء تقول لا يهمّ. ابذل جهداً، يا أوم، ابذل جهداً". واختصرا نزهة التسوق وعادا حاملين دلوين أحمرَين بلاستيكيَّين، وجهاز طبخ برايموس، وخمسة ليترات من الكاز.

سمعا أمامهما قرع الطبل الصغير المحمول الخاص برجل السعادين. لقد ارتدّت الخشخاشة المربوطة بخيط إلى بشرته خلال فتلِهِ مِعصمه. لم يكن يسعى إلى لمّ حشد من الناس من حوله، بل كان عائداً إلى المنزل فحسب، وأحد سعدانَيه على كتفه، في حين يمشي الآخر الهُوَينا بجانبه من دون حماسة، ويتبعه الكلب الهزيل عن بُعد، مشمشماً، وماضغاً صحيفة لُفّ بها طعام ذات مرة. فصفر رجل السعادين ونادى: "يا تيكا!". فخبّ الحيوان الهجين.

بدأ السعدانان بمضايقة تيكا، شادّين أُذُنَيه، ولاويَين ذنَبه، فتحمّل معذّبَيه بهدوء وقور. وحان وقت إراحته عندما لفتَ الدلوان البلاستيكيان الأحمران المتأرجحان من يدَي أوم انتباه السعدانَين اللذين قررا تفحّصهما، وقفزا داخلهما.

قال سيدهما موبّخاً وساحباً طوقيهما: "يا ليلى! يا ماجنو! توقفا!". فمدّا رأسَيهما من فوق حافّتَي الدلوَين.

قال أوم مستمتعاً بمرحهما: "لا بأس، دعهما يحظيان ببعض المرح. لا بد من أنهما جدّا في العمل طوال اليوم".

ساروا معاً إلى مستوطنة الأكواخ: الخياطان، رجل السعادين، وحيواناته. كانوا يسيرون وفقاً للإيقاع المنوِّم للطبل. وسئم ماجنو وليلى من الدلوَين، فبدأا بالتسلّق على أوم، وجلسا على كتفَيه أو رأسه، أو تدلّيا من ذراعَيه، أو تشبّثا بساقَيه. وضحك طوال الطريق المؤدّي إلى المنزل، وابتسم إيشفار مسروراً.

لقد تلاشى مرح أوم عندما انفصل عن السعدانَين. وغرق مجدداً في حزنه، مُلقياً

نظرة مثيرة للاشمئزاز باتجاه راجارام الذي كان يفرز حقائب الشعر خارج الكوخ. وبدت الأكوام الصغيرة السوداء كما لو أنها مجموعة من الرؤوس البشرية المشعّثة.

لدى رؤيته الاثنَين محمَّلَين بالمشتريات، أثنى راجارام عليهما قائلاً: "يسعدني أن أراكما على طريق الازدهار".

قال أوم بحدة: "أنت بحاجة إلى مشاهد غير عادية إذا كنت تظن أنّه الطريق إلى الازدهار". ودخل وبسط الفراش.

سأل راجارام، شاعراً بالسوء: "ما باله؟".

"أظن أنه مُتعَب. ولكن اسمع، اليوم يجب أن تأكل معنا للاحتفال بجهاز الطبخ الجديد".

"كيف يمكنني أن أرفض دعوة هذين الصديقين الصالحَين؟".

أعدّا الطعام معاً، وناديا أوم بعد الانتهاء من طهوه. في منتصف الوجبة، سأل راجارام عما إذا كان باستطاعته استدانة عشر روبيّات. ففاجأ الطلب إيشفار. كان قد افترض أن جامع الشعر يجني مالاً وفيراً من عمله استناداً إلى حديثه المليء بالحماسة في الأسبوعين السابقين.

لقد ظهر التردد على وجه إيشفار، فأضاف راجارام: "سأعيد المبلغ في غضون أسبوع واحد، لا تقلق. العمل بطيء قليلاً في الوقت الحاضر، ولكن موضة جديدة للنساء ستصبح طرازاً شائعاً، وسيبدأن جميعهنّ بقصّ ضفائرهنّ التي ستسقط على حضني".

قال أوم: "كُفّا عن الحديث عن الشعر، يحملني ذلك على الشعور بالرغبة في التقيّؤ". وبعد العشاء، وبدلاً من الجلوس في الخارج لتبادل أطراف الحديث والتدخين معهما، قال إنه مُصاب بألم في الرأس، وذهب إلى السرير.

دخل عمه الكوخ بعد ساعة، ووقف وهو يراقب قفا رأس أوم للحظات. يا للفتى المسكين! عليه حمل عبء من الذكريات الرهيبة. انحنى إلى الأمام ورأى عينَيه مفتوحتَين. "يا أوم؟ هل زال ألم رأسك؟".

أنّ أوم وقال لا.

"صبراً، يا أوم، سيزول". ولإسعاده، أضاف: "لا بد من أن تكون نجومنا في الموقع المناسب أخيراً. كل شيء يسير بشكل جيد، أليس كذلك؟".

"كيف يمكنك الاستمرار في تكرار هذا الهراء؟ نعيش في منزل مُقرف ونتن. عملنا مروِّع، والسيدة دينا تلك تراقبنا كنسر، وتزعجنا، وتقول لنا متى نتناول الطعام، ومتى نتجشأ".

تنهّد إيشفار. فابن شقيقه في أحد أسوأ مزاجاته السوداء التي لا تلين. أشعل عودَين برائحة الياسمين قائلاً: "سيُضفيان رائحة عطرة على منزلنا. نَم جيداً، وفي الصباح سيكون ألم رأسك قد زال".

في وقت متأخر من الليل، وبعد انتهاء أغنية عازف القدميّة وتوقف تيكا عن النباح، بقي أوم مستيقظاً بسبب الأصوات الصادرة عن كوخ جامع الشعر. كانت هناك امرأة تقهقه، ويلي ذلك ضحك راجارام. بعد ذلك، تكلم راجارام لاهثاً، وانزعج أوم من الأصوات التي مرت عبر جدران الخشب الرقائقي. فتخيّلهما عاريَين وسط أكياس الشعر المخيفة تلك. وفكّر في شانتي بجانب صنبور الماء، وفي شعرها الجميل البرّاق، وكنزتها الضيّقة عندما ترفع الإناء النحاسي الكبير على رأسها، وبالأمور التي يمكنهما القيام بها معاً وسط الشجَيرات بجانب سكة الحديد. ونظر إلى عمه الذي بدا نائماً. فنهض من السرير، وخرج إلى جانب الكوخ. كانت المرأة الموجودة في الكوخ المجاور تهمّ بالرحيل، فاختبأ في الظلال حتى غادرت.

لم يستغرق في النوم حتى بعد منتصف الليل، ولكن صراخاً حاداً أيقظه. هذه المرة، استيقظ إيشفار أيضاً. "ما هذا؟".

في الخارج، التقيا براجارام الذي كان يبتسم برضى. فعبس أوم في وجهه وهو يشعر بالحسد والاشمئزاز. كان الناس يخرجون من الأكواخ على امتداد الصف. بعد ذلك، انتشر نبأ تعرّض امرأة حامل لآلام المخاض، وعاد الجميع إلى النوم. وتوقف الصراخ بعد فترة وجيزة.

في اليوم التالي، بلغهما خبر ولادة فتاة في ساعات الصباح الأولى. قال إيشفار: "لنذهب ونُعرب عن أفضل أمنياتنا". ردّ أوم بكآبة: "اذهب إذا شئت".

"لا تكن حزيناً إلى هذه الدرجة". ونفش له شعره قائلاً: "سنجد لك زوجة، أعدك بذلك".

"جِد زوجة لنفسك، لست بحاجة إلى واحدة". وأخذ المشط من العلبة لتمشيط شعره.

قال إيشفار: "سأعود بعد دقيقتين، وبعد ذلك ننطلق إلى العمل".

جلس أوم عند المدخل، مقلّباً بين أصابعه قطعة من الشيفون كان قد التقطها من بين القُصاصات المتناثرة على أرض دينا دلال في اليوم السابق ووضعها في جَيبه. كم كانت القُصاصة سلسة بين أصابعه. لماذا لا تكون الحياة على هذا النحو؛ ليّنة وملساء. فداعب خدّه بها، مراقباً صغار المدمن على الشراب وهم يركضون في الأرجاء، ويستلقون على

الغبار، ويمضون الوقت حتى تقوم والدتهم باصطحابهم للتسوّل. فعثر أحدهم على حجر ذي شكل مثير للفضول، وأراه لأشقائه. وطاردوا بعد ذلك غراباً يتفحّص كتلة متعفّنة، ولكن الطائر الشجاع رفض الفرار، قافزاً، ومتنقلاً بشكل دائري، وعائداً إلى الطعام الشهيّ المتعفّن، وموفراً للصغار مزيداً من التسلية. كيف يمكنهم أن يكونوا بهذه السعادة؟ تساءل أوم؛ إنهم قذرون وعراة، ولا يحصلون على الغذاء الكافي، وهناك قروح في وجوههم، وطَفح جِلدي على بشرتهم. ما الذي يُضحك الناس في هذا المكان الحقير؟

أعاد قطعة الشيفون إلى جَيبه، وتوجه إلى كوخ رجل السعادين. كانت ليلى تنظف ماجنو، فجلس للمشاهدة. بعد قليل، قفزا على كتفَيه، ممرّرَين أصابعهما النحيلة التي كانت بحجم أصابع الأطفال بين شعره.

لدى رؤيته عدم اكتراث أوم بما يجري، ابتسم رجل السعادين وتركهما وشأنهما. قال: "إنهما يفعلان ذلك لي أيضاً، هذا يعني أنك تُعجبهما. إنها أفضل طريقة للاحتفاظ برأس نظيف".

عثرت ليلى على شيء ما في شعر أوم، فرفعته لتفحّصه. فأخذه ماجنو من كفّها ووضعه في فمه.

اختار أوم دراجة هركوليس سوداء من متجر التأجير خلال توجههما إلى شقة دينا دلال. كانت تحتوي على مقعد إضافي فوق الدولاب الخلفي وجرس كبير برّاق عند المقود.

"ولكن لماذا تحتاج إلى دراجة؟". أصرّ إيشفار. فابتسم ابن شقيقه بمَكر بينما كان الرجل يستخدم مفتاح ربط لتعديل ارتفاع المقعد.

قال أوم: "لقد مرّ شهر على بدئنا العمل لديها، إنها مدة طويلة بما يكفي. لقد وضعتُ خطتي". تحمّل الإطاران المنفوخان حديثاً الضغط المتفحّص لأصابعه. وأخرجها إلى الشارع الرئيس. "اليوم موعد ذهابها إلى شركة التصدير، أليس كذلك؟ سأتبع سيارة الأجرة بواسطة دراجتي". ورفع إحدى ساقَيه فوق مقعد الدراجة، وجلس، وانطلق.

قال إيشفار: "انتبه، حركة المرور كثيفة. وليس الطريق كالطريق في قريتنا". وزاد سرعة تقدّمه على حافة الرصيف للوصول في الوقت المناسب. "الخطة جيدة يا أوم، ولكنك نسيت أمراً واحداً؛ بابها المزوّد بقفل. كيف ستخرج؟".

"انتظر وسترى".

سار أوم بجانب عمه بمعنويات مرتفعة. كان رفرافا الدولابَين يقعقعان، والفرامل ليّنة، والجرس يعمل بشكل ممتاز، ترينغ - ترينغ - ترينغ - ترينغ. وفيما كان يقود بثقة،

انضمّ إلى حركة المرور وهو يركب على دراجة ستساعده على تصحيح المستقبل.

عاد إلى أمان الرصيف، فتنفس إيشفار بسهولة أكبر. كان المخطط سخيفاً، ولكنه شعر بالسعادة لأن ابن شقيقه يمتّع نفسه. كان يراقبه وهو يُميل المقود من جانب إلى آخر ويُدير الدوّاسة إلى الخلف كي لا يزيد سرعة تقدّمه. أدّى أوم على المقعد رقصة معقّدة؛ رقصة القيادة بشكل متوازن وبسرعة بطيئة. فأمل إيشفار في أن يُقلع قريباً عن أفكاره الجنونية ويؤدّي بسهولة مماثلة الرقصة الشاقة المتمثلة بالخياطة للمستخدِمة.

بِحثّ من أوم، صعد إيشفار على المقعد الإضافي، وجلس بشكل جانبي، وساقاه إلى الخارج. وانطلقا بوجود قدمَيه على ارتفاع بوصات قليلة عن الأرض، وخُفّاه يمسّان الأرض مسّاً خفيفاً من حين لآخر. ودوّى صوت الجرس ترينغ - ترينغ... كان العالم مثالياً للحظات.

بعد قليل، اقترب الخياطان من الزاوية حيث كان المتسوّل يتنقّل في المكان على منصته الخشبية الصغيرة. فتوقفا ليرميا له قطعة نقود أحدثت رنيناً في الصفيحة المعدنية الفارغة.

خبّأا الدراجة على مسافة آمنة من باب دينا دلال في بيت سُلّم مغطى بنسيج العنكبوت، وتفوح منه رائحة البَول والمشروب الريفي بعد ربطها بسلسلة معدنية إلى أنبوب غاز مُهمَل، وخرجا نافضَين عنهما الخيوط غير المرئية الملتصقة بأيديهما ووجهَيهما. واستمرت أشباح نسيج العنكبوت في مضايقتهما لبعض الوقت، وواصلا إزالة الخيوط غير الموجودة في الأساس عن جبينَيهما وعُنُقَيهما.

كانت أصابع دينا تتحرك بخفّة كالفراشات الجذِلة، طاويةً الملابس لتسليمها إلى أوروفوار إكسبورتس. وتحققت من النماذج الورقية للتأكد من أنها مكتملة، لأن المديرة تُلحّ عليها باستمرار للاحتفاظ بها. تقول السيدة غوبتا باستمرار: "حافظي على النماذج. إذا وقعت في الأيدي الخاطئة فستدمّر شركتي بالكامل".

كانت دينا تظن أن الأمر مبالَغ فيه نوعاً ما، وبالرغم من ذلك، لم تستطع منع نفسها من الشعور بأنّ عملها على المحك، وذلك في أثناء فرز النماذج الورقية البنّية لصِدار الملابس والكفوف والياقات. وفي الفترة الأخيرة، شعرت بتكبّر السيدة غوبتا كما لو أن المديرة اكتشفت أنهما ليستا متساويتَين على الصعيد الاجتماعي. لم تعد تغادر مكتبها لاستقبالها وتوديعها، كما أنها لم تعد تقدّم لها الشاي أو الفانتا.

عادت أصابعها بشكل عصبيّ إلى الملابس المطويّة، ملتقطةً أحد الأثواب بشكل عشوائي، ومتفحصةً الدرزات والحاشية. هل سترفض السيدة غوبتا هذا الثوب؟ كم

سيكون عـدد القطـع المرفوضة؟ لقد وقـع الخياطان في الخطيئة، وبات الإهمال منتشراً في عملهما اليدوي.

من زاويته، راقب أوم مواصلة دينا أداءها الأسـبوعي في التبرّم. كانت أفكاره تميل إلى إعداد نفسه للحظة الحاسمة المقتربة.

لقد حانت.

فأقفلت حقيبة يدها.

وطعن سبّابته اليسرى بالمقص.

لقد أزعجه الألم الذي كان أكثر حدة من المتوقَّع. كان قد افترض أن الألم سيكون أقـل حـدة لأنـه متوقَّـع، كما هـي الحال مع المتعة المتوقَّعة. وتدفّق الدم الأحمر السـاطع متخذاً مساراً قوسيّ الشكل فوق قطعة النسيج الرقيق الأصفر.

قالـت دينـا: "يـا اللـه! ماذا فعلتَ؟". والتقطت قصاصة قماش عن الأرض وضغطت على الجرح. "ارفع يدك، ارفعها وإلا تدفّق المزيد من الدماء".

قال إيشفار: "يا الله!". رافعاً الثوب المتّسخ من تحت آلة الخياطة. لم يكن هاجسه المتمثل بالعثور على شركة التصدير جيداً.

قالت دينا: "أسرع، انقع ذلك الثوب في الدلو". وأحضرت صبغة اللُّبان الجاويّ من علبة الإسعاف الأولي ووضعت كمية كبيرة من الدواء على الجرح الذي لم يكن بالخطورة التي أوحى بها الدم المتدفق. ووبّخته على نحو متساهل.

"أيهـا الفتـى المهمِـل! ماذا كنت تحاول أن تفعل؟ أين عقلك؟ لا يسـتطيع شـخص نحيل تحمّل فقدان الكثير من الدماء. ولكن، هناك باسـتمرار الكثير من الغضب والكثير من العجَلة في كل ما تقوم به".

مصعوقـاً بمـا حققـه المقـص، كان التجهّم الفاتر أفضل جواب لأوم. فأحب الرائحة الزكيّـة الحـادة للسـائل البنّـي المائل إلى الذهبي الذي يغلّـف إصبعه. وربّتت على الجرح بحشوة قطنية عندما تحوّل النَّزف إلى تقاطر بطيء.

"لقـد أخّرتنـي إصبعـك. سـتكون المديـرة مسـتاءة". لـم تذكـر تكلفـة قطعـة الثياب الملطّخة بالدم. فمن الأفضل التحقق من إمكانية زوال البقع عنها قبل مناقشـة التعويض عن الأضرار. وحملت رزمة الملابس إلى الباب، وأمسكت القفل.

قال أوم: "إنّ الجرح يؤلمني كثيراً، أريد الذهاب إلى الطبيب".

فهم إيشفار؛ حادثة المقص والإصبع جزء من خطة ابن شقيقه السخيفة.

قالت: "طبيب لأجل هذا الجرح البسيط؟ لا تتصرف كطفل. استرح وأبقِ يدك نحو

الأعلى لفترة وجيزة، ستكون بخير".

تعمّد أوم إظهار تعابير المتألم على وجهه. "ماذا لو تعفّنت إصبعي وسقطت بسبب نصيحتك؟ سأكون عبئاً على كاهلك بالتأكيد".

فاشتبهت بأن يكون الحادث مدبَّراً للتملّص من عمل بعد الظهر، وشعرت بعدم الارتياح. قالت بفظاظة: "لماذا أهتم؟ اذهب إذا شئت".

لقد شعرت بالإرهاق بسبب الإجهاد الناجم عن تعاطيها مع هذين الشخصين، وعملهما غير المُتقَن، وبطئهما. فقيام السيدة غوبتا بإلغاء التعاون معها عاجلاً أم آجلاً أمر حتمي. ولكن السؤال الوحيد المطروح هو من سيختفي أولاً؛ الخياطان أم صحتها. وتخيّلت صنبورين غير محكمي الإغلاق: واحد يشير إلى المال، والآخر إلى سلامة العقل، والاثنان يقطران معاً.

فشكرت الله على وصول مانيك كولاه في اليوم التالي. فغرفته وطعامه على الأقل يؤمّنان لها دخلاً مضموناً.

كان أوم يراقب عن بُعد، رافعاً إصبعه المجروحة، حتى دخلت دينا سيارة الأجرة. بعد ذلك، أسرع باتجاه دراجته المخبّأة، محفَّزاً برائحة النجاح.

خلال قيامه بنزع القفل عن الدراجة وإخراجها من تحت الدرَج، توارت سيارة الأجرة عن الأنظار. فقاد بأقصى سرعة إلى الشارع الجانبي ورآها متوقفة عند إشارة المرور الضوئية.

لحق بالسيارة، وبقي بعيداً عنها مسافة سيّارتين. فإبقاء دينا على مرأى منه هو بأهمية بقائه بمنأى عن الأنظار. كان يُسرع تارةً، ويُبطئ طَوراً، أو يتخفّى وراء الحافلات، أو يسير في مسرب آخر، فتُطلِق السيارات أبواقها احتجاجاً، ويصيح الناس في وجهه ويقومون بإيماءات بذيئة. لقد اضطُر إلى تجاهلهم لأن السيارة والدراجة تتطلبان منه تركيزه الكامل.

كان شديد الوثوق بنفسه لدرجة أنه بدأ بالارتجاف. إنه ارتجاف الفضول؛ حماسة الصياد الممتزجة مع خوف الطريدة.

اندمج الشارع بالطريق الرئيس، وغدت حركة المرور أكثر كثافة وبطئاً، وأسوأ من أي شيء آخر صادفه حتى تلك اللحظة. بعد دقائق، بدأ يلهث مخافة فشل مسعاه؛ لقد فقد أثر سيارة الأجرة وعثر عليها عدة مرات. كانت هناك أعداد قياسية من سيارات الفيات الصفراء والسوداء المتماثلة في الشارع مما جعل مهمته أكثر صعوبة.

مُربَكاً، بدأ أوم يفقد رباطة جأشه. فركوبه الدراجة لفترة وجيزة في الصباح الباكر من محطة القطار لم يمنحه فكرة واضحة عن هستيريا حركة المرور في منتصف النهار. فهناك

فَرق كبير بين مشاهدة حيوانات برّية خمولة في أقفاص حديقة الحيوانات ومفاجأتها في الدَّغل. وقرر القيام بمراهنة أخيرة يائسة، وحشر نفسه بين سيارتين، وسقط عن الدراجة. فصرخ الناس على الرصيف.

"قُضي على الفتى المسكين!".

"لقد سُحق حتى الموت!".

"حذارِ، ربما تحطمت عظامه!".

"أمسكوا بالسائق! لا تدعوه يهرب! هاجموا الوغد!".

شاعراً بالسوء بسبب قلق الناس غير الضروري، وقف أوم، جارًّا الدراجة وراءه. لقد كشط مِرفقه وتعرّضت ركبته لكدمة، ولم يتعرض لأي ضرر آخر.

حان دور السائق. فخرج من سيارته بشجاعة حيث كان يجثم مرتعداً. "ألديك عينان أم ماذا؟". صاح، "ألا تستطيع رؤية طريقك؟ لقد ألحقتَ ضرراً بأملاك الناس!".

فوصل شرطي وتحقق مما جرى من الركاب الموجودين في السيارة باهتمام كبير. "هل الجميع بخير؟". فنظر أوم مذهولاً بعض الشيء وخائفاً. هل يتم إرسال الأشخاص الذين يتسببون بالحوادث إلى السجن؟ كانت إصبعه تنزف وتنبض من شدة الألم.

فأخرج رجل يرتدي بذلة سفاري صفراء ومائلة إلى البنّي ومستكينٌ في مقعد السيارة الخلفي محفظة نقوده، وسلّم الشرطي بعض المال، وأومأ إلى سائقه عبر النافذة. فوضع السائق شيئاً ما في يدَي أوم قائلاً له: "الآن، اذهب! وكن أكثر حذَراً وإلا قتلتَ شخصاً ما! استخدم عينَيك اللتين وهبك الله إيّاهما!".

فنظر أوم إلى ما وُضِع في يدَيه المرتجفتين؛ إنها خمسون روبيّة.

صاح الشرطي: "هيا، خُذ دراجتك وأخلِ الطريق!". ولوّح للسيارة تعبيراً عن الاحترام والتقدير.

سحب أوم الدراجة إلى الرصيف. كان مِقوداها معوجّين والرفرافان يقعقعان بعزم أكبر من ذي قبل. فنفض الغبار عن سرواله، متفحصاً لطخات الشحم السوداء على طرفَي الكمَّين.

سأل أحدهم على الرصيف: "كم أعطاك؟".

"لقد أعطاني خمسين روبيّة".

قال الرجل، هازّاً رأسه ومستهجناً: "لقد نهضتَ بسرعة كبيرة، لا تنهض أبداً بهذه السرعة. ابقَ على الأرض وأَصدر أصوات أنين وتأوّه. صِح وطالب برؤية طبيب، صِح وطالب بإحضار سيارة إسعاف، اصرخ، ازعق، قم بأي شيء. في هذا النوع من الحالات،

يمكنك الحصول على مئتَي روبيّة على الأقل". كان يتكلّم كمحترف، ومِرفقه الملويّ مدلّى إلى جانبه تعبيراً عن كفاءته في هذا المجال.

فوضع أوم المال في جَيبه. وثبّت الدولاب الأمامي بين ركبتَيه وسحب المقود بقوة حتى قوّمه. واصطحب الدراجة إلى شارع جانبي، تاركاً الناس المحتشدين يحللون الحادث الذي تعرّض له.

كانت العودة إلى الشقة بلا جدوى لأن القفل سيكون موضوعاً في الباب. وتردد أيضاً بإعادة الدراجة باكراً، فلقد دُفع المبلغ كاملاً مُسبَقاً. تمنى لو أنه عمل بنصيحة عمه، ولكن الخطة بدت بلا عيوب عندما تخيّل سلسلة الأحداث مكلَّلةً بالنجاح كأشعة الشمس التي تمنح مقود الدراجة مظهراً جذاباً. إن إطلاق المخيّلة أمر خطر.

اعتلى الدراجة حيث حركة المرور أقل تهديداً، وسلك الطريق باتجاه البحر. لا مزيد من التعقّب، وكان باستطاعته الاستمتاع بالقيادة. ولفت انتباهه رنين جرس دراجة الرجل الذي يبيع غزل البنات خارج إحدى المدارس. فتوقف وألقى نظرة ضبابية على الكرات القطنية زهرية اللون، والصفراء، والزرقاء داخل الصندوق الزجاجي المعلَّق بحبل حول عنق الرجل ومن خلال الجانب الأكثر نظافة.

"كم ثمنها؟".

"واحد وعشرون بايزا للقطعة الواحدة. أو جرّب اليانصيب لقاء خمسين بايزاً. اربح ما بين كرة واحدة وعشر كرات".

فدفع أوم المبلغ، ووضع يده داخل كيس اليانصيب الورقي البنّي. وكانت الورقة التي سحبها قد دُوّن عليها العدد 2.

"ما الألوان التي تريدها؟".

"واحدة زهرية اللون والأخرى صفراء".

فرفع الرجل الغطاء المستدير، ومدّ يده إلى الداخل. قال أوم: "لا أريد تلك الكرة بل الكرة المجاورة".

ذابت الحلوى الطرية في فمه بسرعة. لقد حصلتُ على الكرة زهرية اللون الأكبر حجماً، قال لنفسه، وكان مسروراً عندما فصل ورقة نقدية من فئة عشر روبيّات عن مجموعة الأوراق النقدية الخمس. فمسح الرجل أصابعه بحزامه قبل أخذها. ووضع أوم الفكّة في جَيبه، وأكمل طريقه باتّجاه البحر.

عند الشاطئ، توقف قليلاً لقراءة الاسم المنقوش تحت تمثال حجري أسود شاهق. تفيد اللوحة المعدنية أنه حارس الديموقراطية. لقد تعلّم أوم أموراً عن الرجل في صف

التاريخ من خلال قصة النضال في سبيل الحرية. فاعتبر أن الصورة في كتاب التاريخ أفضل من التمثال. وأسند الدراجة إلى قاعدة التمثال واستراح في ظلها. كانت جوانب القاعدة مغطاة بمُلصقات تمتدح فضائل حالة الطوارئ، وكان الوجه المُلزِم لرئيسة الوزراء بارزاً، وتشرح كتابات بأحرف صغيرة سبب تعليق العمل بالحقوق الرئيسة بشكل مؤقت.

شاهد رجلَين يُعدّان عصير قصب السكّر في كشك وسط الرمال، وكان أحدهما يضع العيدان بين الدواليب العاصرة في حين يقوم الآخر بأرجحة المِقبض. لم يكن الأخير يرتدي قميصاً، وكانت عضلاته متماوجة، وبشرته تلمع تعرّقاً بسبب حمل الآلة الثقيلة. إن عمله يتطلب جهداً أكبر، قال أوم لنفسه، وأمل في أن يقوما بالأمر مداوَرةً وإلا فالشراكة غير مُنصفة.

لقد أسال منظر العصير الذهبي المُزبِد لعاب أوم. ولكنه تردد في الحصول على كوب بالرغم من وجود المال في جَيبه. فلقد سمع مؤخراً روايات في البازار عن عصر أبو بريص مع قصب السكّر. كان حادثاً كما قيل؛ ربما كان الحيوان موجوداً داخل الآلة يلعق القضبان والمعدات المكسوّة بالسكّر، ولكن عدداً كبيراً من الزبائن تعرضوا للتسمم.

لم تبرح صورة السحليات البرّاقة تارةً والأكواب المليئة بالعصير الذهبي طَوراً مخيّلة أوم. وتغلّبت السحليات أخيراً على كل رغبة لديه في الحصول على الشراب. فاشترى بدلاً من ذلك عود قصب سكّر، وقشّره، وقطّعه إلى عشرة أجزاء. لقد مضغها بسعادة واحداً تِلوَ الآخر، ممتصّاً العصير منها، وباصقاً المحتويات الجافة من فمه عند قدمي التمثال. لقد تعب فكاه بسرعة ولكن الحلاوة جديرة بتحمّل الألم.

اجتذبت النُّتفات المجفَّفة طائر نورس فضولي. وعندما بصق مرة أخرى، أومأ للطائر الذي راوغ قليلاً قبل التوجه إلى البقايا الطرية، مبعثراً الكومة الصغيرة قبل أن ينصرف بازدراء.

ورمى أوم القطعة الأخيرة من دون مضغها، فعاد طائر النورس، وتفحّصها عن كثب، رافضاً التصديق أن منقاره منشغل بقطعة من قصب السكّر.

لكن فتاة شارع قامت بإبعاد طائر النورس بقدمها، واستولت على الجائزة وأخذتها إلى كشك العصير، وغسلت عنها الرمال في الدلو حيث كان الرجلان يغسلان الأكواب القذرة. لقد شعر أوم بالنعاس في أثناء مشاهدته إيّاها وهي تعضّ قطعة القصب، وتمنّى لو أن باستطاعته القدوم إلى هذا المكان مع الفتاة الجميلة ذات الشعر اللمّاع، شانتي، ليشتري قصب السكّر لكليهما. بعد ذلك، تغيب الشمس، ويهب النسيم، فينعمان بدفء أحدهما الآخر، ويجلسان واضعَين ذراعَيهما حول بعضهما، ومن ثمّ، وبالتأكيد...

استغرق في النوم، حالِماً بذلك. وعندما استيقظ، كانت حرارة الشمس لا تزال شديدة، وتسطع فوق عينَيه. لقد بقيت ساعة ونصف من مدة استئجار الدراجة، فقرر إعادتها.

كان إيشفار لِيَثق بأن ابن شقيقه قد بلغ هدفه لو أن اللامبالاة المُرفَقة بابتسامة عريضة التي رافقت جلوسه وراء آلة الخياطة أشارت إلى أمر ما.

شرعت دينا التي عادت منذ ساعات بتوبيخه. "هذا تضييع للوقت، هذا كل ما في الأمر. هل كنتَ تقوم بجولة في أرجاء المدينة كافة؟ ما مدى بُعد طبيبك؛ في أقصى جنوب لانكا؟".

"أجل". أجاب متسائلاً عما إذا كانت قد رأته راكباً الدراجة؟

"يغدو هذا الفتى شديد الذكاء".

قال إيشفار: "إنّه ذكي جداً. إذا لم يكن حذراً، فسيجرح نفسه مجدداً".

قالت مستفهمة: "وكيف حال الإصبع التي كانت ستتعفّن؟ هل سقطت أم لا؟".

"إنها أفضل. لقد فحصها الطبيب".

"جيد. قم بعمل ما إذاً. ابدأ بتحريك الدواسة، هناك الكثير من الملابس الإضافية".

"في الحال".

"يا الله! لا مزيد من التذمّر؟ أيّاً يكن الدواء الذي وصفه لك الطبيب، فقد كان مفيداً. يُفترض بك تناول جرعة كل صباح".

كان الأمر مفاجئاً، ومرت الساعة الأخيرة من اليوم، وهي الأصعب عادةً، بالهزل والضحك. لماذا لا يكون الأمر على هذه الحال كل يوم؟ وقبل مغادرتهما، استفادت من مزاجهما الجيد لنقل جزء من أثاثها من غرفة نومها إلى غرفة الخياطة.

سأل إيشفار: "هل تعيدين ترتيب كل الشقة؟".

"هذه الغرفة فقط. عليّ الاستعداد لاستقبال ضيفي".

قال أوم، متذكّراً: "أجل، فتى الكلّية". فرفعوا الفراش عن السرير، وأدخلوا إطار السرير والقدد، وأعادوا وضع الفراش عليها. وحُشرت آلات الخياطة، والكراسي، وطاولة العمل، بجانب بعضها لتوفير مساحة إضافية. "متى يصل؟".

"غداً مساءً".

جلست بمفردها في غرفة الخياطة بعد مغادرتهما، مراقبةً النُّدفات والنسيج تحت ضوء الكهرباء. وامتزجت رائحة النسيج المنشّى في معامل أوروفوار مع رائحة تعرّق الخياطَين المميَّزة ودخانهما. لقد أحبّت حركتهما الناشطة في الغرفة. ولكن الرائحة اللاذعة

الداخلة من المزاليج كانت تسبب لها الاغتمام في الأمسيات عندما تكون بمفردها، فتعكّر صفو الجوّ بأفكار عن معامل قذرة، وعمال مسلولين، وحياة موحِشة. كان الفراغ في حياتها يتجلى في هذه الساعة أكثر فأكثر.

* * *

سأل إيشفار: "إذاً، ما اسم الشركة؟".

"لا أعرف".

"العنوان؟".

"لا أعرف".

"إذاً ما هو سبب سرورك الكبير؟ لم تحقق لك خطتك البارعة أي شيء".

"صبراً، صبراً"، أجاب مقلِّداً عمه، "لقد حققت لي أمراً ما". فأظهر المال وروى المغامرات التي قام بها بعد الظهر.

بدأ إيشفار بالضحك. "لا تحدث هذه الأمور إلا لك". لم يبدُ أيّ منهما مخيَّب الأمل؛ ربما بسبب المال، أو الارتياح بعد فشل الخطة: من شأن العثور على شركة التصدير أن يؤدي إلى بعض الخيارات الخاطئة.

عندما وصلا إلى المنزل، كانت هناك سيارة تابعة لمستوصف التخطيط العائلي خارج مستوطنة الأكواخ، وشكلت حشود القاطنين في الحي الفقير ما يشبه المَرسى حولها. كان الموظفون يسلّمونهم واقيات ذَكَرية مجانية، ويوزّعون نشرات إعلامية تتناول إجراءات التحكم بالولادات، ويتحدّثون عن الحوافز المقدَّمة النقدية منها والعينية.

قال أوم: "ربما يُفترض بي إجراء العملية، والحصول على ترانزستور من ماركة بوش. عندئذٍ، يمكننا الحصول على بطاقة التموين".

فصفعه إيشفار قائلاً: "لا يُفترض بك المُزاح في هذه الأمور!".

"لماذا؟ لن أتزوج أبداً، وقد أحصل على ترانزستور".

"ستتزوج عندما أطلب منك ذلك. لا جدال في هذا الشأن. وما هو المهم في راديو صغير؟".

"الجميع يملكون ترانزستور هذه الأيام". كان يتخيّل شانتي على الشاطئ فيما الغسق يتلاشى، في حين يعزف الترانزستور لحن السِّرناد.

"الجميع يقفزون في البئر، وأنت أيضاً؟ تَعلُّم طرائق المدينة الكبيرة أنسانا طرائقنا الجيدة والمتواضعة الخاصة بالبلدة الصغيرة".

"أجرِ العملية إذا كنت لا تريد أن أجريها".

"وقح. رجولتي مقابل راديو سخيف؟".

"لا، لا يريدون رجولتك. يقطع الطبيب أنبوباً صغيراً في الداخل ليس إلا. حتى إنك لا تشعر بالأمر".

"لا أحد يمدّ سكيناً على خصيتَيّ. تريد جهاز ترانزستور؟ اعمل بكدّ لدى السيدة دينا، واكسب بعض المال".

خرج راجارام، عارضاً الواقيات التي جمعها من السيارة التابعة للمستوصف. كانوا يسلّمون أربعة لكل شخص، وتساءل عما إذا كانا سيعطيانه حصّتَيهما إذا لم يكونا بحاجة إليها. قال: "من يعلم متى تعود العربة المقفَلة إلى هنا مرة أخرى".

قال أوم ضاحكاً: "هل تمارس الجنس تكراراً أم ماذا؟ لن تُبقينا مستيقظَين الليلة أيضاً، أليس كذلك؟".

قال إيشفار: "وقح". وحاول صفعه، ولكنه فرّ مسرعاً لزيارة السعدانَين.

* * *

أعادت دينا قراءة الرسالة الموجَّهة إليها من السيدة كولاه التي كانت قد وصلتها مع أول شيك لتسديد الإيجار الذي أُخِّر تاريخ تحصيله حتى يوم انتقال مانيك. وتُعدّد الصفحات الثلاث توجيهات تتعلّق بالعناية بابن آبان كولاه والسهر على راحته. كانت هناك معلومات عن فطوره: يُفترض بالبيض المقليّ أن يكون مُشبَّعاً بالزبدة لأنه يكره الحافات القاسية التي تلتصق بالمِقلاة. ويُفترض بالبيض المخفوق أن يكون فاتح اللون، مع إضافة الحليب في المرحلة النهائية. "بما أنه نشأ في هواء جبلنا الصحي"، تُكمل الرسالة، "فإن شهيّته كبيرة. ولكن، رجاءً، لا تعطيه أكثر من بيضتَين، حتى وإن طلب منك ذلك. يجب أن يتعلم جعل نظامه الغذائي متوازناً".

وعن دراسته، كتبت آبان كولاه قائلةً: "إن مانيك فتى جيد ويكدّ في العمل، ولكن فكره يتشتت أحياناً. لذلك، رجاءً، ذكّريه بضرورة إنهائه دروسه كل يوم". إضافةً إلى ذلك، إنه متطلّب جداً في ما يتعلق بملابسه، وبطريقة تنشيَتها وكيّها؛ إن توافر شخص يجيد الغسيل أمر أساسي لسعادته. ويُفترض بدينا ألا تشعر بالحَرَج عند مناداته ماك لأن أفراد العائلة كافة ينادونه بهذا الاسم.

فنخرت دينا بأنفها ووضعت الرسالة جانباً. بيض مُشبَّع بالزبدة، وغاسلة ملابس ماهرة! ذلك الهراء الذي يفرضه الناس على أبنائهم. عندما قام الفتى بالزيارة في الشهر

السابق، لم يكن يبدو أنه الشخص الموصوف في رسالة والدته. ولكن، هكذا هي الحال على الدوام؛ لا يرى الناس أبناءهم وبناتهم على حقيقتهم.

لإعداد الغرفة قبل وصوله، أخرجت دينا ملابسها، وأحذيتها، وتُحفها الصغيرة، واضعةً إيّاها بين أدوات الخياطة. وعثرت على مكان في الصندوق الموضوع على المِسند لمخزونها من الفُوَط الصحية والقُصاصات التي صنعتها بنفسها. أما الأغراض المتبقية الأكبر حجماً والمصنوعة من قماش فقد وضعتها على الرفّ السفلي في خزانة ملابسها. وكانت قد بدأت مؤخّراً بصنع لحاف بواسطتها. وبقيت المظلة مدلاّة من أعلى خزانة النزيل؛ فهي لن تزعجه هناك.

لقد أصبحت غرفة نومها القديمة فارغة وجاهزة لإيواء مانيك كولاه، ولكن غرفة نومها مريعة. سأستلقي على الأرجح شاعرةً بالأَرَق، وجاهدةً للتنفس، قالت في سرّها، وأنا مطوَّقة بأكداس القماش. ولكن وضع النزيل مع آلات الخياطة أمر مُحال لأنه سيحمله على العودة إلى نُزل الكلّية.

اختارت قطع قماش من الرزمة الموجودة تحت السرير، وقررت إعداد رُقع إضافية للّحاف. لقد خفّف التركيز على العمل من حدة قلقها من الغد، وشعرت بأنها مثيرة للسخرية عندما تفكر في جعل منزلها يضاهي منزل آبان كولاه فخامةً. فإعطاء مانيك غرفة النوم هو الامتياز الوحيد الذي يمكنها القيام به.

جبال

عندما أنهى مانيك كولاه نقل أمتعته من نزل الكلّية إلى شقة دينا، كان يتصبب عرَقاً. ذراعاه قويتان، فكّرت في سرّها عندما رأته يحمل حقيبة ملابسه والصناديق بصمت، ويضع أغراضه في مكانها باهتمام شديد.

قال ماسحاً جبينه: "الجوّ رطب جداً، سأستحم الآن، يا سيدة دلال".

"في هذا الوقت من المساء؟ لا بد من أنك تمزح. لا يوجد ماء، عليك الانتظار حتى الصباح. ولماذا تدعوني سيدة دلال مجدداً؟".

"آسف. يا خالتي دينا".

يا له من فتى وسيم! فكّرت في سرّها، وتظهر غمّازتان في خدّيه عندما يبتسم. ولكنها شعرت بأنه يُفترض به التخلص من عدد قليل من الشعر النابت فوق شفته العليا؛ هذا الشعر الذي سيتحوّل عمّا قريب إلى شاربَين. "هل أناديك ماك؟".

"أكره ذلك الاسم".

فأفرغ حقيبته، وبدّل قميصه، وتناولا العشاء. لم يرفع نظره عن طبقه إلا مرة واحدة فقط عندما التقى نظره نظرها، وابتسم بحزن. لقد أكل قليلاً، فسألته عما إذا كان يجد الطعام لذيذاً.

"آه، أجل، إنه لذيذ جداً. شكراً لك يا خالتي".

"لو رأى نوسوان – شقيقي – طبقك، لقال إن عصفوره الدُّوري يبقى جائعاً بعد تناول تلك الكمية".

"الطقس حارّ جداً، ولا أستطيع تناول المزيد". تمتم على نحو اعتذاري.

"أجل، أفترض أن المكان يغلي هنا مقارنةً مع جبلك الصحي". وقررت أنه يتعيّن عليها تأمين الأجواء المريحة له. "وكيف تسير أمور الكلّية؟".

"بشكل جيد، شكراً لك".

"ولكنك لم تُحب الإقامة فيها؟".

"لا، إنّ النزل هناك مكان شديد الصخَب. من المستحيل الدراسة هناك".

وساد الصمت مجدداً خلال تناول عدة لُقمات، وصدرت منه المحاولة التالية لتبادل أطراف الحديث: "ذانك الخياطان اللذان التقيتهما في الشهر الماضي، هل ما زالا يعملان لديك؟".

قالت: "أجل، سيعودان في الصباح".

"آه، حسناً، من الجيد رؤيتهما مجدداً".

"حقاً؟".

لم يفهم المقصود من سؤالها، وحاول الإيماء برأسه على نحو يوحي بالسرور خلال قيامها بتنظيف الطاولة. قال دافعاً كرسيّه إلى الوراء: "دعيني أساعدك".

"لا، لا بأس".

نقعت الأطباق في المطبخ حتى الصباح، وقام بمراقبتها. لقد حملته الشقة على الشعور بالكآبة، تماماً كما شعر عندما جاء لمعاينة الغرفة في المرة السابقة. فهو سيغادر المكان بعد أقل من عام، قال لنفسه، ولله الحمد على ذلك. ولكن المكان هو المنزل بالنسبة إلى الخالة دينا. فكل ما فيه يشير إلى نضالها للابتعاد عن القذارة، والتأقلم مع حدّ أدنى من النظافة والترتيب، وتنظيم حالة المنزل الرّثة. لقد رأى ذلك في سياج الدجاج الذي ظهر واضحاً من خلال زجاج النافذة المحطَّم، وفي جدار المطبخ وسقفه المسودَّين، وفي المِلاط المتقشّر، وفي ياقة كنزتها المرمَّمة وكمّيها.

قالت: "إذا كنت مُتعَباً، يمكنك الذهاب إلى السرير، لا تنتظرني".

انسحب إلى غرفته، معتبراً الأمر صَرفاً مهذّباً - غرفتها، قال لنفسه، شاعراً بالذَّنْب - وجلس وهو يُصغي إلى الضجيج الصادر من الناحية الخلفية من المنزل، محاولاً أن يحزر ما الذي تقوم به.

قبل ذهابها إلى السرير، تذكرت دينا فتح صنبور المطبخ كي يوقظها خرير المياه. واستلقت مستيقظةً لفترة طويلة، مفكرةً في نزيلها. كان الانطباع الأول جيداً. فهو لم يبدُ صعب الإرضاء مطلقاً، بل بدا مهذّباً. سلوكه جيّد، وهو هادئ. ولكنه مُتعَب اليوم ليس إلا، وقد يزداد كلامه غداً.

لم ينم مانيك بشكل جيد. لقد استمر الهواء في إغلاق إحدى النوافذ وفتحها بقوة، وشعر بأنه غير واثق من إمكانية نهوضه للتحقق من الأمر مخافة تعثّره بشيء ما في الظلام، وإزعاج السيدة دلال. فرفع رأسه واستدار، وظلّت أفكار تراوده عن نُزل الكلّية. لقد فررتُ أخيراً، قال لنفسه. ولكن، كان من الأفضل له الذهاب مباشَرةً إلى المنزل...

كان يستيقظ باكراً، وغدا الصنبور ساعته المنبِّهة أيضاً. بعد تنظيفه أسنانه، كان يعود

إلى غرفته للقيام ببعض التمارين الرياضية لعضلات الذراعَين والكتفَين مرتدياً ملابسه الداخلية فقط، غير مُدرك أن دينا تقوم بمراقبته عبر الباب المفتوح جزئياً بعد إنهاء أعمالها في المطبخ.

كانت مُعجَبة بعضلة مؤخِّر العَضُد لديه الشبيهة بحدوة الحصان، وبظهورها واختفائها في أثناء نزوله وصعوده. كنتُ مُحقّة ليلة أمس، قالت لنفسها، بشأن ذراعَيه القويّتَين. ويا له من جسد جميل! ومن ثم احمرّ وجهها مُربَكة. وابتعدت عن الباب.

"صباح الخير، يا خالتي".

فالتفتت بحذر، وشعرت بالارتياح لدى رؤيته مرتدياً ملابسه. "صباح الخير، يا مانيك. هل نمتَ جيداً؟".

"أجل، شكراً".

أرشدته إلى الحمّام، وكيفية استخدام مُسخِّن الماء، ومن ثم غادرت. فأغلق الباب لخلع ملابسه، متنقلاً بحذر في المكان الصغير غير المألوف. كان البخار يخرج من الماء الساخن في الدلو. فاختبر مدى سخونته بأطراف أصابعه، وغمس يده بعد ذلك حتى المِعصم، مغتبطاً بالحرارة. لقد ذكّره الأمر بالبخار الخارج من الماء في قريته في يوم رطب من أيّام الرياح الموسمية عندما تكون السُّحب سميكة جداً، ويغمر الضباب الحار الجبال.

كان باستطاعته تخيُّل الأمر لدى إغماض عينَيه: في هذه الساعة، تكون هناك دوّامات من الضباب أشبه بالخيال حول القمم المغطاة بالثلوج. والوقت الأفضل لمشاهدة رقصة الثلج يكون بعد الغسق مباشَرةً، وقبل اشتداد حرارة الشمس المبدِّدة للضباب. فيقف عند النافذة، ويشاهد شروق الشمس بلونَيها الزهريّ والبرتقالي، ويتخيّل الضباب وهو يدغدغ أُذُن الجبل، أو يربّت تحت ذقنه، أو يلوّح له بقبّعته.

ويسمع بعد ذلك الأصوات المألوفة الصادرة من الطابق السفلي عندما يفتح والده المتجر ويخرج لكنس الرُّواق الخارجي. بادئ ذي بدء، يحيّي والده الكلاب التي أمضت الليل في الرُّواق. لم تكن الكلاب الشاردة تسبّب أي مشكلة بالنسبة إلى والده الذي توصل إلى تفاهم معها: يمكنها النوم هناك والاقتيات من الفضلات قبل أن تغادر في الصباح بطاعة تامة، وإن بتردد، لدى ظهور أوّل أضواء الصباح. في المطبخ، تحشو والدتي المغلاة بفحم أسود برّاق، وتملأ إبريق الشاي، وتقطّع الخبز، وتُبقي نظرها على جهاز الطبخ.

وعندما تُصدر الطنجرة هسيساً وتُخرج رذاذاً، تبدأ رائحة البيض المقلي الزكيّة

بالصعود إلى الطابق العلوي وصولاً إلى الشرفة. ويسلّم المبعوث المثير للشهية رسالة إلى مانيك ووالده. بعد ذلك، يغادر مانيك مشهد الضباب المتحرك ويُسرع لتناول الفطور، معانقاً والدَيه، وهامساً عبارة صباح الخير لكل منهما قبل أن يجلس في مكانه. كان لوالده كوب كبير خاص يتناول منه جرعات كبيرة من الشاي وهو لا يزال واقفاً. فهو يشرب على الدوام كوبه الأول واقفاً، ويتنقل في أرجاء المطبخ، محدِّقاً إلى الوادي في الصباح الباكر. وعندما يكون مانيك مريضاً بسبب الزُّكام أو لديه امتحانات في المدرسة، يُسمح له بالشرب من كوب والده الكبير بحيث إن مانيك يظنّ أنه لن يفرغ أبداً، ومع ذلك كان عليه الاستمرار في الشرب إذا أراد الفوز والكشف عن النجمة المنقوشة في أسفل الكوب، والتي يتبدل لونها بعد زوال آخر أثر للسائل، وهي تظهر وتختفي في أثناء تحريك الكوب...

هزّ مانيك رأسه لنفض الماء عن جبينه، وحاول إقفال الصنبور الراشح، محدّقاً إلى دوّامات البخار التي تشكل هالة فوق دلو الماء الساخن، وهو شارد الذهن. لقد جعلته مخيّلته المشتاقة إلى القرية يرى مجدداً التلال الطافية على الضباب. فتنهّد، ووقف على الدرجة العالية المحيطة بمنطقة الاستحمام، وعلّق ملابسه على مسمار شاغر بجانب منشفته. كانت هناك حمّالة صَدر معلّقة على المسمار الثالث، ويوجد وراءها شيء آخر مُحاك بخيوط خشنة وقوية على غرار قفّاز لا إبهام له. فتناوله لتفحّصه، شاعراً بالفضول، واكتشف أنه قفّاز للاستحمام. ونزل عن الدرجة، والتقط الوعاء الصغير لغرف الماء من الدلو وسكبه على جسده.

حينئذٍ، رأى الديدان، فتذكّر اسمها الذي درسه في صف عِلم الأحياء. كانت وَتَريّةَ الشكل وحمراء داكنة، تزحف خارج البالوعة بأعداد كبيرة، وتتلألأ على الأرض المرصوفة بحجارة رمادية، وتتقدم في أثناء انزلاقها ببطء. فتسمّر مانيك في مكانه للحظات قبل العودة إلى أمان الدرجة.

* * *

قبل أسابيع، عندما علمت دينا أن النزيل الذي وجدته زنوبيا هو ابن فتاة كانت قد ارتادت المدرسة معهما، لم تتمالك نفسها من العودة بالذاكرة سنوات إلى الوراء لتخيّل وجهها.

تذكّرت زنوبيا: "كانت لديها شامة على ذقنها، وأنفها معقوف قليلاً. بالرغم من ذلك، أظن أنها كانت تبدو ظريفة".

هزّت دينا رأسها، غير قادرة على التذكر.

"هـل تملكيـن صـورة لتلاميـذ الصـف للعام... لنـرَ"، وعدّت زنوبيا علـى أصابعها، "1946، 47، 48، 49؛ هذا هو، إنه العام 1949".

"لم يعطِني نوسوان المال لشرائها. هل نسيتِ كيف غدا شقيقي بعد وفاة والدي؟".

"أجـل، أعلـم. مجـرد بائـس جعلك ترتدين تلـك البذلات الرسـمية، وتنتعلين تلك الأحذية الثقيلة والقبيحة. يا لك من بائسة! يُغضبني ذلك حتى بعد كل تلك السنوات".

"وبسببه، فقدت اتصالي بالجميع؛ باستثنائك".

"أجل، أعلم ذلك. لم يكن يسمح لك بحضور الحفلات الموسيقية أو المسرحيات أو رقص الباليه أو أي شيء آخر".

واسـتمتعتا طوال ذلك المسـاء باسـتعادة الذكريات، والاسـتهزاء بحماقات ماضيَيهما ومآسـيهما. وغالباً ما كان ينتابهما قليل من الحزن في غمرة الضحك لأن هذه الذكريات تعود إلى شـبابهما المنقضي. وتذكّرتا مدرّسـيهما المفضّلين، والمديرة الآنسـة لامب، التي كانت تنادى باسم لامبريتا بسبب اندفاعها المستمر في الردهات. واحتسبتا عمرهما عندما بدأتـا بتعلـم اللغـة الفرنسـية في الصف السـادس على يد المدرسـة الفرنسـية التي لقّبتاها بالآنسـة بولـدوغ لأنهـا كانـت تروّع حياتهمـا ثلاث مرات في الأسـبوع. وافترض الجميع أن اللقب دليل على قسـوة التلميذتَين، ولكنها اسـتحقته بسـبب فكَّيها الكبيرين وأسـلوبها المشاكس عندما يتعلق الأمر بالأفعال المخالفة للقواعد والإعراب.

بعد مغادرة زنوبيا، وضعت دينا نصف كوب من الأرزّ، وأزالت الحصى منه، وغلت الماء. لقد استعانت بضوء النهار لأطول فترة ممكنة، وأضاءت مصباح المطبخ بعد ذلك. ومن خلال النافذة المفتوحة، سمعت والدةً تنادي أطفالها طالبةً منهم دخول المنزل. بعد ذلك، دخلت رائحة البصل المقلي. لقد بدأ وقت الطهو في كل مكان.

فـي أثنـاء طهـو الأرزّ، كانـت دينـا تفكر في أن تذكّر أيامها المدرسـية أمر ممتع. إنّه أفضل من التفكير طويلاً بشـؤون الحياة والغرق في أحلام اليقظة التي كانت مرتبطة في الفترة الأخيرة بنوسوان وروبي، ومنزل والدها، وابنَي شقيقها، كزرسس وزارير، اللذين باتا رجلَين ناضجَين في الثانية والعشـرين والتاسـعة عشـرة من العمر، ونادراً ما كانت تراهما أكثر من مرة واحدة في العام.

بعـد العشـاء، جلسـت بجانـب النافذة تراقب بائـع البالونات في الجهـة المقابلة من الطريق وهو يُغوي الصغار المارّين قربه. وفي مكان ما، سمعت الشارة الموسيقية المرتفعة لبرنامج من اختيار الناس تبثّ عبر جهاز راديو. إنها الثامنة، قالت دينا لنفسها، عندما قدّم

صوت فيجاي كوريا الأغنية الأولى. وعملت على لحافها لمدة ساعة تقريباً. وقبل اللجوء إلى السرير، نقعت ملابسها بالماء والصابون وتركتها في الدلو بانتظار غسلها في صباح اليوم التالي.

مرّت بها زنوبيا مرة أخرى في مساء اليوم التالي عندما كانت في طريق عودتها من فينوس بيوتي سالون إلى المنزل، وأخرجت مغلّفاً كبيراً من حقيبة يدها، وقالت: "هيا، افتحيه".

هتفت دينا بسرور: "إنها صورة الصف".

قالت زنوبيا بلهفة: "انظري إلينا كلّنا، لا بد من أننا كنا في الخامسة عشرة من العمر". وأشارت إلى الفتاة في الصف الثاني.

"أجل، أتذكرها الآن. آبان سوداوالا. بالرغم من ذلك، يمكنك رؤية شامتها الجميلة في هذه الصورة".

"كم كانت الفتيات يضايقنها بسببها. وتلك القصيدة الخسيسة التي نظمتها إحداهنّ، هل تتذكرين؟ لا جاذبية لآبان سوداوالا، إنها تحتاج إلى الصودا لتنظيف وجهها".

"هل ترين الشامة فوق ذقنها، لقد أزالتها بدبوس مستدق الرأس"، أضافت دينا؛ "كم كنا غبيات آنذاك لقول ذلك الهراء".

"أعلم. وفي سن السادسة عشرة، حاولت الكثيرات منا وضع شامة اصطناعية مماثلة لشامتها. ألم نكن غبيات لدى محاولتنا رسمها".

نظرت دينا إلى الصورة بتمعّن مجدداً للحظات. "أتذكّرها بوضوح أكبر في الصف الرابع عندما كنا في الثامنة أو التاسعة من العمر. كنا ثلاثتنا نلازم بعضنا باستمرار. هي التي كانت تجيد القفز على الحبل بشكل ممتاز، أليس كذلك؟".

"أجل، بالتحديد". سُرّت زنوبيا بسبب قيام صلة وثيقة بالماضي في النهاية.

واصلتا الحديث عن حنينهما إلى الماضي من حيث توقفتا في اليوم السابق: الألعاب التي مارسنَها خلال العطلتَين القصيرة والطويلة، ومتعة ضفر شعر إحداهنّ الأخرى، مقارناتٍ بين الشرائط، ومتبادلاتٍ مشابك الشعر. وكيف كنّ يحنين أكتافهنّ عندما بدأت نهودهنّ بالنموّ لتقليص ظهور الأجزاء الناتئة المُحرجة، أو يرتدين السُّترَ الصوفية، حتى في الحر الشديد لإخفائها، ومناقشة دوراتهنّ الشهرية، والسير بشكل غير عادي عندما كنّ يستعملن الفُوَط الصحية. ومن ثم شعورهنّ عندما كنّ يتخيّلن أصدقاء يقبلونهنّ، وحلمهنّ بنزهات رومانسية تحت ضوء القمر في الحدائق.

أكثر ما أدهش دينا وزنوبيا هو أن الفتيات عرفنَ كل شيء عملياً عن حياة إحداهنّ

الأخرى طوال سنواتِ براءتهنّ المروِّعة. قالت زنوبيا: "بعد ذلك، توفّي والدك، ولم يسمح لك شقيقك ذاك بأن تكون لك أي صديقات. ولكنك تعرفين أنك لم تُغفلي الكثير؛ فبعد العام النهائي، انقطع اتصال معظمنا بالزُّمرة على أيّ حال".

فبعد التخرج من المدرسة الثانوية، تعيّن على بعض رفيقاتهنّ العمل بسبب فقر عائلاتهنّ. وواصلت أخريات دراستهنّ في الكلّية، في حين أنه لم يُسمح لبعضهنّ بذلك لأن الكلّية قد تُفسد الزوجات والأمهات العتيدات؛ لذا، أُبقينَ في المنزل للمساعدة في المطبخ. وإذا لم تكن لديهنّ شقيقات أصغر سنًّا لارتداء الكنزات والمآزر الخاصّة بالمدرسة، فقد حوّلت إلى قِطع قماش للاستخدام المطبخي؛ لمسح أجهزة الطبخ أو لحمل أوعية وطناجر ساخنة. وعندما تلتقي التلميذات السابقات مجدداً بشكل عَرَضي، يكنّ غامضات لا بل أيضاً متكتمات، ويشعرنَ بالحرَج من كيفية تمضيتهنّ أيامهنّ كما لو أنهنّ متواطئات في المشاركة بخيانة جماعية لصباهنّ وطفولتهنّ. لم تعُد معظمهنّ يعرفنَ شيئاً عن حياة إحداهنّ الأخرى.

قالت زنوبيا: "كنتِ الوحيدة التي بقيتُ على اتصال بها. أنت وآبان سوداوالا، بالطبع".

أكملتا قصة زمالتهما المدرسية: بعد فترة قصيرة من قبول آبان في الجامعة، عرّفها أصدقاء العائلة إلى شخص يدعى فاروخ كولاه كان يزور المدينة، ولديه أعمال في الشمال البعيد في قرية جبلية. فوافقت عليه عائلة سوداوالا على الفور. يا لطول قامة السيد الشاب ووقفته المستقيمة! قال السيد سوداوالا، ويا لسلوكه الحسن! كل ذلك بفضل الحياة في الجبال. ولكن لون بشرة الشاب الفاتحة هو ما ترك انطباعاً في نفس السيدة سوداوالا. ليس كشبح أوروبي، أخبرت صديقاتها، بل إنّه أشقر وذهبيّ البشرة.

نظراً إلى إمكانيات نجاح الزواج، أمضت عائلة سوداوالا إجازة تكتيكية في العام التالي في القرية الجبلية. وفي الوقت المحدد، نجمت عن الاستراتيجية النتائج المرجوّة. فقد وقعت آبان في غرام فاروخ كولاه والجمال الطبيعي للمكان، وتزوّجت بعد ذلك واستقرت هناك.

قالت زنوبيا: "ما زالت تراسلني مرة واحدة في العام من دون توقف، بهذه الطريقة عرفتُ أنها تبحث عن غرفة لابنها".

قالت دينا: "هذا من حسن حظي. شكراً لكل مساعدتك".

"لا عليك. ولكن الله وحده يعلم كيف تمكّنت آبان من العيش طوال هذه السنوات في بلدة جبلية صغيرة، سيّما وأنها وُلدت وترعرعت في مدينتنا الجميلة. صِدقاً، لو كنت

مكانها لجُننت".

قالت دينا: "إذا كان لديهما عملهما الخاص، فلا بد من أنهما ثريّان".

كانت زنوبيا متشككة حيال هذا الأمر. "ما مدى الثراء الذي يمكنك تحقيقه في هذه الأيام من خلال متجر صغير في مكان جبلي صغير؟".

* * *

كانت عائلة مانيك ذات مرة فاحشة الثراء. إذ كان لديهم حقول ذرة، وبساتين تفاح ودرّاق، وعقد مُربح لتزويد القواعد العسكرية الدائمة على امتداد الحدود بالمؤن؛ كل ذلك كان من ضمن إرث فاروخ كولاه الذي اعتنى به خير عناية، جاعلاً إياه يزداد ويتضاعف لأجل المرأة التي سيتزوجها والابن الذي سينجبه.

لكن، قبل وقت طويل من تلك الولادة التي تمّ انتظارها بلهفة، كانت هناك ولادة أخرى أكثر تضرّجاً بالدماء عندما انبثقت دولتان من دولة واحدة. لقد رسم أجنبيّ خطاً على الخارطة، ودعاه الحدود الجديدة التي أصبحت نهراً من الدماء فوق الأرض. فاختفت البساتين، والحقول، والمعامل، والمؤسسات القائمة في الجانب الآخر بتلويحة واحدة.

بعد عشر سنوات، ولدى ولادة مانيك، كان فاروخ كولاه الواقع في شرك التاريخ لا يزال يسافر بانتظام إلى دور القضاء في العاصمة لأجل مخطط التعويضات الحكومية، في حين كانت الملفات تُنقَل من مكان إلى آخر، وينتقل الدبلوماسيون من هذا البلد إلى الآخر. وبين رحلة وأخرى، كان يساعد زوجته على إدارة متجرهما العام قديم الطراز في البلدة. فالمتجر هو كل ما تبقى من ثروته الطائلة بعد أن نجا من التبدلات الخرائطية التي طالت الجانب الأيمن من ذلك الخط السحري.

على مرّ السنين، تراجعت أرباح المتجر وأصبح نادياً اجتماعياً أكثر منه مؤسسة تجارية. كان الدخل الحقيقي متأتياً من تلك المصادر الأخرى المفقودة، ولكن المتجر أصبح المصدر الوحيد للرِّزق.

أصبحت آبان كولاه المديرة للمتجر العام، وقالت لزوجها: "باستطاعتي تدبّر شؤون المتجر بسهولة، لديك أمور أكثر أهمية لتقوم بها".

فوُضع سرير طفل وراء المنضدة لتضمن وجودها بالقرب من طفلها. كانت تطلب البضائع، وتدوّن الحسابات، وتضع السلع على الرفوف، وتخدم الزبائن، وتستمتع في أوقات الفراغ بمنظر الوادي الرائع من الناحية الخلفية للمتجر. إن الحياة في الجبال تناسبها تماماً.

لقد قلق فاروخ كولاه في بادئ الأمر من افتقاد زوجته إلى المدينة، وإلى أنسبائها، وخشي من شروعها بالتذمّر بعد أن يصبح المكان غير العادي بنظرها مألوفاً بالنسبة إليها. وثبت في النهاية أن لا حاجة إلى قلقه؛ فلقد ازداد حبها للمكان مع مرور الوقت.

بعد وقت قصير، لم يعد المهد يتّسع لمانيك الذي بدأ يدبّ حول المنضدة، ويمشي بخطوات غير ثابتة بين الرفوف. كانت السيدة كولاه يقظة تماماً مخافة قيام الفتى بإسقاط أغراض على رأسه، أو تحطيمها. ولكن، كلما تعيّن عليها إدارة ظهرها، كانت الزبونات يتولين مهمة مساعدتها على الاهتمام به، فيلاعبنَه، ويُلهينَه بالقِطع النقدية وحلَقات المفاتيح، أو بالألوان البرّاقة للفاعاتهنّ المصنوعة يدوياً. "مرحباً، يا بابا! تينغ - تينغ! بابا، أكوو!".

وعندما أصبح في الخامسة من عمره، كان مانيك فخوراً بمساعدته والدَيه في المتجر، فيقف وراء المنضدة وشعره الأسود يكاد لا يُرى من فوق الحافة، منتظراً سماع طلب الزبون. يقول: "أعرف مكانه! سأُحضره!". ويركض لإحضار السلعة تحت الأنظار المُحبّة للسيدة كولاه والزبونة.

بعد دخوله المدرسة في العام التالي، استمر في مساعدة والدته في المتجر في المساء. لقد ابتكر نظامه الخاص للزبائن الدائمين، وكان يُعدّ مجموعة مشترياتهم اليومية - ثلاث بيضات، رغيف خبز، علبة زبدة صغيرة، بسكويت - وينتظر عند المنضدة في الوقت المتوقَّع لوصول كل منهم.

قال السيد كولاه بفخر: "انظر إلى ابني ذاك، إنه في السادسة من عمره فقط، ويا لمبادرته ومهارته التنظيمية!". كان يستمتع بمشاهدة مانيك وهو يرحّب بالمتسوّقين، ويتبادل أطراف الحديث معهم، واصفاً مجموعة السعادين النحيلة وطويلة الذيل التي رآها من حافلة المدرسة في الصباح، أو مشاركاً في الحوار الذي يتناول جفاف الشلال. واكتسب مانيك الأسلوب المتساهل الذي يمتاز به سكان البلدة، سيّما وأنه وُلد وترعرع فيها، وسُرّ والده بسبب تواصله الجيد مع الجميع.

أحياناً، عند الغسق، وخلال الحركة الناشطة في المتجر، كان السيد كولاه ينسى تقريباً ما تكبّده من خسائر وهو مُحاط بزوجته وابنه وزبائنه، وأصدقائهم وجيرانهم. أجل، كان يقول لنفسه آنذاك، أجل، لا تزال الحياة جيدة.

كانت عائلة كولاه تبيع الصحف، وأنواعاً عديدة من الشاي، والسكّر، والخبز، والزبدة، إضافةً إلى الشمع، والمخلّلات، والمصابيح، واللمبات الكهربائية، والبسكويت، والبطانيات، والمكانس، والشوكولاته، واللفاعات، والمظلات، إضافةً إلى الألعاب،

والعُكازات، والصابون، والحبال، وغيرها. لم تكن هناك تشكيلة كبيرة في لائحة الموجودات؛ فقط بِقالة أساسية، ولوازم منزلية، وقليل من الكماليات.

لقد أدى الأسلوبُ التجاري العادي المتَّبع إلى أن يكون متجر عائلة كولاه المتجر المفضَّل لدى السكان المحليين وسكان المستوطنات المجاورة. فإذا لم يكن باستطاعة أحدهم شراء علبة كاملة من البسكويت مثلاً، لم تكن السيدة كولاه تجد مشكلة في فتح العلبة وبيع نصفها؛ كانت على ثقة تامة بأن شخصاً آخر سيشتري النصف الآخر. وإذا لم تكن سلعة معيَّنة متوافرة لديهم، يقوم السيد كولاه بطلبها بسرور ما دام غير مقيَّد بموعد محدَّد لتسليمها. أمّا إذا كان موعد التسليم حساساً، فلم يكن باستطاعته تدبّر الأمر لأن التسليمات تعتمد على الطرقات، والطرقات تعتمد على الطقس، والكل يعلمون أن الطقس لا يمكن توقّعه. كانت الصحف الصباحية تصل عادةً في المساء الباكر، فيتجمع الزبائن الدائمون تحت سقيفة المدخل للتدخين أو لارتشاف الشاي ومناقشة الأخبار التي سمعوها، ناقلين للسيد كولاه بصوت عالٍ العناوين إذا كان مشغولاً داخل المتجر.

بالرغم من لائحة الموجودات الواسعة في المتجر، فإن صيغة المشروب غير الكحولي السرّية، التي تناقلتها عائلة كولاه طوال أربعة أجيال، كانت تشكل العمود الفِقري للمتجر. كان هناك معمل صغير في قَبو المؤونة حيث تُمزج هذه المشروبات، وتعرَّض للهواء، وتوضع في قنانٍ. ويقوم المساعد بغسل القناني الفارغة وإعدادها، ويملأ الصناديق بالقناني لتسليمها. وللمحافظة على سرّية الصيغة، يقوم السيد كولاه بعملية المزج والتصنيع بنفسه؛ وخير دليل على ذلك الضمادة التي كانت موضوعة على عينه، لتُغطي ثُقباً أحدثته قنّينة فيها عيب انفجرت تحت تأثير الضغط الناجم عن الكَربَنة.

كان قد صعد إلى الطابق العُلوي حيث توجد زوجته، واضعاً منديلاً على عينه. لم يكن عامٌ واحد قد مرّ بعد على زواجهما، وكانت أزمتهما الأولى. هل تبكي وتصرخ، أم يُغمى عليها، أو تبقى متماسكة؟ كان فضولياً لمعرفة رد فعلها بقدر قلقه على عينه.

لقد بقيت آبان كولاه هادئة ومتماسكة، وكانت في الشهر السابع من حملها. "يا فاروخ، هل تريد أولاً جرعة صغيرة من الشراب؟". فقال أجل. أعطته رشفة صغيرة، واصطحبته بعد ذلك إلى المستشفى في أسفل الوادي. قال الطبيب إنه محظوظ لبقائه على قيد الحياة؛ فلقد حالت نظارته دون بلوغ المقذوفة الزجاجية دماغه، ولكن من المستحيل إنقاذ عينه.

فقال السيد كولاه إنه بخير: "عين واحدة تكفيني لرؤية الأشياء". وابتسم، لامساً بطن زوجته المنتفخ. ولكنه أضاف قائلاً إن بشاعة العالم لن تزعجه إلا بمقدار النصف.

رفض وضع عين زجاجية بعد شفاء تجويف العين. وأصبحت ضمادة العين جزءاً من حلّته اليومية يضعها في أثناء العمل في المتجر وفي المناسبات الاجتماعية. مع ذلك، وفي أثناء نزهاته المسائية الطويلة في الغابة عند سفح التلة، كان يضع الضمادة في جَيبه في أثناء تأمّله للمرة المئة في جمال المكان، ماضغاً جزرة.

لقد مكّنه فقدان عينه من التساهل مع ولعه بتناول الجزر. كان في السابق يخضع لرقابة السيدة كولاه التي تقول إن أي نوع من الهوَس أمر سيّئ بالرغم من فوائد الجزر. ولكن، بات يتعيّن عليها بعد الحادثة السماح له بإطلاق العنان لشهوته: عصير الجزر، سلطة الجزر، وضع جزر في جَيبه في أثناء السير مع رفاق له.

أصرّ السيد كولاه: "أنا بحاجة إلى الجزر، يجب أن تبقى عيني الوحيدة سليمة أكثر من أي وقت مضى. عليها القيام بمجهود مضاعَف".

علم ابنهما الصغير الذي يكبر بسرعة بولَع والده. فعندما يتم توبيخه بسبب إساءته التصرف، كان يقوم بسرقة جزرة من المطبخ ويحملها إلى والده دلالة على رغبته في إحلال السلام بينهما، ومجازفاً بتلقّيه توبيخاً آخر من والدته.

بعد الحادثة، بات السيد كولاه شديد الحذر في قبو المؤونة. لم يكن يسمح لأحد بالتواجد في ذلك المكان عندما تقعقع الآلات القديمة وتهسهس، مالئاً القناني بمشروب كولاز كولا الفوّار، ودرج النقود برنين المال الذي هو في أمسّ الحاجة إليه.

لقد أبدى أصدقاؤه قلقهم على سلامته عن طريق المُزاح. "حذارِ، يا فاروخ، قد يكون الذهاب إلى تحت الأرض خطراً. فصناعة الكولا فيها مجازفة بقدر استخراج الفحم". ولكنه يضحك معهم ويتجاهل تلميحاتهم.

كانوا يُضحّون سرًّا لأجله، مقترحين عليه وجوب التفكير مليّاً باستبدال التجهيزات القديمة وتحديث العملية وتوسيعها، فيحثّونه قائلين: "اسمع، يا فاروخ، انظر إلى الأمر بعقلانية. كولاز كولا ممتاز، ويستحق اكتساب شهرة في كل مكان في البلاد وليس في زاويتنا الصغيرة".

لكن العصرنة والتوسّع فكرتان أجنبيّتان غير مفهومتَين من قِبل البعض الذين يرفضون الحملات الإعلانية. ولقيت كولاز كولا (أو كايسي، كما عُرفت) رواجاً في المستوطنات الصغيرة كافة الجاثمة على سفوح التلال على امتداد أميال. لقد كانت ثقة الزبائن كافية بالنسبة إلى أسلافه، كما قال، وهي لا تزال كافية بالنسبة إليه.

من حين لآخر، كان المتنافسون يطلقون أبواقهم، مروّجين لماركات منافسة سرعان ما كانت تخرج من السوق بسبب عدم قدرتها على منافسة منتَج عائلة كولاه. لا يمكن

لأي منتَج أن يضاهي كايسي، كان الأنصار يقولون ذلك؛ إذ كانت نكهته اللذيذة فريدة كالهواء في الجبال. وازدهر المشروب غير الكحولي والمتجر العام.

هكذا، عندما بدأ مانيك بارتياد المدرسة، كان العمل في حالة سليمة، وكان السيد كولاه يحمي الصيغة التي أنقذت رِزقهم في انتظار اليوم الذي يتمكن فيه من الكشف عنها لمانيك، كما كشف له والده عنها. وأحاط حياتَه شعور بالرضى والاعتداد بالنفس بسبب تخطيه المحنة. لقد ظهر ذلك عندما تجمّع الجيران في المساء، وانتقل الحديث رويداً رويداً إلى أزمنة مضت، إلى قصص عن حياتهم؛ وعندما حان دور السيد كولاه، أخبرهم عن أيام المجد التي شهدتها عائلته، ليس من منطلَق الإشفاق على النفس أو التعبير عن عظمة كاذبة، وليس للتغنّي بإنجازاته الخاصة، بل استخلاصاً للعِبر من الحياة اليومية على خط الحدود؛ خرائط جديدة يمكن أن تدمّر حياته ولكنها لا تستطيع إلغاء ما يحلم به لأجل عائلته.

بالطبع، لقد سُمعت كل القصص من قَبل ولمرات عدة. ولكن، هناك على الدوام استعداد لسماعها مرة أخرى. والسيد كولاه ليس الوحيد المتهَم بالتكرار.

فمعظم أصدقائه وأصدقاء السيدة كولاه جنود، وقد اختارت زوجاتهم اللواتي اعتدنَ الحياة في قواعد عسكرية على الطريقة البريطانية اللجوءَ إلى التلال، عاجزات عن العودة إلى السهول المغطاة بالغبار والمدن كريهة الرائحة. فهنّ لديهنّ أيضاً قصص يروينها عن أيام ماضية عندما كان الانضباط انضباطاً وليس نسخة ملطَّفة عن انضباط غير جدير بحمل هذا الاسم؛ عندما كان باستطاعة القادة ممارسة القيادة، وعندما كان الجميع يعرفون مواقعهم؛ عندها، كانت الحياة تستمر بطريقة نظامية من دون التعرّض لتهديد يومي بالفوضى الشاملة.

عندما يأتي أولئك الضباط برتبة عميد أو رائد أو عقيد لتناول الشاي في متجر كولاه، كانوا يَصلون ببذلاتهم وأحذيتهم، واضعين ساعات في عُروات حلقاتِ حاملاتِ المفاتيح، وربطاتِ عُنُق حول أعناقهم. قد لا تبدو هذه الزخارف هزلية بالنسبة إلى شخص ذي نزعة قومية، ولكن لها قيمة طلسمية لمرتدِيها. فهي تحول بينهم وبين الفوضى الوشيكة. والسيد كولاه نفسه مولَع ولعاً شديداً بربطات العُنُق على هيئة فراشة. قدّمت السيدة كولاه الشاي في خزَف عَظمي من ماركة أنسلي، وكانت أدوات المائدة من ماركة شفيلد. لو كان ذلك العشاء عشاءً خاصاً في نافروز أو كورداد لاستخدَمت مجموعة ويدجوود.

قالت السيدة غريوال: "يا له من تصميم زخرفي جميل! متى سيتعلمون صناعة أشياء جميلة في هذا البلد؟".

فالعميد والسيدة غريوال هما جارا السيد والسيدة كولاه اللذان تربطهما بهما علاقة وثيقة، وغالباً ما يقومان بزيارتهما على نحو غير متوقَّع. والسيدة غريوال قائدة زوجات الجنود التي لا تلقى أي معارضة. فبعد تلقّي الإشارة منها، قامت إحداهنّ بالضرب على كوب الكريستال بِرِفق لاختبار نقاء موسيقاه؛ وقلبت أخرى طبقاً رأساً على عقِب للتحديق بوِدّ إلى شعار المصنّع. وأُغدقَ بالمديح على الطعام والأطباق والصحون الخشبية التي تحملها، وبالتساوي. لقد تُركت الفوضى الشاملة في وضع يائس ليوم إضافي آخر.

في وقت لاحق، تبدّل موضوع الحديث - كما كان يحدث في السابق مراراً وتكراراً - ليتناول الكابوس الذي يلازمهم حتى نهاية أيامهم؛ لقد حلّلوا التقسيم، وسردوا الأحداث وفقاً لترتيبها الزمني، وحزنوا على المذبحة التي لا تميّز أحداً. وتساءل العميد غريوال ما إذا كان بالإمكان إعادة توحيد الجزءَين المشطورَين ذات يوم. فأشار السيد كولاه إلى ضِمادته وقال إن كل شيء ممكن. كالعادة، وجدوا العزاء في انتقاد المستعمرين الذين غادروا على عجَل من دون التوصل إلى تسويات ملائمة، عِلماً أن مرحلة ما بعد الانسحاب امتازت بطابع الحنين إلى الأيام الغابرة.

بعد أمسيات مماثلة، كان السيد كولاه يتساءل عن سبب تكدّر مشاعر الرضى لديه؛ كما لو أن شخصاً ما أو شيئاً ما يحاول التلاعب به. كان يستمتع جداً بوجبات العشاء وحفلات الشاي، ولا يتغيّب عن أيّ منها. ومع ذلك، كان هناك شعور بالقلق كما لو أنها رائحة لا يُفترض وجودها، أو رائحة شيء متعفّن.

كان يتطلبه الأمر يوماً أو يومَين لاستعادة توازنه. وبعد ذلك، يشعر مجدداً بأنه اتخذ القرار الصائب بعدم مغادرة منزله على التلال لأنه لا يزال مكاناً جيداً لعائلته. "الهواء والماء نقيّان جداً، والجبال رائعة الجمال، والعمل بخير". كتب والسيدة كولاه للأنسباء الذين كانوا يطالبونهما بالمغادرة بشكل دَوري: "لا يوجد مكان آخر يحقق لمانيك آماله المستقبلية".

فلو استُشير مانيك لوافق تماماً، ليس بسبب المستقبل بل بسبب الحاضر وعالم طفولته السعيدة. فأيامه مليئة بالأحداث ومسلّية؛ المدرسة في الصباح وبعد الظهر، ومن ثم المتجر العام، يلي ذلك نزهة مع والده في وقت متأخر من بعد الظهر يمشي خلالها بخطى واسعة وثابتة للّحاق به، وإلا سخر منه والده قائلاً إن المدربين البطيئين يتخلّفون عن الآخرين.

لكن أيّام الآحاد كانت أفضل الأيام. ففيها يحضر رجل يدعى بانو لترتيب الحديقة وراء المنزل. كان مانيك يتطلّع طوال الأسبوع ليكون برفقة بانو في الخارج، فيتجوّل في

أرجاء الملكية، ويقوم بمهام روتينية تحت إشرافه. والمنطقة القائمة وراء الياردات الخمسين الأولى، حيث تبدأ الأرض بالانحدار باتّجاه أسفل التلة مع ما تحتويه من شُجَيرات وأشجار ونباتات، هي الأكثر إثارة للاهتمام. هناك، علّمه بانو أسماء أزهار وأعشاب غريبة، وأشياء لا تنمو قرب الناحية الأمامية من المنزل مع الورود والزنبق والأُقحوان الأصفر. فأشار إلى نبتة الداتورا السامة وإلى النبتة التي تحمل الترياق الشافي، والأوراق التي تخفف من تأثير سمّ بعض الأفاعي، وأخرى تُشفي أمراض المعدة، والجذوع التي يبلسم لبّها الجراح والإصابات. وعلّم مانيك كيفية عصر نبتة فم السمكة لفتح فكَّيها. وفي أواخر العام، عندما يصبح الطقس بارداً، كانا يقومان بجمع غُصينات وأغصان يابسة قُبَيل انتهاء فترة بعد الظهر ويُضرمان ناراً صغيرة.

أحياناً، كان بانو يصطحب معه ابنته، سُرَيّا، وهي بعمر مانيك الذي كان يقسّم وقته حينذاك بين المهام الروتينية واللعب. وعند الظهر، تنادي السيدة كولاه الطفلَين لدخول المنزل وتناول الغداء. كانت سُرَيّا تخجل من تناول الطعام وهي جالسة إلى المائدة؛ إذ لم تكن هناك كراسٍ في منزلها. لقد تطلّبها الأمر القيام بعدد قليل من الزيارات قبل أن تجد الجرأة للركض مع مانيك إلى الداخل والجلوس في مكانها من دون تردد. واستمرّ بانو بتناول طعامه في الخارج.

بعد ظهر أحد الأيام، جلست سُرَيّا القرفصاء على المنحدر البعيد بين الشُجَيرات. فبقي مانيك بعيداً عن الأنظار للحظات، وتبعها بعد ذلك شاعراً بالفضول. فابتسمت في أثناء اقترابه. وسمع هسهسة ناعمة، فانحنى لينظر. لقد أحدث دَفقُها بركةً مُزبِدة.

ففك أزرار سرواله قربها وأطلق قوساً سائلاً وقال: "باستطاعتي القيام بذلك وأنا واقف".

وحين أنهت ما تقوم به رفعت سروالها الداخلي ضاحكة، وقالت: "باستطاعة شقيقي أيضاً القيام بذلك".

مذاك الحين، اعتادا التوجه إلى الشُجَيرات كلما قدمت سُرَيّا إلى العمل مع والدها.

"ما الأمر؟"، سألت السيدة كولاه عندما دخلا لتناول الشاي. "لماذا تقهقهان طوال الوقت؟".

في أيام الآحاد القليلة التالية، كانت تراقب من نافذة المطبخ، وتراهما وهما ينزلان المنحدر حيث لا تتمكن عيناها من تعقّبهما. وفشلت محاولاتها في التسلل واستراق النظر إليهما. كانا يسمعان وقع خطاها قبل أن تقترب، ويفرّان ضاحكَين.

في وقت لاحق، أسرّت بارتيابها إلى السيد كولاه: "يا فاروخ، أظن أنه يجب عليك

مراقبة مانيك بينما تكون سُرَيّا هنا".

"لماذا، ماذا فعل؟".

"حسناً، إنهما يقصدان الشجيرات و..." واحمرّ وجهها، "لم أرَ شيئاً في الواقع، ولكن...".

"الوغد الصغير". ابتسم السيد كولاه. ويوم الأحد التالي، بقي في الحديقة ليُشرف على عمل بانو ويجوب محيط المنحدر. وأصبح الأمر جزءاً من روتينه طوال ذلك العام. كان يتعيّن على الطفلَين ممارسة كل ما لديهما من مَكر لتجنّب مراقبة الرجل البالغ لهما.

عندما أنهى مانيك الصف الرابع، بدأ السيد كولاه يتحقق من إمكانية إرساله إلى مدرسة داخلية. لقد تراجع مستوى التعليم في المدارس النهارية المحلية، وأقرّ العميد غريوال والجميع بذلك قائلين: "التعليم الجيد هو الأمر الأكثر أهمية".

المدرسة النهارية التي اختاروها كانت على بُعد ثماني ساعات بالحافلة. فَكَرِه مانيك القرار. لقد تسببت له فكرة مغادرة القرية الجبلية - وهي كل عالمه - بحالة من الذُّعر. قال مناشداً: "أحب مدرستي هنا. وكيف سأعمل في المتجر في المساء إذا أرسلتماني بعيداً؟".

"توقف عن القلق حيال العمل، أنت في الحادية عشرة من عمرك ليس إلا". وضحك السيد كولاه، ثم تابع قائلاً: "عليك الاستمتاع بصباك أولاً. سيكون من الممتع لك أن تعيش مع أشخاص في مثل سنّك. ستحب المدرسة، وسيبقى المتجر هنا عندما تعود إلى المنزل لتمضية أيام العُطَل".

تعلّم مانيك تحمّل المدرسة الداخلية، ولكنه لم يتعلّم أن يحبها، وشعر بألم الخيانة. فلم يكن يوم يمرّ من دون أن يتذكر المنزل، ووالدَيه، والمتجر، والجبال. لقد وجد زملاء الصف مختلفين جداً عن الفتيان الذين عرفهم من قَبل. فهم يتصرفون كما لو أنهم أفضل منه. ويتحدث الفتيان الأكبر سنّاً عن الفتيات.

عاد مانيك إلى المنزل لتمضية عطلة ديفالي، وانتظر مرور يومين قبل أن يحاول إقناع والدَيه بعدم إعادته إلى المدرسة. واستمر في ذلك حتى انزعج السيد كولاه قائلاً: "لا مزيد من الكلام عن هذا الموضوع".

ذهب مانيك إلى السرير من دون أن يتمنى لوالديه ليلة سعيدة. لقد شعر بالعذاب الناجم عن اللامبالاة، فأحدث لديه هذا الأمر فراغاً رفض النومُ مَلأه. وبعد منتصف الليل، فكر ملياً في الذهاب إلى غرفة والدَيه وتصحيح تمرّده الغبيّ. ولكن اعتداده بنفسه وخوفه من إغضاب والده أبقياه في سريره.

عند الفجر، عانق والدته بجانب جهاز الطبخ وقال لها متمتماً: "صباح الخير". وعانق بعد ذلك والده قرب نافذة المطبخ وجلس على كرسيّه. قال السيد كولاه مبتسماً: "ما زال صاحب السيادة متجهّماً".

فنظر مانيك إلى كوبه، مقطَّب الجبين. لم يشأ فقدان السيطرة على فمه والابتسام.

حلّ يوم الأحد وقدِم بانو كالعادة للعمل في الحديقة. لم تكن سُرَيّا برفقته. فتبعه مانيك لمدة وجيزة قبل أن يسأل عنها.

قال بانو: "إنها مع والدتها، ستلازمها منذ الآن فصاعداً".

فشعر مانيك بانهيار جزء آخر من عالمه، ولم يعد إلى الحديقة بعد الغداء. وأخذته السيدة كولاه جانباً وقالت له إنه من غير الجيد أن يقسو على والده الذي يحبه كثيراً. "ما يفعله، وهو إرسالك إلى مدرسة جيدة، لصالحك. لا يُفترض بك الظن بأنه عقاب".

في المساء، دعا السيد كولاه ابنه للجلوس بجانبه على الأريكة، وقال: "المدرسة الداخلية ليست إلى الأبد. تذكّر، والدتك وأنا نفتقد إليك أكثر مما تفتقد إلينا. ولكن، هل هناك خيار آخر؟ لا تريد أن تكون جاهلاً، وعاجزاً عن القراءة أو الكتابة، كأولئك المساكين الذين يمضون حياتهم في البرد والجوع مع عدد قليل من الخراف أو الماعز، وهم يناضلون لأجل البقاء. تذكّر، إن المدرّب البطيء يتخلف عن الآخرين. متى حصلتَ على شهادة التعليم الثانوي بعد ست سنوات أخرى، لن يرسلك أحد بعيداً. ستتولى مسؤولية المؤسسة".

فسمح مانيك لنفسه بالابتسام عندما أضاف والده، قائلاً: "في الواقع، كلما انقضت تلك الفترة بسرعة كان الأمر أفضل بالنسبة إليّ. إذ يمكنني حينذاك الاسترخاء والسير طوال اليوم".

في صباح اليوم التالي، وخلال تناول الفطور، أعطاه السيد كولاه الكوب الكبير المميَّز للشرب منه. بعد ذلك، تركه جالساً وراء آلة تسجيل النقود لإعادة الفكّة لزبائنهم. ولم ينسَ مانيك ذلك اليوم طوال العام الدراسي. فكلما شعر بالحنين إلى قريته ووالدَيه، كان يستعيد الذكرى السعيدة للتخفيف من وطأة قنوطه، ولإبعاد الأفكار القاتمة والوحدة.

* * *

بالرغم من هلعه من مدة السنوات الست التي بدت له أبديّة، مرّت ثلاث منها بسرعة ثابتة. وبلغ مانيك الرابعة عشرة من العمر، وعاد إلى المنزل في عطلة أيار/مايو.

في ذلك العام، قرر والداه تركه بمفرده لمدة يومين لحضور حفلة زفاف. وبدلاً

مـن إغـلاق المـكان وإرسـاله إلى منزل الجيران، قرر السـيد كـولاه معاملته معاملةً خاصة والسماح له بإدارة شؤون المتجر بنفسه.

قال: "قم بالأعمال بالطريقة التي نقوم بها عندما أكون موجوداً، سيسـير كل شـيء بسلاسة. لا تنسَ عدّ صناديق المشروب غير الكحولي التي يأخذها السائق. وأجرِ اتصالاً هاتفياً بشأن حليب الغد؛ إنه أمر هام جداً. إذا واجهتَ أي مشكلة، اتصل بالعم غريوال. لقد طلبت منه أن يعرّج عليك في وقت لاحق". وقام السـيد والسـيدة كولاه مرة أخرى بجولة في أنحاء المتجر مع مانيك، مذكّرين إيّاه، ومشيرين إلى أماكن السِّلع، ثم غادرا.

مرّ اليوم كأي يوم آخر. كان المتجر يشهد حركة ناشطة تليها فترة من الهدوء يقوم خلالها بمسح الصناديق الزجاجية، ورفع الغبار عن الرفوف، وتنظيف المنضدة. واستفهم الزبائن الدائمون عن سبب غياب والدَيه، وأثنوا على قدرته. "انظروا إلى الفتى، إنّه يحافظ على ترتيب الثكنة. هو يستحق ميدالية".

قـال العميـد غريـوال: "باسـتطاعة فـاروخ وآبان التقاعد غداً إذا أرادا ذلك، لا شـيء يدعوهما للقلق بتسلم الماريشال مانيك مسؤولية المتجر العام". وضحك الحاضرون بقوة.

في وقت متأخر من بعد الظهر، ساد الهدوء الساحة مع بدء اضمحلال ضوء النهار. فذهب مانيك لإضاءة مصباح الرُّواق، شاعراً بالفخر بسبب العمل الذي قام به خلال اليوم. كان الوقت قد ناهز موعد إقفال المتجر، وكل ما تبقى له هو إفراغ آلة تسجيل النقود، وعدّ المال، وتسجيل المبلغ على الدفتر التجاري. ونظر من الرُّواق إلى داخل المتجر، وتوقف قليـلاً. ذلـك الصنـدوق الزجاجي الكبير في الوسـط ومـا يحتويه من ألواح صابون وعلب البـودرة المعطَّـرة قـد يبدو أفضـل في الجهة الأمامية. وطاولة الصحـف القديمة المتمايلة بجانب المدخل، ألن يكون من الأفضل دفعها جانباً؟

لقد اقتنع مانيك بالفكرة، وسـيطرت على مخيّلته خلال تسـخين الطعام. فكلما فكّر في الأمر بدا له كما لو أنه عملية إعادة تنظيم ذكية للسـلع المعروضة. باسـتطاعته القيام بذلك بسهولة في المساء. كم سيكون الأمر مفاجئاً لوالدته ووالده عندما يعودان.

بعد تناول العشاء، عاد إلى المتجر المُظلم، وأضاء النور، ووضع الطاولة جانباً. كان التعاطـي مـع الصنـدوق الزجاجي الثقيل والمُربك أكثر صعوبة. فأفرغه من البضائع ودفعه ببطء إلى مكانه الجديد والبارز. وأعاد بعد ذلك وضع العلب الصفيحية والكرتونية، ولكن ليس كما كانت مكدَّسة في السابق، بل قام بترتيبها بأشكال هرمية ولولبية مثيرة للاهتمام. ممتاز، قال لنفسه، ورجع إلى الوراء ليتخيّل وَقعها على الزبائن، ثم خلد إلى النوم.

في مساء اليوم التالي، دخل السيد كولاه ورأى التغييرات. فطلب منه إغلاق الباب،

ووضـع اللافتـة التـي تشـير إلى إغلاق المتجر من دون التوقـف لإلقاء التحية على مانيك أو سؤاله عن كيفية سير الأمور.

قال مانيك، متلهّفاً لثناء والده: "ولكن، ما زالت هنالك ساعة متبقية".

"أعرف. أغلق الباب على أيّ حال". بعد ذلك، طلب منه والده إعادة كل شيء إلى مكانه السابق. كان صوته خالياً من أي انفعال.

كان مانيـك يفضّـل لـو أن أبـاه قام بتوبيخه، أو صفعه، أو معاقبته بأي طريقة يريدها. ولكنّ هذا الازدراء، لا بل رفض التحدث عن الأمر، مريع. وغابت الحماسة عن وجهه، وحلّ مكانها كَرْب محيِّر، وشعر بأنه على وشك ذرف الدموع.

لقد أثار الأمر مشـاعر والدته التي تدخلت قائلة: "ولكن، يا فاروخ، ألا تظن أن ما قام به مانيك قد حسّن مظهر المتجر؟".

"لا علاقة للأمر بالمظهر. ما كانت توجيهاتنا عندما وثقنا به وسـلّمناه شـؤون إدارة المتجـر لمـدة يوميـن؟ هـل بهذه الطريقة يكافئ ثقتنا؟ إنها مسـألة انضباط واتّباع للأوامر، وليس المظهر الحسن".

فأعـاد مانيـك السـلع إلـى أماكنهـا القديمة، ولكنـه رفض دخول المتجـر حتى نهاية العطلة المدرسـية. قال لوالدته بمرارة: "والدي ليس بحاجة إليّ. لا أريد أن أكون هناك، فهو يريد خادماً في المتجر ليس إلا".

فـي الليـل، وفيمـا كانـا فـي السّـرير، أبلغت آبان السـيد كولاه أن مشـاعر مانيك قد جُرحـت بشـدة. فأجابهـا: "أنـا مدرك لذلك". واسـتدار إلى الناحيـة الأخرى، وتابع قائلاً: "ولكن، يجب أن يتعلم السـير قبل الركض. من غير الجيد للفتى أن يظن أنه يعرف كل شيء قبل الأوان المحدد".

فأصـرّت علـى الأمـر، وحققـت مُرادهـا قبـل انتهاء العطلة مباشَـرةً. لقد عـاد الوئام بيـن الوالـد والابـن ذات صبـاح عندما شـرع السـيد كولاه بإعادة ترتيب إحـدى الصناديق الزجاجية، وطلب من مانيك الحضور إلى المتجر لأخذ رأيه. وبدنوّ إعادة فتح المدرسـة أبوابها، بدأا العمل معاً مجدداً في معمل المشروب في قبو المؤونة، وتمثلت مهمة مانيك بإنزال القناني الفارغة النظيفة، وحمل صناديق القناني المعبّأة حديثاً بالكايسي إلى الأعلى.

في الليلة الأخيرة، قال السيد كولاه في أثناء إيقاف عمل الآلة: "سأفتقد إليك عندما تغادر غداً". ولم تسـمح اهتزازات المحرك لكلماتِه بالانتقال إلى أذني ابنه بشـكل سـليم عبر الهواء الرطب تحت الأرض. فعانق مانيك خلال صعودهما الدرَج معاً.

كانـت المدرسـة الداخليـة سـبباً لعدم رغبة مانيـك في مغادرة الجبـال للمرة الثانية.

حدث ذلك في المرة الأولى في سن السادسة عندما ذهب ووالدته لزيارة عائلتها في المدينة، ودامت الرحلة يومَين على متن القطار. لقد افتُتن بالمباني الشاهقة، ودور السينما الفخمة والرَّحبة، وسَيل السيارات والحافلات والشاحنات، ولمعان الشوارع بالأضواء عند هبوط الليل. لكن بعد الأيام القليلة الأولى، افتقد إلى والده كثيراً، وكان سعيداً بالعودة إلى المنزل بعد انتهاء العطلة.

قال: "لن أغادر الجبال مجدداً على الاطلاق".

فهمست السيدة كولاه في أُذُن السيد كولاه الذي كان بانتظارهما على رصيف ركاب المحطة لاستقبالهما. فابتسم، وعانق مانيك، وقال إنه لن يغادر الجبال أبداً مثله.

لكن، سرعان ما حلّ يوم مغادرة الجبال. لقد بدأ الأمر مع الطرقات، ووصل المهندسون مع معداتهم المشؤومة، وفتحوا خرائطهم المرسومة على أوراق، والتي تحمل تصاميمهم. إنها الطرقات الجديدة، كما وعدوا؛ طرقات تنشط بحركة مرور عصرية وسريعة؛ طرقات عريضة ومتينة تحلّ مكان الدروب الجبلية المُطلّة على مناظر طبيعية جميلة والتي تبدو ضيّقة جداً بالنسبة إلى الخيال الواسع لباني الأمة ومسؤولي البنك الدولي.

ذات صباح، تمّ تزيين أحد الوزراء بالأكاليل على أنغام فرقة موسيقية، وذلك في الموقع الذي يشهد أعمالاً. إنها فرقة باغاتباي نانكاتاي السائرة، ملابسهم النظامية بيضاء، وكُتِبَت على ظهورهم حروف بي أن أم بي ذهبية. وكانت هذه الفرقة مختصّة بمواكب حفلات الزفاف، ويتضمن برنامجها نشيداً لامتداح والدة العروس، ومَرثاة لحماة العروس، وجولة النصر للعريس، ونشيداً لوسيط الزواج، وترنيمة للخصوبة. ولكن الفرقة عدّلت ببراعة برنامجها لهذه المناسبة. لقد قرعت الطبولُ موسيقى عسكرية، مؤذِنةً بمسيرة التقدم، في حين تجنّب الترومبون عزف موسيقى الزواج المُحزنة، مستبدلاً إيّاها بموسيقى متقطعة حادة.

كان الحاضرون قرويّين عاطلين عن العمل، وكانوا يهتفون لدى تلقّي الإشارة، وذلك ليتمكنوا من حضور الحفلة مجّاناً. وأُلقيت الخُطب من منصة مؤقتة. وضرب الوزير بمعول ذهبي اللون من دون أن يصيب المكان المحدّد. فابتسم للجمهور ابتسامة عريضة، وسدّد ضربة أخرى.

بعد مغادرة الوجهاء، شرع العمال بالعمل. كان التقدم بطيئاً في بادئ الأمر لدرجة أن أملاً غير منطقي غمر السيد كولاه وكل سكان التلال: لن ينتهي العمل أبداً، وسيبقى مأواهم الصغير سالماً. في غضون ذلك، أدان العميد غريوال في اللقاءات التي نُظّمت

لسكان المدينة سياسة التطوير غير الصحيحة، وقلة التبصر، والجشع الذي يضحّي بالجمال الطبيعي للريف لأجل التطور. ووقّعوا التماسات، وأودعوا السلطات اعتراضهم، وانتظروا.

لكن الطريق استمرّ في التقدّم، مبتلعاً كل ما يعترض طريقه. وجُرّحت سفوح تلالهم الجميلة. ومن أعالي المنحدرات، بدت الممرات غير الممهَّدة كأنهار من الوحل الذي يتحدى قانون الجاذبية كما لو أن الطبيعة أُصيبت بالجنون. كان دويّ الانفجارات البعيد وصوت الآلات الهادرة ينطلقان في الصباح الباكر، ويحوّلان أحلام اليقظة التي يوحي بها ضباب الفجر إلى كابوس.

لقد راقب السيد كولاه بعجز كلّي عملية التزفيت التي حوّلت الأنهار البنّية إلى سوداء، متمّمةً تحويل شكل مسقط رأسه المحبوب حيث عاش أسلافه بنعيم. لقد راقب بعجز قيام الخطوط المرسومة على الورق بتدمير حياة أسرة كولاه للمرة الثانية. ولكن السبب هذه المرة لم يكن خارطة الأجانب الاستعمارية، بل خارطة المسّاحين المحليين.

بعد انتهاء العمل، عاد الوزير ليقصّ الشريط. ففي السنوات التي تلت احتفال الشروع بشق الطريق، أصبح أكثر بدانة وأقل قدرة على الحركة. فجرجر خطاه نحو الشريط، وسقط المقص من يده. وهبّ سبعة متزلّفين متلهّفين للمساعدة، ونجم عن ذلك مُشادّة كلامية أسفرت عن تمكن الأقوى من انتزاع المقص وإعادته إلى الوزير. فرمق الرجالَ السبعة بنظرة غاضبة بسبب لفت الكثير من الانتباه إلى زلّة بسيطة، وابتسم بعد ذلك للجمهور وقصّ الشريط ملوِّحاً. فصفّق الجمهور، وعزفت فرقة باغاتباي نانكاتاي السائرة، وفي غمرة الضوضاء النشاز التي تُحدثها الآلات الموسيقية النحاسية، لم يلاحظ أحد نضال الوزير لإخراج إصبعَيه السمينتين من المقص.

بعد ذلك، بدأت المكافأة الموعودة تعبر الطريق بين الجبال: شاحنات كبيرة بحجم المنازل تنقل بضائع من المدن، وتلوّث الهواء بعوادمها. وانتشرت على امتداد الطرقات محطات التزوّد بالوقود، وأماكن لتناول الطعام لتأمين حاجيات الآلات والموجودين على متنها. وبدأ المطوّرون ببناء فنادق فخمة.

في ذلك العام، وعندما عاد مانيك إلى المنزل لتمضية العطلة، أُصيب بالارتباك، ومن ثم بالذُّعر؛ عندما اكتشف ما بلغه والده من حدة طِباع. لقد وجد أنه من المستحيل أن يمضي اليوم من دون شجار يبدأ بجدال في حضور الزبائن.

سأل مانيك والدته: "ما خَطْبه؟ عندما أكون هنا، يتجاهلني أو يثير شجاراً معي. وعندما أكون في المدرسة، يوجه لي رسائل تعبّر عن مدى افتقاده إليّ".

قالت السيدة كولاه: "عليك أن تفهم، الناس يتغيرون عندما تتغير الأزمنة. هذا لا

يعني أنه لا يحبك".

بالنسبة إلى السيدة كولاه، كانت تلك العطلة التعيسة ذكرى لتخلّي مانيك عن عادة معانقة والدَيه، وتمنّي صباح سعيد لهما. فعندما نزل وجلس في مكانه من دون التفوّه بأي كلمة، وذلك للمرة الأولى، انتظرت والدته تلاشي أثر لذعات الرفض، مُسندةً ظهرها إلى الطاولة، قبل أن تستعيد ثقتها بقدرتها على رفع المقلاة الساخنة. لم يلاحظ والده شيئاً.

كان السيد كولاه الذي تتحرك معدته باضطراب بسبب الجوع مأخوذاً بنموّ التطور الحادث في التلال. لقد اتفق وأصدقاؤه في الرأي على أنه تطور ينطوي على سوء. ولم يجد التعزية في إمكانية ازدياد عمله في المتجر العام. لقد خدّر الهجوم كل حواسّه. فالعوادم الضارّة المنبثقة من الشاحنات تؤذي منخريه بدخانها، قال للسيدة كولاه، وصوت محركاتها يمزّق طبلتَي أُذُنَيه.

أينما وجّه أنظاره، رأى الأكواخ والأحياء الفقيرة. لقد ذكّره الأمر بكيفية استبداد الخوف بكلبه المفضّل بسبب السرعة التي رافقت شق الطرقات، وقيام المخيّمات بتغيير معالم سفوح الجبال وإلهاء الناس بقصص الإعمار والثروة والوظائف. لكنّ عدد العاطلين عن العمل يزداد باستمرار، وتفترش مجموعة كبيرة من الجياع بشكل دائم أرض المنحدرات. وبدأت الغابات تتآكل بسبب السعي وراء الحطب، وظهرت رقع جرداء على التلال.

بعد ذلك، تمرّدت الفصول. فالمطر، الذي اعتاد جعل الأشياء تنمو وتنضج، هطل على نحو جارف على التلال المعرّاة، متسبباً بانزلاقات طينية وانهيارات. وبات الثلج، الذي كان يزوّد التلال بغطاء فسيح، ضئيلاً، حتى إن الغطاء أصبح بالياً ومرقّعاً في ذروة فصل الشتاء.

شعر السيد كولاه برضى مبرَّر إلى حدٍّ ما بسبب تمرد الطبيعة: إذ لم يكن الوحيد الذي أرعبه الاغتصاب الشنيع. ولكن، عندما تواصل اختلال الفصول عاماً بعد عام، لم يجد العزاء في هذا التبرير. فكلما تضاءلت كمية الثلوج المتساقطة، ازداد تأثير ذلك في نفسه.

لم يقل مانيك شيئاً بالرغم من اعتقاده أن والده يغدو مأساوياً بشكل يتخطى المألوف: "القيام بنزهة أشبه بالدخول إلى منطقة حرب".

لم تكن السيدة كولاه يوماً ممن يحبون السير، وكانت تقول كلّما دعاها زوجها لمرافقته في نزهة سيراً على الأقدام: "أفضّل الاستمتاع بالمنظر من مطبخي. إنه أقل إرهاقاً".

لكن النزهات الطويلة التي يقوم بها السيد كولاه بمفرده هي المتعة الكبرى في حياته، ولا سيما بعد انتهاء فصل الشتاء، وعندما تكون كل رحلة استجمام مُرفَقة برَيبة لذيذة. ما الذي ينتظره عند الانعطاف التالي؟ جدول جديد ربما؟ أم أزهار بريّة لم يلاحظها في اليوم السابق؟ فمن بين ذكرياته الأكثر مهابة جُلمود كبير خرجت منه شُجَيرة. ويكون في بعض الأحيان ضحية كمين خلاّب: منظر واسع للوادي من زاوية لم يختبرها بعد.

بعد شق الطرقات، أصبح القيام بنزهة متمهِّلة كمن يقف أمام شخص مُحتضر، فيرى ما الذي بقي منتصباً وما الذي سقط. ولدى بلوغه شجرة مفضَّلة لديه، كان يقف تحت أغصانها لفترة وجيزة قبل مواصلة سيره. ويمرّر يده على الجِذع كثير العُقَد، سعيداً بتمكن صديق قديم له من النجاة يوماً إضافياً. لقد أُزيلت بالديناميت العديد من الحافّات الصخرية التي اعتاد الجلوس عليها لمشاهدة غروب الشمس. وعندما يجد إحداها، كان يجلس عليها دقائق قليلة طلباً لبعض الراحة، ويتساءل عما إذا كان سيجدها هناك بانتظاره في المرة التالية.

لقد بدأوا يتحدثون عنه في البلدة منذ وقت طويل. قالوا: "يفقد السيد كولاه عقله شيئاً فشيئاً، هو يتكلم مع الأشجار والصخور، ويربّت عليها كما لو أنها كلابه".

عندما بلغت الشائعة مسامع مانيك، تحرّق خجلاً، متمنّياً كفّ والده عن هذا السلوك المُحرِج. وكان يغلي غضباً كذلك، متمنّياً حمل أولئك الأشخاص الجاهلين على احترام مشاعر الآخرين.

في الذكرى الخامسة لشقّ الطريق الجديد، نظّم رجال الأعمال والمتعهّدون احتفالاً صغيراً، داعين الجميع للمشاركة، فغادر السيد كولاه المتجر باكراً في مساء ذلك اليوم، رافضاً الفكرة تماماً. ورفع الضِّمادة عن عينه وانطلق في نزهته. وتبعته مكبّرات الصوت المستأجَرة والمثبَّتة على أغصان الأشجار في ساحة البلدة مسافة طويلة بموسيقاها المماثلة لصوت المعدن، وثرثرة الخُطَب الفارغة.

كان قد سار نحو ثلاثة أميال عندما بشّر ضوء النهار باقتراب المغيب. كانت خيوط زهرية وبرتقالية اللون تتشكل في السماء، فتوقف للتحديق إلى اتجاه الغرب، متلهّفاً للاستمتاع باللحظة. كان يتمنى في أوقات مماثلة أن يستعيد النظر بعينَيه الاثنتَين لرؤية أكبر قدر ممكن من هذا المنظر.

بعد ذلك، تحوّلت أنظاره إلى الأسفل، باتجاه سفح التلة الخالي من الأشجار. لقد ارتفع دخان نيران الطهو الرمادي من مئات الأكواخ، وحجَب الضباب الأُفق. وباتخاذ الوجهة المعاكسة لاتجاه الريح، كان باستطاعته شمّ رائحة السَّديم الحادة، والرائحة

الكريهة للنفايات البشرية المنبعثة من ورائه، والتي تحاول التغلّب على الروائح الأخرى. فوقف على القدم الأخرى، محاولاً الابتعاد عن طريق تلك الرائحة، ولكنّ غصناً صغيراً طقطق تحت قدمَيه. فتسمّر في مكانه، متسائلاً عما يمكن أن يكون. وسمع أصواتاً واضحة لأمهات ينادينَ، وزعيق أطفال، ونباح كلاب المنبوذين. فتخيّل المحتويات البائسة للأقدار المسودّة فوق النار، وأفواهاً جائعة تنتظر في الجوار.

فجأةً، لاحظ حلول الغسق: لقد توارت الشمس وراء ستار من الدخان الكثيف والقاتم، وبات المشهد برمّته مزعجاً وجديراً بالازدراء تماماً، وخارج قدرة السيد كولاه على تقبّل الأمر أو فهمه. فشعر بأنه تائه وخائف، وشعر بموجات من الغضب، والتعاطف، والاشمئزاز، والأسى، والإخفاق، والخيانة، والحب تنبثق وتخمد على نحوٍ متتالٍ؛ الأمر الذي أربكه. لماذا؟ وما هو السبب؟ لو كان باستطاعته فقط...

ولكنه لم يجد معنى لانفعالاته. لقد شعر بضيق في صدره، ومن ثم سُدَّ حَلقه كما لو أنه يختنق. فبكى بصمت مع شعوره بالعجز.

أظلم المساء. فأخرج منديله ومسح عينَيه. لقد مرت لحظات قبل أن يدرك أن العين الجيدة وحدها هي التي كانت مبلّلة، وذلك بعد مسح دموع كاذبة. يا للعجب! باستطاعته أن يُقسم إنّ العين المفقودة ذرفت الدمع أيضاً.

خلال عودته إلى المنزل في الظلام، قرر أنّه لا معنى للقيام بنزهات منذ الآن فصاعداً. فلكي يكتسب ذلك الأمر معنى، يجب أن يكون هناك شيء جديد يستحق عملية الاستكشاف.

لم يكن هناك مكان للهرب إليه؛ ليس لأجله، على الأقل، لأن أحلامه ضاعت خلال اصطدامها بالسنوات الماضية. لقد ناضل، وانتصر، وفشل، وسيستمر بالنضال؛ ماذا بقي لديه غير ذلك؟

لكنه بدأ يفكر مليّاً، وللمرة الأولى، في خيارات أخرى لابنه.

لم تتحسن العلاقة بينهما عندما عاد مانيك إلى المنزل لتمضية إجازة لمدة أسبوعين قبل الفصل الدراسي النهائي. كانت جدالاتهما الأكثر تكراراً تدور حول إدارة المتجر. فلدى مانيك أفكار عديدة تتعلق بالتجارة والتسويق كان والده يرفضها تماماً.

قال مانيك: "على الأقل، دعني أُنهي كلامي، ما هو سبب عنادك؟ لماذا لا تجرّب الأمر؟".

قال السيد كولاه بوجه مكتئب: "إنها ليست هواية صغيرة يمكننا تجربتها والعبث بها. إنه قوتنا اليومي".

قالت السيدة كولاه: "هل تتجادلان مجدداً، أنتما الاثنان؟ سأُجَنّ بسبب الاستماع إلى ذلك".

قال السيد كولاه باكتئاب أكبر: "لا تملكين السيطرة على ابنك. ألا تستطيعين القيام بشيء حيال إلحاحه الذي لا يتوقف؟ إنه يرفض كل ما أقوله. يظن أنه يملك صيغة جديدة للنجاح؛ يظن أن الأمر مجرد اختبار عِلمي".

رفض السماح لمانيك بطلب ماركات جديدة من الصابون أو البسكويت التي تلقى رواجاً في كل مكان. واعتبر أن اقتراحاته لتحسين الإضاءة في الداخل المُعتِم، وطَلي الجدران، وتجديد الرفوف والصناديق الزجاجية، ضرب من ضروب التجديف.

لقد عانى مانيك مشكلة في التوفيق بين هذا الرجل الحذر على نحو سخيف وبين الصورة التي نمت في ذهنه بسبب الروايات التي أخبرته إيّاها والدته وأصدقاء والده: عن شخص لا يخاف شيئاً أنزل حبلاً داخل وادٍ ضيّق الجوانب، ومغمورٍ بمياه الأمطار لإنقاذ كلب صغير؛ عن شخص هزّ كتفَيه لدى فقدان عينه بسبب قطعة زجاج كما لو أن الأمر مجرد لسعة بعوضة، وهزم ذات مرة ثلاثة لصوص جالوا في المتجر باحثين عن فريسة سهلة بعد أن أغراهم مشهد المرأة الوحيدة وراء المنضدة، غير آخذين في الحسبان وجود زوجها في قَبو المؤونة يعبّئ القناني بالشراب غير المسكر؛ لقد طرحهم السيد كولاه أرضاً كما لو أنهم أكياس أرزّ، كما ذكر أصدقاؤه.

ها هو والده يُفسد كل شيء بسبب إنشاء طريق سخيف. لقد رأى مانيك مؤخراً العالم وهو يُعاد ترتيبه من حوله أيضاً، ولكنه كان على ثقة تامة بأن الأمور ستُحَلّ تلقائياً، وذلك بسبب التفاؤل الذي يجري في عروقه. كان في الخامسة عشرة من عمره ويظن أنه خالد، والتلال أزلية. وماذا عن المتجر العام؟ إنه هناك منذ أجيال وسيبقى هناك لأجيال قادمة؛ لم يكن يشك في ذلك.

لقد أمل السيد كولاه سرّاً بحدوث أعجوبة وإعادة الماضي. ولكنه قرأ اللافتات، ولم تكن الرسالة لصالحه. لقد اعتبر الجلوس وسط البضائع التي تنقلها الشاحنات المقيتة عبر الجبال أمراً خطراً؛ كالمشروبات غير الكحولية التي غزت المتاجر الجديدة والفنادق في البلدة بكميات صغيرة في بادئ الأمر. عدد قليل من الصناديق المحتوية على قنانٍ يمكن لصناديق شراب الكايسي الذي يلاقي رواجاً منقطع النظير التفوق عليها في العدد. لا بد من أن الناس قاموا بتذوّق الماركات الجديدة بسبب فضولهم، وهزّوا أكتافهم بعد ذلك وأداروا ظهورهم؛ فشراب كولاز كولا لا يزال في المرتبة الأولى.

لكن الشركات الضخمة استهدفت التلال، ووضعت الكايسي نُصب أعينها، وتسللت

إلى منطقة نفوذ السيد كولاه بعجرفة؛ بقاعات اجتماعاتها، وحملاتها الإعلانية، وتقنياتها التي لا يمكن منافستها. وتقدّم إليه الممثلون باقتراح: "أوقف آلاتك عن العمل، ضع كل حقوق إنتاج كولاز كولا في عهدتنا، وكن وكيلاً لماركتنا. تعالَ وانمُ معنا، وازدهر".

لقد رفض السيد كولاه العرض بالطبع. بالنسبة إليه، لم يكن مجرد قرار مرتبط بالعمل، بل إنّه قرار مرتبط باسم العائلة وكرامتها. وكان على ثقة تامة كذلك بأن جيرانه الصالحين والقاطنين في هذه المستوطنات ثابتون على موقفهم، وسيبقون أوفياء لكولاز كولا. لقد استعدّ لخوض معركة عادلة ضد المنافسة.

ولكن ما غاب عن ذهن السيد كولاه هو أن المعارك العادلة أصبحت قديمة الطراز على غرار ربطات العُنُق على هيئة فراشة، وسلسلة ساعة الجَيب. لقد وزّعت الشركات عيّنات مجانية، وشنّت حروب أسعار، ورفعت لوحات إعلانات عملاقة تُظهر أطفالاً سعداء وأهالي مبتسمين، أو رجلاً وامرأة يتلامس جبيناهما بِرفق أمام قنّينة تخرج منها قشّتان تخترقان شفاه الحبيبَين. وتحوّل توافد المشروبات غير الكحولية الجديدة إلى طوفان، وامتلأت البلدة بالماركات التي تُباع في المدن الكبرى منذ سنوات.

قال مانيك: "يجب علينا توجيه ضربة مضادة، يُفترض بنا أيضاً القيام بحملة إعلانية، وتوزيع عيّنات مجانية مثلهم. إذا أرادوا الإلحاح في طريقة البيع، فنحن سنقوم بالمِثل".

قال السيد كولاه بازدراء: "الإلحاح في طريقة البيع؟ ما نوع هذه اللغة؟ تبدو غير جديرة بالاحترام تماماً، كالتسوّل. باستطاعة هذه الشركات الكبيرة القادمة من المدينة التصرف ببربرية إذا شاءت. هنا، نحن شعب متحضّر". ورمق مانيك بنظرته المكتئبة لأنه خيَّب أمله بسبب الاقتراح الذي تقدّم به.

احتكم مانيك إلى والدته: "انظري إليه، ها هو يُظهر وجهه المكتئب مجدداً. كلما قلت أمراً، ينظر إليّ بهذه الطريقة. لا يأخذ أفكاري في الحسبان".

هكذا، لم تُمنح كولاز كولاه أي فرصة أبداً، وانهار العمود الفقري للمتجر العام، وشارفت الصيغة السرّية التي تناقلتها الأجيال على الزوال.

مضى السيد كولاه بالخطة البديلة المتعلقة بابنه الذي سيحصل قريباً على شهادة التعليم الثانوي. فبدأ يستعلم في كلّيات مختلفة عن بياناتها الدراسية.

سألت السيدة كولاه: "هل أنت واثق من أن هذا ضروري، يا فاروخ؟".

أجاب: "المدرّب البطيء يتخلف عن الآخرين، ولا أريد أن يحلّ بمانيك ما حلّ بي".

"آه، يا فاروخ، كيف يمكنك قول ذلك؟ انظر إلى النجاح الذي حققتَه. صحيح أنك

فقدتَ كل شيء في أثناء التقسيم، إلاّ أنّك أمّنت حياةً جيدة لنا جميعاً. كيف يمكنك أن تدعو نفسك مدرّباً بطيئاً؟".

"ربما لستُ كذلك، ربما كان العالم يتحرك بسرعة كبيرة. ولكن النتيجة النهائية واحدة".

لم يتم صرف انتباهه عن هدفه، ونُوقِشت الاحتمالات المهنية مع أصدقاء العائلة المخلصين. لقد اتفقوا في الرأي على أنّ إبقاء باب الاحتمالات مفتوحاً فكرة جيدة.

قال العميد غريوال: "لا أقول ذلك لأن مؤسستك على وشك الإفلاس. ولكن، من الجيد أن تكون مستعداً على الجبهات كافة. من الجيد ادّخار سلاح كبير.

قال السيد كولاه: "هذا ما أفكر فيه بالتحديد".

قالت السيدة كولاه، متمنّيةً لابنها أفضل المهن: "سيكون أمراً جيّداً لو استطاع أن يكون طبيباً أو محامياً".

"أو مهندساً".

قالت السيدة غريوال: "إنّ مهنة محاسب مُجاز مهنة ذات مكانة رفيعة جداً أيضاً".

كان يتعيّن على رجال الجيش تبديل مسار الحوار إلى الواقع العملي. "علينا التعاطي مع الواقع على الأرض. الخيارات تحددها علامات مانيك المدرسية".

"هذا لا يعني أنه شخص غير موهوب".

"كلا، البتة. إنه ثاقب كحربة البندقية، على غرار والده".

قال السيد كولاه، موافقاً على الإطراء على الفور: "وهو جيد باستخدام يدَيه".

لقد أجمعوا على أن المهنة المناسبة لمانيك هي في الميدان التقني، ومن الأفضل أن تكون في صناعة تنمو مع ازدهار الأمة. ففي بلد حيث يعيش معظم السكان في مناخات استوائية وشبه استوائية، كان الجواب جليّاً وإجماعياً: "التكييف وتبريد الهواء". ووجدوا أن أفضل كلّية تمنح شهادات في هذا الحقل موجودة في المدينة الأم للسيدة كولاه، وهي الكلّية التي تخلّت عنها للزواج بالسيد كولاه.

بعد التوصل إلى اتفاق، عاد مانيك ليكتشف ما قُرِّر في شأنه، واعترض بشدة. لم يغضّ الطَّرف عن الخيانة الثانية على غرار ما حصل في الخيانة الأولى، وانفجر غضباً.

"لقد وعدتَ بأنني سأعمل معك عندما أحصل على شهادة التعليم الثانوي! قلتَ إنك تريدني أن أضطلع بشؤون مؤسسة العائلة!".

قال السيد كولاه مستجمعاً قدرته على الإقناع: "اهدأ. ستقوم بذلك، ستقوم بذلك. عندما لا يكون أمامنا خيار آخر. أتعلم؟ في الماضي كان من الأسهل التخطيط للمستقبل.

أما في هذه الأيام فالأمور أكثر تعقيداً، وهناك قدر كبير من الريبة".

قال مانيك: "إنه تضييع للوقت". كان واثقاً من قيام والده بذلك للتخلص منه؛ للتخلص من تدخّله في المتجر العام، كما لو أنه منافس له. "إذا أردتني أن أتعلم مهنة أو أي شيء آخر، يمكنني أن أصبح ميكانيكياً في كاراج مادانلال في الوادي. لماذا يتعيّن عليّ الذهاب إلى مكان بعيد؟".

فأظهر السيد كولا وجهه المكتئب، وضحك العميد غريوال برحابة صدر، وقال: "أيها الشاب، إذا كنت تخطط لخط دفاعٍ ثانٍ، فتأكّد من مناعته، وإلا فلا تزعج نفسك".

قال أصدقاء العائلة إن مانيك شخص محظوظ جداً، ويُفترض به أن يكون ممتنّاً للفرصة المتاحة له. "في سنّك، كانت مشاعرنا تهتز رغبةً في تمضية عام في المدينة الأكثر تطوراً في كل البلد".

هكذا، تسجّل مانيك في الكلّية، وجرت الاستعدادات لمغادرته. فتم شراء حقيبة ملابس جديدة، ووُضبت ملابسه، وحُجزت تذاكر سفر لمختلف مراحل الرحلة.

قالت والدته: "لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يُرام عندما تعود بعد عام. والدك قلق على مستقبلك ليس إلا. لقد جرت كل هذه التغييرات بسرعة كبيرة بالنسبة إليه. يُفترض به أن يهدأ في غضون عام".

بدأت بوضع الأغراض التي سيأخذها معه في صناديق. ومخافة نسيان أمر ما، كانت تعود تكراراً إلى اللائحة المقترَحة في دليل الكلّية، وتُخرج الأغراض من أماكنها وتعيد ترتيبها بعد عدّها. فالمرأة التي لم تكن تجد عناءً في إدارة المتجر العام بدأت قواها تخور بسبب توضيبها أمتعة ابنها.

كانت تطلب النُّصح من زوجها تكراراً: "يا فاروخ، كم منشفة عليّ أن أضع في الحقيبة؟ هل تظن أن مانيك سيكون بحاجة إلى سرواله الجيد، ذلك المصنوع من قماش الغبردين؟ كم صابونة وأنبوب معجون للأسنان يا فاروخ؟ وأي أدوية يجب عليّ توضيبها؟".

كان جوابه واحداً على الدوام: "لا تزعجيني بأمور سخيفة. القرار يعود لك". حتى إنه رفض الاقتراب من كدسة الملابس المتزايدة حجماً، والممتلكات الشخصية، كما لو أنه يُنكر وجودها. وإذا كان عليه المرور قرب حقيبة الملابس المفتوحة والموضوعة على الطاولة في ممرّ الطابق العلوي، كان يُشيح بنظره عنها.

فهمت السيدة كولاه تماماً معنى سلوك زوجها. كانت قد افترضت أن دعوته للمشاركة في التخطيط والتوضيب قد تساعده وتسهّل عليه تمضية الأيام التي تسبّب ألماً

كبيراً لهم جميعاً.

بعد إجاباته الجافية، آثرت تركه بمفرده. على أيّ حال، إنها أكثر قوة منهما في ما يتعلق بالتعاطي مع هذه الأمور، عِلماً أنه لم يسبق لأيّ منهما أن اختبر هذا الفراق الطويل عن مانيك. كانت تعلم أن الفراق أمر خطر. فالفراق يغيّر الناس. انظروا إلى ما مرّت به؛ لم يعد باستطاعتها العودة للعيش مع عائلتها في المدينة مطلقاً. وبسبب انتقاله إلى المدرسة الداخلية، كفّ مانيك عن المعانقة الصباحية التي لم يُغفلها قطّ؛ حتى عندما كان مريضاً. فقد كان ينزل إلى الطابق السفلي بمحبة ويضع ذراعَيه حولها، ومن ثم يعود إلى سريره. ما الذي سيكف عن القيام به أيضاً بعد هذا الفراق؟ لقد أصبح وحيداً أكثر فأكثر، ويصعب التحدث إليه، ومشاطرة الأمور معه لأنه يبدو مغتمّاً على الدوام. كم سيتغيّر بعد؟ ما الذي ستفعله المدينة بابنها؟ هل ستفقده إلى الأبد؟

مفكرةً وشاعرةً بالقلق خلال خدمة الزبائن، خرجت من المتجر، شاردة الذهن، وتوجهت إلى صناديق مانيك. فشعر السيد كولاه بوجود خَطب ما في الطابق العلوي، فأوقف آلات المشروب غير الكحولي، مقاطعاً عملية الإنتاج، وصعد درجات قَبو المؤونة قفزاً للاعتذار من الزبائن المنتظرين.

لقد ضبط شعوره بالانزعاج في ذلك الصباح. ولكنه انفجر غضباً عندما حدث ذلك في المرة التالية: "يا آبان! ما هو الأمر الطارئ الذي يدفعك إلى الصعود إلى غرفة النوم؟ هل يمكنني أن أسأل؟".

كان التهكّم صعباً بالنسبة إليه، ونادر الحدوث، لذلك فقد فاجأه الأمر كما جرح مشاعرها. ولكنها رفضت الانجرار إلى الجدال، وأجابت بلطف: "تذكرتُ أمراً هاماً. كان عليّ التحقق منه على الفور".

"سيقودني هَوَسك إلى الجنون. رجاءً، افهمي لمرة واحدة وأخيرة: إذا نسيتِ وضع شيء ما، يمكننا على الدوام إرساله في طرد بريدي".

لكن الأمور التي تقلقها لا يمكن احتواؤها أو إرسالها عبر البريد، وجاءت محاولاتها لشرح ما يجول في خاطرها ناقصة، وتلعثمت خلال خروج الكلمات من فمها: "لا تهتم بعملية توضيب أغراض مانيك، لا تريد تحمّل المسؤولية، ومن ثم تقول إن ما أقوم به ضرب من الجنون؟ ألا تشعر بالخوف عليه؟ ماذا حلّ بمشاعرك؟".

بالرغم من غضبه المربَك، فهم السيد كولاه معنى سلوك زوجته. وبعد أسبوع من هذا الحديث، استيقظ في الليل حين نهضت لمغادرة الغرفة. كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل ببضع دقائق. فتظاهر بالنوم، وسمع حفيف قدمَيها في أثناء بحثها عن خفَّيها.

وعندما أغلقت الباب وراءها، نهض برفق وتبعها.

كانت الألواح الخشبية باردة تحت قدمَيه العاريتَين. فعبر الممر بخطى قصيرة محترسة، ورآها وراء الزاوية واقفة أمام حقيبة الملابس. فتراجع خطوة إلى الوراء. كانت واقفة بلا حراك، ورأسها منحنياً، ويداها موضوعتين فوق ملابس مانيك. وعندما أطلّ القمر المختبئ وراء السحابة، أضاء النور الفضّي وجهها. ونعقت بومة، فكان مسروراً لأنها بقيت ساكنة، وبدت شديدة الجمال، وهي مستغرِقة في التفكير. كانت تُجسّد السنوات التي أمضاها ومانيك معها، مندمجَين بكيانها، ومستمدَّين الحيوية والنشاط من وجهها وعينَيها.

نعقت البومة مجدداً، وتماوج ضوء القمر متردداً، وسامحاً لسحابة بالانزلاق أمامه. فحركت يدَيها داخل حقيبة مانيك. ونبحت الكلاب في الرُّواق الخارجي؛ على أي شبح؟

سمع فاروخ كولاه تكتكة الساعة، ومن ثم رنينها الذي يشير إلى الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف الليل. فشعر بالامتنان لأن الليل منحه هذه الفرصة وهذه الرؤية تحت ضوء القمر. وعاد إلى السرير، ولم يزعجها عندما انسلّت تحت الملاءة بعد بضع دقائق.

حان وقت توجيهات اللحظة الأخيرة. وبعد أن أصبحت مغادرة مانيك أمراً واقعاً، ردّد والداه كل النصائح تقريباً التي قدّماها له حتى تلك اللحظة، وحذّراه من الاختلاط في الكلّية مع المقامرين والمدمنين على الخمر والمدخنين. وطلبا منه الانتباه لدى صرف المال، وأن يكون حذراً لأن الناس مختلفون جداً في المدينة. "طوال حياتك هنا، لم نُحبط قطّ طبيعتك الودودة. فسواء أكان رفاقك أثرياء أم فقراء، وأيّاً تكن طبقتهم الاجتماعية أو دينهم؛ لم تكن هذه الفوارق هامّة بالنسبة إلينا. ولكنك تواجه الآن الفارق الأكثر أهمية، والمتمثل بمغادرتك إلى المدينة. يجب أن تكون شديد الحذر".

كان السيد كولاه يخطط لمرافقة ابنه على متن الحافلة عبر الوادي، ومن ثم استقلال عربة يجرّها إنسان حتى محطة سكة الحديد. ولكن المساعد بدوام جزئي الذي كان قد وعد بالوصول باكراً للقيام بالأعمال الروتينية الصباحية لم يصل. لذلك، انطلق مانيك بمفرده في رحلته الطويلة إلى المدينة التي تدوم يوماً ونصف.

قال والده: "تأكد من الاستعانة بحمّال ماهر في المحطة، لا تحاول حمل كل شيء بمفردك. واتفق معه على الأجرة قبل أن يلمس أمتعتك. يُفترض بثلاث روبيّات أن تكون كافية".

قالت السيدة كولاه مغتاظة، في أثناء قيام الاثنين بمصافحة أحدهما الآخر: "ألن تعانقه؟".

قال مانيك: "بلى". ووضع ذراعَيه حول والده.

* * *

كان فرونتيير مايل في المحطة عندما اقتربت العربة التي يجرّها إنسان من البوّابة. فدفع مانيك الأجرة، وتبع الحمّال فوق جسر المشاة لبلوغ رصيف الركاب الخاص بالقطار المتوجه جنوباً. توقف قليلاً عند أعلى الجسر، ورأى القطار تحته ممتداً ونحيلاً، والناس محتشدون حوله كمجموعة من النمل تحاول نقل دودة ميتة.

كان الحمّال قد تابع سيره، فركض للّحاق به. وبالقرب من غرفة الانتظار، كان هناك بائع يشوي ذُرة صفراء فوق الجمر. فقرر مانيك العودة بعد العثور على مقعده للحصول على بعض الذُّرة.

"خمسون روبيّة منذ الآن فصاعداً". سمع ناظر المحطة يقول، والذي كان يجمع إتاوته الأسبوعية من الذُّرة والمال. "لديك أفضل موقع. هذا ما يكون الآخرون مستعدّين لدفعه لقاء هذا الموقع".

قال البائع: "طوال اليوم، يُعمي الدخان عينَيّ ويخنق رئتَيّ، وانظر إلى أصابعي المسودّة. أشفق عليّ". وأدار عرانيس الذُّرة بمهارة كي لا تلفحها حرارة الجمر، وتابع قائلاً: "كيف سأجني الروبيّات الخمسين هذه؟ يجب إرضاء الشرطة أيضاً".

قال ناظر المحطة واضعاً المال في جَيب لباسه الرسمي الأبيض: "لا تتظاهر بالفقر، أعرف كم تكسب من المال".

من حين إلى آخر، كان لبّ حبّة ذُرة ينفجر بقوة، فيعيد الصوت والرائحة الزكيّة مانيك بالذاكرة إلى رحلته الأولى بالقطار عندما رافق والدته لزيارة الأنسباء.

كان والده قد قدم لتوديعهما. "تغدو ثقيل الوزن جداً"، قال مداعباً، ورافعاً مانيك ليمكّنه من رؤية المحرك البخاري. كم كان القطار كبيراً! كان يشبه سلسلة من المنازل ذات الطابق الواحد، الممتدة في صف طويل. وحمله والده حتى نهاية رصيف الركاب.

قام الوالد بحركة جَذب فيها انتباه سائق القطار، فنقر على واقية وجهه، وأطلق الصفّارة لأجل مانيك. فأجفله الزعيق الثاقب الذي كان قريباً جداً وبدا كما لو أنه يخرج من قلبه، فأسقط عرنوس الذُّرة. عندها، قال والده: "لا تهتم، ستشتري لك والدتك واحداً آخر".

مرّر مانيك من خلال النافذة، ووضعه في مقعده بجانب والدته عندما صدر الإعلان الأخير قبل الانطلاق. تحرك القطار، وبدأت المحطة تطفو بجانبهم. فلوّح الوالد بيده

مبتسماً ومرسلاً إليهما القُبُلات. فسار بجانب المقصورة، ومن ثم ركض قليلاً، ولكن سرعان ما سبقه القطار بأشواط ليختفي كعرنوس الذُّرة المُلقى على رصيف الركاب. وغاب كل شيء مألوف...

عثر مانيك على مقصورته، ودفع للحمّال أجرته بعد أن وضع الأمتعة على متن القطار. لقد تقلّص المنزل المدَولب ذو الطابق الواحد الذي عهده في سنّ الطفولة، وجعل الزمن هذا المنظر مُملاً. انطلقت الصفّارة، ولم يتسنَّ له الوقت لشراء الذُّرة. فغرق في مقعده بجانب أحد الركاب.

لم يشجع الرجل مساعي مانيك لتبادل أطراف الحديث معه، مُجيباً بإيماءات بالرأس وهمهمة، أو بحركات يدوية مُبهَمة. كان أنيق المظهر، فرق شعره إلى اليسار، وفي جَيب قميصه علبة بلاستيكية تحتوي على أقلام حبر وأقلام تأشير. وكانت هناك شابةٌ منهمكة بالحياكة تشغل ووالدها المقعدَين المقابلَين. فحاول مانيك أن يحزر ما الذي تقوم بحياكته من خلال القطعة المُحاكة المتدلّية من الصنّارتين. أهو شال؟ أم كمّ كنزة صوفية؟ أم جَورب قصير؟

نهض الوالد قاصداً المرحاض. "انتظر يا أبي، سأساعدك"، قالت الابنة بينما كان يعرج على عُكّاز واحد في الممر. جيد، قال مانيك لنفسه، سيكون عليها شَغل المضجع العُلوي. سيكون المنظر أفضل من مضجعه المقابل.

في المساء، قدّم مانيك لجاره الأنيق بسكويت غلوكو. فهمس شاكراً. "على الرحب والسعة"، أجاب مانيك هامساً ومفترضاً أن الرجل يفضّل التكلم بصوت منخفض. وحصل على موزة مقابل البسكويت. كانت قشرتها مسودّة بسبب الحرارة، ولكنه تناولها بالرغم من ذلك.

بدأ الخادم بجولاته لتوزيع الأغطية والملاءات، مجهِّزاً المضاجع للنوم. وبعد مغادرته، أخرج الرجل الأنيق سلسلة وقفلاً من الحقيبة التي تحتوي على موز، وقيّد صندوقه بسِناد معدني تحت المقعد. وانحنى باتجاه أُذُن مانيك وشرح على نحو سرّي: "بسبب اللصوص. إنهم يدخلون المقصورات عندما ينام الركاب".

قال مانيك: "صحيح". وشعر بقليل من الانزعاج. لم يسبق لأحد أن حذّره من هذا الأمر. ولكن، ربما كان الرجل من النوع عصبيّ المزاج. "أتعلم؟ منذ بضع سنوات، استقللت مع والدتي هذا القطار نفسه، ولم يُسرق منّا شيء".

"للأسف، لقد تبدّل العالم كثيراً". وخلع الرجل قميصه وعلّقه بترتيب على علاّقة بجانب النافذة. ومن ثم أخرج العلبة البلاستيكية من جَيبه وشبكها بقميصه الداخلي،

محترساً من عدم شَبك شعر صدره. ولدى رؤيته مانيك يراقبه، همس مبتسماً: "أنا مولَع بسروالي. لا أحب الافتراق عنه حتى خلال النوم".

فردّ مانيك الابتسامة، وهمس: "أجل، لديّ أيضاً قلم مفضَّل. لا أُقرضه لأحد".

لم يرتَح الوالد والابنة لهذه الهمسات التي استثنتهما، فقالت الفتاة: "ماذا يمكننا أن نفعل يا والدي؟ بعض الناس وُلدوا مع طباع فظة". وسلّمته العكاز. وغادرا مجدداً إلى الحمّام، رامقَين المقعدَين المقابلَين بنظرة جفاء.

لم يلاحظ مانيك ذلك لأن القلق بدأ يعتريه حيال حقيبة ملابسه. فالكلام الهادئ لمُحب الأقلام عن اللصوص أفسد ليلته، ونسي كل شيء عن المرأة في المضجع العُلوي. وعندما تذكّر، كانت قد أصبحت تحت الغطاء في منأى عن العيون المسترقة للنظر، ووالدها يدسّ الغطاء تحت عُنُقها.

قبل أن يتسلق إلى مضجعه، وضع مانيك حقيبته حيث تكون إحدى زواياها مرئية من الأعلى. واستلقى مستيقظاً ومحدّقاً إليها من حين إلى آخر. فرآه والد الشابة وشعر بالارتياب. قُبالة الفجر، تغلّب النعاس على يقظة مانيك، وآخر ما رآه خلال استسلامه للنوم الوالدَ واقفاً على عكّازه، ساتراً ابنته بملاءة السرير خلال نزولها من المضجع، فلم يرَ سوى ربلة ساقها وكاحلها.

ولم يستيقظ إلا عندما قدِم الخادم لجمع الملاءات. كانت الشابة منهمكة بالحياكة، والنسيج المُحاك والغامض يرقص تحت أصابعها. وقُدّم الشاي. لقد أصبح مُحبّ الأقلام الأنيق أكثر إقبالاً على الكلام، وعادت علبة الأقلام إلى جَيب قميصه. فعلِم مانيك أن قلّة كلامه في اليوم السابق مردّها اعتلال في الحَلق.

قال الرجل بينما كان يسعل ويتنحنح: "الحمد لله، لقد هدأ الألم قليلاً هذا الصباح".

متذكراً طريقة همسه المبالَغ فيها خلال تقليده همسات الرجل، شعر مانيك بقليل من الإحراج. فتساءل عما إذا كان يُفترض به الاعتذار أو الشرح. ولكن، لم يَبدُ أن مُحبّ الأقلام يحمل أي شعور بالمهانة.

شرح: "حالتي مُقلقة جداً، وأنا مسافر لتلقّي معالجة أخصائي". وتنحنح مجدداً، ثم تابع قائلاً: "ما كنت لأستطيع أن أتخيّل عندما بدأتُ مهنتي منذ زمن بعيد أن هذا ما سيحلّ بي. ولكن، هل تستطيع مقاومة قدَرك؟".

هزّ مانيك رأسه موافقاً، ثمّ سأله: "هل كنت تعمل في مصنع؟ أدخنة سامّة؟".

فضحك الرجل مستهزئاً، وقال: "أنا محام كفوء".

"لقد فهمت. إذاً، فالخُطب الطويلة في قاعات المحكمة المكسوّة بالغبار جرحت

وتريك الصوتيين وأتلفتهما".

قال متردداً: "لا، بل العكس تماماً. إنها قصة طويلة".

"ولكن، أمامنا متّسَع من الوقت"، أجاب مانيك مشجّعاً، "إنها رحلة طويلة".

لقد عيل صبر الوالد والابنة من قيام الشخصين الجالسين في المقعدين المقابلين بتبادل أطراف الحديث بصوت منخفض، وكان الوالد على ثقة تامة بأن ضحكهما بصوت منخفض مُرفَق بنظرات ماكرة تستهدف ابنته البريئة مباشَرةً. فتجهّم وجهه، ورفع عكّازه، وأخذ بيد ابنته، وعبَر الممر بخطى ثقيلة. قالت: "ليس بيدنا حيلة يا أبي، بعض الأشخاص يفتقرون إلى التهذيب".

"أتساءل عن خَطْب ذَينك الشخصين"، قال مُحبّ الأقلام، مراقباً حركة العكّاز المماثلة لحركة الآلة. وأزال سدّة قنينة خضراء صغيرة، وتناول رشفة، ووضعها جانباً. ومتلمّساً أقلامه بمودّة، اختبر حالة حنجرته بعد ابتلاع الدواء، وبدأ بسرد قصّته:

"بدأت مهنتي كمحام منذ مدة طويلة في عام الاستقلال، وكانت مهنتي الأولى والمفضَّلة".

فاحتسب مانيك عدد السنوات بسرعة. "بين عامي 1947 و1975. أي ثمانية وعشرون عاماً. إنها خبرة قانونية طويلة".

"لا، في الواقع. لقد بدّلت مهنتي بعد عامَين. لم أستطع تحمّل القيام بمرافعاتي القانونية يوماً بعد يوم في غرفة المحكمة أمام جمهرة من الحاضرين. إنه ضغط كبير بالنسبة إلى شخص خجول مثلي. كنت أستلقي في السرير في الليلة السابقة للمرافعة، متعرّقاً ومرتجفاً، وخائفاً من صباح اليوم التالي. كنت بحاجة إلى عمل أكون فيه على انفراد (in camera)".

"تصوير فوتوغرافي؟".

"لا، إنها عبارة باللغة اللاتينية تعني في خلوة". وفرك أقلامه كما لو أنه يريحها من الحُكاك، وبدا متأسفاً وقال: "إنها عادة سيئة بسبب مزاولتي المحاماة؛ أستخدم هذه الجمل السخيفة بدلاً من الكلمات الإنكليزية. على أيّ حال، وبسبب سعيي إلى الانفراد، أصبحت مصحِّحاً للمواد الطباعية في ذي تايمز أوف إنديا".

كيف يُتلف تصحيح المواد الطباعية الحَلق؟ تساءل مانيك. كان قد قاطعه مرتين وبدا كالأخرق؛ فمن الأفضل له التزام الهدوء والإصغاء.

"كنت أفضل موظف لديهم في هذا المجال، الأفضل على الإطلاق. كانوا يحوّلون لي أصعب الأمور وأكثرها أهمية لأقوم بمراجعتها: صفحة الافتتاحية، الدعاوى القضائية،

النصوص القانونية، أسعار الأسهم، وخُطب السياسيين أيضاً؛ إنها مُملّة جداً لدرجة أنها تُشعرك بالنعاس، وتحملك على النوم. والنعاس هو أحد ألدّ أعداء مصحح المواد الطباعية. لقد رأيته يدمّر العديد من ذوي الشهرة الواعدين.

"لكنني لم أجد صعوبة في أي شيء. كانت الرسائل تُبحر أمام ناظريّ، سطراً بعد سطر، وتتلاشى بشكل مرتَّب في محيط من ورق الصحف. كنت أشعر أحياناً بأنني كبير الأميرالات في القيادة العليا للأسطول البحري المؤلف من طابعات. وبعد أشهر، تمّت ترقيتي إلى مصحح أعلى للمواد الطباعية.

"وغاب تعرّقي الليلي، وكنت أنام بشكل جيد. لقد شغلت المنصب طوال أربعة وعشرين عاماً، وكنت سعيداً في حُجَيرتي الصغيرة؛ مملكتي التي تتألف من طاولة، وكرسي، ومصباح للقراءة. ما الذي قد يرغب فيه المرء أكثر من ذلك؟".

قال مانيك: "لا شيء".

"بالتحديد. ولكن الممالك لا تدوم إلى الأبد، ولا حتى ممالك الحُجيرات الصغيرة المتواضعة. وحدث الأمر ذات يوم ومن دون سابق إنذار".

"ماذا حدث؟".

"كارثة. كنت أدقق في افتتاحية تتناول عضواً في مجلس الدولة جنى ثروة من مشروع تقديم المعونات للمتضررين من احتباس المطر. فبدأت عيناي تدمعان، وشعرت بالرغبة في حكّهما. ففركتهما ومسحتهما وواصلت عملي. وبعد ثوانٍ، أصبحتا رطبتَين مجدداً. فجففتهما مرة أخرى. وحدث ذلك مراراً وتكراراً، ولم يقتصر الأمر على دمعة أو دمعتين، بل تعدّى ذلك إلى سَيل مستمر من الدموع.

بعد قليل، تحلّق حولي زملائي القلقون، واحتشدوا في حُجَيرتي الصغيرة، باذلين قصارى جهدهم لمواساتي على ما اعتبروه حزناً. لقد افترضوا أن القراءة يوماً بعد يوم عن دولة يؤسَف لها - الفساد، الكوارث الطبيعية، الأزمات الاقتصادية - قد أنهكتني في نهاية المطاف؛ وهكذا، كنت أذوب من فرط الأسى واليأس.

كانوا مخطئين، بالطبع. ما كنت لأسمح أبداً بوقوف مشاعري في طريق واجباتي المهنية. تذكّر، أنا لا أقول إنه يجب على مصحح المواد الطباعية أن يكون عديم الشفقة. ولا أُنكر أنني أشعر في غالب الأحيان بأنني أبكي بسبب ما أقرأه؛ قصص عن البؤس، عنف طبَقي، قسوة الحكومة، عجرفة رسمية، وحشية الشرطة. أنا على ثقة بأن العديدين منا لديهم هذه المشاعر، ويكون الانفجار العاطفي عادياً تماماً. ولكن التضحية لمدة طويلة تحجّر القلب، وفقاً لشاعري المفضَّل".

"من هو؟".

"دبليو. بي. ييتس. وأظن أنه يجب وضع حدّ للسلوك الطبيعي أحياناً كي نتمكن من الاستمرار".

قال مانيك: "لست واثقاً من ذلك. ألن يكون من الأفضل التجاوب بصدق بدلاً من إخفاء واقع الحال؟ لو كان كل من في البلد غاضباً أو مستاءً، لتبدّلت الأمور ربما، وأُجبر السياسيون على التصرف بشكل ملائم".

لمعت عينا الرجل بسبب الاعتراض، واستمتع بالفرصة المتاحة له لمناقشة الأمر: "نعم، أوافقك الرأي من الناحية النظرية. ولكن، عملياً، قد يؤدي ذلك إلى وقوع كوارث أكبر. حاول فقط أن تتخيل ستمئة مليون شخص غاضبين، وصارخين، ومنتحبين. كل من في البلد - بمن فيهم ربابنة الطائرات، وسائقو القطارات والحافلات والترامات - يفقدون السيطرة على أنفسهم. يا لها من كارثة! الطائرات تسقط، القطارات تخرج عن مساراتها، المراكب تغرق، الحافلات والشاحنات والسيارات تتحطم. فوضى. فوضى تامة".

سكت قليلاً ليمنح مخيّلة مانيك الوقت لاستيعاب تفاصيل غياب الحكم ثم أضاف: "ورجاءً، تذكّر أيضاً أن العلماء لم يُجروا أي بحث عن تأثيرات الهستيريا الشعبية والانتحار الجماعي في المحيط. إذاً، كيف يكون تأثيرها في مستوى شبه القارة؟ فإذا كان باستطاعة جناحَي الفراشة أن يؤديا إلى اضطرابات مناخية حول العالم، فمن يعلم ما الذي قد يحدث في حالتنا. عواصف؟ أعاصير؟ موجات مدّية؟ ماذا عن مساحة واسعة من الأرض، هل ستهتزّ نتيجة لذلك؟ هل ستنفجر الجبال؟ ماذا عن الأنهار، هل ستؤدي دموع اثني عشر مليون شخص إلى ارتفاع منسوبها فتفيض؟".

تناول رشفة أخرى من القنينة الخضراء، وتابع قائلاً: "لا، الأمر شديد الخطورة. من الأفضل الاستمرار في الطريقة العادية". سدّ القنينة ومسح شفتَيه. "لنعد إلى الوقائع. كانت المسودات الطباعية أمامي في ذلك اليوم، وعيناي ترشحان بغزارة. لم أستطع قراءة أي كلمة. لقد دبّت الفوضى فجأةً في النص، وفي الصفوف والأعمدة المنظَّمة، وترجّحت الحروف وتقلّبت، متفككةً في يمّ من الورق العاصف".

ومرّر يده على عينَيه، وعاش التجربة السابقة في ذلك اليوم المشؤوم، ولمس بعد ذلك أقلامه بطريقة معزّية كما لو أنها مستاءة أيضاً من العودة بالذاكرة إلى تلك الأحداث المؤلمة. واغتنم مانيك الفرصة لمدحه قليلاً لضمان استمرار القصة، فقال له: "أتعلم؟ أنت أول مصحح مواد طباعية ألتقيه. كنت أعتقد أن هؤلاء المصححين أشخاص مُملّون جداً، ولكنك تتكلم بشكل... مختلف تماماً. كشاعر تقريباً".

"لماذا لا يُفترض بي أن أتكلم كشاعر؟ طوال أربعة وعشرين عاماً زادت انتصارات بلدنا وإخفاقاته من سرعة تنفّسي، جاعلةً نبضي يغنّي فرحاً أو يرتعش أسىً. طوال أربعة وعشرين عاماً، طارت مجموعات من الكلمات من رأسي عبر نوافذ روحي. وبقي بعضها وبنى أعشاشاً هناك. لماذا لا يُفترض بي أن أتكلم كشاعر وفي تصرّفي مجموعة من اللغات تنتعش مع انضمام لغات جديدة إليها؟"، وتنهد بقوة، "حتى ذلك اليوم الرطب بالطبع، عندما انتهى كل شيء، وأُقفلت النوافذ، حكم عليّ طبيب العيون بالعَجز البصري، قائلاً إن أيامي كمصحح قد انقضت".

"ألم يكن بإمكانه أن يعطيك نظارة جديدة أو ما شابه؟".

"ما كانت لتساعدني لأن عينَيّ أصبحتا شديدتَي الحساسية لحبر الطباعة". وبسط يدَيه في إيماءة تشير إلى الفراغ. "فالرحيق الذي كان يغذّيني استحال سُمّاً".

"ماذا فعلتَ بعد ذلك؟".

"ما الذي يمكن فعله في هذه الظروف؟ تقبُّل الأمر، والاستمرار في الحياة. رجاءً، تذكّر أن سرّ البقاء يكمن في تقبّل التغيير بسرور والتكيّف معه. أقتبس: كل الأمور تسقط وتُبنى مجدداً، وأولئك الذين يبنونها مجدداً يكونون مبتهجين".

"ييتس؟". حزر مانيك.

فأومأ المصحح برأسه، وقال: "كما ترى، لا يمكنك أن ترسم خطوطاً وأجزاء مستقلة، وترفض التخلّي عنها. أحياناً، عليك استخدام إخفاقاتك كوسيلة للنجاح. عليك الاحتفاظ بتوازن دقيق بين الأمل واليأس". وسكت قليلاً، مفكراً في ما قاله: "أجل"، كرّر، "في النهاية، كل الأمر مرتبط بالتوازن".

فأومأ مانيك برأسه: "بالرغم من ذلك، لا بد من أنك تفتقد إلى عملك كثيراً".

قال الرجل وهو غير متفق معه في الرأي: "حسناً، ليس تماماً. لا أفتقد إلى العمل بحد ذاته. فمعظم المواد الطباعية في الصحيفة مجرّد هراء. لقد أُخليت مجموعة كبيرة مما دخل عبر نوافذ روحي من خلال باب الأرضيّة، وبسرعة".

لقد بدا لمانيك أن ما أشار إليه الرجل يتناقض مع ما قاله قبل ذلك. ربما لا يزال المحامي القائم وراء مصحح المواد الطباعية ناشطاً وقادراً على مناقشة جانبَي المسألة.

"لقد احتفظتُ بقليل من الأمور الجيدة". وربّت المصحح على نحو مسموع، على جبينه أولاً، ومن ثم على علبة أقلامه البلاستيكية، وتابع قائلاً: "لا هراء ولا أمور غريبة، لا أقلام جافة في علبة الجَيب".

أشارت الطَرقة الواحدة للعكّاز إلى عودة الوالد والابنة إلى الممر. فاستقبلهما مانيك

والمصحح بابتسامتين لطيفتين. ولكن خاطرهما لم يطيَّب بسهولة. وخلال مروره للجلوس على مقعده، سدّد الوالد عكّازه على قدم المصحح، وكان سينجح في عملية الطعن لو لم يتنبّه المصحح إلى الأمر.

قال الوالد بصوت أجشّ ينمّ عن خيبة أمل: "آسف، ما العمل؟ تحدث أخطاء خرقاء عندما تكون لديك ساق سليمة واحدة في عالم الساقَين".

قال المصحح: "رجاءً، لا تقلق، لم يقع أي ضرر".

عادت الابنة للحياكة، وركّز الوالد نظره المتجهّم خارج النافذة، مُجفلاً المزارع الذي كان يعمل في حقله، والذي وقع نظره على نظر الوالد الغاضب. وطلب مانيك من مصحح المواد الطباعية إكمال قصته قائلاً: "إذاً، أنت متقاعد الآن؟".

فهز رأسه مجيباً: "لا أستطيع تحمّل ذلك. لا، لحسن حظي، كان محرّري شديد اللطف، وتدبّر لي عملاً جديداً".

"ولكن، ماذا عن مشكلة حلقك؟". لقد افترض مانيك أنه تم إغفال النقطة الرئيسة للرواية بأكملها.

"حدث ذلك في العمل الجديد. فبسبب منصبه، كان رئيس التحرير على علاقة جيدة مع العديد من السياسيين، وتمكن من أن يتدبّر لي عملاً مستقلاً". ولدى رؤيته التساؤل على وجه مانيك، شرح قائلاً: "أنت تعلم، لإعداد شعارات، واستئجار حشود، وتنظيم تجمّعات أو تظاهرات لأحزاب سياسية مختلفة. بدا الأمر بسيطاً بما يكفي عندما قدّم لي الفرصة".

"وهل كان بسيطاً؟".

"لم تكن هناك أي مشكلة على صعيد الابتكار. وضع خُطَب، وتصميم لافتات؛ كان كل ذلك سهلاً. فمع خبرة في التصحيح دامت سنوات، بتّ أعرف كل الحماقات والتبجحات التي يفضّلها السياسيون المحترفون. كان أسلوبي في العمل بسيطاً. أقوم بإعداد ثلاث لوائح: إنجازات المرشح (الحقيقية والخيالية)، اتهامات للمنافس (بما في ذلك الشائعات، والادعاءات، والإساءات المبطّنة، والأكاذيب)، والوعود الفارغة (كلما كانت غير محتمَلة الوقوع كان ذلك أفضل). بعد ذلك، يصبح الأمر مجرد إعداد مجموعات مختلفة من المواضيع استناداً إلى اللوائح الثلاث، مُضيفاً بعض الكلمات الطنّانة والمراجع المحلية، تكون الخُطبة الجديدة جاهزة. لقد حققتُ نجاحاً حقيقياً". وارتسمت ابتسامة على وجهه خلال تذكّر نجاحاته.

"تكمن المصاعب التي واجهتني في المرحلة النهائية؛ في الشارع. كما ترى، لقد

أمضيت حياتي المهنية في مكتب، في سكون تامّ، ولم يكن حَلقي معتاداً هذه الأمور. وبدأت فجأةً أوجّه التعليمات صائحاً، ومطلِقاً الشعارات صارخاً، وحاضّاً الحشود على تكرار ما أقوله. كان حقلاً غير مستكشَف بعد من قِبل شخص يملك خلفيّتي. لقد تخطى الأمرُ قدرةَ حنجرتي غير المعتادة على الصراخ، فتعرّضت أوتاري الصوتية لإصابات، وأبلغني الطبيب أنها لن تستعيد عافيتها تماماً".

قال مانيك: "هذا رهيب، كان يُفترض بك أن تدع الآخرين يصرخون ويصيحون. بالرغم من كل شيء، لذلك تمت الاستعانة بالحشود مدفوعة الأجر، أليس كذلك؟".

"صحيح. ولكنّ قيامي بمفردي بكل شيء في عملي القديم حتى أدق التفاصيل، كان عادة يصعب تغييرها. لم أستطع ترك مهمة الصراخ للحشود مدفوعة الأجر. فبالرغم من كل شيء، إن أبسط الأمور تقرر نجاح التظاهرة أو عدم نجاحها. فالشعارات الذكية واللافتات المميَّزة وحدها لن تفي بالغرض. لذلك، شعرت بأنه يجب عليّ أن أكون مثالاً يُحتذى، وأستخدم صوتي بحماسة، وأتكلم بصوت عالٍ، وأتضرع، وألعن قوى الشر، وأمتدح المحسنين؛ فأصرخ وأصيح وأهتف حتى يصبح الانتصار بمتناول يدَيّ!".

متأثراً بذكرياته، نسي مصحح المواد الطباعية حدوده وعلا صوته. فالتقط قلماً من جَيبه ولوّح به كما لو أنه عصا قائد فرقة موسيقية. وما لبثت صوره الكلامية السيمفونية أن قوطعت بسعال متقطع ولهاث وعدم قدرة على الكلام.

فانكمش الوالد والابنة، وتراجعا إلى الوراء مسندَين ظهرَيهما، مخافة التقاط العدوى من السعال المقزِّز. "ما العمل يا أبي؟"، قالت الابنة متنشّقةً ومغطّيةً أنفها وفمها بساريها، "بعض الناس لا يُبالون بالمحيطين بهم، وينشرون جراثيمهم بوقاحة".

التقط المصحح أنفاسه وقال: "هل ترى؟ هل ترى مدى عنائي؟ هذه هي نتيجة العمل الدعائي. عجز آخر". ورفع يدَيه وأمسك عُنُقه بقوة. "باستطاعتك القول إنني قطعت حَلقي".

فضحك مانيك بتقدير وامتنان، ولكن المصحح لم يتعمّد إظهار حس الفكاهة. قال بجدّية: "لقد تعلّمت من خبرتي. الآن، أُبقي بجانبي مساعداً قويّ الحنجرة أهمس تعليماتي في أُذُنه. لقد علّمته كيفية التعبير بالكلمات، والإيقاع، ومقاطع الكلمات. وهو يقود فِرَق الهتاف لصالحي".

"وحَلقه بخير، لا وجود لأي مشاكل؟".

"أجل، إنّه بخير تماماً، بالإجمال. كان رقيباً أول قبل أن يغادر القوات المسلحة. ومع ذلك، يتعيّن عليّ تزويده باستمرار بأقراص صغيرة للحَلق تحتوي على المنثول. في

الواقع، سيلتقيني في المحطة. هناك باستمرار طلب كبير على الحشود الهاتفة، والعديد من المجموعات في حركة دائمة؛ للحصول على المزيد من الطعام، وضرائب أقل، وأجور أكثر ارتفاعاً، وأسعار أكثر انخفاضاً. لدينا عمل نقوم به أيضاً عندما أعالج حَلقي".

وقُبَيل انتهاء القصة، لم يعُد يستطيع التكلم إلا هَمساً كما كان حاله في الليلة السابقة، فطلب منه مانيك عدم تجريح وتريه الصوتيّين أكثر فأكثر.

قال المصحح: "أنت مُحِق تماماً، كان يُفترض بي الكف عن الكلام منذ سنوات. بالمناسبة، أُدعى فاسانتراو فالميك". ومدّ يده.

"مانيك كولاه"، أجاب مصافحاً إيّاه، بينما كان الوالد والابنة ينظران في الاتجاه الآخر، غير راغبين في التعرّف إلى هذين الفردَين سيِّئَي السلوك.

* * *

بعد ست وثلاثين ساعة من مغادرة المنزل، وصل مانيك إلى المدينة، وكانت ملابسه مكسوّة بالغبار، ويشعر بوخز في عينَيه، ويؤلمه أنفه، ويشعر كما لو أن حَلقه مسلوخ. فتساءل على الأضرار الإضافية التي لحقت بالوترين الصوتيين لمصحح المواد الطباعية خلال الرحلة.

قال متقدّماً بصعوبة مع حقيبته اليدوية وصناديقه: "وداعاً، يا سيد فالميك. أتمنى لك الأفضل".

شاعراً بالهمّ خلال وقوفه على رصيف الركاب باحثاً عن الرقيب الأول المتقاعد، أجاب فاسانتراو فالميك بصوت منخفض أجشّ. فرفع يده مودّعاً، والتطمت يده بأقلامه في أثناء إخفاضها.

لقد اضطُرت سيارة الأجرة التي أقلّت مانيك من محطة القطار إلى نُزل الكلّية إلى الانحراف قليلاً عن الطريق بسبب قيام حافلة بصدم رجل عجوز. كان السائق يشير إلى الحافلات المارة بالتمهّل لنقل ركابه في أثناء انتظار الشرطة وسيارة الإسعاف.

قال سائق سيارة الأجرة مفكراً: "يجب أن تكون شاباً وسريعاً لتعبر الطريق".

أجاب مانيك: "هذا صحيح".

"سائقو الحافلات أوغاد، يشترون رخصة القيادة عن طريق الرشوة من دون الخضوع لاختبار في القيادة"، قال السائق بنبرة غاضبة، منتقلاً إلى المسرَب المقابل لحركة المرور، وتابع: "يُفترض إرسال الجميع إلى السجن".

"أنت مُحِق"، أجاب مانيك مُصغياً بشكل جزئي. لقد كان منهَكاً، وبدت المدينة

التي تمرّ أمام نافذة سيارة الأجرة وكأنّها شريط سينمائي. وعلى الرصيف، كان الأطفال يرجمون كلباً وكلبة يتزاوجان، وأفرغ أحدهم دلواً على الحيوانَين لتفريقهما. كادت سيارة الأجرة تُغفل مشهد ضرب الكلب خلال اندفاعها في حركة المرور.

عند إشارة المرور التالية، كانت الشرطة تعتقل رجلاً تعرّض للضرب من قِبل زُمرة مؤلفة من ستة أشخاص أو سبعة. فتقاطر السكان إلى الطريق ليشاهدوا بلوغ المأساة ذُروتها. "ماذا حدث؟". سأل سائق سيارة الأجرة أحد المتفرّجين، وهو يمدّ رأسه خارج النافذة.

"رمى الأسيد على وجه زوجته".

تحرّك السَّير قبل أن يكتشفا السبب. فخمّن السائق أنها ربما كانت تعبث مع رجل آخر، أو أنها أحرقت عشاء زوجها. "بعض الأشخاص مخبولون بما يكفي للقيام بأي شيء".

قال مانيك: "هل من الممكن أن يكون شجاراً بسبب الدوطة".

"ربما. ولكنهم يستخدمون الكيروسين في تلك الحالات، في المطبخ".

وصل مانيك إلى النُّزل في وقت متأخر من المساء. وفي مكتب القيّم، سُلِّم رقم غرفته، والمفاتيح، ولائحة بالقواعد: رجاءً، أَبقوا غرفكم مقفلة على الدوام. رجاءً، لا تكتبوا على الجدران أو تخدشوها بأدوات حادة. رجاءً، لا تصطحبوا زائرات إلى الغُرف. رجاءً، لا ترموا القُمامة من النوافذ. رجاءً، حافظوا على السكون في الليل...

فغضّن اللائحة ورماها على الطاولة الصغيرة. غير راغب في تناول الطعام أو الاغتسال، أخرج ملاءة سرير بيضاء وخلد إلى النوم.

أيقظه شيء ما يزحف على ربلة ساقه. فرفع أحد مِرفقَيه ووجّه ضربة قوية إلى المنطقة القائمة تحت الركبة. كان الظلام دامساً في الخارج، فارتجف، وخفق قلبه بشكل عشوائي، مذعوراً بسبب عدم قدرته على تذكّر مكان وجوده. ما هو سبب تقلّص نافذة غرفة نومه؟ وأين الوادي الذي يُفترض به أن يكون وراءها مع أضواء بالغة الصِّغر تتراقص في الليل، والجبال المُظلمة التي تلوح في البعيد؟ لماذا زال كل شيء؟

غطاه الارتياح كبطانية عندما تمكنت عيناه من رؤية أمتعته الموضوعة على الأرض. لقد سافر على متن القطار، وجعل السفر كل ما هو مألوف يتلاشى. كم مضى على نومه؟ ساعات أم دقائق؟ فحدّق إلى ساعته لحلّ الأُحجية، مُمعناً النظر إلى الأرقام المتوهّجة.

فجأةً، بدأ يتذكر ما الذي تسبب بإيقاظه؛ إنّه ذاك الشيء الزاحف على ساقه. فقفز خارج سريره، وركل حقيبة الملابس، وضرب الكرسيّ بقوة، وتلمّس الجدار باضطراب،

وضغط على المفتاح الكهربائي. فأنار المصباح في السقف، والتمعت ملاءة السرير كحقل مكسوٍّ حديثاً بثلج يُغشي البصر، باستثناء الجانب الذي نام عليه والملطَّخ بالغبار الذي يكسو وجهه وملابسه.

ورآه بعد ذلك على حافة المساحة البيضاء، وهو يعدو مُسرعاً تحت توهّج الضوء نحو الفجوة بين السرير والجدار. فالتقط حذاءً ورماه بشكل عشوائي باتجاهه.

كانت ضربة غير مُحكَمة، وتوارى الصرصور عن الأنظار. شاعراً بالاغتمام، طرد الإجهاد وتعاطى مع المشكلة بعزم أكبر. فأبعد السرير عن الجدار ببطء كي لا يُجفل الفارّ ويتمكن من حَشره.

كشفت الرقعة الصغيرة من الأرض عن اجتماع للصراصير. فجثم خِلسةً، ورفع يده، ووجّه ضربات متكررة قاتلاً ثلاثة منها، واختفت البقية تحت السرير. فانخفض على يدَيه وركبتَيه، عاقداً العزم على عدم السماح لها بالفرار وقَضّ مضجعه لاحقاً. في غضون ذلك، شعر بالرغبة في حكّ كاحله، وتحسّست أصابعه تورّماً أحمر. واكتشف تورّمات مماثلة على ذراعَيه.

قُرِع الباب. فتردد، وكَرِه أن يترك فريسته وشأنها؛ فإذا تمكنت الصراصير من الاختباء، فسيكون تحت رحمتها طوال الليل.

فنادى صوتٌ: "مرحباً! هل كل شيء على ما يرام؟".

خرج مانيك من تحت السرير، وفتح الباب قائلاً للزائر: "مرحباً! أُدعى أفيناش. أنا مقيم في الغرفة المجاورة". ومدّ يده اليمنى، وكان يحمل مضخة رذاذ باليسرى.

"أُدعى مانيك". وأسقط الحذاء وتصافحا، ومن ثم ألقى نظرة خاطفة من فوق كتفه للتحقق مما إذا كان العدوّ يحاول الفرار.

قال أفيناش: "سمعتُ دويّ الضربات. إنّها صراصير، أليس كذلك؟".

فأومأ مانيك برأسه، ملتقطاً حذاءه مجدداً.

"استرخِ، لقد أحضرت لك إحدى التكنولوجيات المتقدمة". ورفع مضخة الرذاذ، مُطلقاً ابتسامة عريضة.

قال مانيك، حاكّاً بعزم الأكاليل الحمراء الموجودة على ذراعَيه: "شكراً. ولكن كل شيء بخير، لقد قتلت ثلاثة و...".

"لا تعرف هذا المكان. اقتل ثلاثة فتصل ثلاث دزينات في صف واحد للانتقام. الأمر أشبه بفيلم لهيتشكوك". وضحك، واقترب لامساً التورّمات الحمراء على ذراعَي مانيك. "إنّها بقّات".

لقد تمثّلت نصيحته برش مبيد في الغرفة والانتظار في الخارج لمدة خمس وأربعين دقيقة. "إنها الطريقة الوحيدة لتتمكن من النوم الليلة، صدّقني. إنه عامي الثالث في النُّزل".

فوضعا الملاءة جانباً، ورفعا الفراش، وعالجا الإطار والقِدد. ورشّا بقية الغرفة أيضاً؛ علـى امتـداد حافـة النافذة، وفـي الزوايا، وداخل خزانة الملابـس. ونُقلت حقيبة الملابس والعُلب إلى غرفة أفيناش للحؤول دون لجوء البقّات والصّراصير إليها.

قال مانيك: "أشعر بالسوء بسبب استخدام كمية كبيرة من رذاذك".

"لا تقلق، سيكون عليك شراء قنينة خاصة بك. يمكنك رشّ غرفتي في وقت لاحق. تحتاج الغرف إلى الرش مرة واحدة في الأسبوع على الأقل".

جلس مانيك على الكرسي الوحيد، وأفيناش على السرير، بانتظار موت الحشرات. "إذاً"، قال منحنياً إلى الوراء على مرفقَيه.

"شكراً لمساعدتك".

"لا تقلـق، ليـس بالأمـر الهـام". وتوقف قليلاً عن الـكلام ليتحقق من المنحى الذي سـيتخذه الحوار. ولكن مانيك لم يقل شـيئاً. "هل تريد أن تلعب الشـطرنج، أو الداما، أو أي شيء آخر، لتمضية الوقت؟".

حسناً، الداما. وأحب مانيك طريقة النظر إلى عينَيه مباشَرةً.

لقد كان من الأسهل البدء بالتحدث ما إن بدأ الشَّوط، ورأساهما منحنيان فوق لوحة الداما. "إذاً، من أين أنت؟". سأل أفيناش، بعد تتويج أول ملك له.

إن قصـة القريـة الجبليـة، والمسـتوطنات، والجبـال، وقرود النَّغور الآسـيوية طويلة الذَّيل، والثلج، خلبت لبّ أفيناش. وبعد فوزه بالشَّوط وإعداد اللوحة لجولة ثانية، اعترف بأنه لم يسبق له أن سافر إلى أي مكان.

قال مانيك: "لقد بنى جدّ جدّي المنزل على تلة، وبسبب الأرض شديدة الانحدار، قمنا بربطه بأسلاك فولاذية كي يثبت في مكانه".

"انتظر لحظة، أتعتقد أنني وُلدت بالأمس؟".

"لا. في الواقع، لقد حدث زلزال وتحرّكت الأساسـات نحو الأسـفل. لهذا السـبب ربطنا الأسلاك". وشرح كيفية القيام بأعمال التصليح، ووصف التفاصيل التقنية.

لقد أقنعت جدّيتُه أفيناش، واعتبر أنّ ربط منزل بصخرة جبلية أمراً مسلّياً. "يبدو كما لو أنه منزل ذو ميول انتحارية".

ضحكا. فحرّك أفيناش أحد جنوده نحو الأمام وقال: "توّجني". وبعد خطوات قليلة، فاز مجدداً. "إذاً، ماذا يفعل والدك؟".

"لدينا متجر".

"آه، رجل أعمال. لا بد من أنه يجني أموالاً طائلة، ويرسلها إليك إلى هنا لتتابع دراستك".

لقد جرحت القهقهة المزدرية التي بدت في صوته مشاعر مانيك. "إنه مجرد متجر صغير، ويكدّ والداي في العمل. لقد أرسلاني للدراسة لأن أعمال المؤسسة تتراجع على نحو مضطرد و...".

ورفعا أنظارهما في الوقت نفسه، ضاحكَين من الكلمة المختارة. فاعتبر مانيك أنه أجاب عن عدد كافٍ من الأسئلة. "ماذا عنك؟ أنت تدرس هنا، لا بد من أن والدك ميسور ليتمكن من تحمّل التكاليف".

"آسف لتخييب ظنك. لقد حصلت على منحة دراسية".

"أهنّئك". وفكّر مانيك ملياً في خطوته التالية، ثم قال: "وماذا يعمل والدك؟".

"إنّه موظف في مصنع للنسيج".

"هل هو المدير؟".

فهز أفيناش رأسه نافياً.

"أهو محاسب؟".

"إنه يعمل على الآلات. لقد عمل على آلة نسيج طوال ثلاثين عاماً، هل اكتفيت؟". وارتعش صوته على شفير فورة غضب، ولكنه هدأ بعد ذلك.

قال مانيك: "آسف، لم أقصد أن...".

"لمَ الأسف؟ لا أشعر بالخجل من الحقيقة. أنا من يُفترض به الشعور بالأسف لأنه ليس لديّ قصة مشوِّقة أخرى. لا جبال، لا ثلج، لا منازل شاردة. فقط والد وهب سنواته للمصنع، ولم يحصل على أي شيء في المقابل".

التفتا مجدداً إلى لوحة الداما، وواصل أفيناش الكلام. فبعد حصوله على المنحة الدراسية، تطلّع للحصول على غرفته الخاصة في النُّزل. لقد عاش كل حياته مع والدَيه وشقيقاته الثلاث في منزل صغير مؤلف من غرفة واحدة ومطبخ استأجروه من المصنع. وأُصيب والده بالسلّ الرئوي قبل سنوات قليلة، ولكنه أُجبر على الاستمرار في العمل وسط الغبار والخيطان للإنفاق على العائلة. علاوةً على ذلك، إذا أراد التخلّي عن عمله، فسيتوجّب عليه إخلاء المنزل التابع للمصنع، ولا مكان آخر لديهم ليذهبوا إليه.

عندما وصل أفيناش إلى النُّزل، كان قذِراً ومليئاً بالجرذان والصراصير، فخُيّب أمله. "قد يكون منزلنا مؤلفاً من غرفة واحدة ومطبخ، ولكننا نبقيه نظيفاً على الأقل". بعد ذلك،

كانت هناك الإحباطات المرتبطة بكونه رئيساً لاتحاد الطلاب ورئيس مجلس إدارة لجنة النُّزل. "أشعر بالندم بسبب انتخابي. لا شيء في نشرة الكلّية يُعدّكم للحياة في النُّزل".

"ماذا تعني؟".

"لا أريد أن أصفه لك وأفسد يومك الأول. ما رأيته حتى الآن لا يُذكَر. إذا أراد الطلاب إدخال تحسينات، يتم إصلاح الحمّامات والمراحيض بسهولة، وتذهب كل أموال الصيانة إلى جَيب أحدهم. فمطعم النُّزل خير مثال على ذلك: هناك عقد مُربح مع متعهّد الطعام، ومع ذلك فهو يزوّد الطلاب بالقُمامة. ولكن، يمكنك أن تختار قُمامتك؛ سواء أكنت نباتياً أم غير نباتي".

قال مانيك: "لست صعب الإرضاء في ما يتعلق بالطعام".

فضحك أفيناش قائلاً: "سنرى. في الواقع، ليس هناك كثير من الخيارات. أظن أن طعام النباتيين مماثل لطعام غير النباتيين، باستثناء الغُضروف والعظام".

ركز مانيك على اللعب، ظنًّا منه أن أحد رجاله سيخترق الدفاعات أخيراً.

قال أفيناش، ملتهماً رجل الداما الواعد: "تكمن المشكلة، في أن معظم عائلات الطلاب في النُّزل فقيرة. لذا، هم يخشون من التذمّر، وكل ما يبتغونه هو إنهاء دراستهم والعثور على عمل كي يتمكنوا من الاعتناء بأهلهم وأشقائهم وشقيقاتهم".

لقد فشل مانيك مجدداً، ومكّن أفيناش من تتويج ملك آخر، فاقداً الشَّوط بعد نقلتَين. لم يبالِ من الاستمرار في الخسارة لأن خصمه لا يشمت.

قال أفيناش: "تبدو نعسان، لا عجب في أنك غير قادر على التركيز على اللعبة".

"لا بأس، لنلعب شَوطاً آخر. ولكنك مختلف عن الطلاب الآخرين".

فضحك أفيناش: "كيف يمكنك أن تعرف؟ لقد وصلتَ للتوّ".

فكّر مانيك مليّاً، ممرّراً إحدى أصابعه على الأثلام المتراكزة التي تزيّن أحجار الداما. "بسبب... بسبب كل ما قلته للتوّ. لأنك أصبحت الرئيس لتحسين الأمور".

فهزّ أفيناش كتفَيه: "لا أعتقد ذلك. أنا أخطط للاستقالة. يُفترض بي توفير وقتي وطاقتي للدراسة. كنت أول من يُنهي المدرسة الثانوية في عائلتنا. الجميع يعتمدون عليّ، وشقيقاتي الصغيرات الثلاث أيضاً. يجب عليّ جمع المال لدوطاتهنّ وإلا فلن يتمكنّ من الزواج". وتوقف قليلاً عن متابعة الكلام وابتسم، ثم قال: "عندما كنّ صغيرات، اعتدنَ قضم أصابعي في أثناء قيامي بمساعدة والدتي على إطعامهنّ". وضحك لدى تذكّر الأمر، "يقول والدي إن كل الدماء التي بصقها لن تذهب عبَثاً إذا حصلت على شهادتي وعلى عمل جيد".

رفعا أنظارهما عن لوحة الداما، والتزم أفيناش الصمت. لقد كان من السهل عليهما مواصلة الكلام خلال التصاق أنظارهما بحجارة الداما بسبب تحكّمهما بالقدرة على التفكير بشكل سليم في اللوحة ذات المربعات، مواصلَين اللعب والمناقشة في آن واحد. ولكن الخيط انقطع، وأفسد الإحراج والشعور بالارتباك كل شيء.

"عليّ إفراغ الحقائب".

"يُفترض بغرفتك أن تكون بأفضل حال الآن. لنتحقق من ذلك".

أعادا حقيبة الملابس والعُلب، ورفعا الصراصير الميتة بالمكنسة، ووضّبا السرير. قال أفيناش: "لا تضعه بمحاذاة الجدار مجدداً، من الآمن إبقاء مسافة قدم واحدة على الأقل بينهما". واقترح أيضاً تغطيس قوائم السرير في صفائح ماء لمنع الحشرات من تسلّقها. "يمكننا القيام بذلك غداً. ستكون بأفضل حال الليلة".

شكا مانيك لدى مكتب القيّم من أن شيئاً لا يحدث عندما يسحب سلسلة المرحاض.

"يحصل هذا بسبب عدم تزوّد خزانات المراحيض بالماء"، قال الموظف، وأبعد نظره عن بعض المستندات الممزقة التي يُلصقها بشريط شفاف، ثم تابع قائلاً: "لم يصل متعهّد المبنى الأنابيب رغبةً منه في توفير المال. لقد رفعت الكلّية دعوى قضائية ضده. ولكن، لا تقلق، إن الكنّاس الذي ينظّف المراحيض يهتم بالأمر".

"كيف؟".

"بِدِلاء ماء".

"متى يأتي الكنّاس؟".

"قبل استيقاظ النزلاء. عند الرابعة صباحاً، وأحياناً عند الخامسة صباحاً".

فاتخذ مانيك على الفور قراراً حازماً: من يريد دخول الحمّام قبل سواه كل صباح يتعيّن عليه الاستيقاظ باكراً لأجل الحصول على هذا الامتياز.

في اليوم التالي، ولدى معرفته باستيقاظ مانيك قبل الفجر، قدِم أفيناش للتحقق من الأمر. "ما خَطبك؟ هل أنت مريض أو ما شابه؟".

"لا، أنا بخير. لماذا؟".

"هل تعرف كم الوقت الآن؟ إنّها الخامسة والنصف".

"أعرف. ولكنني أكره قيام غائط أحدهم بالتحديق إلى وجهي عندما أدخل الحمّام".

فشعر أفيناش بالانزعاج لأنه سحب نفسه خارج السرير من دون أي سبب، وضحكا. "أنتم الفتيان الأثرياء! متى ستعتادون على الواقع؟".

"قلت لك إنني لست ثريّاً. فالحمّام في منزلنا عادي كهذا الحمّام تماماً. ولكن،

يوجد ماء في الخزّان، ولا وجود لهذه الرائحة الكريهة".

"مشكلتك هي أنك ترى كثيراً وتشم كثيراً. إنها الحياة في المدينة الكبيرة؛ لا مزيد من الجبال الجميلة المكسوّة بالثلوج. عليك أن تتعلّم إغماض عينَيك وإقفال أنفك. وهناك أمر آخر من الأفضل لك أن تكون مستعداً لتقبّله، وهو المقالب".

قال مانيك: "لا". متذكراً مدرسته الداخلية. "ألم يكبر هؤلاء الأشخاص بعد؟ ماذا يفعلون؟ أيسكبون الماء فوق السرير؟ أم يضعون الملح في الشاي؟".

"شيئاً من هذا القبيل".

في الرسالة التي أرسلها مانيك إلى أسرته في نهاية الأسبوع، بذل قصارى جهده لإخبار والدَيه عن أمور لا تحملهما على الظن خطأً بأنها شكوى أو تذمّر. لم يشأ أن يظن العميد غريوال والسيدة غريوال، وكل الآخرين الذين سيقرأون الرسالة، أنه شخص لا قدرة له على الابتعاد عن والديه ولا يستطيع تدبّر أموره بنفسه.

لكن، بعد أول أسبوعين، وعندما أصبح وأفيناش صديقَين مقرَّبَين، لم يستطع تصديق ما قيل له قبل مغادرة المنزل؛ عن أنّه سيمضي وقتاً ممتعاً في الكلّية.

ذات مساء، اعترف مانيك خلال لعبه الداما أنه يجهل لعبة الشطرنج. فقال له أفيناش إن باستطاعته تعليمه إيّاها في غضون ثلاثة أيام. "هذا إذا كنتَ مهتماً حقاً بتعلّم اللعبة".

بما أنهما غير نباتيَّين ويجلسان في القسم نفسه من قاعة الطعام، فقد بدأ درس الشطرنج خلال العشاء مع ورقة وقلم. وقال مانيك إن تركيزهما على اللعب يسهّل عليهما تقبّل شَطف مطعم الكلّية.

قال أفيناش: "الآن، أنت تتعلم. هذا هو السر؛ التحكم بحواسك. هل أخبرتك عن نظريتي بشأنها؟ أظن أنّ حواسّنا كلها معدّة للاستمتاع بعالم مثالي. ولكن، يجب علينا وضع غِمامات على حواسنا بما أن العالم غير مثالي".

"عالَم النُّزل هو أكثر من كونه غير مثالي؛ إنه تشوّه هائل".

بعد تناول الطعام، انتقلا إلى الغرفة المشترَكة حيث كان السكون لا يزال مهيمناً. كان هناك عدد قليل من الطلاب المتحلّقين حول طاولة البليارد، وكان المشاهدون يعقّبون بهمهمات أو مواساة كلما اندفع المِضرب بقوة إلى داخل الحافة الناتئة وارتدّ إلى الوراء. دخلت مجموعة أخرى من الطلاب الضاحكين والمسترسلين في مرح صاخب، وبدأوا يمارسون لعبة وضع الغطاء على المروحة: رمي غطاء قلم على المروحة التي تدور بشكل بطيء ومحاولة جعله يستقر على أحد الأنصال الثلاثة. وبعد محاولات عدة، وقف مبتكِر اللعبة على كرسي، وأوقف المروحة، ووضع غطاء القلم عليها. وزادوا بعد ذلك سرعة

دوران المروحة، وهلّلوا وهتفوا عندما طار الغطاء عنها. ومن ثم أمسكوا بأحد الطلاب، ورفعوه باتجاه المروحة مهدّدين بدفعه نحو الأنصال. فصرخ وولول؛ ليس من الخوف، بل لأنّ تصرّفه ذاك هو التصرّف المنتظر.

شاهد مانيك وأفيناش للحظات حركاتهم المضحكة، وصعدا بعد ذلك إلى الطابق العُلوي لمواصلة درس الشطرنج. كانت أحجار الشطرنج الخاصة بأفيناش تنتظر على طاولته داخل علبة من الخشب الرقائقي المكسوّ بطلاء تلميع بنّي اللون. فرفع الغطاء المنزلق، وأفرغ العلبة على لوحة الشطرنج.

لم تكن الأحجار البلاستيكية مسبوكة بشكل جيد، وكان اللون الأخضر يحيط بقواعدها. ولاحظ مانيك وجود ورقة وجهها إلى الأسفل في قعر العلبة، فقلَبها.

قال أفيناش: "ما بك؟ إنه أمر شخصي".

"أنت شخص يُعتمَد عليه"، قال مانيك، قارئاً الشهادة بإعجاب: مُنحت المجموعة الجائزة الأولى في مباراة الشطرنج بين الصفوف عام 1972. "لم أعرف قطّ أن أستاذي بطل".

قال أفيناش: "لم أرغب في جعلك عصبيّ المزاج، هيا الآن، انتبه".

مع حلول اليوم الثالث، كان مانيك قد تعلّم أسس اللعبة. كانا في قاعة الطعام يفكران مليّاً في كيفية الخروج من المأزق الذي وضع أفيناش مانيك فيه: هل يحرّك الحجر الأبيض ويُميت الشاه بثلاث نَقلات؟ فجأةً، حدث اضطراب في القسم النباتي. فلقد قفز الطلاب من أماكنهم، وقلبوا الطاولات رأساً على عقِب، وحُطّمت الأطباق والأكواب، وارتطمت الكراسي بباب المطبخ. ولم يمضِ وقت طويل حتى عرف كل من في قاعة الطعام سبب الضوضاء: فقد اكتشف طالب نباتي قطعة لحم صغيرة تطفو على سطح ما يُفترض به أن يكون مَرَق عدس خالياً من اللحوم.

وانتشر الخبر بأن متعهد الطعام الوغد يعبث بمشاعرهم الدينية، ويدوس على معتقداتهم، ويلوّث كياناتهم، من أجل تعبئة محفظة نقوده البائسة. وفي غضون دقائق، نزل كل نباتي مقيم في النُّزُل إلى المطعم، مستشيطين غضباً بسبب الرّياء، وكان بعضهم على وشك الإصابة بانهيار عصبي كما يبدو، صائحين بشكل غير مترابط، ومصابين باضطرابات عنيفة، وواضعين أصابعهم داخل أفواههم باتجاه حناجرهم لتقيّؤ المادة الممنوعة. ونجح العديدون في تقيّؤ ما تناولوه من طعام.

لكن، لم تكن هناك أصابع طويلة بما يكفي لبلوغ الوجبات المهضومة منذ بداية الفصل الدراسي. لقد تم امتصاص تلك المواد المقزِّزة لتصبح جزءاً من مِخاخ عظامهم

ومـن سـبب كَربهـم. كانـوا يحاولـون التقيّؤ، ويبصقـون، ويئنّون، ويدورون حول أنفسـهم ممسـكين برؤوسـهم، وصارخين من هَول الكارثة، غير راغبين في الاعتراف بأن معِداتهم فارغة ولم يتبقَّ فيها ما يُخرجونه منها.

ووَجَدَت الهسـتيريا أمراً أكثر إشـباعاً للرغبات تركز عليه عندما سُـحب العمال إلى خارج المطبخ. كان الرجال الستة يرتجفون أمام متّهِميهم، وتفوح منهم رائحة زيتٍ زَنِخ، وتعرّق، وأجهزة طَبخ حارة، وعلى ملابسهم الرسمية بُقَع ناجمة عن إعداد لائحة الأطعمة المسائية: لطخات عدس بنّية اللون، خطوط سبانخ باللون الأخضر الداكن.

كان أثر توقّع الانتقام كأثر مزيل الحموضة عن الأحشاء النباتية التي انتُهكت حُرمتها. وتراجع الغثيان، وحلّ سَيل من العنف الكلامي مكان تقيّؤ الصفراء والسائل الأصفر المائل إلى الخضرة.

"اسحقوا الأوغاد!".

"حطّموا وجوههم!".

"دعوهم يأكلون اللحم!".

لم تتحوّل التهديدات إلى ضربات على الفور لأن الرجال الستة سقطوا على رُكَبهم، مُطلقين أصواتاً مماثلة للعويل. كانوا يتباكون ويتوسلون طلَباً للرحمة على نحو غير مترابط، وبشكل هستيري على غرار الجهود التي بذلها النباتيون للتقيّؤ.

راقب أفيناش للحظات تكشّف الأحداث المثيرة للمشـهد المسـرحي، ومن ثم دفع كرسيّه إلى الوراء قائلاً: "لديّ فكرة. هلاّ اهتممتَ بلوحة الشطرنج؟".

قال مانيك: "ستصاب بالأذى، لماذا تتدخل؟".

"لا تقلق، سأكون بخير".

أعـاد مانيـك أحجـار الشـطرنج إلـى العلبـة، مراقبـاً من زاويتـه. كان عمّـال المطبخ والطـلاب لا يزالـون فـي وضعياتهم: مرتكبو الجُـرم قابعون عند أقدام المعاقِبين الذين لا يرحمون خوفاً منهم، طالبين الصفح. لو لم يكن العمال في مواجهة خطر حقيقي بالتعرّض للضرب، لكان الأمر مسـلّياً. لكن، حتى تلك اللحظة، كان الخط الفاصل غير المرئي لا يـزال قائمـاً بيـن القـدرة علـى المعاقبة وتنفيـذ العقوبة. من الغريب كيـف أنه يمكن لتلك الخطوط غير المرئية أن تكون بهذه القوة، قال مانيك في سرّه، إنها قوية كجدران الآجرّ.

صـاح أفينـاش: "توقفـوا! انتظروا لحظة!". واضعاً نفسـه بين عمّال المطبخ الخائفين والطلاب.

"مـاذا؟"، سـألوا بغيـظ ونفـاد صبـر، بعـد أن عرفـوا رئيسَ مجلـس إدارة لجنة النُّزُل

ورئيسَ اتحاد الطلاب.

"تمهّل قليلاً. ما الهدف من ضرب هؤلاء الأشخاص؟ متعهّد الطعام الغشاش هو المسؤول".

"سيتلقى الرسالة إذا أبرحنا عماله ضرباً. لن يجرؤ على أن يُرينا وجهه هنا مجدداً".

"أنتم مخطئون. سيأتي بحماية الشرطة".

مناورة عظيمة، قال مانيك في سرّه، لقد تعزز الخط الفاصل غير المرئي.

ناشد أفيناش النباتيين وكل المشمئزين من الطعام الانضمام إليه للتقدم بشكوى إلى إدارة الكلّية. "لنقم بذلك ديموقراطياً، ولنمتنع عن التصرف كالمشاغبين في الشارع. يكفينا ما يقوم به السياسيون الحقيرون".

مات الملك، قال مانيك لنفسه. لقد تم التعاطي مع الأمر بحكمة.

كان بعض الطلاب مع الاقتراح وبعضهم الآخر ضده. وأطلق النباتيون وابلاً من التهديدات، وجاء ردّ عمّال المطبخ تذلّلاً وأنيناً. ولكن حدة الموقف كانت قد بدأت بالتراجع في المعسكرَين، وازدادت الأصوات المطالِبة بتأييد مناشدة أفيناش. وهدأت عدائية النباتيين تدريجيًّا والتزموا الصمت، وأوقف عمّال المطبخ نوبات بكائهم، مُبقين ركابهم في جهوزية تامة للركوع بسرعة إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ووُضعت خطط لتنظيم احتجاج كبير خارج مكتب المدير في صباح اليوم التالي. ولقي المسار المختار للتحرّك حماسة من قِبل الجميع، حتى إن النباتيين الأكثر صرامة توقفوا عن التقيّؤ، وتمالكوا أنفسهم، وغادروا المكان لتطهير أنفسهم من التلوث، واعدين بالتجمّع مع الآخرين في الصباح.

مات الملك، قال مانيك في سرّه. إن الخط غير المرئي منيع.

"أظن أنك ما ندعوه قائداً بالفِطرة". قال لأفيناش في وقت لاحق من تلك الليلة، ممازحاً ومُعرباً عن إعجابه في آن واحد.

"هذا غير صحيح البتّة، بل أنا أخرق بالفطرة. يُفترض بي التمسك بقراري بالتخلي عن كل ذلك والاهتمام بدراستي. هيا، لنصعد إلى الطابق العُلوي".

ذُهل أفيناش وأتباعه بالنجاح الذي حققه تحرّك الطلاب. فقد وجّه المدير رسالة فَصل إلى متعهّد الطعام، ومُنحت لجنة النُّزل حق اختيار بديل له.

فأقام الطلاب المبتهجون احتفالاً بالنصر وأصبحوا أكثر طموحاً. ووعد رئيسهم الجميع بالتخلص من مساوئ الحَرَم: المحاباة في اختيار الموظفين، تلقّي الرِّشى للموافقة على طلبات الانتساب، بيع أوراق الامتحانات، منح عائلات السياسيين امتيازات خاصة،

تدخّل الحكومة في المنهاج الدراسي، ترهيب أعضاء مجلس الكلّية. كانت اللائحة طويلة بسبب عُمق الفساد.

غمرت السعادة الطلاب الذين كانوا على ثقة تامة بأنهم سيكونون مثالاً يُحتذى للجامعات المنتشرة في مختلف أنحاء البلد للقيام بإصلاحات جذرية تكون مكمِّلة لحركة جاي براكاش نارايان التي تدعو الأمّة للعودة إلى المبادئ الغاندية. من شأن التغييرات أن تشدد عزم كل أفراد المجتمع، وتحوّله من مخلوق فاسد محتضر إلى كائن سليم يوقظ العالم ويقود البشرية جمعاء باتجاه التنوّر، وذلك من خلال إرثه المتمثل بحضارة غنيّة وقديمة تستند إلى حكمة كتابات الفيدا والأوبانيشاد المبجلة.

لقد شعر الطلاب بعد أيام قليلة من احتجاجهم على إدارة المطعم بسهولة تحقيق أحلام نبيلة. وبكثير من العزم والنيّة الحسنة اللذين اعتريا الجسم الطلابي، أُنشِئت العديد من اللجان الفرعية، وتمّ تبنّي برنامج عمل، وسُجّلت محاضر وقائع الجلسات، واتُّخذت قرارات، وتحسّنت وجبات المطعم، وساد التفاؤل.

من جهة ثانية، حصل مانيك على نصيبه من التحركات الطلابية، وأراد أن يستعيد وأفيناش حياتهما للعودة إلى روتينهما السابق. فالتحرك الذي لا نهاية له أمر مُنهك ومُملّ. لذلك، حاول صرف أفيناش عن شغفه الجديد، متخذاً ما اعتبره خطوة ماكرة؛ أي استحضار عائلة صديقه. "أظن أنك مُحِق. ما قلتَه في السابق، كما تعلم، عن التركيز كلّياً على الدراسة لأجل والدَيك ودوطات شقيقاتك. يُفترض بك القيام بذلك حقاً".

فشعر أفيناش بالقلق بعد تذكيره بهذا الواجب العائلي، وقطّب حاجبيه، وقال: "أشعر أحياناً بالذَّنب بسبب ذلك. سأتخلى عن رئاسة مجلس الإدارة بعد معالجة المشاكل القليلة المتبقية".

سأل مانيك، فاقداً الصبر: "أي مشاكل؟ في كل اجتماعاتك، لم تذكر مرة واحدة المراحيض القذرة والحمّامات. يُفترض بالصراصير والبقّ أن تكون على جدول الأعمال. لو رأى الماهاتما غاندي ما تفعله لما كان سيُعجب بطريقتك في معالجة الأمور، لأنه كان يعتقد بالنظافة بشكل ثابت لا يلين؛ الطُّهر الجسدي يتقدّم الطُّهر العقلي، والطُّهر العقلي يتقدّم الطُّهر الروحي".

لقد ابتهج أفيناش بالاعتراض وضحك، مُلقياً ذراعه على كتفَي مانيك خلال عبورهما الساحة المربعة، وقال له: "لم أكن أعلم أنك خبير في الفلسفة الغاندية. قل لي، هل ترغب في ترؤس لجنة الصراصير الفرعية؟ سأُؤَيّد الاقتراح".

حضر مانيك عدداً قليلاً من التجمعات والاحتجاجات بهدف دعم صديقه ليس إلا،

ولكن ذلك لم يكن سبباً كافياً لإقناعه. وكان مسار الأمور تكرارياً على نحو مُملّ لدرجة أنه توقف عن الذهاب.

لم يعد أفيناش يملك الوقت للعب الشطرنج في الأمسيات. واستمرا في تناول الطعام معاً، ولكنهما نادراً ما كانا يتواجدان بمفردهما، مما أدى إلى امتعاض مانيك. كان صديقه محاطاً باستمرار بحشد من الطلاب، وكانوا يقومون بمناقشة أمور لم يفهمها ولم يكن مهتماً بفهمها. كان حديثهم مليئاً بتعابير مثل تطبيق الديموقراطية، والدستور، وانتقال المُلكية من شخص إلى آخر، والانحطاط الأخلاقي، واللامركزية، وتنظيم الاقتصاد وفقاً للمبدأ الاشتراكي الذي يفيد بسيطرة الدولة أو الشعب على وسائل الإنتاج كافة وعلى النشاطات الاقتصادية، والقومية، والرأسمالية، والماديّة، والإقطاعية، والإمبريالية، والطائفية، والاشتراكية، والفاشية، والنسبية، والحتمية، والبروليتارية. كانت الكلمات تتطاير حوله كحشرات طنّانة.

لماذا لا يستطيع هؤلاء الأشخاص التحدث بشكل طبيعي؟ تساءل مانيك. وللترفيه عن نفسه، بدأ يَعدّ كلماتهم المتنوعة، وتوقف عندما بلغ العدد عشرين. كانت كلمة كلاب تظهر أحياناً في نقاشاتهم؛ الإمبرياليون الكلاب، كلاب الرأسمالية. وتُستبدَل أحياناً كلمة كلاب بقططة، فيغدو كلاب الرأسمالية قططة الرأسمالية، وتظهر من حين إلى آخر تعابير مثل ضباع إقراض المال وبنات آوى قاصدين مالكي الأراضي. ومؤخراً، أُضيف تعبير حالة الطوارئ إلى كل تلك الكلمات والتعابير التي استمرت في الظهور كما لو أن السماء سقطت.

شاعراً بأنه يتم تجاهله، قصد مانيك غرفته بعد إنهاء وجبته. كانت أحجار الشطرنج البلاستيكية لا تزال لديه، فوضعها في أماكنها على لوحة الشطرنج ليلعب ضد نفسه. فحرك حجراً، وأدار اللوحة. وأصبح الأمر مُملاً بعد قليل. وجرّب قراءة الكتاب الذي أقرضه إياه أفيناش، والذي يتضمن سلسلة من مسائل المراحل النهائية في لعب الشطرنج موضوعةً بشكل تصاعدي وفقاً لدرجة صعوبتها.

كان الأمر عسيراً بالنسبة إليه، واستمر مانيك في تجنّب رفقة صديقه. وبعد أيام قليلة من الوحدة المتواصلة، قرر أفيناش منحه فرصة أخرى، وقرع على باب غرفته.

"مرحباً، ما الجديد؟"، وربّت على ظهر مانيك بمودة.

"هذه اللعبة".

"أتلعب بمفردك؟".

"لا، مع نفسي". وأطاح مانيك بمَلِكه.

"لم أرك كثيراً مؤخراً. ألا ينتابك الفضول حيال ما يحدث؟".

"أتعني في الكلّية؟".

"أجل، وفي كل مكان بعد إعلان حالة الطوارئ".

بدا مانيك غير مُبالٍ: "آه، حالة الطوارئ تلك، لا أعرف الكثير عن تلك الأمور".

"ألا تقرأ الصحف؟".

"أطالع المواد الفكاهية فقط. كل الأخبار السياسية مُملّة جداً".

"حسناً، سأبسّطها لك بسرعة كي لا تنام".

تحقق مانيك من ساعته: "جيد. سأحتسب الوقت الذي ستمضيه في الشرح. هل أنت مستعدّ؟ ابدأ".

أخذ أفيناش نفساً عميقاً: "قبل ثلاثة أسابيع، وجدت المحكمة العليا رئيسة الوزراء مذنِبة بممارسة الغش في الانتخابات الأخيرة، مما يعني أنه يتعيّن عليها التنحّي. ولكنها بدأت بالمماطلة. لذلك، شرعت أحزاب المعارضة، والمنظمات الطلابية، واتحادات العمال بتظاهرات شعبية في مختلف أنحاء البلد، منادين باستقالتها. وبهدف التمسك بالسلطة، ادّعت أن أمن البلد مهدَّد باضطرابات داخلية، وأعلنت حالة الطوارئ".

قال مانيك: "تسع وعشرون ثانية".

"انتظر، هناك المزيد. ووفقاً لبنود الطوارئ، عُلّق العمل بالحقوق الرئيسة، واعتُقل معظم أفراد المعارضة، وسُجن قادة النقابات إضافةً إلى بعض قادة الطلاب".

"يُستحسن بك أن تكون حذراً".

"آه، لا تقلق، كلّيتنا ليست على درجة كبيرة من الأهمية. ولكن أسوأ ما في الأمر هو فرض الرقابة على الصحافة...".

"إذاً، لا جدوى من قراءة الصحف، أليس كذلك؟".

"لقد غيّرت قوانين الانتخاب حيث يسري مفعولها بدءاً من تاريخ سابق، محوّلةً ذَنبها إلى براءة".

"ولا وقت لديكم للعب الشطرنج بسبب هذا الأمر".

"أنا ألعب الشطرنج طوال الوقت. كل ما أقوم به هو لعب الشطرنج. هيا، لنرَ ما الذي تعلّمته". فأعدّ اللوحة، وأخفى بَيدقاً أبيض وأسود وراء ظهره. واستهلّ اللعبة ببيدق الملك، وهي الخطوة الصحيحة. وبعد نصف ساعة، فاز، وكانت دهشته كبيرة.

قال أفيناش: "لقد أثمرت جهودي بتعليمك جيداً. ولكن، سيكون علينا خوض مباراة الإياب في وقت قريب".

ستعود المياه إلى مجاريها، قال مانيك لنفسه، وسيكون أفيناش بتصرفه مرة أخرى. وتمثلت أُمنيته السرّية بقيام المدير بحظر اتحاد الطلاب اللعين متذرّعاً بحالة الطوارئ على غرار الجامعات الأخرى. عندئذٍ، لن يُلهي صديقَه أي شيء.

لكن بقي مانيك خائب الأمل لأن مبارياتهما في الشطرنج لم تُستأنف. فلقد قرع باب أفيناش في أمسيات عدة من دون أن يلقى أي إجابة. ودسّ ملاحظة تحت الباب مرتين: "مرحباً. أين كنت مختبئاً؟ هل أنت خائف من مواجهتي في مباراة الشطرنج أم ماذا؟ أراك قريباً. مانيك".

بعد الملاحظة الثانية، وعندما رآه في قاعة الطعام، لم يتمكن أفيناش إلا من أن يلوّح له بسرعة بسبب انشغاله. قال: "حصلتُ على رسالتك، هل أنت متوافر غداً؟".

"بالتأكيد".

في الليلة التالية، انتظر مانيك في غرفته، ولكن صديقه لم يأتِ. فجُرحت مشاعره وغضب، وذهب إلى السرير واعداً نفسه بأن تكون المرة الأخيرة التي يقصده فيها. فإذا أراد رؤيته، يمكنه السعي وراءه.

لقد افتقد إلى أفيناش. غريب، قال لنفسه، كيف تنشأ صداقة فجأةً ذات مساء بسبب الصراصير والبَقّ، وتتلاشى فجأةً أيضاً لأسباب مثيرة للسخرية كذلك. ربما كان من الغباء الافتراض منذ البدء أنها صداقة.

وصار كل شيء مرتبط بالنُّزل يثير اشمئزازه بشدة. وعلاجاً لذلك، طوّر روتيناً صباحياً للاستيقاظ: عندما يفتح عينَيه، كان يُغمضهما مجدداً مبقياً رأسه على الوسادة، ومتخيّلاً الجبال، والضباب المتحرك بشكل دائري، وزقزقة العصافير، ووقع أقدام الكلاب على أرضية الرُّواق الخارجي، وهواء الفجر البارد على بشرته، والوقوقة الهائجة لقرود اللَّنغور، والفطور الذي يُعَدّ في المطبخ، ومذاق شرائح الخبز المحمّص والبيض المَقلي في فمه. وعندما تتذوّق كل حواسّه تخيّلاته، يعيد فتح عينَيه وينهض من السرير.

في الحرَم، سطع نجم مجموعة جديدة، هي طلاب لأجل الديموقراطية، ظهرت بعد إعلان حالة الطوارئ. وكانت المنظمة الشقيقة، طلاب ضد الفاشية، تحافظ على سلامة المجموعتين من خلال إسكات أولئك الذين يناهضونهما أو ينتقدون حالة الطوارئ. وأصبحت التهديدات والتوعّدات عاديّة جداً حيث إنها غدت جزءاً من المنهاج الدراسي في الجامعة. وباتت الشرطة متواجدة بشكل دائم للمساعدة على المحافظة على القوانين والأنظمة الجديدة والمشؤومة.

اقتيد مدرّسان اختارا التنديد بالجماعات المشاغبة داخل الحرَم من قِبل رجال

يرتدون ملابس عادية بسبب قيامهما بنشاطات مناهضة للحكومة عملاً بقانون المحافظة على الأمن الداخلي. ولم يتدخل زملاؤهما لصالحهما لأن القانون الجديد يسمح بالسجن من دون محاكمة، ومن المعروف جيداً أن القانون يطبَّق على أولئك الذين يشككون فيه؛ فمن الآمن عدم التورط في أمر مؤذٍ.

شعر مانيك بالقلق على أفيناش؛ بصفته رئيس اتحاد الطلاب الأصلي، من المؤكد أنه في خطر شديد من قِبل المجموعات الجديدة في الحرَم. في الليل، كان يُصغي إلى الأصوات في الغرفة المجاورة، فيطمئنّ إلى أن صديقه بخير عندما يسمع صوت إغلاق الباب بهدوء، وطقطقة خزانة الملابس المعدنية، وأزيز مضخة الرذاذ، وصوت السرير، ويعرف أنه لم يتعرض لأي هجوم أو لاعتقال سرّي.

كان مانيك ينتقل بسرعة بين النُّزل والكلّية من دون التوقف لمشاهدة أعمال المشاغبة والتملق والإخضاع اليومية. وتعرّض مكتب صحيفة الحرَم للهجوم، وعومل الكتّاب والمحررون بخشونة، وتم اقتيادهم. لقد اعتادت الصحيفة التلذّذ بهجاء الحكومة أو إدارة الجامعة بشكل محدود والسخرية منهما، عِلماً أن الهجاء بات صعباً في الآونة الأخيرة على نحو متزايد لأن الحكومة كانت تنشر مبادئها بمَكر من خلال تقاريرها الخاصة التي تنشرها في وسائل الإعلام الخاضعة للرقابة.

بعد أن تمّت لهم الغلَبة، نشر طلاب لأجل الديموقراطية بياناً في الإصدار التالي جاء فيه أن الصوت الجديد للمنشور سيعبّر عن آراء المنتسبين إلى الكلّية بشكل أفضل. وكانت بقية الصحيفة مليئة بقواعد سلوك نموذجية للطلاب والمدرّسين.

ذات صباح، أُلغيت الصفوف الدراسية، ونُظّم احتفال لرفع العلم في الساحة المربّعة. كان الحضور إلزامياً بإشراف طلاب ضد الفاشية. وتناول رئيس طلاب لأجل الديموقراطية الميكروفون، وناشد القيّمين على السلطة بأن يُثبتوا حبهم للبلد ويكونوا مثالاً يُحتذى في السلوك الوطني.

دنا المحاضرون، والأساتذة المساعدون، والأساتذة المسؤولون، ورؤساء الأقسام، من المنصّة على نحو جماعي، وبشكل متّفَق عليه مُسبَقاً، في عرض واهٍ يُظهِر عفويّة تحرّكهم. وحاول المنظمون إبطاءهم خلسةً ليبدو الأمر كما لو أنه تدفّق حقيقي للدعم. لكن الوقت كان قد تأخر لتحسين التصميم المسرحي لأن هيئة التعليم بكاملها وقفت في صف واحد أمام الطاولة كما لو أنهم زبائن في متجر للتموين. ووقّعوا بامتثال على بيانات تشير إلى تأييدهم رئيسة الوزراء، وإعلانها حالة الطوارئ، وهدفها المتمثل بمكافحة القوى المناهضة للديموقراطية التي تهدد البلد من الداخل.

بمقدار شعوره بالخوف، انتاب مانيك شعور بالاشمئزاز من المكان برمّته. ولكنه شعر بالشفقة على مدرّسيه الذين انسلّوا بعيداً عن احتفال رفع العلم، والذَّنب والخجل باديان على وجوههم.

في تلك الليلة، ساد السكون غرفة النُّزل المجاورة لغرفته. ورفضت الأصوات المألوفة أن تصدر وتشير إلى أن أفيناش بخير. فاستلقى مانيك مستيقظاً وشاعراً بالقلق حتى ساعات الصباح الأولى. هل يُفترض به إبلاغ مكتب القيّم بأن صديقه مفقود؟ ولكن، ماذا لو ذهب لزيارة عائلته أو ما شابه؟ من الأفضل الانتظار يوماً واحداً أو يومين.

في وقت العشاء، ألقى نظرة على أرجاء قاعة الطعام علّه يلمح أفيناش، ولكن من دون نتيجة. فسأل طالباً جالساً إلى طاولته على نحو عَرَضي: "ما الذي تُعِدّ له اللجنة الإدارية لاتحاد الطلاب في هذه الأيام؟".

"لم يعُد هؤلاء في الواجهة. إنهم يعملون بشكل سرّي، ومن الخطر عليهم التسكّع هنا".

لقد طمأنت الإجابة مانيك، وكان مقتنعاً بأنّ أفيناش يحتمي في مكان ما، ربما في شقة والدَيه في الغرف المؤجَّرة التابعة لمصنع النسيج، وسيعود قريباً. بالرغم من كل شيء، كم سيدوم الغباء وحالة الطوارئ هذه؟ كما وأنه لن يتم القبض عليه بسهولة؛ ليس وهو يعتمد الطريقة التي يتّبعها في الشطرنج.

عاد متعهّد الطعام السابق إلى المطعم، صابّاً انتقامه المَعِدي. وشعر مانيك أن ما قام به مبرَّر عندما طلب من أفيناش عدم التدخل في الحادثة التي أثارها النباتيون لأن الأمر قد ينتهي على نحو سيّئ. وعندما تكون الوجبة رديئة جداً، كان مانيك يتناول شطائر أو معجنات الساموزا من كُشك قائم على الطريق خارج الكلّية. كان أوفر حظاً من معظم الطلاب لأنه يحصل على قليل من مال الجَيب من والدَيه. فقد كان من المريح مشاهدة تقطيع البندورة إلى شرائح، ودَهن الخبز بالزبدة، وسماع هدير جهاز الطبخ، وهسهسة الزيت المقليّ الساخن.

ذات مساء، وفي أثناء عودته إلى النُّزل من مطعم الوجبات السريعة القائم على جانب الطريق، سمع صراخاً صادراً من الممر داخل الكلّية كما لو أنه صراخ مطارَدة. فألقى نظرة داخل غرفة الألعاب حيث كان اثنا عشر طالباً يحاصرون طالبَين في العام الأول في الزاوية. انسلّ مانيك خلسةً، مروَّعاً. ومذاك الحين، بدأ يعود إلى غرفته مباشَرةً بعد العشاء ويُقفل على نفسه. كان يحرص على الحصول على كل ما يحتاج إليه - صحيفة، كتب من المكتبة، كوب ماء - بطريقة تحول دون مغادرته ملاذه الآمن خلال تجوّل

مدبِّري المقالب.

ذات ليلة، وبعد ارتدائه ثياب النوم، بدأت معِدته تزمجر بطريقة مزعجة. فافترض أن مزيج البهار والخل والفواكه الموجود داخل معجنات الساموزا التي تناولها في الكُشك القائم على جانب الطريق هو سبب ذلك. لم يكن يُفترض به تناولها لأنه لاحظ وجود أمر غريب في مذاقها.

لقد شعر بحاجة ماسة إلى دخول الحمّام مهما كان قذراً في تلك الساعة. ففتح الباب بحذر. كان الممر فارغاً. وسار بسرعة، ناظراً من فوق كتفه. وعندما وصل إلى منتصف القاعة، خرجوا من غرفة التخزين، وانقضوا عليه. فحاول الإفلات منهم. "رجاءً! عليّ الذهاب إلى الحمّام! أنا في حالة سيّئة جداً!".

"في وقت لاحق"، قالوا وهم يلوون ذراعَيه وراء ظهره لمنعه من المقاومة.

"آه!"، صاح.

حاولوا إقناعه بالحجة: "اسمع، إنها مجرد لعبة، لماذا نحوّل الأمر إلى قتال؟ ستتأذى ببساطة".

فتوقف عن المقاومة، وأرخوا ذراعَيه قليلاً، وقال أحدهم: "فتى جيد. الآن، أخبرنا، ما الذي تتخصص فيه؟".

"التكييف وتبريد الهواء".

"حسناً، سنُخضعك لاختبار صغير للتحقق مما إذا كنت تدرس كفتى صالح".

"بالتأكيد. ولكن هل يمكنني الذهاب إلى الحمّام أولاً؟".

"في وقت لاحق". فاقتادوه إلى ورشة العمل حيث يوجد نموذج كبير لثلاجة، وطلبوا منه خلع ملابسه، لكنه لم يحرّك ساكناً. فالتفوا حوله لنزع ملابسه.

قال متوسّلاً وهو يركل ويحاول الإفلات منهم: "رجاءً! رجاءً، لا تفعلوا ذلك! لا، رجاءً!". فدعا كي يظهر أفيناش بأُعجوبة وينقذه كما أنقذ عمّال المطبخ من النباتيّين.

كان مدبّرو المقالب شديدي الفعالية، وتطلبهم الأمر أقل من دقيقة لتثبيت مانيك وتعريته. "الآن، أصغِ بانتباه"، قالوا، "الجزء الأول من الاختبار بسيط:. سنضعك في الثلاجة لمدة عشر دقائق. لا تهلع". ودفعوه إلى داخل الثلاجة، متخذاً وضعيّة ملتوية كي يتّسع له المكان، وأغلقوا الباب عليه بجهد. فأحاطت به ظُلمة النَّعش من كل جانب.

انتظروا ليحصلوا على بعض التسلية من رد فعله، ولكن شيئاً لم يحدث بعد فترة قصيرة. بعد ذلك، حدث دويّ واستمر مدّة دقيقتين، وتلا ذلك صمت وجيز. وسُمع طَرق من جديد؛ ولكن بشكل أضعف، ومتقطع، ومضطرب. كان يعلو أحياناً ولا يلبث

أن يخبو مجدداً.

أصبحت الضربات ضعيفة على نحوٍ يُنذر بالسوء قبل أن تختفي كلّياً. فنظروا إلى ساعاتهم: سبع دقائق فقط انقضت من الدقائق العشر. فقرروا فتح الباب.

وعادوا إلى الوراء: "يا للرائحة الكريهة! لقد تغوّط الوغد في الثلاجة!".

كان مانيك غير قادر على التحرك، ولم يستطع الخروج. فسحبوه إلى الخارج وهو مُحدَودَبَ الظهر، وأغلقوا الباب بقوة لعزل الرائحة. نظر حوله مندهشاً، وغير قادر على تقويم ظهره.

فصفقوا له ساخرين: "جيد جداً. العلامة الكاملة للاختبار الأول. وعلامة إضافية مكافأة لك على تغوّطك. أحسنتَ. الآن، يحين وقت الجزء الثاني".

كانت شفتاه الزرقاوان ترتجفان خلال محاولته الكلام. ومدّ يدَيه المتجمّدتَين نحو ثياب نومه فقام أحدهم بإبعادها. "ليس بعد. في الجزء الثاني، عليك أن تبيّن بالأمثلة والشواهد أن ضابط درجة الحرارة الخاص بك يعمل بشكل جيد".

فحدّق إليهم بطريقة غير مفهومة، وهو مخدّر وفاتح فمه.

"قلت إنك تتخصص في التكييف وتبريد الهواء. ما الأمر؟ ألا تعرف ما هو ضابط الحرارة؟".

فهز مانيك رأسه وحاول، مرة أخرى الإمساك بثياب نومه بحركة بطيئة ومثيرة للشفقة.

"هذا هو ضابط درجة الحرارة الخاص بك، أيها المغفّل. الآن، أرِنا إذا كان يعمل".

فنظر مانيك إلى نفسه كما لو أنه يرى جسده للمرة الأولى، وصفّقوا مرةً أخرى.

"جيد جداً! لقد تم التعرّف إلى ضابط درجة الحرارة بشكل صحيح! ولكن، هل يعمل؟".

فأومأ برأسه.

"أثبت ذلك". لم يكن واثقاً مما يريدون منه القيام به. "هيا، دَعه يعمل". وأخذوا يُنشدون. "دَعه يعمل! دَعه يعمل! دَعه يعمل!".

ففهم مانيك، ووجد أن شفتَيه باتتا دافئتَين بما يكفي ليتكلم. "رجاءً، لا أستطيع. رجاءً، دعوني أذهب الآن؟".

"يجب إتمام الجزء الثاني من الاختبار، وإلا اضطُررنا إلى إعادة الجزء الأول وتجميدك هذه المرة مع تغوّطك. اختبار ضابط درجة الحرارة إلزامي".

"إنّه لا يعمل! ابذل جهداً أكبر! دَعه يعمل! دَعه يعمل!".

وحاول بشكل يائس لوضع حد لحالة الإذلال، ولكنه لم يحقق نجاحاً تاماً.

وهتفوا ابتهاجاً، مصفِّرين ومُطلقين أصواتاً كصوت البُوم. فأعاد له أحدهم ثياب

نومـه، ثـم تفرّقـوا. ولتجنّب العودة معهم، بقي في ورشـة العمل حتى سـاد الهدوء خارج المبنى.

فغسـل فخذَيه وسـاقَيه حيث لوّث نفسـه، ومن ثم عاد إلى غرفته. ولجأ إلى السرير، واستلقى على ظهره في الظلام مرتجفاً ومحدّقاً إلى السقف. فتساءل عما سيحدث عندما يفتح المدرّس الثلاجة.

بعد ساعة من الزمن، كانت أطرافه لا تزال ترتجف، فأحضر الغطاء من الخزانة. كان يعرف ما الذي سيقوم به بعد أن يشعر بالدفء، سينهض وسيحزم أمتعته. سيستقل سيارة أجرة في الصباح إلى محطة سكة الحديد، ويعود إلى المنزل على متن فرونتيير مايل.

مـاذا سـيقول والـده؟ فكّـر في سـرّه. كان باسـتطاعته أن يتخيّل رد فعـل والده؛ لقد هرب كجبان. أما والدته فستتخذ جانبه في بادئ الأمر، ثم ستصغي إلى والده في ما بعد وتبدّل موقفها كما هو الحال على الدوام. هي تبدّل رأيها باستمرار. هذا ما قاله مصحح التجارب الطباعية على متن القطار: لا يمكنك تجنّب التغيير، عليك التكيّف معه. ولكن ذلك لا يعني بالتأكيد الموافقة على التبدّل نحو الأسوأ.

لقـد دخـل مانيـك فـي جدل مُربك مع أفكاره في النصـف الأول من الليل، حازماً صناديقه وحقيبة الملابس ببطء. وأمضى النصف الثاني من الليل في إفراغ الصناديق والحقيبة من الملابس، وفـي توجيـه رسـالة إلـى والدَيـه. لقـد كتب إليهما أنه لـم يكن صادقاً معهما حتـى تلك اللحظة، مُعرباً عن أسفه، ولكنه أراد تجنيبهما القلق عليه: "النُّزل مكان مريع، لم يعُد بإمكاني البقاء هنا. فهو ليس قذراً ونتِناً فحسـب، فهذان أمران يمكنني تحمّلهما، بل إنّ الأشـخاص الموجودين فيه مثيرون للاشمئزاز. فالعديد منهم ليسوا طلاباً، ولا أفهم كيف يُسمح لهذه الزُّمَر بالإقامة في نُزُل للطلاب. هم يتعاطون حشيشة الكَيف والقِنَّب الهندي، ويثملون، ويدخلون في شجارات. وتنتشر المقامَرة علَناً، ويبيعون المخدرات للطلاب". فكّر قليلاً، وأضاف: "حتى إن أحدهم حاول بيعي المخـدرات". يُفتـرض بذلـك أن يحملهمـا علـى التفكير مرتين. "الأمر رهيب برمّته، وأريد العودة في أسـرع وقت ممكن. سـأعمل في المتجر من دون التدخّل في شـؤون إدارته، وأمتثل لكل ما تقولانه لي، أعدكما بذلك".

لقد شـعر بأن الرسـالة ذات أثر قوي بما يكفي لحمل والدَيه على الاسـتجابة له. لم تكن هناك حاجة إلى الكشف عن السبب الحقيقي لشعوره بالعار.

* * *

شعر السيد والسيدة كولاه بالسرور لأن مانيك يريد العودة إلى المنزل. كانا يفتقدان

إليه كثيراً ولكنهما لم يجرؤا على البَوح بذلك مطلقاً، ولا حتى لأحدهما الآخر. كانا يفضّلان التعبير - ولا سيما عندما يكونان برِفقة الأصدقاء - عن مدى فخرهما وسعادتهما لأنّ ابنهما يحظى بتعليم جدير بالعناء.

لم تبدّل رسالة مانيك الطارئة موقفهما. كانا يتحكمان بردود فعلهما للحفاظ على المظاهر. قال السيد كولاه: "من المؤسف أن يعود باكراً".

قالت السيدة كولاه: "أجل، سيفقد فرصته الوحيدة لتعلّم مهنة جيدة. ما رأيك، يا فاروخ؟ ما الذي يُفترض بنا القيام به؟".

كان السيد كولاه يعلم في صميم قلبه أنه يُفترض بابنه العودة إلى المنزل على الفور إذا لم يكن سعيداً. ولكن، من الضروري بذل بعض الجهد، ولو قليلاً، للعثور على حل آخر - إنه أمر يتوقعه الجميع بالتأكيد، ومن بينهم أصدقاؤهما - وإلا اتُّهم بأنه والد رقيق القلب جداً.

قال بحِرص: "يبدو لي أن هناك مشكلة بالتأكيد في نُزُل الكلّية".

"بالطبع هناك مشكلة! ابني لا يكذب! ولا يمكن السماح له ببساطة بالبقاء في ذلك المكان الفاسد المليء بالرذيلة والأوغاد والغوغائيين الأشرار، لأجل الحصول على إجازة جامعية! أي نوع من الأهل سنكون؟".

فرك جبينه: "أجل، أجل، اهدئي، أحاول التفكير. إذا لم يكن النُّزُل مريحاً، يُفترض بنا ربما العثور على مسكن آخر. في منزل شخص ما بشكل سرّي. من شأن ذلك أن يحل المشكلة".

"إنها فكرة جيدة"، قالت السيدة كولاه، متظاهرةً بأنها متعاونة. لم تشأ أن تحمل طوال حياتها وصمة الوالدة المتملكة التي أفسدت مستقبل ابنها. "ماذا لو سألتُ أنسبائي؟".

"لا، إنهم يقيمون في مكان بعيد عن الكلّية، هل تتذكرين؟". علاوةً على ذلك، من يعرف نوع الأفكار المُفقِدة للرجولة التي سيملأون رأس مانيك بها؟ فبعد عشرين عاماً، لم يعتادوا بعد على فكرة إقامة آبان بعيداً عنهم.

قالت: "لو استطعنا فقط تأمين غرفة آمنة له في مكان ما، مكان ما يمكننا تحمّل تكلفته". وهو أمر مستحيل تقريباً - قالت لنفسها بابتهاج - في مدينة حيث يعيش الملايين في أحياء فقيرة وعلى الأرصفة. حبذا لو كان هناك مكان يمكن استئجاره لإيواء مانيك. سيعود إلى المنزل قريباً. وأطلقت ابتسامة عريضة تعبيراً عن سعادتها بهذه الفكرة.

قال السيد كولاه: "ما الذي يُضحكك في حين أننا نواجه مشكلة كبيرة؟".

"هل كنت أبتسم؟ لا، لا شيء، كنت أفكر في مانيك فقط".

قال، ووجد صعوبة في احتواء سروره: "حسناً، يمكنك أن تحاولي الكتابة إلى صديقتك تلك. فقد تُرشدك إلى مكان ما".

"أجل، فكرة جيدة. الليلة، بعد العشاء، سأوجه رسالة إلى زنوبيا"، قالت السيدة كولاه، موافقةً إيّاه الرأي، وسعيدةً لاقتناعها بأن الطابع البريدي سيذهب هَدراً.

عادا إلى مهامهما الروتينية. لقد انتهت محنة إخفاء خيبة الأمل وراء قناع من السرور، وكل ما يمكنهما القيام به هو انتظار فشل جهودهما الفاترة وعودة ابنهما إلى المنزل.

لكن، بعد أيام قليلة، كان عليهما التظاهر مجدداً بعكس ما تمنّياه عندما فوجئا بتأمين مسكن لمانيك. وبات عليهما إجبار نفسَيهما على التظاهر بالرِّضى لأن ابنهما سيتمكن من مواصلة دراسته بعد زوال آمالهما التي لم تدُم طويلاً.

وجّهت السيدة كولاه بامتعاض رسالة شكر إلى السيدة دلال على العنوان الذي كانت قد أرسلته إليها زنوبيا. "أتساءل عما إذا كانت دينا لا تزال جميلة كما كانت في المدرسة الثانوية"، قالت، واقتلعت الورقة عن لِبادة الكتابة، مُحدثةً صوتاً متناغماً مع مزاجها.

قال السيد كولاه: "يمكن أن تسألي مانيك. سيتمكن قريباً من تقديم تقرير كامل لك عن شقتها. لا، بل يمكنه أيضاً إرسال صورة محدَّثة لها إذا شئتِ". لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بأن الفضوليتين اللتين ظهرتا من الماضي تدخّلتا في حياة عائلته مجدداً، متغاضياً عن سعيهما إلى إبقاء ابنه بعيداً عنه.

بعد ذلك مباشَرةً، أدرك مدى سخفه. فأخرج دفتر الشيكات وحرّر شيكاً لإيجار الشهر الأول، وقامت السيدة كولاه بوضعه مع رسالتها الموجّهة إلى السيدة دلال.

* * *

كانت دينا تُصغي السمع إلى أصوات الحياة التي يجب أن تصدر من الحمّام الساكن. ما الذي يقوم به؟ لماذا لا تسمع صوت ماء؟ "يا مانيك! هل كل شيء بخير؟ هل الماء ساخن بما يكفي؟".

"أجل، شكراً لك".

"هل وجدتَ الإناء؟ يُفترض به أن يكون بجانب الدّلو. ويمكنك الجلوس على الكرسي الخشبي إذا أردت".

"أجل، يا خالتي". وشعر مانيك بأن الإشارة إلى الديدان التي يخرج عدد كبير منها من البالوعة أمر مُربِك. وأمل في أن تعود قريباً إلى منزلها الجَوفي بملء إرادتها. ولكن، ربما كان يُفترض بي العودة إلى المنزل على متن القطار بملء إرادتي، قال لنفسه بمرارة،

كم كنت غبياً لأنني وجّهت رسالة، آملاً أن يسمح لي والدي بالعودة إلى القرية.

واصلت دينا انتظار سماع طقطقة الإناء وانهمار الماء. وفاق السكون قدرتها على الصبر، فقالت له: "ماذا هناك يا مانيك؟ رجاءً هل يمكنك الإسراع؟ عليّ الاستحمام أنا أيضاً قبل قدوم الخياطَين".

أملت أن يتسنّى لها الوقت في ذلك اليوم لصرف شيك الإيجار. أولاً، عليها توديع مانيك قبل ذهابه إلى الكلّية وتوطيد علاقتها به بالشكل الصحيح. فهو لن يسبب لها أي مشكلة عندما يصبح معتاداً على روتينها، ويتعلم استخدام الأدوات العصرية كمسخِّن الماء. فالفتى المسكين لا فكرة لديه البتة عن هذا المسخِّن. وعندما سألته في السابق عما يقومون به في المنزل للحصول على ماء ساخن، وصف لها المغلاة المحشوّة بالفحم التي يستخدمونها كل صباح. يا لبدائية حياتهم! ولكنه رتّب سريره، طاوياً كل شيء بترتيب. لقد أثّر ذلك في نفسها.

توجهت إلى باب الحمّام وسألت مجدداً: "هل تتدبّر أمورك بشكل جيد؟".

"أجل، يا خالتي. ولكن بعض الديدان تخرج من البالوعة".

"آه، الديدان! ارمِ قليلاً من الماء فحسب فتذهب".

وسُمع صوت الماء، وساد السكون مرة أخرى.

"حسناً؟".

"ما زالت تخرج".

"لا بأس، دعني أُلقي نظرة".

وبدأ بارتداء ملابسه، فقرعت الباب. "هيا، ضع المنشفة عليك وافتح الباب، رجاءً. لا وقت لديّ للوقوف هنا طوال الصباح".

ارتدى كل ثيابه قبل أن يسمح لها بالدخول.

"أنت فتى خجول. أنا في سنّ والدتك. ما الذي كنت سأراه؟ الآن، أين هي تلك الديدان التي تخيفك؟".

"لم أكن خائفاً. إنها تبدو مثيرة للاشمئزاز جداً. وهناك العديد منها".

"هذا أمر طبيعي. إنه موسم الديدان. تحملها الرياح الموسمية معها على الدوام. ظننتُ أنك معتاد على هذه الأمور حيث تعيش في الجبال مع الحيوانات البرّية".

"ولكن ليس في الحمّام بالتأكيد، يا خالتي".

"في حمّامي، سيكون عليك الاعتياد على ذلك. كل ما يمكنك القيام به هو دفعها إلى الوراء أو رمي الماء عليها؛ الماء البارد. لا تستخدم الماء الساخن". ومرّت بجانبه،

ماسّةً إيّاه، وبيّنت له كيفية القيام بالأمر، راميةً الماء على المخلوقات التي انزلقت باتجاه البالوعة. "هل رأيت؟ ها قد ذهبت إلى داخل البالوعة".

لقد طمأنته الخطوط المنسابة إلى أعلى ذراعها الممتدة أكثر مما طمأنته تقنية رمي الماء.

"حسناً؟ هل ستستحم الآن؟ أم تريدني أن أبقى معك، وأحرسك من الديدان؟".

فاحمرّ وجهه، وقالت بعد أن قلقت من وصول الخياطَين: "اسمع، بما أنه صباح يومك الأول هنا، سأقوم بأمر ما خصيصاً لك".

أخرجت قنينة الفينول الموجودة على الرف داخل الحمّام، ورفعت الفلّينة، وسكبت قليلاً من السائل على الديدان. كان مفعوله فورياً إذ حوّلها إلى كتلة حمراء متلوّية، ومن ثم إلى لِفافات صغيرة لا حياة فيها.

"إليك بها. ولكن تذكّر، الفينول باهظ الثمن، ولا يمكنني هدره كل يوم. سيكون عليك أن تتعلم الاستحمام معها".

أقفل الباب وخلع ملابسه مجدداً.

في السيرك نهاراً، وفي الحيّ الفقير ليلاً

لاحظت فتاة صغيرة من عائلة المدمن على الشراب تجمّع الحافلات الحمراء ذات طابقَين في الصباح الباكر خارج الحي الفقير. فدخلت راكضة لتخبر والدتها، ورأت إيشفار وأوم مستيقظَين خارج كوخهما، فأخبرتهما أيضاً. كان والدها على غير هدى في هجوعه مخموراً.

أطلق السائقون دَفقاً من الزمامير ترحيباً ببعضهم خلال ركنهم عرباتهم؛ لقد اصطفت اثنتان وعشرون حافلة في صفَّين مرتَّبَين. فجمع الخياطان مياههما وتوجّها إلى سكة الحديد. كان المطر قد تساقط خلال الليل، والأرض طريّة، والوحل يُصدر صوت امتصاص عند أقدامهما كما لو أنه مخلوق متعدد الأفواه.

قال أوم: "لنقصد السيدة دينا باكراً اليوم".

"لماذا؟".

"لا بد من أن مانيك قد وصل".

فعثرا على مكان يفضّله إيشفار عن سواه وجلسا القرفصاء. كان إيشفار سعيداً لعدم مصادفته جامع الشعر الثرثار لأنه يكره تبادل أطراف الحديث في أثناء التغوّط، ولا سيما التطرق إلى مواضيع حساسة.

لم يدُم حظه السعيد طويلاً لأن راجارام ظهر عند منعطف سكة الحديد ورآهما قابعَين عند الطرف البعيد للخندق. فجلس القرفصاء بجانبهما وبدأ يُطلق تخميناته بشأن الحافلات.

قال أوم: "ربما كانت محطة جديدة".

"هل سيكون الأمر ملائماً لنا؟".

"ولكن، ألا يُفترض بهم أولاً بناء مركز أو ما شابه؟".

اغتسلا وتوجها إلى العربات الملوَّثة بالوحل للتحقق من الأمر. كان السائقون الذين يرتدون ملابس رسمية كاكيّة اللون منحنين عند المداخل أو مُسنِدين أكفالهم على امتداد حافة الرصيف وهم يطالعون الصحف، أو يدخنون، أو يمضغون التبغ.

سأل راجارام منادياً: "إلى أين تصطحبون عرباتكم الحمراء اليوم؟".

فهزّ أحدهم كتفَيه قائلاً: "من يعلم؟ طلب منا المشرف إحضار الحافلات وانتظار مهمة خاصة".

بدأ المطر بالهطول، وأحدثت قطرات المياه رنيناً على سقوف الحافلات الفارغة. فدخل السائقون إلى حافلاتهم، وأغلقوا النوافذ القذرة.

بعد قليل، وصلت الحافلة الثالثة والعشرون، وكانت مسّاحة الزجاج الأمامي فيها تعمل بشكل غير فعّال وبطيء على غرار رقّاص ساعة مُثقَل بالرطوبة. كانت تلك الحافلة مليئة بالركاب، وكان الطابق العُلوي مخصّصاً لرجال شرطة بلباسهم الرسمي، وقد لزموا أماكنهم بينما خرج من الطابق السُّفلي رجال يحملون حقائب يد ومنشورات.

فمدّدوا أوصالهم، ودخلوا الحي الفقير. ولتجنيب صنادلهم الجلدية الغوص في الحقل الموحِل بفعل مياه المطر، مشى بعضهم على أطراف أصابعهم رافعين أعقاب أقدامهم، ومحافظين على حالة من التوازن تحت مظلات مفتوحة. وأحدث آخرون صوت خَوض في الوحل، سائرين على أعقاب أقدامهم، ومفضّلين رفع أخامصها، ومتفحّصين الأرض بحثاً عن أكوام من الأعشاب، أو الحجارة، أو قِطع الآجرّ؛ كل ما يمكن أن يجنّبهم السير في الوحل.

سرعان ما تجمّع حشد من المشاهدين حول هؤلاء الأشخاص الذين يؤدّون دوراً مماثلاً للسائرين على حبل البَهلوان. ووقعت المظلات في شرك هبّة ريح، فترنّح الرجال. وأفقدتهم ريح عاصفة أكثر قوة توازنهم، وبدأ المشاهدون بالضحك. عمد بعض الأطفال إلى تقليد طريقة السير المُضحكة. فاستسلم الزائرون للوحل، محافظين على وقارهم، وساروا باتجاه الصف المنتظِر عند صنبور الماء.

فقال ذلك الذي ينتعل أفضل حذاء إنهم فريق عمل يحمل رسالة من رئيسة الوزراء. "إنها ترسل تحيّاتها، وتريد من الجميع أن يعلموا أنها تعقد اجتماعاً موسَّعاً اليوم، والجميع مدعوّون للحضور".

وضعت امرأة دلوها الفارغ تحت الصنبور، وأضفى تساقط الماء في الدلو الإبهام على كلمات الرجل، فعدّل طبقة صوته. "تريد رئيسة الوزراء التحدث عن الأشخاص المستقيمين بصفة خاصة، أولئك الذين يكدّون في العمل مثلكم. ستنقلكم هذه الحافلات مجّاناً إلى موقع الاجتماع".

فتقدّم الناس الذين كانوا يشكلون صفًّا عند الصنبور باتجاه مصدر الماء غير مُبالين. وجرى تهامس قليل في ما بينهم، وكان هناك ضحك. فحاول فريق العمل مجدداً: "تقول

رئيسة الوزراء في رسالتها إنها خادمتكم وتريد مساعدتكم. تريد أن تسمع مطالبكم من شفاهكم".

صاح أحدهم: "أخبرها بنفسك! يمكنك أن ترى في أي ازدهار نعيش!".

"أجل! أخبرها عن مدى سعادتنا! ما نَفع ذهابنا؟".

"إذا كانت خادمتنا، فاطلب منها القدوم إلى هنا!".

"اطلب من رجالك الذين يحملون آلات التصوير التقاط بعض الصور لمنازلنا الجميلة، ولأطفالنا المتمتعين بصحة جيدة! أرِ رئيسة الوزراء إيّاها!".

كان هناك ضحك استهزائي، وهمهمات عن الأمور غير السارّة التي قد تلحق بفريق العمل الذي يُزعج الفقراء في وقت ملء الماء. وانسحب الزائرون للتداول في ما بينهم.

بعد ذلك، تكلم القائد مجدداً: "سيتم دفع خمس روبيّات لكل شخص، إضافةً إلى كوب من الشاي ووجبة طعام سريعة، مجّاناً. رجاءً، اصطفوا في الخارج عند السابعة والنصف. ستغادر الحافلات عند الثامنة".

"أدخل الروبيات الخمس في مكان ما في جسمك!".

"وأضرِم النار في المال!".

ولكن الشتائم تضاءلت بسرعة بسبب اهتمام الناس بالعرض الجديد. وانتشر فريق العمل في الحيّ الفقير لإبلاغ الرسالة.

فسأل جامع خِرَق عما إذا كان باستطاعة زوجته وأبنائه الستة القدوم أيضاً. قال المنظّم: "أجل. ولكن لن يُعطى كلّ منهم خمس روبيّات، بل ستحصل أنت فقط على الروبيّات الخمس". فأُحبط الوالد المليء بالأمل، ولكنه أُغوي مجدداً عندما شمل عرض الشاي ووجبة الطعام السريعة المجانية لأفراد العائلة كافّة.

قال أوم: "يبدو الأمر ممتعاً بالتأكيد، لنذهب".

"هل أنت مجنون؟ هل ستضيّع يوم خياطة؟".

قال راجارام، موافقاً إيشفار الرأي: "الأمر ليس جديراً بالعناء، هؤلاء الأشخاص يقولون الأكاذيب".

"كيف تعرف؟ هل سبق لك أن حضرت اجتماعاً مماثلاً؟".

"أجل، إنها مماثلة لبعضها على الدوام. لو كنتما عاطلَين عن العمل لطلبتُ منكما الذهاب والحصول على روبيّاتهم الخمس. يكون الأمر مسلّياً في المرة الأولى. ولكن، القيام بذلك مقابل التخلي عن يوم خياطة أو جمع شَعر؟ لا".

عند السابعة والنصف، كان الصف القائم بجانب الحافلات طويلاً بما يكفي لملء

حافلة واحدة بطابقَين تقريباً. ومن بين هؤلاء عمّال مياومون عاطلون عن العمل، وبعض النساء والأطفال. فناقش فريق العمل الوضع واتفقوا على تنفيذ خطتهم البديلة.

بعد وقت قصير، أصدر الرقيب كيسار المسؤول عن أفراد الشرطة الأمر لرجاله بالترجّل. وطُلب من عشرة أفراد إغلاق منافذ الحيّ، وتبعه الباقون إلى الداخل. فحاول السير رُوَيداً رُوَيداً بتفاخر، ولكن قدمه الغارقة في الوحل جعلت مِشيته أشبه بالترنّح الزَّلِق. كان يحمل مِجهاراً، فرفعه إلى مستوى فمه، ممسكاً إيّاه كما لو أنه بوق.

"انتباه، انتباه! يجب أن يصعد شخصان من كل كوخ إلى متن الحافلة! في غضون خمس دقائق. لا تمديد للمهلة، وإلا اعتقلناكم بتهمة التعدّي على مُلكية تابعة للبلَدية!".

فاعترض الناس: كيف يُعتبرون متعدّين وهم يدفعون الإيجار بالكامل؟ وانطلق قاطنو الأكواخ بحثاً عن نافالكار الذي يجمع الإيجارات، ولكن كوخه كان فارغاً.

قال إيشفار: "أتساءل عما إذا كانت رئيسة الوزراء تعرف أنهم يُكرهوننا على الذهاب".

قال راجارام: "إنّها تعرف الأمور الهامة فقط، الأمور التي يريد أصدقاؤها أن تعرفها فقط".

بدأ رجال الشرطة يحيطون بالأشخاص المصطفين أمام الحافلة، وامتلأت الحافلات شيئاً فشيئاً، وقد بدت أكثر احمراراً بعد أن غسل المطر الغبار والوحل عنها. وسُوّيت الجدالات في بعض الأكواخ بسهولة عندما شهر رجال الشرطة هراواتهم للتشديد على أهمية الإذعان.

كان رجل السعادين راغباً في الذهاب، ولكنه أراد اصطحاب سعدانَيه معه أيضاً. "سيستمتعان بالرحلة. هما يمضيان وقتاً ممتعاً في القطار عندما نذهب إلى العمل"، شرح لأحد أفراد فريق العمل، "ولن أطلب مزيداً من الشاي أو وجبات الطعام السريعة. سأشاطرهما حصتي".

"ألا تفهم لغة عادية؟ لا سعادين. ليس سيركاً أو أي شيء آخر".

فهمس راجارام الذي كان واقفاً وراءه في آذان صديقَيه: "هذا ما هو عليه بالتحديد".

توسّل رجل السعادين: "رجاءً، يمكن للكلب البقاء بمفرده، ولكن ليس ليلى وماجنو. فهما سيبكيان طوال اليوم إذا بقيا بعيدَين عني".

فاستُدعي الرقيب كيسار للفصل في الأمر. فسأله: "هل السعدانان مدرّبان بشكل ملائم؟".

"ليلى وماجنو مدرّبان بشكل جيد! هما ابناي المطيعان! انظر، سيحيّيانك!". وأشار

إليهما، فرفع السعدانان قوائمهما إلى مستوى رأسَيهما في وقت واحد وبانسجام تام.

فسُرّ الرقيب كيسار جداً، وأعاد التحيّة، ضاحكاً. ورمى رجل السعادين الطوقين على الأرض، فركع السعدانان. وشعر الرقيب بسعادة غامرة.

قال للرجل المنتمي إلى فريق العمل: "في الواقع، لا أرى ضرراً في اصطحابهما".

قال له الرجل بعد أن انفرد به: "اعذرني، أيها الرقيب. في الواقع، قد يُعتبر السعدانان دلالة سياسية من نوع ما، فيستخدمها أعداء الحزب للاستهزاء بنا".

قال الرقيب كيسار، مؤرجحاً مِجهاره: "إنه أمر ممكن. ولكن، يمكن اعتباره أيضاً دليلاً على أن قدرة رئيسة الوزراء على التواصل تتخطى الناس لتطال الحيوانات أيضاً".

فقلّب الرجل عينَيه. "هل تريد تحمّل مسؤولية ذلك خطّياً؟ مع مذكرة وثلاث نسخات عنها؟".

"في الواقع، لا يندرج هذا الأمر ضمن سلطتي الرسمية".

عاد الرقيب كيسار إلى رجل السعادين حزيناً، ونقل له الخبر: "آسف، إنه اجتماع هام بالنسبة إلى رئيسة الوزراء. ولا يُسمح بإحضار أي سعادين".

قال راجارام بهدوء للناس المصطفين: "انتظروا تروا، ستكون المنصة مليئةً بها".

فشكر رجل السعادين الرقيب كيسار لأنه حاول المساعدة. وأقفل على ليلى ومانجو في الكوخ مع تيكا، وعاد بائساً. لقد امتلأت الحافلات تقريباً، وكان الموكب مستعداً للانطلاق بعد الانتهاء من إقناع بعض الأشخاص الذين يُبدون عِناداً، وذلك من خلال ضربهم بالهراوات أو صفعهم لحملهم على الصعود إلى متن الحافلات.

قال إيشفار: "لم يسبق لي أن رأيت هذا القدر من الجَور من قبل. وما الذي ستعتقده السيدة دينا؟".

قال أوم: "لا يسَعنا القيام بأي شيء، سوى الاستمتاع برحلة مجّانية".

قال راجارام: "هذا صحيح. إذا كان علينا الذهاب، فلنمرح أيضاً. أتعلمان؟ لقد نقلونا في العام الماضي بواسطة الشاحنات كالخراف. هذه الحافلة مريحة أكثر".

قال إيشفار: "هناك مئة شخص على الأقل في كل منها، يبلغ المجموع ألفَي شخص. يا له من اجتماع كبير!".

قال راجارام: "جُمع هذا العدد من مستوطنتنا فقط، لا بد من أن الحافلات أُرسلت إلى كل مكان. سيبلغ عدد المتواجدين في الاجتماع ما بين خمسة عشر ألف شخص أو عشرين ألف شخص، انتظرا تريا".

بعد ساعة من انطلاقها، وصلت الحافلات إلى ضواحي المدينة. فعبّر أوم عن

جوعه. "آمل أن يقدّموا لنا الشاي ووجبات الطعام السريعة عندما نصل. والروبيّات الخمس أيضاً".

قال إيشفار بصوت أجشّ: "تشعر بالجوع على الدوام، هل تشعر بوجود ديدان في معدتك؟". وضحكا، شارحَين لراجارام دُعابة دينا دلال.

بعد قليل، سلكوا الطرقات الريفية، وتوقف المطر عن الهطول. فمرّوا بقرى حيث كان الناس واقفين وهم يحدّقون إلى الحافلات. قال إيشفار: "لا أفهم، لماذا يجرّوننا إلى هنا؟ لماذا لا يصطحبون هؤلاء القرويين إلى الاجتماع؟".

قال راجارام: "الأمر معقّد جداً، كما أعتقد، سيكون عليهم زيارة العديد من القرى لأن الناس مبعثَرون في كل مكان؛ مئتان هناك، أربعمئة هنالك. من الأسهل لهم جمع هذا المقدار من الناس في المدينة". وتوقف فجأةً باضطراب، وأشار بيده قائلاً: "انظرا! انظرا إلى تلك المرأة... عند البئر! يا لشعرها الطويل!". وتنهّد. "ليتني أستطيع التجوال في أرجاء الريف مع مقصّي، حاصداً ما أحتاج إليه. لأصبحتُ ثريّاً في وقت قريب".

لقد عرفوا أنهم يقتربون من مقصَدهم بسبب ازدياد حركة السير ومرور عربات أخرى بجانبهم تنقل حشوداً على مقاس رئيسة الوزراء. ومن حين إلى آخر، كانت الشاحنات تُفسح الطريق لمرور سيارة تحمل راية مرفرفة ومليئة بشخصيات بارزة، مُطلقةً بوقها بشكل مدوٍّ.

توقفوا بجانب حقل فسيح مفتوح. وفي أثناء ترجّل الركاب، طلب منهم أحد المنظمين حفظ رقم الحافلة التي أقلّتهم من أجل رحلة العودة. ووجّه الناسَ إلى المنطقة التي سيجلسون فيها، مكرّراً لكل مجموعة تعليمات بشأن التصفيق: "رجاءً، أَبقوا أنظاركم على الوجهاء الجالسين على المنصة. فكلما بدأوا بالتصفيق، يجب عليكم التصفيق أيضاً".

"ماذا عن المال؟".

"ستحصلون عليه بعد انتهاء المهرجان. نعرف خُدَعَكم. إذا دفعنا لكم أولاً، فستهربون أيها الغشاشون في منتصف الخُطبة".

"واصلوا التحرك! واصلوا التحرك!"، نادى أحد المرافقين، مساعداً الوافدين الجدد، ومربّتاً على ظهورهم.

"لا تدفعني!"، صاح أوم بغضب، ورفع يد الرجل عن ظهره.

قال إيشفار: "ابقَ هادئاً يا أوم".

كانت الأوتاد والسياجات المصنوعة من الخيزران تقسم الحقل إلى فُسحات مسيَّجة عدة. وكانت الفُسحة الرئيسة موجودة في الطرف الأبعد وتحتوي على منصة مغطاة ترتفع

مسافة ثلاثين قدماً. وتقع منطقة الشخصيات البارزة أمام المنصة، وهو القسم الوحيد المزوَّد بكراسٍ، وكانت النقاشات جارية لتحديد الشخصيات الذين سيجلسون عليها وفقاً لمكانتهم. والكراسي من ثلاثة أنواع: مبطَّنة مع مساند للمرافق للشخصيات البارزة جداً؛ مبطَّنة ومن دون مساند للمرافق للشخصيات البارزة؛ ومعدنية يمكن طيّها للشخصيات الهامة. كان هؤلاء يتحاججون ويتجادلون مع الذين يرشدونهم إلى مقاعدهم، حاثّين إيّاهم على جعلهم من الشخصيات البارزة.

قال راجارام: "حاول البقاء قرب حافة الحقل، بجانب تلك الخيمة، يجب أن نحصل على الشاي ووجبات الطعام السريعة من هناك". لكن متطوّعين يضعون شارات قماشية ثلاثية الألوان قادوا الوافدين إلى الفُسحة المسيَّجة المجاورة.

قال أوم برَهبة: "انظر إلى ذلك!". مشيراً إلى مجسَّم لرئيسة الوزراء مصنوع من الكرتون المقوّى والخشب وموضوع إلى يمين المنصة. كانت ذراعاها ممدودتين كما لو أنها تنتظر معانقة الحاضرين. وتوجد خارطة للبلد بالخط الكفافي فقط مدلاّة خلف الرأس.

قال إيشفار: "وانظر إلى قوس الزهور ذاك! كما لو أنه قوس قُزَح حول المنصة. إنه جميل، أليس كذلك؟ يمكنك شمّ رائحتها من هنا".

قال راجارام: "أرأيت؟ قلت لك إنك ستستمتع بالأمر. الأمر مسلٍّ في المرة الأولى".

جلسوا على الأرض بشكل مريح، وتفرّسوا في وجوه الأشخاص الموجودين إلى جوارهم. كان الناس يبتسمون ويومئون برؤوسهم. وصعد المسؤول عن الصوت إلى المنصة للتحقق من مكبّرات الصوت، وجعلها تُصدر صوتاً حاداً. وساد صمت للحظات، غير أنّه ما لبث أن تبدّد على الفَور. وواصلت الحافلات تقيّؤ الركاب بالآلاف. كانت حرارة الشمس قد اشتدت، ولكن إيشفار قال إنها لا تمطر على الأقل.

بعد ساعتين تقريباً، امتلأت الفُسحات، واكتظّ الحقل، وحُملت أولى ضحايا الشمس إلى مكان ظليل تحت الأشجار لإنعاشها. وتساءل الناس عن الحكمة من إقامة تجمّع حاشد في أوقات النهار عندما تكون الحرارة في ذُروتها. فشرح أحد المنظمين قائلاً إن لا خيار آخر لديهم، لأن متوقع رئيسة الوزراء وضع مخطَّطاً بيانياً للأجرام السماوية واختار الساعة.

بدأ ثمانية عشر وجيهاً بالجلوس في أماكنهم على المنصة. وعند الساعة الثانية عشرة، سُمع هدير في السماء، فاتجه خمسة وعشرون ألف رأس نحو الأعلى. لقد دارت حوّامة ثلاث مرات فوق الحقل، ومن ثمّ بدأت بالهبوط على الأرض بجانب المنصة.

بعد دقائق قليلة، قام شخص يرتدي جِلباباً أبيض، ويعتمر قلنسوة مماثلة لقُلنسوة غاندي بمواكبة رئيسة الوزراء بساريها الأبيض إلى المنصة. وتوجّه الوجهاء البالغ عددهم ثمانية عشر إلى قائدتهم وزيّنوها بالأكاليل، منحنين، ولامسين أصابع قدمَيها. وفاق أحد الوجهاء الآخرين لياقةً إذ انبطح بالكامل أمامها، وقال إنه سيبقى عند قدمَيها حتى تسامحه.

فأُربكت رئيسة الوزراء، عِلماً أنه لم يكن باستطاعة أحد رؤية نظرة الحَيرة بسبب أكاليل الزهور الثمانية عشر التي تغطي وجهها. وذكّرها أحد المساعدين بأن الرجل أظهر شيئاً من عدم الوفاء. "يا سيدتي، إنه يُعرب بإخلاص عن توبته وأسفه البالغ".

لقد ضمنت الميكروفونات تمكّن الحاضرين الذين لفحتهم الشمس من الاستمتاع على الأقل بالتهريج الحاصل على خشبة المسرح. قالت رئيسة الوزراء بنفاد صَبر: "أجل، حسناً. الآن، انهض وكُفّ عن جعل نفسك أُضحوكة للجميع". فقفز الرجل كلاعب جُمباز يؤدي حركة بهلوانية.

قال راجارام: "أرأيت؟ قلت لك إنه سيكون يوم سيرك. لدينا مهرّجون، وسعادين، بهلوانيون؛ كل شيء".

بعد مرور عاصفة التزلّف المصطنَعة، رمت رئيسة الوزراء أكاليل الزهور، واحداً تِلو الآخر، على الحاضرين. فهتفت الشخصيات البارزة والوجهاء ابتهاجاً بهذا العمل العظيم.

قال إيشفار: "اعتاد والدها القيام بذلك أيضاً عندما كان رئيساً للوزراء".

قال راجارام: "أجل، لقد رأيته ذات مرة. ولكنه كان يبدو متواضعاً عندما يقوم بذلك".

قال أوم: "تبدو كما لو أنها ترمي نفايات علينا".

فضحك راجارام قائلاً: "أليست تلك صفة السياسيّ المميَّزة؟".

استهل عضو البرلمان عن المقاطعة كلمة الترحيب، شاكراً رئيسة الوزراء على إسداء هذا المعروف لهذه المنطقة الفقيرة غير المستحقة. "هذا الحضور صغير الحجم"، قال، ممرّراً يده على الجموع للإشارة إلى الحشد الآسر المكوَّن من خمسة وعشرين ألف شخص. "ولكنه حضور طيّب وممتنّ، يكنّ حبًّا كبيراً لرئيسة الوزراء التي قامت بالكثير لتحسين حياتنا. نحن أشخاص بسيطون من قرى بسيطة. ولكننا نفهم الحقيقة، وقدِمنا اليوم للاستماع إلى قائدتنا...".

فرفع إيشفار كمَّيه، وفك زرَّين، وأرخى قميصه قائلاً: "أتساءل كم سيدوم الأمر؟".

قال راجارام: "سيدوم ساعتين، ثلاث ساعات، أربع ساعات... يعتمد الأمر على عدد الخُطَب".

"... ودوِّنوا كلّكم؛ أيها الصحافيون الذين ستملأون صحف الغد بتقاريركم، ولا سيما الأجانب منكم، أن خربشة غير مسؤولة تسببت بضرر كبير. لقد نُشر الكثير من الأكاذيب عن حالة الطوارئ التي أُعلنت خصّيصاً لمنفعة الناس. لاحظوا: أينما ذهبت رئيسة الوزراء، يتجمع الآلاف حولها بشعاع يمتد أميالاً عدة لرؤيتها وسماعها. بالتأكيد، يشير ذلك إلى أنها قائدة عظيمة حقاً".

فأخرج راجارام قطعة نقدية معدنية وبدأ يمارس لعبة نقش أو طُرّة مع أوم. كان الناس حولهما يقيمون صداقات جديدة، ويتبادلون أطراف الحديث، ويناقشون شؤون الرياح الموسمية. وكان الصغار يبتكرون ألعاباً ويرسمون صوراً على الغبار في أثناء خلود آخرين إلى النوم. ومدّت إحدى الأمهات ساقَيها المغطاتَين بسارٍ، ووضعت طفلها فوق فخذَيها، وبدأت تهدهده وتغنّي له برِفق، باسطةً ذراعَيها، وشابكةً إيّاهما على نحو متصالب، ورافعةً القَدم بالغة الصِّغر قدر الإمكان.

كان المذكِّرون والمتطوّعون يجوبون الفُسحات، مراقبين الأمور من دون أن يُعيروا ما يقوم به الناس أي اهتمام. ولكن النشاط الوحيد الذي كان ممنوعاً هو الوقوف أو مغادرة الفُسحة.

"... ومع ذلك، هناك من يطالب بتنحّيها، وبعدم قانونية حكمها! من هم هؤلاء الأشخاص الذين ينطقون بهذه الأكاذيب؟ إخوة وأخوات، هم المدلَّلون القلائل الذين يعيشون في المدن الكبيرة ويستمتعون بوسائل الراحة غير المتوافرة لكم ولي، لا بل إننا لا نستطيع أن نحلم بها. لا تُعجبهم التغييرات التي تُحدثها رئيسة الوزراء لأنهم سيُحرَمون من امتيازاتهم غير المنصفة. ولكن، من الواضح أن رئيسة وزرائنا المحبوبة تلقى الدعم الكامل في القرى حيث يعيش خمسة وسبعون بالمئة من شعبنا".

قُبَيل انتهاء خُطبته، أومأ بيده إلى شخص ما كان يقف منتظراً في الجزء الجانبي من المنصة، وهو يحمل راديو إرسال واستقبال. وبعد ثوانٍ، بدأت أضواء ملوَّنة مخبّأة في القوس المصنوع من الأزهار والموجود عند مقدّمة المنصة تومض بقوة كافية تضاهي ضوء شمس الظهيرة. لقد ترك ذلك انطباعاً جيداً في نفوس الحاضرين، وأصبح التصفيق الإلزامي الضعيف لخُطبة عضو البرلمان تصفيقاً حقيقياً.

بينما كانت الأضواء الوامضة لا تزال تُغشي الأبصار، ملأ ضجيجُ حوّامةٍ مقتربة من وراء المنصة السماء مجدداً، وسقط شيء ما من بطن الآلة الهائجة، وخرجت من الرزمة بَتلات ورود، وطارت في الجوّ!

ابتهجت الحشود، ولكن الربّان أخطأ في التوقيت. فبدلاً من إسقاطها على رئيسة

الوزراء والوجهاء، سقطت البَتلات في مرج وراء المنصة. فشكر راعٍ كان يرعى ماشيته هناك السماء على كرمها، ومن ثم هرع إلى المنزل لإخبار عائلته بالأعجوبة.

هبطت الرزمة الثانية المخصَّصة لفسحة الشخصيات البارزة على الهدف المحدَّد ولكنها لم تنفتح، فنُقل أحدهم على حمّالة. وعندما حان وقت إطلاق الرزمة الثالثة فوق الحاضرين من عامة الناس، كان الرّبان قد أتقن العملية وأتمّ الرّمية بنجاح. وهبّ نسيم لطيف وبعثر البَتلات، فأمضى الصغار وقتاً ممتعاً وهم يطاردونها.

على المنصة، كان هناك مزيد من الانحناء وإعادة الأقدام إلى الوراء لإلقاء التحية. وبعد ذلك، دنت رئيسة الوزراء من الميكروفونات المُعنقَدة، وشرعت بالكلام، مثبّتةً الساري بيدها حول عُنُقها. كان يلي كل عبارةٍ تقولها تصفيقٌ هادر من قِبَل الجالسين على المنصة وفي فُسحة الشخصيات البارزة، وتنطلق بعد ذلك من فسحات الحاضرين موجة من التصفيق الصادق. وبدت خُطبتها معرَّضة للتوقف بسبب فَرط التصفيق. أخيراً، ابتعدت عن المنبر، وهمست في أُذُن أحد مساعديها الذي أعطى الوجهاء بعض التوجيهات. وكان الأثر فوريّاً؛ فمنذ تلك اللحظة فصاعداً أصبح التصفيق موزَّعاً بدقّة أكبر.

سوّت رئيسة الوزراء ساريها الأبيض الذي كان ينزلق عن رأسها، وأضافت: "لا يوجد ما يدعو للقلق بسبب إعلان حالة الطوارئ. إنه إجراء ضروري لمكافحة قوى الشر، وسيجعل الأمور أفضل للناس العاديين. فقط الغشاشون، والمهرّبون، وتجار السوق السوداء هم بحاجة إلى الشعور بالقلق لأننا سنضعهم قريباً وراء القضبان. وسننجح بالرغم من المؤامرة الخسيسة التي بدأت تتفاقم منذ بدأتُ بالعرض لبرامج تعود بالفائدة على الرجل والمرأة العاديَّين. هناك يد أجنبية تعمل ضدنا؛ يد الأعداء الذين لا يريدون رؤيتنا ونحن نزدهر".

أخرج راجارام مجموعة أوراق لعب وشرع بخلطها، فسُرّ أوم، وقال: "قدِمتَ وأنت مستعدّ لكل شيء".

"بالطبع. يبدو أن الخُطبة ستطول. هل نلعب؟". سأل إيشفار، ووزّع الورق. فاستعاد الأشخاص الموجودون قربهم نشاطهم، ممتنّين لوجود أمر ممتع. فتحلّقوا حولهم في دائرة لمشاهدة اللعبة.

"... ولكن، هذا لا يهمّ لأننا عازمون على قمع القوى الفوضوية تلك. وستستمر الحكومة في الدفاع عن نفسها حتى يزول كل خطر عن تطبيق الديموقراطية في بلدنا".

ورفض أوم التصفيق، مدّعياً أن يدَيه تؤلمانه. فلعب ورقته، وصاح شخص جالس قربه: "خطأ، خطأ". وأدرك أوم خطأه، واستعاد الورقة، ولعب ورقة أخرى في أثناء

العرض لمميّزات برنامج النقاط العشرين.

"ما نريد أن نقوم به هو تأمين منازل للناس، وطعام كافٍ كي لا يجوع أحد، وملابس بأسعار مراقَبة. نريد بناء مدارس لأبنائنا وبناتنا، ومستشفيات للاعتناء بالمرضى. وستكون وسائل تحديد النسل متوافرة للجميع، ولن تتساهل الحكومة بعد الآن مع زيادة السكان بطريقة متهوّرة لأن من شأن ذلك استنفاد الموارد التي تخصّنا جميعاً. نَعِد بأننا سنزيل الفقر من مدننا وبلداتنا وقرانا".

وازداد صخَب لعبة الورق بالتدريج. كان أوم يرمي أوراقه بحماسة مُرفَقة بصُداح، ويغنّي عندما يحين دوره، "تانتان... تانا... نانا".

قال راجارام: "هل هذا كل شيء؟ كل هذا الضجيج من أجل هذه النتيجة؟ هذه عقبة صغيرة فقط! تغلّب على هذه إذا كنت قادراً على ذلك!".

"هوي... هوي... أنتظر فرصتي"، قال إيشفار، رامياً الورقة الرابحة وجاعلاً الاثنَين الآخرَين يتأوّهان. وأيّد المشاهدون جميعاً خطوته البارعة.

فقدِم أحد المراقبين للتحقق مما يجري، وحين رآهم قال لهم: "ما هذا الهراء؟ أَظهروا بعض الاحترام لرئيسة الوزراء". وهدّد بالامتناع عن إعطائهم المال أو وجبات الطعام السريعة إذا لم يُحسنوا التصرف ويُصغوا إلى الخُطبة. وطالب بحجز ورق اللعب.

"... وستُلقي فِرقنا المجوقَلة التي شُكّلت مؤخراً القبض على مهرّبي الذهب، وتكشف النقاب عن الفساد والأموال غير الشرعية، وتعاقب المتهرّبين من دفع الضرائب الذين يُبقون بلدنا فقيراً. يمكنكم أن تثقوا بحكومتكم للقيام بهذه المهمة، ودوركم في هذا الأمر بسيط جداً: تأييد الحكومة، وتأييد حالة الطوارئ. والانضباط هو المطلب الأساسي في الوقت الحاضر؛ انضباط في مختلف مظاهر الحياة إذا أردنا إعادة إنعاش الأمّة. تجنّبوا كل الخرافات، ولا تثقوا بقراءة الطالع وخريطة البروج، بل ثقوا بأنفسكم وبالعمل الجادّ. تجنّبوا الشائعات والأقاويل الفاتِنة إذا كنتم تحبون بلدكم. قوموا بواجبكم قبل أي شيء آخر! هذه هي مناشدتي لكم يا أشقائي وشقيقاتي! تحيا الهند!".

نهض معاً الوجهاء الثمانية عشر الذين كانوا جالسين على المنصة لتهنئة رئيسة الوزراء على خُطبتها الأكثر تأثيراً في النفوس. بدأت جولة رشيقة أخرى من التملّق. في النهاية، بدأ المسؤول الحزبي بإطلاق ابتسامات عريضة متكلّفة أمام الميكروفون، شاكراً رئيسة الوزراء.

قال أوم: "آه، لا! خُطبة أخرى؟ متى سنحصل على طعامنا؟".

بعد استنفاد عدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من كلمات الشكر الموجَّهة إلى عدد كبير من

الجهات، والتحيات المبتذَلة، أشار المتحدث على نحو مسرحي إلى السماء باتجاه الطرف الأبعد للحقل قائلاً: "انظروا! إلى هناك، في السُّحُب! نحن مبارَكون حقاً!".

ونظر الحاضرون إلى الأعلى لرؤية مصدر نوبته المنتشية. لم تكن هناك أي حوّامة تئزّ، بل كان هناك بالون ضخم مليء بالهواء الساخن يطير في الأُفق باتجاه الحقل. وانجرفت القُبّة البرتقالية، والبيضاء، والخضراء عبر السماء الزرقاء الخالية من السُّحُب في سكون الحُلُم. وفقدت بعضاً من ارتفاعها ودنت من الحشود، وبات بالإمكان تمييز الوجه الموجود وراء النظارة قاتمة اللون. فرفع الشحص ذراعاً مغطّاة بكمّ أبيض، ولوّح بيده.

قال الرجل بطريقة شعريّه: "آه، لقد بورِكنا مرتَين اليوم في هذا اللقاء! رئيسة الوزراء على المنصة معنا، وابنها في السماء فوقنا! ما الذي يمكننا أن نطلبه أكثر من ذلك!".

في تلك الأثناء، كان الابن في السماء قد بدأ برمي نشرات إعلامية. من خلال موهبته الطبيعية في التمثيل المسرحي، أطلق أولاً ورقة واحدة للفت انتباه الحاضرين، فتثبّتت كل الأنظار عليها في أثناء هبوطها بشكل دائري وبتكاسل. وأتبعها بنشرتَين إضافيّتَين، وانتظر قليلاً قبل البدء برمي كميات منها ملء اليد.

"أجل، يا إخوتي وأخواتي، الهند الوالدة تجلس على المنصة معنا، وابن الهند يشعّ من السماء فوقنا! الحاضر المجيد هنا الآن، والمستقبل الذهبي هناك في الأعلى ينتظر الهبوط ومعانقة حياتنا! يا لنا من أمّة مبارَكة!".

طفت على الأرض النشرات القليلة الأولى التي تحتوي على صورة رئيسة الوزراء والبرنامج المؤلّف من عشرين نقطة. ومرة أخرى، استمتع الصغار بمطاردتها والتسابق لالتقاط أكبر كمية منها. وغادر البالون المجال الجوّي، تاركاً الحقل للحوّامة لشنّ هجوم أخير.

كانت تحلّق هذه المرة على علوّ أكثر انخفاضاً من السابق مكّنها من تأدية مهامها بدقة أكبر: لقد أمطرت الجولة الختامية بَتلات ورود على المنصة. ولكن مجسَّم رئيسة الوزراء المصنوع من الكرتون المقوّى والخشب الذي يبلغ ارتفاعه ثمانين قدَماً بدأ بالتمايل بفعل العاصفة التي أحدثها دوران أنصال الحوّامة. فصاحت الحشود من شدة الخوف. وأحدث المجسم بذراعَيه الممدودتَين صريفاً، وقاومت الحبال عند مربَطها. فلوّح رجال الأمن للحوّامة باضطراب خلال مكافحتهم للإمساك بالحبال والمشابك. ولكن الإعصار كان قوياً جداً ولم يستطيعوا مقاومته، فبدأ المجسّم بالسقوط ببطء، ووجهه إلى الأمام. وفرّ أولئك الموجودون قرب المجسّم الكرتوني، ناجين بحياتهم.

قال راجارام: "لا أحد يريد الوقوع في قبضة معانقة رئيسة الوزراء له".

قال أوم: "ولكنها تحاول معانقة الجميع".

قال عمه: "فتى وقح".

وأسرعا للحصول على مرطّبات حيث يقوم رجال الأمن بإبقاء عدد كبير من الناس في صف لا نهاية له. وحال نقصٌ في الأكواب دون تحرّك المصطفّين بسرعة أكبر. ونفدت وجبات الطعام السريعة؛ طَبق باكورا واحد لكل شخص. وبتناقص مخزون الشاي، كفّ مقدّمو الطعام عن توفيره بسخاء مكتفين بنصف كوب لكل شخص. قالوا شارحين لأولئك المعترضين على الشُّح: "ليست كميّةً أقل من الشاي، إنه شاي مركَّز".

خلال تحرك المصطفّين بصعوبة، كانت سيارات الإسعاف تمرّ بجانب حافة الحقل، مُطلقةً العنان لصفّاراتها، لنقل الأشخاص الذين أُصيبوا بسبب انهيار مجسَّم رئيسة الوزراء. وبعد ساعة من الانتظار، كان إيشفار وأوم وراجارام لا يزالون في آخر الصف، وقد تم استهلاك كميات كبيرة من الشاي. وأُعلن عن مغادرة الحافلات بعد عشر دقائق. فتخلّى الجميع عن شجارهم مع موزِّعي الشاي، وهرعوا إلى منطقة الانطلاق مخافة مغادرة الحافلات من دونهم.

سأل إيشفار: "لماذا أربع؟ قالوا لنا إنّهم سيعطوننا خمس روبيّات عندما قدمنا".

"روبيّة واحدة أجرة الحافلة والشاي ووجبة الطعام السريعة".

قال أوم بوجه غاضب: "حتى إننا لم نحصل على الشاي ووجبة الطعام! وقالوا إن الحافلة مجانيّة!".

"ماذا؟ هل تريد الانتقال بالحافلة مجّاناً؟ هل والدك هو ديفالي أم ماذا؟".

فتوتّر أوم قائلاً: "أنا أحذّرك، لا تذكر اسم والدي".

فلاطفه إيشفار وراجارام وأقنعاه بالصعود إلى متن الحافلة. وضحك الرجل بسبب شخص يبدو كحشرة ويتحدث كنَمِر.

جلسوا مكتئبين طوال رحلة العودة، عطشى ومنهَكين. قال إيشفار: "لقد ذهب اليوم هدراً، كان باستطاعتنا خياطة ستّ قطع. لقد ضاعت ثلاثون روبيّة".

قال إيشفار: "ربما يُفترض بي زيارة السيدة دينا عندما نعود، لأشرح لها الأمر وأعدها بأننا سنقصدها غداً".

بعد ساعتَين، توقفت الحافلة في محيط غير مألوف، وطلب السائق من الجميع الترجّل عَمَلاً بتوجيهات محدَّدة، كما قال. وأغلق نافذته وأقفل على نفسه في حجرة السائق تحسّباً لأي رد فعل.

فهزّ قاطنو الحيّ الفقير الباب بقوة، وبصقوا عليه، وركلوا جوانب الحافلة مرات قليلة. صاح السائق: "يا لكم من أشخاص غير لائقين! تُلحقون الضرر بملكية عامة!؟".

تلقّت الحافلة وابلاً إضافياً من الضربات قبل أن يبتعد الحشد. لم يكن إيشفار وأوم يملكان أي فكرة عن مكان وجودهما، ولكن راجارام كان يعرف الطريق. وفجأة، قصف الرّعد، وبدأت تُمطر مجدداً. فساروا طوال ساعة من الزمن، وكان الليل قد حلّ عندما وصلوا إلى الحيّ الفقير.

قال إيشفار: "لنأكل شيئاً ما بسرعة، سأقصد بعد ذلك السيدة دينا وأهدّئ من رَوعها".

خلال حقن جهاز الطبخ برايموس وإشعال عود ثقاب، اخترق زعيق مروِّع حجاب الظُّلمة. لم يكن صادراً عن إنسان أو حيوان. فالتقط الخياطان مصباحاً، وركضا مع راجارام باتجاه مصدر الضجيج نحو كوخ رجل السعادين.

فوجداه وراء كوخه وهو يحاول خنق كلبه. كان تيكا بجانبه وعيناه ناتئتان، وركبتا رجل السعادين فوقه. كانت قائمتا الكلب تضربان الهواء باحثتين عن نقطة ارتكاز تساعده على التخلص مما يشعر به من ألم في عُنُقه.

أطبق رجل السعادين أصابعه بقوة أكبر. واختلطت صيحاته المجنونة بنباح تيكا الذي ينمّ عن خوف. واستمر التناغم الرهيب بين صيحات الإنسان والحيوان في تمزيق حجاب الليل.

نجح إيشفار وراجارام في فك أصابع رجل السعادين عن عُنُق الكلب، وناضل تيكا للوقوف. ولكنه لم يركض، بل وقف منتظراً في الجوار بأمانة، وهو يسعل ويضرب وجهه بقائمته. فحاول رجل السعادين الإمساك به مجدداً، ولكن الآخرين الذين تجمّعوا في المكان أحبطوا مسعاه.

قال راجارام: "اهدأ، ماذا هناك، أخبرنا".

"ليلى وماجنو!". وبكى، مشيراً إلى الكوخ وعاجزاً عن الشرح. وحاول إغواء الكلب، مُصدراً أصواتاً بفمه، وقائلاً: "يا تيكا، يا تيكا، تعال يا كلبي تيكا!".

فدنا الحيوان بثقة ملتمساً السماح. ولكن رجل السعادين ركل أضلع الكلب قبل أن يتمكن الآخرون من سحبه إلى الوراء. فرفعوا المصباح وألقوا نظرة إلى داخل الكوخ.

لقد وقع الضوء على الجدران، ومن ثم على الأرض، ورأوا جثّتَي السعدانَين ملقاتَين في إحدى الزوايا. لقد بدا ذيلا ليلى ومانجو البنّيان الطويلان منكمشَين على نحو غريب، وممرّغَين على الأرض الترابية كحبل قديم مهترئ. لقد أُكل أحدهما جزئياً، وكانت أحشاؤه البنّية الوتريّة مدلاّة إلى الخارج.

قال إيشفار مغطّياً فمه: "يا للمأساة!".

قالت إحداهنّ محاوِلةً اختراق الحشد: "دعوني أرى".

إنها المرأة المسنّة التي تشاطرت الماء مع أوم في اليوم الأول من قدومه برفقة عمِّه إلى الحيّ. فقال عازف القدميّة إنه يُفترض السماح لها بالدخول على الفور لأن باستطاعتها قراءة الطالَع من خلال الأحشاء بطلاقة الهندوسي الباغافاد غيتا.

تفرّق الحشد، ودخلت المرأة المسنّة، وطلبت تقريب المصباح. فنكزت الجثة بقدمها حتى ظهرت الأحشاء بشكل أفضل، وقامت بتحريكها بعد ذلك بواسطة غصن صغير وهي منحنية.

أعلنت: "فقدان سعدانَين ليست أسوأ خسارة سيعانيها، وقتل الكلب ليس أسوأ عملية قتل سيرتكبها".

قال راجارام: "ولكن الكلب، لقد أنقذناه، إنه...".

"قتلُ الكلب ليس أسوأ عملية قتل سيرتكبها"، كررت مشدِّدة، وغادرت. فهزّ الحاضرون أكتافهم، مفترضين أن المرأة المسنّة مشوَّشة ومستاءة بسبب الحادثة بالرغم من حدّة طباعها.

بدأ رجل السعادين ينوح مجدداً: "سأقتله! لقد مات طفلاي! سأقتل ذلك الكلب الوقح!".

قاد أحدهم تيكا إلى برّ الأمان، بينما حاول الآخرون إقناع رجل السعادين بالعدول عن ذلك: "الكلب حيوان أبكم. عندما تجوع الحيوانات، ترغب في تناول الطعام. ما المغزى من قتله؟ إنه خطأك لأنك أقفلتَ عليها معاً".

قال باكياً: "كان يلعب معهما كما يلعب الشقيق مع شقيقته، كانت بمثابة أبناء لي. انظر إلى ما حدث الآن. سأقتله".

واقتاد إيشفار وراجارام رجل السعادين بعيداً عن كوخه. إذ ستكون مواساته أسهل إذا كانت الجثّتان الصغيرتان المضرّجتان بالدماء بعيدتَين عن الأنظار. دخلوا كوخ راجارام، وخرجوا منه بسرعة؛ إذ لم تكن كُتل الشعر التي تملأ المكان وتشبه الجثتَين الصغيرتَين المرعبتَين أمراً يمكن لرجل السعادين تحمّله في حالته تلك. لذلك دخلوا كوخ الخياطين، وقدّموا له كوب ماء. فجلس ممسكاً الكوب بيدَيه، وهو يئنّ، ويرتجف، ويتكلم مع نفسه مهمهماً.

فقرر إيشفار أن الذهاب إلى منزل السيدة دينا لم يعد أمراً مطروحاً بسبب تأخر الوقت. همس لأوم: "يا له من يوم! سنشرح لها غداً ما جرى".

بقوا مع رجل السعادين حتى ما بعد منتصف الليل، تاركين إيّاه يحزن قدر ما يشاء. وتم التخطيط لدَفن ليلى وماجنو، وأقنعوه بمسامحة الكلب. وتطرق راجارام إلى مسألة كسب الرِّزق: "ما هي المدة التي تستلزمك لتدريب سعدانَين جديدَين؟".

"كانا صديقَيّ؛ ابنَيّ! لا أريد التحدث عن استبدالهما!".

صمتَ للحظات، وتطرّق بعد ذلك إلى الموضوع نفسه قائلاً: "لديّ مواهب أخرى كما تعلمان. الجُمباز، السير على حبل البهلوان، رَمي الكُرات في الهواء، لعبة التوازن. فامتهان عمل جديد من دون سعادين أمر ممكن. سأفكر في وقت لاحق في ما سأقوم به. أولاً، يجب أن أنهي فترة حدادي".

* * *

بدت دينا مستاءة عندما عاد مانيك من الكلّية في وقت متأخر، وذلك في اليوم الأول من إقامته لديها. لم يعد أحد يعتقد بالدقة في المواعيد، قالت لنفسها، ربما كانت السيدة غوبتا مُحقة ولم تكن حالة الطوارئ أمراً سيئاً إذا علّمت الناس التقيّد بالوقت.

قالت مالئةً له كوباً من الشاي وداهنةً شريحة خبز بريتانيا بالزبدة: "شايُك جاهز منذ ساعة، ما الذي أخّرك؟".

"آسف يا خالتي. انتظرت طويلاً عند موقف الحافلة. لقد تأخرتُ عن الصف في الصباح أيضاً. الجميع يتذمرون من أن الحافلات تبدو كما لو أنها اختفت من الطريق".

"الناس يتذمرون على الدوام".

"الخياطان... هل أنهيا عملهما؟".

"لم يأتيا البتة".

"ماذا حدث؟".

"لو كنت أعلم، فهل كنت لأبدو على هذا القدر من القلق؟ التأخر في القدوم أشبه بممارسة الطقوس الدينية بالنسبة إليهما، ولكنها المرة الأولى التي يتغيّبان فيها طوال اليوم".

تناول مانيك الشاي وذهب إلى غرفته. وبعد أن ركل حذاءه من قدمَيه، شمّ جوربه - رائحة خفيفة - وانتعل خفَّيه. كانت هناك بعض الصناديق المتبقية لإفراغها، ويمكن القيام بذلك في الحال. فوضع الملابس، والمناشف، ومعجون الأسنان، والصابونة في الخزانة، وشمّ رائحة جميلة على الرّف، وتنشّق بعمق: لقد ذكّره ذلك بالخالة دينا الجميلة؛ شعر جميل، ووجه لطيف.

بعد إنهائه من إفراغ الصناديق، كان في حَيرة من أمره بشأن القيام ببعض الأمور. ولفتت المظلة المدلاّة من الخزانة انتباهه. ففتحها وأُعجب بشكلها المماثل لمعبد هندوسي، وتصوّر الخالة دينا تسير في الشارع حاملةً إياها، على غرار النساء في مضمار سباق الخيل في الفيلم السينمائي سيدتي الجميلة. كانت تبدو أصغر سنًّا من والدته، عِلماً أن والدته أعلمته في رسالة موجَّهة إليه أنهما في السنّ نفسها، وستبلغان الثانية والأربعين في هذا العام، وأنها واجهت حياة صعبة ونكبات عديدة، كوفاة زوجها في سنّ الشباب، لذلك يتعيّن على مانيك أن يكون لطيفاً معها حتى وإن وجدت صعوبة في الانسجام مع الوضع.

إن الحياة الصعبة التي عاشتها تفسّر طريقة تكلّمها ونبرتها، قال لنفسه، وكذلك صوتها الذي يبدو كما لو أنه عانى العديد من تقلّبات الطقس ويوحي بأنها مُسنّة، وكلماتها اللاذعة باستمرار؛ فهي كلمات شخص تهكّمي. فتمنى لو أن باستطاعته إدخال البهجة إلى نفسها وحملها على الضحك بين حين وآخر.

كانت الغرفة الصغيرة تثير حالة عصبية لديه. يا للمكان المُملّ! كما أن ما تبقى من العام الأكاديمي سيمر ببطء شديد. فالتقط كتاباً، وقلّب صفحاته، وألقاه مجدداً على الطاولة. وتذكّر أحجار الشطرنج. فأعدّ اللوحة وقام بقليل من النَّقلات التقنيّة. بالنسبة إليه، كان المرحُ الوحيد نابعاً من الأشكال البلاستيكية. وقلَب الأحجار داخل علبة بنّية ذات غطاء منزلِق؛ من سجن مربّعاتها إلى سجن النَّعش.

لكنه فرّ من سجنه على الأقل، قال لنفسه، من ذلك النُّزُل اللعين. وتمثّل أسفه الوحيد بعدم تمكنه من إلقاء تحية الوداع على أفيناش الذي بقيت غرفته مقفَلة وساكنة. ربما لا يزال مختبئاً في منزل والدَيه؛ إن العودة في ظل سيطرة نظام الطوارئ على الحَرَم، ومع استمرار الناس في الاختفاء ضرب من ضروب التهوّر.

تذكّر مانيك أيامه الأولى برفقته عندما كانت صداقتهما حديثة العهد. كل ما أقوم به هو لعب الشطرنج، قال أفيناش ذات مرة. وها هو عُرضة لمراقبة شديدة. هل تحصّن في الوقت المحدد، محمياً بثلاثة بيادق وقلعة؟ والخالة دينا التي تلعب ضد خياطَيها وتحرك أحجارها بين الغرفة الأمامية والغرفة الخلفية. ووالدي الذي يحاول التفوّق على أخصامه في ميدان المشروبات من دون الانتباه إلى قوانين اللعبة، ويلعب الداما بأحجار الشطرنج.

لقد زاد المساء قتامة الظلال في الغرفة، ولكن مانيك لم يقلق بشأن الضوء. فلقد اكتسبت أفكاره المتقلّبة عن الشطرنج درجة لون قاتم ومُحبط مع حلول الغسق. فكل شيء مهدَّد وشديد التعقيد، واللعبة لا ترحم. لقد خلّفت المجزرة على لوحة شطرنج

الحياة جرحى. فوالد أفيناش يعاني السلّ الرئوي، وشقيقاته الثلاث ينتظرنَ دوطاتهنّ، والخالة دينا تناضل للاستمرار بالرغم من نكباتها، ووالده محطَّم الفؤاد، في حين أن والدته تُقنع نفسها بأنه سينهض من كبوته مجدداً، وسيعود ابنهما بعد عام آخر يُمضيه في الكلّية، وسيبدأ بتعبئة قناني الكولاز كولا في قبو المؤونة، وستكون حياتهم مليئة بالأمل والسعادة مرة أخرى؛ كما كانت الحال قبل إرساله إلى المدرسة الداخلية. ولكن التظاهر لا يصلح إلا لعالم الطفولة، والأمور لن تبقى على حالها. لقد بدت الحياة خالية من أي أمل، وكل ما فيها بؤس للجميع...

أغلق لوحة الشطرنج بقوة، فشعر بالهواء يداعب وجهه. وكان بارداً بسبب تبلّل خدَّيه بالدموع. فجفّف عينَيه، ولطم خدَّيه في وقت واحد مُحدثاً صوتاً كصوت المِنفاخ، وحرّك لوحة الشطرنج أمام وجهه للحصول على الهواء.

كانت مناداة الخالة دينا له لإعلامه بحلول موعد العشاء أخيراً، كالتحرر من السجن بالنسبة إليه. فذهب إلى الطاولة على الفور، وبدأ يتنقّل حولها من دون أن يجلس حتى تم تحديد مكانه.

سألت: "هل أنت مُصاب بزُكام؟ تبدو عيناك دامعتَين".

"لا، كنت أرتاح". لم تُغفل الكثير من الأمور، قال لنفسه.

"نسيتُ أن أسألك يوم أمس: هل تفضّل سكيناً وشوكة؟ أم تريد تناول الطعام بأصابعك؟".

"أي شيء، لا يهمّ".

"ماذا تفعل في المنزل؟".

"نستخدم أدوات المائدة".

فوضعت سكيناً وشوكة وملعقة على جانبي الطبق من دون أن تضع أي شيء قرب طبقها، وأحضرت الطعام إلى الطاولة.

قال معترضاً: "باستطاعتي تناول الطعام بأصابعي أنا أيضاً، لستِ مضطرة إلى معاملتي بشكل مميَّز".

ملأت طبقه، وجلست في الاتجاه المقابل: "أدوات المائدة الرخيصة المصنوعة من فولاذ لا يصدأ ليست مميَّزة. عندما كنت شابة، كنا نملك على الدوام أدوات مائدة مناسبة مصنوعة من الفضة الاسترلينية. كان والدي دقيقاً في هذه المسائل. بعد وفاته، تغيّرت عاداتنا ولا سيما عندما تزوّج شقيقي نوسوان بروبي. لقد تخلصت زوجته من تلك الأدوات، قائلةً إننا لسنا بحاجة إلى تقليد الأجانب في حين أن الله منحنا أصابع ممتازة.

إنه أمر صحيح على أيّ حال، ولكنني أعتقد أنها لم تكن تحب تنظيف أدوات المائدة".

في منتصف الوجبة، غسلت دينا يدَيها وأحضرت سكيناً لنفسها قائلة: "لقد أعدتَ إليّ الذكريات". وابتسمت. "لم أستخدم هذه الأشياء منذ خمسة وعشرين عاماً".

وأشاح بنظره، محاولاً عدم إرباكها، ثم سألها: "هل سيأتي الخياطان غداً؟".

قالت بإيجاز: "آمل ذلك". صارفةً النظر عن الموضوع.

بعد ذلك، عاد هذا الموضوع ليقلقها فقالت: "ما لم يجدا عملاً أفضل ويختفيا. ولكن، هل يمكنني توقّع شيء آخر من هذين الشخصَين؟ منذ بدئي بهذا العمل، حوّلا حياتي إلى بؤس. إنهما يقودانني إلى الجنون يوماً بعد يوم بسبب قلقي من ضرورة إنهاء الثياب في الوقت المحدد".

"ربما هما مريضان أو ما شابه".

"الاثنان معاً؟ ربما هو المرض الذي يخرج من قنينة الشراب. لقد دفعتُ لهما أجرهما يوم أمس. لا انضباط على الإطلاق، لا شعور لديهما بالمسؤولية. على أيّ حال، لا أعرف لماذا أزعجك بمشاكلي".

"لا بأس". وساعدها على حمل الأطباق المتسخة إلى المطبخ. كانت الهررة الشاردة تموء في الخارج. لقد سمعها في الليلة السابقة في أثناء خلوده إلى النوم، وحَلم بكلاب المنبوذين وهي تحتشد في الرُّواق الخارجي التابع للمتجر العام، فيما يقوم والده بإطعامها مُطلِقاً دعابته المعتادة بشأن فتح فرع جديد للكلاب.

قالت دينا في أثناء رمي الفضلات: "ليس عبر النافذة يا مانيك، بل في دلو القُمامة".

"ولكنني أريد إطعام الهررة، يا خالتي".

"لا، لا تشجعها".

"إنها جائعة. انظري كيف تنتظر".

"هذا هراء. إنها مصدر إزعاج خارج نافذتي، هذا ما هي عليه. وهي تقتحم المطبخ لتوسيخه. فأمعاؤها هي الشيء الجيد الوحيد فيها لأنها تُستخدم لصنع أوتار الكمان، كما كان زوجي يقول لي".

كان مانيك على ثقة تامة بأنها ستنظر إلى الأمر من وجهة نظره إذا تحدّث عن الهررة كل اليوم كما لو أنها بشر؛ إنها خدعة والده. وعندما أدارت ظهرها، رمى الفضلات إلى الخارج. لقد اختار هرّته المفضَّلة: هرة بنّية وبيضاء مرقطة تطلب الاستعجال برمي الطعام لأنها لم تحصل عليه طوال اليوم.

بعد تنظيف الطاولة، دعته دينا للجلوس معها في الغرفة الأمامية ليقرأ أو يدرس،

أو يقوم بما يحلو له. "ليس عليك الإقفال على نفسك هناك. اعتبر هذا المنزل منزلك. وإذا احتجتَ إلى أي شيء، فلا تتردد في طلبه".

"شكراً لك، يا خالتي". كان يخشى العودة إلى غرفته الصغيرة قبل حلول وقت النوم. فأخذ الكرسيّ الذي قدّمته له دينا، وجلس عليه متصفّحاً مجلة.

"هل سبق لكَ أن زرتَ عائلة والدتك؟".

فهزّ رأسه قائلاً: "أكاد لا أعرفهم. ولم نعمّق معرفتنا بهم. يقول والدي باستمرار إنهم مُمِلّون لدرجة أنهم يواجهون خطر إضجار أنفسهم حتى الموت".

فقطّبت حاجبيها وابتسمت في آن واحد، فارزةً فضلات القماش والرُّقع. وانتشرت على الأريكة المربعات التي أعدّتها لتتلاءم مع بعضها.

واقترب مانيك منها، ثم سألها: "ما هذه؟".

"مجموعة أقمشتي".

"حقاً؟ لماذا تجمعينها؟".

"هل يجب أن يكون هناك سبب؟ الناس يجمعون أشياء من مختلف الأنواع؛ طوابع بريدية، قطع نقود معدنية، بطاقات بريدية. لديّ أقمشة بدلاً من ألبوم صور أو دفتر قُصاصات".

قال: "أجل". وأومأ برأسه بارتياب.

سمحت له بالمراقبة لبعض الوقت، ومن ثم قالت: "لا تقلق، لن أُجَنّ. هذه القِطع مخصَّصة لصنع لحاف؛ غطاء جميل لسريري".

"حسناً، لقد فهمت". بدأ ينظر إلى الكومة، طارحاً اقتراحات، ومختاراً قِطعاً يظنّ أنها تنسجم مع بعضها. وبدا بعضها - كعيّنات قماش من الشيفون - رائعاً بين أصابعه. قال: "ألوان وزخرفات عديدة ومختلفة".

"هل تحاول أن تنتقد أم ماذا؟".

"لا، أعني أنه سيكون من الصعب جداً الجمع بينها بالشكل الملائم".

"صعب، أجل، ولكن هنا يأتي دور الذَّوق والمهارة. ما الذي يجب اختياره؟ وما الذي يجب وضعه جانباً؟ وأي قطعة يجب وضعها بجانب الأخرى؟".

وقصّت بعض الحوافّ المثلَّمة، وسرّجت مؤقتاً المجموعات الست المختارة للحصول على منظر أفضل. سألته: "ما رأيك؟".

"جيد حتى الآن".

فشعرت بأنه فتى ودود، ولم يكن هناك أساس لمخاوفها من أن يكون فاسداً بسبب

التدليل. ومن الجيد أن يكون هناك شخص تخاطبه وتثق به إلى جانب الخياطَين اللذين ترتاب بأمرهما على الدوام.

بعد ظهر اليوم التالي، اعترضت طريق مانيك على الشرفة بعد عودته من الكلّية، وهمست قائلةً: "إن الخياطَين قد عادا. ولكن، لا تتفوّه بأي كلمة عن مدى استيائي بالأمس".

"حسناً". الغامبيت الملكة ترمي كتبه على السرير، قال لنفسه. ودخل الغرفة الأمامية حيث كان الخياطان يستريحان ويحتسيان الشاي.

قال إيشفار: "ها هو، ها هو! بعد شهر كامل، التقينا مجدداً، أليس كذلك؟".

مدّ يده إلى مانيك، وسأل عن حاله بينما كان أوم واقفاً على مقربة منهما وعلى وجهه ابتسامة عريضة. فقال مانيك إنه بخير، وأخبره إيشفار أنهما في أفضل حال بفضل العمل المنتظم لدى السيدة دينا التي يعتبرها مستخدِمة جيدة. وابتسم لها ليُشركها في أثناء حديثه.

طوال فترة بعد الظهر، راقبت دينا الثلاثة باستهجان؛ كانوا يتصرفون كما لو أنهم أصدقاء لم يلتقوا منذ زمن بعيد، في حين أنهم التقوا مرة واحدة فقط على متن القطار في أثناء محاولتهم العثور على شقتها.

في المساء، وعندما كان الخياطان يستعدان للكف عن العمل بالتنانير، قدّمت لهما نصيحة وداعية: "من الأفضل أن تخبرا رئيسة الوزراء أن عملكما سيكون في خطر إذا استدعتكما مجدداً. هناك خياطان آخران يتوسلان للعمل لديّ".

قال إيشفار: "لا، لا، نريد العمل لديك قَطعاً. نحن سعيدان بالعمل لديك".

جلست دينا بمفردها في الغرفة الخلفية بعد مغادرة الخياطَين. كان المكان يبدو كما لو أن صوت آلتي الخياطة لا يزال يتردّد في الأرجاء. فبعد قليل، يهبط ظلام المساء، ويكتنف الجوَّ المليء بالنسيج، وينسدل فوق سريرها، ويتسبب لها بالغمّ حتى الصباح.

لكنّها هذه المرة، مع هبوط الغسق وإضاءة مصابيح الشارع، بقيت مبتهجة. إن الفارق الذي يُحدثه وجود شخص آخر في الشقة، قالت لنفسها، أشبه بالسِّحر. وعادت إلى الغرفة الأمامية لإجراء حديثها المخطَّط له مع مانيك.

الملكة مقابل فارس الملك، قال لنفسه.

قالت: "أنت تدرك لماذا يجب عليّ أن أكون صارمة معهما. فإذا عرفا أنني بحاجة ماسّة إليهما، فسيجلسان على رأسي".

"أجل، أفهم. بالمناسبة، يا خالتي، هل تلعبين الشطرنج".

"لا. ويُفترض بي أن أُخبرك الآن في الحال. لا يُعجبني قيامك بتبادل أطراف الحديث معهما. هما موظفاي، وأنت ابن آبان كولاه. يجب أن تبقى على مسافة منهما لأن هذه الألفة غير جيدة".

كانت الأمور أسوأ بعد ظهر اليوم التالي. فهي لم تستطع تصديق ما تسمعه، ولم تتقبل وقاحة أومبراكاش ذاك عندما سأل مانيك قائلاً: "هل تريد القدوم معنا لاحتساء الشاي؟". والأسوأ من ذلك ظهور رغبة مانيك على وجهه في قبول الدعوة. فقررت التدخل.

"شايُه موجود هنا، معي"، قالت دينا بصوت جليدي.

"أجل، ولكن، ربما... ربما يمكنني الخروج اليوم فقط، يا خالتي؟".

فقالت إن الأمر سيّان بالنسبة إليها إذا أراد تبذير ما يدفعه والداه لها لقاء توفير الطعام والملجأ له.

في فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل، كان الهواء زاخراً بروائح الطهو المثيرة للشهية. وشعر مانيك بأن ليس عليه سوى مدّ لسانه لاختبار الوجبة. كانت معدته تقعقع جوعاً.

فجلسوا إلى طاولة منعزلة وطلبوا شاياً. كانت هناك بقع من الطعام اللاذع على الخشب، مصدرها أطباق مزوَّدة بالتوابل أُريق القليل منها على الطاولة. فأخرج إيشفار علبة البيديس من جَيبه وعرض على مانيك أخذ سيجارة.

"لا، شكراً. لا أدخّن".

فأشعل الخياطان سيجارتَين. قال أوم: "إنها لا تسمح لنا بالتدخين خلال الخياطة، والغرفة مكتظة الآن بسريرها أيضاً. المكان أشبه بمستودع بضائع قذر".

قال إيشفار: "لماذا تهتم؟ وكأنك تريد الركض في أرجائها وراء ماعز أو ما شابه لالتقاطها".

كان الطاهي يعمل في إحدى زوايا المطعم وسط دائرة من الأوعية والطناجر. كان باستطاعتهم رؤية الشاي وهو يغلي بهدوء في كشك مفتوح، وأجهزة الطهو الهادرة ترسل سُحُباً من الدخان المثقَل بالشحوم إلى السقف. كانت ألسنة اللهب تمسّ برِفق القعر الأسود لطنجرة ضخمة مليئة بزيت مغليّ يبقبق على نحو خطر استعداداً للقلي. وسقطت نقطة عرق من جبين الطاهي اللماع داخل الزيت.

سأل إيشفار: "هل تحب غرفتك؟".

"أجل. أكثر من النُّزُل".

قال أوم: "لقد عثرنا على مكان أيضاً، في البدء كنا نكرهه، ولكننا اعتدنا الإقامة فيه

الآن. يقيم بجوارنا بعض الأشخاص الطيّبين".

قال إيشفار: "يجب أن تأتي لزيارتنا ذات يوم".

"بالتأكيد. هل هو بعيد؟".

"ليس كثيراً. يتطلبك الأمر خمساً وأربعين دقيقة للوصول إليه بواسطة القطار". ووصل الشاي بعد إضافة قليل من مياه الصودا عليه، وكانت الأكواب موضوعة على فناجين أُريق عليها بعض الشاي. فشرق إيشفار الشاي الموجود في الفنجان. وسكب أوم محتويات فنجانه داخل الكوب، وارتشف قليلاً من الشاي، وحذا مانيك حذوه.

"وكيف تسير الدراسة في الكلّية؟".

فبدت على وجه مانيك المتجهّم أمارات المرارة، وأجاب: "لا أمل يُرجى منها. ولكن، عليّ إنهاؤها بطريقة ما لإسعاد والدَيّ، وللعودة إلى المنزل على متن أول قطار".

قال إيشفار ساعلاً ومتنحنحاً: "عندما نجمع بعض المال في وقت قريب، سنعود أيضاً، للعثور على زوجة لأوم، أليس كذلك يا ابن شقيقي؟".

قال بوجه متجهِّم: "لا أريد الزواج، كم مرة عليّ أن أقول لك ذلك؟".

"انظر إلى ذلك الوجه المصفرّ كالليمون الحامض. هيا، أَنهِ شايك، انتهى وقت الاستراحة". نهض إيشفار للمغادرة، وابتلع الفَتيان آخر الجرعات، وخرجا من متجر الشاي الصغير وهما يتبعانه. وأسرعوا في العودة إلى شقة دينا، مارّين بجانب المتسوّل على منصّته الخشبية المُدولَبة.

قال أوم لمانيك: "هل تتذكره؟ لقد رأيناه في اليوم الأول. لقد أصبح صديقنا الآن. نمرّ بجانبه كل يوم، فيلوّح لنا".

كان المتسوّل يغنّي: "أو بابو! أراي بابو! أو بابو الكبير!". وابتسم للثلاثي، هازّاً صفيحته المعدنية الصغيرة. فوضع مانيك فيها الفكة المتبقية من فندق فيشرام.

"ما تلك الرائحة؟"، سألت دينا، وانحنت باتجاه مانيك بغضب لتشمّ قميصه. "هل كنت تدخّن مع هذَين؟".

"لا"، أجاب هامساً ومُحرَجاً من أن يقوما بسماعها في الغرفة الخلفية.

"كن صادقاً. أنا بمثابة والدتك الآن".

"لا، يا خالتي! كانا يدخنان وكنت جالساً بجانبهما، هذا كل شيء".

"إذا أمسكتُ بك وأنت تدخّن فسأكتب إلى والدتك على الفور. أنا أحذّرك. الآن، أخبرني، هل قالا أي شيء آخر عن يوم أمس؟ عن السبب الحقيقي لغيابهما؟".

"لا".

"ما الذي تحدثتم عنه؟".

كان يكره الاستجواب. "تحدثنا عن بعض الأمور".

فلم تُلحّ عليه بعد أن صدمتها قلة كلامه، وقالت له: "هناك أمر آخر يجب تحذيرك منه. يعاني أومبراكاش من القَمل".

سأل بفَضول: "حقاً؟ هل رأيتها؟".

"هل أضع يدي في النار للتحقق من أنه ساخن؟ إنه يحك طوال اليوم، وليس رأسه فحسب. لديه مشاكل في طرفَيه؛ ديدان في أحدهما وقَمل في الطرف الآخر. لذلك، خُذ بنصيحتي، وابقَ بعيداً عنه إذا كنت تعرف صالحك. عمّه سليم، فهو أصلع تقريباً. ولكن، أنت لديك شعر كثّ، وسيحبّه القمل".

لم تلقَ نصيحة دينا آذاناً صاغية. وبمرور الأيام والأسابيع، أصبح اجتماع الثلاثة بعد الظهر في فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل حدثاً منتظماً. وذات مرة، تأخر مانيك في العودة من الكلّية، فهمس أوم في أُذُن إيشفار قائلاً إنه يُفترض بهما انتظاره.

قالت دينا بعد أن سمعتهما: "يا للعجب، يا للعجب! أترجئان احتساء الشاي؟ هل أنتما بخير؟ هل أنتما واثقان من أن باستطاعتكما الانتظار طوال هذه المدة؟".

ففكر إيشفار مليًّا في سبب انزعاج السيدة دينا إلى هذا الحد من ذهابهم معاً. وعندما وصل مانيك وقفز أوم من وراء آلة الخياطة، قرر إيشفار الاستمرار في العمل، قائلاً لهما: "اذهبا أيها الفتيان، أريد البقاء لإنهاء هذه التنورة".

فمدحته دينا: "أصغِ إلى عمك، إنه مثال يُحتذى"، قالت لأوم خلال مغادرتهما. وسكبت الشاي الذي كانت قد أعدّته لمانيك في الكوب الذي يحمل نقوش ورود زهرية اللون وأعطته لإيشفار قائلة: "يمكنك تناوله".

فشكرها بسبب تكبّد العناء، وتناول رشفة وهو يقول إنّ مانيك وأوم منسجمان جداً ويستمتعان برفقة أحدهما الآخر. "هما في السنّ نفسها. لا بد من أن يكون أوم منزعجاً من رفقة عمّه المُسنّ طوال الوقت. نحن معاً ليلَ نهارَ".

"هراء". وقالت إنه لو لم يكن في رعاية عمه لغدا شخصاً عديم النفع. "آمل فقط ألا يكون تأثيره في مانيك كبيراً".

"لا، لا، لا تخافي. أوم ليس فتى سيّئاً. إذا كان غير مطيع أحياناً أو عكر المزاج فلأنه مُحبَط وتعيس. لقد حظي بحياة مشؤومة".

"لم تكن حياتي سهلة كذلك. ولكن، يجب الاستفادة من أفضل الموجود".

قال، موافقاً إيّاها الرأي: "لا توجد طريقة أخرى".

ومذاك اليوم، كفّ عن مرافقة الفتيَين، واستمرت دينا في إعداد الشاي لأجل مانيك، وكانت تسكبه بعد ذلك في كوب إيشفار. كانا يتبادلان أطراف الحديث حول مسائل تتناول الخياطة وسواها من أمور، وتتطلّع دينا على الدوام إلى بسمته الجزئية الممتنّة ونصف وجهه المشدود الذي يشعّ فرَحاً لدى رؤيته الورود زهرية اللون المنقوشة على امتداد حافة الفنجان.

"تتحسن خياطة أوم، أليس كذلك يا سيدة دينا؟".

"يرتكب عدداً أقل من الأخطاء".

"أجل، أجل. بات أكثر سعادة منذ قدوم مانيك".

"لكنني قلقة على مانيك. آمل أن يكون مواظباً على الدرس بالشكل المناسب؛ والداه يعتمدان عليه. لديهما متجر صغير، وعملهما متعثّر".

"للجميع مشاكلهم. لا تقلقي، سأتحدث إليه وأذكّره بضرورة الكدّ في العمل. هذا ما يتعيّن على الشابّين القيام به، الكدّ في العمل".

ولاحظ إيشفار أن استراحات الشاي لم تعد تُزعج السيدة دينا، وتأكّد شكّه في أنها تتوق إلى رفيق.

لقد اتخذ الحديث بين الفتيَين منحى مختلفاً لاإرادياً خلال وجودهما معاً بمفردهما. وكان أوم فضولياً بشأن معرفة المزيد عن النُّزُل الذي غادره مانيك. "هل تُقيم فتيات هناك؟".

"هل تعتقد أنني كنت سأغادر لو كنَّ موجودات؟ لديهنّ نُزُل منفصل لا يُسمح للفتيان بدخوله".

من فيشرام، كان باستطاعتهما رؤية إعلان سينمائي على أحد السطوح في الجانب الآخر من الطريق، عن فيلم سينمائي بعنوان ريفولفر راني. كانت لوحة الإعلانات مزدوجة، ويَظهر على إحدى جهتيها أربعة رجال يمزقون ثياب امرأة كاشفين عن صَدر تغطيه صُدرة، في حين تكشف الشفاه الضاحكة بطريقة شهوانية عن أسنان آكلة للّحوم وألسنة حمراء. وتُظهر الجهة الأخرى المرأة نفسها بملابس بالية تحصد الرجال الأربعة بطلقات نارية من بندقية أوتوماتيكية.

قال أوم: "لماذا دُعي ريفولفر راني؟ هناك بندقية بين يدَيها".

"كان بالإمكان دعوته ماشين-غن ماهاراني. ولكن هذا الاسم غير مناسب".

"من المُفترض أن يكون حضوره أمراً ممتعاً".

"لنذهب إلى السينما الأسبوع القادم".

"لا أملك المال. قال إيشفار إنّه يجب علينا ادّخار ما نجنيه".

"لا بأس، سأدفع ثمن البطاقتَين".

تفحّص أوم وجه مانيك وهو يأخذ سيجارة، محاولاً التحقق مما إذا كان يعني ما يقوله، ثم قال له: "لا، لا يمكنني السماح لك بذلك".

"لا بأس، لا مانع لديّ".

"سأسأل عمي". وأخرج عود ثقاب.

لقد حان وقت أوم للضحك. "أنت بطل الادّعاء بالتأكيد. على متن قطار!".

دفع مانيك ثمن كل وجبات الطعام السريعة والمشروبات في فيشرام لأن أوم حصل من إيشفار على ما يمكّنه من شراء كوب واحد من الشاي. وكانت المخصصات المالية التي يحصل عليها مانيك من والدَيه كافية لتسديد تكاليف الولائم بما أنه لم يعد بحاجة إلى دفع المال في مطعم الكلّية. وفي الأسبوع التالي، وفى بوعده واصطحب أوم إلى السينما لمشاهدة ريفولفر راني بعد انتهاء يوم العمل في الخياطة. وعرض تسديد ثمن بطاقة لإيشفار أيضاً، ولكنّ الأخير رفض قائلاً إنه من الأفضل له تمضية وقته في إنهاء ثوب آخر.

"ماذا عنكِ، يا خالتي؟ هل تريدين القدوم؟".

قالت دينا: "ما كنت لأشاهد هذا الهراء حتى ولو دفعتَ لي. وإذا كان مالك يُثقل جَيبك، دعني أعلم. يمكنني إبلاغ والدتك بالكفّ عن إرسال المزيد إليك".

قال إيشفار: "هذا صحيح تماماً. أنتم الشباب لا تفهمون قيمة المال".

لكن التأنيب لم يردعهما، وانطلقا إلى السينما. وذكّرت مانيك بضرورة العودة إلى المنزل مباشَرةً بعد حضور الفيلم لأن عشاءه سيكون في الانتظار. فوافق، مهمهماً بأن الخالة دينا أخذت على عاتقها بجدّية كبيرة لعب دور الحارس.

قال أوم لدى توجههما إلى محطة القطار: "لقد تحقق توقع المرأة العجوز، جزء منه على أيّ حال؛ لقد أخذ رجل السعادين بثأره أخيراً".

"ماذا فعل؟".

"أمراً رهيباً. لقد حدث الأمر ليلة أمس". كان تيكا قد عاد للعيش مع رجل السعادين، وافترض الجيران أن الاثنين عادا إلى صداقتهما مجدداً. ولكن، بعد ذهاب سكان الحيّ إلى النوم، وضع رجل السعادين صندوق قنانٍ خشبيًّا خارج كوخه، وزيّنه بالزهور، ووضع فوقه مصباحاً مليئاً بالوقود، ووضع في الوسط صورة فوتوغرافية لليلى وماجنو على ظهر تيكا. لقد التُقطت تلك الصور بواسطة آلة تصوير بولارويد منذ زمن بعيد من قِبَل سائح

أميركي فتنه المشهد. وكان المذبح جاهزاً. فاقتاد رجل السعادين تيكا إليه، وجعل الكلب يستلقي، ونحر عُنُقه. وانطلق بعد ذلك في الجوار ليُبلغ الناس بإنجازه مهمته.

قال أوم: "كان الأمر رهيباً. هرعنا إلى هناك ورأينا تيكا المسكين يتخبط في دمه. كان لا يزال ينتفض قليلاً، وكدت أتقيّأ".

قال مانيك: "لو كان والدي هناك لقتل رجل السعادين".

"هل تتباهى أم تتذمر؟".

"كلا الأمرين، كما أظن". وركل حجراً من ممر المشاة إلى الطريق، وتابع قائلاً: "والدي يعتني بالكلاب الشاردة أكثر من اعتنائه بابنه".

"لا تقل كلاماً سخيفاً".

"ليس كلاماً سخيفاً. انظر، هو يُطعم الكلاب كل يوم في الرُّواق الخارجي، ولكنه أرسلني بعيداً عن المنزل. يستمر بالتشاجر معي كلما عدت إلى المنزل. هو لا يريدني هناك".

"لا تقل كلاماً سخيفاً، أرسلك والدك إلى هنا للدراسة لأنه يهتم بمستقبلك".

"هل أنت خبير بالآباء أم ماذا؟".

"أجل".

"كيف ذلك؟".

"لأن والدي متوفًّى، ومن شأن ذلك أن يجعلك خبيراً بسرعة. يُستحسن بك أن تصدّقني؛ توقف عن قول أمور سخيفة عن والدك".

"حسناً، والدي رجل صالح. ولكن، ماذا حلّ برجل السعادين؟".

"غضب سكان المستوطنة، وقالوا إنه يُفترض بهم إخبار الشرطة لأن رجل السعادين آوى طفلَين في منزله، يتراوح عمرهما بين الثالثة والرابعة، بعد موت السعدانَين. إنهما ابن شقيقته وابنتها، وهو يقوم بتدريبهما على الدور الذي سيلعبانه. قد يكونان في خطر شديد إذا غضب. ولكن قاطنين آخرين في المستوطنة قالوا إن لا فائدة من وضع المجنون في عُهدة محتالين. على أيّ حال، يحب رجل السعادين الطفلَين ويعتني بهما جيداً".

ترجّلا من القطار، شاقَّين طريقهما عبر الأشخاص المحتشدين الذين ينتظرون الصعود إلى متن القطار. كانت هناك امرأة جالسة تحت الشمس خارج رصيف الركاب، وهي تضع سلة خضار صغيرة بجانبها، وتجفف ساريها المغسول على مرحلتَين. كانت تلفّ أحد طرفَيه حول خصرها وفوق نهدَيها المتقلّصَين، معرِّضةً إيّاه للهواء، وتمدّ الجزء

الثاني من ثوبها على سياج سكة الحديد، فينساب من جسدها تحت شمس بعد الظهر. لقد لوّحت لأوم في أثناء مرورهما بجانبها.

"إنّها تُقيم في مستوطنتنا"، قال أوم شاقّاً طريقه عبر حركة المرور لعبور الطريق باتّجاه السينما. "وهي تبيع الخضار. ليس لديها سوى هذا الساري فقط".

انتهى فيلم ريفولفر راني في وقت متأخر أكثر مما كان متوقَّعاً. وخلال عرض لائحة أسماء المشاركين في الفيلم، بدأا بعبور الممرات ببطء، متمهّلين بسبب عدم رغبتهما في إغفال إعادة الاستماع إلى الموسيقى التصويرية. وظهر على الشاشة بعد ذلك العلَم الوطني المرفرف، واندفع الحاضرون نحو المخارج.

ولكن أولئك المتجهين إلى الخارج اصطدموا بعقبة. فلقد سدّ متطوّعو مجموعة شيف سينا لحراسة الأبواب طريقهم، وبدأ الأشخاص الذين في الخلف بالصراخ، غير مُدركين لما يجري: "تنحَّ جانباً، رجاءً! تحرك يا سيد! لقد انتهى عرض الفيلم!".

لكن الأشخاص المحتشدين في الأمام لم يتمكنوا من التقدم بسبب قيام مجموعة شيف سينا بالتلويح بالعصيّ وبمجموعة منوَّعة من اللافتات: احترموا النشيد الوطني! وطنكم بحاجة إليكم خلال حالة الطوارئ! حب الوطن واجب مبجل! ولم يُسمح لأحد بالمغادرة حتى غاب العلَم عن الشاشة وأُضيئت الأنوار.

قال أوم ضاحكاً: "لماذا يكون حب الوطن واجباً مبجلاً؟ هل يجب عليهم إخافة الناس كي يحبوا وطنهم؟".

قال مانيك: "حتى إن هؤلاء الأغبياء لا يُجيدون تهجئة كلمة مبجل، وها هم يُملون علينا ما يجب القيام به".

لاحظ أوم أن عدد المحتجين كان خمسين تقريباً بالإجمال، في حين أن الحاضرين كان عددهم يزيد على ثمانمئة شخص. "باستطاعتنا التغلب عليهم بسهولة على غرار ذلك الرجل في الفيلم"، قال، مثبّتاً قبضتَي يدَيه أمام صدره.

وبمعنويات مرتفعة، بدأا بتكرار بعض ما قيل في ريفولفر راني. قال مانيك مزمجراً بتبجّح: "من يريد النِّزال بالسيف؟ لا يمكن الثأر للدم إلا بالدم!".

أما أوم فأعلن: "واقفاً على هذه الأرض المكرَّسة لله، أُقسم والسماء شاهدة على ما أقوله إنكم لن تروا غسَقاً آخر!".

وأضاف مانيك: "هذا لأنني أستيقظ في وقت متأخر كل يوم". لقد أدى انحراف مانيك المفاجئ عن النص إلى فقدان أوم وضعيّته التمثيلية والانفجار ضاحكاً.

خارج محطة سكة الحديد، كانت المرأة لا تزال جالسة مع سلّة الخضار. وكانت

قد لفّت النصف الجاف من الساري عليها، وحان دور النصف المبلّل ليوضع على السياج. كانت السلة فارغة تقريباً. خاطبها مانيك: "يا آما، حان وقت العودة إلى المنزل". فابتسمت.

على رصيف الركاب في المحطة، قررا اختبار الآلة التي كُتب عليها بخت 25 بايزا. فبدأ مانيك أولاً، ودار الدولاب الأحمر والأبيض، وومضت المصابيح الصغيرة، وكان هناك رنين جَرَس، وخرجت ورقة مستطيلة إلى الإناء المقوَّس.

قال مانيك: "واحد وستون كيلوغراماً". وقرأ بختَه على الجهة المقابلة. اجتماع سعيد ينتظرك في المستقبل القريب. "يبدو ذلك صحيحاً. سأعود إلى المنزل بعد انتهاء هذا العام الدراسي".

"أو يعني أنك ستلتقي تلك المرأة مجدداً على متن القطار. يمكنك إنهاء ما بدأته معها. هيا، حان دوري". ووقف على الآلة، وبحث مانيك في جَيبه عن قطعة نقود أخرى من فئة 25 بايزا.

قال أوم: "ستة وأربعون كيلوغراماً". وأدار الدولاب. ستزور قريباً عدداً من الأماكن الجديدة والمشوّقة. "لا معنى لذلك. العودة إلى قريتنا... ليست مكاناً جديداً".

"أظن أنه يعني...".

فاتخذ أوم وضعية تمثيلية ورفع يده، عائداً إلى الحوار في الفيلم السينمائي: "لن أرتاح أبداً قبل أن ألفّ هذه الأصابع حول عُنُقك، وأُخرج منه حياتك البائسة!".

قال مانيك: "ليس عندما لا تزن سوى ستة وأربعين كيلوغراماً، سيكون عليك التدرّب على عُنُق دجاجة في بادئ الأمر".

ووصل القطار، فابتعدا عن النافذة بعد أن قطعا تذكرتين وركضا للصعود على متنه. قال أوم: "تبدو تذكرتا القطار هذه مماثلة تماماً لبطاقات الوزن".

قال مانيك: "كان باستطاعتي ادّخار أجرة السفر".

"لا، في الأمر مجازفة كبيرة. يطبّقون القانون بصرامة بسبب حالة الطوارئ". وأخبره عن وقوعه وإيشفار في شرك غارة شُنّت على المسافرين الذين لا يحملون تذاكر.

انتهت ساعة الازدحام، وتم شَغل المقصورة على نحو متفرّق. فوضعا قدمَيهما على المقعد الفارغ، وحلّ مانيك رباط حذائه وسحبه إلى الخارج، ثانياً أصابع قدمَيه. "لقد سرنا كثيراً اليوم".

"لم يكن يُفترض بك انتعال هذا الحذاء الضيّق. خُفّاي يوفران لقدميّ راحة أكبر".

"سيستاء والداي كثيراً إذا خرجتُ منتعلاً خُفّاً". ودلّك أصابع قدمَيه وأخمصَيهما،

ومن ثم سحب جوربه نحو الأعلى وانتعل حذاءه.

قال أوم: "كنت أدلّك قدمَي والدي، فيما يقوم هو بتدليك قدمَي جدّي".

"هل كنتَ مضطراً إلى القيام بذلك كل يوم؟".

"لا، ولكنه تقليد. كنا نجلس خارجاً في الأمسيات على السرير، فيهبّ نسيم منعش وتزقزق الطيور على أغصان الأشجار. كنت أستمتع بالقيام بذلك لوالدي فيُسَرّ كثيراً". وتمايلا قليلاً على مقعدَيهما خلال تأرجح القطار. "كان هناك ثَفَن تحت إصبعه الكبيرة في قدمه اليمنى؛ بسبب تشغيل دوّاسة آلة الخياطة. عندما كنت صغيراً، كان ذلك الثَّفَن يُضحكني عندما يحرك إصبعه التي تبدو كوجه رجُل".

لزم أوم الصمت طوال الطريق، محدّقاً خارج النافذة ومستغرقاً في التفكير. فحاول مانيك إلهاءه من خلال تقليد شخصيات ريفولفر راني، ولكن ابتسامة ضعيفة هي كل ما تمكّن من الحصول عليه، لذلك لزم الصمت أيضاً.

قال مانيك: "كان يُفترض بك مرافقتنا، كان الأمر مسلّياً والقتال مثيراً".

قال إيشفار: "لا، شكراً لك. لقد رأيت الكثير من القتال في حياتي. ولكن متى ستزور منزلنا؟". شعر إيشفار بأن إنفاق مانيك المنتظم على أوم بمثابة دَين عليه، وقد حان الوقت لمكافأته بطريقة متواضعة. "يجب أن تتناول العشاء معنا قريباً".

"بالتأكيد، متى شئت"، أجاب مانيك، متردداً في الالتزام بوقت محدَّد. فمن شأن ذلك إغضاب الخالة دينا؛ فقد كانت الرحلة إلى السينما سيّئة بما يكفي.

لحسن الحظ، لم يُلحّ إيشفار على تحديد موعد في الحال. فوضع الغطاء على آلة الخياطة وغادر مع أوم.

قالت دينا: "حسناً، آمل أن تكون قد استمتعت في مخالفة تمنّياتي، ومخالطته أكثر فأكثر بالرغم مما قلته لك".

"كان مجرد فيلم سينمائي واحد، يا خالتي. إنها المرة الأولى التي يذهب فيها أوم إلى السينما. كان شديد التأثر".

"آمل أن يتمكن من الخياطة يوم غد، وأن تركز على دراستك. فهذه الأفلام عن القتال والقتل لا تخلّف سوى أثر سيّئ في الدماغ. في الأيام الغابرة، كانت السينما جميلة جداً. قليل من الرقص والغناء، بعض الكوميديا، أو قصة غرامية. أما الآن فأسلحة وسكاكين ليس إلا".

في اليوم التالي، قام أوم بضمّ صِدار فستان بقياس سبعة إلى تنّورة بقياس أحد عشر، وحوّل الفائض إلى طيّات عند الخصر كما لو أنه يريد أن يُثبت نظرية دينا. وتكررت

الأخطاء في ثلاث قِطع ثياب، ولم يتم اكتشافها حتى فترة بعد الظهر.

قالت دينا: "دَع كل شيء آخر وأَصلح هذا الثوب أولاً". ولكنه تجاهلها.

قال إيشفار: "لا بأس يا سيدة دينا، سأفك الدَّرزات وأُعيد خياطتها من جديد".

"لا، هو الذي ارتكب الأخطاء ويُفترض به تصحيحها".

صاح أوم بوجه متجهّم، حاكّاً فروة رأسه: "أنتِ قومي بالأمر، أشعر بصداع. لقد أعطيتني قطعتَين غير متلائمتَين، لذلك فالخطأ هو خطأك".

"اسمع ما يقوله! إنّه يكذب بوقاحة! وارفع أصابعك عن شعرك كي لا تلوّث القماش بالمواد الدهنيّة! تحك... تحك... تحك طوال اليوم!".

كان الجدال لا يزال قائماً عندما عاد مانيك من الكلّية. ولم يأخذ الخياطان استراحة لتناول الشاي. فدخل غرفته وأقفل على نفسه، متمنّياً لو أنهم يكفّون عن الجدال. وطوال بعد الظهر، تواصلت المشاجرة بالتدفق من تحت بابه، مسبّبةً له فَيضاً من الكَرب.

وعند السادسة، قرعت دينا الباب، وطلبت منه الخروج قائلة: "لقد غادرا. أريد رفقة شخص صحيح العقل".

"لماذا كنتما تتشاجران، يا خالتي؟".

"كنت أتشاجر؟ كيف تجرؤ على قول ذلك! هل تعرف القصة قبل كل شيء؟".

"آسف، يا خالتي. عنيتُ، ما سبب الشجار؟".

"السبب نفسه كما هي الحال على الدوام. أخطاء وعمل رديء. ولكنني أشكر الله على إيشفار. لا أعلم ماذا كنت سأفعل من دونه. صالح وشرير. تكمن المشكلة في أنه عندما يرافق الصالح الشرير لا يعود بالإمكان الثقة بأيٍّ منهما".

"ربما يتصرف أوم بهذه الطريقة لأنه مستاء من أمر ما. ربما لأنك تقفلين عليهما عندما تخرجين".

" إذاً، لقد أطلعك على الأمر، أليس كذلك؟ وهل ذكر سبب قيامي بذلك؟".

"صاحب الملك. ولكنه يعتقد أنه مجرد عُذر. يقول إنك تشعرينهما بأنهما مجرمان".

"شعوره بالذَّنب هو ما يحمله على قول ذلك. التهديد الذي يشكله صاحب الملك حقيقي، وعليك أن تتذكر ذلك أيضاً. لا تدَع ابتسامة جابي الإيجار المعسولة تخدعك للقبول بأي شيء. تظاهر على الدوام بأنك ابن شقيقتي". وبدأت بترتيب الغرفة، ملتقطةً القُصاصات، ومكدّسةً القطع الصغيرة فوق الرف السفلي. "مُقلتا عينَي إبراهيم ذاك يمكنهما أن تريا كل الشقة من الباب الأمامي، من خلال تحرّكهما السريع في الاتجاهات كافة.

إنهما أسرع من مُقلتَي باستر كيتن. ولكنك أصغر من أن تعرف باستر كيتن".

"لقد سمعتُ والدتي تذكر الاسم. قالت إنه أكثر هَزلاً من لوريل وهاردي".

"هناك سبب ثانٍ. سيتسبب الخياطان بإيقاف عملي إذا لم أُقفل عليهما وهما في الداخل. هل تعرف أن أوم حاول اللحاق بي إلى شركة التصدير؟ هل أخبرك بذلك؟ لا، بالطبع لا. إن عمولتي بالغة الصِّغَر تكاد تخنقهما. أكاد لا أتمكن من تدبّر أموري بهذه العمولة".

"هل أطلب من والدتي إرسال مزيد من المال إليك؟ لأجل إيوائي وإطعامي؟".

"لا، مُطلَقاً! لقد حدّدتُ سعراً عادلاً وهي تقوم بتسديده. هل تظن أنني أقول لك ذلك لأنني أريد إحساناً؟".

"لا، لقد ظننتُ فحسب...".

"مشاكلي ليست جراح متسوّل! وحده المتسوّل يرفع رداءه ليصدمك بإعاقته. لا يا سيد كولاه، أُخبرك بكل ذلك كي تفهم أومبراكاش دارجي بطريقة أفضل".

* * *

عندما حان الوقت لتقصد أوروفوار إكسبورتس، قررت دينا الإفضاء إلى مانيك بأمر سرّي. "اسمع، لن أُقفل الباب اليوم. بما أنك في المنزل، سأعهد إليك بالمسؤولية". كانت على ثقة تامة بأنه سيتخذ جانبها وبأن أوم لن يحاول التسلل على الدراجة مجدداً.

بعد مغادرة دينا، استمر إيشفار في الخياطة، وهو غير مرتاح من تمضية فترة الراحة المعتادة على أريكتها بحضور مانيك. ولكن أوم توقف على الفور، وهرع إلى الباب الأمامي. "لدينا ساعتان من الحرية"، قال، ملقياً بنفسه على الأريكة بجانب مانيك.

خلال تدخين سيجارة، قلّبا صفحات كتب الحياكة القديمة الخاصة بدينا: عارضات يرتدينَ موديلات متنوّعة من الكنزات الصوفية يزيّنّ الصفحات الداخلية؛ شفاه حمراء جذّابة، بشرات قِشديّة، وتسريحات منمَّقة، أعشت بصيرتَيهما بسبب الورق المصقول. "انظر إلى هاتَين"، قال أوم، مشيراً إلى امرأة شقراء وأخرى حمراء الشعر.

وأعاد الفَتيان كتب الحياكة إلى زاويتها ودخلا غرفة مانيك. لقد تسلّيا للحظات بالمظلة، واستكشفا المطبخ بعد ذلك، مستدعيَين الهررة التي رفضت الاقتراب من النافذة لأن موعد العشاء لم يحِن بعد. فأراد أوم رمي الماء عليها وحملها على المواء، ولكن مانيك لم يسمح له بذلك.

فـي الغرفـة الخلفيـة، تفحّصا مجموعة قِطع القمـاش والأجزاء الأولى للّحاف. "أيها الفَتيان، لا تعبثا بأغراض السـيدة دينا"، قال إيشـفار محذِّراً، ومُلقياً نظرة من مكانه وراء آلة الخياطة.

قال أوم: "أَلقِ نظرة على كل هذه الأقمشة فحسب، هي تسرقنا وتسرق الشركة، ولا تدفع لنا أجراً ملائماً".

قال عمه: "أنت تقول كلاماً سخيفاً يا أومبراكاش، إنها فَضَلات صغيرة تستفيد منها. هيا، عُد إلى آلة الخياطة، وكُفّ عن تضييع الوقت".

فأعاد أوم المواد التي يُصنَع منها اللحاف إلى مكانها، وأشـار إلى الصندوق الكبير الموضوع على المِسـند في الزاوية. فرفع مانيك حاجبَيه معترضاً على الاقتراح الجريء. غير أنهما سرعان ما فتحاه، واكتشفا مخزونها من الفُوَط الصحية من صنع منزلي.

همس أوم: "هل تعرف لأي غرض تُستخدم هذه الأشياء؟".

قال مانيك: "إنّها وسادات صغيرة ربّما"، مُطلقاً ابتسامة عريضة، وملتقطاً زوجاً من فُوَط كثيرةِ الكُتَل. "وسادات صغيرة لأشخاص صغيري الحجم".

قال إيشفار: "كفّ عن العبَث بالصندوق هناك".

"حسـناً، حسـناً". وأخذا ملء يدٍ من الفُوَط الصحية إلى الغرفة الأمامية واسـتمرا في التهريج.

"ما هاتان؟"، سأل مانيك، واضعاً اثنتَين منها على رأسه.

"إنهما قرنان؟".

"كلا". وهزّهما قائلاً: "إنهما أُذُنا حمار".

ووضع أوم فوطة وراءه. "ذَنَب أرنب".

تنـاول مانيـك فوطـة صحّيـة جديـدة متينـة وضرب أوم بها. ونشـب صـراع بينهما، ولكن الأسلحة المستخدمة تعطلت بسرعة وتناثرت قُصاصات القماش في أنحاء الغرفة. والتقطا فوطتَين أُخريَين وبدأا بمهاجمة بعضهما على غرار فارسَين متقارعَين على صهوتَي جوادَيهما.

"تان... تانا تان... تانا تان... - تانا!". كانا يطلقان النفير ويهاجمان، في حين يشبّ أوم ويصهل كالحصان.

بينما كانا يستعدان للإغارة مجدداً، فتحت دينا الباب الأمامي ودخلت عبر الشرفة. فهمـد صُـداح الأبـواق. وعندمـا وصلـت إلـى الأريكة، تسـمّرت في مكانها. لقـد أفقدها المشهد القدرة على النُّطق: قُصاصات فُوَطها الصحية المعَدّة بعناية مبعثَرة على الأرض،

والفَتيان واقفان وهما يشعران بالذَّنب، ممسكَين بألعابهما المُحرِجة.

فأرخيا أيديهما وبدأا بإخفاء الفُوَط وراء ظهرَيهما، ومن ثم أدركا أن محاولتهما إخفاء ما قاما به بلا جدوى بقدر ما تنمّ عن غباء، فأحنيا رأسَيهما إلى الأمام.

قالت بعد جهد: "يا لكما من فَتيَين وقحَين! يا لكما من فتيَين وقحَين!".

ركضت إلى الغرفة الخلفية حيث كان إيشفار لا يزال يعمل على آلة الخياطة وهو غير مُدرك لما يجري في الغرفة الأمامية. قالت بصوت مرتجف: "توقف! تعال وانظر إلى ما فعله هذان الاثنان!".

فوضع أوم ومانيك الفُوَط الصحية جانباً، ولكن دينا دسّت فوطة بين يدَي كل منهما قائلة: "هيا! قوما بالأمر، دعاه يرى سلوككما الوقح!".

لم يكن إيشفار بحاجة إلى أن يرى. لقد استنتج أن أمراً قذراً يجري، ولا سيّما عندما رآها غاضبة. فتوجّه نحو أوم وصفعه على وجهه، وقال لمانيك: "لا يمكنني أن أصفعك أنت، ولكن يُفترض بأحدهم القيام بذلك لصالحك".

واصطحب أوم إلى الغرفة الداخلية، وطرحه على كرسيّه قائلاً له: "لا أريد أن أسمع كلمة أخرى منك إلى الأبد. أنجز عملك فحسب بهدوء حتى يحين موعد المغادرة".

تناولا العشاء بصمت؛ وحدها السكاكين والشوك تكلّمت. ونظّفت دينا الطاولة بسرعة، ودخلت بعد ذلك إلى غرفة الخياطة وثبّتت بابها بالرِّتاج.

كما لو أنني مهووس جنسي أو ما شابه، قال مانيك لنفسه، شاعراً بالبؤس. وانتظر قليلاً في الغرفة الأمامية، آملاً خروجها ومَنحه فرصة للاعتذار. والتقطت أُذُناه صوت فتح جارور وإغلاقه، وصرير سريرها، وطقطقة مماثلة لطقطقة فرشاة شعرها، وإزاحة كرسيَّي الخياطَين بقوة. وسمع صوت غطاء الصندوق الكبير، فاحمرّ وجهه خجَلاً. ومن ثم، أصبح الخط المُشعّ تحت بابها مُظلماً، وغمره البؤس.

هل ستكتب إلى والديه وتشتكي؟ هو يستحق ذلك بالتأكيد. لقد عاملته بشكل ممتاز طوال شهرَين، وكان سلوكه مثيراً للاشمئزاز. فللمرة الأولى منذ مغادرته المنزل، شعر بسلام داخلي، وبأنه غير مهدَّد، وذلك بفضل الخالة دينا. لقد أنقذته من النُّزُل الذي جعله مريضاً، ومن الضّيق المُطبَق على صَدره، ومن ذلك الشعور بالغثيان كل صباح.

ولكن كل هذه الأحاسيس عادت إليه بسبب ما قام به. أظلم المكان وجرّ نفسه إلى غرفته.

لم يستطع الصباح أن يخفف شعور مانيك بالعار منذ الليلة السابقة. وبهدف الإبقاء على اتّقاد هذا الشعور، وضعت دينا الطبق الذي يحتوي على بيضتين مقليّتين بقوة أمامه

عنـد الفطـور. وعندمـا حان وقت المغادرة إلـى الكلّية، ونادى: وداعاً، يا خالتي. لم تقف على الشرفة للتلويح له، بل أغلقت بابها.

لاحـت فـي الأُفُـق أولـى بوادر المسـامحة بعد العشـاء. فعلـى غرار الليلة السـابقة، انسـحبت إلـى الغرفـة الداخليـة بدلاً من حمل اللحـاف ووضعه على الأريكة. ومع ذلك، فقد أبقت بابها مفتوحاً جزئياً.

أمضـى الوقـت وهـو يُصغـي إلى الجيران وينتظر بأمل فـي الغرفة الأمامية. لقد وجّه أحدهم تحذيرات عِقابية بصوت عالٍ... على ابنة، كما افترض. قال رجل: "أيتها الساقطة! تتصرفيـن كامـرأة فاسـقة ببقائـك في الخارج حتـى وقت متأخر من الليل! هل تعتقدين أن بلوغك سـن الثامنة عشـرة يحول دون تعرّضك للضرب بالعصا؟ سـأُريك! عندما نطلب منك العودة عند العاشرة، فنحن نعني العاشرة!".

ألقى مانيك نظرة على سـاعته: العاشـرة وعشـرون دقيقة، ولم تخرج الخالة دينا بعد أو تُطفئ النور. وعندما حان موعد النوم المعتاد عند العاشرة والنصف، قرر استراق النظر وتمنّي ليلة هانئة لها.

كانت مرتدية قميص نومها، وظهرها إلى الباب. فبدّل رأيه وحاول التراجع، ولكنها رأته من فتحة الباب الضيّقة. آه، يا الله، قال لنفسه، مذعوراً، الآن ستفترض أنني أتجسّس عليها.

قالت بصرامة: "أجل؟".

"اعذريني، يا خالتي، كنت قادماً لأتمنى لك ليلة هانئة ليس إلا".

"أجل، تصبح على خير". ولم تبدّل نبرة صوتها.

فاسـتعاد صدى الكلمات في ذاكرته، وبدأ يبتعد تدريجياً. ومن ثم توقف، وتنحنح. "أريد أيضاً أن...".

"ماذا تريد أيضاً؟".

"أريد أيضاً أن أعتذر... عن يوم أمس...".

"لا تتمتم من خارج الغرفة. ادخل وقل ما لديك".

ودخل بخجل. لقد بدت ذراعاها داخل قميص النوم جميلتين جداً، ولكنه لم يجرؤ على تثبيت نظره. كان يخشى من مجرد التفكير في أنها صديقة والدته.

قالـت: "أريـد منـك أن تفهـم، لم أغضب من تصرفك المُخزي بسـبب الأذى الذي ألحقته بي. كنت أشعر بالخجل لأجلك لأنني كنت أراك تتصرف كمتسكّع. لم أتوقع من أومبـراكاش تصرفـاً أفضـل، ولكنني لم أتوقع ذلك منك، أنت المتحدر من عائلة صالحة.

كما أنني طلبت منك مراقبتهما. لقد وثقتُ بك".

"آسـف". وأحنى رأسـه. فرفعت يديها إلى شـعرها، معيدةً تثبيت مِشـبكها. لقد وجد المساحة تحت إِبطها مثيرة إلى حدٍّ كبير.

قالت: "اذهب إلى السرير الآن، في المرة القادمة، ليكن حكمك أفضل".

خـلال خلـوده إلـى النـوم مفكراً في الخالة دينا، بدأت صورتها تندمج بصورة المرأة في القطار في المِضجع العُلوي.

الفصل السابع

وتستمر لعبة الشطرنج

بعد حادثة الفُوَط الصحية، كانت دينا على ثقة تامة بأن إيشفار وأوم لن يجرؤا على دعوة مانيك مجدداً لتناول العشاء في منزلهما. حتى وإن قاما بذلك، فهو سيرفض الدعوة مخافة جرح مشاعرها.

ولكن الدعوة تجددت بعد أيام قليلة، وبدت موافقته وشيكة. "لا أصدّق ما يجري"، همست لمانيك بغضب، "ألا يكفي ما فعلتَه في ذلك اليوم؟ ألم تُغضبني بما يكفي؟".

"لكنني اعتذرت على ما حدث، يا خالتي. وكان أوم شـديد الأسـف. ما الرابط بين الأمرين؟".

"تظن أن الإعراب عن الأسف يجعل الأمور أفضل حالاً. أنت لا تفهم المشكلة. لا شيء لديّ ضدهما، ولكنهما خياطان... موظفاي. يجب أن تبقى على مسافة منهما. أنت ابن فاروخ وآبان كولاه. هناك فرق، ولا يمكنك ادعاء عدم وجوده؛ محيطهما، خلفيّتهما".

"ولكن والدتي ووالدي ما كانا ليمانعا"، قال محاولاً الشـرح أنهما لم يربّياه ليفكر بهذه الطريقة، وأنهما شجعاه للاختلاط مع الجميع.

"إذاً، أنت تقول إنني منطوية على نفسي، وإن والدَيك شخصان عصريان ومنفتحان؟".

لقد أنهكه الجدال. كانت تبدو بالنسـبة إليه أحياناً منطقية إلى حدٍّ ما، ولكنها تقول أمـراً مـا يحملـه علـى إعـادة النظر في موقفه: "إذا كنت مولَعـاً بهما إلى هذا الحدّ، فلماذا لا توضّب أمتعتك وتنتقل للعيش معهما؟ يمكنني بسـهولة الكتابة إلى والدتك وإطلاعها على المكان الذي يجب أن ترسل إليه إيجار الشهر القادم".

"أردت أن أزورهمـا مـرة واحـدة فقـط. مـن غير اللائق الاسـتمرار في الرفض. هما يعتبرانني كبيراً بما يكفي للذهاب إلى منزلهما".

"وهل فكرتَ في عواقب زيارة واحدة؟ السـلوك الحسـن أمر جيد، ولكن ماذا عن الصحة والعافية؟ كيف يُعدّان طعامهما؟ هل باستطاعتهما تحمّل تكلفة شراء زيت صحّي للطهو؟ أم أنهما يشتريان بضاعة فاسدة رخيصة على غرار معظم الناس الفقراء؟".

"لا أعرف. لم يمرضا ويموتا حتى الآن".

"لأن معدتَيهما معتادتان على الأمر، أيها الفتى الغبي، ومعدتك غير معتادة".

ففكر مانيك في مطعم الكلّية والطعام الشنيع الذي تحمّلته معدته، وفي الوجبات السريعة التي تناولها على قارعة الطريق طوال أسابيع من دون انقطاع. فتساءل عما إذا كان ذِكره لهذه الأمور سيحملها على تعديل نظرياتها المرتبطة بالطبخ.

أضافت: "وماذا عن الماء؟ هل هناك مياه نظيفة في حيّهم، أم أنها ملوَّثة؟".

"سألتزم الحذر، لن أشرب أي ماء". واتخذ قراره بالذهاب. لقد باتت متأمِّرة إلى حدٍّ كبير. حتى إن والدته لم تتحكم بحياته كما هي حال الخالة دينا.

"حسناً، قُم بما يحلو لك. ولكن، إذا التقطتَ عدوى أو فيروساً ما، لا تعلّل النفس بأنني سأكون ممرضتك ولا حتى للحظة واحدة. ستُرسَل على عجَل إلى والدَيك".

"موافق".

عندما دعاه إيشفار وأوم، وافق على تلبية الدعوة، فاحمرّ وجهها، وصرفت أسنانها. فابتسم مانيك ببراءة.

قال إيشفار بسرور: " إذاً، غداً، اتفقنا؟ سنغادر معاً عند السادسة". فاستفسر إيشفار عما يودّ أن يأكله. "أرزًّا أم تشوباتي؟ وما هي خضارك المفضَّلة؟".

"أي شيء"، أجاب مانيك عن كل الأسئلة. وأمضى الخياطان بقية فترة بعد الظهر في مناقشة لائحة الطعام، مخططَين لوليمتهما المتواضعة.

* * *

كان إيشفار أول من لاحظ عدم وجود دخان نيران الطهو فوق مستوطنة الأكواخ. وتعثّر على الرصيف المفتَّت، وعيناه تبحثان في الأُفق. في هذه الساعة، يُفترض بالضباب الرقيق أن يكون سميكاً. "هل الجميع صائمون أم ماذا؟".

"كُفّ عن القلق بشأن الجميع... أنا أتضوّر جوعاً".

"أنت تتضوّر جوعاً باستمرار. هل أنت مصاب بالديدان؟".

لم يضحك أوم؛ لقد أصبحت هذه الدُّعابة مُملّة. وانزعج أيشفار من غياب الدخان الذي حلّ مكانه هدير غير حاد كما لو أنّه صادر عن آلات ثقيلة وبعيدة. "هل يُصلحون الطرقات خلال الليل؟". كان يتساءل مع ارتفاع الضجيج كلما اقتربوا من المكان. وعندما فكر في عشاء مانيك، قال: "غداً صباحاً، سنتسوّق، أبقِ كل شيء على أهبة الاستعداد. لا يُفترض بنا هدر الوقت بعد العمل. لو كنتَ متزوجاً، لكان طعامك جاهزاً وينتظر ضيفنا".

"لماذا لا تتزوج أنت؟".

"أنـا كبيـر فـي السـنّ". ولكنـه اعتبـر أنـه آن الأوان لأوم ليتزوج... مـن غير الحكمة إرجاء هذه الأمور.

قال أوم: "ولكنني اخترت لك زوجة".

"من هي؟".

"السيدة دينـا. أعـرف أنهـا تُعجبـك، أنـت تتخـذ جانبها علـى الـدوام. يُفترض بك مفاتحتها بالأمر".

قـال إيشـفار موجّهـاً إليـه ضربـة خفيفة في أثنـاء انعطافهما عند الزاويـة المؤدّية إلى طريق الحيّ الفقير: "فتى وقح".

وغـدا الهديـر البطـيء المتجـه نحوهما عند الغسـق أقوى وأعلى صوتـاً. ودوّى بعد ذلك، وامتلأ الهواء فجأةً بأصوات الألم والذُّعر والغضب.

"ماذا يجري؟". وقطعا المسافة المتبقية رَكضاً، وشاهدا معركة دائرة.

كان سكان الأكواخ محتشدين على الطريق، وهم يقاتلون لأجل العودة إلى أكواخهم، وتختلـط صيحاتهـم بصفّارات سـيارات الإسـعاف التـي لم يكن باسـتطاعتها العبور. كان رجال الشـرطة قد فقدوا السـيطرة على الوضع، واندفع السـكان باتجاههم مسـتفيدين من الوضـع المؤاتـي لهـم. وتجمّعت الشـرطة بعد ذلـك وأعادتهم إلى الوراء. وسـقط الناس تحت الأقدام، وأضافت سيارات الإسعاف إلى زعيق صفّاراتها أبواقاً مدوّية اختلطت مع زعيق الأطفال المذعورين بسبب فصلهم عن أهاليهم.

تفرّق سكان الحيّ تحت وطأة الهجوم، مُنهَكي القوى، ومنفّسين عن كَربهم بغضب عاجز: "حيوانات عديمو الشفقة! لا عدل للفقراء البتة! لم نكن مُنصَفين تقريباً، وها نحن نُحرَم من كل إنصاف! ما هو جُرمنا؟ إلى أين سنذهب؟".

خـلال فتـرة الهـدوء، عثر إيشـفار وأوم علـى راجارام الذي قال لاهثـاً: "كنت هناك عندما بدأ كل شـيء، لقد دخلوا ودمّروا كل شـيء تماماً وسـحقوا كل شـيء. يا لهم من غشاشين ومنافقين...".

لقد حاولا حمله على التكلم ببطء: "من قام بذلك؟".

"الرجـال، أولئـك الذيـن قالـوا إنهم مراقبو السـلامة العامة. لقد خدعونا. أرسـلتهم الحكومـة، كمـا قالـوا، لتفحّـص المسـتوطنة. سُـرّ النـاس فـي بـادئ الأمر بسـبب اهتمام السـلطات بهم والقيام ببعض التحسـينات - ماء، مراحيض، أضواء - كما كانوا يُطلقون الوعـود فـي أثنـاء الحملات الانتخابية. فقمنا بما طلبوه منا، وخرجنا من أكواخنا. وعندما أصبحت المستوطنة فارغة، دخلت الآلات الكبيرة".

كانت معظم الجرافات سيارات جِيب وشاحنات قديمة مزوَّدة بصفائح فولاذية وعارضات خشبية قصيرة مُضافة إلى المِصدات الأمامية كمعدات للهدم. كانت قد بدأت بتهشيم الأكواخ المصنوعة من خشب رقائقي، ومعدن مضلَّع، وبلاستيك. "وعندما رأينا ذلك، هرعنا إلى الداخل لإيقافهم. ولكن السائقين استمروا في عملهم. لقد سُحق الناس، وكانت هناك دماء في كل مكان. وتقوم الشرطة بحماية هؤلاء القتلة، ولولا ذلك للَقِي الأوغاد حتفهم".

"ولكن، كيف يمكنهم تدمير منازلنا بهذه البساطة؟".

"قالوا إنه قانون الطوارئ الجديد. إذا كانت الأكواخ غير قانونية، يمكنهم إزالتها. وينصّ القانون الجديد على تجميل المدينة".

"ماذا عن نافالكار؟ ورئيسه توكراي؟ لقد جمعا إيجار هذا الشهر منذ يومين فقط".

"إنهما هنا".

"ولا يشتكيان للشرطة؟".

"يشتكيان؟ توكراي هو المسؤول عن ذلك. إنه يضع شارة مراقب الأحياء الفقيرة. ونافالكار هو المراقب المساعد. إنهما لا يتحدثان إلى أحد. وإذا حاولنا الاقتراب منهما، يهدّد أتباعهما بضربنا".

"وكل ممتلكاتنا في الأكواخ؟".

"ضاعت كما يبدو. لقد توسّلنا إليهم أن يسمحوا لنا بإخراجها، ولكنهم رفضوا".

شعر إيشفار فجأةً بإرهاق شديد. فابتعد عن الحشد وعبر الطريق، ثم سقط على الأرض. ورفع راجارام سرواله وجلس بجانبه. "لا فائدة من الصياح في وجه أولئك الأوغاد الفاسدين. سنجد مكاناً آخر، ليست سوى عقبة صغيرة. صحيح، يا أوم؟ سنبحث معاً عن منزل جديد".

فأومأ أوم برأسه: "سألقي نظرة عن قُرب إلى الداخل".

قال إيشفار: "لا تفعل، الأمر خطر، ابقَ هنا معي".

قال أوم: "سأبقى هنا". وجال في الأرجاء لتفحّص الدمار.

كان المساء قد أوشك على الغرق في الظلمة. وتم إبعاد الناس عن الناحية الأمامية للمستوطنة، وصنادل الحشود الفارة مبعثَرة على الأرض كحطام تيّار بشري عائم مقطَّع الأوصال. وأبقى الطَّوقُ الذي فرضته الشرطة على المكان السكانَ الغاضبين على مسافة آمنة.

أنهت الجرّافات عملية تسوية صفوف الأكواخ الهشة بالأرض، وشرعت بسحق

جدران الأكواخ ذات الإيجارات المرتفعة المبنيّة بالآجرّ. لم يشعر أوم بأي شيء؛ لم يكن الكوخ يعني له شيئاً. ربما سيوافق عمه الآن على العودة إلى العم أشرف. وتذكّر قدوم مانيك لزيارتهما في اليوم التالي. فضحك شاعراً بالانقباض بسبب اضطراره إلى إعلام مانيك بإلغاء العشاء؛ بسبب الاختفاء غير المتوقّع لمنزلهما.

ودوّى مِجهار كيسار في الغسق: "سيتوقف العمل لمدة ثلاثين دقيقة. في الواقع، نريد أن نمنحكم فرصة لجمع مقتنياتكم الشخصية، وستعاود الآلات عملها مجدداً".

تلقّى الحشد الإعلان بشيء من الاحتقار؛ إنها نيّة حسنة من قِبَل الشرطة لتجنّب مزيد من المتاعب. ولكن معظم السكان كانوا ممتنّين للفرصة المتاحة لهم لإخراج مقتنياتهم. وبدأ تدافع يائس بين الحُطام. لقد ذكّر هذا الأمر أوم بالأطفال بين أكوام القمامة؛ كان يراهم كل صباح من القطار. فانضمّ إلى عمه ليصبح جزءاً من الحركة الناشطة وسط الأنقاض.

لقد حوّلت الآلات الحقل المألوف إلى مكان غريب، وشعر الناس بارتباك كبير خلال البحث عن مقتنياتهم. أين كان ملجأ كل منهم؟ وأي كومة من الأخشاب والحديد يتعيّن تفتيشها؟ واستفاد آخرون من حالة الفوضى، وصاروا يلتقطون كل ما يقع تحت أيديهم، فنشبت الخلافات فوق أجزاء من الخشب الرقائقي والبلاستيك المحطَّم. وحاول أحدهم الاستيلاء على آلة عازف القدميّة المتضررة خلال التنقيب عن ملابسه، فقاوم هذا الأخير اللصَّ بقضيب حديدي وطرده، مما أدى إلى تمزيق مِنفاخ القدميّة.

قال دامعاً: "أصبح جيراني لصوصاً، لقد غنّيت لهم ذات مرة وصفّقوا لي".

فحاول إيشفار مواساته قدر الإمكان بسبب قلقه على مقتنياته الخاصة، ثمّ قال لأوم: "من حسن حظنا أن آلتَي الخياطة في منزل آمن على الأقل لدى السيدة دينا".

سحبا اللوح المضلّع الذي كان سقفاً، ووضعاه جانباً، وحاولا رفع غطاء الصندوق الكبير فأصدر صوتاً معترِضاً. لقد تعرّض الغطاء لعدد كبير من الانبعاجات العميقة. فسدّد له أوم ركلة قوية بقدر اغتمامه، فتحرّك الغطاء بعناد أقل. فرفعا مزيداً من الحطام ووصلا إلى المرآة الصغيرة التي كانا يستعينان بها للحلاقة. كانت سليمة: لقد سقطت المِقلاة المصنوعة من الألومنيوم فوقها وحمتها كما لو أنها خوذة.

قال أوم، واضعاً الغرضَين داخل الصندوق: "لا نواجه أي حظ سيّئ". كان جهاز الطبخ برايموس قد سُحق من دون أن يكون بالإمكان تصليحه، فرماه وراءه. وعثر إيشفار على قلم، وشمعة، وطبقَين مصقولَين، وكوب من البوليتين. وعثر أوم على آلة الحلاقة الخاصة بهما من دون علبة الشفرات. وبإزاحة عدد إضافي من أجزاء الخشب الرقائقي،

وجدا إناء الماء المصنوع من النحاس الأحمر. ولكن شخصاً ما رآه في الوقت نفسه، فالتقطه وركض.

"لص!"، صاح أوم. ولكن أحداً لم يُعره أي اهتمام. وأمسك به عمه طالباً منه عدم مطاردة الرجل.

سحبا بساطهما المصنوع من القصَب، وملاءتَيهما، وغطاءيهما، والمنشفتَين اللتين يستخدمانهما كوسادتين. نفض إيشفار الغبار عنها، ثم قام بلفّها كلها على صورة حزمة مرتّبة، رابطاً إيّاها بكيس خَيش.

كان اهتمام راجارام محصوراً بمخزون الشعر لديه الذي أُتلف بعد تمزّق الأكياس البلاستيكية وتبعثر محتوياتها. قال بحزن: "غلّة شهر كامل، لقد تبعثرت كلها في الوحل". كانت الدقائق الثلاثون تنقضي، فساعده إيشفار وأوم على جمع ما استطاعا جمعه، مركّزين على انتشال العيّنات الأكثر طولاً.

قال راجارام بمرارة: "الأمر ميؤوس منه، لقد دمّرني الأوغاد. من المستحيل إعادة جمع الخُصَل والضفائر؛ كمن يحاول إخراج حبوب السكّر من كوب شاي".

شقّ الثلاثة طريقهم عبر حاجز الشرطة حيث يُعطي المشرف على الأحياء الفقيرة التوجيهات لعمّاله. "ممهَّداً... هكذا أريد الحقل. أريده فارغاً ونظيفاً كما كان قبل إنشاء كل تلك الأبنية غير القانونية". على أن يتم رمي الأنقاض في الخندق المحاذي لسكك الحديد.

وقف المحرومون من مُلكيّاتهم في الخارج، مراقبين ما يجري وهم يشعرون بالخدر. وسوّى العمال الجدران والزوايا التي نجت من الاعتداء الأول بالأرض، وتوقفوا عن العمل بعد ذلك، متذرّعين بعدم تمكن الآليات من نقل الحطام تحت جُنح الظلام من دون أن تسقط في الخندق. لم يكن باستطاعة المشرف على الأحياء الفقيرة المجازفة، ووافق على إرجاء المرحلة النهائية حتى الصباح، وغادر العمال.

قال راجارام: "سأمضي الليلة هنا، قد أعثر على شيء قيّم في الحقل. ماذا عنكما؟".

قال إيشفار: "يُفترض بنا الذهاب إلى منزل نوّاز، ربما سمح لنا بالنوم تحت ظُلّته الخلفية مرة أخرى".

"ولكنه شديد البخل".

"بالرغم من ذلك، قد يساعدنا على العثور على منزل كالمرّة السابقة".

قال راجارام: "أجل، الأمر جدير بالمحاولة، وسأتحقق مما حدث هنا. من يعلم، ربما يخطط رئيس عصابة آخر لبناء أكواخ جديدة".

اتفقوا على الالتقاء في مساء اليوم التالي لتبادل المعلومات. "هل يمكنكما أن تُسديا لـي صنيعـاً في هذه الأثناء؟"، سـأل راجـارام. "هلاّ أبقيتما هذه الضفائر معكما وحافظتما عليها؟ إنها خفيفة جداً. لا مكان أضعه فيها".

فوافق إيشفار ووضعها في الصندوق.

* * *

كان هناك غرباء يقيمون في منزل نوّاز. فادّعى الرجل الذي فتح الباب عدم معرفته أي شيء عن نوّاز وزوجته.

قال إيشفار: "إن عثورنا على السيد نوّاز أمر مُلحّ، ربما يملك صاحب الملك بعض المعلومات. هل يمكنك إعطائي اسمه وعنوانه؟".

صـاح أحدهـم مـن الداخل: "ليسـت هذه الأمور من شـأنك. كفّ عـن إزعاجنا في وقت متأخر من الليل!".

قـال إيشـفار: "آسـف لإزعاجكـم". وأعـاد رفـع الرُّزمـة علـى ظهـره، ونـزل الدرَج للمغادرة.

"ماذا الآن؟"، سأل أوم لاهثاً، وارتسمت على وجهه أمارات تشير إلى ثِقل الصندوق.

"هل فرغ صدرك من الأنفاس؟".

فأومأ برأسه. "كبالون مثقوب".

"حسـناً، لنتناول الشـاي". وقصدا الكشـك عند الزاوية، ذاك الذي كانا يترددان إليه كثيراً في الأشهر التي أمضياها في الرُّواق الخلفي. وتذكّر المالك أنهما صديقا نوّاز.

قال: "لم أرَكما منذ مدة. هل لديكما أخبار عن نوّاز منذ قيام الشرطة باعتقاله؟".

"الشرطة؟ لماذا؟".

"تهريب الذهب من الخليج".

"حقاً؟ وهل كان يهرّب؟".

"بالطبع لا. كان خياطاً فحسب مثلكما. ولكن نوّاز تشاجر مع شخص كان قد أوكل إليه مهمة خياطة قدر كبير من الملابس - ملابس خاصة بزفاف ابنته - لأفراد العائلة كافّة. وبعد الزفاف، رفض الرجل الدفع مدّعياً أن الملابس لم تكن مناسبة لمقاسات الأشخاص. فواصل نوّاز عبَثاً المطالبة بماله، ومن ثم عرف مكان مكتب الرجل. فقصده وأحرجه أمام زملائه. وكان خطأً فادحاً، فأخذ الوغد بثأره. وفي الليلة نفسها، اعتقلت الشرطة نوّاز".

"بهذه البساطة؟ كيف يضعون رجلاً بريئاً في السجن؟ فالشخص الآخر هو الغشاش".

"مع إعلان حالة الطوارئ، انقلب كل شيء رأساً على عقِب، وبات بالإمكان جعل الأسود أبيض، والنهار ليلاً. فبوجود النفوذ المناسب والقليل من المال، يسهل إرسال الناس إلى السجن. حتى إنه يوجد قانون جديد يدعى ميزا ويسهّل العملية برمّتها".

"ما هو ميزا؟".

"صيانة... أمر ما، والمحافظة على أمن... أمر ما، لست واثقاً من ذلك".

أنهى الخياطان احتساء الشاي وغادرا مع أحمالهما. قال إيشفار: "يا لنوّاز المسكين! أتساءل عما إذا كان قادراً على القيام بأمر ملتوٍ".

قال أوم: "لا بد من أنه قام بذلك، لا يضعون الناس في السجن بلا سبب. لم أحبّه يوماً. ولكن، ماذا الآن؟".

"ربما يمكننا النوم في محطة سكة الحديد".

كان رصيف الركاب مكتظاً بالمتسوّلين والجوّالين. فاختار الخياطان زاوية ونظّفاها، كانسَين الغبار بواسطة صحيفة.

صاح أحدهم: "حذار! إنه يرتدّ على وجهي!".

قال إيشفار: "آسف". وكفّ عن كَنس المكان. كانت الحاجة ملحّة إلى التحدث عن اليوم التالي وتشرّدهما، عن خطوتهما التالية، ولكن كلاً منهما أراد من الآخر أن يبادر إلى التطرق إلى المسألة. سأل: "هل أنت جائع؟".

"لا".

ذهب إيشفار إلى متجر الوجبات السريعة التابع لسكة الحديد، واشترى فطيرتَين تحتويان على مزيج مقليّ مزوَّد بالتوابل ومكوَّن من البصل، والبطاطا، والبازيلاء، والفلفل الأحمر، والكزبرة. وفي أثناء عودته إلى أوم، شعر بالذَّنب بسبب نظرات الجياع المصطفّين على امتداد رصيف الركاب. "واحدة لك وواحدة لي".

لقد بدت ورقة المجلات المصقولة التي قُدِّمت عليها الفطيرة مبلَّلة، وكانت دوائر صغيرة من الدهن قد بدأت تظهر عليها. فتناول أوم فطيرته منهياً إيّاها أولاً من شدة جوعه، في حين أن إيشفار أبطأ في تناولها لادّخار قطعة لأوم، ثم قال له: "لقد شبعتُ، إنها لك".

تناوبا على شرب الماء من الينبوع لأن الصندوق وعدة النوم بحاجة إلى حراسة. بعد ذلك، لم يعُد هناك ما يشغلهما عن الموضوع الأساسي. بدأ أوم الحديث بتردد: "ربما أطلعَنا راجارام على أخبار جيدة مساء غد".

"أجل، من يعلم. ربما تمكنّا من بناء شيء ما بأنفسنا عندما تنتهي حالة الاضطراب هذه. خشب رقائقي، وقوائم، وألواح بلاستيكية. راجارام رجل ذكيّ. وهو يعرف ما الذي

يجب القيام به. نستطيع نحن الثلاثة أن نعيش في كوخ واحد كبير".

قصدا الأرض الخاوية وراء المحطة للتبوّل، وتناولا جرعة ماء أخرى قبل فكّ عدة النوم. لقد تراجع عدد القطارات التي كانت تمرّ بالمكان مع تقدّم الوقت ليلاً. فاستلقيا حاميَين أقدامهما بالصندوق.

بعد منتصف الليل، أيقظهما شرطي سكة الحديد وهو يركل الصندوق، وقال إن النوم على رصيف الركاب ممنوع.

قال إيشفار: "نحن ننتظر القطار".

"لا يمكنكما الانتظار في هذه المحطة. عودا في الصباح".

"ولكن هؤلاء الأشخاص الآخرين نائمون".

"لديهم إذن خاص". وصلصل الشرطي بقِطع النقود المعدنية في جَيبه.

"حسناً، لن ننام على رصيف الركاب، سنجلس فحسب".

وغادر الشرطي، هازّاً كتفَيه. فجلسا ولفّا عدة النوم.

"عليكما أن تدفعا له"، قالت امرأة مستلقية بجانبهما. كانت الملاءة المصنوعة من النايلون التي تستلقي عليها تُصدر حفيفاً لدى قيامها بأقل حركة، وقدماها ملفوفتَين بضِمادات ملطَّخة بسائل أصفر قاتم.

"لماذا ندفع له؟ ليس رصيف والده".

فابتسمت وطقطق السُّخام على وجهها، ثم قالت: "سينما، سينما!". وأشارت بحماسة إلى المُلصقات الدعائية للفيلم السينمائي الموضوعة على امتداد جدار الرصيف. "روبيّة واحدة للمتسوّل، وخمسون بايزا للطفل. سينما كل مساء".

رفع إيشفار يده إلى مستوى جبينه، وحركها بما معناه أن المرأة مجنونة، ولكن أوم أصر على الشرح: "لسنا متسوّلَين، نحن خياطان. وماذا سيفعل إذا لم ندفع؟ لا يمكنه إرسالنا إلى السجن لأجل ذلك".

استلقت المرأة على جانبها، مراقبةً إيّاهما عن كثب، وملتزمةً الصمت، باستثناء بعض الضحك السخيف العشوائي. لقد مرت نصف ساعة، ولم يكن هناك أي أثر للشرطي.

"أظن أن الوضع بات آمناً الآن"، قال أوم. وفرش عدة النوم واستلقيا مجدداً. كانت لا تزال تراقبهما على نحو مُسَلٍّ، وفاحت رائحة تعفّن خفيفة من قدميها المضمَّدتين.

"هل ستنظرين إلينا طوال الليل؟". فهزّت رأسها مواصلةً التحديق إليهما. فهدّأ إيشفار ابن شقيقه وأغمضا أعينهما.

بعد دقائق من النوم الخفيف، عاد الشرطي مع دلو ماء بارد وأفرغه فوق الخياطَين

النائمَيـن. فولـولا، ونهضـا بسـرعة، وابتعد الشـرطي مـن دون التفوّه بـأي كلمة، مؤرجحاً دلوه الفارغ بطريقة مبتهجة وواثقة. واهتزت المرأة المستلقية على الملاءة المصنوعة من النايلون من شدّة الضحك.

قال أوم وهو يشعر بالغضب: "حيوان!". وأسكته إيشفار كي لا يثير حُنق الشرطي؛ لقد أخفت ضحكة المرأة الهستيرية كلمات أوم. وخبطت يداها على الملاءة ببهجة عارمة.

"سينما! سينما! مسرحية جوني واكر الهزلية!"، كانت تقول بين ضحكة وأخرى.

"إنها تعلم! المجنونة تعلم ولم تُخبرنا!".

قاما بالتقاط كل شيء، وهما مبلَّلان كلّياً، وانتقلا إلى المكان الوحيد الفارغ عند نهاية الرصيف حيث تفوح رائحة البول القوية. كانت الملابس الجافة في الصندوق بمثابة كنز ثمين. فبدّلا ملابسـهما بالتتابع، ونشـرا حاجياتهما المبلَّلة على غطاء الصندوق المفتوح. وعلّقا ملاءتيهما وغطاءيهما على لافتة محطَّمة مثبَّتة على جدار قرب الرصيف.

جفّ البسـاط القصبيّ بسـرعة، ولكنهما خشـيا من الاسـتلقاء عليه. وجلسا يحرسان مقتنياتهمـا، مرتجفَيـن، ومتمايلَيـن من شـدة النعاس، وهما يُحنيان رأسَـيهما من حين إلى آخر. وبسـبب التبلّل، كانا يقصدان الأرض الخاوية مرات عدة. وبعد أن نام الجميع، لم يعودا بحاجة إلى الابتعاد، بل كانا يُفرغان مثانتَيهما قرب الرصيف.

فتـح متجـر الوجبات السـريعة التابع لسـكة الحديد مصراعَيـه الفولاذيَّين عند الرابعة مـن بعـد منتصـف الليل. وبدأت الأكواب والصحون تُحـدث رنيناً، فيما أصدرت الأواني والطناجر ضجيجاً. وقام إيشـفار وأوم بالغرغرة عند ينبوع الماء، واشـتريا بعد ذلك كوبَي شـاي ورغيـف خبز خشـناً. لقد أشـعرهما السـائل السـاخن بصفاء الذّهن، وبدأ المخطط لذلك اليوم يتضح لهما: سيستقلان القطار إلى العمل في الوقت الملائم، ويخيطان حتى السادسة كالعادة، ومن ثمّ يعودان للقاء راجارام.

قال إيشـفار: "سـنترك الصندوق عند السـيدة دينا هذا المسـاء فقط، ولكننا لن نقول إن منزلنا دُمِّر. فالناس يخشون المتشردين".

"سأعطيك كل ما تريده إذا سَمَحَت لنا بتركه عندها".

أمضيا سـاعتَين أُخريَين على الرصيف، وهما يدخّنان ويراقبان قاطني الضواحي في الصباح الباكر - وهم من الباعة بصفة رئيسة - وهم ينتظرون مع سلالهم الموضوعة على رؤوسهم بشكل متوازن والمليئة بالقَرع، والبصل، والملح، والبيض، والأزهار. كان هناك مصلّح مظلات يستعد للعمل، مشرِّحاً المظلات المحطَّمة، ومستخرجاً الأضلع والمقابض السـليمة. ومـرّ بجانبهمـا مقـاول مـع فريق من الدهّانيـن والبنّائين، مزوَّدين بسـلالم ودِلاء

وفُرَشٍ ومناشف، وتفوح منهم رائحة منزل طُلي حديثاً.

صعد الخياطان إلى متن القطار عند السادسة والنصف، وبلغا منزل دينا عند السابعة. ارتدت دينا معطفاً فوق قميص نومها، وفتحت الباب.

"في هذا الوقت المبكّر؟"، لا ينبغي لي الإفراط في الثقة بهما، قالت لنفسها. لم تشرق الشمس تماماً، وعليها الاغتسال، وإعداد الفطور لمانيك، وها هما يتوقعان بعض الاهتمام من قِبَلها.

قال أوم بتذاكٍ: "أخيراً، سارت القطارات في الوقت المحدد بسبب حالة الطوارئ".

فاستنتجت أن العُذر الوقح مُعَدّ لإغضابها. وأضاف إيشفار مطيِّباً خاطرها: "يوم أطول يعني مزيداً من الملابس يا سيدة دينا، أليس كذلك؟".

"صحيح. ولكن، ما هذا الصندوق الكبير؟".

"علينا أن ننقله إلى منزل صديق في المساء. مانيك، قبل أن أنسى. عليك أن تعذِرنا، العشاء مستحيل اليوم. لقد طرأ أمر مُلحّ".

"لا بأس"، قال مانيك، "مرة أخرى".

طلبت منهما وضع الصندوق الكبير وعدة النوم بجانب الباب، لأنّ الأغراض ربما تكون مليئة بالبَقّ. وكان سلوكهما مريباً جداً. لو كان الأمر مُلِحاً لَقصدا صديقهما على الفور، لا سيّما وأنهما قدِما في وقت مبكّر جداً. ولكن دعوتهما مانيك على العشاء أُلغيت على الأقل، وهذا أمر مريح بحدّ ذاته.

طوال ذلك اليوم، لم يكن إيشفار على طبيعته المعتادة الهادئة، وكان على وشك ضمّ تنورة إلى صِدار بطريقة غير صحيحة. "توقف!"، صاحت بينما كانت الإبرة تدرز أول خط. "أنت يا إيشفار؟! لو قام أومبراكاش بذلك لما كان الأمر مفاجئاً. ولكن، أنت؟". فابتسم بخجل، ونزع الدَّرزات غير الصحيحة بشفرة آلة حلاقة آمنة.

عند الرابعة من بعد الظهر، أرادا المغادرة قبل ساعتَين من الوقت المعتاد. لديهما الكثير من العمل بعد لإنجاز الملابس الإضافية، قالت لنفسها، ولكنها كانت سعيدة باصطحابهما ذلك الجوّ المتوتر معهما.

أغلقا الباب، وأسرعا باتجاه محطة القطار قبل أن تدرك أنهما نسيا الصندوق الكبير.

كان المطر قد تساقط بكميات كبيرة في أثناء النهار، غامراً الكثير من حُطام الليلة السابقة في برَك صغيرة موحِلة. وانبثقت قِطع الخشب الرقائقي أو قطع المعدن من الماء كما لو أنها أشرعة وحُطام سفينة. وكانت طيور النَّورس تزعق فوق الحيّ الفقير الذي تبدّلت معالمه، فيما يجوب بعض السكان السابقين المكان، محدّقين إلى الأرض، ولكن

راجارام لم يكن موجوداً.

قال إيشفار: "ربما اكتشف أن لا مجال لبناء كوخ آخر هنا مجدداً".

لم يكن الرقيب كيسار ظاهراً في تلك اللحظة، ولكن ستة من أفراد الشرطة التابعين لفرقة تنفيذ الأوامر كانوا يحرسون الحقل، فاقتربوا من الخياطَين والسكان الآخرين، وحذّروهم: "إذا حاولتم تشييد أي أكواخ أخرى، فسيتوجّب علينا اصطحابكم إلى السجن مباشَرةً".

"لماذا؟".

"هذه مهمتنا؛ إزالة الأحياء الفقيرة وتجميل المدينة". عاد أفراد الشرطة إلى مركزهم عند الزاوية.

قال إيشفار: "أظن أنه يُفترض بنا العودة وإخبار السيدة دينا بالحقيقة".

"لماذا؟".

"قد تساعدنا".

قال أوم: "أنت تحلم".

كان هناك فريق من العمّال ينصبون لوحتَي إعلانات خشبيّتَين جديدتَين على جانبَي الطريق، ثمّ ألصق العمّال صورة لوجه رئيسة الوزراء على اللوحَين، ومن ثم دار نقاش بينهم حول الرسالة التي توجهها. كان يتعيّن عليهم الاختيار بين مجموعة متنوّعة. ففضّوا اللافتات ونشروها على الرصيف، ووضعوا حجارة على زواياها.

لقد أبدى العمال بالإجماع اهتمامهم بالشعار الأول: **المدينة مدينتكم. حافظوا على جمالها!** وطرح الشعار الثاني بعض المصاعب. فقد أراد المشرف استخدام شعار **طعام للجياع، منازل للمشرّدين!** ولكن مرؤوسيه نصحوه بأن شيئاً آخر قد يكون أكثر ملاءمة، وأوصوا بشعار **الأمة في تقدّم!**

انتظر الخياطان في الجوار الانتهاء من عرض الشعارات. وصفّق حشد المتفرّجين بعد رفع الأطر الضخمة، وتثبيت الأعمدة في ثقوب، ودعمها بسِنادات قِطرية. فطلب أحدهم من أوم أن يقرأ له ما عُلِّق على اللوحتَين. وحين فعل أوم ذلك، تأمّل الرجل في المعنى للحظات، وابتعد بعد ذلك هازّاً رأسه، ومتمتماً بأن الحكومة قد جُنّت تماماً هذه المرة.

قالت دينا: "كنت أعرف أنكما ستعودان، لقد نسيتما صندوقكما". فهزا رأسَيهما، ورأت مدى خوفهما وإرهاقهما فسألتهما: "ماذا هناك؟".

قال إيشفار: "حلّ بنا سوء طالع رهيب".

"تعاليا إلى الداخل. هل تريدان بعض الماء؟".

"أجل، رجاءً". وبحث مانيك عن كوبَيهما المفصولَين عن الأكواب الأخرى. فشربا ومسحا شفاههما.

"يا سيدة دينا، لقد واجهنا حظًّا سيّئاً جداً. نحن بحاجة إلى مساعدتك".

"في هذه الأحوال، لا أعرف مدى المساعدة التي يمكنني تقديمها. ولكن، أخبراني على أيّ حال".

قال إيشفار بخجل: "منزلنا... لقد فقدناه".

سألت بتعاطف: "تعني أن صاحب الملك طردكما؟ يا لأصحاب الملك الأوغاد!".

فهز رأسه. "أعني... فقدناه بالكامل". ومرّر راحة يده على الهواء. "لقد دمّرته آلات ضخمة. كل المنازل في الحقل".

أضاف أوم: "قالوا إن الإقامة هناك أمر غير قانوني".

سأل مانيك: "هل أنتما جدّيّان؟ كيف يستطيعون القيام بذلك؟".

قال إيشفار: "إنهم يمثّلون الحكومة، باستطاعتهم القيام بكل ما يريدون القيام به. قالت الشرطة إنه قانون جديد".

فأومأت دينا برأسها، وتذكّرت الإطراء الذي حصلت عليه السيدة غوبتا في الأسبوع السابق على برنامجها المقترَح بإزالة الحيّ الفقير. يا لسوء حظ الخياطَين! إنهما شخصان مسكينان. لقد كانت مُحِقة بشأن أمر واحد؛ هما يقيمان بالفعل في مكان غير صحي. وبفضل العناية الإلهية، لم يتناول مانيك الطعام معهما. قالت: "إنه أمر رهيب. الحكومة تضع القوانين من دون تفكير".

قال أوم لمانيك: "الآن، بُتَّ تعرف لماذا ألغينا العشاء. لقد شعرنا بالسوء في الصباح عندما أطلعناك على الأمر".

قال مانيك: "لم يكن يُفترض بكما ذلك، كان ذلك سيمنحنا مزيداً من الوقت للتفكير في طريقة ما للمساعدة و..."، وسكت فجأةً عندما أومأت إليه دينا بحاجبها بحدّة.

قال إيشفار: "لقد دُفع الإيجار عن هذا الشهر. الآن، لا منزل لدينا ولا مال. هل يمكننا النوم على شرفتك... لليالٍ قليلة؟".

استدار مانيك إلى دينا التي كانت تفكر مليّاً في إجابتها، ثمّ قالت: "شخصياً، لا اعتراض لديّ. ولكن، إذا رآكما جامع الإيجارات فسنواجه مشكلة. سيستخدم ذلك ذريعة للقول إنني آوِي ضيوفاً في المنزل بشكل غير قانوني. بعد ذلك، ستصبحان أنتما ومانيك وأنا، وآلتا الخياطة، وكل شيء في الشارع من دون سقف يحمينا".

قال إيشفار الذي لم يسمح له اعتداده بنفسه بالإلحاح في الطلب: "لقد فهمت. سنبحث عن مكان آخر نأوي إليه".

قالت دينا: "لا تنسيا أخذ صندوقكما".

"هل يمكننا تركه هنا هذه الليلة؟".

"تتركانه أين؟ ليس هناك متّسع في هذه الشقة حتى للتّنقُّل في أرجائها".

مشمئزاً من جوابها، مرّر أوم عدة النوم إلى عمّه وحمل الصندوق. فأومأا برأسَيهما وغادرا.

تبعتهما دينا إلى الباب، وأقفلته، وعادت لتواجه نظرات مانيك المؤنِّبة والغاضبة. قالت: "لا تنظر إليّ بهذه الطريقة،لم يكن هناك خيار آخر".

"كان باستطاعتك السماح لهما بالبقاء هنا الليلة فقط على الأقل، والنوم في غرفتي".

"في تلك الحالة كنا سنواجه مشكلة كبيرة. ليلة واحدة تكفي صاحب الملك لرفع دعوى قضائية ضدي".

"وماذا عن الصندوق؟ لماذا لا تستطعين إبقاءه هنا؟".

"ما هذا، استجواب شرطة؟ لقد عشتَ حياة آمنة ولا تملك أي فكرة عن الانحراف الخُلقي الموجود في مدينة كهذه. إن صندوقاً، أو كيساً، أو حتى حقيبة تحتوي على بيجامتَين وقميص، هي الخطوة الأولى لدخول شقة. أغراض شخصية مودَعة في الشقة؛ إنها الطريقة المألوفة للمطالبة بحق المكوث فيها. وتدوم مدة نظر النظام القضائي في القضية سنوات، يُسمح خلالها للمحتالَين بالبقاء في الشقة. لا أقول إن إيشفار وأوم قدما الليلة عاقدَين العزم على تنفيذ هذه الخطة. ولكن، هل يمكنني المجازفة؟ ماذا لو أطلعهما أحد المحتالين على الفكرة في وقت لاحق؟ أي مشكلة مع صاحب الملك تعني أنه يتعيّن عليّ طلب مساعدة نوسوان. وشقيقي لا يُطاق إطلاقاً. فهو سيلجأ إلى تأنيبي من دون توقف".

نظر مانيك إلى خارج النافذة، محاولاً استيعاب درجة ارتياب الخالة دينا. وتخيّل اجتياح الملابس القذرة التي تخشاها منزلها، وقوة الاحتلال الملفَّقة.

قالت: "لا تقلق إلى هذا الحد على الخياطَين، سيجدان مكاناً يقيمان فيه. لدى الأشخاص مثلهما أنسباء في كل مكان".

"لا أنسباء لهما. لقد قدِما منذ أشهر قليلة من قرية نائية". وكان مسروراً لدى رؤيته ارتسام بعض القلق على وجهها.

شعرت بالغضب بعد ذلك، وقالت: "أمر مُذهل. يُذهلني مدى معرفتك بهما!".

تجاهلا بعضهما معظم فترة المساء، ولكنها نشرت المربعات في أثناء العمل على اللحاف بعد العشاء، وحاولت التحدث إليه: "حسناً، يا مانيك؟ كيف يبدو الآن؟".

"يبدو رهيباً". لم يكن مستعداً لمسامحتها، لا سيّما وأنه لا يعرف ما إن كان الخياطان قد تمكّنا من العثور على مأوى أم لا.

* * *

كُتب على اللافتة **ساغار دارشان؛ فندق مُطلّ على المحيط**. وكان البحر الوحيد المرئي صورةً مستطيلة الشكل أُلصقت على اللوحة التي أنهكتها عوامل الطبيعة، ويجثم فيها مركب شراعي صغير على إحدى الموجات.

في الداخل، كان شابّ يرتدي ملابس رسميّة بيضاء بالية يجلس على الأرض بجانب منصةٍ مِظلة، ويحدّق إلى صور لمعرض الأفلام فيلمفير. لم ينظر إلى الخياطين عندما دخلا. وكان هناك رجل رمادي الشعر منهمكاً بتناول الطعام وراء المنضدة. كان يقطّع رغيف خبز، ثم يُسقط القِطع بسرعة في مجموعة من أربعة صحون مصنوعة من فولاذ لا يصدأ. "ثلاثون روبيّة للّيلة الواحدة". تمتم بفم محشوّ بالطعام، كاشفاً عن سنّ ذهبيّة. وقُذفت أجزاء ممضوغة من عشائه عبر شفتَيه المبلّلتَين فوق المنضدة. فأزاحها، ورماها فوق الأرض، وقام بعد ذلك بمسح البقعة بكمّه.

قال إيشفار خلال خروجهما: "هل رأيت؟ قلت لك إنه ليس باستطاعتنا تحمّل تكلفة الفندق".

"لِنقصد فندقاً آخر".

تحققا من الفنادق الواحد تلو الآخر: البارادايز لودج، عشرون روبيّة في الليلة، وهو قائم فوق مَخبز، وأرضيته غير معزولة تماماً عن حرارة ألسنة لهب الفرن التي يمكن الشعور بها في الطابق العُلوي. رام نيفاز الذي تفيد لافتته أن كل طبقات المجتمع مرحَّب بها في ضيافته، ولكن رائحة كريهة تنبعث من غرفه بسبب وجود مصنع كيميائي صغير إلى جواره. أرام أوتيل حيث كادت أمتعتهما تُسرَق خلال استعلامهما عن الإقامة فيه، وهرب السارق بعد عودتهما إلى المدخل.

قال إيشفار: "هل اكتفيت؟". وأومأ أوم برأسه.

فحملا أغراضهما وتوجّها إلى محطة القطار، متوقفَين عند كل مدخل، وظُلّة، وواجهة، للتحقق من إمكانية وجود ملجأ لهما. ولكن، كلما عثرا على ملجأ تفاجأا من وجود أشخاص فيه. وليحبط أحد أصحاب المتاجر مساعي المقيمين على الرصيف من

دخـول متجـره، وضـع إطـاراً حديدياً أمـام المدخل مزوَّداً بـرزّات وبمفصّلات يمكن نزع أقفالهـا عنـد الصبـاح وطيّهـا. غير أنّ أحد المغامرين اسـتفاد من الأمر، وحوّل الإطار إلى سرير بوضع قطعة خشب رقائقي مستطيلة الشكل فوق الرزّات أولاً، ومن ثم وضع غطاء فوق الخشب.

قال إيشفار مُراقباً بإعجاب: "سيكون علينا تعلّم أمور مماثلة".

مـرّا بالمتسـوّل علـى منصته، فحيّاهمـا كالعادة بهز صفيحته المعدنيـة الصغيرة. ولم يشعرا به بسبب انهماكهما في البحث. فحدّق إليهما مع شعور بالإهمال والبؤس. وعثرا علـى أماكـن قليلـة فارغـة خـارج متجـر للأثـاث كان لا يـزال مفتوحاً. قـال أوم: "يمكننا المحاولة هناك".

"هل أنت مجنون؟ تريد أن تُقتل بسـبب احتلال مكان شـخص آخر؟ هل نسـيتَ ما حدث على الرصيف بالقرب من منزل نوّاز؟".

مـرّا بجانـب الصيدليـة التـي لا تُقفـل أبوابها أبداً على مدار السـاعة. كانت الأضواء تُطفـأ فـي القسـم الرئيـس بعد مغادرة موظفـي المبيعات. وبقيت الناحيـة التي يتم تركيب الأدوية فيها وبيعها مُضاءة.

قال إيشفار: "لننتظر هنا، ولنرَ ماذا سيحدث".

وضـع أحدهـم كرسـيّاً خشـبياً عند المدخـل الخارجي بين الصيدليـة ومتجر التحف الأثريـة المجـاور. كانـت المصاريع الفولاذية منسـدلة فوق النافذتَيـن وكأنّها أجفان تغطّي عينين. صابون، بودرة مُطرِّية للجِلد، وشراب للسعال من جانب، وتماثيل برونزية، ونماذج مصغَّـرة لموغـال، وعلـب مجوهرات مرصَّعة من الجانب الآخر، كلها غابت عن الأنظار. لقد أقفل المديران المتجرَين وسلّما الحارس الليلي المفاتيح.

انتظر الخياطان قيام الحارس الليلي بحلّ سَيره، وخلع حذائه، والشعور بالراحة على الكرسـي الخشـبي. واقتربا بعد ذلك مع رزمة عدة النوم. سـأل إيشـفار، وهو يومئ بيده: "أعواد ثِقاب؟".

توقـف الحـارس الليلـي عن فرك ربلتَي سـاقَيه، وبحث في جَيبه. فتشـاطر الخياطان عود ثِقاب. وقدّما للحارس الليلي سيجارة. فهزّ رأسه، مُخرجاً علبة سجائر باناما. ونفث الثلاثة الدخان بصمت لبعض الوقت.

قال إيشفار: "إذاً، تجلس هنا طوال الليل؟".

"إنه عملي". ومدّ يده لالتقاط العصا الليلية المسنَدة إلى الباب وضرب بها الأرض مرتَين. فابتسم الخياطان، وأومأا برأسَيهما.

"هل ينام أحد عند المدخل؟".

"لا أحد".

"قد تشعر أحياناً بالحاجة إلى الراحة".

هز الحارس الليلي رأسه، وقال: "هذا غير مسموح. عليّ حراسة المتجرَين". وانحنى باتجاههما، وأشار إلى مركّب الأدوية الذي يبقى طوال الليل في الداخل، وأسرّ إليهما قائلاً: "ولكنه يستريح. هو ينام لمدة طويلة في الداخل كل ليلة على بساط. مع ذلك، يتلقى الوغد أجراً أكبر بكثير من أجري".

قال إيشفار: "لا مكان لدينا لننام فيه. بالأمس، دمّرت الحكومة بآلياتها المستوطنة حيث نقيم".

قال الحارس الليلي: "غالباً ما يحدث هذا الأمر في هذه الأيام". وواصل تذمّره من مركّب الأدوية: "يعمل ذلك الرجل قليلاً جداً في الليل. يأتي زبون أحياناً للحصول على دواء. عندئذٍ، أفتح القفل وأوقظ الوغد ليمزج الوصفة الطبية. ولكنه يصحو مشوَّش الذِهن ويجد صعوبة في القراءة". انحنى أكثر فأكثر نحوهما مرة أخرى، وتابع قائلاً: "ذات مرة، وضع مواد غير مناسبة في مزيج الدواء. لقد مات الزبون، وقدمت الشرطة للتحقيق. فتحدّث المدير إلى رجال الشرطة، وعرض عليهم مالاً فقبلوه، وكان الجميع سعداء".

قال إيشفار: "إنهم غشاشون. كلهم كذلك". وأومأ الحارس برأسه وهو يوافقه الرأي.

"هل تسمح لنا بالنوم هنا؟".

"هذا غير مسموح".

"باستطاعتنا أن ندفع لك".

"حتى لو دفعتما، فليس هناك متّسع لكما".

"المكان الموجود يكفي. يمكننا وضع عدة النوم بجانب الباب إذا أزحتَ كرسيّك مسافة قدمَين فقط".

"وماذا عن الأشياء الأخرى؟ لا يوجد مكان لوضعها".

"أي أشياء؟ إنّه صندوق واحد فقط. سنأخذه معنا في الصباح".

أزاحا الكرسيّ، وفرشا عدة النوم التي اتسع لها المكان تماماً. سأل الحارس الليلي: "كم يمكنكما أن تدفعا؟".

"سندفع روبيّتين كل ليلة".

"أربع".

"نحن خياطان فقيران. خذ ثلاث روبيّات وسنخيط لك مجاناً. يمكننا إصلاح لباسك

الرسمي". فأشار إلى ركبتي البنطال المهترئَتين وطرفَي الكمَّين الباليَين.

"حسناً. ولكنني أحذّركما، تكون الليالي هنا شديدة الصخَب أحياناً. وإذا قدِم زبون لأجل الدواء، فسيكون عليكما التنحّي. عندئذٍ لا تقولا إنني أفسدت نومكما. المال لن يُرَدّ بسبب إفساد النوم. وإذا سألكما مركّب الأدوية عن المبلغ الذي تدفعاه لي مقابل نومكما هنا، قولا له إنكما تدفعان روبيّتين لأن الوغد قد يطالب بحصة له".

ووافق الخياطان على كل شروطه. وبعد تدخين سيجارة أخرى، أخرجا إبرتَين وخيطاً من الصندوق، وشرعا بالعمل. وجلس الحارس الليلي بملابسه الداخلية خلال قيامهما بإصلاح لباسه الرسمي.

قال فيما كان يرتدي سرواله: "ممتاز".

فسُرّ إيشفار بالإطراء، وقال له إنه يسعدهما ترميم أشياء أخرى له ولعائلته. "يمكننا القيام بكل شيء".

فهزّ الحارس الليلي رأسه بحزن، وقال: "أنتما لطيفان، ولكن زوجتي وأبنائي يعيشون في مسقط رأسي. لقد جئت إلى هنا بمفردي بحثاً عن عمل".

في وقت لاحق، وعندما نام الخياطان، راقبهما الحارس من حيث يجلس على كرسيّه الخشبي. وعندما رأى أومبراكاش ينتفض، تذكّر أبناءه، وتلك الليالي المميَّزة التي أمضاها مع العائلة عندما كان صغاره يرون كوابيس.

استيقظ الشارع باكراً، وأيقظ معه الخياطَين قبل الفجر. في الواقع، لا ينام الشارع أبداً، شرح الحارس الليلي قائلاً إن الشارع ينعس قليلاً بين الثانية والخامسة صباحاً؛ أي بعد انتهاء الأَرِقين من المقامرة وتناول المشروبات المُسكرة، وقبل وصول الصحف والخبز والحليب. "ولكن نومكما جميل". وابتسم.

قال إيشفار: "إنه نوم ليلتَين في ليلة واحدة".

"انظرا، لا يزال الوغد يشخر في الداخل". وخلال تحديقهما عبر النافذة، فُتحت عينا مركّب الأدوية فجأة، وعبس بالوجوه الثلاثة الملتصقة بالزجاج، واستدار، وعاد للنوم.

دخّنوا في المدخل، مراقبين كانس الشارع وهو يجمع أعقاب السجائر. كانت مكنسته ترسم خطوطاً على الغبار. وفي وقت لاحق، وضّبا عدة النوم، ودفعا ثلاث روبيّات، وغادرا مع أحمالهما، واعدَين بالعودة عند المساء.

شعر أوم بألم في كتفه وذراعه اليسرى بسبب حَمل الصندوق، ولكنه رفض قيام عمه بحمله. قال إيشفار: "استخدم يدك اليمنى. احمله بكلتا يدَيك، وستصبحان قويّتَين".

"عندئذٍ ستغدوان بلا فائدة. كيف سأخيط؟".

توقفا عند محطة القطارات، واغتسلا قبل التوجه إلى فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل لاحتساء الشاي وتناول فطيرتَين. قال النادل: "لم تأتيا يوم أمس".

"كنا منشغلَين في البحث عن مكان للإيجار".

"هذا أمر يمكنكما تمضية كل حياتكما بحثاً عنه"، قال الطاهي من زاويته، صائحاً فوق أجهزة الطبخ الهادرة بألسنة لهبها الزرقاء.

عند النافذة، لاحظ أوم صورة كبيرة لرئيسة الوزراء لم تكن موجودة من قبل، إضافةً إلى مُلصق إعلاني عن برنامج النقاط العشرين، فقال: "لديك زبونة جديدة أم ماذا؟".

قال النادل: "ليست زبونة، إنها الحماية. فبركتها ضرورية لاستمرار العمل؛ إنها إلزامية".

"ماذا تعني؟".

"حضورها يحول دون تحطيم نوافذي وإحراق متجري. هل تؤيّدانها؟".

فأومأ الخياطان برأسَيهما، وأخبرا الطاهي والنادل عن لقائهما القسري برئيسة الوزراء، وعن الحوّامة، وبَتلات الورد، والبالون المليء بالهواء الساخن، والمجسَّم الضخم الذي أضحكهما.

بعد الليلة الأولى من النوم العميق، ثبتت صحة توقعات الحارس الليلي بشأن حالات الإزعاج الليلية. وكان يعتذر كلما تعيّن عليه إيقاظ الخياطَين. فلا شيء أكثر حقارة من حرمان الإنسان من الطعام أو النوم، وفقاً لمعتقداته. لذا، كان يساعدهما على نقل عدة النوم لفتح قفل الباب، مواسياً إيّاهما كلما زلّت أقدامهما في الظلام، فيحني أوم النعسان رأسه على إحدى كتفَيه ويتكئ إيشفار على الأخرى.

كانا يستمران في التذمّر في أثناء انتظارهما الزبائن حتى ينتهوا من إعداد أدويتهم. "لماذا يجب على كل هؤلاء الأشخاص أن يمرضوا في الليل فقط؟"، قال إيشفار متأففاً، "لماذا يضايقوننا؟".

قال أوم متأوّهاً: "يا له من ألم في رأسي!".

وفرك الحارس الليلي جفنه برِفق. "لن يُطيلوا البقاء. انتظرا دقيقتين إضافيتين بعد ليس إلا، اتفقنا؟ بعد ذلك، يمكنكما النوم بسلام كلّي. أعدكما بذلك، لن أدَع زبائن آخرين يزعجونكما". ولكن، كان عليه الإخلال بوعده مراراً وتكراراً.

في وقت لاحق، علما بتفشّي الزُّحار؛ بسبب بيع حليب فاسد في الحيّ. فلو بقي الخياطان في الجوار في النهار، لاكتشفا أن ذلك المرض لص مُنصف يهاجم في وضح النهار وفي الليل. لقد أخبرهما الحارس الليلي بوفاة خمسة وخمسين بالغاً وثمانية وثلاثين

طفلاً بعد أن أطلعه مركّب الأدوية على الرقم الرسمي، شارحاً له أنه زُحار عُصَيّ ولا ينتمي إلى الفئة الأميبية الأكثر خطورة.

وصل الخياطان إلى العمل جارَّين الصندوق وعدة النوم، وكانا على شفير الانهيار، وأعينهما الحمراء مُحاطة بدوائر قاتمة اللون. كان العمل يزداد سوءاً، وغالباً ما تخرج درزات إيشفار عن مسارها، ولا يتمكن أوم من القيام بأي عمل على نحو صحيح بسبب ذراعه المتصلّبة. وغابت إيقاعات آلتَي الخياطة؛ ولم تعُد الدرزات تُنجَز برشاقة وأناقة بل بشكل غير منتظم.

لقد عرفت دينا أن حالتهما الصحية تتدهور حين نظرت إلى وجهَيهما الشاحبَين. فخشيت على صحتهما وعلى موعد التسليم الوشيك. كانا كتوأم سياميّ، والصندوق يُرخي بثِقله على ضميرها.

في مساء ذلك اليوم، جعلها منظر أوم وهو يحاول بجهد رفع حِمله على شفير القول إن بإمكانهما إبقاء الصندوق في منزلها. راقبها مانيك من المدخل، وكان متشوّقاً إلى سماعها تطلب منهما ذلك. ولكن المخاوف الأخرى حالت دون تفوّهها بتلك الكلمات.

قال مانيك، وهو يسرع إلى الشرفة: "انتظر، سأرافقك". فاعترض أوم بوَهَن، ولكنه سلّمه الصندوق بعد ذلك.

شعرت دينا بارتياح وغضب وانزعاج. من الجيد له تقديم يد العون، قالت لنفسها، ولكن ليس بالطريقة التي اعتمدها؛ فلقد خرج من دون أن يقول أي كلمة، جاعلاً إيّاها تبدو كما لو أنها عديمة الشفقة.

قال أوم: "ها هو مكان نومنا الجديد". وعرّفه بالحارس الليلي: "صاحب الملك الجديد".

ضحك الأخير، وأومأ إليهم للدخول إلى المدخل. فاحتشدوا معاً عند الدرَجات للتدخين ومراقبة الطريق. "يا لي من صاحب ملك! حتى إنني لا أستطيع ضمان نوم هانئ".

قال أوم: "ليس خطأك، إنه هذا المرض. وفوق كل شيء، أنا أستمر في رؤية كوابيس مزعجة".

قال إيشفار: "وأنا كذلك، فالليالي مليئة بالضوضاء والأشكال والظلال. إنها مخيفة جداً".

قال الحارس الليلي: "أنا أجلس هنا مع عصاي، هل هناك ما يخيف؟".

قال إيشفار، ساعلاً ومُطفئاً سيجارته: "من الصعب اكتشاف ماهيّة هذه المخاوف".

قال أوم: "يُفترض بنا العودة إلى قريتنا، لقد سئمتُ العيش على هذا النحو، زاحفاً من مشكلة إلى أخرى".

سأل إيشفار بعد أن تأكد من إطفاء السيجارة: "هل تفضّل الركض باتجاه المتاعب؟ صبراً يا ابن شقيقي. عندما يحين الوقت، سنعود".

قال أوم: "لو كان الوقت لفّة قماش، لأزلتُ منه كل الأجزاء السيّئة، وقصصتُ الليالي المريعة، ودرزت القطع الجيدة لأتمكن من تحمّل الوقت. وعندئذٍ، سأتمكن من ارتدائه كما لو أنه معطف، وأعيش بسعادة على الدوام".

قال مانيك: "أرغب أيضاً في معطف مماثل. ولكن، أي أجزاء ستزيل منه؟".

قال أوم: "تدمير الحكومة لمنزلنا بالتأكيد، والعمل لدى السيدة دينا".

قال إيشفار: "حذارِ، لولاها، أنّى لنا أن نحصل على المال؟".

"حسناً، لنُبقِ أيام قبض الرواتب ولنحذف البقية".

سأل مانيك: "ماذا أيضاً؟".

"يعتمد الأمر على المدى الذي تريد بلوغه".

"لنعُد إلى يوم ولادتك".

"هذا كثير. هناك أمور كثيرة يجب إزالتها لدرجة أن المقص قد يغدو كليلاً، ولن يتبقى إلا القليل من القماش".

قال إيشفار: "ما هذا الهراء الذي تنطقان به أيها الفَتَيان؟! هل كنتما تدخّنان القِنَّب أم ماذا؟".

أظلمت سماء المساء، وأُضيئت مصابيح الإنارة في الشارع. وهوت طائرة ورقية سوداء ممزَّقة من السطح كما لو أنها غراب عدواني، وأجفلتهم. فالتقطها أوم، ووجد أنها متضررة إلى حدٍّ كبير، فأفلتها.

قال مانيك: "بعض الأمور معقدة جداً حيث يصعب فصلها بالمقص، فالجيد منها والسيّئ مرتبطان ببعضهما جيداً". وشبك أصابعه بإحكام.

"مثل ماذا؟".

"جبالنا. إنها جميلة ولكنها تُحدث انهيارات ثلجية".

"صحيح. وكذلك إن تناولنا الشاي في فيشرام أمر جيد. ولكن صورة رئيسة الوزراء الملصقة على النافذة تُشعرني بألم في المعدة".

اقترح إيشفار: "كانت الإقامة في المستوطنة أمراً جيداً أيضاً، فراجارام المقيم في المنزل المجاور مسلٍّ".

قال أوم: "أجل، ولكن القفز في أثناء التغوّط بسبب مرور قطار سريع أمر مروِّع".

فضحكا، وضحك إيشفار كذلك، بالرغم من إصراره على أن هذا الأمر حدث مرة واحدة: "كان قطاراً جديداً. حتى إن راجارام لم يعلم بشأنه". وتنحنح وبصق. "هل تتساءل ما الذي حلّ براجارام؟".

بدأ المقيمون على الرصيف بالانبثاق من الغسَق الذي يزداد قتامة. وظهر الكرتون، والبلاستيك، والصحف، والأغطية، على امتداد ممرات المشاة. وفي غضون دقائق، طالبت الأجساد المكوَّمة بكل الرصيف الإسمنتي. وتكيّف المشاة مع الطوبوغرافيا الجديدة، سالكين طريقهم بحِرص شديد عبر حقل الأذرعة والسيقان والوجوه.

قال مانيك: "يشكو والدي في قريتنا من أنها أصبحت مكتظة وقذرة، يُفترض به القدوم ورؤية ما يجري هنا".

قال الحارس الليلي: "سيعتاد الأمر، كما حدث معي تماماً. تشاهد ما يجري يوماً بعد يوم، ومن ثم تتوقف عن الانتباه لا سيما وإن كنت لا تملك أي خيار آخر".

"والدي ليس مثلك. لو كان هنا لاستمرّ في التّأفف".

عاد سعال إيشفار، فاقترح عليه الحارس الليلي الطلب من مركِّب الأدوية إعداد دواء له.

"ليس باستطاعتي تحمّل تكلفته".

"اذهب واسأل فحسب. لديه نظام خاص بالفقراء". وفتح قفل الباب ليُدخله.

كان مركّب الأدورية يبيع أولئك الذين لا يمكنهم دفع ثمن قنينة كاملة الدواء بالملعقة أو بالحبة. ويكون الفقراء ممتنّين لهذه المعاملة الخاصة، ولكن مركّب الأدوية يزيد سعر الدواء ستة أضعاف، واضعاً الفَرق في جَيبه. "افتح فمك"، قال لإيشفار، وسكب ملعقة من الغليكودين تيرب فاساكا فيه ببراعة.

قال إيشفار، لاعقاً شفتَيه: "طعمه لذيذ".

"عُد ليل غد لتناول ملعقة أخرى".

واستعلم الحارس الليلي عن المبلغ الذي دفعه لقاء الجرعة. قال إيشفار: "دفعت خمسين بايزا". وقرر الحارس الليلي أن يطلب عمولته.

تدلّى الصندوق من ذراع أوم لثلاثة أيام إضافية فيما كان يتنقل بين الحارس الليلي ودينا دلال. كانت المسافة قصيرة ولكن الوزن جعلها طويلة، وشعر بألم بين كتفه ورِسغه، ولم يعُد باستطاعته تحريك القماش على آلة الخياطة. وكان يتطلّبه الأمر استخدام يدَيه لتوجيه القماش بدقة تحت الإبرة الشرِهة.

قال مستسلماً: "لقد شلّني الصندوق".

راقبته دينا بتعاطف ضِمني. عصفوري الدوري الصغير النشيط ليس بحالة جيدة اليوم، فها هو يجرّ جناحه المصاب، قالت لنفسها، لا مزيد من القفز والزقزقة، لا مزيد من العجرفة والجدال.

ووسط صباح مليء بالخيوط المتشابكة والدرزات الملتوية، قُرع جرس الباب. فتوجّهت إلى الشرفة لإلقاء نظرة، ثم عادت متضايقة، وقالت: "هناك من يسأل عنك. إنه يعيق عملنا في منتصف النهار".

متفاجئاً ومعتذراً، هرع إيشفار إلى الباب الأمامي، وقال: "أنت! ماذا حدث؟ ذهبنا إلى المستوطنة في ذلك المساء. أين كنت؟".

قال راجارام وهو يشبك يدَيه: "أشعر بالسوء بسبب ذلك. لقد حصلت على عمل جديد، وكانوا بحاجة إليّ على الفور، فتعيّن عليّ الذهاب، ولكن انظر، لدى مستخدِمي المزيد من الوظائف الشاغرة، يُفترض بكما التقدّم بطلب للعمل".

كان باستطاعة إيشفار الشعور بمحاولة دينا الإصغاء من الغرفة الخلفية، فقال: "سيكون علينا الالتقاء في وقت لاحق". وأعطاه عنوان الصيدلية.

"حسناً، سأحضر إلى هناك الليلة. انظر، هل يمكنك إقراضي عشر روبيات؟ إلى أن أتقاضى أجري؟".

"لديّ خمس فقط". وسلّمه إيشفار إيّاها وهو يتسائل عما إذا كانت عادة راجارام باقتراض المال ستصبح مصدراً للإزعاج. فالقرض السابق لا يزال غير مدفوع. ما كان يُفترض بي أبداً إعلامه بمكان عملنا، قال لنفسه. وعاد إلى آلة الخياطة، وأطلع أوم على ما دار بينه وبين زائرهما.

"من يهتمّ لراجارام، أنا أموت هنا". ومدّ ذراعه اليسرى التي كانت ضعيفة وتؤلمه.

لانت دينا أخيراً، وأحضرت زجاجة أمروتانجيان بالم. قالت: "تعالَ، سيُشعرك هذا المرهم بالتحسن".

فهز رأسه.

قال إيشفار: "السيدة دينا مُحقة، سأفركه لك".

قالت دينا: "واصل الخياطة. سأقوم بذلك، وإلا التقط الفستان الذي بين يدَيك رائحة المرهم". كما وأنني قد أبدأ باستجداء إيجار الشهر القادم إذا بدأ بتضييع الوقت، قالت لنفسها.

قال أوم: "سأضعه بنفسي".

ففتحت القنينة قائلة: "تعالَ، اخلع قميصك. ما الذي تخجل منه؟ أنا في سنّ والدتك".

فك أوم الأزرار بتردد، كاشفاً عن قميص داخلي فيه العديد من الثقوب، وتحيط به رائحةُ حموضةٍ. سكبت دينا كمية قليلة خضراء داكنة على راحة يدها، وبدأت بفرك الكتف، داهنةً المرهم البارد بواسطة إصبعها نزولاً باتجاه المِرفق. فهزّ كتفه؛ لقد جعلت برودة المرهم بشرته تقشعرّ. بعد ذلك، بدأت بالتدليك، وأطلق المرهم حرارته وأصبحت ذراعه ويده خدِرتَين. فتراجعت حالة القشعريرة وتلاشت.

سألته فيما كانت تدلك له عضلاته: "كيف وجدته؟".

"بارداً تارةً، وساخناً طَوراً".

"إنه سرّ فعالية المرهم. شعور لطيف. انتظر فحسب، سيزول الألم قريباً".

لقد اختفت رائحته بسبب حدّة رائحة المرهم. يا لنعومة بشرته!، قالت لنفسها. إنها كبشرة طفل، ولا وجود للشعر تقريباً حتى على كتفه.

"كيف تشعر الآن؟".

"أفضل". لقد استمتع بعملية الفرك.

"هل يؤلمك شيء آخر؟".

فأشار إلى ذراعه من المِرفق إلى المِعصم: "كل هذه المنطقة".

سكبت دينا كمية أخرى وفركت ساعده: "خذ بعضاً منه معك الليلة، واستعمله عندما تذهب إلى السرير. غداً، ستعود ذراعك سليمة معافاة".

قبل أن تغسل يدَيها، ذهبت دينا إلى المطبخ حيث الرف المكسوّ بالغبار بجانب النافذة. فوقفت على أطراف أصابع قدمَيها، غير قادرة على رؤية ما يوجد على الرف، وتحسست المكان بيدها مُزيحةً علبة دائرية. ولمست الأغراض الموجودة: اللوح الخشبي والشوبك، مِبشرة جوز الهند وشفرتها المسنَّنة المستديرة، المِهراس والمِدقّة.

أسقطت الأغراض على الأرض، فركض الخياطان إلى المطبخ وهما يصرخان: "يا سيدة دينا! هل أنت بخير؟". فأومأت برأسها، مرتعِشةً قليلاً، ولكنها مسرورة برؤية نظرة القلق على وجه أوم قبل أن يخفيها.

قال إيشفار: "ربما استطعنا خفض الرف قليلاً". وساعدها على إعادة وضع الأغراض التي سقطت في مكانها. "كي تتمكني من الوصول إليها بسهولة".

"لا، دعه في مكانه. لم أستخدم هذه الأشياء منذ خمسة عشر عاماً". وعثرت على ما كانت أصابعها تبحث عنه: لِفافة الورق الشَّمعي الذي كانت تغلّف غداء راستوم به.

نفخت الغبار عن اللفافة، واقتطعت مربَّعاً بحجم مِنديل، ووضعت كمية قليلة من مرهم أمروتانجيان عليها.

قالت وهي تطوي قطعة الورق على شكل رزمة ثلاثية الأبعاد: "تفضّل، لا تنسَ أن تأخذها معك؛ معجّنات الساموزا الخاصة بك المصنوعة من مرهم".

قال إيشفار ضاحكاً: "شكراً لك". وحاول حثّ أوم على التعبير عن تقديره، فارتسمت على وجه هذا الأخير ابتسامة خفيفة تعبيراً عن قدر قليل من الامتنان بخلاف رغبته.

في المساء، وخلال مغادرتهما، أشارت إلى الصندوق. "لماذا لا تتركانه حيث تنامان؟".

"لا مكان له هناك".

"إذاً، يمكنكما إبقاؤه هنا. لا معنى لحمله صباحاً ومساءً".

فاغتبط إيشفار، وقال: "يا للُطفك، يا سيدة دينا! نحن ممتنّان جداً!". وشكرها مرات عدة في أثناء انتقاله من الغرفة الخلفية إلى الشرفة، شابكاً يدَيه وهازّاً رأسه بوجه مُشرق. مرة أخرى، كان أوم أكثر حِرصاً على الحدّ من الإفراط في التعبير عن امتنانه، فتمتم قائلاً في أثناء إغلاق الباب: "شكراً لك".

"هل رأيت؟ ليست سيّئة بقدر ما ظننتَ".

"فعلت ذلك لأنها تريد جَني المال من كدّي وتعبي".

"لا تنسَ، لقد وضعت لك المرهم".

"فلتدفع لنا أجراً مناسباً، حينئذٍ يمكننا شراء مرهمنا بأنفسنا".

"لا تكمن أهمية الأمر في الشراء يا أومبراكاش. إنها عملية وضع المرهم التي أريدك أن تتذكرها".

قدِم راجارام إلى الصيدلية على دراجة، فاندهش أوم. قال جامع الشعر: "ليست دراجتي بكل معنى الكلمة، لقد زوّدني بها أصحاب العمل من أجل وظيفتي".

"ما هي وظيفتك؟".

"عليّ أن أشكر نجومي لأجل ذلك. في تلك الليلة، وبعد تدمير المستوطنة، التقيت رجلاً من قريتي. إنه يعمل لصالح المشرف على الأحياء الفقيرة، ويقود إحدى الآلات التي كانت تهدّم المنازل. فأخبرني عن العمل الجديد، واصطحبني في صباح اليوم التالي إلى مكتب الحكومة. لقد استخدموني على الفور".

"وعملك هو تهديم المنازل أيضاً؟".

"لا، أبداً. لقبي هو مروِّج المخطط العائلي. يزوّدني المكتب بنشـرات إعلامية أقوم بتوزيعها".

"هذا كل شيء؟ والراتب جيد؟".

"إنهـم يؤمّنـون لـي وجبـة واحـدة، ومكاناً للنـوم، والدراجة. وكمـروّج، يجب عليّ الانتقال من مكان إلى آخر لشرح إجراءات تحديد النَّسل. فلقاء كل رجل وامرأة أستطيع إقناعهما بالخضوع للعملية الجراحية، أحصل على عمولة".

وقال إنه سـعيد بعمله. فحمل رَجلَين على الموافقة على قطع قناتَي المَنيّ لديهما، أو حمل امرأة واحدة على الموافقة على استئصال قناة فالوب لديها، كل يوم، يساوي ما كان يجنيه طوال شـهر من عمله كجامع شـعر. وتنتهي مسـؤوليته لدى توقيع المرشـحين على الاسـتمارات وإرسـالهم إلى العيادة. لم تكن هناك أي اسـتثناءات، فالجميع مؤهّلون للخضوع للعملية الجراحية، سـواء أكانوا شـبّاناً أم مسـنّين، متزوّجين أم عازبين. لم يكن الأطباء يعلّقون أهمية على التفاصيل.

قـال راجـارام: "فـي النهاية، يكون الجميع راضيـن. فالمرضى يحصلون على هدايا، وأنـا أحصـل علـى أَجـر، والأطباء يزدادون خبرة وثراءً من خلال نظام الكوتا. وهي خدمة للأمّة أيضاً؛ العائلات الصغيرة عائلات سعيدة، والأكثر أهمية من ذلك تحديد النَّسل".

"كم عمليّة تدبّرتَ حتى الآن؟".

"حتـى الآن، لا شـيء. ولكـن، لـم تمـضِ إلاّ أربعـة أيام فقط. لا يزال أسـلوبي في الحديث يكتسب القدرة على الإقناع. لست قلقاً، أنا على ثقة بنجاحي".

قال أوم: "أتعلم؟ مع هذا العمل الجديد، يمكنك مواصلة العمل القديم أيضاً".

"كيف؟ لا وقت لديّ لجمع الشعر".

"عندما تصطحب المرضى إلى العيادة، هل يقصّ الطبيب شعرهم؟".

"لا أعلم".

قال أوم: "يجب عليه القيام بذلك، فهم يقصّون الشعر دائماً قبل العملية الجراحية. وهكذا، يمكنك جمع كل ذلك الشعر وبيعه.

ولكن، ليس هناك طلب على الشعر القصير جداً والمجعَّد".

فأطلق أوم ضحكة ماكرة بسـبب الإجابة، وفهم راجارام المغزى: "أيها الوغد، أنت تسـخر مني"، وضحك. "ولكن، اسـمع، يسـتخدم المكتب المزيد من المروِّجين. يُفترض بكما التقدّم على الفور بطلب للعمل".

قال إيشفار: "نحن سعيدان بالخياطة".

"ولكنك قلت لي إن المرأة صعبة المِراس وتغشّكما".

"بالرغم من ذلك، إنها المهنة التي تدرّبنا على مزاولتها لدى العم أشرف. أما الترويج فهو أمر لا نعرف عنه شيئاً".

"ليست سوى عقبة صغيرة. سيعلّمونكما كيفية القيام بالعمل في مركز التخطيط العائلي. لا تخافا من التغيير، إنها فرصة عظيمة. هناك ملايين الزبائن المؤهَّلين. تحديد النَّسل صناعة نامية، أنا على ثقة تامة بذلك".

لكن جهود راجارام لإقناع الخياطَين والحارس الليلي باءت بالفشل. فالتقط دراجته واستعد للمغادرة، غير أنّه سألهم قبل ذلك: "هل من أحد منكم مهتمّ بقطع قناة المَنيّ لديه؟ باستطاعتي أن أستخدم نفوذي لتخضعوا لعلاج مميَّز وتحصلوا على هدية مزدوجة".

فرفضوا العرض.

سأل إيشفار: "بالمناسبة، ماذا عن شعرك الموجود في صندوقنا؟".

"هل يمكنك الاحتفاظ به مدة أطول؟ يمكنني التخلص من هذه الضفائر بعد إنهاء فترة الاختبار كمروّج".

لوّح بيده، وتوارى عن الأنظار في الطريق، مُطلقاً العنان لجرس دراجته ومودِّعاً. فقال أوم إن الوظيفة تبدو مثيرة للاهتمام بطريقة ما، والحصول على دراجة أمر رائع.

أبدى إيشفار رأيه قائلاً إن الأشخاص المماثلين لراجارام يمكنهم النجاح كمروّجين بسبب ألسنتهم السليطة الخطرة. "يقول لنا إننا نخشى التغيير. ماذا يعرف عن ذلك؟ هل كنا سنغادر مسقط رأسنا، ونقطع كل تلك المسافة إلى هنا لو كنا نخشى التغيير؟".

فوافقه الحارس الليلي الرأي قائلاً: "على أيّ حال، لا خيار لأي إنسان في تلك المسألة. فكل شيء يتغيّر سواء أأحببنا ذلك أم لا".

* * *

في المساء، قصدت دينا تكراراً صندوق الخياطَين لإلقاء نظرة عليه. فراقبها مانيك باهتمام، متسائلاً عن المدة التي ستحتفظ به لديها. قالت بعد العشاء: "آمل أن تكون سعيداً. الآن، تضرع كي لا يعود عليّ لُطفي بما يؤذيني".

"كُفّي عن القلق إلى هذا الحد يا خالتي. كيف يمكن لذلك أن يُلحق بك الضرر؟".

"هل عليّ شرح كل شيء مجدداً؟ لم أقم بذلك إلا لأن ذلك الخياط الفقير النحيل بدأ يشبه صندوقه المعطوب. أنت تعتقد أنني غير لطيفة معهما، ولا أهتم بمشاكلهما. ستشعر بالغرابة إذا قلت لك إنني افتقدت إليهما بعد أن غادرا مساءً؛ افتقدت إلى حديثهما

وخياطتهما ومزاحهما".

لم يجد مانيك في الأمر غرابة على الإطلاق، وقال: "آمل أن تتحسن ذراع أوم غداً".

"هناك أمر واحد مؤكَّد وهو أنه لم يكن يتظاهر بذلك. لقد علمت أنه يتألّم فعلاً حين كنت أضع المرهم على عضلاته. لديّ خبرة في التدليك. كان زوجي يعاني آلاماً في الظهر".

تذكّرت أنها كانت تستخدم سلونز لينيمنت في تلك الأيام، وهو أكثر فعالية من أمروتانجيان بالم لأنه كان يليّن العضلات المتصلّبة بسهولة تحت أصابعها. "كان راستوم يقول إن هناك فعالية عجيبة في يدَيّ، لأن تدليكي أكثر فعالية من حقنة الطبيب المضادة لتشنج العضلات".

وتفحصت يدها رافعةً إيّاها أمامها: "لهذه الأصابع ذكرى طويلة. ما زالت تتذكر ذلك الشعور في أثناء عملها على إرخاء عضلات راستوم". وأخفضت يدها، ثم تابعت: "وبالرغم من ألم ظهره، كان يحب ركوب الدراجة. كان يقفز عليها وينطلق كلما سنحت له الفرصة".

واصلت دينا الحديث عن راستوم حتى موعد النوم: كيف التقيا، ورد فعل شقيقها المغفّل، ومن ثم زواجهما. فشعّت عيناها، وتأثّر مانيك بالقصص، ولكنه لم يكن يفهم سبب شعوره مرة أخرى بوطأة اليأس المألوف لدى إصغائه إليها، عِلماً أنها كانت تستمتع بذكرياتها.

تجميل المدينة

خلال أسبوع تقريباً، حوّلت خيمياء الزمن الشارعَ الليلي المُفعم بالضجيج خارج الصيدلية إلى مكان هادئ بالنسبة إلى الخياطَين. فلم يعُد نومهما مسمَّماً بالكوابيس المزعجة، وأصبحت الظلال ومصادر الإزعاج - وكلاء مراهنات يعلنون نتائج ماتكا في منتصف الليل، رابحون يصفّرون مسرورين، كلاب تنبح، ثملون يقفلون على أنفسهم في صراع مميت مع عفاريتهم، قناني حليب تصلصل على الرفوف، أبواب عربات نقل الخبز تُغلَق بقوة - مواعيد تُعلن ساعةُ منبِّهٍ جديرة بالثقة حلولَها.

قال الحارس الليلي: "قلت لكما إنّه ما من شيء مخيف في الشارع".

قال إيشفار: "هذا صحيح. الضجيج مماثل للناس، فأنت عندما تعرفهم يصبحون أصدقاء لك".

بدأت الحلقات حول أعينهما تختفي، وتَحسّن عملهما، وباتا يستمتعان بالنوم أكثر فأكثر. وحلم إيشفار باحتفال زفاف في القرية؛ وكانت زوجة أوم جميلة. وحلم أوم بالحي الفقير المُقفِر حيث أمسك وشانتي بيدَي بعضهما وحملا الماء من الصنبور، ولهَوَا بعد ذلك في الحقل المدمَّر الذي تحوّل إلى حديقة تعجّ بالزهور والفراشات. فغنّيا، ورقصا حول الأشجار، وأطلقا النار بمدافعهما الرشاشة على الرقيب كيسار ورجال الشرطة الأشرار وعلى المشرف على الأحياء الفقيرة، وأعادا سكان الأكواخ إلى مكان إقامتهم القانوني.

أصبحت الصيدلية محور الروتين الجديد للخياطَين. إذ كانا يُخرجان ملابسهما من الصندوق قبل مغادرة شقة دينا في نهاية اليوم، وترافقهما الصابونة وفرشاتا الأسنان ذهاباً وإياباً. وبعد تناول العشاء في فيشرام، كانا يغسلان ملابسهما في حمّام محطة القطار، ويجففانها قرب مدخل الصيدلية حيث تتدلى أسلاك كهربائية كحبال صالحة لنشر الملابس المغسولة. كانت السراويل والقمصان تنتشر كحراس مبتوري الأوصال خلال نومهما، وترقص الثياب في الليالي العاصفة على السلك كما لو أنها أشباح ودودة ترقص على الحبل.

حلّت بعد ذلك ليلة الضوضاء، وامتلأ الشارع بالغرباء. فهدرت سيارات جيب وشاحنة تابعة للشرطة على الطريق، وركنت في الجهة المقابلة للصيدلية. فصاح الرقيب كيسار، ووجّه تعليمات صارمة إلى رجاله الذين عبروا الرصيف بخطى ثابتة، وانهالوا بهراواتهم على الصناديق الكرتونية التي تأوي النائمين على امتداد الرصيف.

اقتربت الضوضاء التي يُحدثها رجال الشرطة من كوخ الخياطَين. فاستيقظ إيشفار وأوم مما يشبه حلماً مزعجاً، وجثما خائفَين وراء الحارس الليلي. سألاه: "ماذا يجري؟ ماذا ترى؟".

فألقى نظرة سريعة، وقال: "يبدو أنهم يوقظون كل المتسوّلين. إنهم يضربونهم، ويدفعونهم إلى داخل الشاحنة".

فتخلص الخياطان من نعاسهما، وتحققا من الأمر بنفسهما. قال أوم فاركاً عينَيه: "إنه الرقيب كيسار حقاً، ظننت أنني أحلم بحيّنا الفقير مجدداً".

قال إيشفار: "وذلك الرجل بجانب الرقيب كيسار يبدو لي مألوفاً أيضاً".

كان الرجل قصير القامة، والشبيه برجل دِين يقفز كأرنب، وينخر بسبب إصابته بالرشح. تقدّم أوم نحو الأمام، ثم قال: "إنّه ذلك الشخص الذي أراد بيعنا بطاقة تموين لقاء مئتَي روبيّة؛ إنه معقب المعاملات".

"أنت مُحق. ولا يزال يسعل ويعطس. عُد إلى الوراء، من الآمن لنا البقاء مختبئَين".

كان معقب المعاملات يدوّن ملاحظات على لوح يدوي، مواصلاً العدّ مع امتلاء الشاحنة. قال معترضاً: "انتظر لحظة أيها الرقيب. انظر إلى تلك المرأة... إنها عاجزة تماماً. دعها هنا".

قال الرقيب كيسار: "قُم بعملك، وأنا أقوم بعملي. وإذا كان لديك وقت إضافي، انتبه إلى نظارتك".

قال معقب المعاملات: "شكراً لك". ورفع يده لإيقاف انزلاق نظارته. ولدى إنزاله يده، قبضت أصابعه على اللؤلؤة المتدلّية من أنفه. نخر بأنفه، ثم قال: "ولكن، أصغِ إليّ أرجوك، هذه المتسوّلة غير مفيدة في وضعها الحالي".

"في الواقع، هذا ليس من شأني. عليّ اتّباع الأوامر". في تلك الليلة، قرر الرقيب كيسار عدم التساهل مع أي هراء لا سيّما وأن عمله يزداد صعوبة في النهار. فَجَمعُ الحشود من أجل إقامة تجمعات سياسية لم يكن سيّئاً، ولكنّ تدمير مستوطنات الأكواخ وأكشاك الباعة يُشعره بالذَّنب. فقبل قيام رؤسائه بوضع هذه الاستراتيجية التقدمية الجديدة لحل مشكلة التسوّل، طُلب منه نقل قاطني الأرصفة إلى أرض قاحلة خارج المدينة. لقد

اعتاد العودة من تلك المهام شاعراً بالبؤس. لذا، كان يحتسي الشراب، ويسيء معاملة زوجته، ويضرب صغاره. أما وقد استيقظ ضميره، فهو لن يسمح لهذا الغبيّ راشح الأنف بتعقيد الأمور.

اعترض معقب المعاملات: "ولكن، بماذا تفيدني هذه المرأة؟ أي نوع من العمال ستكون هذه العاجزة؟".

قال الرقيب كيسار: "تذمّرك هو نفسه على الدوام". ثم أقحم إبهامَيه تحت الحزام الجِلدي الأسود تحت انحناءة بطنه. كان من هواة أفلام رعاة البقر وكلينت إيستوود. "لا تنسَ، سيعملون كلهم مجاناً".

"تقريباً أيها الرقيب. أنت تتقاضى عمولة لا بأس بها لقاء كل منهم".

"إذا لم تكن تريدهم، فهناك آخرون يريدونهم. في الواقع، لقد سئمتُ وتعبتُ من الاستماع إلى تذمّرك كل ليلة. لا أستطيع اختيار عيّنات سليمة لك... ليست سوقاً لبيع الماشية. تقضي أوامري بتنظيف الشوارع. إذاً، هل تريدهم أم لا؟".

"أجل، حسناً. ولكن، على الأقل، اطلب من رجالك أن يضربوهم بحِرص شديد، وألاّ يسبّبوا لهم نزيفاً، وإلا أصبح العثور على أماكن لهم صعباً جداً بالنسبة إليّ".

قال الرقيب كيسار: "أوافقك الرأي في هذا الأمر. ولكن، ليس عليك أن تقلق، فرجالي مدرَّبون جيداً. إنهم يدركون أهمية التسبب بأضرار غير مرئيّة فقط".

تواصلت عملية الجَرف، وأدّى رجال الشرطة مهمتهم بفعالية، دافعين وراكلين. ولم تُبطئهم أي عقبة أو صراخ أو ولولة أو تهديدات هزلية أطلقها الثملون والمتهورون.

لقد ذكّرت الطريقة المتّبَعة من قِبَل رجال الشرطة إيشفار بكنّاس الشارع الذي يأتي عند الخامسة صباحاً لرفع القُمامة. فقال إيشفار هازّاً كتفَيه عندما بلغ الفريق زاوية الشارع: "لا، إنهم يسعون وراء الرجل المسكين الذي يتنقل على منصة مدولَبة".

حاول المتسوّل مبتور الساقَين الهرب. فحرّك المنصة إلى الأمام دافعاً الأرض براحتَي يدَيه. فشعر رجال الشرطة بقليل من الترفيه، وأطلقوا هتافات تشجيع رغبةً منهم في التحقق من مدى سرعة دواليبه. وانتهت محاولة الفرار خارج الصيدلية بعد شعور المتسوّل بالإنهاك، فاقتاده شرطيان مع منصته إلى الشاحنة.

صاح معقب المعاملات: "انظر إلى هذا! ليس لديه أصابع أو قدمان أو ساقان! سيكون عاملاً رائعاً!".

قال الشرطي: "يمكنك أن تفعل به ما تشاء".

"دعه خارج حدود المدينة إذا لم تكن بحاجة إليه"، قال آخر. وبدفعة صغيرة،

تدحرجت المنصة إلى الأمام وتوقفت عند الطرف الأمامي لقاع الشاحنة.

"ماذا تقول؟ كيف يمكنني القيام بذلك؟ عليّ إعطاء شرح عن كل منهم"، قال معقب المعاملات. ومتذكراً الإنذار النهائي للرقيب كيسار، نظر من فوق كتفه بحذر، قاضماً غطاء قلمه وهو يتساءل إن كان قد سمع ما قاله. وللتعويض عما قاله، صاح: "لا بأس بأولئك المكفوفين. فالعمى لا يُعتبر مشكلة، يمكنهم القيام بأمور عدّة بأيديهم. وهناك العديد من الأعمال الصغيرة للصغار أيضاً".

فتجاهله رجال الشرطة بسبب قيامهم بأعمال المطاردة. ومع انحسار حالة الذُّعر الأساسية، رضخ المتسوّلون بوداعة. كان معظمهم قد تعرّض في السابق للاحتجاز من قِبَل الشرطة خارج المؤسسات أو المساكن بعد قيام أصحابها بدفع بقشيش لرجال الشرطة لإزالة المناظر القبيحة من أمامها. وفي بعض الأحيان، كان رجال الشرطة يقومون بجمع المتسوّلين هناك، وينتظرون بلهفة طلب النقل المُربِح.

جرى تعداد قاطني الأرصفة المصطفّين بجانب الشاحنة، وطُلب منهم إعطاء أسمائهم التي سجّلها معقب المعاملات على لوحه اليدوي إضافةً إلى الجنس، والعمر، والحالة الجسدية. وبقي رجل عجوز صامتاً لأنه نسي اسمه. فصفعه شرطي وسأله مجدداً، وكان رأسه وهو يبكي يميل من جانب إلى آخر مع كل صفعة.

فحاول أصدقاؤه المساعدة، ذاكرين مختلف الأسماء التي دأبوا على مناداته بها: "بورفي! بيفدا! أربع وعشرون!". واختار معقب المعاملات بورفي، وأضاف الاسم إلى جدول الخِدمة. وفي خانة العمر، سجّل ما يوحي به مَظهر العجوز.

كانت هناك صعوبة أكبر في التعاطي مع الثملين والمصابين باختلال عقلي الذين رفضوا التحرك مُطلقين الشتائم على نحو غير مترابط، مما حمل رجال الشرطة على الضحك. بعد ذلك، بدأ رجل ثمل بأرجحة قبضتَي يدَيه بقوة، وصاح: "كلاب مسعورة! أبناء فاسقات سقيمات!". فتوقف رجال الشرطة عن الضحك، وتوجّهوا نحوه بهراواتهم؛ وعندما سقط، استخدموا أقدامهم.

قال معقب المعاملات مناشداً: "توقفوا، رجاءً توقفوا! كيف سيعمل إذا كسرتم عظامه؟".

"لا تقلق، هؤلاء الأشخاص أعوادهم صلبة. ستنكسر هراواتنا، أما هم فلا". ورُمي الثمل فاقد الوعي داخل الشاحنة. وعلى الرصيف، كانت النقاشات تُفَضّ بتوجيه ضربات بالهراوات على الكلى، وعلى الجماجم في حالات الجدال المُفرط.

قال معقب المعاملات للرقيب كيسار، معترضاً: "هذه ليست أضراراً غير مرئية! انظر

إلى كل تلك الدماء!".

"إنـه أمـر ضـروري أحيانـاً"، قـال الرقيـب كيسـار، ولكنـه ذكّـر رجالـه بكبـح جماح حماستهم وإلا طالت مهمتهم مع دخول أطباء وضِمادات وتقارير على الخط.

فتساءل الخياطان اللذان كانا لا يزالان مختبئين داخل مدخل الصيدلية عما يحدث: "هل يغادرون؟ هل انتهوا؟".

قال الحارس الليلي: "يبدو الأمر كذلك". شُغّلت محرّكات العربات. "جيد، يمكنكما العودة للنوم مجدداً".

تحقق الرقيب كيسار ومعقب المعاملات من جدول الخدمة، وقال الأخير: "عددهم أربعة وتسعون. نحتاج إلى اثنين آخرين لبلوغ العدد المطلوب".

"فـي الواقـع، عندمـا قلـت ثمانـي دزينـات، كنت أُعطـي رقماً تقريبياً. حِمل شـاحنة واحدة. ألا تفهم؟ كيف يمكنني أن أتوقع مُسبَقاً عدد الذين سنمسك بهم؟".

"لكنني قلت لمقاولي ثماني دزينات. سـيظن أنني أغشـه، أليس كذلك. ألا يمكنك البحث عن اثنين إضافيَّين؟".

قال الرقيب كيسار بسأم: "حسناً، لِنَعثر على اثنين إضافيَّين". وفكّر في سرّه أنّه لن يتعامل مع هذا الشخص مرة أخرى لأنه يُعوِّل ويئنّ بلا توقف ككلب ضُرب بالسَّوط. لو لم تكن المسألة مرتبطة بدفع تكلفة الدروس التي تتلقاها ابنته على آلة السيتار، لَتخلّى من دون تلكّـؤ عـن هـذه المهام الإضافية بعد سـاعات العمـل المعتادة. لقد كان عليه التعامل مـع حثالـة كمعقـب المعامـلات، إضافةً إلى السـهر حتى وقت متأخر من الليل مما يحول دون نهوضه قبل الفجر وممارسة ساعة من اليوغا كالمعتاد. لا عجب من شعوره بالغضب بسـرعة في هذه الأيام، ومن معاناته من كل هذه الحموضة في معِدته. ولكن، هل هناك خيار آخر؟ من واجبه تعزيز احتمالات زواج ابنته.

سـمع الخياطـان والحـارس الليلـي اقتراب وقع الأقدام والتلويـح بالهراوات. وألقى ظلاّن من دون وجه نظرة على المدخل. "من هناك؟".

"لا بأس، لا تقلقا، أنا الحارس الليلي و...".

"اصمـت واخرجـوا! كلكـم!"، قـال الرقيب كيسـار بعد أن أفقـده معقب المعاملات القدرة على الصبر.

نهض الحارس الليلي عن كرسـيّه، ووجد أنه من الأفضل له عدم أخذ هراوة الليل معه، وخرج إلى الرصيف. وأشار إلى الخياطَين: "لا تقلقا، سأشرح لهما الأمر".

قال إيشفار مزرّراً قميصه: "لم نقم بأي عمل غير صحيح".

"في الواقع، النوم في الشارع خرق للقانون. احملا أمتعتكما وتوجّها إلى الشاحنة".

"لكن، يا صديقي، نحن ننام هنا لأن رجالك قدموا مع آلياتهم ودمّروا حيّنا الفقير".

"ماذا؟ كنتما تعيشان في حيّ فقير؟ إذاً، قد تحصلان على عقوبة مزدوجة".

قال الحارس الليلي مقاطعاً: "ولكن، يا صديقي، لا يمكنكما اعتقالهما، لم يكونا نائمَين في الشارع، كانا داخل هذا...".

حذّر الرقيب كيسار: "هل تفهم ماذا يعني إغلاق الفم؟ أم تريد أن تكتشف ماذا يعني السجن؟ النوم في أي مكانٍ غير مخصص للنوم أمر غير قانوني. إنه مدخل وليس مكاناً للنوم. ومن قال إنهما سيُعتقلان؟ الحكومة ليست مجنونة لتسجن المتسوّلين". وتوقف بشكل مفاجئ متسائلاً عن سبب إلقائه خُطبة.

قال أوم: "ولكننا لسنا متسوّلَين! نحن خياطان. انظر، هذه الأظفار الطويلة مخصصة لصنع درزات مستقيمة، ونعمل لدى...".

"إذا كنتما خياطَين ادرزا فمَيكما! كفى. توجّها إلى الشاحنة!".

أشار إيشفار إلى معقب المعاملات: "إنّه يعرفنا، قال إن باستطاعته أن يبيعنا بطاقة تموين لقاء مئتَي روبيّة، تُدفَع بالتقسيط و...".

سأل الرقيب كيسار ملتفتاً إلى معقّب المعاملات: "ماذا عن بطاقات التموين؟".

فهزّ معقب المعاملات رأسه: "إنهما يخلطان بيني وبين شخص غشاش يشبهني".

قال إيشفار: "إنه أنت! كنت تعطس وتسعل، وتخرج الإفرازات من أنفك كحالك الآن!".

أومأ الرقيب كيسار إلى أحد رجال الشرطة الذي وجّه ضربة بهراوته على ربلتَي ساقَي أوم فصرخ.

قال الحارس الليلي مناشداً: "لا، رجاءً، من دون ضرب. لا بأس، سيُذعنان لكم". وربّت على كتفَي الخياطَين. "لا تقلقا، هناك خطأ ما بالتأكيد. اشرحا الأمر للمسؤولين، وسيطلقون سراحكما".

رفع الشرطي هراوته مجدّداً، وشرع إيشفار وأوم بدحرجة عدة النوم، وعانقهما الحارس الليلي قبل اقتيادهما. "عودا قريباً. سأحتفظ بهذا المكان لكما".

فحاول إيشفار للمرة الأخيرة: "لدينا عمل حقاً، نحن لا نتسوّل...".

"اخرس". كان الرقيب كيسار يحتسب عائداته من غنيمة الليلة، ولم يكن يجيد الحساب بشكل جيد، وقد أجبرته مقاطعة إيشفار له على إعادة الجمع مجدداً.

صعد الخياطان إلى الشاحنة، ومن ثم أُغلق الباب الخلفي، وثُبّت المزلاج في مكانه.

وجلس الرجال المكلَّفون بمواكبة الشاحنة في سيارة الشرطة. وتحقق معقب المعاملات من العدد النهائي ثم جلس بجانب سائق الشاحنة.

كان يوجد على جوانب الشاحنة المستخدَمة حديثاً لأعمال البناء كُتل متبقّية من الطين والحصى تسبب ألماً للجالسين. سقط الواقفون على بعضهم عندما أعاد السائق الشاحنة إلى الوراء ليستدير ويسلك الطريق الذي جاء منه. وتبعته سيارة الشرطة عن قُرب.

ساروا الفترة المتبقية من الليل وأجسادهم تصطدم ببعضها باستمرار بسبب الارتجاجات والحُفَر. وكان وضع المتسوّل الجالس فوق الدواليب الصغيرة أسوأ من الآخرين، فكان يندفع إلى الوراء بقوة كلما انزلق باتجاه أحدهم. وابتسم للخياطَين بعصبيّة، وقال: "غالباً ما أراكما على رصيفي. لقد أعطيتماني العديد من النقود المعدنية".

أومأ إيشفار بيده طالباً منه نسيان الأمر، ثم قال له: "لماذا لا تنزل عن منصتك؟". ولبّى المتسوّل طلبه بمساعدة أوم، وارتاح جيرانه. وككيس إسمنت غير متحرك، ثبّت اللوح على صدره بيدَيه الخاليتَين من الأصابع، ووضعه بعد ذلك في حضنه المختزَل، مرتجفاً في الليل الدافئ.

صاح ليتغلب على هدير المحرك: "إلى أين يأخذوننا؟ أنا خائف جدًّا. ماذا سيحدث؟".

قال إيشفار: "لا تخف، سنكتشف ذلك لاحقاً، من أين لكَ هذه المنصة الجميلة؟".

"أعطاني إيّاها سيدي وصاحب عملي في مهنة التسوّل. إنها هدية. يا له من رجل لطيف!". لقد زاد الخوف من ارتفاع حدة صوته. "كيف سأعثر على صاحب عملي مجدداً؟ سيعتقد أنني هربت عندما يأتي غداً للحصول على حصته من المال".

"إذا سأل، فسيخبره أحدهم عمّا فعله رجال الشرطة".

"هذا ما لا أستطيع فهمه. لماذا تعتقلني الشرطة؟ يدفع لهم صاحب عملي كل أسبوع ليُسمَح لكل متسوّليه بالعمل من دون التعرض للمضايقة".

قال إيشفار: "إنهم رجال شرطة مختلفون، إنهم شرطة التجميل؛ لقد صدر قانون جديد يقضي بتجميل المدينة. ربما لا عِلم لهم بما يدفعه صاحب عملك".

فهز رأسه: "الجميع يعرفون سيد المتسوّلين". وبدأ يحرّك الدواليب الصغيرة باضطراب، وكأنّ دورانها يريحه، "إنها منصة جديدة أعطاني إيّاها مؤخراً. لقد كُسرت القديمة".

سأل أوم: "كيف؟".

"تعرّضت لحادث. كان هناك منحدر، وسقطتُ عن الرصيف. لقد تعرّضت سيارة

أحدهـم لقليـل مـن الأضـرار". وضحك، متذكـراً الحادث: "هذه المنصـة الجديدة أفضل بكثير". ودعا أوم لمعاينة الدواليب.

قال أوم وهو يحاول إدارة أحدها: " إنّها جيدة. ماذا حلّ بساقَيك ويدَيك؟".

"لا أعـرف بالتحديـد. طالمـا كنت على هذه الحـال. ولكنني لا أتذمر، أحصل على ما يكفيني من الطعام، إضافةً إلى مكان مضمون على الرصيف. صاحب عملي يهتم بكل شـيء". وتفحّص الضِّمادات على يدَيه وقام بفكّها باسـتخدام فمه، فاضطر إلى السـكوت لبضع دقائق. كانت عملية بطيئة وشاقة تتضمن الكثير من حركات العُنُق والفك.

ظهرت راحتا يدَيه، وحكّهما من خلال فركهما بعدة نوم الخياطَين. لقد أراحته خشونة الخَيش من الرغبة في الحكاك. وبدأ بعد ذلك بإعادة ربط الضِّمادات، مُعيداً حركات العُنُق والفك بشـكل معكوس. وحرّك أوم رأسـه تعاطفاً معه - نحو الأعلى والأسـفل ودوراناً، حذارِ، أجل، ودوراناً مرة أخرى - وتوقف عندما شعر بقليل من الغباء، مدركاً ما يقوم به.

"تحمي الضِّمادات بشرتي. فأنا أستخدم يديّ لدحرجة المنصة. من دون ضِمادات، تبدأان بالنزف بسبب احتكاكهما بالأرض".

لقد حمل ذلك الواقع أوم على الشعور بعدم الارتياح. ولكن المتسوّل واصل الكلام مخففاً مـن خوفـه وقلقـه: "لم تكن لـديّ منصة على الدوام. عندما كنـت صغيراً، صغيراً جـداً للتسـوّل بمفـردي، كانـوا يحملونني ويجولون بي. لقد اعتاد سـيد المتسـوّلين، وهو والد صاحب عملي الحالي الذي يعتني بي، استئجاري كل يوم للتسوّل. كان عليّ طلب كبير، ويقول صاحب العمل إنني أحقق له أعلى الأرباح".

وبـدا علـى صوتـه الـذي يشـوبه الذعر بعـض الارتياح لدى اسـتعادته ذكـرى الأيام السعيدة. لقد تذكّر كيف كان المستأجرون يعتنون به ويطعمونه مخافة امتناع صاحب عمله عن القيام بأعمال لهم إذا أهملوه. ولحسن الحظ، كان يبدو كطفل حتى الثانية عشرة من عمره بسبب حجمه الصغير. "كنت طفلاً كسيحاً يكسب قدراً كبيراً من المال من الناس. كان هناك العديد من الثّديّ المختلفة التي رضعتُ الحليب منها خلال تلك السنوات".

وابتسم بمكر، قبل أن يتابع قائلاً: "ليته كان بإمكان النساء الاستمرار في حملي بين أذرعهنّ. فحينها كنت أشعر بمرحٍ أكبر من التنقل طوال اليوم على هذه المنصة وتعريض رِدفَيّ للبلى".

فتفاجأ إيشفار وأوم، ومن ثم ضحكا بارتياح. فالمرور قربه على الرصيف، والتلويح له أو رمي قطعة نقود معدنية شـيء، والجلوس بجانبه وإطالة الكلام عن تشـوّهاته شـيء آخر؛ ومُحزن تماماً. لقد شعرا بالسعادة لأنه قادر على الضحك أيضاً.

"علـى الأقـل، بقـي لي وجهي الطفولي وحجمي الطفولـي. لم يعد بالإمكان حملي بسبب ازدياد وزني. حدث ذلك عندما أرسلني سيدي وصاحب عملي للتسوّل بمفردي. كان عليّ جرّ نفسي على ظهري".

وأراد توضيح الأمر، ولكن لم يكن هناك متّسـع من المكان في الشـاحنة المكتظة. ووصف كيفية قيام صاحب عمله بتدريبه على تقنية التسوّل كما يدرّب كل متسوّليه بلمسة شخصية، معلّماً إيّاهم أساليب متنوّعة لمختلف الحالات. "يحب سيدي وصاحب عملي المزاح، وهو يقول إنه كان لِيمنحنا إجازات جامعية لو كان لدينا جدران نعلّقها عليها".

ضحك الخياطان مجدداً، وأشـرق وجه المتسـوّل من شـدة السـرور. لقد اكتشـف موهبة جديدة لديه. "وهكذا، تعلمت الزحف على ظهري، مسـتخدماً مِرفقَيّ. كنت بطيئاً في التقدم، وكنت أدفع صفيحة التسـول المعدنية إلى الأمام أولاً، ومن ثم أتبعها متلوّياً. كان الأمر فعالاً، وكان الناس ينظرون إليّ بشفقة وفضول. وفي بعض الأحيان، كان الفتيان والفتيـات يظنّـون أنهـا لعبـة ويحاولـون تقليدي. كان هناك مقامـران يراهنان كل يوم على المـدة التـي يتطلّبهـا الأمـر لأبلغ نهاية الرصيف، وكنـت أتظاهر بعدم معرفة ما يقومان به. ويقوم الفائز برمي المال في صفيحتي.

"ولكن، استغرقني الأمر وقتاً طويلاً لأبلغ مختلف الأماكن التي خصّصها لي صاحب العمـل. صباحـاً، ظهراً، ومسـاءً؛ في أثناء زحمة دخـول المكاتب، وزحمة الغداء، وزحمة التسـوق. وهكذا، قرر أن يوفر لي منصة. يا له من رجل لطيف! لا يمكنني الإطراء عليه قدر ما يستحق. في ذكرى مولدي، يحمل لي الحلوى، ويصطحبني أحياناً إلى بنت هوى. في فريقه العديد من المتسـوّلين، ولكنني المفضَّل لديه. عمله ليس سـهلاً، فهناك الكثير مما يتعيّن عليه القيام به. هو يدفع للشرطة، ويعثر على أفضل مكان للتسوّل، ويتأكد من عدم اسـتيلاء أحدهم على ذلك المكان. عندما يكون هناك صاحب عمل جيد يهتم بك، فلا يجرؤ أحد على سرقة مالك. إنها المشكلة الكبرى، السرقة".

فتأفف رجل في الشاحنة وقام بدفع المتسوّل بخشونة وهو يقول: "تزعق كهر يحترق. لا أحد مهتم بالاستماع إلى أكاذيبك".

فلزم المتسـوّل الصمت لبضع دقائق، معدِّلاً ضِماداته ولاهياً بالدواليب. وبدأ رأسـا الخياطَيـن النَّعِسَـين بالتدلـي، وكان ذلـك بمثابة إنذار بالنسـبة إليه. فـإذا نام صديقاه يغدو بمفرده في زحمة ليله المروِّع، فأكمل قصته لمنعهما من النوم.

"كذلك، كان يجب على سيدي وصاحب عملي أن يكون خصب الخيال. فإذا كان لدى كل المتسوّلين الإصابات نفسها، يعتاد الناس الأمر، ولا يشعرون بأي شفقة. فالناس

يحبـون رؤيـة تشـكيلة متنوعة من الإصابـات. وبعض الجروح مألوفة جداً ولـم تعد تحرّك المشاعر. على سبيل المثال، إن إطفاء عينَي طفل لن يُكسب مالاً على الفور. فالمتسوّلون العميان موجودون في كل مكان. ولكن، بوجود ضرير يفتقر إلى مقلتَي عينَيه، وفي وجهه تجويفان، وأنفه مبتور، يقوم أي شـخص بمنحه المال. والأمراض مفيدة أيضاً. إن تورّماً كبيراً في العُنُق أو الوجه ينزّ قَيحاً أصفر أمر يُكسب مالاً وفيراً.

أحياناً، يصبح الناس العاديون متسـوّلين إذا لم يجدوا عملاً، أو إذا أصيبوا بمرض. ولكـن، لا فرصـة لديهـم لتحقيق أي نجـاح مقارنةً بالمحترفين. فكّرا في الأمر فقط... إذا كانت لديكما قطعة نقدية تريدان وهبها، وعليكما الاختيار بيني وبين متسـوّل آخر سـليم الجسم، فمن ستختاران؟".

تكلّـم الرجـل الـذي دفعه بخشـونة، قائـلاً: "أغلق فمك، أيها السـعدان، أنا أحذّرك! وإلا رميتـك علـى قارعـة الطريـق! في هذه الظروف، لا نريد الاسـتماع إلى هرائك! لماذا لا تقوم بعمل شريف مثلنا؟".

"ما هو عملك؟". استعلم إيشفار بتهذيب لتهدئة رَوعه.

"أجمع المعادن وأبيعها بالوزن. ولزوجتي المسـكينة المريضة عملها الخاص؛ فهي تجمع قِطع القماش البالية".

قال إيشـفار: "جيد جداً، ولدينا صديق يجمع الشـعر، عِلماً أنه انتقل للعمل كمروِّج للتخطيط العائلي".

قال المتسوّل: "أجل، كل ذلك جيد. ولكن، قل لي، كيف أجمع المعادن من دون ساقَين أو أصابع، كيف يمكنني تدبّر أمري؟".

"لا تبتدِع أعذاراً. في مدينة كبيرة كهذه، هناك عمل حتى لجثة هامدة. ولكن، عليك أن تكون راغباً في العمل وأن تنظر إلى الأمر بجدّية. أنتم المتسـوّلون مصدر إزعاج في الشوارع، ولذلك تسبب الشرطة المتاعب للجميع حتى لنا نحن الذين نكدّ في العمل".

"من دون وجود متسوّلين، كيف سيمحو الناس خطاياهم؟".

"من يهتم؟ نحن نقلق بشأن العثور على ماء لغسل أبداننا!".

ارتفعـت وتيـرة النقـاش، وكان المتسـوّل يصـرخ بحـدة، وجامع المعـادن يصيح في وجهـه. وبـدأ الـركاب الآخـرون يتخـذون جانب هذا أو ذاك. فاسـتيقظ الثملون وشـتموا الجميع.

في النهاية، حملت حالة الاضطراب سائق الشاحنة على التوقف على جانب الطريق. قال متذمراً: "لا أسـتطيع القيادة مع هذا القدر من الإزعاج، ستتسـببون لنا بحادث أو ما

شابه".

أضاءت مصابيح الشاحنة الأمامية حافّة صخرية وحُزمة من العشب. وساد الصمت الشاحنة. كانت الظلمة حالكة من الجانبَين، ولا يمكن رؤية أي شيء؛ وراء المناكب الهزيلة، كان باستطاعة الليل إخفاء تلال، أو حقول فارغة، أو غابة كثّة، أو مسوخ.

فوقف شرطي أمام ضوء المصابيح لتحذيرهم: "إذا صدر عنكم مزيد من الضجيج، فستتعرضون للضرب، وسترمون هنا في الخارج، في الدَّغل، بدلاً من اصطحابكم إلى منازلكم الجديدة الجميلة".

بدأ المتسوّل بالبكاء: "أشعر مجدداً بخوف شديد". واستغرق بعد قليل في النوم بسبب الذهول والإنهاك.

فقد الخياطان كل رغبة في النوم، وتساءل إيشفار عما يمكن أن يحدث عندما لا يعودان إلى العمل في الصباح. "تأخير في إنجاز الملابس للمرة الثانية في غضون شهرَين. ماذا ستفعل السيدة دينا؟".

قال أوم: "ستبحث عن خياطَين آخرَين، وتنسى أمرنا. هل لديها خيار آخر؟".

حوّل الفجر سواد الليل إلى لون رمادي، ومن ثم إلى زَهري، عندما غادرت الشاحنة وسيارة الشرطة الطريق العام وسلكتا طريقاً قذراً، وتوقفتا خارج قرية صغيرة. فُتح الباب الخلفي للشاحنة، وطُلب من الركاب الاستجابة لنداء الطبيعة. ولكن التوقف جاء متأخراً بالنسبة إلى بعض الأشخاص.

مال المتسوّل على أحد رِدفَيه في أثناء قيام أوم بوضع المنصة تحته. وسحب نفسه بواسطة يديه إلى حافة الشاحنة ولوّح براحة يده المضمَّدة لشرطيَّين. فأدارا ظهرَيهما وأشعلا سيجارتَين. فقفز الخياطان وأنزلاه على الأرض وتفاجأا من وزنه الخفيف.

لقد استخدم الرجال جانباً من الطريق، وجلست النساء القرفصاء في الجانب الآخر. وانتشر الفتيان والفتيات في كل مكان، فيما بكى الأطفال الجائعون فأطعمهم أهلهم من رُزم الموز والليمون الناضجة جزئياً، ومن فضلات الطعام التي عثروا عليها بين النفايات في الليلة السابقة.

تولّى معقب المعاملات مهمة إعداد الشاي؛ فجهّز مطبخاً مؤقتاً بالقرب من الشاحنة، وأشعل النار لتسخين قِدر من الماء، والحليب، والسكّر، وأوراق الشاي؛ كان الجميع يراقبونه بتَوق. ونشرت الشمس أشعّتها برِفق بين الأشجار، بالغةً السائل الذي بدأ يغلي بعد دقائق، وبات جاهزاً للتقديم في طاسات خزفية صغيرة.

في غضون ذلك، انتشر خبر وصول الزائرين في أنحاء القرية الصغيرة بسرعة،

وتجمّع سكانها حولهم لمشاهدتهم. لقد شعروا بالفخر عندما رأوا السرور على وجوه المسافرين الذين يرتشفون الشاي. ورحّب زعيم القبيلة بمعقب المعاملات، وطرح عليه الأسئلة الودودة المعتادة التي تتبادر إلى ذِهن القرويّ حول هويّة الزائرين، والمكان الذي أتوا منه، وسبب قدومهم، مُعرباً عن استعداده لتقديم المساعدة والنُّصح.

فطلب منه معقب المعاملات الاهتمام بشؤونه، وإعادة سكان القرية إلى أكواخهم وإلا قامت الشرطة بتفريقهم، فغادر الحشد بعد أن شعر الجميع بالإهانة بسبب السلوك الفظ.

استُنفد الشاي، وأُعيدت الطاسات الخزفية الصغيرة إلى المطبخ. وشرع معقب المعاملات بتحطيمها بالطريقة المعتادة، في حين هبّ بعض قاطني الأرصفة فطرياً لإنقاذها. "انتظر، انتظر! سنحتفظ بها إذا لم تكن تريدها!".

لكن معقب المعاملات نهاهم عن ذلك قائلاً: "حيث تذهبون، سيتم إعطاؤكم كل ما تحتاجون إليه". وطُلب منهم العودة إلى الشاحنة. خلال توقّفهم، طالت الشمس رؤوس الأشجار، وساد دفء الصباح بسرعة. وأجفل هدير المحرك الطيور التي غادرت أغصان الأشجار مشكّلةً سحابة مرفرفة.

في وقت متقدّم من اليوم، وصلت الشاحنة إلى مشروع للرّيّ حيث أنزل معقب المعاملات الأشخاص البالغ عددهم ستة وتسعين فرداً. وقام مدير المشروع بعدّهم قبل التوقيع على إيصال الاستلام. وكان هناك رجال أمن تابعون لموقع العمل، فغادرت سيارة الشرطة.

طلب منهم نقيب المجموعة الأمنية إفراغ جيوبهم، وفتح رِزمهم، ووضع كل شيء على الأرض. وقام اثنان من رجاله بتمرير أياديهم فوق ملابس كل منهم في بحث جسدي، وتفحّصا كومة الأغراض. لم يكن هذا الأمر يتطلب الكثير من الوقت بما أن نصف الأشخاص متسوّلون، شبه عراة، ومقتنياتهم ضئيلة. ولكن هناك نساء أيضاً، لذلك مرّ بعض الوقت قبل أن ينتهي الحرّاس من عملية التفتيش.

فصادروا المفكّات، والملاعق، وقضيباً فولاذيّاً بطول اثنتي عشرة بوصة، وسكاكين، ولِفافة أسلاك من النحاس الأحمر، وملقطاً، ومشطاً أسنانه كبيرة ومستدقة الرأس. وقام أحد الحراس باختبار مشط أوم البلاستيكي من خلال ليّه، فانكسر إلى جزءَين، وسُمح له بالاحتفاظ بهما. فقال له أوم: "لا يُفترض بنا أن نكون هنا، عمّي وأنا".

فدفعه الحارس إلى الوراء للعودة إلى الصف قائلاً: "تحدّث إلى كبير العمال إذا كانت لديك أي شكوى".

مُنح ذوو الملابس البالية سراويل قصيرة وقمصاناً داخلية، أو تنانير داخلية وكنزات. ولم يحصل متسوّل المنصة سوى على قميص داخلي فقط لأنهم لم يتمكنوا من العثور على ما يلائم نصفه السفلي المبتور والمقمَّط. ولم يحصل إيشفار وأوم على أي ملابس جديدة، على غرار جامع قِطع القماش البالية وجامع المعادن. وشعر هذا الأخير بالمرارة، معتبراً الأمر غير مُنصف، ولا سيما بعد مصادرة العديد من أغراضه ذات الحروف القاطعة. ولكنّ الخياطَين وجدا الثياب الجديدة غير مدروزة بشكل صحيح، وفضّلا ما يرتديانه.

تم اصطحاب المجموعة إلى صف من الأكواخ الصفيحية، على أن يشغل كلّ اثني عشر شخصاً واحداً منها. فهرع الجميع إلى أقرب ملجأ من تلك الملاجئ المتشابهة، وتدافعوا لدخوله. فأخرجهم الحارس، وحدد أماكن للجميع بشكل عشوائي. كان يوجد داخل كل كوخ كدسة من بُسط القش الملفوفة. فقام بعضهم بفرشها واستلقوا عليها، ولكن كان عليهم النهوض مجدداً. فقد طُلب منهم وضع مقتنياتهم داخل الأكواخ والتجمع مجدداً للقاء كبير العمال.

كان يبدو على المُراقب الانزعاج بعد أن تعرّق كثيراً، غير أنّه رحّب بهم في منازلهم الجديدة، ووصف ببضع دقائق المشروع السخي الذي وضعته الحكومة للنهوض بالفقراء والمشردين. "وهكذا، نأمل أن تستفيدوا من هذا المخطط. والآن، لا تزال هناك ساعتان للعمل، ولكن يمكنكم الاستراحة اليوم. ستبدأون بأعمالكم الجديدة صباح غد".

سأل أحدهم عن الراتب وعما إذا كانوا سيتقاضونه يومياً أو أسبوعياً.

فمسح كبير العمال العرق عن وجهه، وتنهد محاولاً توضيح الأمر مجدداً: "ألم تفهموا ما قلته؟ ستُمنحون الطعام والمأوى والثياب. هذا هو راتبكم".

انطلق الخياطان متلهّفَين لشرح سبب وجودهما العرَضي في مشروع الرّيّ. ولكن مسؤولَين وصلا إلى المراقب أولاً واصطحباه إلى اجتماع. وكان على إيشفار الاختيار بين اللحاق به أم لا، فهمس في أُذُن أوم: "من الأفضل الانتظار حتى الصباح. فهو شديد الانشغال الآن، وقد يُغضبه ذلك. ولكن، من الواضح أن الشرطة أخطأت بحقنا. هذا المكان هو للعاطلين عن العمل. سيدعوننا نذهب عندما يعلمون أننا نعمل بالخياطة".

لقد غامر بعض الأشخاص بالاستلقاء داخل أكواخهم، واختار آخرون فرش بُسطهم في الخارج. كانت الجدران الصفيحية تجعل الأكواخ ملتهبة بحرارة شديدة بسبب أشعّة الشمس المسلّطة عليها طوال اليوم، ولكن المعدن المضلّع كان يُلقي بظل أكثر برودة.

عند الغسق، انطلقت الصفارة وعاد العمال من أعمالهم. وبعد ثلاثين دقيقة انطلقت مجدداً، فتوجّهوا إلى منطقة تناول الطعام في المعسكر. وطُلب من القادمين الجدد الذهاب

معهم. فاصطفوا خارج المطبخ للحصول على وجبة العشاء: طبَق من الحساء وتشوباتي، وفلفل أخضر بجانبه.

قال أوم: "الصلصة كالماء تقريباً".

فسمعه مقدّم الطعام واعتبر الأمر شخصياً: "هل تظن أنه قصر والدك؟".

قال أوم: "لا تذكر اسم والدي".

قال إيشفار، مُبعداً إيّاه: "هيا، لنذهب. غداً، سنُخبر المسؤول عن الخطأ الذي ارتكبته الشرطة".

أنهيا طعامهما بصمت، مركّزَين كالجميع على الأخطار الداهمة التي يُخفيها الطعام. كانت التشوباتي مصنوعة من دقيق حَصَويّ، لذا، كان عليهما الانتباه جيّداً، وبصق حَصى صغيرة وأجسام غريبة أخرى بين الحين والآخر. أما الجزيئات الصغيرة فقد سحقت مع الطعام من دون أن يكون بالإمكان اكتشافها.

* * *

قالت دينا لمانيك بعد أن أنهيا تناول الفطور: "كان يُفترض بهما أن يصلا منذ ساعة".

ها هي تتذمّر من ذَينك المسكينَين مجدداً، قال لنفسه وهو يجمع الكتب التي كان بحاجة إليها للمقررات الدراسية في ذلك اليوم. "هل الأمر على هذه الدرجة من الأهمية لا سيّما وأنه عمل بالقطعة؟".

"ماذا تعرف عن إدارة العمل؟ والدتك ووالدك يدفعان نفقاتك وأقساطك المدرسية، ويرسلان إليك مصروفك. انتظر حتى تبدأ بالعمل لكسب معيشتك".

عندما عاد بعد الظهر، كانت تذرع المكان ذهاباً وإياباً. وما إن سمعت صوت دخول المفتاح في ثُقُب الباب حتى أدارت المِقبض وفتحته. قالت له متذمرة: "لا أثر لهما طوال اليوم، أتساءل عن عُذرهما هذه المرة. أهو اجتماع آخر مع رئيسة الوزراء؟".

مع حلول المساء، حلّ القلق محلّ نبرتها التهكمية: "حان موعد تسديد فاتورة الكهرباء وفاتورة الماء، وشراء الحصص الغذائية. وسيصل إبراهيم في الأسبوع القادم لقبض الإيجار. لا فكرة لديك كم يكون مزعجاً".

استمرت مخاوفها في التفاعل كعُسر الهضم بعد العشاء. ماذا سيحدث إذا لم يأتِ الخياطان في اليوم التالي أيضاً؟ كيف ستحصل على خياطَين آخرَين بالسرعة الكافية؟ ولا تكمن المشكلة في تأخر تسليم الملابس فقط؛ إذ من شأن إرجاءٍ آخر أن يُغضب إمبراطورة أوروفوار إكسبورتس المقتدِرة بشدة. هذه المرة ستضع المديرة بجانب اسمها ملاحظة لا

يمكن الاعتماد عليها. وشعرت دينا أنه يُفترض بها الذهاب ربما إلى فينوس بيوتي سالون، والتحدث إلى زنوبيا، والطلب منها مرة أخرى استخدام نفوذها لدى السيدة غوبتا.

قال مانيك: "لن يبقى إيشفار وأوم غائبَين على هذا النحو، لا بد من أن أمراً طارئاً حال دون قدومهما".

"هراء. ما الأمر الطارئ جداً الذي يحول دون قيامهما بإبلاغي؟".

"ربما ذهبا للبحث عن غرفة للإيجار أو ما شابه. لا تقلقي يا خالتي، ربما يأتيان غداً".

"ربما؟ ربما ليست جيدة بما يكفي. لا يمكنني ربما تسليم الملابس ودفع الإيجار ربما. أنت لا تتحمل أي مسؤولية، ولا تعي ذلك على الأرجح".

فاعتبر ثورة الغضب غير مُنصفة: "إذا لم يأتيا غداً، فسأذهب وأستعلم عنهما".

قالت وقد أشرق وجهها: "أجل، من الجيد أنك تعرف مكان إقامتهما". وانخفضت حدة قلقها، ومن ثم قالت: "لنقم بزيارتهما في الحال. لماذا نمضي الليل بأكمله قلقَين؟".

"ولكنك تقولين على الدوام إنك لا تريدينهما أن يظنا أنك يائسة. إذا ركضتِ إلى منزلهما في الليل، فسيعرفان أنك عاجزة عن تدبّر شؤونك من دونهما".

قالت مؤكِّدة: "أنا لست كذلك. إنّ الأمر لا يعدو عن كونه مجرد صعوبة إضافية أخرى في الحياة". ولكنها قررت الانتظار حتى الصباح، موافقةً إيّاه الرأي بأنه يُفترض به التحقق من أمرهما قبل الذهاب إلى الكلّية. كانت شديدة القلق حيث إنها لم تستطع مواصلة العمل على اللحاف؛ وظلّت كُوَم المربعات وقصاصات القماش مُلقاة على الأريكة.

عاد مانيك من الصيدلية راكضاً ومسعوراً. وأبطأ قرب فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل لإلقاء نظرة سريعة، آملاً أن يرى إيشفار وأوم يرتشفان الشاي في الصباح، ولكنه كان فارغاً. ووصل إلى الشقة لاهثاً، وكرر لدينا رواية الحارس الليلي.

"إنّه أمر رهيب! ظنّوا أنهما متسوّلان، وتم سحبهما إلى داخل شاحنة الشرطة، والله يعلم أين هما الآن!".

"لقد فهمتُ"، قالت متحققةً من صحة الرواية: "وكم تدوم مدة سجنهما؟ أتدوم أسبوعاً أم أسبوعين؟". إذا كان هذان الوغدان يجرّبان عملاً جديداً في مكان ما، قالت لنفسها، فإنها الطريقة الفضلى للقيام بذلك.

"لا أعلم". وبسبب قلقه، لم يلاحظ التهكم في سؤالها. "ليس هما فقط. لقد اقتادت الشرطة كل من في الشارع من متسوّلين وقاطنين على الرصيف".

"لا تُضحكني، لا وجود لقانون يسمح بذلك".

"إنها سياسة جديدة؛ مخطط تجميل المدينة أو ما شابه، وفقاً لحالة الطوارئ".

"أي حالة طوارئ؟ لقد سئمتُ تلك الكلمة الغبية". ومستمرةً في ارتيابها من صحة الرواية، أخذت نفساً عميقاً وقررت أن تكون صريحة: "مانيك، انظر إليّ، إلى عينَيّ مباشَرةً". وقرّبت وجهها من وجهه. "مانيك، أنت لا تكذب عليّ، أليس كذلك؟ لأن إيشفار وأوم صديقاك، وطلبا منك تلفيق هذه الرواية؟".

"أُقسم باسم والدَيّ يا خالتي!". وابتعد عنها مصدوماً. وشعر بعد ذلك بالغضب بسبب الاتهام الموجَّه إليه. "ليس عليك أن تصدّقيني، فكّري في ما يحلو لك. في المرة القادمة، لا تطلبي مني أن أقوم بعملك". وغادر الغرفة.

فتبعته قائلة: "مانيك". فتجاهلها. "مانيك، أنا آسفة. تعرف مدى قلقي على الخياطة. لقد قلتُ ذلك من دون تفكير".

سامحها بعد لحظات قليلة من الصمت. "لا بأس".

يا له من فتى لطيف! قالت لنفسها، إنّه لا يحب الشجار. "كم مضى على نومهما خارج... ما اسمها؟ الصيدلية؟".

"منذ تدمير منزلهما. ألا تتذكرين يا خالتي؟ عندما لم تسمحي لهما بالنوم على شرفتك؟".

فاقشعرّ بدنها بسبب نبرة صوته، وقالت له: "أنت تعرف تماماً سبب اضطراري إلى الرفض. ولكن، إن كنت تعرف ذلك، فلماذا لم تُخبرني؟ قبل حدوث أمر مماثل؟".

"افترضي أنني أخبرتك، فما الذي كان سيتبدّل؟ هل كنتِ ستسمحين لهما بالبقاء هنا؟".

فتجنّبت الإجابة عن السؤال، وقالت: "لا أزال أجد صعوبة في تصديق هذه الرواية. ربما ذلك الحارس يكذب؛ يُخفي الحقيقة لأجلهما. وفي غضون ذلك، يتعيّن عليّ توسّل شقيقي لإعطائي الإيجار".

كان باستطاعة مانيك الشعور بالأمور التي تحاول التلاعب بها وإخفاءها: القلق، الشعور بالذّنب، الخوف. اقترح: "يمكننا التحقق من الأمر لدى الشرطة".

"وما الفائدة من ذلك؟ حتى لو كان الخياطان بقبضتهم، هل تعتقد أنهم سيطلقون سراحهما إذا طلبت منهم ذلك؟".

"على الأقلّ سنعرف مكان وجودهما".

"في الوقت الحاضر، أنا قلقة على هذه الملابس".

"كنت أعرف ذلك! أنت أنانية، لا تفكرين إلا في نفسك!".

"كيف تجرؤ! كيف تجرؤ على التحدث إليّ بهذه الطريقة؟!".

"قد يكونان ميتَين. هذا ما تتمنّينه!". ودخل غرفته، وأغلق الباب بقوة.

"إذا ألحقت الضرر ببابي، فسأكتب إلى والديك! للتعويض، تذكّر!".

ركل حذاءه من قدمَيه، وارتمى على السرير. كانت الساعة التاسعة والنصف، وقد تأخر عن الذهاب إلى الكلّية. كفى لطفاً. قفز من سريره، واستبدل قميصه بلباس منزلي أخرجه من الخزانة. وأصدرت المفصلةُ السُّفلية لباب الخزانة طقطقة، فأغلقه بقوة.

ارتمى على الفراش مرة أخرى، وبدأ يقتفي بإصبعه وبغضب الزخرفة الزهرية المنقوشة على لوح رأس السرير الخشبي. كان السرير التوأم المطابق للسرير الموجود في غرفة الخياطة. سرير الخالة دينا وسرير زوجها... لا بد من أنهما ناما جَنباً إلى جَنب عليهما منذ زمن طويل عندما كانت حياتها مليئة بالسعادة، ويملأ الحبُّ والضحك الشقة، قبل أن تغدو ساكنة وقذرة.

كان باستطاعته سماع خطاها وهي تسير ذهاباً وإياباً في الغرفة المجاورة، وشعر بكَربها من وقع خطاها. كان العمل يسير بشكل جيد منذ أسبوع تقريباً، وأعطت أوم مرهم أمروتانجيان بالم. لقد جعلها تدليك ذراع أوم في مزاج جيد، وبدأت تستعيد الذكريات الماضية حين كانت تدلّك ظهر زوجها، وذكريات حياتهما معاً.

عادت الغرفة تزخر بكل الأمور التي أخبرت مانيك عنها: أمسيات الحفلات الموسيقية الرائعة تلك، وخروجها من القاعة مع راستوم إلى الليل العطِر والشوارع الهادئة... أجل، في تلك الأيام، كانت المدينة لا تزال جميلة، وممرات المشاة نظيفة وخالية من قاطني الأرصفة. وكانت النُّجوم مرئيّة في السماء عندما كانت تسير مع راستوم على امتداد البحر وهما يستمعان إلى الموج المتدفق والمنحسر، أو يسيران في الحدائق بين الأشجار يخططان لزواجهما وحياتهما، جاهلَين تماماً الخطط التي يُعدّها لهما القدَر.

كم استمتعت الخالة دينا بذكرياتها. كانت والدته ووالده يتحدثان أيضاً عن الأمس، ويبتسمان بتلك الطريقة الحزينة-السعيدة في أثناء التطرق إلى كل صورة وإطار من الماضي، متمعّنَين بها بودٍّ قبل أن تختفي مجدداً في الضباب. كان يعلم جيّداً أنّهما لا ينسيان شيئاً من ذلك، عِلماً أنهما يتظاهران بذلك أحياناً عندما يكون الأمر مناسباً لهما. فالذكريات لا تزول، وتبقى تلك المليئة بالأسى حتى مع مرور الوقت، ولا يمكن أبداً استعادة الذكريات السعيدة كما كانت، واستعادة الشعور بالفرح الذي رافقها. فللتذكر سرّه الغريب الخاص به، ويبدو الأمر غير مُنصف بسبب تحوّل الحزن والسعادة إلى مصدر ألم.

إذاً، ما الفائدة من امتلاك ذاكرة؟ فهي لا تساعد في أي شيء ولا أمل يُرجى منها. وهو حين ينظر إلى والدته ووالده والمتجر العام، أو يفكّر في حياة الخالة دينا، أو النُّزل وأفيناش، والآن إيشفار وأوم المسكينَين، فليس بإمكان تَذكُّر الأيام السعيدة، أو مقدار كبير من الشَّوق أو الحنين، تغيير البؤس والمعاناة؛ فالحب والقلق والاهتمام والمشاطرة لا تأتي بأي نتيجة.

شرع مانيك بالبكاء، وكان خدّه يتحرك صعوداً ونزولاً خلال بذله جهداً لعدم إصدار أي صوت. لقد انتهى كل شيء على نحو سيّئ، والذكريات المعذِّبة والساخرة تزيد الأمر سوءاً، ما لم تفقد عقلك أو تنتحر. حينذاك، لا مزيد من التذكر أو المعاناة.

مسكينة الخالة دينا، إنها تحمل معها قدراً كبيراً من الماضي، وتخدع نفسها معتبرةً ذكرياتها ذكريات سعيدة. وهناك الآن مشاكل الخياطة، والإيجار، والتموين...

لقد شعر بالخجل من ثورة غضبه. فنهض من السرير، وارتدى قميصه، وجفّف عينَيه، وقصد الغرفة الخلفية حيث كانت تجوب سجن ملابسها غير المُنجَزة وذهاباً وإياباً.

سأل بصوت أجشّ: "متى يتعيّن عليك تسليمها؟".

"آه، لقد عدت؟ بعد يومين، عند الساعة الثانية عشرة". وابتسمت لنفسها لأنها توقعت منه أن يبقى مقطَّب الجبين طوال ساعة، ولكنه خرج بعد ثلاثين دقيقة. "تبدو عيناك دامعتَين. هل أنت مصاب بالرَّشح؟".

فهز رأسه، وقال: "أنا مُرهَق فحسب. بعد يومين؛ إنهما يومان كاملان. لديك الكثير من الوقت".

"لخيّاطَين بارعَين، أجل. ولكن ليس حين أكون بمفردي".

"سأساعدك".

"لا تُضحكني. أنت تخيط؟ وأنا بعينَيّ الضعيفتَين. لا أستطيع وضع خاتم زفاف في إصبعي، فكيف سأتمكن من وضع خيط داخل ثقب إبرة".

"أنا جِدّي، يا خالتي؟".

"ولكن، هناك ستون فستاناً، ستة - صفر. صحيح أنه لم يتبقّ سوى الأهداب والأزرار، ولكن لا يزال هناك عمل كثير". والتقطت أحد الفساتين. "هل ترى الخصر المتغضّن؟ يدعى هذا طيّة. الآن، لنَقِسها" - وبسطت شريط القياس - "ست وعشرون بوصة فقط. ولكن، بسبب الطيّ، يبلغ قياس الطرف الأسفل للتنورة، لنرَ، خمساً وستين بوصة، ويجب إنجاز العمل باليد. يتطلب هذا الأمر الكثير من...".

"كيف يكتشفون الأمر إذا استخدمتِ آلة الخياطة؟".

"الفَرق مماثل للفَرق بين الليل والنهار. ومن ثم يجب وضع ثمانية أزرار على كل فستان. ستة من الأمام، وواحد على كل كمّ. أي أن الأمر سيتطلب ساعة عمل لكل فستان لشخص في حالتي، أي ما مجموعه ستون ساعة".

"لدينا ثمانٍ وأربعون ساعة حتى موعد التسليم".

"إذا لم نأكل أو ننام أو ندخل الحمّام، أجل".

"يمكننا المحاولة على الأقل. يمكنك تسليم ما ننهيه، وستَبتَدِع عُذراً قائلَين إن الخياطَين مريضان أو ما شابه".

"إذا كنت راغباً حقاً في المساعدة...".

"أنا راغب في ذلك".

بدأت بالإعداد للعمل، وهي تقول: "أنت فتى صالح، هل تعلم؟ والداك محظوظان جداً لأنهما رُزقا بابن مثلك". ومن ثم أدارت وجهها بشكل مفاجئ وقالت له: "انتظر لحظة، ماذا عن الكلّية؟".

"ليس لديّ محاضرات اليوم".

"حسناً"، قالت بارتياب، واختارت خيطاً. ثمّ نقلا الملابس إلى الغرفة الأمامية حيث كانت الإنارة أفضل. "سأعلّمك كيفية تثبيت الأزرار. فهذا أسهل من خياطة الأهداب".

"أتعلّم ما شئتِ. أنا أتعلم بسرعة".

"أجل، سنرى. أولاً، تأخذ القياس، وتحدد الأمكنة بالطبشورة في خط مستقيم. إنها المرحلة الأكثر أهمية، وإلا بدت الجهة الأمامية ملتوية. الحمد لله لأن هذه الملابس من البوبلين الذي يسهل التعاطي معه، وليست من الشيفون الزَّلِق كما كانت الحال في الشهر الماضي". فاختبرت قدراته الشخصية، مشددةً على ضرورة تقطيب الزر الذي يحتوي على أربعة ثقوب بشكل متوازٍ وليس بطريقة متصالبة.

جرّب الزر التالي. "آه، ليتني أستعيد عينَيّ الفتيّتَين مجدداً". قالت متنهّدةً في أثناء تمريره الخيط بين شفتيه ومن ثم عبر ثقب الإبرة. وكان العثور على ثقوب الزر من الجهة السفلية يتطلب وخزه إصبعه بالإبرة. ولكنه تمكن أخيراً من تقطيب الزر في وقت مناسب، وقصّ الخيط ظافراً.

بعد مرور ساعتَين، أنهيا تثبيت ستة عشر زراً وخياطة ثلاثة أهداب. قالت: "هل رأيت كم يدوم الأمر؟ والآن، عليّ أن أتوقف لإعداد الغداء".

"لستُ جائعاً".

"لستَ جائعاً اليوم، وليست هناك محاضرات اليوم. غريب جداً".

"ولكنها الحقيقة، يا خالتي. انسَي أمر الغداء، لست جائعاً حقاً".
"ماذا عني؟ أمضيت يوم أمس وأنا أشعر بالقلق ولم آكل أي شيء. هل يمكنني الاستمتاع اليوم على الأقل؟".
"العمل قبل الاستمتاع"، وابتسم محدّقاً إلى الزر، وأبعد نظره وألقى نظرة من طرف عينه.
قالت بصرامة مزيَّفة: "هل تخطط لتكون صاحب عملي؟ إذا لم آكل، فلن يكون هناك عمل أو استمتاع، بل إغماء فوق الإبرة والخيط".
"حسناً، سأهتم بأمر الغداء. استمري في درز الحواشي".
"ستصبح سيدة منزل على نحو ملائم. ماذا سيكون الغداء؟ أهو خبز وزبدة؟ أم إنه شاي وشريحة من الخبز المحمّص؟".
"مفاجأة. سأعود قريباً".
وقبل أن يغادر الشقة، جهّز لها ست إبر مع خيطانها ليوفّر عليها مشقة التحديق بعينيها.
قالت دينا موبّخة: "إنه هدر للمال، والداك يدفعان لي لقاء إطعامك".
أفرغ مانيك الطعام الذي اشتراه من مطعم أيه-1 ريستورانت في وعاء، وحمله إلى الطاولة، ثم قال: "إنه من مال الجَيب. بإمكاني إنفاقه كما يحلو لي".
كانت قطع الكَبِد وقوانص الدجاج تطفو بشكل مُغرٍ فوق المَرَق الخاثر والمبهَّر. انحنت فوق الوعاء وشمّت. "الرائحة الزكيّة والرائعة نفسها التي تجعل هذا الطبَق المفضَّلَ لراستوم. فقط مطعم أيه-1 يُعدّه بمَرَق لحم غنيّ، أما في أماكن أخرى فيقدّمونه جافاً". غطست ملعقة، ورفعتها إلى شفتَيها، وأومأت برأسها. "إنّه لذيذ. يمكننا إضافة القليل من الماء بسهولة من دون إفساد المذاق، سيكون كافياً حينذاك للغداء والعشاء".
"حسناً، لقد أحضرتُ هذا خصيصاً لكِ". وسلّمها كيساً.
فوضعت يدها داخل الكيس وسحبت حزمة من الجزر. "هل تريدني أن أطهوها لنا؟".
"ليس لنا يا خالتي. إنها لك لتتناوليها نيئة. هي جيدة لعينَيك لا سيّما وأنهما ستكونان كثيرتي الانشغال الآن".
"شكراً لك، ولكنني أفضّل عدم تناولها".
"لن تأكلي المرق مع الكبد وقوانص الدجاج إن لم تأكلي جزراً. يجب عليك تناول جزرة واحدة على الأقل مع غدائك".

"تكـون مجنونـاً لـو ظننـتَ أنني سـأتناول جزراً نيئاً. حتـى إن والدتي لم تتمكن من حملي على تناوله". وفي أثناء قيامها بإعداد الطاولة، قشّر جزرة متوسطة الحجم، وقطع طرفَيها، ووضعها بجانب طبقها.

قالت: "آمل أن تكون لك".

"لا جزر، لا مَرَق". ورفض تمرير الوعاء لها. "أنا أضع القواعد، لصالحك".

ضحكـت، ولكـنّ لعابهـا سـال في أثناء تناولـه الطعام. وتناولت قطعـة الخضار من طرفها الرفيع كما لو أنها تعتزم ضرب رأسـه بها، وقضمتها بطريقة تنمّ عن ثأر. فابتسـم ابتسامة عريضة، ومرّر لها الطاسة قائلاً: "يقول والدي إن عينه الوحيدة توازي عينَي معظم الناس لأنه يتناول الجزر بانتظام. وهو يدّعي أن تناول جزرة واحدة في اليوم تُبقي العمى بعيداً".

طوال تناول الوجبة، كانت تقطّب حاجبيها كلما قضمت قضمة، وتقول: "الحمد لله على هذا المَرَق اللذيذ، ولولاه لعلق هذا الطعام النيء الخشن في حَلقي".

قال عندما أنهيا تناول الطعام: "الآن، أخبريني يا خالتي، هل تحسنت عيناك؟".

"إنهما جيّدتان بما يكفي لأرى كم أنك شرير".

واصـلا الخياطـة بسـرعة كبيـرة بعد الغـداء، ولكن جفنَي دينـا كادا يُطبَقان في وقت متأخـر مـن بعـد الظهـر فقالت له: "عليّ أن أتوقف عن العمل الآن لأشـرب الشـاي. هل أنت موافق يا صاحب عملي؟".

"خمس عشرة دقيقة فقط، تذكّري. وأحضري كوباً لي أنا أيضاً، رجاءً".

دخلت دينا المطبخ مبتسمة، وهي تهزّ رأسها.

حلّت الساعة السابعة، وبدأت تفكر في العشاء. "حساء الكبد وقوانص الدجاج ذاك الموجود في المطبخ يُشعرني بالجوع قبل الوقت المعتاد. ماذا عنك؟ هل تريد أن نتناول الطعام الآن، أم ننتظر حتى الساعة الثامنة؟".

"متـى شـئتِ". همهـم عبـر شـفتَيه المُطبِقتَيـن على إبرة فارغة. وسـحب خيطاً طويلاً من البَكَرة.

"انظر إلى ذلك! أنت تخيط للمرة الأولى، وها أنت تتصرف كخياط مجنون! أخرجها من فمك على الفور! قبل أن تبتلعها!".

فأخرج الإبرة من بين شفتَيه شاعراً ببعض الخجل. لقد أصابت الهدف. كان يحاول تقليد طريقة أوم الواثقة من خلال وضع أشـياء حادة وخطرة على نحو متهوّر بين شـفتَيه على لحم طريّ لا يتمتع بأي حماية: دبابيس، إبر، شفرات، مقص.

"كيف سأشرح الأمر لوالدتك إذا أعدتُ لها ابنها مع إبرة عالقة في معدته؟".

"لم تصيحي في وجه أوم قطّ بسبب قيامه بذلك".

"الأمر مختلف. إنه مدرَّب، لقد نشأ مع خياطين".

"لا، لم ينشأ مع خياطين. كانت عائلته تصلّح الأحذية".

"لا فَرق. إنهما يعرفان كيف يستخدمان الأدوات للقص والخياطة. إضافةً إلى ذلك، كان يُفترض بي منعه من القيام بذلك. قد ينزف فمه أيضاً". ودخلت المطبخ، وواصل العمل حتى وضعت العشاء على الطاولة.

في منتصف الوجبة، تذكّرت ما قاله عن الخياطَين. "كانا إسكافيَّين؟ لماذا بدّلا مهنتهما؟".

"لقد طلبا مني عدم إخبار أحد. للأمر علاقة بطبقتهما الاجتماعية، هما يخشيان من أن يعامَلا بطريقة سيئة".

"باستطاعتك إخباري. لا أثق بكل تلك العادات الغبية".

هكذا، روى لها بإيجاز القصة التي شاطره إيشفار وأوم إيّاها بالتفصيل على مَرّ الأسابيع، وخلال تناول الشاي في فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل، عن قريتهما، وعن أصحاب الملك الذين أساءوا معاملة الشاماريين طوال حياتهم، وعن الجَلد، والضرب، والقواعد التي يجب على أفراد طبقة المنبوذين الالتزام بها.

فتوقفت عن تناول الطعام، لاهيةً بشوكتها. ووضعت أحد مِرفقَيها على الطاولة، وجعلت ذقنها يتأرجح على قبضة يدها. وفيما كان يروي القصة، انزلقت الشوكة من بين أصابعها، وارتطمت بالطبق. واختتم القصة بسرعة بمقتل والدي أوم وشقيقاته الثلاث وجدَّيه.

سحبت دينا الشوكة قائلة: "لم أعرف قطّ... لم أظن مطلقاً... أن كل روايات الصحف تلك عن الجنون المتعلق بالطبقة العليا والدنيا، ستدنو مني إلى هذا الحد، وفي شقتي. إنها المرة الأولى التي أعرف فيها الناس حقّ المعرفة في الواقع. يا الله! هذا رهيب، يا للعناء الرهيب!". وهزت رأسها كما لو أنها غير مصدِّقة.

حاولت مواصلة الطعام، ولكنها تخلّت عن ذلك، وقالت: "مقارنةً مع حياتهما، تبدو حياتي مُفعَمة بالراحة والسعادة. وها هما يواجهان الآن المزيد من المتاعب. آمل أن يعودا بخير".

خلال قيامها بتنظيف الطاولة، فتح نافذة المطبخ، واصدر صوت مواء، ثم رمى قطعاً من الخبز ممزوجة بمَرَق الكبِد وقوانص الدجاج، آملاً ألا يكون المزيج لاذع الطعم كثيراً.

وعاد إلى غرفة الخياطة والتقط ثوباً آخر، مذكّراً الخالة دينا بالإسراع.

"هذا الفتى يُجَنّ. هو لا يدعني أرتاح ولو لخمس دقائق بعد العشاء. أنا امرأة متقدمة في السنّ ولست شابة مثلك".

"لستِ متقدمة في السنّ أبداً يا خالتي. في الواقع، أنت لا تزالين شابة تماماً، وجميلة".

أجابته وهي عاجزة عن إخفاء سرورها: "وأنت، يا سيد مانيك، تغدو شديد الذكاء".

"هناك أمر واحد يحيّرني".

"ما هو؟".

"لماذا يُفترض بشخص يبدو شاباً تماماً أن يبدو مُسنّاً وكئيباً طوال الوقت".

"أيها الوغد. أنت تمدحني أولاً ومن ثم تهينني". وضحكت خلال طيّ حاشية الثوب وتثبيته بالدبابيس، ورفعِه للتحقق من أن الحافة مستوية. وفيما كانت تعدّل الأطراف قالت: "الآن، يمكنني تقدير أظفار الخياطَين الطويلة حق قَدرها. لقد أصبحتم أصدقاء حقاً، أليس كذلك؟ وهما يخبرانك كلّ شيء عن حياتهما في القرية".

نظر إليها وهز كتفَيه.

"لقد جلسا هنا يعملان يوماً بعد يوم، ولم يقولا أي شيء لي. لماذا؟".

فهز كتفَيه مجدداً.

"توقف عن الكلام بكتفَيك. لماذا تحدثا إليك ولم يتحدثا إليّ؟".

"ربما كانا خائفَين منك".

"خائفَين مني؟ يا لهذا الهراء! أنا التي أخاف منهما، وأخشى من أن يعثرا على شركة التصدير ويحلا مكاني، أو يحصلا على عمل أفضل. أحياناً، كنت أخشى التلميح إلى أخطائهما فأصحح الأخطاء بنفسي في الليل بعد مغادرتهما. لأي سبب يخافان منّي؟".

"يظنان أنك ستجدين خياطَين أفضل وتتخلصين منهما".

فكّرت في الأمر مليّاً بصمت، وللحظات، ثم قالت: "أتمنى لو أنك أخبرتني بذلك من قبل. كان باستطاعتي طمأنتهما".

فهز كتفَيه مجدداً. "لن يبدّل ذلك أي شيء، يا خالتي. كان باستطاعتك إنقاذهما من خلال منحهما مكاناً للنوم".

فألقت الثوب من يدها: "استمر في قول ذلك! استمر، لا تقلق حيال مشاعري! كرّره حتى أُصاب بالعمى من فَرط الشعور بالذَّنب".

وخز مانيك نفسه عندما خرجت الإبرة من الزر فصرخ: "أوتش"، ثم مصّ إبهامه.

"هيا، أيها الفتى قاسي القلب! قل لي إنني مسؤولة، قل لي إنني تركتهما في الشارع لأنني عديمة الشفقة!".

لقد تمنى لو أن باستطاعته إزالة الألم الذي تسببت به كلماته. وتحسّست الحاشية بارتباك، وبدأت بالسعال كما لو أن شيئاً ما علق في حَلقها. لقد بدا سعالاً للفت انتباهه، فأحضر لها كوب ماء.

قالت بعد أن شربت: "أنت مُحق بشأن الجزر. باستطاعتي أن أرى بشكل أفضل".

"إنها أعجوبة!". ورفع يدَيه بشكل مسرحي، راسماً البسمة على وجهها: "الآن، لقد تقمّصت روح ماهاريشي كاروت بابا، وسيفقد كل العاملين في ميدان النظارات الطبية عملهم!".

"كُفَّ عن التغابي"، قالت شاربةً كل محتويات الكوب، "دعني أخبرك بما بات بإمكاني رؤيته بشكل أفضل. عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، قرر والدي الذهاب والعمل في منطقة موبوءة. لقد أقلق الأمر والدتي جداً، وأرادتني أن أبدّل رأيه... فكما ترى، كنت المفضَّلة لديه. بعد ذلك، توفّي والدي خلال العمل هناك، وقالت والدتي إنني لو عملت بنصيحتها لتمكنتُ ربما من إنقاذه".

"لم يكن الأمر منصفاً".

"كان كذلك ولم يكن. كما قلتَ تماماً".

ففهم.

نهضت دينا، ورفعت الكوب عن طاولة العمل، ووضعت الكشتبان والمقص والإبرة في وعاء البورسلان الصغير.

"إلى أين تذهبين، يا خالتي؟".

"إلى أين برأيك؟ إلى حفلة زفاف في لاليا؟ إنها العاشرة، أنا ذاهبة لأنام".

"ولكننا أنهينا ستة عشر ثوباً فقط. وحصة اليوم اثنان وعشرون ثوباً".

"أصغوا إلى المدير الأعلى".

"يقضي مخططي بإنهاء اثنين وعشرين ثوباً اليوم، وثلاثين ثوباً غداً، وثمانية بعد غد، كي يكون بالإمكان تسليم كل شيء ظُهراً".

"مَهلاً يا سيد؟ ماذا عن الكلّية، غداً وبعد غد؟ ماذا عن الدراسة؟ لا أعتقد أنهم يمنحون إجازة جامعية في التبريد إذا خُطتَ أزراراً".

"المحاضرات ملغاة لليومين التاليين".

"صحيح، وأنا أربح يانصيب الولاية في اليوم الثالث".

"انسَي الأمر يا خالتي. أنت ترتابين بي على الدوام". وواصل الخياطة، زافراً وكأنّه شهيد، وجارّاً الإبرة كما لو أن الخيط مصنوع من سلسلة معدنية. "لا بأس، سأستمر في العمل، اذهبي للنوم".

"وأُغفل أداءك الفائز بجائزة الأوسكار؟".

فأسقط زراً، وتأفّف، وانحنى للعثور عليه، متحسساً الأرض بأصابعه كرجل عجوز. قال لها: "هيا يا خالتي، هيا اذهبي وارتاحي، لا تقلقي بشأني". ولوّح بيد مرتجفة.

"قلتَ إنك كنت جيداً في التمثيل، ولكنني لم أظن أنك تُجيده إلى هذا الدرجة. حسناً، لننهِ ثوباً آخر".

لقد بدأت المساوَمة، وجلس بنشاط. "نحتاج إلى إنهاء ستة أثواب إضافية وفقاً لحصة اليوم".

"انسَ أمر حصتك. قلتُ ثوباً واحداً".

"ثلاثة على الأقل".

"سننهي ثوبين؛ هذا عرضي الأخير، ولا مزيد من الجدال. ولكن، قبل كل شيء، أريد إحضار شيء ما من المطبخ".

عادت بعد فترة قصيرة، حاملةً بكل يد كوباً يخرج منه البخار، ووضعت أحدهما بجانبه قائلة: "إنه منعش". وتناولت جرعة، وجلست على كرسيّها بشكل مستقيم، مُعيدةً كتفَيها إلى الوراء بوجه مشرق.

قال: "تبدين كممثلة في دعاية إعلانية، ولسنا بحاجة إلى ممثلة محترفة. تبدين جميلة جداً".

"لا تعتقد أن الإطراء يُكسبك كوباً كل يوم. لا أستطيع تحمّل التكلفة".

بين النفخ والارتشاف، أنهيا ثوبَين آخرَين. وقرابة منتصف الليل، كان منزل دينا المنزل الوحيد المضاء. وحين تأخر الوقت، وأضفى سكون الشوارع خارج النافذة، واكتناف الظلام المنزل، جوّاً تآمرياً على نشاطهما البريء.

قالت عندما أنهيا الثوب الأخير بعد منتصف الليل: "لقد أنهينا ثمانية عشر ثوباً اليوم، ولم يعد بإمكاني القيام بأيّ قطبة. الآن، هل يمكننا الخلود إلى النوم، يا صاحب العمل؟".

"بعد طيّها بالشكل الملائم".

"حاضر، يا سيد ماك كولاه".

"رجاءً، أكره هذا الاسم".

خلال توجههما إلى غرفتَيهما، عانقته هامسة: "عُمتَ مساءً، وشكراً على مساعدتك".

أجابها: "عُمتِ مساءً يا خالتي". وجرى برِفق إلى سريره سعيداً.

* * *

قبل ساعة من شروق الشمس، أيقظت الصفّارة العمال من حضن الليل المريح والمُظلم. فتقاطروا من الأكواخ الصفيحية باتجاه منطقة الطعام. كانت كلاب المنبوذين تشمّ الأقدام المغطاة بالغبار، وتجوب المكان المحيط بالمطبخ. لقد قُدّم الشاي مع أرغفة التشوباتي المتبقية من الليلة السابقة. وبعد ذلك، أطلقت الصفّارة مجدداً إيذاناً ببدء العمل.

تم تجميع القادمين الجدد في مجموعات منفصلة، وحدّد كبير العمال المهام الموكَلة إليهم. كان هناك عمل للجميع باستثناء المتسوّل على المنصة المتحركة. قال المشرف: "أنتَ ابقَ هنا، سأتخذ في وقت لاحق قراراً بشأنك".

لقد ضُمّ أوم إلى فريق من ستة أشخاص ليبدأوا بحفر خندق جديد. وتمثلت مهمة إيشفار بنقل الحصى إلى المكان الذي يتم فيه جبل الإسمنت. ووصل كبير العمال إلى نهاية اللائحة، وتفرّق الجيش الهزيل باتجاه المواقع التي حدّدها المشرفون لكل فرد. وانتظر الخياطان ذهاب الجميع.

قال إيشفار: "هناك خطأ". واقترب من كبير العمال باسطاً راحتَي يدَيه.

"الاسم؟".

"إيشفار دارجي وأومبراكاش دارجي".

فقرأ كبير العمال مهامهما مجدداً. "لا أخطاء".

"يكمن الخطأ في أنه لا يُفترض بنا التواجد هنا، نحن...".

"أيها الكسولان، تظنون جميعكم أنه لا يُفترض بكم التواجد هنا. لن تتساهل الحكومة أبداً مع وضعكم. ستعملان، وستحصلان في المقابل على الطعام ومكان للنوم".

"لدينا عمل، نحن خياطان، وطلبت منا الشرطة التحدث إليك...".

"تتمثل مهمتي بتوفير العمل والمأوى لكما. وإذا لم تقبلا، يقوم رجال الأمن بنقلكما إلى مكان آخر".

"ولكن، لماذا نعاقَب؟ ما هو جرمنا؟".

"أنت تستخدم العبارة غير الصحيحة. لا يتعلق الأمر بجرم وعقوبة؛ إنها مشكلة وحلّ". وأومأ إلى رجلَين يرتديان ملابس رسمية كاكيّة اللون يجوبان المكان حاملَين عصوين. "لا نواجه أي مشكلة هنا. كل الأشخاص سعداء بالعمل. الآن، قرّرا".

قال إيشفار: "حسناً، ولكن نرغب في التحدث إلى المسؤول الأعلى".

"سيأتي مدير المشروع في وقت لاحق. إنه منشغل بعبادته الصباحية".

ورافق كبير العمال شخصياً الخياطَين إلى موقع العمل، وسلّمهما إلى المشرفَين المباشَرين عليهما مع تعليمات بمراقبتهما بعناية للتأكد من أنهما يعملان من دون تكاسل. واقترب المتسوّل منهما بمنصته، ولكن كان يستحيل على دواليبه سلوك الأرض الوعرة حيث ينتهي الطريق. فاستدار ولوّح للخياطَين، واعداً بانتظارهما بجانب كوخهما في المساء.

كان سفح التلة مليئاً بمجموعات من الأشخاص الجاثمين. في البدء، بدا الصغار مسمَّرين في أماكنهم تحت ضوء الشمس، وبعد ذلك كشف صوت مطارقهم عن حركة أيديهم خلال توجيه ضربات إلى الصخور بهدف تفتيتها إلى حصى. كانت كتل متفرقة من العشب اليابس تنتشر على المنحدر الذابل الذي لم تطله يد المطر بعد، ويتدحرج جُلمود من حين إلى آخر ويسقط في مكان ما في الأسفل. وبعيداً، ارتفع هدير الجرافات، والرافعات، وجبّالات الإسمنت، كجدار يقوم الدويّ الثابت للمطارق بنحت تصميم زخرفي عليه.

كانت هناك امرأة تتولى مهمة ملء سلة الحصى لإيشفار وتساعده على رفعها فوق رأسه. وقد جعل الجهد يدَيها ترتجفان، والبشرة المتغضّنة تحت ذراعَيها تتدلى. وترنّح إيشفار تحت ثِقل الحِمل. وعندما أفلتت السلة، شعر بأن الحِمل بدأ يُفقده توازنه، فأحكم الإمساك بها بشكل يائس مُميلاً رأسه في الاتجاه الآخر، ولكن السلة ما لبثت أن سقطت لاويةً عُنُقه بحدة.

"لم يسبق لي أن قمت بهذا النوع من العمل"، قال مُحرَجاً وهو يرى وابلاً من الحصى الثقيلة التي كانت تسقط على قدمَيه.

ومن دون التفوّه بأي كلمة، أمالت السلة باتجاه قصبتَي ساقَيها وانحنت فوقها لملئها مجدداً. وانزلقت ضفيرتها المائلة إلى اللون الرمادي فوق كتفها. ألن تكون ذات فائدة أكبر لراجارام جامع الشعر؟ فكّر إيشفار في سرّه مذهولاً. وعندما قامت بسحب مجرفتها، أصدرت أساورها البلاستيكية رنيناً خافتاً تناغم مع صدى الضربات التي يوجهها الصغار إلى الصخور. وشاهد ساعدَيها يتلألآن بالعرَق، وهي تميل نحو الأمام والوراء بقوة وجَهد. فركع لمساعدتها وللتعويض عن عدم براعته في العمل، غارفاً الحصى بيدَيه وواضعاً إيّاها داخل السلة.

قالت: "الملء مهمتي، والحمل مهمتك".

"لا بأس. لا مانع لديّ".

"أنت لا تمانع، ولكن المشرف يمانع".

كفّ إيشفار عن مساعدتها، وسألها عما إذا قامت بهذا العمل من قَبل لمدة طويلة.

"منذ طفولتي".

"هل الأَجر جيد؟".

"ما يكفي ليقيني الموت جوعاً". وعلّمته كيف يجب أن تكون وضعية رأسه وكتفَيه خلال الحمل، ورفعا السلة. فترنّح مجدداً، ولكنه تمكن من الاحتفاظ بالسلة على كتفه.

قالت مشجِّعةً: "هل رأيت، الأمر سهل ما إن تتعلّم كيفية المحافظة على التوازن". وأرشدته إلى الطريق المؤدي إلى الرجال الذين يجبلون الإسمنت. بلغ الوجهة المحددة بعد التمايل والتعثّر مرات عدة، ورمى الحصى. وعاد بعد ذلك بالسلة الفارغة لتقوم المرأة بمَلئها. وقد حصل ذلك مراراً وتكراراً.

بعد عدد قليل من الرحلات، بدأ العرق يتصبب على وجهه، وشعر بالدوار، فسأل إن كان بإمكانه الذهاب لشرب الماء، ولكنّ المشرف رفض ذلك قائلاً: "يصل ناقل الماء عندما يحين موعد الشرب".

تحت أنظار الرجل، ملأت المرأة السلة ببطء شديد بقدر ما سمحت لها جرأتها. وكان إيشفار ممتنّاً بسبب ثواني الراحة التي سرقتها لأجله. فأغمض عينَيه وأخذ نفساً عميقاً.

صاح المشرف: "املئيها حتى الحافة! لا يُدفَع لك لتملئي أنصاف سلال!". ووضعت في السلة ملء عدد إضافي من المجارف. في أثناء رفع الحِمل، أمالت السلة قليلاً كي تتخلص من الوزن الإضافي.

تمايل إيشفار إلى الأمام والوراء، مكافحاً الدُّوار، ولم يكن يستطيع التفكير في أي شيء. كانت عمليات التفجير في الطرف الآخر من الموقع ترسل سُحُباً من الغبار فوق منطقة الحصى، فتضع النساء ثيابهنّ على أنوفهنّ. فشعر بأنه قد يُضيع طريقه في الضباب من دون صوت المطارق الذي يقوم بإرشاده. وكان شعوره بالعمى يدوم حتى عندما تختفي سحابة الغبار من أمامه، فيُمسك بحبل الصوت ويشق طريقه بين الحصى وجبّالات الإسمنت.

لقد بدا له أن دهراً قد مرّ قبل وصول ناقل الماء والتزام مطارق تحطيم الصخور الصمت. وسمع إيشفار الألسنة العطشى وهي تشرق الماء قبل أن يرى الرجل. كانت قِربة الماء الجلدية المنتفخة مدلاّة من كتف ناقل الماء كحيوان بنّي اللون. ومرّ الرجل الضرير بين العمال بخطى غير ثابتة تحت وطأة ثِقل الماء. وقام كل عطشان بلمس يده لإيقافه

بينما كان يغني بِرِفق أغنية من نَظمه:

ادعوني

وسأروي ظمأكم.

ولكن، من يمكنه أن يروي

ظمأ عينَيّ؟

سقط إيشفار على ركبتَيه أمام ناقل الماء، ووضع فمه تحت الصنبور الجِلدي وشرب. وأبعد فمه بعد ذلك، وسقط الماء البارد على وجهه الممتنّ. فصاح المشرف: "حذارِ، لا تهدر الماء! إنه للشرب فقط!". فنهض إيشفار بسرعة وعاد إلى سلة الحصى.

وعندما وصل ناقل الماء إلى المكان الذي يعمل فيه أوم، كانت قِربة الماء قد غدت أقل وزناً، وازدادت خطى ناقل الماء تثاقلاً. فشرب حفّارو الخندق الستة أولاً، ومن ثم النساء اللواتي يقمن بنقل الدَّبش. وكان أطفالهنّ يلعبون قرب الخندق، فغرفنَ الماء براحات أيديهنّ لتمكين الأطفال من شربه.

بلّل أوم أصابعه، وملّس شعره إلى الوراء، وأخرج بعد ذلك نصف المشط ولوّح به. "عد إلى العمل!" صاح المشرف.

فوضع أوم المشط جانباً، وأعاد تركيز انتباهه غير المنتظم على الحفر. كان يستمتع باللحظة التي تقوم فيها النساء بالانحناء لجمع كسارة الحجارة.

مع مرور الساعات ببطء شديد، لم تكن النساء وحدهنّ قادرات على إلهائه عن الألم الذي يشعر به بسبب العمل. وبانحنائه بشكل مضاعَف في الخندق، كان يبذل قصارى جهده للتعاطي مع الأرض الصلبة بمِعول يتعذّر تحريكه بواسطة يدَين اعتادتا المقص والإبرة والخيط. لقد حمله الخجل من الظهور بمظهر الضعيف أمام النساء على مواصلة العمل من دون توقف. وازدادت حال القروح سوءاً والتهبت بعد دقائق من بدء العمل، ولم يتمكن من تقويم ظهره إلا بعد جَهد، وشعر بلهيب في كتفَيه.

بدأ أحد الصغار بجانب الخندق بالبكاء. فأفلتت الوالدة سلتها، وتوجّهت إليه. قال المشرف: "سالي امرأة كسولة، عودي إلى العمل".

"ولكن الطفل يبكي". حملت الفتى الذي كانت دموعه ترسم خطوطاً متعرّجة على خدَّية المكسوَّين بالغبار.

"من الطبيعي أن يبكي الأطفال. هم يبكون ويتوقفون عن البكاء دائماً. لا تُعطيني أعذاراً". توجّه إليها كما لو أنه يريد أخذه من بين ذراعيها. فوضعته بِرفق على قطع الحجارة ليتسلّى.

عندما أُطلقت الصفّارة إيذاناً بموعد الغداء، شعر أوم وإيشفار بأنهما مُنهَكان جداً ولا يستطيعان تناول مزيج الخضار السَّبِخة. ولكنهما كانا يعلمان أنه يجب عليهما القيام بذلك إذا أرادا النجاة من العمل المتبقّي في ذلك النهار. فابتلعا الطعام بسرعة، وانسلاّ للجلوس في ظل كوخهما الصفيحي طلَباً لقليل من الراحة.

أنهت الصفّارة استراحة الغداء. وبعد دقائق من عودتهما إلى الموقع، بدأا يشعران بالغثَيان، وتبع ذلك تدفق القَيء. ولم يتطلب إفراغهما معدتيهما إلا جزءاً قليلاً من الوقت الذي أمضياه في ملئهما. فسقطا أرضاً مصابَين بدُوار ورفضا التحرك. كانا آمنَين بالقرب من الأرض.

فضرب المشرف رأسَيهما بقوة بضع مرات، وشدّهما من ياقتيهما، وهزّهما من كتفيهما. فلجأ الخياطان إلى الأنين لتبرير امتناعهما عن العمل. وأُرسل بطلب كبير العمال.

سأل كبير العمال: "ماذا هناك الآن؟ أنتما عازمان على افتعال حالة من الاضطراب أم ماذا؟".

قال إيشفار: "نحن مريضان". ودلالةً على ذلك، أشار إلى بركتَي القَيء التي يقوم غراب بالتحقق من أمرهما. "لسنا معتادَين على هذا النوع من العمل".

"ستعتادان عليه".

"نريد لقاء المدير".

"ليس موجوداً". ووضع كبير العمال يداً تحت ذراع إيشفار وسحبه. فنهض إيشفار متمايلاً من جانب إلى آخر، وعلى فمه خطوط من القَيء، وترنّح باتجاه كبير العمال الذي دفعه بسرعة بعيداً عنه مخافة تلويثه بالقَيء. "حسناً، اذهبا وناما لبعض الوقت. سأراكما لاحقاً".

لم يزعجهما أحد طوال اليوم في الكوخ الصفيحي. وعند الغسق، سمعا أشخاصاً يتوجهون إلى منطقة المطبخ. فسأل إيشفار أوم إذا كان يريد الطعام. "أجل، أنا جائع"، قال، وجلسا. ولكنهما شعرا بالدُّوار مجدداً، فاستلقيا، ولم يتمكنا من مقاومة النُّعاس.

في وقت لاحق، دخل المتسوّل كوخهما حاملاً لهما الطعام. كان يحرك منصته ببطء شديد كي لا يُريق العشاء الذي يضعه بشكل متوازن على جَدعتَيه. "أرى أنكما غدوتما مريضَين. كُلا، فالطعام يمنحكما القوة. ولكن، امضغا الطعام جيداً، ولا تتناولاه بسرعة".

فشكره الخياطان على الطعام. كان يراقبهما برِضى خلال تناولهما أول لُقمة، رافضاً مشاطرتهما الطعام. "سبق لي أن أكلت".

وأفرغ إيشفار كوب الماء، فبدأ المتسوّل بالسير على منصته لإحضار المزيد. قال

أوم: "انتظر، سأُحضره بنفسي، أنا بخير الآن".

لـم يقبـل المتسـوّل، وعـاد بعد قليل مع كوب مليء. واسـتعلم عمـا إذا كانا يريدان المزيد من التشوباتي. "لقد اتخذتُ صديقاً لي في المطبخ، وباستطاعتي إحضار التشوباتي قدر ما أشاء".

قال إيشفار: "لا، لا، لقد شبعنا، شكراً لك". ومن ثم سأله عن اسمه.

"الجميع ينادونني دودة".

"لماذا؟".

"لقد قلت لك. قبل أن يعطيني سيدي وصاحب عملي المنصة، كنت أزحف".

"ولكن، لديك المنصة الآن. ما هو اسمك الحقيقي؟".

"شانكار".

بقـي معهمـا لمـدة نصـف سـاعة أخرى، متبـادلاً وإياهمـا أطراف الحديـث، واصفاً مشـروع الـرّي حيـث كان يجـول طـوال اليـوم. واقترح عليهما بعد ذلـك أن يحاولا النوم ليسـتيقظا مليئَيـن بالنشـاط فـي اليوم التالي. وعندما بدأا بالشـخير بعـد بضع دقائق، خرج على منصته، مبتسماً بسعادة.

الفصل التاسع

القانون المعمول به

من خارج مدخل المنزل، أومأت امرأة لدينا، ورفعت سلّتها بمَكر هامسة: "بندورة كبيرة وطازجة؟".

فهزت دينا رأسها. إنها تبحث عن خياطَين كالعادة، وليس عن بندورة. وفي مكان أبعد، كان هناك رجل محتجب عن الأنظار في فجوة في جدار يحمل علبة مَحافظ جَيب جلدية، ورجل آخر مختبئ جزئياً ويهز كومة من الموز بين ذراعَيه. كان الجميع متيقظين من قدوم الشرطة ومستعدّين للفرار، وحطام الأكشاك يملأ الأرض.

جالت في العديد من الشوارع الموحِشة حيث أزالت حالة الطوارئ الحياة عن الأرصفة. ولكن فرصة العثور على بديلَين عن إيشفار وأوم أفضل ربما، قالت لنفسها مواسية. ربما يسعى الخياطون الذين اعتادوا ممارسة مهنتهم في الأكشاك القائمة على جانب الطريق إلى عمل دَوري.

خلال تسليم الملابس الأخيرة لأوروفوار إكسبورتس، كانت قد أعلمت السيدة غوبتا أن موظفَيها ذاهبان في إجازة لمدة أسبوعين. ومع دنوّ انتهاء المدة، أدركت أن تفاؤلها في غير محلّه، وكان يتعيّن عليها إعلام المديرة بإرجاء استئناف العمل.

بدأت دينا بالإطراء على شعر السيدة غوبتا: "يبدو جميلاً. هل قدمتِ للتوّ من فينوس بيوتي سالون؟".

قالت السيدة غوبتا بتذمّر: "لا، كان يتعيّن عليّ الذهاب إلى مكان لم يسبق لي أن زرته بعد، ولكن زنوبيا خيّبت أملي".

"ماذا حدث؟".

"كنت بحاجة إلى موعد طارئ، فقالت لي إن كل الأوقات محجوزة. قالت ذلك لي... أنا زبونتها الأكثر إخلاصاً".

آه لا، قالت دينا لنفسها، موضوع غير مناسب. "بالمناسبة، أُرجئ موعد عودة خياطَيّ".

"الأمر غير ملائم أبداً. لِكَم من الوقت؟".

"لست واثقة من ذلك، ربما لأسبوعَين إضافيَّين. لقد مرضا في قريتهما".

"هذا ما يقوله الجميع. تضيع أيام إنتاج عديدة بسبب أعذار مماثلة. ربما كانا يثملان ويرقصان في قريتهما. نُعتبر من العالم الثالث من حيث التطور، ولكننا في المرتبة الأولى من جهة التغيّب والإضرابات".

امرأة غبية، قالت دينا لنفسها، لو تعلم فقط كم يكدّ إيشفار وأوم المسكينان في العمل، وكم يعانيان.

قالت السيدة غوبتا: "لا تهتمي، حالة الطوارئ علاج جيد للأمّة سيُشفى الجميع قريباً من عاداتهم السيئة".

فوافقتها الرأي، متمنّيةً شفاء رأس المديرة من حماقته المزمنة. "أجل، سيكون تحسّناً كبيراً".

" إذاً، أسبوعان إضافيان، ولا مزيد من الإرجاء يا سيدة دلال. الإرجاء هو المُنتَج الثانوي للفوضى. تذكّري، القواعد الصارمة والإشراف الحازم تؤدي إلى النجاح. وعدم الانضباط هو أساس الفوضى الشاملة، ولكن ثمار الانضباط حُلوة المذاق".

كانت دينا تستمع غير مصدِّقة، وألقت عليها تحية الوداع. وتساءلت عما إذا كانت السيدة غوبتا تتولى مهمة وضع شعارات لحالة الطوارئ كعمل إضافي أو كهواية، أم أنها تعاني ربما من جرعة مفرطة من لافتات الحكومة ومُلصقاتها، ولم يعد بإمكانها التكلم بشكل طبيعي.

مع بدء فترة الأسبوعين الثانية، واعتبار دينا كلمات المديرة إنذاراً نهائياً، وصل جامع الإيجارات في يومه المحدد. فرفع يده اليمنى باتجاه طربوشه البنّي كما لو أنه يريد رفعه، ولكن تصلّب كتفه حال دون إلقاء تحية كاملة، فأنزل يده إلى ياقة الشروان الأسود وشدّها في تحيّة بديلة.

"آه، جامع الإيجارات"، قالت، وتنشّقت بصوت مسموع، "انتظر، سأُحضر المال".

"شكراً لك يا أختاه"، قال إبراهيم وابتسم بشكل جذّاب في أثناء إغلاقها الباب في وجهه، ثم أفلت الياقة لفرك منخريه اللذين يحملان آثار النُّشوق، وأخطأت أصابعه الغبار البنّي الخفيف الذي كان قد سقط على شفته العُليا الحليقة واستقر على لحيته البيضاء.

فمدّ يده تحت الشروان، وأمسك بطرف منديله، وسحبه. ومسح حاجبه، ووضع المنديل داخل جَيب سِرواله، دافعاً إيّاه مراراً وتكراراً حتى اختفت الزاوية المتدلّية.

اتّكأ على الجدار متنهّداً. لقد انتصف النهار وكان مُرهَقاً. لم يكن لديه مكان يذهب إليه حتى بعد إنهاء جولاته باكراً؛ فلقد أجّر غرفته لعامل ليلي في مِطحنة بين التاسعة

صباحاً والتاسعة مساءً. وحُكم عليه بالتجوّل في الشوارع، شاغلاً مقاعد المتنزه العام تارةً، وجالساً داخل موقف الحافلة طَوراً، أو مرتشفاً كوب شاي في زاوية كشك حتى يحين وقت عودته إلى المنزل لينام وسط رائحة عامل المِطحنة. هل تُعتبر حياته حياة؟ أم مزاحاً قاسياً؟ لم يعُد يعتقد أن الميزان سيميل كفّتَيه على نحو مُنصف. لو لم تكن كفّة ميزانه تحتوي على القليل مما يمدّه بأسباب الحياة في نهاره وليله، لكان الأمر كافياً له.

قرر العثور على إيصال دينا خلال انتظاره خارج بابها. فسحب الحزام المطاطي نحو الأعلى بحذر، وأبعده عن حافة الإضبارة قدر الإمكان، ولكنه ارتدّ بعد ذلك على أنفه مما جعله يُسقط الإضبارة من يده.

فتبعثرت محتوياتها، وركع لاستعادة قِطع الأوراق الثمينة، والتقطها بطريقة غير منهجية، فكانت ورقة واحدة من أصل ورقتين تنزلق من بين أصابعه. ولفح نسيم خفيف الأوراق بطريقة تُنذر بالشؤم، فذُعر. وجمع الأوراق براحتَي يدَيه، غير مُبالٍ بتغضّنها.

فتحت دينا الباب حاملةً مال الإيجار بيدها. وظنّت للوهلة الأولى أن الرجل المُسنّ وقع أرضاً، فانحنت لمساعدته. وبعد إدراكها ما حدث، قوّمت وقفتها، وابتعدت عن مبعوث صاحب المُلك، مراقبةً تكدّر العدوّ.

قال: "آسف"، وابتسم ناظراً إليها. "الأيدي المسنّة أيدٍ ثقيلة الحركة، ما العمل؟". تمكّن من وضع كل شيء داخل الإضبارة البلاستيكية، ولفّ الحزام المطاطي العريض حولها لمزيد من الأمان. ورفع قدمه، وترنّح. فامتدت يد دينا للإمساك به.

"هِه، هِه، لا تقلقي. لا تزال ساقاي تعملان، كما أعتقد".

"رجاءً، عُدّ المبلغ". وأعطته المال.

لكنه لم يتمكن من استلامه بسبب إمساكه بالإضبارة بيدَيه. وأصغى بانتباه للتحقق من صوت آلتي الخياطة. لا شيء. "رجاءً، يا أختاه، هل يمكنني الجلوس قليلاً للعثور على الإيصال؟ وإلا سقط كل شيء على الأرض مجدداً. يداي ترتجفان بشدة".

كانت تعلم أن حاجته إلى الكرسي حقيقية ولكنه سيستغلّها لمصلحته بالتأكيد. "طبعاً، ادخل". وفتحت الباب على مصراعَيه. لم يكن هناك ما تخسره في ذلك اليوم.

لقد زادت الحماسة من رَعشة الإنهاك لدى إبراهيم. على الأقل، لقد تمكن من دخول الشقة بعد أشهر من المحاولات الفاشلة. قال معتذِراً: "اختلطت كل الأوراق، ولكنني سأعثر على إيصالك، لا تقلقي يا أختاه". وأصغى مجدداً علّه يسمع أصواتاً غير مألوفة في الغرفة الخلفية، ولكنها كانت هادئة بالطبع.

"أجل، ها هو يا أختاه". كان الاسم والعنوان مدوَّنَين، فسجّل القيمة المستلَمة

والتاريخ، ووقّع فوق الطابع المُلصق في الأسفل، واستلم المال.

"عدّه، رجاءً".

"لا حاجة إلى ذلك يا أختاه. أنت مستأجِرة منذ عشرين عاماً... إذا لم يكن باستطاعتي أن أثق بك، فبمن أثق؟". وبدأ بعدّ المال بالرغم من كل شيء. "فقط لإسعادك". وسحب من الجَيب الداخلي للشروان رزمة سميكة من الأوراق النقدية وجعلها أكثر سماكة بعد إضافة إيجار دينا إليها. وعلى غرار الإضبارة البلاستيكية، ضُمنت سلامة المال بحزام مطاطي.

قال: "الآن، بماذا يمكنني أن أخدمك خلال وجودي هنا؟ هل هناك صنابير تُسرّب ماء؟ أي شيء مكسور؟ هل المِلاط جيد في الغرفة الخلفية؟".

"لست واثقة تماماً". يا للوقاحة! فكرت في سرّها غاضبة، المستأجرون يتذمرون حتى الإنهاك، وها هو المحتال يدّعي حُسن النيّة بابتسامته التلقائية. "من الأفضل لك أن تتحقق من الأمر بنفسك".

"كما تشائين، يا أختاه".

في الغرفة الخلفية، وجّه ضربات ببراجم أصابعه على الجدران، ثمّ تمتم: "المِلاط جيد". كان غير قادر على إخفاء خيبة أمله حين رأى أنّ آلات الخياطة ساكنة. وعندما لاحظ وجود آلتي خياطة إضافيّتَين للمرة الأولى قال: "لديك آلتا خياطة في هذه الغرفة".

"لا يوجد قانون يمنع وجود آلتي خياطة، أليس كذلك؟".

"لا، كنت أسأل فحسب. حتى في هذه الأيام، لا يمكنك أبداً معرفة القوانين المعمول بها في ظل حالة الطوارئ المجنونة هذه. فالحكومة تفاجئنا يومياً". كانت ضحكته كاذبة، فتساءلت عما إذا كان هناك تهديد في كلماته.

قالت على نحو ارتجالي: "في إحدى الآلتين إبرة نحيلة، وفي الأخرى إبرة ثخينة، والدواستان أداؤهما مختلف أيضاً. أخيط كثيراً: ستائري، ملاءات سريري، ملابسي. أنت بحاجة إلى آلات خياطة خاصة للقيام بكلّ هذه الأمور".

"تبدوان لي متماثلتين تماماً. ولكن، ماذا أعرف عن الخياطة؟". ودخلا غرفة مانيك، وقرر إبراهيم وضع حُذقه جانباً: "إذاً، لا بد من أنه المكان الذي يُقيم فيه الشاب".

"ماذا؟".

"الشاب، يا أختاه. ضيفك الذي يدفع لقاء إقامته هنا".

"كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على الإيحاء بأنني أُبقي شبّاناً في شقتي؟ هل تعتقد أنني من ذلك النوع من النساء؟ فقط لأنني...".

"رجاءً، لا، لم...".

"لا تجرؤ على إهانتي ومقاطعتي! لأنني أرملة مسكينة لا تنعم بأي حماية، يعتقد الناس أن باستطاعتهم التفوّه بأمور بذيئة، والإفلات بذلك. يا لجرأتك! يا لشجاعتك عندما يتعلق الأمر بالإساءة إلى امرأة ضعيفة ووحيدة!".

"ولكن يا أختاه، أنا...".

"ماذا حلّ بالرُّجولة في هذه الأيام؟ فبدلاً من حماية شرف النساء، أنتم تستمتعون بتشويه سمعة امرأة بريئة وتدنيسها. وأنت! أنت ولحيتك البيضاء تقول هذه الأمور الكريهة والوقحة؟ أليست لديك والدة أو ابنة؟ يُفترض بك أن تخجل من نفسك!".

"رجاءً، سامحيني، لم أقصد إلحاق أي أذى بك، أنا...".

"يسهل عليك القول إنك لم تقصد إلحاق أي أذى بعد الضرر الذي ألحقته بي!".

"لا يا أختاه. عن أي ضرر تتكلمين؟ رجل عجوز مثلي يكرر شائعة سخيفة، ويستميحك الغفران".

وفرّ إبراهيم ممسكاً بالإضبارة البلاستيكية. كانت محاولته رفع طربوشه التوديعية مختصَرة على غرار سابقتها، فاستعاض عنها بجذب ياقة الشروان. "شكراً لك يا أختاه، شكراً لك. سآتي في الشهر القادم إذا سمحتِ. أنت متواضعة".

فكّرت في تعنيفه بسبب اعتماده كلمة أختاه بطريقة منافقة. لقد شعرت بأنها لم تقسُ عليه كثيراً قُبَيل نهاية الحديث، ولكنه رجل مُسنّ بالرغم من كل شيء، ولو كان أجيراً لدى صاحب الملك أصغر سنّاً لوبّخته.

بعد الظهر، أعادت تمثيل المشهد لمانيك، ولا سيما بعض الأجزاء نزولاً عند رغبته. لقد استمتع كثيراً عندما وصلت إلى جزء المرأة المُساء إليها: "هل أريتكَ وِقفة المرأة العاجزة والمنزعجة؟". وشبكت ذراعَيها على نحو متصالب واضعةً يدَيها على كتفَيها وحاجبةً صدرها. "لقد وقفتُ على هذا النحو، كما لو أنه يريد مهاجمتي. لقد أشاح المسكين بنظره شاعراً بالخِزي والعار. كنتُ شريرة ولكنه يستحق ذلك".

بعد قليل، اكتسب ضحكهما لمسة من التهوّر الشجاع كمن يقص رغيفاً على صورة شرائح رقيقة جداً مدّعياً أن الخبز وافر. وبعد ذلك ساد الهدوءُ المنزلَ فجأةً. لقد أشعرتهما زيارة جامع الإيجارات بالقليل من المرح.

"لقد أُدّي الدور وتمّ هضم المال"، قالت.

"على الأقل، لقد دُفع الإيجار، وفاتورتا الماء والكهرباء أيضاً".

"لا تستطيع أكل الكهرباء".

قال: "يمكنك الحصول على مال الجَيب خاصتي، لست بحاجة إليه هذا الشهر". ومدّ يده وسحب محفظة النقود.

فانحنت إلى الأمام ولمست خدّه.

مرّ أسبوعان آخران بسرعة كما مرّت صفوف الدرزات فوق آلتي الخياطة في الأيام السعيدة، مثلما بدا لدينا. لم تلاحظ أن أشهر القلق، والتأخر، والشجارات، والقطب الخرقاء، تلك التي أمضتها مع إيشفار وأوم، قد تحوّلت في ذاكرتها إلى أمر ثمين تتذكّره بتَوق.

قُبَيل نهاية الشهر، قدِم رجل البيع بالتقسيط للاستعلام عن آلتي الخياطة. لقد مرّ تاريخ استحقاق دفع القِسط. فأرته الآلتين لتثبت له أنهما سالمتان، وتحدثت معه عن إمكانية تمديد المهلة. "لا تقلق، باستطاعة الخياطَين تسديد ثلاثة أقساط دفعة واحدة، ولكن مسألة عائلية طارئة أخّرتهما في مسقط رأسهما".

استمر بحثها طوال اليوم عن خياطَين آخرَين من دون جدوى. كان مانيك يرافقها أحياناً وتكون ممتنّة لرِفقته. فلقد جعل جولاتها المُملّة أقل إثباطاً للعزيمة. وسعيداً بتغيّبه عن الكلّية، كان يودّ أن يرافقها في أغلب الأحيان لولا تهديداتها له بالكتابة إلى والدَيه. قالت: "لا تسبب لي مشاكل إضافية. إذا لم أعثر على خياطَين قبل حلول الأسبوع القادم، فسيتوجّب عليّ اقتراض قيمة الإيجار من نوسوان". وهزّت كتفَيها عند تفكيرها في ذلك الاحتمال. "سيكون عليّ الإصغاء إلى كل كلامه السخيف مرة أخرى: لقد قلتُ لكِ، تزوّجي مرة ثانية، العناد يولّد التعاسة".

"سآتي معك إذا شئتِ".

"حسناً".

في الليل، شغلا نفسَيهما باللحاف. كانت كومة الفضلات تتقلّص في غياب مواد جديدة، مما جعلها تلجأ إلى القِطع التي تجنّبت استخدامها حتى ذلك الحين، كالشيفون المهلهل غير الملائم لتصميمها. خاطاه على صورة جوارب صغيرة مستطيلة الشكل حشياها بقطع قماش صغيرة متوافرة بكثرة. وعندما نفدت قطع الشيفون، كفّ اللحاف عن النموّ.

قال كبير العمال: "أهلاً وسهلاً". ورحّب بمعقب المعاملات خلال قيامه بتسليم حمولة شاحنة جديدة من قاطني الأرصفة لمعسكر العمل.

فانحنى معقب المعاملات، وقدّم علبة كبيرة مغطاة بالسلوفان تحتوي على فواكه مجففة. كان يجني ربحاً كبيراً مما يدفعه الرقيب كيسار، ومما يحصل عليه من كبير

العمال؛ يجب إبقاء الدواليب مشحَّمة.

كانت حبوب الكاجو، والفستق، واللوز، والزبيب، والمشمش، مرئية من خلال فتحات الغطاء. "إنّها لزوجتك وأطفالك"، قال معقب المعاملات، وأضاف: "رجاءً، رجاءً خذها". وفي أثناء قيام كبير العمال بالإيماء تعبيراً عن رفضه قال له: "إنها هدية بسيطة؛ مجرّد دلالة صغيرة على التقدير".

كان مدير المشروع أيضاً مسروراً بوصول مجموعة جديدة من قاطني الأرصفة. فالمشروع يوفر له حرّية كبيرة لإدارة شؤون جدول الرواتب، ولم يعد توسيع مشروع الرّي بحاجة إلى الاستعانة بخدمات المزيد من العمال الذين يتقاضون أجراً؛ فما يفتقر إليه العمل المجّاني من فعالية يتم تعويضه بعدد العمال.

في الواقع، لقد تم تسريح عدد قليل من العمال، وبدأ العمال المياومون المتبقون يشعرون بالتهديد من صرفهم. من وجهة نظرهم، إن تدفّق الأشخاص المتضوّرين جوعاً، وذوي البشرات المتغضّنة، يحولهم إلى جيش من الأعداء. فبعد أن نُظر إليهم في بادئ الأمر بعين الشفقة والتسلية خلال كفاحهم للقيام بمهام صغيرة، بدا المتسوّلون وقاطنو الأرصفة كمجتاحين منكبّين على حرمان العمال المياومين من رزقهم، فشرعوا بصبّ جام غضبهم عليهم.

كان القادمون الجدد يتعرضون لمضايقات متواصلة. وأصبحت إساءة المعاملة، والدفع بخشونة، أمرين عاديين، فيخرج مِقبض رفش من الخندق ليحمل أحدهم على التعثر، وتتساقط البصقات من السِّقالات والمنصات المرتفعة كرَوث طائر، ولكن بدقة أكبر. وفي أوقات تناول الطعام، تقوم مرافق ضخمة بقلب أطباقهم فجأة، وغالباً ما يلتقط المتسوّلون وقاطنو الأرصفة الطعام عن الأرض لأن القوانين تمنع تقديم طبق ثانٍ. كان معظمهم معتادين على البحث عن الفضلات بين القُمامة، ولا سيما الطعام الصلب كالتشوباتي أو قطع الخضار التي يمكن تناولها.

لقد تجاهل كبير العمّال توسّلاتهم. فالمنظر من الأعلى يُظهر عملية اقتصادية سلسة لا تحتاج إلى كثير من التدخل الإداري.

في نهاية الأسبوع الأول، شعر إيشفار وأوم بأنهما أمضيا وقتاً طويلاً جداً في هذا الجحيم. كانا بالكاد قادرَين على الاستيقاظ عند سماعهما الصّفارة فجراً. وجعلت فتراتُ إصابتهما بالدُّوار العالمَ يرقص من حولهما عندما ينهضان من السرير. وكانا يشربان كوباً من الشاي المغليّ بشكل مفرط، وكانا يترنحان طوال اليوم، مستمعَين إلى تهديدات المشرفين والعمال المياومين المُربِكة وشتائمهم، وينامان باكراً في المساء في حضن

الإرهاق.

ذات ليلـة، سُـرق خفّاهمـا خـلال نومهما. فتسـاءلا عما إذا كان أحـد الرجال الذين يشـاطرونهما الكوخ الصفيحي هو من قام بذلك. فذهبا حافيَي القدمَين ليشـتكيا إلى كبير العمال، آملَين في تأمين خُفَّين بديلَين لهما.

قـال كبيـر العمـال، وهو ينحني ليثبّت زمام حذائه: "كان يُفترض بكما أن تكونا أكثر حذَراً، كيف أحرس أحذية الجميع؟ على أيّ حال، ليست مشكلة كبيرة. النساك الهندوس يسافرون حفاة الأقدام، وهذه هي حال ميم. فاء. حسين".

"من هو ميم. فاء. حسين؟" سأل إيشفار بتواضع. "أهو وزير في الحكومة؟".

"إنـه فنـان شـهير جـداً فـي بلدنا. إنّـه لا يغطي قدمَيه أبداً لأنـه لا يريد فقدان الصلة بالأرض الأم. إذاً، فلماذا تحتاجان إلى خُفَّين؟".

لم تكن هناك أحذية ملائمة في مخزون المعسكر. وألقى الخياطان نظرة أخرى إلى داخل كوخهما للتحقق مما إذا كان أحدهم قد أخذ الخفَّين عن طريق الخطأ. وسارا بعد ذلك بحِرص شديد إلى موقع العمل، محاولَين تجنّب الحجارة الحادّة.

قال إيشفار: "سأستعيد قريباً قدمَي طفولتي. أتعلم؟ لم ينتعل جدك دوكي خُفّاً طوال حياته. ولم يكن باستطاعتي ووالدك تحمّل تكلفة شراء أول زوج من الأحذية حتى انتهينا من تعلّم الخياطة لدى العم أشرف. ولكن أقدامنا أصبحت كالجِلد؛ عِلماً أن الشاماريين قاموا بدبغها كما لو أنها مُنتجات جِلدية".

في المسـاء، ادّعى إيشـفار أن أخمصَي قدمَيه ازدادا صلابة، وتفحّص باقتناع بشـرته المغلَّفة بالغبار، مستمتعاً بالخشونة تحت أصابعه. ولكن الأمر كان سيّئاً للغاية بالنسبة إلى أوم؛ فهو لم يسِر يوماً حافي القدمَين.

في مسـتهلّ الأسـبوع الثاني، اسـتمر شـعور إيشـفار بالدُّوار واحتسـاؤه كوب الشاي الصباحي، وازدادت حاله سـوءاً تحت تأثير الحرارة المرتفعة بسـرعة إذ تضرب الشـمس رأسه بقبضة عملاقة. وقُرابة الظهر، تعثّر ووقع داخل الخندق تحت حمل الحصى.

طلب المشـرف من رجلَين أخذه إلى الطبيب. فوضع إيشـفار ذراعَيه فوق أكتافهما وقفز على قدم واحدة باتجاه صيدلية معسكر العمل.

وقبـل أن يتمكـن إيشـفار مـن إخبـار الطبيب بما حدث، التفـت الرجل ذو المعطف الأبيـض إلـى صـف مـن الأنابيـب والقناني التـي كان معظمها فارغـاً. وبالرغم من ذلك، فقد بدا العرض مثيراً للإعجاب. واختار الطبيب مرهماً بينما كان إيشـفار الواقف بشـكل متـوازن علـى سـاق واحـدة يرفع كاحله المتضرر لتسـهيل عملية الفحـص. "أيها الطبيب،

أشعر بالألم في هذا المكان".

فطُلب منه إنزال قدمه. "لا كسور، لا تقلق. هذا المرهم سيُخلّصك من ألمك".

منحه الرجل ذو المعطف الأبيض الإذن للراحة في المدة المتبقية من اليوم. لقد أمضى شانكار الكثير من الوقت مع إيشفار في الكوخ، وكان يغادر على منصته المدولَبة لإحضار الطعام والشاي له وهو يقول: "لا، لا تنهض، قل لي ما تريده".

"ولكن عليّ التبوّل".

فانزلق شانكار عن منصته، وأومأ إليه بالصعود عليها. قال: "لا يُفترض بك وضع كلِّ ثقلك على قدمك المتضررة".

تأثر إيشفار بسبب اعتناء ذاك الذي لا يملك قدمَين بقدمَي شخص آخر إلى هذا الحدّ. فجلس بحرص على المنصة، وشبك ساقَيه، وانطلق مستخدماً يدَيه كما يفعل شانكار. لقد اكتشف أن الأمر لم يكن سهلاً كما اعتقد عندما كان ينظر إليه. لقد أنهكت الرحلة إلى المرحاض ذهاباً وإيّاباً ذراعَيه.

سأل شانكار: "هل أحببتَ منصتي؟".

"إنها مريحة جداً".

في اليوم التالي، كان على إيشفار مغادرة سريره والتوجه إلى منطقة الحصى بمشية عرجاء، بالرغم من تورّم كاحله وشعوره بالألم. فطلب منه المشرف ملء السلال مع النساء بدلاً من نقلها، وقال له: "يمكنك القيام بذلك العمل وأنت جالس".

وقعت حوادث أخرى أيضاً أكثر خطورة من حادثة إيشفار. فلقد سُحقت امرأة ضريرة بالمطرقة بعد أيام عدة من العمل في تفتيت الصخور. وسقط فتى عن سِقالة وكسر ساقَيه.

مع انتهاء الأسبوع، صنّف كبير العمال أعداداً كبيرة من القادمين الجدد بأنهم عديمو النفع. وعالجهم الطبيب بمرهمه المفضَّل، حتى إنه استخدم في الأوقات الأكثر إلهاماً جَبيرات وضِمادات. وتم تسليم شانكار مهمة نقل وجبات المرضى، فاستمتع بذلك، متطلّعاً بتَوق إلى أوقات الطعام، فكان ينتقل على منصته من المطبخ الحار إلى الأكواخ مع إحساس بالعَزم اكتشفه حديثاً. ومع كل توقف، يتم إمطاره بتعابير الشكر.

لكن العمل على الاعتناء بإصاباتهم والتخفيف من ألمهم هو ما كان يريده في الواقع مع عجز الطبيب عن القيام بذلك كما يبدو. أسرّ لإيشفار وأوم: "لا أظن أنه طبيب بارع، فهو يستمر في استخدام الدواء نفسه مع الجميع".

كان المرضى يصرخون طوال الأيام الطويلة والحارة طالبين المساعدة، فيقوم شانكار بالتحدث إليهم، وتبليل جباههم بالماء، وإعطائهم ضمانات بأزمنة أفضل قادمة. وعندما

يعـود العمـال في المسـاء، جائعيـن ومُرهَقين، كانوا ينزعجون من التـأوّه اللامتناهي الذي يتواصل حتى وقت متأخر من الليل من دون أن يتمكنوا من النوم. وبعد ليالٍ قليلة، ذهب أحدهم أخيراً للتقدم بشكوى.

منزعجاً بسبب إيقاظه، قام كبير العمال بتوجيه النُّصح للمصاب: "الطبيب يعتني بك جيداً. ماذا تريدون أكثر من ذلك أيها الناس؟ إذا نقلناكم إلى المستشـفى، فهل تعتقدون أنكم سـتكونون أفضل حالاً؟ المستشـفيات مكتظة جداً، وإدارتها سـيئة جداً، وسـترميكم الممرضـات فـي ممـرات قـذرة ويتركنكـم تتعفّـنون. لديكـم هنا على الأقل مـكان نظيف للراحة".

فـي الأيـام القليلـة التالية، أُجبر كبير العمال على الاسـتعانة مجدداً بخدمات العمّال المياومين المسرَّحين. فأدركوا على الفور أنه الحلّ لمشاكلهم؛ أي إضعاف العمال الذين يعملون من دون مقابل، فتعود الأعمال.

بلـغ العـداء حيـال المتسـوّلين وقاطنـي الأرصفة مسـتويات خطرة. فلقـد بدأ العمال المياومون بدفعهم عن الحافّات والسِّقالات، والتلويح بالمعاول بإهمال، وجعل الجلاميد تتـدرج عرَضـاً علـى سـفوح التـلال. وازداد عدد الإصابات كثيراً، ورحّب شـانكار بمهامه الجديدة. كان يسكب كل ما أوتي من قوة في المسؤولية الجديدة المُلقاة على عاتقه.

بدأ مدير المشـروع ينظر إلى شـكاوى الضحايا من منظور مختلف. فزاد عدد أفراد الفريـق الأمنـي، وأصـدر أمراً بالقيام بدَوريـات متواصلة في موقع العمل، وليس في الليل فقـط، وحُـذِّر العمـال المياومون من التعرض للطرد في حالة الإهمال في العمل. وهكذا، انخفضت وتيرة الهجمات، ولكن مشروع الرّي بدا كما لو أنه معكسر مسلَّح.

عندمـا وصـل معقـب المعامـلات في المـرة التالية مصطحباً معـه حمولة جديدة من قاطني الأرصفة، شـكا كبير العمال من أن العمالة المجانية اسـتثمار سـيّئ. فادّعى تعرّض العمال للإصابات قبل وصولهم. "لقد ألزمتني بإطعام العديد من العاجزين غير المنتجين وإيوائهـم".

ففتح معقب المعاملات سـجلّه على صفحة يوم التسـليم موضع النقاش، وأظهر له تفاصيل متعلّقة بالحالة الجسدية للمحتجَزين. "أُقرّ بوجود عدد قليل من الحالات الجسدية السيئة، ولكنه ليس خطئي. تقوم الشرطة بدسّ الجميع في شاحنتي سواء أكانوا أمواتاً أو نصف أحياء".

"في هذه الحالة، لا أريد المزيد".

حاول معقب المعاملات التهدئة من رَوع كبير العمال وإنقاذ الصفقة. "أمهلني بضعة

أيام، سأعالج الأمر. سأتأكد من عدم تكبّدك الخسائر".

في تلك الأثناء، كانت الشحنة الأخيرة التي تنتظر إفراغها تتضمن أنواعاً مختلفة من فنّاني الشوارع. فهناك لاعبو الكرات، والموسيقيون، والبهلوانيون، والمشعوذون. وقرر كبير العمال أن يمنحهم خياراً: الانضمام إلى القوة العاملة على غرار قاطني الأرصفة الآخرين، أو توفير التسلية للمعسكر مقابل توفير الطعام والمسكن لهم.

فاختار موفّرو التسلية الخيار الثاني كما توقع كبير العمال. وأُمّنت لهم منازل منفصلة عن الآخرين، وطُلب منهم إعداد عمل استعراضي لتلك الليلة. فوافق مدير المشروع على اقتراح كبير العمال لأن التسلية جيدة لمعنويات العمال، وتساعد على التخفيف من حدة التوتر والمِزاج السيّئ اللذين يهددان معسكر العمل.

أُقيم العرض بعد العشاء تحت أضواء منطقة الطعام، ووافق النقيب الأمني على أن يكون مُشرفاً على الحفلات. وبدأ الاحتفال بخُدَع التعثّر والسقوط، واللعب بكرات خشبية، والسَّير على حَبل بهلوان. وكان هناك فاصل موسيقي مع أغانٍ وطنية مما دفع مدير المشروع إلى الوقوف والتصفيق بشكل حماسي. بعد ذلك، ثبتت شعبيّة فريق بهلواني مكوَّن من زوج وزوجة، وتلا ذلك خدع بورق اللعب ومزيد من لاعبي الكرات.

أمضى شانكار الذي جلس مع إيشفار وأوم لمشاهدة الأعمال الفنّية وقتاً رائعاً، متحركاً بحيوية على المنصة، ومصفّقاً بقوة بالرغم من راحتَي يدَيه المضمَّدتَين. "ليت الآخرين يتمكنون من الاستمتاع أيضاً"، كان يقول من حين إلى آخر، وهو يفكر في مرضاه الذين بقوا في الأكواخ، والذين يُسمَع أنينهم في اللحظات التي تشهد هدوء الحاضرين عندما يكونون متوتّرين خلال قيام فنّان ما بأداء جريء بشكل استثنائي بواسطة السكاكين والسيوف أو على حبل بهلوان.

استمر مدير المشروع في الإيماء برأسه إلى كبير العمال، موافقاً على القرار الجيد. وكان الفنان الأخير ينتظر في ظل المطبخ في أثناء إعداد المسرح له. فأعلن النقيب الأمني أنهم سيشاهدون في الختام عرضاً مثيراً للتوازن. وخرج الفنان إلى الأضواء.

قال أوم: "إنه رجل السعادين!".

فرد إيشفار: "وابنا شقيقته، لا بد من أنه العمل الجديد الذي قال لنا إنه يخطط للقيام به".

لم يشارك الطفلان في افتتاحية رجل السعادين المتمثلة بعرض وجيز بواسطة الكُرات من النوع الذي شاهدوه قبل قليل، ولم يلقَ قَدراً كبيراً من التصفيق. بعد ذلك، قدّم الفتاة الصغيرة والفتى، ورفعهما في الهواء معاً على راحتَي يدَيه. كانا مصابَين بالرَّشح ويعطسان.

ثـم ربطهمـا بطرفَـي عمـود يبلغ طوله خمس عشـرة قدماً، ومن ثـم انخفض إلى الأرض، واستلقى على ظهره، وحمل العمود بشكل أفقي ومتوازن على أخمصَي قدمَيه الحافيتين. وعندما ثبّت العمود، بدأ يغزله بأصابع قدمَيه، ودار الطفلان معه ببطء أولاً ومن ثم بسرعة متزايدة بعد ضمان التوازن واختبار الإيقاع. كانا مترهّلَين ولا يُصدران أي صوت.

تبـدد ابتهـاج الحاضريـن، وحـل مكانه القلق وعدم الثقـة. بعد ذلك، أصبح التصفيق أمراً مُلحّاً كما لو أنهم أملوا انتهاء الحركة الخطرة إذا أعطوا الرجل ما يستحقه، أو أملوا أن يعزّز التصفيق حالة التوازن على الأقل ويُبقي الطفلَين سالمَين.

بدأ العمود بالإبطاء، وتوقف. وفك رجل السـعادين الطفلَين ومسـح فاهَيهما بعد أن تسببت القوة الطاردة بخروج سَيل من الإفرازات من أنفَيهما الراشحَين. بعد ذلك، مدّدهما على الأرض وجهاً لوجه. هذه المرة، قام بربطهما إلى طرف واحد من العمود وأقدامهما ملقاة على عارضة صغيرة. فاختبر الرباطات ورفع العمود.

ارتفع الطفلان عالياً فوق الأرض، واختفى وجهاهما في الليل خارج متناول أضواء المطبـخ. فشـهق الحاضـرون. ورفـع العمود أكثر فأكثر، ودفعه قليـلاً نحو الأعلى، وألقى بطـرف العمـود علـى راحـة يده. فارتعشــت عضلات ذراعه المفتولة، وحـرّك العمود نحو الأمام والوراء، جاعلاً الطرف الأعلى يتمايل كرأس شجرة في مهب ريح خفيفة، وحمل العمود على إبهامه بشكل متوازن.

أطلق المشاهدون وابلاً من الاحتجاجات، وسادت منطقة الظلام موجة ارتياب بشأن رجل السـعادين الذي لم يسـمع شـيئاً بسـبب تركيزه. وبدأ يسـير ذهاباً وإياباً داخل حلقة الضوء، ومن ثم ركض ناقلاً العمود من إبهام إلى آخر.

قال إيشفار: "الأمر شديد الخطورة، لا أجده مسلّياً". وهز شانكار رأسه أيضاً مأخوذاً، وجاعلاً جذع جسمه يتمايل مع تمايل العمود.

قـال أوم، وعينـاه مثبّتتـان علـى الأصابـع الصغيرة في الفضـاء: "كان من الأفضـل له الاستعانة بالسعادين".

بعد ذلك، أعاد رجل السـعادين رأسـه إلى الوراء بسـرعة، وألقى بالعمود على جبينه بشكل متوازن. فوقف الناس غاضبين، وصاح أحدهم: "توقف! توقف قبل أن تقتلهما!".

وضم آخرون صوتهم إلى صوته: "يا لوقاحتك! أنت تعذّب طفلَين بريئين!".

"دَع أمر التعذيب للأثرياء عديمي الشفقة! لسنا مهتمّين بالمشاهدة!".

أربك الصراخ رجل السـعادين، وجعله يفقد تركيزه، وبات بإمكانه سـماع ما يُقال. فأخفـض العمـود بغضـب وفـك الطفلَيـن. "ما الأمر؟ أنا لا أُسـيء معاملتهما. اسـألوهما

بأنفسكم، هما يتمتعان بذلك. على الجميع أن يكسبوا رزقهم".

ولكن الجَلَبة لم تمنحه فرصة للدفاع عن نفسه. كان الناس مستائين من كبير العمال أكثر من استيائهم من رجل السعادين، وذلك بسبب قيامه بتنظيم حفلة للتسلية على حساب عذاب الآخرين، فصاحوا في وجهه معبّرين عن مشاعرهم. "مسخ من مكان ما! أسوأ من رافان!".

قام الحراس بتفريق الحاضرين بسرعة، وإعادتهم إلى أكواخهم لتمضية الليل فيها، في حين تحوّلت الموافقة السابقة لمدير المشروع إلى توبيخ، وهز إصبعه في وجه كبير العمال. "لقد أخطأتَ في الحكم على الأمور. فهؤلاء الأشخاص لا يحتاجون إلى اللطف ولا يقدّرونه. إذا عاملتَهم بلطف، جلسوا على رأسك. العمل الشاق هو الصيغة الوحيدة".

وفي اليوم التالي، تم توزيع فنّاني الشوارع على طواقم عمل مختلفة. وأصبح رجل السعادين الشخص الأقل شعبية في مشروع الرّي. وقبل مرور أسبوع، انضم إلى مجموعة المصابين بعد تعرّضه لإصابات خطرة في الرأس. فشعر إيشفار وأوم بالأسف عليه لأنهما على عِلم بمدى رقة مشاعره.

قال أوم: "هل تتذكر توقع المرأة العجوز؟ ليلة وفاة سعدانَيه؟".

قال إيشفار: "أجل، تلك المتعلقة بقتله كلبه وارتكاب جريمة قتل أسوأ. الآن بالذات، يبدو المسكين كما لو أنه تعرّض للقتل".

عاد معقب المعاملات إلى مشروع الرّي بعد أسبوعين برفقة شخص قام بتعريفه إلى كبير العمال بصفته الرجل الذي سيجد حلاً لمشاكل عمالك العاجزين.

ضحك كبير العمال ومعقب المعاملات بسبب الفكاهة، ولكن الجدّية التامة وملامح الغضب ارتسمت على وجه الرجل.

فقصدوا الأكواخ الصفيحية حيث كان المصابون مطروحين أرضاً، وبلغ عددهم بالإجمال اثنَين وأربعين شخصاً. كان شانكار يتنقل بينهم على منصته ذهاباً وإياباً، لامساً جبين أحدهم، ومربّتاً على ظهر آخر، هامساً، ومواسياً. كانت رائحة الجروح المتقيّحة والأجساد النتنة المنبعثة من الأبواب تجعل كبير العمال يرغب في التقيّؤ.

قال مستأذناً للمغادرة: "سأكون في مكتبي إذا احتجتما إليّ".

قال الزائر إنه يفضّل إلقاء نظرة سريعة على المصابين وتقييم قدراتهم. "عندئذٍ فقط يمكنني تقديم عرض منطقي".

دخلا الكوخ الأول، فأعماهما مؤقتاً الدخول من ضوء الشمس الحاد إلى الظلمة الجزئية. واقترب شانكار من الباب على منصته ليرى مَن القادم، وأطلق صرخة تعرّف،

مادّاً عُنُقه.

قال الزائر: "من هذا؟ الدودة". لم تكن عيناه قد تأقلمتا بعد مع الظلام في الكوخ، ولكنه عرف صوت المنصّة المدولَبة. "إذاً، أنت هنا. لقد تساءلت طوال هذه الأسابيع عما حدث لك".

توجّه شانكار نحو قدمَي الرجل، وراحتا يدَيه تضربان الأرض بحماسة. "سيد المتسوّلين! لقد أبعدتني الشرطة عن المكان! لم أشأ الذهاب!". واختلط ارتياحه وقلقه بنشيجه خلال تمسّكه بقصبتَي ساقي سيد المتسوّلين: " سيدي، رجاءً ساعدني، أريد العودة إلى المنزل!".

لقد أدّت حالة الالتهاء في الكوخ إلى شروع المصابين بالأنين والسعال للفت الانتباه، آملين أن يحمل لهم هذا الشخص، أيّاً يكن، الخلاص. واقترب معقب المعاملات من الباب للحصول على هواء نقيّ.

قال سيد المتسوّلين: "لا تقلق يا دودة، سأُعيدك بالطبع، كيف أعمل من دون أفضل متسوّل لديّ؟". وأكمل معاينة العاجزين بسرعة واستدار ليغادر. وأراد شانكار مرافقته في الحال، ولكن طُلب منه الانتظار. "أولاً، عليّ القيام ببعض التدابير".

في الخارج، سأل سيد المتسوّلين معقب المعاملات: "هل الدودة من ضمن المجموعة؟".

"بالطبع".

"لن أدفع لك مقابل ما هو ملكي أصلاً. لقد ورثته عن والدي، وكان والدي يملكه منذ طفولته".

قال معقب المعاملات مساوِماً: "ولكن، انظر إلى الأمر من جانبي، كان عليّ أن أدفع للشرطة لقاء الحصول عليه".

"انسَ كل ذلك. أريد دفع ألفَي روبيّة لقاء المجموعة كلها، ومن ضمنهم الدودة".

كان المبلغ أكبر مما توقعه معقب المعاملات. وآخذاً في الاعتبار التخفيض الذي توصل إليه مع كبير العمال، وجد أنه سيحقق ربحاً كبيراً. قال مخفياً سروره: "هناك الكثير من الأعمال المشترَكة، لا أريد المساومة. لا بأس بألفي روبيّة، يمكنك أخذ الدودة". وضحك في سرّه، "وأي حشرة صغيرة أو أم أربع وأربعين تريد أخذها".

واكفهرّ وجه سيد المتسوّلين بنظرة استهجان. هذه المرة، قام بتعنيف معقب المعاملات بشدة: "لا أحب الناس الذين يسخرون من متسوّليّ".

"لم أقصد الإهانة".

"أمر آخر. يجب على شاحنتك أن تعيدهم إلى المدينة. إنه جزء من السعر".

فوافق معقب المعاملات، ورافق سيد المتسوّلين إلى المطبخ، وقدّم له كوب شاي للتعويض عن جرحه مشاعره. وانطلق بعد ذلك للعثور على كبير العمال الذي يتوجب عليه التفاوض معه بشأن حصته.

متحرّكاً بأقصى سرعة، غادر شانكار المكان لإبلاغ صديقَيه بالخبر السعيد، ولكن المشرف قام باعتراض طريقه رافضاً مقاطعة إيقاع العمل، وطرده، ضارباً الأرض بقدمه ومتظاهراً بالتقاط حجر. فتراجع شانكار.

انتظر شانكار حتى إطلاق صفّارة الغداء، وأدرك إيشفار وأوم بالقرب من منطقة الطعام، وقال لهما: "سيدي وصاحب عملي عثر عليّ! أنا عائد إلى المنزل!".

فانحنى أوم للتربيت على ظهره، وقام إيشفار بمواساته: "أجل، لا بأس، يا شانكار، لا تقلق. ذات يوم سنعود جميعاً إلى منازلنا عندما ينتهي العمل".

"لا، أنا عائد إلى المنزل غداً، حقاً! صاحب عملي هنا!". واستمرا في عدم تصديقه حتى شرح لهما الأمر بمزيد من التفصيل.

سأل إيشفار: "ولكن، لماذا أنت سعيد جداً بالمغادرة؟ أنت لا تعاني مما نعانيه نحن العبيد. وجبات طعام مجّانية، وحَمل بعض الطعام للآخرين على منصتك. ألا تفضّل ذلك على التسوّل؟".

"لقد استمتعتُ بالأمر حقاً لفترة من الزمن، ولا سيّما عندما كنت أعتني بكما وبالمرضى الآخرين. ولكنني أفتقد إلى المدينة الآن".

قال أوم: "أنت محظوظ، هذا العمل سيقتلنا بالتأكيد. أتمنى لو كان باستطاعتنا العودة معك".

"يمكنني الطلب من صاحب عملي أن يصطحبكما معه. لنتحدث إليه".

"أجل، ولكن... حسناً، اسأله".

وجدوا سيد المتسوّلين يرتشف الشاي على مقعد بجانب المطبخ. فاقترب منه شانكار وشدّ طرف سرواله. "ماذا هناك، يا دودة؟ طلبت منك الانتظار في الكوخ". ولكنه وضع كوبه جانباً، وركع بجانبه مصغياً وهو يومئ برأسه، ومن ثم نفش شعره ضاحكاً، وقصد الخياطَين.

"يقول الدودة إنكما صديقاه، ويريد منّي أن أساعدكما".

"أجل، رجاءً، نكون ممتنَّين جداً لك".

حاول تكوين فكرة عنهما بارتياب. "هل لديكما أي خبرة؟".

قال إيشفار: "آه، أجل. سنوات عدة من الخبرة".

كان سيد المتسوّلين متشككاً. "لا يبدو لي أنكما تستطيعان النجاح".

فغضب أوم وقال: "يمكنني أن أقول لك إننا ناجحان جداً". ورفع إصبعَيه الصغيرتَين كشمعتَي نُذر. "لقد انكسرت أظفارنا الطويلة بسبب كل هذا العمل القاسي، ولكنها ستنمو مجدداً. نحن مدرَّبان تماماً حتى إنه باستطاعتنا أخذ القياسات عن جسم الزبون مباشَرةً".

فبدأ سيد المتسوّلين بالضحك. "قياسات عن الجسم؟".

"بالطبع. نحن خياطان ماهران...".

"انسيا الأمر. ظننتُ أنكما تريدان العمل لصالحي كمتسوّلَين. لا حاجة لي إلى خياطين".

فخابت آمالهما. قالا متوسّلَين: "لا فائدة منا هنا، فنحن نمرض دائماً. ألا تستطيع اصطحابنا معك؟ يمكننا أن ندفع لك لقاء ما تعانيه من أجلنا". وأضاف شانكار التماسه إلى التماسهما، قائلاً إنهما أحسنا معاملته منذ لحظة قيام الشرطة برميه في الشاحنة في تلك الليلة الرهيبة منذ شهرين تقريباً.

ناقش سيد المتسوّلين ومعقب المعاملات الصفقة بصوت منخفض. وأراد الأخير مئتَي روبيّة عن كل خياط لأنه يريد، كما قال، حمل كبير العمال على الموافقة على إطلاق سراح عاملين سليمي الجسم، فكاحل إيشفار المصاب لا يُفقده الأهلية للعمل.

متمسكاً بكوب الشاي، عاد سيد المتسوّلين إلى الخياطَين قائلاً: "يمكنكما الذهاب إذا وافق كبير العمال. ولكن الأمر سيكلّفكما مالاً".

"ما هو المبلغ؟".

"في العادة، عندما أعتني بمتسوّل، أتقاضى مئة روبيّة أسبوعياً. ويغطّي المبلغ تكلفة تأمين مكان للتسوّل، والطعام، والملابس، والحماية، إضافةً إلى أمور خاصة كالضِّمادات أو العُكازات".

"أجل، لقد أطلعنا شانكار – الدودة – على الأمر، وأثنى عليك وقال إنك سيد عمل شديد اللطف. يا لحظّه السعيد لأنك قدمت إلى هنا!".

مسروراً بالإطراء، أوضح المسألة من دون حياء مُفرط: "للحظ الجيد دور محدود. أنا صاحب العمل الأكثر شهرة في المدينة. من الطبيعي أن يقوم معقب المعاملات بالاتصال بي. على أيّ حال، قضيّتكما مختلفة، فأنتما لستما بحاجة إلى من يعتني بكما بالطريقة نفسها. إضافةً إلى ذلك، لقد أحسنتما معاملة الدودة. ادفعا لي خمسين روبيّة في الأسبوع عن كلٍّ منكما لمدة عام، وسيكون ذلك كافياً".

فصُدما. "هذا يعني ألفَين وخمسمئة روبيّة تقريباً عن كلّ منا!".

"أجل، إنه الحد الأدنى لقاء ما أعرضه عليكما".

فاحتسب الخياطان الدفعات. همس إيشفار: "أجر ثلاثة أيام من الخياطة أسبوعياً لكل منا تكون مخصَّصة له، هذا كثير جداً، لن نتمكن من تحمّل التكلفة".

قال أوم: "هل لدينا خيار آخر؟ أتريد أن تكدّ في العمل حتى الموت في هذا المكان الجهنّمي؟ قل أجل فحسب".

"انتظر، سأحمله على تخفيض التكلفة". ودنا إيشفار من الرجل. "اسمع، خمسون روبيّة مبلغ كبير جداً. سنعطيك خمساً وعشرين روبيّة في الأسبوع".

قال سيد المتسوّلين ببرودة: "فَلتفهم أمراً واحداً، أنا لا أبيع بصلاً وبطاطا في بازار. يقوم عملي على الاهتمام بحياة الناس. لا تحاول المساومة معي". وأدار وجهه بازدراء وهمّ بالعودة إلى مقعده.

قال أوم مذعوراً: "الآن انظر إلى ما فعلته! لقد فقدنا فرصتنا الوحيدة!".

انتظر إيشفار للحظات، ثم توجّه إلى صاحب العمل مجرجراً قدمَيه، وقال: "لقد ناقشنا الأمر. الثمن مرتفع جداً، ولكننا موافقان".

"هل أنت واثق من قدرتك على تحمّل التكلفة؟".

"آه... أجل، لدينا عمل جيد ومنتظم".

فقضم سيد المتسوّلين ظفر إبهامه وبصق. "أحياناً، يقوم أحد زبائني بالتواري عن الأنظار بعد الاستمتاع بضيافتي من دون أن يدفع المبالغ المتوجّبة عليه. ولكنني أتمكن دائماً من العثور عليه، وحينذاك يواجه مشكلة كبيرة. رجاءً، تذكّر ذلك". وأنهى كوب الشاي، ورافق معقب المعاملات لصياغة عرض جديد لكبير العمال.

بعد انتهاء ساعة الغداء، تردد الخياطان بالانضمام إلى مجموعة نقل الحصى وحفر الخنادق. فمع دنوّ موعد تنفيذ الوعد بإنقاذهما، تبخّرت رغبتهما في العودة إلى العمل المُنهِك؛ لقد أخذ الإجهاد منهما كل مأخذ.

قال شانكار: "اصبرا قليلاً، يتبقى يوم إضافي واحد فقط، لا تتسببا بالمتاعب لنفسَيكما. لا تريدان تلقّي الضرب منهم. كُفّا عن القلق الآن، سيوافق كبير العمال. إن سيدي وصاحب عملي ذو نفوذ كبير".

مدعومَين بتشجيع شانكار، وجدا القوة للعودة إلى العمل. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، أصغيا بقلق علّهما يسمعان أغنية ناقل الماء. وأشار وصوله إلى تبقي ساعتين من العمل. فشربا الماء، وأنهيا ما تبقى من اليوم.

عند الغسق، وبعد عودتهما إلى كوخهما بخطى متعثّرة، كان شانكار بانتظارهما وهو يتلوّى على منصته بحماسة. "لقد اتُّخذ القرار. سيصطحبوننا صباح غد. ابقيا مستعدَّين مع عدة نومكما، لا تُغفلا الشاحنة. الآن، يجب أن أقوم باستعداداتي".

غادر للعثور على الميكانيكي المسؤول عن الآلات الثقيلة الذي أعطاه زيتاً لدواليب منصته. كانت ذرّات الرمل والغبار الناجمة عن موقع البناء قد بدأت بإبطائها. أراد شانكار أن تكـون منصتـه فـي حالـة ممتازة قبل عودته إلـى الرصيف، وضمّ صفيحته المعدنية إلى معدته. لقد ساعده أوم على تزييت الدواليب بطيئة الحركة.

فـي وقـت باكـر مـن الصباح، طلب حارس أمني من شـانكار والخياطَين والمصابين بالتجمّع عند البوّابة مع مقتنياتهم. وحُمل أولئك غير القادرين على السير من قِبَل عمال مسـتائين من حصول سـواهم على الحرية الوشـيكة. لكنّ الخياطَين هما من تحمّلا وطأة النظرات المريرة.

قال إيشفار وهو ينظر من فوق الأجساد المتضررة المكدَّسة في الشاحنة: "هل ترى كم نحن محظوظان يا أوم؟ كان يمكن أن نكون مستلقيَين هنا بعظام محطَّمة لو لم تكن النجوم في الموقع الملائم".

كان رجـل السـعادين لا يـزال فـي سُـبات بسـبب الإصابـة في رأسـه، ورفض سـيد المتسـوّلين اصطحابـه معـه، ولكنـه أراد الطفلَيـن لأنهما يتمتعان بطاقـة حقيقية، كما قال. فقـاوم الفتـى والفتـاة الصغيـران عملية نقلهما باكيَين ومتشـبّثَين بعمّهمـا الراقد بلا حراك، وجُرّا إلى الشاحنة عندما حان موعد انطلاقها.

أجرى معقب المعاملات وكبير العمال عملية حسـابية لأرباحهما اسـتعداداً للشـحنة التالية. وكان هناك إرجاء قصير لانطلاق الشاحنة. فلقد أصرّ كبير العمال على قيام أولئك الموجوديـن علـى متـن الشـاحنة بإعـادة الملابس التي تسـلّموها عند وصولهـم؛ فقد كان مسؤولاً عن كل غرض أمام رؤسائه.

قـال سـيد المتسـوّلين: "خـذ ما تشـاء، ولكن أسـرع رجـاءً، عليّ العـودة في الوقت المحدد من أجل احتفال دار العبادة".

لم يكن أولئك الذين حُملوا إلى الشـاحنة قادرين على خلع ملابسـهم. فطُلب من العمال الذين قاموا بنقلهم وهمّوا بالعودة إلى أعمالهم المنتظمة تولّي هذه المهمة. فنفّسوا عن إحباطهم بنزع الملابس بخشونة عن الأجساد المصابة. ولم يُبالِ سيد المتسوّلين بذلك. ولكن، عندما حان دور شانكار، حرص على خلع قميصه الداخلي برِفق.

وأصبح قاطنو الأرصفة عراة، أو شـبه عراة، كما كانوا يوم دخولهم معسـكر العمل.

وفُتحت البوّابة وسُمح للشاحنة بالمغادرة.

* * *

كانت فكرة مانيك أن يتهندما ويزورا مكتب نوسوان. "يُفترض بنا الذهاب إلى هناك بأفضل مظهر. سيعاملك بمزيد من الاحترام. المظاهر شديدة الأهمية بالنسبة إلى بعض الناس".

في حالة دينا، إن أي شيء يبدو نُصحاً ينمّ عن إدراك، وإن كان جزئيّاً، وهو أمر مرحَّب به. فمرّرت المكواة على سروالها الرمادي المصنوع من الغبردين، واختارت الفستان الأكثر أناقة مع حاشيته التي تغدو نابضة بالحياة في أثناء السير. هل لا يزال يناسبها؟ تساءلت. فأغلقت الباب المُحاذي وارتدته، مسرورة باكتشاف أن كل ما يتطلبه الأمر هو الضغط قليلاً لإقفال السحاب. ودخلت الغرفة الأمامية.

"ماذا عن بعض التبرّج يا خالتي؟".

تحرك رأس أحمر الشفاه بتردد في أثناء قيامها بإدارة القاعدة، وذلك بسبب عدم استخدامه طيلة سنوات. وقامت ببداية غير صحيحة ملطِّخةً شفتها. ولكن، سرعان ما تذكّرت كيفية تحريك شفتَيها بطريقة بهلوانية، زامّةً ومغضّنةً وشادّةً إيّاهما، إضافةً إلى تغييرها شكلهما حيث تبدوان كَشَفتَي قرد.

كان مستحضر تحمير الخدود مغلّفاً بقشرة يابسة يوجد تحتها ما يكفي لتحمير خدَّيها. وكانت اللِّبادة المخملية المستديرة يابسة وقد تحوّلت إلى قشرة جِلدية قاسية. ذات مرة، قام راستوم بممازحتها في أثناء تبرّجها، فردّت بوضع أحمر الخدود على أنفه بواسطة اللِّبادة، وقال إنها طريّة كبَتلة وردة.

لم تكن تعرف رد فعلها إذا قام نوسوان بالتطرق إلى مسألة الزواج؛ ربما تعمد إلى قلب طاولته. وألقت نظرة عامة على نفسها في المرآة، وأومأ انعكاس صورتها برأسه موافقاً. وأملت أن تكون نظرية مانيك التي تربط بين المظهر والاحترام صحيحة.

نادت داخل غرفته: "هل أنت مستعدّ؟".

"واو! تبدين شديدة الجمال".

قالت موبِّخة: "كفى إطراءً". وعاينته من رأسه حتى أخمص قدمَيه. كان مظهره مقبولاً باستثناء حذائه. فحملته على تلميعه قبل أن يغادرا.

طلب منهما حاجب المكتب الانتظار في الممر، وغادر لإبلاغ الرئيس. قالت متوقعة: "راقب ما سيجري، سيكون نوسوان مشغولاً".

عاد الرجل ليعلن بصوت متأسف: "السيد مشغول". لقد مرّت سنوات عدة على عمله كحاجب في مكتب نوسوان، ولكنه كان يشعر بالإحراج على الدوام عندما يتوجب عليه مساندة مستخدِمه في ادّعائه. "رجاءً، اجلسا وانتظرا بضع دقائق". ثم أخفض رأسه وانسحب.

قالت دينا: "الله يعلم سبب استمرار نوسوان في محاولة التأثير فيّ بهذه الطرائق الغبية، سينتهي انشغاله بعد خمس عشرة دقيقة بالتحديد".

لكن ثبت أنها أخطأت في توقعها الثاني لأن الحاجب كان قد أخبر نوسوان بأن شقيقته ترتدي ملابس جميلة ويرافقها شخص ما.

قال نوسوان: "من؟ هل سبق لنا أن رأيناها؟".

"إنه رجل وليس امرأة".

أمر مثير للفضول، قال نوسوان لنفسه، متحسّساً مكان الجرح في ذقنه. "شاب؟ هل هو مُسنّ؟".

قال الحاجب: "إنّه شاب، شاب جداً".

شاعراً بفضول أكبر، بدأ يتخيّل أموراً معلَّلة بالآمال. إنّه صديق ربما. كانت دينا شديدة الجاذبية في الثانية والأربعين من عمرها كما كانت حالها قبل اثنين وعشرين عاماً عندما تزوجت براستوم المسكين؛ ذاك الذي كان سيئ الحظ منذ البداية وحتى النهاية، في المظهر والمال والعمر...

لجم نوسوان أفكاره، وحدّق باتجاه السقف، وربّت على خدَّيه برؤوس أصابع يده اليمنى، بالتناوب، وبوقار، ليضمن رقود صهره بسلام. لم يكن يرغب في إساءة الكلام عن الراحل الذي كانت وفاته مُحزنة جداً. ولكن، ليت شقيقته تحظى بفرصة ثانية للعثور على زوج أكثر ملاءمة وتستقيم أمورها.

لكنها شديدة الاعتداد بنفسها، ولديها فكرة غريبة عن الاستقلال. فهي تعمل كعبدة لتكسب القليل من المال، وتسبب الإذلال للعائلة بأسرها. وها هي تُخفق مع شركة التصدير. لقد تعلّم ببطء السيطرة على مشاعره، ولكن تخلّصه من الإحراج كان أسهل عليه من التخلص من الشعور بالواجب. فهي لا تزال شقيقته الصغرى، وعليه بذل قصارى جهده من أجلها.

لقد هدرت حياتها سُدًى، قال لنفسه. الأمر أشبه بمشاهدة مسرحية مأساوية مع فارق وحيد؛ وهو أن هذه المأساة دامت ثلاثة عقود تقريباً وليس ثلاث ساعات. لقد كبر كزرسس وزارير محرومَين من حب عمتهما دينا التي تكاد لا تعرف ابنَي شقيقها. يحمل

الأمر في طيّاته الكثير من الحزن والمأساة.

لكن، لا تزال هناك فرصة لنهاية سعيدة. قد لا يكون هناك لمّ شمل العائلة مجدّداً، ليعيشوا معاً بسعادة. فقريباً يحين الوقت ليكون لديه أحفاد، ولو لم تتخلَّ دينا عن دورها كعمّة لأصبحت عمّةً جدة.

هذا الشاب الذي يرافقها اليوم صديقها. فإن كانا جدّيّين وتزوّجا، فسيكون الأمر رائعاً. حتى ولو كان الشاب في الثلاثين من عمره، يُفترض به أن يعتبر نفسه محظوظاً لحصوله على دينا؛ فهي جذّابة جداً حيث إنها تتفوّق على امرأة في نصف سنّها بالجمال.

أجل، هذا هو سبب زيارتها. إنها تريد تعريف شقيقها بالشاب والحصول على موافقته، وإلا، فلماذا تصطحبه معها؟ وبالنسبة إلى فارق السنّ بينهما، لن يكون هناك اعتراض على أي شيء، قال نوسوان لنفسه بتردد. يجب على المرء أن يكون منفتح الذهن في هذه الأيام. أجل، سيمنحهما بركته. لا بل سيتحمل تكلفة الزواج الثاني أيضاً ما دامت النفقات معقولة: مئة ضيف، تنسيق متواضع للزهور، فرقة موسيقية صغيرة...

مستعرضاً العمر، ومتأمّلاً، متأسفاً، ومعيداً النظر، بدا الأمر لنوسوان كما لو أن دهوراً مرت منذ وصولهما. فتحقق من ساعته؛ مرّت أقل من خمس دقائق. ووضع سمّاعة الهاتف على أُذُنه: إنه يعمل. من المذهل كيف أن الوقت والعقل يتآمران في خِدَعهما.

طلب من الحاجب إدخال الزائرَين على الفور. لقد أراد أن يكمل في الواقع الاحتفال الذي كان قد بدأ بتخيّله.

قالت دينا للحاجب: "ماذا؟ بهذه السرعة؟". وهمست في أُذُن مانيك: "هل رأيت، لقد حملتَ لنا حُسن الطالع. لا يستدعيني أبداً بهذه السرعة".

نهض نوسوان، وزرّر طرفَي كمَّيه، واستعد للترحيب بحرارة بالرجل الذي سيكون صهره. وعندما رأى مانيك الفتيّ يدخل المكتب، لم يستطع تحريك ركبتَيه. لقد فعلتها شقيقته المجنونة مجدداً! فأمسك بحافة الطاولة، وشحب وجهه لدى تخيّله ما سيلحق به من عار بين أفراد عائلته.

سألت دينا: "هل تتحوّل إلى أوروبي، يا نوسوان؟ أم أنك مريض؟".

أجاب بجفاء: "أنا بخير، شكراً لك".

"كيف حال روبي والفتَيين؟".

"إنهم بخير".

"جيد. آسفة لإزعاجك عندما تكون مشغولاً".

"لا بأس". لم تمضِ ثانيتان على وجودها في مكتبه، وها هو ينهمك بشؤونها. لقد

شعر بالغباء لأنها أيقظت الآمال لديه. ولكن، من الحكمة الشعور باليأس مُسبَقاً عندما يتعلق الأمر بدينا. لن يتم إنفاق بايزا واحدة على هذا الزفاف. فإذا كان زفاف الأطفال كارثة قديمة رهيبة، فزفاف طفل من بالغ جنون عصري. إنه ضد هذا الزفاف كلّياً. يطلب منه الطبيب مراقبة ضغط دمه، واختصار نشاطاته في البازار، في حين أن شقيقته الوحيدة تساهم في تقصير عمره.

قالت دينا: "ولكن، أين سلوكي الاجتماعي، أتحدث من دون مقدمات. مانيك، هذا شقيقي نوسوان".

قال مانيك: "كيف حالك؟".

"يس... يسعدني لقاؤك". وارتمى نوسوان على كرسيّه بعد مصافحة مانيك. كان هناك صوت آلة كاتبة في الغرفة المجاورة، ومروحة مدلاّة من السقف تدور بتكتّم جاعلةً رزمة من الورق تخفق تحت ثقّالة الورق كطائر يواجه مشكلة.

قالت دينا: "سمع مانيك الكثير عنك منّي، وأردتكما أن تلتقيا. لقد قدِم للعيش معي منذ أشهر قليلة".

"يعيش معك؟". لقد جُنّت شقيقته! أين تظن نفسها، في هوليود؟

"أجل، إنه يعيش معي. وماذا يفعل ضيف مستأجِر غير ذلك؟".

"آه أجل! بالطبع! ماذا يفعل غير ذلك؟". كان ارتياحه عارماً إلى درجة لا تطاق. لقد أراد السقوط على ركبتَيه.

لن يكون هناك أي زفاف. لقد شعر بأنه تعرّض للخداع، وكان شعورها مماثلاً. يا لقساوتها وافتقارها إلى الإحساس! لقد أيقظت لديه آمالاً كاذبة. كم كان سعيداً من أجلها منذ دقائق قليلة. لقد سخرت منه مرة أخرى.

قالت: "الأسعار مستمرة في الارتفاع، لم أتمكن من تدبّر أموري. كان عليّ استقبال نزيل في منزلي. وكنت محظوظة جداً بالعثور على فتى رائع كمانيك".

"أجل، بالطبع. يُسعدني جداً لقاؤك يا مانيك. وأين تعمل؟".

قالت دينا بغضب: "يعمل؟ إنه في السابعة عشرة من عمره فقط، ويرتاد الكلّية".

"وماذا تدرس؟".

"التبريد وتكييف الهواء".

قال نوسوان: "خيار حكيم جداً. في هذه الأيام، وحده التخصص التقني يدفعك إلى الأمام. يتوقف المستقبل على التكنولوجيا والعصرنة". كان ملء السكون بكلمات طريقةً للتعاطي مع اضطراب المشاعر التي فجّرتها شقيقته في داخله؛ مجرّد كلمات فارغة

للتخلص من الغباء الذي يشعر به.

"أجل، لقد مُنع البلد من التطور لمدة طويلة من الزمن بسبب إيديولوجيات طواها الزمن. ولكن زمننا قد حلّ، وتحدث تغييرات رائعة. ويعود الفضل في ذلك إلى رئيسة وزرائنا. إنها شخصية النهضة".

لم تأبه دينا باستطراده في الكلام، شاعرةً على الأقل بالارتياح بسبب عدم تطرّقه إلى مسألة الزواج. "أهمّ ما في الموضوع الآن هو اعتمادنا سياسات براغماتية بدلاً من نظريات غير ذات صلة. على سبيل المثال، تتم معالجة مسألة الفقر على قدَم وساق، وتُزال كل الأحياء الفقيرة القذرة. أيها الشاب، لست كبيراً بما يكفي لتتذكر كم كانت هذه المدينة جميلة ذات مرة. ولكن بفضل قائدتنا ذات الأفكار الرؤيوية وبرنامج التجميل، ستستعيد المدينة سابق مجدها. عندئذٍ، سترى وتقدّر".

قالت دينا: "لم أتمكن من إنهاء الفساتين الأخيرة إلا بمساعدة مانيك، لقد عملنا بكدّ جَنباً إلى جَنب".

قال نوسوان: "ممتاز، ممتاز حقاً". لقد أصبح كثير الكلام كالعادة. "الأشخاص المثقفون الذين يكدّون في العمل مثل مانيك هم من نحتاج إليهم، وليس ملايين الكسالى والجهّال. ونحن بحاجة أيضاً إلى خطة صارمة لتنظيم النسل، أي التخطيط العائلي. فكل هذه الشائعات عن التعقيم الإجباري لا تساعد في شيء. يجب عليك أن تسمع ذلك الهراء".

فهزت دينا ومانيك رأسَيهما معاً.

"ربما أطلقت السي آي أيه الشائعة التي تفيد أن الناس في القرى النائية يُجَرّون من أكواخهم للخضوع لعمليات تعقيم إلزامية. يا لها من أكاذيب! ولكن، من وجهة نظري، حتى ولو كانت الشائعة حقيقية، فأين المشكلة مع وجود مُعضلة التزايد الكبير في عدد السكان؟".

سأل مانيك بنبرة توحي باتفاق تام في الرأي وليس بتحدٍّ: "أليس بتر أعضاء الناس رغماً عنهم عملاً غير ديموقراطي؟".

"بتر الأعضاء. ها، ها، ها"، قال نوسوان بطريقة لطيفة من دون أن يكون راغباً في التظاهر بأنها فكاهة ذكية. "كل شيء نسبي. في أفضل الأحوال، تتراوح الديموقراطية بين الفوضى الشاملة والإرباك الذي يمكن تحمّله. أتعلم؟ لإعداد عجّة ديموقراطية، عليك كسر عدد قليل من البيض الديموقراطي. ولمكافحة الفاشية والقوى الشريرة الأخرى التي تشكل تهديداً لبلدنا، لا ضَير في اتخاذ إجراءات قوية، ولا سيما عندما تتدخل اليد الأجنبية

باستمرار لزعزعة استقرارنا. هل كنت تعلم أن السي آي أيه تحاول تعطيل برنامج المخطط العائلي أي تحديد النسل أو تنظيمه؟ سمه ما شئت".

هز مانيك ودينا رأسَيهما مجدداً، وفي وقت واحد أيضاً. كانت هناك لمسة تهكمية تصعب ملاحظتها.

راقبهما نوسوان بارتياب قبل أن يكمل حديثه: "ما يحدث هو أن عملاء السي آي أيه يتلاعبون بشحنات أدوات الحد من النَّسل، ويثيرون القلاقل بين المجموعات الدينية. والآن، ألا توافقان على أن الإجراءات المتخذة في سياق حالة الطوارئ ضرورية للوقاية من هذه المخاطر؟".

قالت دينا: "ربما، ولكنني أعتقد أنه يُفترض بالحكومة السماح للمشردين بالنوم على الأرصفة. عندها، ما كان خيّاطايَ ليختفيا، وما كنت لأحضر إلى هنا لإزعاجك".

فرفع نوسوان سبّابته وهزّها بسرعة كمسّاحة الزجاج الأمامي للسيارة، وقال: "إن الأشخاص الذين ينامون على الأرصفة يسيئون إلى الصناعة. كان صديقي يقول في الأسبوع الماضي - وهو مدير شركة دولية، وليس مجرد شركة صغيرة - إن هناك فائضاً سكانياً يبلغ مئتَي مليون نسمة يُفترض إزالته".

"إزالته؟".

"أجل، كما تعلم؛ التخلص منه. إن احتساب هؤلاء في إحصائيات العاطلين عن العمل عاماً بعد عام يزيد الأمر سوءاً ليس إلا. أي نوع من الحياة يَحيون على أيّ حال؟ إنهم يجلسون في قنوات تصريف المياه ويبدون كالجثث. يُعتبر الموت عمل رحمة يؤدّى لهم".

"ولكن، كيف ستتم إزالتهم؟". استعلم مانيك بنبرته الأكثر تعبيراً عن الاحترام وقُرباً إلى القلب.

"الأمر سهل. تتمثل إحدى الطرائق بتقديم وجبة مجانية لهم تحتوي على الزرنيخ أو السيانيد، وتكون تكلفة هذه الوجبة مبرَّرة. باستطاعة الشاحنات الذهاب إلى المعابد والأماكن حيث يتجمعون للتسوّل".

سألت دينا بفضول: "هل يفكر العديد من رجال الأعمال على هذا النحو؟".

"الكثيرون منا يفكرون بهذه الطريقة، ولكننا لا نملك الجرأة حتى الآن للبوح بأفكارنا. ولكن، مع إعلان حالة الطوارئ، بات بإمكان الناس التعبير عن أفكارهم بحرّية. إنه أمر آخر جيد".

قال مانيك: "ولكن الصحف مراقَبة".

قال نوسوان، مُبدياً نفاد صبره أخيراً: "آه أجل، أجل. وما المخيف في ذلك؟ الصحف مراقَبة لأن الحكومة لا تريد نشر أي شيء من شأنه إثارة الجماهير. إنه أمر مؤقت؛ هكذا، يمكن وضع حدّ للأكاذيب، وشيئاً فشيئاً يستعيد الناس ثقتهم بحكومتهم. هذه الخطوات ضرورية للحفاظ على البنية الديموقراطية. لا تستطيعان الكَنس من دون توسيخ المكنسة".

قال مانيك: "لقد فهمتُ". وبدأت الأقوال المأثورة الغريبة بإزعاجه، ولكنه لم يكن يملك الذخيرة لشنّ هجوم مضاد متواضع. لو كان أفيناش موجوداً لَتدبَّر أمر هذا الغبي. وتمنّى لو أنه كان يهتم بالسياسة أكثر في أثناء قيام أفيناش بالتحدث عن الشؤون السياسية.

عندما كان لا يزال يسعى إلى فهم المثل السائر عن كسر بيض ديموقراطي لإعداد عجّة ديموقراطية، حاول مانيك وضع معادلة سياسية تجمع بين الحكم الديموقراطي، والحكم الاستبدادي، والمِقلاة، والنار، والدجاجة، والبيض المسلوق، وزيت الطهو. وظن أنه نجح في الأمر: إعداد العجة الديموقراطية غير ممكن بواسطة بيض يحمل لُصاقات تشير إلى الديموقراطية، ولكن دجاجة استبدادية باضته. لا، إنها معادلة مُربِكة كثيراً. على أيّ حال، لقد فات الأوان على ذلك.

قال نوسوان: "الأمر الهام هو التفكير مليّاً في الإنجازات الملموسة لحالة الطوارئ. لقد استعادت شبكة سكك الحديد دقة مواعيدها. وكما قال صديقي المدير، لقد حدث أيضاً تحسّن كبير في العلاقات الصناعية. في هذه الأيام، باستطاعته الاتصال بالشرطة لاعتقال المشاغبين النقابيين على الفور. فبواسطة قليل من السَّبخة المِلحية الجيدة في مركز الشرطة، يصبح هؤلاء ليِّني العريكة كالزبدة. ويقول صديقي إن الإنتاجية تحسنت إلى حدٍّ كبير. ومن يستفيد من كل ذلك؟ العمال. الناس العاديون. حتى إن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وافقا على التغييرات، وهما يعرضان الآن توفير مزيد من القروض".

محتفظةً بنظرتها المعبِّرة عن أكبر قدر من القلق، قالت دينا: "نوسوان، هل يمكنني أن أطلب شيئاً، رجاءً".

"أجل، بالطبع". وتساءل عن المبلغ هذه المرة؛ أتحتاج إلى مئتَي روبيّة أم ثلاثمئة روبيّة؟

"في ما يتعلق بخطة إزالة مئتي مليون نسمة. هلاّ طلبتَ من أصدقائك ومديري الشركات عدم تسميم أي خياط؟ لأنه يصعب العثور على خياطين".

فكبتَ مانيك ضحكة قبل أن تنفجر. وراقب نوسوان سرّاً الجهد البادي على وجه مانيك بينما كان يقول لها باشمئزاز: "لا جدوى من التحدث إليك عن الأمور الجدّية.

لا أعرف لماذا أزعج نفسي".

قال مانيك برزانة: "لقد استمتعتُ بالإصغاء".

شعر نوسوان بالخداع: هي أولاً، وهو الآن. وتساءل عن نوع السخرية والاستهزاء اللذين سيتطرقان إليه عندما يصبح الاثنان بمفردهما.

قالت دينا: "لقد تسلّيتُ أيضاً، إن القدوم إلى مكتبك هو التسلية الوحيدة التي يمكنني تحمّل تكلفتها، وأنت تعلم ذلك".

فتجهّم وجهه غضباً، وبدأ بتحريك الأوراق على طاولته. "اطلبي ما تريدينه واتركيني بمفردي. هناك الكثير من العمل الذي يتعيّن عليّ القيام به".

"حذارِ، يا نوسوان، حاجباك يقومان بحركات مضحكة". وقررت عدم التفريط بحسن طالعها والتطرق إلى الأعمال مباشَرةً. "لم أتخلَّ عن العمل مع شركة التصدير. إنها فقط مسألة وقت قبل أن أعثر على خياطَين آخرَين. ولكن، حتى ذلك الوقت، لا أستطيع قبول مزيد من طلبات الخياطة".

لم تصبح لحظة الاستجداء - وهي اللحظة التي تكرهها - أقل مرارة مع شرح واقع الحال بطريقة رشيقة أو هزلية. "مبلغ مئتي وخمسين روبيّة سيكون كافياً لتدبّر أموري هذا الشهر".

فرنّ نوسوان الجرس مستدعياً الحاجب، وملأ إيصال دَفع قيمة نقدية. وشاهد مانيك عرضاً عنيفاً لفنّ الكتابة حيث كان القلم يحزّ بقسوة على الاستمارة، واضعاً النقاط على الحروف باندفاعات ثقيلة الحركة كما لو أنه يتنافس مع الآلة الكاتبة التي تعمل في الغرفة المجاورة.

حمل الحاجب الإيصال إلى أمين الصندوق في الجانب الآخر من الممر. كانت مروحة السقف المُنهَكة تكدّ كمصنع صغير يصدر ضجيجاً. كثير من المال، قالت دينا لنفسها، ولا يزال مكتبه غير مبرَّد. ووجهت نظرها نحو الأسفل، مثبّتةً إيّاه على فتاحة مغلَّفات من خشب الصندَل موضوعةً بشكل استراتيجي داخل مغلَّف مفتوح جزئياً. وسلّم الحاجب المال وغادر.

وقال نوسوان: "ما كان ذلك ليكون ضرورياً لو...". وألقى نظرة على دينا، وهو غير قادرٍ على النظر إلى عينيها مباشرة، ومن ثم نظر إلى مانيك، وتخلّى عن الأمر. "تفضلي". وسلّمها الأوراق النقدية.

قالت مُشيحةً بنظرها: "شكراً لك".

"لا تكترثي بالمبلغ".

"سأُعيده لك في أقرب وقت ممكن".

فأومأ برأسه ملتقطاً فتاحة المغلَّفات، وفتح بقية المغلّف.

قالت دينا عندما نزلا من الحافلة: "على الأقل، لقد جنّبني خُطبته المفضَّلة اليوم بفضل حالة الطوارئ. إنه أمر يجب أن أكون ممتنّة له. وما الرهيب في الزواج ثانيةً؟"، قالت مقلِّدةً شقيقها بصوت يتظاهر بالتقوى. "ما زلتِ جميلة المظهر، أضمن أن باستطاعتي إيجاد زوج صالح لك. لن تصدّق كم مرة قال لي ذلك".

قال مانيك: "ولكنني أصدّق يا خالتي. إنه الأمر الوحيد الذي أتفق به مع شقيقك. أنتِ جميلة المظهر".

فسددت ضربة على كتفه قائلة: "إلى جانب مَن تقف؟".

قال بتقدير: "إلى جانب الحقيقة والجمال ولكن، لا بد من أن يكون الأمر مضحكاً عندما يلتقي نوسوان وأصدقاؤه للتفوّه بهرائهم".

"هل تعرف ما الذي كنت أتذكره في مكتبه؟ عندما كان فتى صغيراً. كان يتحدث عن غدوّه صياد طرائد كبيرة وقتل الفهود والأسود، ومصارعة التماسيح مثل طرزان. وذات يوم، دخلت فأرة صغيرة إلى غرفتنا، فقال له والدنا، انظر يا بابا، هناك نمر شرس ويمكنك أن تكون الصياد. فهرب نوسوان صائحاً ولجأ إلى والدتنا".

أعادت المفتاح إلى القفل. "الآن يريد إزالة مئتَي مليون شخص. لا يكفّ أبداً عن الإعراب عن رغبته في القيام بأمور لا يستطيع القيام بها".

دخلا الشقة، وطالعهما سكون آلتَي الخياطة. لقد بدا ضحكهما غير مناسب، فتراجع بسرعة وتوقف.

الإبحار تحت راية واحدة

دخلت الشاحنة المدينة، مزمجِرة، بعد منتصف الليل سالكةً طريق المطار. كان جانبا الطريق السريع يعجّان بالبلدات النائمة المؤلّفة من أكواخ حقيرة والمستعدة للانتشار وصولاً إلى الطريق الرئيس المزفَّت. وما كان يكبح جماح الحياة وراء الحواشي العشبية هو التهديد الصادر عن الشاحنات الضخمة متعددة الدواليب الهادرة ذهاباً وإيّاباً. كانت مصابيح السيارات الأمامية تكشف عن عمّال النّوبة الأخيرة من الليل، أولئك الأشباح المرهقين الذين يشقون طريقهم بحذر بين حركة السير والمجرور المفتوح.

قال إيشفار: "تلقت الشرطة أوامر بإزالة كل الأحياء الفقيرة، لماذا لا تزال هذه الأحياء قائمة؟".

فشرح سيد المتسوّلين قائلاً إن الأمر ليس بهذه البساطة؛ فكل شيء يعتمد على التدابير طويلة الأمد التي اتفق عليها مالك الحي مع الشرطة.

قال أوم: "إنه أمر غير مُنصف". حاولت عيناه اختراق الليل، وكشفت بُقَع باهتة من ضوء القمر امتداداً لامتناهياً من الأكواخ المرقَّعة كما لو أنها قروح جَرِبة تزحف في حُلُم مزعج على الجسم المتعفّن للعاصمة. وعندما غاب القمر وراء السُّحُب، غاب الحيّ عن الأنظار. واستمرت الرائحة الكريهة في الكشف عن حضوره.

بعد بضعة كيلومترات، دخلت الشاحنة الأجزاء الداخلية للمدينة. كانت أعمدة المصابيح وأضواء النّيون تغسل الأرصفة ببحر من الضوء الأصفر المائي حيث تنام تماثيل الليل غالاتيا وغانغابن وغوخال وغوبال، المنكمشة وذات العيون المجوَّفة، والتي ستعود للحياة مع ضوضاء الفجر لتجرّ، وتنقل، وترفع، وتبني، مُرهِقةً أوتارها العضلية لأجل المدينة التي تسعى بشكل يائس إلى التجميل.

قال أوم: "انظر، الناس ينامون بسلام، إذ لا وجود لرجال شرطة يزعجونهم. ربما أُلغي قانون حالة الطوارئ".

قال سيد المتسوّلين: "لا، لم يُلغَ، ولكنه أصبح لعبة على غرار كل القوانين الأخرى. متى عرفتَ القواعد، فاللعب بها سهل".

طلب الخياطان أن يتم إنزالهما بالقرب من الصيدلية. "ربما سمح لنا الحارس الليلي بالإقامة عند المدخل مجدداً".

فأصرّ سيد المتسوّلين على رؤية مكان عملهما في بادئ الأمر. وسارت الشاحنة لمدة دقائق قليلة إضافية وتوقفت خارج مبنى دينا حيث أشارا إلى شقتها.

قال سيد المتسوّلين: "حسناً"، وقفز إلى الخارج، "لنتحقق من عملكما مع مستخدِمتكما". وطلب من السائق الانتظار، وتوجه إلى الباب بخطى واسعة وسريعة.

"الوقت متأخر جداً لإيقاظ السيدة دينا"، قال إيشفار ملتمساً ومنتفضاً لدى مشيه بسرعة على كاحله المصاب، "إنها سريعة الغضب. سنصطحبك إلى هنا غداً، أعدك، أُقسم باسم والدتي المتوفاة".

كان المتسوّلون والعمال المصابون في الشاحنة يرتجفون ويتوقون إلى ذراعَي الحركة المريحتَين اللتَين هدهدتاهم طوال الرحلة، ويعكّر هدير المحرّك المتكاسل صفو سكون الليل. فشرعوا بالصراخ.

توقف سيد المتسوّلين قليلاً عند الباب الأمامي لتفحّص اللوحة التي تحمل الاسم، ودوّن ملاحظة على مفكرته. ومدّ سبّابته بعد ذلك وقرع جرس الباب.

فأمسك إيشفار برأسه تعبيراً عن قنوطه وقال: "كم ستكون غاضبة بسبب إخراجها من السرير في هذا الوقت المتأخر!".

قال سيد المتسوّلين: "أنا متأخر أيضاً، لقد أغفلتُ ممارسة التعبدية، ولكنني لا أتذمّر، أليس كذلك؟"، وضغط على الجرس مراراً وتكراراً عندما لم يُجب أحد، ثمّ أطلق سائق الشاحنة بوقه لاستعجاله.

قال أوم متوسّلاً: "توقف، رجاءً! بهذه الطريقة سنفقد بالتأكيد عملنا!". فابتسم سيد المتسوّلين بصبر وواصل تدوين ملاحظاته؛ لم تكن الكتابة في الظلام تشكل أي مشكلة بالنسبة إليه.

في الداخل، أزعج جرس الباب دينا بقدر ما أزعج الخياطَين. فهرعت إلى غرفة مانيك وقالت: "استيقظ، بسرعة!". كان بحاجة إلى عدد قليل من الهزات القوية قبل أن يتحرك. "يبدو كعصفور ولكنه يشخر كجاموس! استيقظ، هيا! هل تسمع؟ شخص ما يقرع الباب!".

"من؟".

"لقد ألقيت نظرة سريعة عبر ثقب الباب، ولكنك تعرف عينَيّ. كل ما يمكنني قوله إن هناك ثلاثة أشخاص. أريد منك أن تلقي نظرة".

لم تكن قد أنارت النور بعد، آملةً رحيل الزائرين غير المدعوّين. وطالبةً منه السير برِفق، تقدّمته إلى الباب وأمسكت بالرِّتاج. فاسترق النظر وعاد بحماسة.

"افتحيه يا خالتي! إنهما إيشفار وأوم مع شخص آخر!".

في الخارج، سمعا صوته ونادا، "هذا نحن يا سيدة دينا، نحن آسفان جداً لإزعاجك. رجاءً سامحينا، لن يدوم الأمر طويلاً..."، قالا بما يشبه طرح سؤال.

فأنارت نور الشرفة بحذر، وفتحت الباب قليلاً... ومن ثم واسعاً وقالت: "هذا أنتما! أين كنتما؟ ماذا حدث؟".

ولم تحاول إخفاء ارتياحها، وفاجأها الأمر: لقد استمتعت بكلّيّة ارتياحها، وظهرت مشاعرها على لسانها من دون أيّ تصنّع.

قالت: "ادخلا، ادخلا! لقد قلقنا عليكما طوال هذه الأسابيع!".

لزم سيد المتسوّلين مكانه في أثناء مرور إيشفار فوق عتبة الباب، عارجاً، وابتسم ابتسامة متكلّفة، مجرجراً وراءه قِطع القماش القذرة التي ضمّد الطبيب كاحله بها. وتبعه أوم وداس على الضِّمادة بسبب إسراعه. وانسلاّ عبر باب المدخل المُظلم بخجل إلى ضوء الشرفة الكاشف.

قالت دينا: "انظرا إلى حالتكما! وقد شلّت قواها بسبب وجهَيهما المنهكَين، وملابسهما القذرة، وشعرهما الملبَّد. لم تتفوّه ومانيك بأي كلمة للحظات، وحدّقا إليهما. بعد ذلك، اندفعت الأسئلة من فاهَيهما الواحد تِلوَ الآخر، وكانت الإجابات غير المكتملة مضطربة أيضاً.

قاطع سيد المتسوّلين الذي كان لا يزال منتظراً عند الباب شروحات إيشفار وأوم المُربَكة وقال: "أريد فقط التحقق من الأمر؛ هذان الخياطان يعملان لحسابك؟".

"أجل، لماذا؟".

"جيد. يُسعدني أن أرى الجميع سعداء وقد اجتمع شملهم مجدداً". وأطلقت الشاحنة بوقها مجدداً، واستدار ليغادر.

قال إيشفار: "انتظر، أين نسدد الدَّفعة الأسبوعية؟".

"سآتي لاستلامها". وأضاف أنهما إذا أرادا الاتصال به في أي وقت، يُفترض بهما إعلام الدودة الذي سيكون خارج فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل منطقةَ عمله الجديدة.

سألت دينا عندما أُغلق الباب: "أي دفعة، أي دودة؟ ومن هو ذلك الرجل؟".

خرج الخياطان عن الموضوع الرئيس ليقدّما شرحاً، بدءاً بوصول سيد المتسوّلين إلى معسكر العمل، واستطراداً برواية شانكار، والتطرق مجدداً إلى الرواية الرئيسة، مربَكين

ومربِكَين مستمعَيهما. وانتهت فترة السَّرد المُحزنة؛ كان الإرهاق يغمر المكان الذي ساده الذُّعـر. وتحسـس إيشـفار الضِّمـادة لربطهـا بشـكل ملائم حـول كاحله، ولكـن يديه كانتا ترتجفان، فتولى أوم مهمة ثني الطرف غير المربوط.

"إنه خطأ كبير العمال، لقد...".

"ولكن ذلك حدث قبل قدوم معقب المعاملات...".

"على أيّ حال، بعد إصابة كاحلي، كان من المستحيل...".

أفلت سياق الأحداث من قبضتيهما، فكان إيشفار يروي جزءاً منها ويتولى أوم سرد جزء آخر. بعد ذلك، اختلطت الأمور عليهما ولم يتمكنا من سرد ما حصل. فخبا صوت إيشفار، وضغط رأسه بيدَيه محاولاً عصر الكلمات لإخراجها. وتلعثم أوم وشرع بالبكاء.

قال منتحباً وممسـكاً بشـعره: "كان الأمر رهيباً، طريقة معاملتنا، ظننت أنني وعمي سنموت هناك...".

فربّت مانيك على ظهره، قائلاً إنهما سالمَين الآن، وأصرّت دينا على أن أفضل شيء يقومان به هو أخذ قسط كبير من الراحة، ومن ثم التحدث عند الصباح: "ما زلتما تملكان عدة النوم. ابسطاها هنا على الشرفة واخلدا إلى النوم".

الآن، حـان دور إيشـفار ليُفضـي بمكنونـات صدره. فجثا علـى ركبتَيه أمامها ولمس قدمَيهـا. "آه يـا سـيدة دينـا! كيف أشـكرك؟ يا للطافتك! نحن خائفـان جداً من الخارج... حالة الطوارئ هذه، الشرطة...".

لقد أُحرجت بتصرّفه. فسحبت أصابع قدمَيها من قبضتي يدَيه. كان إمساكه بقدمَيها مفاجئـاً لدرجـة أن خفّهـا الأيسـر بقـي في الخلـف بين أصابعه المتشـبّثة. فمد يده، وأعاد الخفّ إلى قدمها برِفق.

قالـت بصرامـة، مُربَكـة: "رجـاءً، انهـض... على الفور، اسـمعني، سـأقول ذلك مرة واحدة. لا تجثُ على ركبتَيك أمام أي إنسان".

"حسناً"، ونهض بامتثال مضيفاً: "سامحيني، كان يُفترض بي أن أعرف طريقة أفضل للتصرف. ولكن ما العمل يا سيدة دينا؟ فأنا لا أستطيع التفكير في طريقة لشكرك".

مستمرةً في الشعور بالإحراج، قالت إن قدراً كافياً من الشكر تم توجيهه لليلة واحدة. وبسط أوم عدة النوم بعد أن مسح عينَيه بكمّه. فسأل عما إذا كان بإمكانهما غسل الغبار عن أيديهما ووجهَيهما قبل النوم.

"ليس هناك قدر كبير من الماء، فقط ما هو موجود في الدلو. لذلك، كونا مقتصدَين. إذا كنتما عطشانَين، فخذا بعض الماء من إناء الشرب في المطبخ". وأقفلت باب الشرفة،

ودخلت مع مانيك.

قال هامساً: "أنا فخور بك، يا خالتي".

"هل أنت كذلك الآن؟ شكراً لك يا جدي".

لم يحمل نور الصباح إجابات عن الأسئلة التي تقلّبت في رأس دينا طوال الليل، ولن تستطيع المجازفة بفقدان الخياطَين مجدداً. ولكن ما مدى الصرامة التي يتعيّن عليها اتّباعها، وإلى أي مدى يمكنها الانحناء؟ أين هو الخط بين التعاطف والغباء، واللطف والضعف؟ هذا من وجهة نظرها. أما من وجهة نظرهما، فقد يكون هناك خط بين الرحمة والقسوة، والمراعاة والشدة. وباستطاعتها رسم الخط على هذا الجانب، ولكنهما قد يريانه في ذلك الجانب.

استيقظ الخياطان عند السابعة، ووضّبا عدة النوم. قال إيشفار: "لقد نمنا جيداً، كان النوم على شرفتك رائعاً".

أخرجا ملابس نظيفة من الصندوق الكبير، واستعدا للمغادرة إلى حمّام سكة الحديد: "سنتناول الشاي في فيشرام، ومن ثم نعود على الفور... إذا كان الأمر يناسبك".

"تعنيان للشروع بالخياطة؟".

قال أوم بابتسامة ضعيفة: "أجل، بالتأكيد".

فالتفتت إلى إيشفار قائلة: "ماذا عن كاحلك؟".

"لا يزال يؤلمني، ولكن باستطاعتي تحريك الدوّاسة بقدم واحدة. لا حاجة إلى إرجاء العمل".

ولاحظت أقدامهما المتشققة والمليئة بالكدمات. "أين حذاءاكما؟".

"لقد سُرقا".

"يكون هناك أحياناً حطام زجاج في الشارع، فالثملون يحطمون قنانيهم. كما لا يمكنكما المقامرة بأقدامكما الثلاث المتبقية". وعثرت على زوج أحذية يلائم أوم، وأعطى مانيك إيشفار حذاء التنِس الخاص به.

قال إيشفار: "مريح جداً، شكراً لك". ومن ثم استعلم بخجل عما إذا كان بإمكانهما اقتراض خمس روبيات للشاي والطعام.

قالت: "هناك أكثر بكثير من خمس روبيات ستحصلان عليها من الطلبية الأخيرة".

"حقاً؟"، وشعرا بفرح غامر لأنهما افترضا أنهما فقدا حقهما بأي دفعة لأنهما لم ينجزا العمل.

"قد يلجأ بعض المستخدِمين إلى اعتماد هذه الصيغة. أنا أثق بأَجر شريف لعمل

شريف"، وأضافت ممازحة، "ربما يمكنكما مشاطرة الأَجر مع مانيك، فهو يستحق حصة ما".

"لا، لقد ساعدتُ فقط على تركيب عدد قليل من الأزرار. لقد قامت الخالة دينا بكل شيء".

قال أوم: "انسَ كلّيّتك، كُن شريكنا".

قال مانيك: "صحيح، وسنفتح مشغلنا الخاص".

قالت لأوم موبّخة: "لا تُعطِ نصيحة سيّئة، يُفترض بالجميع أن يتعلموا. آمل أن ترسل أولادك إلى المدرسة عندما تتزوج".

قال إيشفار: "أه أجل! سيقوم بذلك، ولكن أولاً يجب أن نجد له زوجة".

بعد مغادرة مانيك إلى الكلّيّة بتردد وذهاب دينا إلى أوروفوار إكسبورتس لإحضار قطع قماش جديدة، أمضى الخياطان الوقت في فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل، حيث رحّب النادل بعودة زبونَيه الدائمَين بسرور. فانتهى من خدمة الزبائن عند المنضدة الأمامية - كوب حليب، ستة أطباق باكورا، مِغرفة قنّبيط - وانضم إليهما على الطاولة المنعزلة.

قال معلِّقاً: "لقد فقدتما بعض الوزن، أين كنتما طيلة هذه المدة؟".

قال إيشفار: "نظام غذائي حكومي خاص". وأخبره عن سوء طالعهما.

صرخ الطاهي المتعرّق، مزمجراً فوق أجهزة الطبخ: "أنتما مدهشان، كل شيء يحدث لكما من دون سواكما. كلما قدمتما إلى هنا، يكون لديكما مغامرة جديدة تسلّيانا بها".

قال أوم: "ليس نحن بل المدينة، معمل قصص، هذا ما هي عليه الحال، طاحونة لا تتوقف".

"سمِّها ما شئت، لو كان كل زبائننا مثلكما، لتمكنّا من إنتاج ماهابارااته جديدة... نسخة فيشرام".

قال إيشفار: "رجاءً، لا مزيد من المغامرات، قصص المعاناة ليست مدعاةً للتسلية عندما نكون الشخصيّتَين الرئيستين".

أحضر النادل الشاي لهما، وغادر بعد ذلك لخدمة مزيد من الزبائن عند المنضدة. لقد شكل الحليب في الشاي رغوة قشدية تناولها أوم بالملعقة، ولعق شفتَيه. وقدّم له إيشفار كوبه، فتناول الرغوة الطافية أيضاً.

خلال هدوء حركة المشاة على الرصيف، دنا شانكار من الباب لإلقاء التحية عليهما؛ كان يتسوّل في الخارج عندما وصلا. فلوّح له إيشفار وقال: "إذاً، يا شانكار، هل أنت سعيد بالعودة وبعملك الشاق؟".

"ما العمل، قال سيدي وصاحب عملي إنه اليوم الأول، استرِخ، نَم. وهكذا، نمتُ هنا. وبعد ذلك، بدأت النقود المعدنية بالسقوط داخل صفيحتي المعدنية. يا له من رنين مريع؛ بجانب رأسي تماماً. فكلما أغمضتُ عينَيّ تفتحان واسعاً من الهلَع. لن يدعني الناس أرتاح".

كان روتينه في صباح ذلك اليوم بسيطاً. يصلصل النقود المعدنية، ويُصدر صوت عويل، أو يسعل بصوت مبحوح بشكل متقطع حتى تسيل الدموع على خدَّيه. وللفت الانتباه، يقوم بجرّ المنصة بضع أقدام إلى اليسار، ومن ثمّ يعود إلى اليمين. أسرّ لهما: "أتعلمان؟ لقد طلبت من صاحب عملي أن ينقلني خصّيصاً من محطة سكة الحديد إلى هنا، الآن يمكننا الالتقاء في غالب الأحيان".

قال أوم، مُلقياً تحية الوداع وملوِّحاً: "هذا جيد، نراك مجدداً في وقت قريب".

كانت الشقة مُقفلة، فانتظرا بجانب الباب. قال أوم: "آمل ألا يكون جامع الإيجارات ذاك يتجوّل خلسةً حول المبنى". كانت عشر دقائق مَشوبة بالقلق قبل توقف سيارة أجرة. فساعدا دينا على إنزال لفّات القماش ونقلها إلى الغرفة الخلفية.

قالت لإيشفار محذِّرة: "لا تحمل وزناً ثقيلاً، انتبه إلى كاحلك، بالمناسبة، سيكون هناك إضراب في المصنع. لا مزيد من القماش حتى ينتهي الإضراب".

"لا تنتهي المتاعب أبداً". وفجأةً، تذكّر إيشفار ما قام به في الليلة السابقة، واعتذر مجدداً بسبب جثوّه عند قدمَيها قائلاً: "كان يُفترض بي أن أعرف طريقة أفضل للتصرف".

سألت دينا: "هذا ما قلتَه الليلة الماضية. ولكن لماذا؟".

"لأن أحدهم جثا عند قدمَيّ ذات مرة، وجعلني أشعر بالسوء".

"من هو؟".

"إنها قصة طويلة جداً"، قال إيشفار، غير راغب في إخبارها بكل شيء عن حياتهما، ولكنه كان متلهّفاً لمشاطرتها القليل، "عندما تدرّبت وشقيقي - والد أوم - عند خياط، قدّمنا له بعض المساعدة".

"ماذا فعلتما؟".

قال متردّداً: "حسناً... العم أشرف مسلم ووقعت أعمال شغب هندوسية-مسلمة في زمن الاستقلال، كما تعلمين. لقد حدثت مشاكل في البلدة، و... تمكنا من مساعدته".

"وهكذا جثا هذا الشخص عند قدمَيك؟".

"لا"، وأحرجت الذكرى إيشفار حتى بعد ثمانية وعشرين عاماً، "لا، بل زوجته، العمة ممتاز. وحملني ذلك على الشعور بسوء كبير. بدا الأمر كما لو أنني كنت أستفيد

من سوء طالعها بطريقة ما".

"هذا ما شعرتُ به بالتحديد مساء أمس. لننسَ ذلك الآن". كانت تودّ طرح عدد من الأسئلة عليه، ولكنها احترمت تردده. سيخبرانها المزيد يوماً ما عندما يكونان مستعدَّين، إذا أرادا ذلك.

في هذه المرحلة، أضافت أجزاء المعلومات إلى ما كان مانيك قد كشفه عن حياتهما في القرية. وعلى غرار لحافها، كانت سلسلة الأحداث تتخذ شكلاً بالتدريج.

طوال ذلك اليوم الأول، استمرت دينا تناضل في اختيار الكلمات لصياغة السؤال الحاسم عندما يحين الوقت. ماذا عن: أيمكنكما النوم على الشرفة حتى تجدا مكاناً؟ لا، فالأمر سيبدو كما لو أنها متلهّفة لبقائهما هناك. ماذا عن استهلال الأمر بالسؤال: هل لديكما مكاناً تنامان فيه هذه الليلة؟ ولكن ذلك بدا نِفاقاً لأنه من الواضح أن لا مكان لهما. فلتطرح سؤالاً مختلفاً: أين ستنامان الليلة؟ أجل، لا بأس به. وجرّبته مجدداً. لا، إنه يعبّر عن كثير من الاهتمام. كانت الليلة السابقة سهلة جداً؛ لقد خرجت الكلمات تلقائياً ببساطة وصدق.

راقبت عمل الخياطَين طوال فترة بعد الظهر، وأقدامهما ملتحمة بالدوّاستَين، حتى عودة مانيك إلى المنزل وتذكيرهما باستراحة الشاي. قالا لا، ليس اليوم... ووافقتهما الرأي قائلةً: "لا تدعهما يخسران المال. لقد خسرا ما يكفي في هذه الأسابيع القليلة الماضية".

"ولكنني كنت سأدفع".

"يجب ألاّ تبدّد مالك أيضاً. ما خَطب الشاي الذي أُعدّه؟". ووضعت الماء للجميع وأخرجت الأكواب، مُبقيةً على حِدة تلك التي تحمل نقوش ورود زهرية اللون على حافاتها. وبانتظار بدء الماء بالغليان، فكرت ملياً في أُحجية كلماتها. ماذا لو بدأت بالسؤال التالي: هل كانت الشرفة مريحة؟ لا، هو يبدو زائفاً.

عندما حان وقت المغادرة، وضع الخياطان الغطاءين على آلتَي الخياطة بأسى. ونهضا بصعوبة، وتنهدا، وسارا نحو الباب.

لقد شعرت دينا في لحظة من الزمن كما لو أن باستطاعتها جعل كل شيء برّاقاً وذهبيّ اللون بكلماتها المختارَة.

"في أي وقت ستعودان؟".

قال أوم: "متى شئتِ، يمكننا المجيء في وقت مبكّر جداً إذا أردتِ". وأومأ إيشفار برأسه.

استغلّت الفرصة المناسبة؛ لقد وجدت أجزاء الأحجية أماكنها المحددة، فقالت: "حسناً، لا حاجة إلى الاستعجال. تناولا عشاءكما، وعودا بعد ذلك. أكون ومانيك قد أنهينا طعامنا".

"تعنين أنه يمكننا...؟".

"على الشرفة؟".

قالت، مسرورةً بمدى حيادية كلماتها: "حتى تجدا مكاناً لنفسَيكما"؛ رُسم الخط بدقة.

لقد أشعرها امتنانهما بالدفء، ولكنها رفضت عرض تلقي أي مبلغ من المال في المقابل قائلةً: "لا، أنا لا أؤجّر أي شيء. كل ما أقوم به هو وضعكما في منأى عن أفراد الشرطة الفاسدين أولئك".

أوضحت أنه يجب عليهما الحد من خروجهما من المنزل إلى أقصى حدٍّ لأن في الأمر مجازفة كبيرة مع صاحب الملك. فرحلة الاغتسال إلى محطة سكة الحديد كل صباح يمكن إلغاؤها. "يمكنكما الاستحمام وتناول الشاي هنا، ما دمتما تستيقظان باكراً قبل انقطاع الماء. تذكّرا أن لديّ حمّاماً واحداً فقط". لقد حمل هذا الأمر أوم على التساؤل عن سبب ارتكاب أحدهم حماقة امتلاك أكثر من حمّام واحد، ولكنه لم يسأل.

"تذكّرا، لا أريد أن تعمّ الفوضى هناك".

فوافقا على كل شروطها، وأقسما على أنهما لن يزعجاها. قال إيشفار: "ولكننا نشعر حقاً بالسوء بسبب بقائنا مجّاناً".

"إذا ذكرتَ المال مرة أخرى، فسيكون عليك العثور على مكان آخر".

فشكراها مجدداً، وغادرا لتناول العشاء، واعدَين بالعودة عند الثامنة للعمل مجدّداً على الخياطة مدّة ساعة قبل أن يحين موعد النوم.

"لكن يا خالتي، لماذا ترفضين عرضهما بدفع إيجار؟ سيشعران بحال أفضل إذا تقاضيتِ قليلاً من المال. وسيساعدك ذلك في النفقات".

"ألا تفهم شيئاً؟ إذا قبلتُ المال، فهذا يعني تأجيراً لشرفتي".

منحنيةً فوق المغسلة، نظّفت دينا أسنانها بمعجون الأسنان، وراقب إيشفار الرغوة تسيل من فمها وقال: "طالما تساءلتُ عما إذا كان ذلك مفيداً للأسنان".

فبصقت وغرغرت قبل أن تجيب: "مفيد بقدر إفادة أي معجون أسنان آخر، كما أعتقد. أيّ معجون تستخدم؟".

"نستخدم بودرة الفحم الخشبي، وتعلق بين أسناننا أحياناً".

قال مانيك إن أسنان إيشفار وأوم أفضل من أسنانه. قالت: "أَرِني". وكشف عنها. "وأسنانكما؟" سألت الخياطَين.

واصطف الثلاثة أمام المرآة وعضّنوا شفاههم مُظهرين أسنانهم القاطعة. وقارنت أسنانها مع أسنانهم. "مانيك مُحِق، أسنانكما أكثر بياضاً".

فقدّم لها إيشفار قليلاً من بودرة الفحم الخشبي لتقوم باختبارها، وعصرت نصف بوصة من معجون الأسنان على إصبعه قام بتشاطره مع أوم. قالا معاً: "المذاق لذيذ".

قالت: "إنه جيد، ولكن دفع المال لقاء المذاق هو هدر للمال ما لم يكن الأمر متعلقاً بالطعام. أظن أنني سأنتقل إلى استخدام الفحم الخشبي وأدّخر المال". وقرر مانيك أن يحذو حُذوها.

أدار أهل المنزل دولاب الصباح بأقل قدر من الاحتكاك. كانت دينا أول من استيقظ، واستيقظ مانيك أخيراً. وعندما انتهت من الحمّام، دخل الخياطان وخرجا بسرعة كبيرة، فارتابت بوجود قصور في المحافظة على النظافة حتى رأت وجهَيهما المفروكَين جيداً وشعرهما المبلَّل. وبأخذها نفَساً عميقاً بقربهما، ثبت لها نظافة بشرتَيهما من خلال الرائحة النظيفة المنبعثة منهما.

بالرغم من أنهما كانا يجدان رفاهية لا يمكن تخيّلها داخل الحمّام، لم يكن الخياطان يطيلان البقاء فيه. لقد كان اغتسالهما بسرعة فائقة أمراً طبيعياً بالنسبة إليهما لأنهما شحذا مهاراتهما خلال الأشهر القليلة السابقة في الأماكن العامة حيث الوقت على درجة كبيرة من الأهمية. الصنبور في الزقاق بقرب ظُلّة نواز؛ الصنبور الوحيد وسط مستوطنة الأكواخ؛ المراحيض المحطَّمة في حمّام سكة الحديد المكتظّ؛ المزراب الراشح في مشروع الرّي. لقد ساعدهما كل ذلك على إتقان الاغتسال بسرعة في غضون ثلاث دقائق لكل منهما. وهما لم يشغّلا أبداً مسخّن الماء، مفضّلَين الماء البارد، وكانا يحافظان على ترتيب الحمّام.

لكنها لم تكفّ عن الشعور بعدم الارتياح لفكرة وجود جسدَيهما في حمّامها. كانت محترسة وتنتظر الانقضاض عليهما إذا رأت ما يشير إلى أنهما استخداما صابونتها أو منشفتها. إذا كان عليهما العيش هنا لأيام قليلة، فسيكون ذلك وفقاً لشروطها ومن دون تراخٍ.

ما كانت تكرهه أكثر من سواه دأب إيشفار كل صباح على دسّ أصابعه في حَلقه محاولاً التقيّؤ. كانت العملية مُرفَقة بعويل أساسي، وهو أمر غالباً ما كان يصدر عن شقق أخرى ولكن ليس بهذا القرب، فتشعر بقشعرير في جسدها.

قالت بعد الانتهاء من شعائره اليومية: "لقد أخفتني".

فابتسم قائلاً: "جيد جداً للمعدة التخلص من فائض الصفراء".

قال أوم، مؤيّداً دينا: "احترس، يبدو الأمر كما لو أن كبدك يخرج مع الصفراء". لم يسبق له أن وافق على ممارسة عمه؛ لقد حاول إيشفار أن يعلّمه التأثيرات العلاجية لهذه الممارسة، ولكنه تخلى عن الأمر بسبب عدم تعاون ابن شقيقه".

قال مانيك: "ما تحتاج إليه هو سمكري، ليثبّت صنبوراً صغيراً في جَنبك. حينئذٍ، كل ما عليك القيام به هو فتحه للتخلص من فائض الصفراء". وبدأ وأوم بتقليد إيشفار في تقيُّئه.

بعد أيام قليلة من المزاح، عدّل إيشفار عادته. لقد أصبح العويل أكثر انضباطاً، ولم تعد أصابعه تمتد عميقاً داخل حَلقه.

شمّ أوم بشرة مانيك وقال: "رائحتك أفضل من رائحتي. لا بد من أنه الصابون الذي تستخدمه".

"أستخدم البودرة أيضاً".

"أَرِني".

أحضر مانيك العلبة الصفيحية من غرفته.

"وأين تضعها؟ على كل جسمك؟".

"أضع قليلاً منها على راحة يدي وأدهن مِرفقَيّ وصدري".

في يوم قبض الأجرة، اشترى أوم كتلة صابون متراصة وعلبة صفيحية من لاكمي تالكوم باودر.

إن نموذج الحياة اليومية، قالت دينا لنفسها في نهاية الأسبوع الأول، مماثل لنموذج فستان مُخاط بشكل جيد، حيث لا يكون على أربعتهم الشدّ أو السحب ليجعلوا الحافات متراصفة، وذلك إذا كانت الدرزات مستقيمة ومرتَّبة.

من جهة أخرى، كان إيشفار لا يزال مضطرباً بسبب استفادته وابن شقيقه من طيبة دينا. قال: "لن تقبلي أي إيجار منا، وتسمحين لنا باستخدام شرفتك وحمّامك، وتقدّمين لنا الشاي. هذا كثير، ويجعلني هذا الأمر أشعر بالسوء".

لقد ذكّرها تصريحه بها وبذنبها. كانت تعلم أن كل ما قامت به يعود إلى رغبتها في المحافظة على نفسها من الأذى، أي الحؤول دون قيام الشرطة باعتقال الخياطَين مجدّداً، وإبقائهما بمنأى عن أعين الجيران وجامع الإيجارات الفضوليين. وها هما إيشفار وأوم يحيطانها بلطفهما وسخائهما. فالخداع والرّياء هما من نَسج خيالها، قالت لنفسها.

قالت بفظاظة: "إذاً، ما هو مخططكما؟ تهينانني بخمسين بايزا لقاء الشاي؟ أتريدان

معاملتي كما لو أنني كشك على قارعة الطريق؟".

"لا، لا، أبداً. ولكن أليس هناك ما يمكننا القيام به لأجلك في المقابل؟".

فقالت إنها ستُعلمهما بالأمر.

في نهاية الأسبوع الثاني، كان إيشفار لا يزال ينتظر سماع شيء منها. وقام بالمبادرة بعد ذلك. ففي أثناء استحمامها، أحضر المكنسة والمِجرفة من المطبخ وكنس الشرفة، والغرفة الأمامية، وغرفة مانيك، وغرفة الخياطة. وكلما أنهى غرفة، يقوم أوم بمسح الأرض بالممسحة.

كانا لا يزالان منهمكَين بذلك عندما خرجت دينا من الحمّام، وقالت: "ماذا يجري هنا؟".

قال إيشفار بحزم: "اعذريني، ولكنني اتخذت قراري، سنتشاطر أعمال التنظيف اليومية من الآن فصاعداً".

قالت: "لا يبدو ذلك صائباً".

قال أوم، عاصراً الممسحة بنشاط: "يبدو جيداً".

متأثرة بعمق، قامت بسكب الشاي خلال إنهائهما أعمال التنظيف. ثمّ دخلا إلى المطبخ لتنظيف الأغراض وإعادتها إلى مكانها، فسلّمت كوبَين إلى أوم.

لدى ملاحظة نقوش الورود زهرية اللون على حافاتها، أشار إلى الخطأ الحاصل، "الأكواب التي تحمل نقوش الورود زهرية اللون لنا"، ومن ثم سكت إذ أوحى وجهها بأنها مُدركة لذلك.

"ماذا؟"، سألت، وأخذت الكوب زهري اللون لتناول الشاي فيه على الدوام منذ تلك اللحظة، "هل هناك خطب ما؟".

قال بصوت منخفض: "لا شيء". واستدار، آملاً ألا تكون قد رأت عينيه تدمعان.

* * *

قالت دينا: "هناك شخص عند الباب يسأل عنك، الشخص طويل الشعر نفسه الذي جاء من قَبل".

فتبادل إيشفار وأوم نظرات سريعة: ماذا يريد الآن؟ فاعتذرا بسبب التوقف عن العمل، وتوجها إلى الشرفة.

قال راجارام، شابكاً يدَيه: "آسف لإزعاجكما، لكن الحارس الليلي قال إنكما لم تعودا تنامان هناك".

"أجل، ننام في مكان آخر".

"أين؟".

"في مكان قريب".

"آمل أن يكون جيداً. اسمعا، هل يمكنني لقاءكما في وقت لاحق للتحدث؟ في أي وقت من هذا اليوم، وفي أي مكان، متى وحيث شئتما". لقد بدا يائساً.

قال إيشفار: "حسناً، تعالَ إلى فيشرام عند الواحدة بعد الظهر. تعرف مكانه؟".

"أجل، سأكون هناك. واسمع، هل يمكنك إحضار شعري من الصندوق، رجاءً؟".

بعد مغادرة راجارام، سألت دينا الخياطَين عما إذا كانا يواجهان متاعب ما. "لا علاقة له بالرجل الآخر، كما آمل؛ ذاك الذي يأخذ كل مالكما كل أسبوع".

قال إيشفار: "لا، لا، هو لا يعمل لصالح سيد المتسوّلين، إنه صديق، ربما يريد قرضاً ليس إلا".

قالت دينا: "حسناً، احترسا، في هذه الأيام، لا يختلف الأصدقاء عن الأعداء في الظاهر".

كان فندق فيشرام مكتظاً، وراجارام ينتظر بمزاج عصبيّ على الرصيف. عندما وصلا، قال إيشفار، مسلِّماً إيّاه الرزمة: "هذا هو شعرك، إذاً، ماذا تأكل؟".

قال راجارام: "لا شيء، معدتي ممتلئة". ولكن فمه الذي كان يمضغ طعاماً وهمياً كردّ فعل على الروائح الزكية المنبعثة من فيشرام كشف عن شعوره بالجوع.

وأطلق ضحكة متكلّفة: "حسناً، أتناول مثلكما. معدة مليئة ليست سوى عقبة صغيرة".

حملوا طعامهم إلى موقع مبنًى منهار تحت الطريق مباشَرةً، واختاروا حافة نافذة ناتئة في ظل جدار منهار جزئياً. واستخدموا باباً مُلقى بشكل أفقي كطاولة لهم، وقد انتُزعت منه مفصّلاته ومقبضه بعد انهياره قبل أسابيع عدّة. كان هناك أربعة أولاد مع أكياس خَيش يتسلّقون الدَّبش بمشقّة، مدقّقين النظر وباحثين.

"إذاً، كيف هو عملك كمروّج للمخطط العائلي؟".

فهز راجارام رأسه، ملتهماً لُقمة كبيرة بشراهة قائلاً: "غير جيد"، وأكل كما لو أنه لم يرَ الطعام منذ أيام، "طلبوا مني التخلّي عن العمل منذ أسبوعَين".

"ماذا حدث؟".

"قالوا إنني لا أحقق نتائج".

"فجأةً؟ بعد شهرين؟".

قال بتردد: "أجل، أعني، لا، كنت أطبّق الإجراء الذي طلبوا مني اتّباعه. كنت أزور

أحياء مختلفة كل يوم، وأكرر بحذر الأمور التي تعلّمتها منهم، مستخدماً النبرة الصحيحة التي توحي باللطف والدِّراية كي لا أتسبب بالذُّعر لأحد. كان الناس يُصغون بصبر كالعادة، ويأخذون نشرات إعلامية؛ كانوا يضحكون أحياناً، ويُطلق الشبان دُعابات قذرة. ولكن أحداً لم يوقّع على إجراء العملية الجراحية.

بعد أسابيع قليلة، قام المشرف عليّ باستدعائي إلى مكتبه، وقال إنني لا أسعى وراء الزبائن المناسبين، وإنني أضيّع الوقت محاولاً بيع بذلة زفاف لفقير عارٍ. فطلبت منه تفسيراً لما عنى بكلامه".

كرر راجارام للخياطَين جواب المشرف؛ وهو أن الناس في المدينة شديدو التهكم، ويرتابون بكل شيء، ومن الصعب تحفيزهم. فالأحياء الفقيرة القائمة في الضواحي هي الأماكن التي يجب التوجه إليها. بالرغم من كل شيء، هناك يعيش الأميّون الذين يحتاج معظمهم إلى مساعدة الحكومة. فالبرنامج بهداياه المجانية وحوافزه مُعَدّ لهم بصفة خاصة.

"وهكذا، تزوّدت بهذا النُّصح وتوجهت إلى خارج المدينة. وهل تصدقان الأمر؟ ثُقب إطار دراجتي في اليوم الأول".

قال إيشفار، هازّاً رأسه: "بداية سيئة".

"كان الثقب مشكلة صغيرة ليس إلا. وحُلّت المشكلة الحقيقية في وقت لاحق". وفي أثناء إصلاح الإطار في مشغل للدراجات، قال راجارام، تحدّث إلى رجل مُسنّ ينتظر تحت ظُلّة موقف الحافلات على مقربة من صُنبور رئيس لإطفاء الحرائق. وكان الرجل المُسنّ بحاجة إلى اغتسال ويأمل قدوم فتيان الشارع الأشقياء لفتح الصُّنبور.

ولأجل مزيد من التدرّب، وللتحقق من المدة التي يمكنه فيها لفت انتباه الرجل، شرع راجارام بإخباره بأنه مروِّج للعمل الصالح الذي يقدّمه مركز التخطيط العائلي. ووصف أدوات تحديد النَّسل، وأشار إلى عمليات العقم والحافز المادي لكل منها: استئصال قناة فالوب يكافَأ بثلاث هدايا أكثر مما يكافأ عليه قطع قناة المنيّ، كما شرح، لأن الحكومة تفضّل التدخل النهائي الذي لا يمكن إبطاله.

هذا ما أريده، قال الرجل المسنّ مقاطِعاً، العملية التي تعود عليّ بأكبر قدر من المكاسب، قطع... أيّاً تكن تلك القناة. وكاد راجارام يقع عن درابزين ظُلّة موقف الحافلات. لا، لا، يا جدّي، العملية ليست لك، كنت أتحدث فقط عنها لأجل التحدث ليس إلا، قال. أُصرّ على ذلك، قال الرجل المسنّ، لأنه حقي. ولكن لا يمكن إجراء عملية استئصال قناة فالوب إلا للنساء، شرح راجارام، وتُجرى عملية قطع قناة المنيّ للرجال، ولكنها غير ضرورية في سنّك. لا أهتم بالعمر، سأخضع لها، أصرّ الرجل المسنّ.

قال أوم: "ربما كان يريد راديو ترانزستور بشدة".

قـال راجـارام: "هـذا مـا افترضتُه بالتحديد، قلت في نفسـي، إذا كان هذا الجدّ راغباً بشـدة فـي إجـراء العملية، فلماذا أجادله؟ إذا كانت الموسـيقى تُسـعده، فلمـاذا نُنكر عليه حقه بذلك؟".

لذلك، أخرج الاستمارة المناسبة، وأخذ بصمة إبهامه، ودفع لمصلّح الإطار، ورافق مريضه إلى العيادة. في ذلك المساء، تلقى عمولته الأولى.

بات ينظر إلى ثقب الإطار كبشير حظٍّ سعيد: إصبع القدَر المسنَّنة ثقبت إطاره وحظه السيّئ. والتصقت شارة المروِّج بقميصه بمزيد من الصِّدق. ومُفعَماً بالثقة، عاد إلى منطقة الضواحـي، واثقـاً مـن قدرتـه على جمع عدد قياسـي مـن الموافقات على إجـراء عمليّتَي استئصال قناة فالوب وقطع قناة المنيّ.

بعد أسبوع، حملته رحلاته إلى حيّ أول زبون له. فقاد دراجته بين الأكواخ، ساعياً إلى تحفيز الجماهير، ورأسـه يفيض بوسـائل متنوعة لقول الشـيء نفسـه وجعل العقم أمراً مقبـولاً، لا بـل مرغوبـاً فيـه أيضاً. فعرفه شـخص ما ينتمي إلى عائلة الرجل المسـنّ وبدأ بالصراخ طالباً المساعدة.

سـرعان مـا يحاصَـر راجـارام بحشـد غاضـب مهـدد بكسـر كل عظمة من جسـمه. واسـتجابةً لتوسـلاته طلَباً للرحمة، ولصيحاته المذعورة المسـتعلمة عن السـبب، أدرك أن خَطـأً مـا حـدث فـي أثناء العملية. لقد امتلأت منطقة الأُربيّة لدى الرجل المسـنّ بالقَيح. وعندما بدأ بالانتشار، لم تستطع العيادة شيئاً حيال ذلك وتوفّي الرجل المسنّ.

فأومأ إيشفار برأسه، متعاطفاً، خلال تقشير الموزة. كان يشعر على الدوام بأن العمل الجديد لجامع الشعر محفوف بالمخاطر. "هل أبرحوك ضرباً؟".

فك راجارام أزرار قميصه وأراهما الكدمات أرجوانية اللون على ظهره. وكان هناك على امتداد صدره أُخدود يندمل تسببت به آلة حادة. وأنزل رأسه ليشير إلى بقعة في جِلد الرأس أحدثها مهاجم بعد انتزاع كتلة من الشعر. "ولكنني كنت محظوظاً بالنجاة بنفسي. قالوا لي إن السبب الوحيد الذي من أجله وافق جدّهم على الخضوع للعملية هو الحصول على مكافأة مالية وهدايا. لقد أراد الرجل المسنّ المساعدة في جمع دوطة حفيدته.

"عدت إلى مُشـرفي مباشَـرةً وتقدمت بشـكوى. كيف يمكنني الحصول على نتائج، قلـت، إذا كان الأطبـاء يقتلـون المرضـى؟ ولكنـه قال إن المريض توفّي بسـبب تقدّمه في السنّ، وألقت العائلة اللوم على مركز التخطيط العائلي ببساطة".

قال أوم: "يا للوغد".

"تماماً. ولكن احزر ما الذي قاله لي المشرف أيضاً. من الآن فصاعداً، ستكون مهمتي أكثر سهولة، قال، بسبب تبدّل في السياسة". وشُرحت خطة العمل الجديدة لراجارام؛ لم يعد من الضروري تسجيل أسماء الأشخاص للخضوع للعملية لأنهم سيحصلون على فحص طبّي مجّاني يجب عدم اعتباره كذبة بل خطوة باتجاه مساعدة الناس لتحسين حياتهم. فما إن يصبحون داخل العيادة بعيداً عن تأثير عائلاتهم وأصدقائهم، يتحققون بسرعة من فوائد التعقيم.

التقط راجارام فُتات الطعام عن ملابسه ورماه. "بالرغم من عدم إعجابي بالنظام الجديد، وافقتُ على السير به لاختباره. حتى ذلك الحين، كان الجميع قد أدركوا أن المروّجين يقولون كلاماً معسولاً زائفاً، وحيثما ذهبتُ في المدينة أو الضواحي يوجهون إليّ الشتائم معتبرين إيّاي تهديداً للرجولة. ولكنني أقوم بعمل حكومي محاولاً كسب رِزقي. كيف يمكنك الاستمرار على هذا النحو يوماً بعد يوم؟ لا، قلت، هذا ليس أسلوب حياتي".

أطلع مستخدميه على رغبته في العودة إلى عمله السابق المتمثل بتوزيع المنشورات وشرح الإجراءات، ولكن، لا مزيد من الخداع. فقالوا إن العمل السابق لم يعد خياراً مطروحاً؛ لقد فشل نظام الحصص، ويجب تحقيق نتائج ملموسة لتبرير تقديم الطعام والمأوى والدراجة للمروِّج.

"وهكذا، فقدتُ الثلاثة في الأسبوع الماضي عندما طردوني من عملي. والآن أنا يائس. كل ما يمكنني القيام به هو العودة إلى مهنتي القديمة".

"جمع الشعر؟".

"أجل، سأبيع هذه الضفائر في الحال"، وأشار إلى الرزمة التي أحضرها من صندوقهما، "وسأستهلّ أيضاً عملي الأصلي في الحلاقة. سيتعيّن عليّ مزاولة المهنتين لأن جمع الشعر سيكون محدوداً إذا لم يتوافر لي مكان للتخزين. ولكنني بحاجة إلى خمس وثمانين روبيّة لشراء مشط، ومقص، وآلة لقص الشعر، وآلة حلاقة. هل يمكنكما إقراضي المال؟".

قال إيشفار: "دعني أفكر في الأمر، نلتقي غداً".

قال إيشفار: "نودّ حقاً مساعدته، يا سيدة دينا".

"كان جارنا في مستوطنة الأكواخ، وقد أحسن إلينا".

"لا أملك المال الكافي لتزويدكما بدفعة مُسبَقة". ولكنها قدّمت حلاً بديلاً. وأخرجت من الناحية الخلفية من خزانة ملابسها أدوات قص الشعر التي كانت زنوبيا

قد أعطتها إيّاها قبل سنوات.

سأل أوم، مندهشاً: "أنت حلاقة أيضاً؟".

"كنت كذلك، مصففة شعر للأطفال".

فحمل مانيك آلة قص الشعر وتظاهر بأنه يعالج المكان المنتفخ في شعر أوم. "إنها شُجَيرة جيدة للتدرّب عليها".

قالت دينا. وهي تضع الأدوات أمام إيشفار: "هل تستبدل التبريد بالحلاقة؟ إنها قديمة ولكنها لا تزال تعمل. يمكن لصديقك الحصول عليها إذا أراد".

"هل أنت واثقة؟ ماذا لو احتجتِها مجدداً؟".

"إنه أمر غير محتمَل. لقد انتهت أيام قص الشعر". وقالت إن الأطفال سيكونون بخطر مع عينَين كعينيها وبمهارات منسيّة.

"لا تزال هناك مشكلة واحدة فقط"، قال راجارام، متلقّياً الأدوات بامتنان عندما التقوا في اليوم التالي.

"ماذا الآن؟".

"يزور عميلي المدينة مرة واحدة في الشهر. وبِنَومي في الشارع، لا يكون لديّ مكان لتخزين ما أجمعه من شعر. هلاّ تحتفظ بالشعر في صندوقك؟ لأجلي؟ صديقك المخلص؟".

اعترض إيشفار، غير قلق من تراكم الرزم غير المثيرة للشهية وقال: "مخزون شهر كامل لا يتسع له الصندوق".

"ولكنه سيتّسع له. سأتخصص في الشعر الطويل... في شهر واحد، سيكون هناك عشر ضفائر على الأكثر، إذا كنتُ محظوظاً. لن يشغل أكثر من زاوية في صندوقك. وفي نهاية الشهر أبيعها للعميل".

"قدومك المتكرر إلى الشقة سيُزعج مستخدِمتنا". فتمنى تراجع راجارام عن الأمر؛ إن ابتكار أعذار له لصدّه حمله على الشعور بالإحراج. "ليس منزلنا، كما تعلم، لا يمكننا الاستمرار في استقبال الزائرين".

"إنها عقبة صغيرة فحسب. باستطاعتي أن ألقاكما في الخارج. هنا، في فيشرام، إذا رغبتما".

قال إيشفار: "لا نأتي إلى هنا إلا نادراً"، لكنه رضخ، "حسناً، ما يمكنك القيام به هو ترك الرزمة مع شانكار، المتسوّل الموجود في الخارج، ذلك الذي يجلس على منصة. هو يعرفنا. سنعرّفك إليه".

"ذلك المتسوّل هو صديقكما؟ يا لغرابة أصدقائكما".

قال إيشفار: "أجل، غريب جداً". ولكن جامع الشعر المسترسل بتمليس عُقَد وتشابكات حياته أغفل التعبير التهكمي.

* * *

إذا كانت أصابع إيشفار الممدوة إلى داخل حَلقه هي التي تزعج دينا، فإن ما يزعجها في شأن أوم هي فروة رأسه المصابة بالحكاك. لقد تحملت الحكاك، عالمةً بأنها ستنتهي عند السادسة. ولكنها باتت تخشى من هجرة الحكاك إلى شعرها، ناهيك عن المنظر المزعج وصوت الحك الخشِن المستمر.

فتحدثت إلى إيشفار سرّاً: الإصابة بالقَمل هو مرض سيّئ على غرار باقي الأمراض، وستتحسن صحة ابن شقيقه إذا أُبيدت الطُفيليات.

قال إيشفار: "ولكن المال هو المشكلة، لا أستطيع تحمّل تكلفة اصطحابه إلى الطبيب".

"لست بحاجة إلى طبيب للتخلص من القَمل. يوجد علاج منزلي مثالي". وعندما شرحت له الإجراء، تذكّر قيام والدته باتّباعه أيضاً.

فملأت قنينة زيت شعر فارغة بالكيروسين. قالت: "قُم بذلك بعد استراحة الشاي، دلّكه بالشكل الملائم ودَعه طيلة أربع وعشرين ساعة. يمكنك غسله غداً".

"أربع وعشرون ساعة فقط؟ ظننت أن العلاج يدوم ثمانٍ وأربعين ساعة. إنها مدة العلاج المعتمَدة من قبل والدتي".

"إذاً، كانت والدتك امرأة شجاعة. فأي شيء يمكن حدوثه في ثمانٍ وأربعين ساعة. لا نريد أن يتحوّل ابن شقيقك إلى مشعل بشري".

سأل أوم، متحيّراً: "ما الذي تتحدثان عنه؟"، ثمّ نظر إلى القنينة ونزع الغطاء: "يا للرائحة! إنه كيروسين!".

"هل توقعتَ ماء الورد؟ تريد تدليل القَمل أم قتلها؟".

قال إيشفار: "صحيح، لا تقلق، اعتادت جدتك روبا استخدامه لوالدك ولي عندما كنا صغيرين".

متأففاً ومنكمشاً، انحنى أوم فوق المغسلة، شاكياً من أن الناس لا يملكون ما يكفيهم من الكيروسين لطهو طعامهم، وها هو يُهدَر على الشعر. كان إيشفار قد وضع بعضاً منه على راحة يده وبدأ بفرك شعر أوم حتى بات الشعر الأسود المبلَّل بالزيت قُزحي اللون

تحت ضوء المصباح. قال: "جميل كطاووس".

قالت دينا: "اغرس أصابعك في الشعر، ادهنه بشكل جيد". لقد استرعت يداه المُفعمة بالحيوية انتباهها، هازّةً أوم المعترض إلى الأمام والوراء.

"توقف! ستتسبب بتسميمي إذا دخل في دمي!".

عندما أنهى عمله، أعطته ملعقة مكسورة ليحك بها. "لا تستخدم أصابعك وإلا لوّثتَ الملابس".

جلس وراء آلة الخياطة بائساً، مغضّناً أنفه، وزافراً بقوة لإبعاد الرائحة. لم يكن التخفيف من حدة الحك بالملعقة كافياً كاستخدام الأظافر. وكان يهز رأسه من حين إلى آخر ككلب مبلَّل عندما يزعجه القمل.

سأل إيشفار: "هل ترغب في تدخين سيجارة؟ وتنسى الحكاك؟ أنا على ثقة بأن السيدة دينا ستسمح بحدوث استثناء في هذا اليوم".

"بالطبع. هل أُحضر عيدان الثقاب؟".

قال أوم: "هيا، اسخري منا، بينما أختنق حتى الموت من هذه الأبخرة".

عندما حان وقت الغداء، قال لعمه إنه لن يذهب إلى فيشرام لأنه قد لا يتمكن من تناول الطعام والرائحة النتنة في أنفه. وهكذا، بقي إيشفار في المنزل.

في وقت متأخر من بعد الظهر، عاد مانيك إلى المنزل، وبدأ يشمّ الرائحة المنتشرة في أرجاء المنزل. "الرائحة أشبه برائحة المطبخ هنا". ومُبقياً أنفه منخفضاً ككلب مُطارَدة، اقتفى أثر الرائحة وصولاً إلى أوم. "هل تبدأ مهنة جديدة كجهاز طبخ؟".

قالت دينا: "أجل، هذا ما تبدو عليه الحال، الليلة سنطهو وجبتنا على رأسه. طالما كان شخصاً ذا رأس شديد الحرارة".

كانت الدُّعابة التي أطلقتها دينا للمرة الأولى هي ما حملها على التفكير ملياً في تقديم العشاء للخياطَين في الشقة في تلك الليلة. وتعززت هذه الفكرة بعوامل أخرى؛ فمن شأن ذلك إبعاد إبراهيم الوغد كلّياً لأن الخياطَين لن يذهبا لتناول الغداء ولن يظهرا في وقت العشاء. وبالإضافة إلى ما تقدم، يستحق أوم الذي يضع الكيروسين على رأسه ويجلس بصبر طوال اليوم مكافأة.

هكذا، قطعت بَصَلة أخرى وغلت ثلاث حبات بطاطا أخرى لإضافتها إلى الوجبة. ووصل بائع الخبز عند الغسق، واشترت أربعة أرغفة بدلاً من رغيفَين. "يا مانيك، تعالَ إلى هنا"، نادت من المطبخ، وائتمنته على السر.

"حقاً؟ رائع، يا خالتي! سيكونان سعيدَين بتناول الطعام معنا!".

"من قال أي شيء عن تناول الطعام معنا؟ سأضع طبقَيهما على الشرفة".

"هل تحاولين أن تكوني لطيفة أم عدائية؟".

"ما العدائي في ذلك؟ إنها شرفة جيدة ونظيفة".

"حسناً، في تلك الحالة، سأتناول الطعام على الشرفة أيضاً. لا يمكنني المشاركة في هذه الإهانة. والدي يُطعم الكلاب الشاردة فقط في الرُّواق الخارجي".

فقطّبت حاجبيها، وعلم أنه نجح في إقناعها.

تذكرت دينا المرة الأخيرة التي كان المدعوّون يشغلون فيها كل مقاعد الطاولة: في الذكرى الثالثة لزواجها، ليلة مقتل راستوم منذ ثمانية عشر عاماً. فوضعت أربعة أطباق ونادت الخياطَين. فبدا على وجههما ما يشعران به من شرف عظيم.

قالت لأوم: "لقد حصلتَ على علاجك كفتى مطيع، والآن تحصل على عشائك". وأحضرت القِدر إلى الطاولة مع جزرة مكشوطة لأجلها. فنظر إليها الخياطان بفضول في أثناء قضمها. "لستَ الوحيد الذي يخضع لعلاج منزلي. هذا دواء لعينَيّ. أهذا صحيح أيها الطبيب ماك؟".

"أجل، هي وصفة طبية لتحسين النظر".

"أتعلم؟ لقد نشأتُ على الجزر النّيء. ولكنني آمل ألا يولَع بدوائه وإلا سيكون علينا المعاناة من رائحة الكيروسين النتنة كل يوم".

"لكن كيف يعمل؟ هل يسمم القمل في شعري؟".

قال مانيك: "باستطاعتي إخبارك".

قال أوم: "أنت بطل في الادّعاء".

"لا، اسمع. أولاً، تنقع كل قملة صغيرة نفسها بالكيروسين. بعد ذلك، تقوم الخالة دينا بإعطاء كل منها عود ثقاب في منتصف الليل بعد أن تنام. وبعد العد حتى ثلاثة، تقوم بالانتحار في لهيبها من دون أن تؤذيك. تظهر هالة جميلة حول رأسك عندما يحدث ذلك".

قالت دينا: "الأمر ليس مضحكاً".

"يمكننا غضّ الطَّرف عن الانتحار يا خالتي".

"لا أريد مناقشة هذا الموضوع في أثناء تناول العشاء، أو إطلاق أي دُعابة. لا يُفترض بكما أيضاً قول أي كلمة".

شرعت بتناول الطعام، فتناول مانيك شوكته، غامزاً أوم، بينما جلس الخياطان بلا حراك، مراقبَين الطعام. وعندما نظرت إليهما، ابتسما بعصبية. وبعد تبادل النظرات، لمسا

أدوات المائدة، غير واثقَين، ومترددَين في التقاطها.

ففهمت دينا.

يـا لغبائي، قالـت لنفسـها، لـم يجدر بي وضعها الليلة. فوضعت سـكينها وشـوكتها جانبـاً، واسـتخدمت أصابعهـا لوضـع قطعة بطاطا في فمها. والتقـط مانيك قطعة بأصابعه أيضاً، وبدأ الخياطان بتناول وجبتهما.

قـال إيشـفار: "لذيـذ جـداً". وأومأ أوم برأسـه موافقاً بفم ملـيء. "تتناولين الخبز كل يوم؟".

قالت دينا: "أجل، ألا تحبه؟".

قال إيشـفار: "آه! إنه ممتاز، كنت أفكر في أنه لا بد من أن يكون شـراء خبز جاهز كل يوم أمراً مكلّفاً. ألا تحصلين على القمح بواسطة بطاقة التموين؟".

"إنـه متوافـر. ولكـن نقلـه إلى المطحنة لطحنـه، وعجن الدقيق، وإعداد التشـوباتي، تتطلبنـي كثيـراً مـن الوقـت والمال. كنت أقوم بذلك عندما كان زوجي حيّاً. بعد ذلك، لم أعد أهتم للأمر. لا شيء أسوأ من الطهو لشخص واحد". وقامت بغمس قطعة من رغيفها في مرق اللحم. "لا بد من أن تناول الطعام لدى فيشرام مكلّف بالنسبة إليكما أيضاً".

فقال إيشفار، أجل، إنه أمر صعب ولا سيما عندما يكون علينا الدفع لسيد المتسوّلين كل أسـبوع. "عندما كنا نملك مكاننا الخاص في المسـتوطنة وجهاز طبخ برايموس، كنا ننفق أقل بكثير حتى من دون الاستفادة من بطاقة تموين، فنُعدّ التشوباتي كل يوم".

"يمكنكما شراء القمح بواسطة بطاقتي إذا أردتما. لا أسعى سوى إلى الأرزّ والسكّر".

"تكمن المشكلة في مكان الطهو".

كان السـؤال مُحرِجـاً، ولكـن مانيـك وجـد الإجابـة. فتـرك الصمـت يسـود المكان للحظـات، ومـن ثـمّ عبّـر عـن رأيه ببراعة: "لديّ فكـرة رائعة. إيشـفار وأوم معتادان على إعـداد التشـوباتي، أليـس كذلـك؟ ولـدى الخالـة دينـا كل تلك الحبوب مـن خلال بطاقة التموين، أليس كذلك؟ هكذا، يمكنكما تشاطر كلفة الطعام، ويمكننا تناوله معاً. الجانبان سيدّخران المال".

بالإضافـة إلـى ادّخـار المـال، تحول هذه الفكرة دون الوقوع في متاعب مع صاحب الملك، قالت دينا في سـرّها، من خلال إحباط مسـاعي إبراهيم. باسـتطاعته الانتظار أربعاً وعشـرين سـاعة خارج الشـقة من دون أن يرى أحداً. ولن يرى الجيران الفضوليون شـيئاً أيضاً إذا كانوا يخططون للمراقبة لصالحه. كما وأن البوريه والتشوباتي الطازجة لذيذة جداً.

لكـن هـل هـذا السـبب كافٍ لقيـام حالـة من الودّ مـع الخياطَين؟ هل مـن الحكمة

التلاعب بالخط الذي رسمته بعناية كبيرة؟ قالت: "لا أعرف، قد لا يحب إيشفار وأوم تناول طعامي كل يوم".

قال أوم: "لا يحبان؟ إنه لذيذ جداً".

مضغت ببطء، مانحةً نفسها وقتاً للتفكير، ثم قالت: "حسناً، يمكننا تجربة الأمر لمدة أسبوع".

قال إيشفار: "ممتاز".

قال أوم: "سأُعدّ التشوباتي، أنا بطل التشوباتي".

كانت شاحنة الحكومة تسلّم مخزوناً طازجاً لمتجر التموين. فانضمت دينا والخياطان إلى الصفّ خلال قيام عاملَين بإنزال حمولتَين عن ظهرهما تزن كل منهما خمسين كيلوغراماً. وومض ضوء الشمس على الخطّافات الفولاذية الكبيرة التي غرساها في كيس الخَيش. وأحدث الدقيق المتساقط فوق خَيش الجوت بُقعاً بلون بنّي قاتم. داخل المتجر، كانت أكياس الحبوب موضوعة بصفٍّ مرتَّب كجثث في المشرحة، إضافةً إلى الموازين المدلاّة من السقف بسلاسل معدنية كبيرة.

قال إيشفار: "لقد مضت مدة طويلة على هؤلاء الأشخاص في الداخل، ناقلين كيساً واحداً في كل مرة. هيا يا أوم، أرِهم كيف يحملون كيسَين".

قالت دينا خلال تظاهره برفع كمَّيه: "لا تُغِظ الفتى المسكين، لماذا هو شديد النحول بأي حال؟ هل أنت على ثقة بأنه غير مصاب بالديدان؟".

"لا، لا، يا سيدة دينا، لا وجود لأي ديدان، ثقي بي. ولكنني سأزوّجه قريباً، وستتولى زوجته إضافة بعض الوزن إليه".

"هو صغير جداً للزواج".

"يكاد يبلغ الثامنة عشرة... لم يعُد صغيراً".

قال أوم بوجه متجهّم: "السيدة دينا مُحقة، انسَ فكرتك المجنونة".

"وجه مصفرّ كالليمون الحامض".

وازداد الخط طولاً. وصاح أحدهم من الخلف طالباً الإسراع، فمدّ المسؤول رأسه وقال بشكل عدواني كما لو أنه يريد الدخول في جدال معه: "استخدم عقلك عندما تتكلم! إذا لم يُسمح للشاحنة بتفريغ حمولتها، ماذا سأعطيك؟ حجارة ورمال؟".

"هذا ما تبيعوننا إياه عادةً!"، صاح الرجل، وضحك الناس، ثمّ أضاف: "هل تذوَّقتَ يوماً مخزونك؟". كان رجلاً قصير القامة مُصاباً بتضخّم في الغُدة الدَّرَقية تلفت أنظار الناس المنتظرين في الصف.

"لا أحد يُجبرك على أخذ هذه البضائع!".

حاول أولئك الموجودون بالقرب من الرجل الحؤول دون ازدياد الجدال حدة. فذكّروه بأنه من غير الحكمة التشاجر في متجر للتموين، لأنه يستحيل عليه الفوز عندما يعتمد عليهم للحصول على طعامه. وقال أحدهم إن عُنُقه قد يزداد ورماً إذا غضب.

قال بغضب: "هذا الورم تسبب به أيضاً التجار الأوغاد! إنهم يبيعون ملحاً سيئاً؛ ملحاً من دون يود! هؤلاء التجار السمينون والجشعون مسؤولون عن كل معاناتنا! تجار السوق السوداء، زناة الطعام، مسمِّمون!".

ابتعدت شاحنة الحبوب، وخلّفت في المكان الذي كانت متوقفة فيه هضيبة من القمح تسرّبت من الأكياس. فسارع رجل حافي القدمَين يرتدي قميصاً داخلياً وسروالاً قصيراً إلى وضع الحبوب المُراقة في صفيحة فارغة، وركض وراء الشاحنة إلى وجهتها التالية؛ سيأكل جيداً الليلة.

شغّل المساعد الموازين، وعاد المتجر مجدداً إلى تقديم الخدمات للزبائن. ودُوّنت المعلومات المناسبة على بطاقة التموين الخاصة بِدِينا. فإضافةً إلى الكمية العادية من السكّر والأرزّ، اشترت حصتها الكاملة من القمح الأحمر والأبيض، نزولاً عند رغبة الخياطَين.

راقبوا الموازين تزن كل سلعة، محدّقين إلى الإبرة وهي تتأرجح حتى تستقرّ. وارتفعت سحابة من الغبار عندما أفرغ الرجل محتويات الميزان في أكياس ملابس دينا. وتساقطت الحبوب مُحدثةً صوت شلال عَذب. بعد ذلك، حمل الخياطان الأكياس إلى المطحنة.

في المساء، شعر أوم ببعض القلق على تشويه سمعته كمُعِدّ جيد للتشوباتي. فأضاف الماء إلى الدقيق، وأعدّ العجين بجهد أكبر من العادة، مركزاً انتباهه على ترقيق التشوباتي، محاولاً جعلها مستديرة تماماً. فخط دائري غير مِطواع يعني إعادة العجين على صورة كرة وترقيقه مجدداً.

عند العشاء، أثنى الجميع على النجاح الذي حققه. وشمل الامتداح أيضاً سرعة تناول أرغفة التشوباتي الثمانية. مسروراً، قرر إعداد اثني عشر رغيفاً من ذلك الحين فصاعداً.

شرعت الهرة بالمواء عندما فُتحت النافذة. فأطلع مانيك إيشفار وأوم على الأسماء التي أطلقها على بعضها: جون وين، الذي يحب المشي باختيال، موحياً بأن الزقاق تحت السيطرة؛ فيجايانتيمالا، الهرة البنّية العِتابيّة، وهي المفضَّلة لديه، تثب كما لو أنها في مشهد راقص على أغنية فيلم سينمائي؛ راكيل وِلش تستلقي بهمة فاترة، متمددة، ولا تتنازل

للإسـراع نحو الطعام؛ وشـاتروغان سـينها المشاغب الذي يتعيّن رمي الفضلات بعيداً عنه لمنح الهررة الأخرى الفرصة.

سأل أوم: "من هو جون وين؟".

"ممثـل أميركـي يأخـذ أدواراً على غرار أميتاب باتشـان. يسـير كمـا لو أنه يعاني من البواسير ويحمل بصلاً تحت إبطيه. ينتصر على الدوام في النهاية".

"وراكيل وِلش؟".

"ممثلة أميركية"، وانحنى باتجاهه وقال هامساً: "مثيرة. في حين استمر المواء تحت النافذة.

فأطلق أوم ابتسامة عريضة. "من الجيد أنني أعددت مزيداً من التشوباتي اليوم. يبدو الأمر كما لو أنها تستمتع بها".

قالت دينا: "ماذا يحدث؟ ها أنت تعلّم خياطَيّ عاداتك السيئة. أغلق النافذة، رجاءً". وتسـاءلت عمـا إذا كان أمـر مـا لا يمكـن التحكـم بـه قد بـدأ مع كل هـذا الطهو والأكل المشترَك. كثير من الأُلفة. وأمِلت ألا تندم على ذلك.

كان إيشفار واقفاً جانباً عندما تابعا حديثهما: "يُقال إن إطعام الحيوانات البكماء هو عمل مبارَك، يا سيدة دينا".

"لـن يكـون دخولهـا بحثـاً عن الطعام عمـلاً مبارَكاً. باسـتطاعة الجراثيم القذرة التي تنقلها الهررة من المجرور أن تقتلنا".

فـي الحمّـام، غـدت رائحـة تبوّل الخياطَين التي كانـت تخفق كالراية في الهواء وفي أنف دينا أمراً غير ملحوظ. غريب، قالت في سرّها، كيف يعتاد المرء على الأمور!

بعد ذلك، تفاجأت بالحقيقة: تعود الرائحة غير الملحوظة إلى تناول الجميع الطعام نفسه وشرب الماء نفسه. إنهم يبحرون تحت الراية نفسها.

اقترح إيشفار: "لنتناول الماسالا وادا اليوم، وصفة الطبخ الخاصة براجارام".

"لا أعرف طريقة إعدادها".

"لا بأس، يمكنني إعدادها، يا سـيدة دينا. اسـترخي اليوم". وتولى مهمة إرسـال أوم ومانيك لشراء نصف حبة من جوز الهند، وفلفل أخضر، وأوراق نعناع، وباقة صغيرة من الكزبرة الطازجة. وكانت المكوِّنات المتبقية موجودة في خزانة التوابل: فلفل أحمر جاف، بـذور كمّـون، وثمـرة التمـر هندي. "الآن، أسـرعا أنتما الاثنان في العودة، فهناك مزيد من العمل لكما".

سألت دينا: "هل أقوم بشيء ما؟".

"نحتاج إلى كوب واحد من غرام دال".

فوضعت مقدار كوب من حبوب القَطاني في إناء وغمرتها بالماء، ووضعتها بعد ذلك على جهاز الطبخ. قال: "لو قمنا بنقعها في الليلة السابقة لما كنا بحاجة إلى سلقها، ولكنها طريقة جيدة أيضاً".

عندما عاد الفَتيان، أوكل إلى أوم مهمة بَشر جوز الهند، وإلى مانيك مهمة تقطيع بصلتَين إلى شرائح، وقيامه بتقطيع أربع حبات من الفلفل الأخضر وست حبات من الفلفل الأحمر، والكزبرة، وأوراق النعناع.

قال مانيك: "هاتان البصلتان حادّتان". متنشقاً وماسحاً عينَيه بكمّه.

قال إيشفار: "إنه تمرين جيد لك، على الجميع أن يذرفوا الدمع في وقت ما من حياتهم". وألقى نظرة سريعة عبر الطاولة، ورأى الحلقات الكبيرة البيضاء تسقط من السكين. "قطِّعها بأحجام صغيرة".

باتت حبوب القَطاني جاهزة. فأفرغ الماء، وسكب محتويات الإناء في المِهراس، ثمّ أضاف نصف ملعقة من بذور الكمّون والفلفل المقطَّع، وشرع بهرس المزيج. وحثّت المِدقة القارعة مانيك على الضرب بسكينه على الإناء.

قال إيشفار: "يا رئيس الفرقة الموسيقية، هل بصلتاك جاهزتان؟". لقد تحوّل المزيج في المِهراس إلى معجونة خشنة صفراء مع بُقع خضراء وحمراء وبنّية. وأضاف المكوِّنات المتبقية إلى المزيج ورفع عيّنةً قليلة منها وشمّها ثم قال: "ممتاز. الآن، حان وقت القلي".

كان الزيت في المقلاة يهسهس ويَطِشّ خلال قيام إيشفار بإضافة كرات بحجم كرة الطاولة إلى الزيت المتلألئ. فحرّكها بملعقة، مُبقياً إيّاها مغمورة بالزيت لتكسب لوناً. في غضون ذلك، كان أوم يجرّ حجر الماسالا المستدير إلى الأمام والوراء على اللوح المسطَّح. أنهى مانيك المهمة الموكَلة إليه بعد فترة وجيزة. وباتت صلصة الشُّتني جاهزة بعد الجهد المشترَك الذي بذلوه.

استمتعت دينا برائحة الكرات الزكية التي بدأت تتحول ببطء إلى لون بنّي في الزيت المقلي. كانت تراقب عملية الشروع بالتنظيف في جوّ من الضحك والمزاح، وقيام إيشفار بتوجيه تحذير إلى الفَتيَين بضرورة إزالة البقع كافة عن حجر الطحن وإلا حملهما على لعقها كالهررة. يا للتغيير - قالت في سرها - لقد تحوّل المطبخ من الغرفة الأكثر حزناً وقذارة في الشقة إلى مكان برّاق مُفعَم بالسرور والحيوية.

بعد ثلاثين دقيقة، باتت الوليمة جاهزة. قال إيشفار: "لنتناول الطعام ساخناً، هيا، يا أوم، أحضر لنا ماءً".

وتناول كل منهم قطعة، ووضع صلصة الشُّتني عليها. وانتظر إيشفار إبداء رأيهم بالوجبة، ووجهه يشعّ فَخراً.

قال مانيك: "رائع!".

فتظاهرت دينا بالاستياء، قائلةً إنه لم يُثنِ أبداً على وجباتها. وحاول التهرّب من الأمر. "طعامك رائع أيضاً، يا خالتي، ولكنه مماثل لطهو والدتي. لهذا السبب، لم تُجَنّ حُلَيمات الذَّوق في لساني".

وأبدى إيشفار تواضعاً حيال الجهود التي بذلها قائلاً: "إنها وجبة سهلة جداً".

أكدت دينا: "الطعام شهيّ، إن فكرة مانيك بتناول الطعام معاً ممتازة. لو كنت أعرف منذ البدء أن طعامكما لذيذ جداً، لاستخدمتكما كطاهيَين وليس كخياطَين".

قال إيشفار مبتسماً للإطراء: "آسف، نحن لا نطهو لقاء مال... نطهو لأنفسنا وليس للأصدقاء".

لقد حرّكت كلماته في نفسها رواسب شعور بذَنب مألوف. كانت لا تزال هناك ثغرة في ما بينهم؛ لم تكن تنظر إليهما كما ينظران إليها.

على مَرّ الأسابيع، وسّع الخياطان مساهمتهما في إعداد الطعام لتشمل أطباقاً نباتية كالماسالا والشكباجي، إضافةً إلى التشوباتي وغيرها من الوجبات. كان هناك على الدوام أربعة أشخاص، أو شخصان على الأقل، يعملون في المطبخ بعَجَلة في المساء. لقد أصبحت الساعة التي كانت الأكثر كآبة في حياتي، قالت دينا في سرّها، هي الأكثر سعادة.

عندما تقوم دينا بإعداد طبق أرزّ، يكون الخياطان في استراحة من إعداد التشوباتي، ولكنهما يدخلان المطبخ لتقديم يد المساعدة عندما لا يقومان بالبحث عن غرفة للإيجار. قال إيشفار في أثناء تنظيف الأرزّ من الحصى: "عندما كنت صغيراً في القرية، اعتدتُ القيام بذلك لأجل والدتي، ولكن بشكل معكوس. كنا نقصد الحقول بعد موسم الحصاد ونبحث عن الحبوب المتبقية بعد الدَّرس والذَّري".

لقد أدركت أنهما يثقان بها ويُخبرانها القليل عن ماضيهما، وهو أمر هام بالنسبة إليها لأنها تقوم بمعرفة قصة الخياطَين شيئاً فشيئاً.

أضاف إيشفار: "في تلك الأيام، بدا لي أن هذا الأمر هو كل ما يمكن أن نتوقّعه من الحياة. طريق وعر مليء بحجارة حادة الأطراف، وقليل من الحبوب إذا كنتِ محظوظة".

"في وقت لاحق؟".

"في وقت لاحق، اكتشفتُ وجود أنواع مختلفة من الطرقات، وطريقة مختلفة للسير على كل منها".

لقد أحبّت طريقته في التعبير. "أنت تصف الأمر بشكل جيد".

فضحك في سرّه وقال: "لا بد من أن السبب هو ممارستي الخياطة. الخياطون يتفحصون النماذج ويقرأون الخطوط الكفافية".

"وماذا عنك، يا أوم؟ هل ساعدتَ والدتك أيضاً في جمع الحبوب؟".

"لا".

قال إيشفار: "لم يكن بحاجة إلى ذلك، لدى ولادته، كان والده - شقيقي - يجني مالاً كافياً من الخياطة".

قال أوم: "ولكنه أرسلني بالرغم من ذلك لمعرفة المزيد عن الجلود النتنة".

قال مانيك: "لم تُخبرني بذلك".

"هناك أمور كثيرة لم أخبرك بها. هل أخبرتَني بكل شيء؟".

شرح إيشفار: "إن تعلّم كيفية التعاطي مع الجلود يعزّز شخصية المرء، وتعليم أوم تاريخه يذكّره بمجتمعه الخاص".

"ولكن لماذا يحتاج إلى التذكير؟".

"إنها قصة طويلة".

"أخبرنا"، قالت دينا ومانيك في وقت واحد مما حملهما على الضحك.

استهلّ إيشفار القصة: "في قريتنا، كنا إسكافيين".

قال أوم مُقاطعاً: "ما يعنيه، هو أن عائلتنا تنتمي إلى طبقة الشاماريين من دبّاغي الجلود والعاملين في هذا الميدان".

قال إيشفار: "أجل، منذ مدة طويلة قبل ولادة أومبراكاش، وعندما كنت ووالده، نارايان، فتيَين صغيرَين في العاشرة والثانية عشرة من عمرنا، أرسلنا والدنا الذي كان اسمه دوكي لتعلّم الخياطة...".

* * *

قال أوم: "علّمني كيف أستخدمهما".

"ماذا؟".

"السكين والشوكة".

قال مانيك: "حسناً، الدرس الأول. المِرفقَان مرفوعان عن الطاولة".

فأومأ إيشفار برأسه موافقاً، وعلّق قائلاً إن تعلّم أوم سيترك أثراً كبيراً في نفوس الجميع ويرفع من قيمته عندما يعودان إلى القرية لإيجاد زوجة له. "تناول الطعام بأدوات

مزخرفة... إنها مهارة كبيرة كالعزف على آلة موسيقية".

بدأ لحاف دينا يزداد حجماً. فبإبحار الخياطَين بعزم ونشاط في يمّ طلبات أوروفوار إكسبورتس، تكدّست الفضلات كرواسب طَميّة في نهر قويّ. كانت تجلس مع الرُّقع بعد العشاء، وتختار وتجمع أفضل المكتسَبات الحديثة.

قال مانيك: "هذه القطع الجديدة مختلفة كلّياً في الشكل عن القطع القديمة، هل تعتقدين أنها ستبدو أفضل حالاً؟".

قالت متأوّهة: "منتقد اللحاف يبدأ مجدداً".

قال أوم: "مربعات ومثلثات ومضلّعات، إنها مُربكة قليلاً بالتأكيد".

قال إيشفار بثقة: "سيبدو جميلاً، واصلي الجمع بصبر، يا سيدة دينا؛ هنا يكمن السر. ستبدو قِطعاً صغيرة ورُقَعاً حتى تجمعيها في قطعة واحدة".

قالت: "بالتحديد، هذان الفَتيان لا يفهمان. بالمناسبة، هناك كثير من الأقمشة في الخزانة إذا أردتَ خياطة شيء ما".

فكر إيشفار في شانكار، من الجيد تقديم صُدرة له. فعرض المشكلة على دينا: الجزء السفلي مبتور ولا يمكنه ارتداء مِئزر أو ملابس داخلية أو سروال لأنه يستمر في التلوّي والمناورة على المنصة. وإذا انزلق الثوب عن خصره، لا يستطيع القيام بأي شيء حتى قدوم صاحب عمله.

قالت دينا: "أظن أنّ لديّ الحل". فعثرت على ثوب السباحة القديم الذي يعود إلى زمن الدراسة والمصنوع من قطعة واحدة، وشرحت تصميمه. سيكون من السهل خياطة نموذج مماثل مع بعض التعديلات كإضافة كمَّين، وياقة، وأزرار على امتداد الجهة الأمامية.

قال إيشفار: "فكرتك من الدرجة الأولى".

فأعدّ قِطعاً من البوبلين باللون البنّي الفاتح، وأخذ شريط القياس إلى فيشرام بعد ظهر اليوم التالي. كان أوم ينظر عبر النافذة خلال قيامهما بالنفخ على صحنَي فنجانَي الشاي. كان شانكار يختبر روتيناً جديداً على الرصيف.

لقد أضاف سيد المتسوّلين المبتكِر جزءاً إلى المنصة فازداد طولها، وبات شانكار يستلقي على ظهره ملوّحاً بقُرمتَي فخذيه في الهواء، ويغنّي **أو بابو!** مصلصلاً بالصفيحة المعدنية عند الضربة الأولى والثالثة، وواضعاً إيّاها على جبينه بين راحتَي يدَيه الخاليتَين من الأصابع. وعندما يتعب، يضعها بجانب رأسه، ويلوّح بيدَيه على غرار قُرمتَي فخذيه.

كان جالساً عندما أنهى الخياطان شايهما. فالمشهد كما يراه خلال استلقائه على

ظهره جديد بالنسبة إليه، ولم يكن قادراً على تحديد ماهيّته إلا على مراحل، فيمضي الدقائق في هلَع بسبب إمكانية قيام أحدهم بالدَّوس عليه. كانت ساعة الازدحام فترة ذُعر بَحت عندما تندفع حشود الناس على الرصيف.

لدى رؤية إيشفار وأوم، انطلق بمنصته من حافة الطريق مجذّفاً لتبادل أطراف الحديث معهما.

"منصة محسَّنة، أليس كذلك يا شانكار؟".

"ما العمل؟ يجب إرضاء الناس. لقد اعتبر سيدي وصاحب عملي أن الوقت حان للتغيير. كان لطيفاً جداً منذ عودتنا من ذلك المكان الرهيب، لا بل أكثر لطفاً من السابق، ولم يعُد يدعوني دودة بل صار يستخدم اسمي الحقيقي مثلكما تماماً".

لقد شعر بالإثارة بسبب خططهما القاضية بتصميم صُدرة له. وانتقل الثلاثة إلى خلوة الزقاق القائم في الناحية الخلفية لفيشرام حيث يمكن لإيشفار أخذ بعض القياسات.

قال أوم: "لا بد من أن يكون الأمر جيداً بالنسبة إليك، لأنه بات بإمكانك النوم الآن".

قال شانكار بمَكر: "ليس لديك أي فكرة عن النعيم الذي أعيش فيه، لقد مضت ثلاثة أيام على حالي هذه وعلى ما أراه، ولا سيما عندما تتحرك التنانير فوق رأسي بخفة".

قال أوم، شاعراً بالحسد: "حقاً؟ ماذا ترى؟".

"لا تستطيع الكلمات وصف ما تستمتع به عيناي".

قال إيشفار بطريقة جافة: "ربما يودّ ابن شقيقي الحلول مكانك على المنصة ليوم أو يومين".

قال شانكار، مستمتعاً بحس الفكاهة لديه: "أولاً، عليه القيام بأمر ما في شأن ساقَيه، أعرف أن مجرد الكف عن الدفع لسيد المتسوّلين يؤدي تلقائياً إلى أوصال مكسورة".

أصبحت الهدية جاهزة في اليوم التالي، وعندما خرج الخياطان في المساء لمواصلة بحثهما عن مسكن، توقفا بجانب رصيف شانكار. لقد أرادا اصطحابه إلى الزقاق ومساعدته على ارتداء الصُّدرة، ولكنه كان مرتاباً. قال: شانكار، مستمتعاً بحس الفكاهة لديه: "لن يكون سيدي وصاحب عملي مسروراً".

"لماذا؟".

"يبدو الثوب الجديد حسن المظهر". لقد آثر عدم ارتدائه حتى يحصل على موافقته.

غادرا خائبَي الأمل، مصطحبَين معهما رزمة الشعر التي كانت موجودة تحت منصة شانكار. لم يكونا قد تسلّما أي شيء من جامع الشعر منذ مدة، ولكن تسليماته أصبحت

منتظمة في الواقع في الأيام القليلة الأخيرة، وملأت الصندوق الكبير.

تساءل أوم: "إذا كان الشعر الطويل نادراً جداً، فكيف يقوم راجارام فجأةً بجمع هذا الكم الكبير منه؟".

"لن أُزعج رأسي بشعر ذلك الشخص".

في الأسبوع التالي، رأى الخياطان المتسوّلَ مرتدياً هديّتهما. لقد وجدا صعوبة في معرفته في بادئ الأمر لأن سيد المتسوّلين قام بتعديل البوبلين البنّي. لقد تمّ تشويهه بمزق كبير من الأمام، وبات الثوب مناسباً لشانكار.

قال أوم: "سيد المتسوّلين ذاك وغد، لأنه شوّه ابتكارنا".

قال إيشفار: "لا تحكم عليه من خلال ملابسك، لن تذهب للعمل لدى السيدة دينا واضعاً ربطة عُنُق أو معتمراً عِمامة زفاف، أليس كذلك؟".

اكفهرار المستقبل الوضّاء

بعد أن حدّ أمان الشرفة وراحتها من الرغبة الملحّة في العثور على مسكن، أصبحت رحلات الخياطَين المسائية بحثاً عن غرفة للإيجار ممارسة فاترة. وخشي إيشفار الذي يشعر بقليل من الذَّنب حيال هذا الأمر من استغلال حسن ضيافة دينا، لا سيّما وأن إقامتهما لديها دخلت في شهرها الثالث. وللتخفيف من وطأة الأمر على ضميره، دأب على عادة وصف إخفاقاته لها: الأماكن التي زاراها، والأكواخ التي عايناها.

قال في أكثر من مساء: "الأمر مُحبط جداً، قبل وصولنا إلى هناك بعشر دقائق، قام أحدهم باستئجار الغرفة. ويا لها من غرفة جميلة".

لكن الوقت هدّأ مخاوف دينا من صاحب الملك. لقد كانت مقتنعة تماماً بالسماح للخياطَين بالاستمرار في النوم على الشرفة، ولم يتمكن أحد من ثنيها عن ذلك، ولا حتى زنوبيا، التي بدت مروَّعة لدى اكتشاف صندوقهما وعدة نومهما هناك عندما مرّت بشقتها ذات مساء.

قالت محذِّرة: "الأمر خطر، أنت تلعبين بالنار".

"آه! لن يحدث شيء"، قالت دينا بثقة. لقد أعادت القرض لنوسوان، ولم يعد جامع الإيجارات يزعجها، وتجري أعمال الخياطة بسرعة أكبر من أي وقت مضى.

وتمّ تفادي الإضراب المروِّع في أوروفوار إكسبورتس، واحتفلت السيدة غوبتا بذلك على أنه انتصار للخير على الشر. شرحت لدينا: "بات للشركة رجالها الأشداء الآن، إنهم رجالنا مقابل رجالهم. هم يتعاطون مع نصّابي اتحاد العمال قبل أن يتمكنوا من استهلال أي شغَب أو تضليلٍ للعمال المساكين. تذكّري أن الشرطة تدعمنا أيضاً. لقد سئم الجميع من الإزعاج الذي تتسبب به اتحادات العمال".

لقد ابتهج الخياطان عندما نقلت دينا لهما الخبر السارّ. قال إيشفار: "نجومنا في مكانها الملائم".

قالت: "أجل، ولكن وجود درزاتكما في المكان المناسب هو أمر أكثر أهمية".

كان إيشفار وأوم ينطلقان عادةً في بحثهما عن منزل بعد العشاء، وقبل ذلك أحياناً،

إذا لم يكونا منشغلَين بالطهو، فتتمنى لهما حظاً سعيداً، ولكنها تضيف قائلة "أراكما قريباً". وهي تعني ما تقول. وكان مانيك يرافقهما في أغلب الأحيان، فتبقى بمفردها وتستمر في الالتفات إلى الساعة في انتظار عودتهم.

عندما تُنقَل إليها تقارير الجولات المسائية في وقت متأخر، يكون نُصحها: "لا تستعجلا أي شيء". فمن الغباء، تقول، دفع قسط من الإيجار عن مكان قد يتم تدميره مجدداً لأنه مبنيّ بشكل غير قانوني. "من الأفضل ادّخار مالكما والحصول على غرفة ملائمة لا يستطيع أحد رميكما خارجها. خذا وقتكما".

"ولكنك لا تقبلين إيجاراً منا. إلى متى سنكون عبئاً عليك؟".

"لا أشعر بأي عبء، ومانيك كذلك. هل تشعر بأي عبء يا مانيك؟".

"أجل، أشعر بعبء كبير. امتحاناتي وشيكة".

أضاف إيشفار: "تكمن المشكلة الأخرى، في عدم تمكن عزيزي ابن شقيقي من الزواج إلا عندما يكون لنا منزلنا الخاص".

قالت دينا: "هو أمر لا يمكنني مساعدتكما عليه".

قال أوم بوجه متجهّم: "من قال إنني أريد الزواج؟". في حين تبادلت وإيشفار ابتسامات والديّة.

لقد قادتهم معلومة عن إمكانية عثورهم على نصف غرفة في الضاحية الشمالية من الحيّ الذي كان إيشفار وأوم قد بحثا فيه عن عمل لدى وصولهما إلى المدينة. ولكن ما إن وصلوا إلى المكان حتى وجدوا أن الغرفة قد أُجّرت. وصودف مرورهم بجانب شركة الخياطة أدفنسد تايلرينغ كومباني، قرّر إيشفار وأوم إلقاء التحية على جيفان.

قال جيفان مستقبِلاً: "صديقاي القديمان عادا، مع صديق جديد. هل هو خياط أيضاً؟".

فابتسم مانيك، وهز رأسه.

"آه! لا تهتم، سنحوّلك قريباً إلى خياط". بعد ذلك، شعر جيفان بحنين إلى الماضي عندما عمل الثلاثة على مدار الساعة بهدف عدم تخطي الحد الزمني الأقصى للانتخابات الوشيكة، فقال: "هل تتذكران؟ لقد خطنا مئة قميص ومئة دوتي ليقوم ذلك الشخص بتوزيعها كرشوة؟".

قال أوم: "بدت كما لو أنها ألف قطعة".

"اكتشفت في ما بعد أنه وزّع العمل على أكثر من عشرين خياطاً. لقد حصل على خمسة آلاف قميص ودوتي".

"من أين لهؤلاء السياسيين الأوغاد المال؟".

"مـال حـرام، مـاذا يمكـن أن يكـون سـوى ذلـك؛ من رجـال أعمـال يحتاجون إلى خدمات. هذه هي الحال في زمن الاستعمار البريطاني للهند".

مع ذلك، ثبت في النهاية أن المرشـح هُزم بالرغم من توزيع الملابس على ناخبيه الأكثر أهمية، وذلك لأن المعارضة استمرت في إلقاء خُطَب ذكية مفادها أن تلقّي الهدايا بأيدٍ فارغة هو غير ذي أهمية ما دام القرار يعود في زمن الاقتراع إلى العقول الحكيمة.

"حاول إلقاء اللوم عليّ بسبب خسارته، قائلاً إن الناخبين لم يقترعوا له لأن الملابس مـدروزة بشـكل سـيّئ. فطلبـت منـه إحضارها إلـيّ لأعاينها، ولم أرَه ثانيـةً". ورفع جيفان الأغـراض عـن المنضـدة ونظـف الزغَـب عن الناحيـة الأمامية لقميصه، ثم قـال: "تعالوا، اجلسوا وتناولوا الشاي معي".

كانت الدعوة للجلوس مَجازاً كلامياً ليس إلا لأن الأشياء المبعثَرة في المشغل الصغير جعلت تلبية طلبه أمراً صعباً. لقد أُجريت تعديلات على المشغل بعد عمل الخياطَين لديه، وأُضيفت حجرة بسـتار في الناحية الخلفية لقياس الملابس. فلبّى إيشـفار الدعوة وشـرب الشاي مع جيفان على المنضدة. وحمل الفَتيان شايهما إلى الدَرَج الخارجي.

وشـهد ذلـك المسـاء في أدفنسـد تايلرينـغ كومباني كثيراً من الأعمـال. قال جيفان: "حملتم معكم الحظ السعيد". لقد جاءت عائلة لخياطة ملابس لبناتها الثلاث الصغيرات، وكانت الوالدة تحمل بفخر رزمة من الأقمشة تحت إبطها، والوالد مقطَّب الحاجبين. لقد أرادا بلوزة وتنورة طويلة لكل ابنة قبل حلول الديفالي.

مُداعباً شـفتَيه بإصبع واحدة، تظاهر جيفان بالتمعّن بدفتر الطلبات، ثمّ قال متذمّراً: "الديفالـي بعـد شـهر، الجميـع على عجَلة مـن أمرهم". فهمهم ودنـدن، مُحدثاً طقطقات بأسنانه، ثمّ قال إن الأمر ممكن ولكن بشق الأنفس.

قفـزت الفتيـات الصغيـرات علـى رؤوس أصابعهنّ بارتياح وحماسـة. وطلب منهنّ الوالد الغاضب التزام الهدوء وإلا كسر رؤوسهنّ. فلم تهتمّ الفتيات بالتهديد المفرط؛ إذ كنّ معتادات على انحرافاته الكلامية.

قـاس جيفـان قطعـة القماش المصنوعة من البوليسـتر والتي تحمل نقوش طاووس. فقطّب حاجبيه، وقاس ثانيةً، وقال مداعِباً شفتَيه إنها لا تكفي لخياطة ثلاث بلوزات وثلاث تنانير طويلة. فشعرت البنات بالرغبة في البكاء.

همس أوم لمانيك: "الوغد ذو الساقَين المقوّسَتَين يكذب، راقب الآن".

وقاس للمرة الثالثة، وكشف بنبرة مُحسِن عن وجود خيار آخر: "سيكون صعباً جداً،

ولكن باستطاعتي خياطة الجلابيب حتى الرّكبة".

فانتهز الوالدان الفرصة بشكل يائس، طالبَين من جيفان المُضيّ قُدُماً. فلوّح بشريط القياس واستدعى البنات لأخذ قياساتهنّ. فوقفنَ بلا حراك كدمى بين يدَي محرِّكها، مستديرات، ورافعات رؤوسهنّ وأذرعتهنّ بمفاصل متصلّبة.

"سيسرق المحتال ثلاث ياردات على الأقل من قطعة القماش، وربما أربع ياردات"، تمتم أوم، مُخلِيَين الدَّرج لتمكين العائلة من المغادرة. شكت الفتيات الصغيرات برِفق، قائلات إنهنّ تُردنَ بشدة تنانير طويلة. فهددهنّ والدهنّ بكسر أسنانهنّ إذا لم تُحسنَّ التصرف، وسلكت العائلة ممر المشاة، وتوارت عن الأنظار.

لفّ جيفان قطعة القماش ووضع في داخلها الورقة المثنيّة التي تحمل قياسات البنات. "نحن الخياطون علينا كسب رزقنا، أليس كذلك؟". ساعياً وراء الموافقة على تصرّفه.

فأومأ إيشفار برأسه.

قال جيفان مجدداً: "هؤلاء الزبائن ينتظرون الكثير منا على الدوام". محاولاً التخفّي وراء التفاهات.

خرج من وضعه المُربِك مع ظهور زبونة أخرى. لقد سُلّمت المرأة التي قدِمت لقياس ثوبها الحريري النموذج الأولي، وتوارت داخل الحجرة، وأقفلت الستارة.

فوكز مانيك أوم، واستدارا لينظرا. كان الستار المتمايل بعيداً عن الأرض بضع بوصات، وبالإمكان رؤية ساري المرأة يلامس قدمَيها اللتين تنتعلان صَندلاً. فلوّح جيفان بإصبعه لهما، ونظر إلى الحجرة بنفسه.

قال أوم: "من شأن ستار أرقّ أن يُضيف التوابل إلى حياتي". كان باستطاعتهما سماع الرنين اللطيف لأساورها.

"صه!"، حذّر جيفان، ضاحكاً بمَكر: "ستفقدانني زبونة منتظمة".

لقد جعلهما ظهور المرأة مجدّداً يتلعثمان ويصمتان مع شعور بالذَّنب. فتفحّصاها خِلسةً، مُلقيَين نظرات جانبية سريعة عليها برأسَين منخفضَين. لقد تركت ساريها تحت كتفَيها لتمكين جيفان من تفحّص البلوزة. قال: "ارفعي ذراعَيك قليلاً، رجاءً". داسّاً شريط القياس تحتهما، بنبرة الطبيب الذي يطلب رؤية لسان المريض.

كانت الجهة الأمامية من الثوب فوق الخصر بين الثوب وخط الخصر عارية، وترتدي سارياً وفقاً للزيّ الشائع يكشف عن سُرّتها. فحدّق مانيك وأوم في أثناء قيام جيفان بالتوصية بإضافة ثنيتَين إلى الوراء وإدخال طرف الثوب عند العُنُق قليلاً. وتوارت

وراء الستار مجدداً.

فهمس أوم في أُذُن مانيك قائلاً إنه الجزء الذي يُغفله أكثر من أي أمر آخر بسبب عمله لدى السيدة دينا وفقاً لنماذج ورقية. "يمنحني الفرصة لأخذ قياسات النساء".

"كما لو أنك تستطيع القيام بأي شيء في أثناء أخذ القياس".

"لا تعرف مدى إمكانية الأمر". فخياطة بلوزة، ولا سيّما كهذه البلوزة الضيّقة، قال، كمن يمضي فترة زمنية في النعيم لأن شريط القياس يطال الصدر. فلتمرير أحد طرفَيه من الوراء واستلامه من الأمام، عليك الدنوّ منها كثيراً. فهذا الأمر وحده يثير المشاعر.

"هل سبق لك أن قمت بذلك؟".

"مرات عدة في مؤسسة مظفّر للخياطة مع العم أشرف".

"ربما يُفترض بي التخلي عن الكلّية وأصبح خياطاً".

"يُفترض بك ذلك. هناك مرح أكبر".

فابتسم مانيك وقال: "في الواقع، أفكر في إكمال الكلّية بعد نهاية هذا العام".

"لماذا؟ ظننتُ أنك تكرهها".

لزم مانيك الصمت للحظات، محرّكاً أصابعه على براجمه كما لو أنه يعزف على البيانو، ثم قال: "تلقيت رسالة من والديّ يقولان فيها إنهما ينتظران انتهاء هذا العام بفارغ الصبر، ويعبّران عن مدى شعورهما بالوحدة في غيابي؛ الهراء القديم نفسه. عندما أكون هناك، يقولان اذهب، اذهب، اذهب. لذلك، كتبتُ لهما قائلاً إنني أريد البقاء ثلاث سنوات إضافية للحصول على إجازة جامعية بدلاً من شهادة دبلوم".

"أنت غبي. لو كنت مكانك، لعدتُ إلى والدَيّ بأسرع وقت ممكن".

"ما هو قصدك؟ الدخول مجدداً في جدال وشجار مع والدي؟ إضافةً إلى ذلك، أنا أستمتع هنا".

فعاين أوم أظافره، ومرّر يده عبر نفثة الدخان وقال: "إذا كنت تخطط للبقاء، يُفترض بك غضّ الطرف عن الخياطة، بالتأكيد، لأنك لا تستطيع أخذ قياسات النساء كما لو أنهنّ برّادات".

غادرت الزبونة بينما كانا يُحدثان مزيداً من الصخب، وقال إيشفار: "هيا أنتما الاثنان، حان وقت المغادرة. ما الذي يُضحككما إلى هذا الحد؟".

"كما لو أننا لا نعرف"، قال جيفان، وابتسم ابتسامة عريضة، مودّعاً إيّاهم ومتمنياً لهم حظاً سعيداً: "آمل أن تجدا غرفة في وقت قريب".

في أثناء أسبوع القراءة، وقبل امتحانات مانيك، مرّ جامع الإيجارات بعد ظهر أحد

الأيام بمنزل دينا بشكل غير متوقَّع. فأوقف الخياطان العمل على آلتي الخياطة لدى سماعهما جرس الباب.

قال إبراهيم: "كيف حالك، يا أختاه؟". ورفع يده باتجاه الطربوش.

"ما الأمر الآن؟"، قالت دينا، قاطعةً الطريق عليه، "لقد سُدِّد إيجار هذا الشهر".

"الإيجار ليس المشكلة، يا أختاه". منكمشاً في أثناء تكلمه، قال بسرعة إن المكتب طلب منه تسليمها إنذار أخير لإخلاء الشقة في غضون ثلاثين يوماً لأنهم يملكون دليلاً على أنها تستخدم الشقة لغايات تجارية بالرغم من التحذير الموجَّه إليها قبل أشهر.

"هراء! ما الدليل الذي لديهم؟".

"لماذا تغضبين مني، يا أختاه؟"، قال متوسلاً، مربّتاً على المفكرة الموجودة في جَيبه، "كل شيء مدوَّن هنا: التواريخ، الأوقات، الذهاب والإياب، سيارات الأجرة، الملابس. وهناك دليل إضافي في الغرفة الخلفية".

"الغرفة الخلفية؟ هل تريد أن تريني؟". ووقفت جانباً وأومأت إليه بالدخول.

لقد أجفله التحدي تماماً. كان خياره الوحيد تلبية الدعوة. فدخل مطأطئ الرأس، وتوجّه إلى غرفة الخياطة. وانتظر الخياطان المسمَّرَين وراء آلتي الخياطة بعصبية، بينما كان مانيك يراقب من غرفته.

"هذه هي المشكلة، يا أختاه. لا يمكنك استخدام خياطَين وإدارة عمل هنا"، وحرّك يدَيه اللتين تؤلمانه مشيراً إلى الغرفة الأخرى مضيفاً: "وضيف يدفع إيجاراً، فوق كل شيء. يا للجنون، يا أختاه. سيرميك المكتب في الخارج بالتأكيد".

"أنت تنطق بالهراء!"، وشنّت الهجوم المضاد، "هذا الرجل"، قالت، مشيرةً إلى إيشفار، "هو زوجي. والفَتيان هما ابنانا. وكل تلك الملابس لي، وهي جزء من مجموعة ملابسي للعام 1975. اذهب، واخبر صاحب الملك بأنه لا يملك أي دليل ضدي".

من الصعب القول مَن الذي صُدم أكثر من سواه بهذا الكلام المنحول: إيشفار الذي احمرّ خجلاً لاهياً بالمقص، أم إبراهيم الذي فرك يدَيه وتنهّد.

مستغلّةً الوضع، قالت: "هل تريد قول شيء آخر؟".

أخفض إبراهيم كتفَيه حتى بدتا متوسلتين وقال: "شهادة الزواج، رجاءً؟ شهادتا الولادة؟ هل يمكنني رؤيتها، رجاءً؟".

"هذا ما تراه! كيف تجرؤ على إهانتي! أخبر صاحب الملك أنني سأوصله إلى المحكمة مباشَرةً إذا لم يكفّ عن مضايقة عائلتي!".

فانسحب، متمتماً بأنه سيكون عليه رفع تقرير كامل للمكتب، وأنه لا سبب للإساءة

إليه في أثناء القيام بواجبه لأنه لا يستمتع بعمله.

"إذا لـم تكـن تسـتمتع بـه، فاتركه. في سـنّك، لا يُفترض بـك العمل على أيّ حال. باستطاعة أبنائك الاهتمام بك".

قال في أثناء إغلاق الباب: "يجب عليّ أن أعمل، أنا بمفردي".

خبت حلاوة انتصارها. فانتظرت في أثناء سماعه يلهث في الخارج، ملتقطاً أنفاسه قبـل أن يتمكـن مـن المغادرة. ففي أثناء قوله الكلمات الوجيزة، تذكرت سـنوات وحدتها المضطربة وكيف أنه لا يمكنها التعويل على السـعادة التي اكتشـفتها في الأشـهر القليلة الماضية.

فـي الغرفـة الخلفيـة، اسـتفاق إيشـفار من المفاجـأة المتعلقة بالـزواج، وكان الفَتيان يقهقهان بسـبب النظرة البادية على وجهه. قال أوم: "تسـتمر في التحدث عن تدبّر زوجة لي، بدلاً من ذلك، لقد حصلتَ على واحدة".

"كانت فكرة مذهلة، يا خالتي. هل خطّطتِ لذلك مُسبَقاً؟".

"لا تبالِ بذلك، من الأفضل لك التخطيط لامتحاناتك".

أغلقت الكلّية أبوابها بمناسبة الديفالي لمدة ثلاثة أسابيع، وشجعت دينا مانيك على القيام بجولات سياحية. "أمضيت كل هذه المدة بين المنزل والصف. ولكن هناك الكثير مـن الأماكـن الهامـة في هـذه المدينة. المتحف، وحوض الأسـماك، والكهوف المنحوتة، ستفتنك. وزيارة حديقة فكتوريا، والحدائق المعلّقة، جديرة بالعناء أيضاً، صدّقني".

"ولكن سبق لي أن رأيتها".

"متى؟ منذ سنوات، مع والدتك؟ كنت لا تزال صغيراً آنذاك، ولا يمكنك تذكّر أي شـيء. يجـب عليـك الذهـاب مجدداً. ويجب عليك زيارة أنسـبائك من عائلة سـوداوالا؛ إنهم عائلة والدتك".

قال غير مبالٍ: "حسناً". ولم يخرج من الشقة.

في ذلك الأسـبوع، سُـمعت أصوات الألعاب النارية الأولى بمناسـبة الديفالي. قال إيشـفار: "يـا لهـذا الـدويّ!". قالـت دينـا: "هناك دويّ أقـوى، انتظر حتى اقتـراب التاريخ الفعلي".

كان الضجيج يُرجِع موعد النوم ساعتَين كل ليلة، مما جعل أيام إجازة مانيك الشاغرة أطول وأكثر شغوراً. وللتعويض عن ذلك، حاول الاستيقاظ في وقت متأخر، ولكن الغلَبة كانت على الدوام للفجر المليء بالصخَب وبصلصلة بائعي الحليب والغربان المجادِلة.

سـجّلت دينـا لـه أرقـام الحافلات ووجهاتها وقالت: "من السـهل جـداً العثور على

هذه المفاتن السياحية، لن تضيع أبداً"، قالت ظنًّا منها بأن هذا الأمر هو ما يخيفه. ولكن مانيك بقي على موقفه.

بعد أن سئمت من تنقّله في أرجاء المنزل مكتئباً، بدأت بتوبيخه: "تلازم المنزل طوال الوقت كجَدّ كئيب. إنه أمر غير طبيعي بالنسبة إلى شاب. وأنت تقودنا إلى الجنون مع ذَرعك المكان طوال اليوم جيئةً وذهاباً".

بدأ حضوره غير الفاعل يُلهي أوم أيضاً الذي كان يحصل على استراحات شاي مطوَّلة معه في فيشرام، أو يلعبان الورق على الشرفة، مُظهراً عدم مَيل إلى العمل. فأنّب إيشفار ابن شقيقه، ووبّخته دينا أيضاً من دون طائل.

في نهاية الأسبوع، اعتمدا مقارَبة مختلفة: قررا أنه من الأفضل إعطاء إجازة لأوم. فمن غير الواقعي توقّع كدّه في العمل في حين أنه يرى صديقه ينتظر انتهاء دوام عمله. بالرغم من كل شيء، إنه مضطرّ إلى كسب رزقه في حين يُفترض به ارتياد الكلّية على غرار مانيك.

أُعلم أوم بتقليص ساعات عمله والقيام بأعمال الخياطة بين الثامنة والحادية عشرة صباحاً. قالت دينا: "لقد بذلتَ جهداً كبيراً خلال هذه الأشهر القليلة الأخيرة، أنت تستحق إجازة".

هكذا، خرج الفَتيان من المنزل. فبعد انتهاء أوم من عمله، لم يعُد يُرى الاثنان مجدداً حتى موعد العشاء. ويُجرى حديث متواصل طوال فترة تناول الوجبة حتى موعد النوم، لأنه كان لديهما كثير من الأخبار.

قال أوم: "كان البحر هائجاً جداً، والفطور يقفز كجواد جامح، كان الأمر جنونياً".

"أقول لك يا خالتي إن ضيفك المستأجِر ونصف معمل الخياطة لديك كادا يغرقان تقريباً في رصيف الميناء".

قال إيشفار: "لا تتفوّه بأمور مشؤومة".

"بعد ذلك الفطور، أصابني حوض الأسماك بدُوار مع كل ذلك الماء من حولنا".

"ولكن الأسماك كانت جميلة، إضافةً إلى طرائقها الأنيقة في السباحة كأنها تقوم بنزهة أو تتسوّق في البازار، أو تعصر البندورة، أو تطارد لصاً كما لو أنها من الشرطة".

قال مانيك: "بعضها كانت مليئة بالألوان كقطعة قماش من الأوروفوار، وبدا أنف سمكة أبو منشار كمنشار حقيقي تماماً. أُقسم بذلك".

قال أوم: "غداً، أريد نقل رسالة إلى الشاطئ، لقد شاهدناهنّ اليوم بزيوتهنّ ومستحضرات التجميل والمناشف".

قالت دينا، محذِّرة: "احترسا، هؤلاء المدلِّكات محتالات. عندما تسترخيان وتنامان، يسرقن ما في جيوبكما".

وأمضيا الأيام الثلاثة التالية في المتحف. وعندما عاد أوم إلى المنزل، قال إن البُناة استوحوا شكل القبّة من كِرش عمّه. قال إيشفار: "ليتني أستطيع الادّعاء بأنني صاحب الفضل في ذلك". وطوال ثلاث أمسيات، سمع ودينا كل شيء عن معرض الفنون الصيني، ومعرض الفنون التيبتي، ومعرض الفنون النيبالي، وإناءات السَّماوَر، وأباريق الشاي، والمنحوتات العاجيّة، وعلب النَشوق من الجاد، والمطرَّزات الجدارية.

كانت المجموعةُ المعدنية الأكثرَ أَسراً للانتباه: بَذلات مدرَّعة، خناجر ذات مقابض من الجاد، سيوف معقوفة، سيوف مسنَّنة ("أفضّل مِبشرة جوز الهند الموجودة على رف المطبخ"، قال أوم)، سيوف مرصَّعة للاحتفالات، أقواس وسهام، هراوات، رماح، حِراب، وصولجانات ذات نتوءات حادّة.

قال مانيك: "لقد بدت كأسلحة في فيلم سينمائي قديم، موغال-إي-أزام". وأضاف أوم قائلاً إن هذه الأسلحة مفيدة لتسليح كل الشاماريين في القرية، وارتكاب مجزرة بحق أصحاب الملك وأفراد الطبقة العليا، مما حمل إيشفار على العبوس، غير موافق على ما يقال، حتى طمأنه ضَحِكُ الفَتيَين.

هكذا، التهما إجازتهما بشهيّة الشباب. كان إيشفار يشاركهما استمتاعهما بالزيارات التي يقومان بها إلى الأماكن الهامة، وتعيد دينا اكتشاف بعضٍ من أيام الدراسة في غمرة حماستهما.

بعد انقضاء نصف العطلة، اكفهرّت السماوات بموجة متأخرة من الرياح الموسمية أبقت الفَتيَين داخل المنزل. وفي خضمّ الملل والقلق، تذكّر مانيك أحجار الشطرنج. لم يسبق لأوم أن رأى هذه الأحجار، وأسرت الشخصيات البلاستيكية مخيّلته. فطلب تعلّم اللعبة.

بدأ مانيك بتسمية الأحجار له: "الملك، الملكة، الفيل، الحصان، القلعة، البيدَق". لقد شعر بحنان مألوف في أثناء سقوط الكلمات على مسامعه. واستمتع بتلمّس الأحجار بين أصابعه مرة أخرى بعد كل هذه المدة، مُعيداً إحياءها من خلال إخراجها من نعشها المصنوع من خشب رقائقي بنّيّ اللون، ووضعها في مربّعاتها المعتادة استعداداً للمعركة.

بعد ذلك، أصبح صوته فجأةً الصدى البعيد لصوت آخر؛ صوت عدّد له ذات مرة أحجار الشطرنج بالطريقة نفسها في نُزل الكلّية. فتوقف، غير قادر على متابعة شرح اللعبة. وبدأ الصوت ينبش عظام ماضيه غير الحديث، تلك العظام التي كان يحاول نسيانها كلّياً

وعـدم العـودة إليهـا مجـدداً، بعد أن تمكن من ذلك جزئياً. لقد ظهرت الآن فجأةً بسـرعة غريبة.

بدأ بتحريك الأحجار على لوحة الشطرنج حيث يأوي كل حجر شبحاً ضمن مربّعه. لقـد بـدأ اثنان وثلاثون شـبحاً خطواتهم الخاصـة كجيش من الذكريات يتحرك على إيقاع الموسـيقى، مسـتفزّين ومسـتعدّين للدخول في معركة مع رغبته في النسـيان. بعد ذلك، بدّلت أحجار الشطرنج وجه الشريك، وتخيّل وجه أفيناش يبتسم له من المربّعات الأربعة والستين.

بقليل من الجهد، ترك مانيك لوحة الشـطرنج وذهب إلى النافذة. كان المطر ينهمر على الشـارع بقوة، وتقبع دراجة نارية تحت غطاء مشـمَّع يُصدر صوتاً رتيباً عالياً. كانت بُرَك الماء من حوله موحلة ومنفِّرة، ولا وجود لأولاد يلعبون أو يرشّـون الماء، والشـارع بـدا كئيبـاً فـي هـذا المطـر الجـارف الذي دام طويـلاً. فتمنى لو أنه لم يفتـح علبة أحجار الشطرنج أبداً.

سأل أوم: "ما خطبك؟".

"لا شيء".

"إذاً، هيا. توقف عن إضاعة الوقت، أَرِني طريقة اللعب".

"إنها لعبة غبية، انسَها".

"لماذا تحتفظ بها لو كانت غبية؟".

"أحدهم أقرضني إيّاها. عليّ إعادتها له قريباً". وشاهد علب السجائر الفارغة وأغطية قناني المشروب غير الكحولي في قناة تصريف المياه. من غير المحتمل أن تكون كولاز كولا بينها، لا سيّما إذا كان والده لا يزال يتّبع طرائقه العنيدة. كم كان بإمكان هذه التجارة أن تكون ناجحة؟ ولِمَ اضُطرّ إلى القدوم إلى هذه الكلّية اللعينة؟ لا بدّ من أنه أخطأ في مرحلة ما من مراحل حياته، قال في نفسه، كي يتعرّض لهذا الاختبار.

قـال أوم: "لا تريـد أن تعلّمنـي، هـذا كل مـا فـي الأمر". ناقـلاً الأحجار إلى العلبة، وقـد سـقطت بطقطقـة اتهاميـة. فنظـر مانيك وفتح فمه كما لو أنـه يريد التكلم، ولكن أوم الذي كان يضع الغطاء لم يلاحظ الأمر.

تمهّل مانيك عند النافذة قبل العودة إلى رقعة الشطرنج. قال أوم بسخرية: "لا أريد التسبب لك بأي متاعب، هل أنت واثق من أنك تريد تعليمي؟".

فلم يقل شيئاً، وأعدّ اللوحة مجدداً، وبدأ بشرح القواعد. كان المطر ينهمر بقوة على الغطاء المشمّع للدرّاجة النارية.

في اليومين التاليين، تعلّم أوم كيفية تحريك الأحجار والإيقاع بها، ولكن لم يتمكن من استيعاب مفهوم إماتة الشاه. لو قام مانيك بإعطائه مثالاً على لوحة الشطرنج، لاستوعبه تماماً وزال شعوره بالكَرب بسبب عجز الملك الذي أُوقع في الفخ. ولكن تمكنه من حلّ العقدة بمفرده خلال اللعب هو أمر يتخطى قدراته، وفقد صبره.

شعر مانيك أنه سبب الإخفاق؛ لم يكن يجيد التعليم مثل أفيناش. فالتمكن من إحراج الشاه وإنهاء المباراة بالتعادل أمر صعب أيضاً. "أحياناً، لا يتبقى عدد كافٍ من الأحجار لدى الفريقَين، لذلك يتمكن الملك من الإفلات"، شرح مراراً وتكراراً.

مرة أخرى، فهم أوم الشرح عندما طُرح له مثال على رقعة الشطرنج. قال مجادلاً: "لا معنى لذلك، انظر، جنودك وجنودي يتقاتلان، وكل رجالنا ماتوا. لم يتبقَّ سوانا. الآن، على أحدنا الفوز، والقوي يقتل الآخر، أليس كذلك؟".

"ربما، ولكن القواعد مختلفة في الشطرنج".

أصرّ أوم: "يُفترض بالقواعد أن تسمح بفوز شخص ما". لقد أربكه التحليل المنطقي.

قال مانيك: "أحياناً، لا أحد يفوز".

قال أوم: "أنت مُحِق، إنها لعبة غبية".

بعد خمسة أيام من المطر، لم يصفُ الجوّ، وتسبب الاثنان بإزعاج كبير في الشقة. كانا يتسلّيان بمراقبة إيشفار ودينا يعملان. همس مانيك: "انظر، يدفع الناحية الداخلية من خدّه بلسانه باستمرار عندما يبدأ بتشغيل آلة الخياطة". واعتبرا عادتها في إخفاء شفتَيها بين أسنانها في أثناء قياس شيء ما أمراً مُضحكاً للغاية.

قال أوم عندما توقف عمه لملء الوشيعة من البَكَرة: "إنه شديد البطء، يمكنني لفّه في غضون ثلاثين ثانية".

فرد إيشفار برحابة صدر: "أنت شاب وأنا مُسِنّ". فدسّ الوشيعة الجديدة داخل مكّوك الحياكة ووضع اللوحة المعدنية فوقها.

قال أوم: "أحتفظ باستمرار بست وشائع جاهزة، وهكذا، يمكنني تبديلها من دون إيقاف الخياطة".

"يا خالتي، يُفترض بك تطويل ظفرَي إصبعَيك الصغيرتَين مثل إيشفار. سيبدوان رائعَين".

لقد نفد صبرها على الفور وقالت: "تغدوان مثيرَين للمتاعب مع ميم كبيرة. فكونكما في إجازة لا يعني أن تجلسا وتؤلما رأسَينا بترّهاتكما. اخرجا أو ابدآ العمل".

"ولكنها تمطر يا خالتي. لا تريديننا أن نتبلّل، أليس كذلك؟".

"هل تظن أن المدينة بأكملها تضع غطاءً على رأسـها بسـبب قليل من المطر؟ خذا المظلة، إنها مدلاة من الخزانة في غرفتكما".

"إنها مظلة نسائية".

"إذاً تبلّلا. ولكن كُفّا عن مضايقتنا".

قال أوم: "حسناً، سنذهب بعد الظهر إلى مكان ما".

وانتقـلا إلـى الشـرفة، واقتـرح مانيك زيارة حوض الأسـماك مـرة ثانية، فقال أوم إن لديه فكرة أفضل: "مشغل جيفان".

"إنه مُملّ، لا عمل لنا هناك".

فكشف أوم عن مخططه: إقناع جيفان بالسماح لهما بأخذ قياسات زبوناته.

قال مانيك: "حسناً، فلنذهب". وابتسم ابتسامة عريضة.

قال أوم: "سأعلّمك هذه اللعبة، قياس الصدر أسهل من لعب الشطرنج وأكثر إمتاعاً بالتأكيد".

كان المشـغل هادئـاً عندمـا وصـلا، وجيفـان يأخـذ قيلولة ممدّداً علـى الأرض وراء المنضدة، وتصدر موسيقى هادئة من راديو ترانزستور موضوع على كرسيّ بجانب رأسه. فرفع أوم الصوت، واستيقظ جيفان مُجفَلاً.

فجلـس يـزدرد الهـواء لدقيقـة من الزمن، وعيناه متورّمتـان. "لماذا قمتَ بذلك؟ هل هو مُزاح أم ماذا؟ الآن سيؤلمني رأسي طوال فترة بعد الظهر".

رفض التفكير في العرض الذي قدّمه له أوم والمتمثل بمساعدته مجّاناً، فقال: "تأخذ قياسـات زبوناتي؟ انسَ الأمر. أعرف ما الذي ترمي إليه. ذلك سـيمرّغ السـمعة الحسـنة للمشغل في الوحل".

فوعـد أوم بالتصـرف بشـكل احترافـي. وأعلـن أن مهاراته تصدأ بسـبب العمل وفقاً لنماذج ورقية. "أريد فقط البقاء على اتصال بالخياطة الحقيقية".

"لا أظـن أن هـذا مـا تريـد البقـاء على اتصال به. لا يمكنـك خداعي. ابقَ بعيداً عن زبوناتي، أحذّرك".

جال مانيك داخل حجرة تبديل الملابس وراء الستار وقال: "ألن يكون من الممتع الاختباء هنا عندما يدخلن لقياس ملابسهنّ".

فعايـن أوم الداخـل أيضـاً، ووجـد ثـلاث علاّقات للثياب ومـرآة، من دون أن يكون هناك ما يمكن الاختباء وراءه. قال مستنتجاً: "مستحيل".

قـال جيفـان: "هـل تظـن ذلـك؟ الآن، دعانـي أُريكمـا شـيئاً أيهـا الفَتيـان الذكيّان".

واقتادهمـا وراء المنضـدة حيـث الناحيـة الخلفيـة من الحجرة. وقال "ضعـا أعينكما هنا". مشيراً إلى فتحة ضيّقة في إحدى الزوايا.

فشهق أوم قائلاً: "باستطاعتك رؤية كل شيء من هنا!".

قال مانيك، دافعاً إيّاه: "دعني ألقي نظرة، إنه ممتاز!".

داعب جيفان شفتَيه وابتسم راضياً عن نفسه. "أجل، ولكن لا تأملا بأي شيء. هل جُننتُ لأَدعكما تدخلان إلى هنا؟".

قال أوم: "رجاءً! إنه عرض مجّاني رائع من البداية إلى النهاية!".

"رائع، أجل. مجّاني، لا. لكل شيء ثمن. تذهبان إلى السينما، هناك تذكرة تشتريانها. تستقلان القطار، وهناك أُجرة عليكما دفعها".

سأل أوم: "كم المبلغ؟".

"لا يهمّني المبلغ. لا يمكنني المجازفة بشرف مشغلي".

"رجاءً، يا جيفان، رجاءً!".

وبدأ يلين إذ قال: "ستُحسنان التصرف؟ لا جنون أمام المنظر؟".

"سنلتزم بما تطلبه منّا".

"حسناً. روبيّتان لكل منكما".

راقب أوم مانيك يبحث في جَيبه: "أجل، لدينا ما يكفي".

"ولكنني أريد شـخصاً واحداً فقط في هذا المكان، ومُداورةً. لا ضجيج، ولا حتى صـوت تنفّسـكما، مفهـوم؟". فأومـآ برأسَـيهما. وتفحّص جيفان دفتـر الطلبات، ووجد أن هناك موعداً لامرأتَين في ذلك المسـاء، إحداهما لقياس بلوزة والأخرى لقياس سـروال. "من يريد هذه المرأة ومَن يريد الأخرى؟".

فاقترح مانيك رمي قطعة نقود. قال أوم: "طُرّة"، وفاز. أغمض عينَيه مبتسماً، وحاول اتخـاذ قـرار، فاختـار السـروال. وقـال جيفان إن عليهما الانتظار سـاعة واحدة على الأقل لأن الزبونتَين ستأتيان بعد الخامسة. وبما أن المطر توقف عن الهطول، قرر الاثنان القيام بنزهة.

كانـت نزهـة متوتـرة وصامتـة، والجوّ مثقـلاً بالتوقعات. لقد تكلّما مـرة واحدة فقط للتوافق على ضرورة العودة لأن المرأتَين قد تأتيان باكراً. لم تكد تمرّ خمس عشرة دقيقة على خروجهما.

انتظـرا عنـد حافـة المشـغل، مثيرَيـن عصبية جيفان. وكانت هنـاك أربع إنذارات غير صحيحة: نساء يأخذن ملابس خضعت للتصليح. وعند السادسة إلا ربعاً، أثمر انتظارهما.

قـال جيفـان: "أجـل، يـا سـيدتي، بلوزتك جاهزة للقياس". مومئاً إلى الفتَيين برأسه بشـكل سـرّي. وجال ببصره على كدسـة من الملابس، مانحاً الوقت لمانيك للتسـلّل وراء المنضدة إلى المكان المظلم. ومن ثم، سـحب البلوزة، وأرشـد المرأة إلى السـتار: "هناك في الداخل، يا سيدتي، شكراً جزيلاً لك".

لقد ظن مانيك أن خفقان قلبه القوي سيُحدث قَرعاً على الجدار الفاصل. ودخلت بكعبَيهـا العاليـين ناقـرةً الأرض الحجريـة بقـوة، وعلّقـت البلـوزة الجديـدة علـى إحـدى العلاّقـات، وأسـدلت السـتار. فسـحبتها بترتيـب، ووضعتها فوق تنورتهـا وفكّت أزرارها، مُديرةً ظهرها إلى مانيك الذي شاهد انعكاسها على المرآة.

فحبس أنفاسـه. كانت ترتدي صُدرية بيضاء، لقد ظن للوهلة الأولى أنها سـتخلعها، فشـدّ علـى قبضـة يـده بإحـكام. ولكنهـا نقلت العَقيفـة إلى العُـروة المجاورة فـي الرِّباط المطاطي، وعدّلت موقع الصدرية دافعةً إيّاها نحو الأعلى، وارتدت البلوزة الجديدة.

لقـد سـالت علـى جبيـن مانيك مسـابح مـن التعرّق لدغـت عينَيه. وغـادرت المرأة الحجرة، فاغتنم فرصة التنشق بعمق. وعبر الفتحة، وبجانب الستار المفتوح، كان باستطاعته رؤية جيفان يتحقق من البلوزة. واستدار أوم فجأةً وغمز باتجاه الفتحة، واضعاً يدَيه على صدره وضاغطاً.

كانت البلوزة مُرضية، وعادت لتبديل ملابسها، وخرجت بعد أقل من دقيقة. فانتظر مانيك، وكان باسـتطاعته سـماع جيفان يشـكرها ويحدد موعداً نهائياً للتسـليم. بعد ذلك، سُمع صوت نقر الكعبَين العاليَين على الدرَجات، وخرج من مكان اختبائه.

فمسح جبينه بكمّه، وهزّ القميص تحت إبِطَيه وقال: "الطقس حارّ جداً وراء الجدار الفاصل".

قـال جيفـان ضاحـكاً: "لا تُلـقِ اللوم على الجـدار الفاصل". وطلب المال، فدفع له مانيك.

سأل أوم: "كيف كان الأمر؟ ماذا رأيت؟".

"رائع، ولكنها كانت ترتدي صُدرية".

قال جيفان: "ماذا كنت تتوقع؟ زبوناتي لسـنَ من نسـاء الطبقة الدنيا في القرى. هنّ يعملن في مكاتب كبيرة: سكرتيرات، موظفات استقبال، كاتبات على الآلات الكاتبة. هنّ يضعن أحمر الشفاه ومستحضَرات تحمير الخدود، ويرتدين ملابس تحتية عالية الجودة".

كان على أوم الانتظار نصف ساعة إضافية قبل أن تصل زبونته. فمر ببطء ومن دون اكتـراث بجانـب المنضـدة، متوارياً عن الأنظار قبل أن يعثر جيفان على الفسـتان، ويطلب

من المرأة دخول الحجرة.

وعندما توجهت إلى الحجرة مسرعة، تمنى مانيك لو أنها كانت من نصيبه.

وعادت إلى خلف الستار. وبعد ثوانٍ، سُمع صوت خبطة مكتومة وصراخ.

فقفز جيفان قائلاً: "يا سيدتي! أكل شيء بخير؟".

"لقد سمعتُ ضجيجاً! في الخلف!".

قال بسرعة وهدوء بارع ومتذلّل: "رجاءً يا سيدتي، كل شيء بخير، أعدك بذلك، إنها مجرد جرذان. رجاءً، لا تقلقي".

خرجت مضطربة، طارحةً السروال على المنضدة. فأعاده إلى علاّقة الثياب قائلاً لها: "أنا شديد الأسف بسبب هلعك يا سيدتي، الجرذان مشكلة كبيرة أينما ذهبتِ في المدينة".

قالت بغضب: "يُفترض بك القيام بشيء ما حيال الأمر، إنه أمر غير لائق بزبائنك".

"أجل يا سيدتي. هي تختبئ أحياناً في العلب وراء الجدار الفاصل وتُحدث ضجيجاً. سيكون عليّ نشر مزيد من السم لها". واعتذر مجدداً وودّعها.

فخرج أوم وعلى وجهه ابتسامة خجولة، وصفعه جيفان بقوة على رأسه قائلاً: "غبيّ! كان بإمكانك أن تتسبب لي بمتاعب جمة! ما سبب الضجيج؟".

"آسف، لقد انزلقتُ".

"انزلقت! أي أمور قذرة كنتَ تقوم بها متسببةً بانزلاقك؟ اخرجا كلاكما! لا أريد رؤيتكما مجدداً في متجري!".

حاول مانيك التهدئة من رَوع جيفان من خلال أعطائه الروبيّتَين لقاء الخدمة التي قدّمها لأوم، ولكن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى زيادة حدة غضبه. فأزاح يده جانباً وبدا مستعداً لضربه. "احتفظ بمالك! وأبقِ هذا الفتى المشاغب خارج مشغلي!"، ودفعهما خارج الباب وعبر الدرجات.

هدأ خاطرهما في أثناء سيرهما على الطريق الفرعي المؤدّي إلى الطريق الرئيس. فزعق غراب من حافة نافذة. عززت أضواء المساء المطويّة على حاشية الظلام الأثر المهدّئ لغضب جيفان. وبدأت مصابيح الشارع تومض بتردد؛ براعم صفراء تُعلن انبثاق التوهّج الكامل. وعدا شيء ما بسرعة أمامهما إلى داخل الزقاق.

قال مانيك: "انظر، ها هو جرذ السيدة يذهب". ورأيا ومضةَ بَشَرةٍ بنّية اللون على الفَرو السقيم للقارض المبقّع والجرِب.

قال أوم: "إنه يبحث عن أدفانسد تايلورينغ، يريد خياطة بذلة جديدة"، وضحكا. توارى الجرذ عن الأنظار داخل الفجوات المظلمة للزقاق حيث تبقبق قناة لتصريف المياه

ويُسمَع صرير حاد وصوت رذاذ. وتوجّها إلى موقف الحافلة.

فابتسم.

في الأمام، وخلال سيرهما، تناثر شيء ما من نافذة الطابق العلوي على الرصيف المكتظ. فصاح المشاة باتجاه المبنى بعد تلوّثهم، وتوجهوا إلى درجات المدخل، وانطلقوا إلى الطابق العلوي بأقصى سرعة، عِلماً أنه كان من المستحيل معرفة النافذة التي يختبئ وراءها المُذنب.

وانتظرا تبدّل إشارة المرور لعبور الطريق. وعند طرف ممر المشاة، كان هناك شرطيان يحملان حبلاً مشدوداً بينهما، مانعَين الحشود من الخروج إلى الشارع وسط حركة المرور. واندفع الناس على الحاجز كموجات تختبر خط الساحل. فثبّت الشرطيان أعقاب أقدامهما بالأرض، باذلَين قُصارى جهدهما، صارخَين، محتويَين نفاد صَبر مجموعة الناس الذين يريدون التوجه إلى منازلهم.

انطفأ الضوء الأحمر المنتظَر القائم إلى اليمين، وشعّ الزجاج المستدير باللون الأخضر مُظهراً صورة عصا. فتنحّى الشرطيان على عجَل مع الحبل، وعبرت الحشود بأعداد كبيرة.

بلغت الألعاب النارية ذروتها في الليلة السابقة للديفالي، وبات من الصعب الخلود إلى النوم حتى ما بعد منتصف الليل. ولدى كل دويّ، ولا سيما انفجار المجسَّمات الحمراء التي تدعى قنابل ذرّيّة، كان إيشفار يتنهد ويضع يدَيه على أُذُنَيه.

قال أوم: "ما النَّفع من تغطية أُذُنَيك بعد الدويّ؟".

"ما الذي يمكنني القيام به غير ذلك. يا للجنون، زمن تنوّر واحتفال يتحول إلى ألم في الأُذُن. هل بهذه الطريقة نرحّب بعودة رام إلى أيوديا من منفاه في الغابة؟".

قالت دينا: "المشكلة هي في الثراء العميم في المدينة، إذا أراد الناس إشعال أموالهم، أتمنى أن يقوموا بالأمر بشكل جيد"، وجفلت في أثناء انفجار قنبلة ذرّية أخرى، "لو كنت في سدّة المسؤولية، لسمحتُ بالألعاب النارية التي لا تُصدر دويّاً".

قال إيشفار بسخرية: "ولكن الخبراء الدينيون الكبار سيقولون لك إن ذلك لن يكون كافياً لإخافة الأرواح الشريرة".

قالت، منسحبةً من الشرفة: "هذه القنابل الذرّية كفيلة بإخافة رام وأيوديا أيضاً، لو كنت مكان رام، لعدتُ إلى الغابة على الفور بدلاً من مواجهة انفجارات هؤلاء المتعصّبين".

بعد وضع سدادة من الصوف القطني في كل أُذُن، شرعت بالعمل باللحاف. وتبعها

إيشفار بعد دقائق قليلة، وجلس واضعاً يدَيه على أُذُنَيه، فأحضرت له سدادات مماثلة. وعند الانفجار التالي، أشرق وجهه ليقول إن هذه القطع أجدت نَفعاً.

ورفض مانيك وأوم التخلي عن الشرفة بالرغم من دسّ أصابعهما في آذانهما لدى البدء بالإعداد لإطلاق سلسلة من المجسَّمات الحمراء.

تبقّت ستة أيام من العطلة قبل إعادة فتح الكلّية أبوابها، وكان لدى أوم فكرة عن التمتع بمزيد من المرح. كان يعلم أن القِدَم والرطوبة شوّها باب الحمّام وإطاره، مما ترك فجوة كبيرة لدى إغلاقه. فقال إن بإمكانهما اختلاس النظر مداوَرةً في أثناء استحمام دينا، في حين يقوم الآخر بالمراقبة للتحقق من عدم مفاجأة إيشفار لهما.

"لقد أوحت إليّ قصتك عن استحمام الخادمة. إذاً، ما هو رأيك؟".

قال مانيك: "أنت مجنون، لن أقوم بذلك".

"ما الذي تخشاه؟ فهي لن تعلم".

"لا أريد فحسب".

نهض: "حسناً، إذاً، أنا سأقوم بذلك".

"لا، لن تفعل". وأمسك مانيك بذراعه.

"دعني وشأني! من أنت لتُملي عليّ إرادتك؟"، وانتزع ذراعه بعنف، ولكن مانيك أمسك بكتفَيه ودفعه إلى الوراء ورماه في الكرسي. وتقاتلا بجدّيّة، فاستخدم أوم قدمَيه ولكن مانيك تمكن من الوصول إلى وراء الكرسي وثبّته بها. واستسلم أوم بعد أن عجز عن التحرك.

قال برِفق: "أنت وغد أناني، أنا أعرفك. كل تلك الأشهر التي أمضيتها معها بمفردك، لا بد من أنك كنت تشاهدها. والآن، لن تسمح لي بالحصول على ما حصلت عليه".

قال مانيك بحدّة من وراء الكرسي: "غير صحيح،لم أفعل ذلك أبداً". ووقف مانيك أمام الكرسي وصفعه على فمه. فأمسك أوم وجهه بشدة، مصدوماً، ولزم الصمت لثوانٍ قليلة، وملأ الألم عينَيه، ومن ثمّ قال: "أيها الوغد الرديء!" وأفاق من صدمته، وانقضّ عليه لاوياً قبضتَي يدَيه بجموح.

وطار الكرسي في الهواء، فتلقّى مانيك ضربة على رأسه، وطالت الضربات الأخرى ذراعَيه من دون أن يصاب بأذى. ولإخضاع أوم من دون إلحاق الأذى به، أمسك بقميصه وسحبه باتجاهه وطوّقه بذراعَيه؛ هكذا، لم تعُد قبضتاه قادرتَين على التحرك. وسُمع صوت تمزّق؛ لقد انتزع الجَيب بيده وظهر شقّ تحت الكتف.

صاح أوم، مضاعفاً جهوده: "وغد! لقد مزّقتَ قميصي!".

وعلت وتيرة الاضطراب بما يكفي لبلوغ مسامع إيشفار بالرغم من الضجيج الذي تُحدثه آلة الخياطة، وخرج إلى الشرفة: "ماذا يجري؟".

لقد تبخّرت رغبتهما في القتال فجأةً بحضوره، وسهل عليه الفصل في ما بينهما. وانتقل التعبير عن الغضب إلى نظراتهما، وحدّقا ببعضهما بغضب للحظات قليلة قبل أن ينصرفا.

صاح أوم، محدّقاً بجَيبه الممزَّق: "لقد مزّق قميصي!".

"تحدث هذه الأمور عندما تتقاتلان. ولكن لماذا كنتما تتصرفان على هذا النحو؟".

قال أوم مجدداً بكَرب: "لقد مزّق قميصي".

في غضون ذلك، سمعت دينا الصراخ واختصرت استحمامها. قالت: "لا أصدق ذلك"، عندما أخبرها إيشفار بما جرى، "ظننت أنهم أشخاص غوغائيون في الشارع. أنتما الاثنان؟ لماذا؟".

"اسأليه"، تمتم كل منهما.

أضاف أوم: "لقد مزّق قميصي، انظري". ورمى الجَيب الممزَّق أمامها.

قال إيشفار موبّخاً: "قميص، قميص، قميص! أهذا كل ما يمكنك قوله؟ يمكن إصلاح الجَيب. لماذا كنتما تتقاتلان؟".

"لست ثرياً مثله، لديّ قميصان فقط، ومزّق لي واحداً".

هرع مانيك إلى غرفته، والتقط أول قميص وقع عليه نظره، وعاد، ورماه لأوم. فالتقطه هذا الأخير وأعاده إليه، رامياً إيّاه، فتركه مانيك ملقى حيث وقع.

قالت دينا: "أنتما تتصرفان كطفلَين. هيا، يا سيد إيشفار، لنعُد إلى العمل". وشعرت بأنهما سيتصالحان بسرعة مثلما تخاصما بسرعة.

بقي مانيك في غرفته طوال اليوم، وجلس أوم على الشرفة. وكانت محاولة إيشفار المزاح بشأن الوجه المصفرّ كالليمون الحامض عقيمة. لقد شعرت دينا بالأسف بسبب اتخاذ العطلة منحى سلبياً.

قالت: "انظر إليهما. بومتان بائستان تعشّشان في منزلي". ونظرت إلى الفتيَين بوجه مماثل لوجه البوم. فضحك إيشفار بمفرده.

في صباح اليوم التالي، أعلن أوم بنبرة المظلوم أنه يريد العمل طوال اليوم مجدداً: "لقد دامت هذه العطلة طويلاً". وادّعى مانيك عدم سماع أي شيء.

بدأت الخياطة بشكل سيّئ، وتطورت إلى كارثة تامّة. فكان على دينا تحذير أوم: "لن تتحمل الشركة هذا الأمر. يجب ألا تخلط بين مزاجك السيّئ والدرزات".

استمر في ارتداء قميصه الممزق، وجيوبه مُدلاّة، دلالةً على كونه مظلوماً، عِلماً أن إصلاحه لا يتطلب أكثر من عشر دقائق. وفي أوقات تناول الوجبات، تجنّب استخدام السكين والشوكة اللذين بات يجيد استخدامهما، واستعمل أصابعه. وفي غياب تبادل أطراف الحديث، اندلعت حربُ صخَبٍ. كانت أدوات المائدة الخاصة بمانيك تصدر صوتاً فوق الطبق، قاطعةً حبة بطاطا كما لو أنها جذع شجرة من أرز الهملايا، فيجيب أوم بامتصاص الطعام عن أصابعه ولعقه كممسحة للأرض تتحرك فوق الماء بدأب. ويشكّ مانيك اللحم كمُجالد يطعن أسداً، فيردّ أوم باستخدام راحة يده أيضاً، شافطاً الطعام عنها بشكل متقطع.

كان من الممكن لأدائهما المُفرط أن يكون مسلّياً لو لم يكن هناك جوّ مأساوي ملموس. وشعرت دينا بتعرّضها للخداع بسبب اعتمادها على جوّ عائلي سعيد حل محلّه تجهّم غير مدعوّ لمشاركتهم العشاء، ويقيم في منزلها بشكل غير مرغوب فيه.

بعد أسبوعين من انقضاء الديفالي، استمرت المفرقعات النارية المتقطعة في إحداث ثقوب في سكون الليل قبل أن تزول كلّياً. قال إيشفار: "السلام والهدوء أخيراً". رامياً سدادتي الأذنين القطنيتين اللتين حافظ عليهما بحرص بجانب عدة النوم.

حصل مانيك على علامات امتحانات الفصل الأول، ولم تكن جيدة. فقالت دينا إن سبب ذلك يعود إلى تجاهله درسه. "منذ الآن فصاعداً، أريد أن أراك مع كتبك لمدة ساعتين على الأقل، كل ليلة بعد العشاء".

قال متذمّراً: "أنت صارمة جدّاً. إن والدتي ليست صارمة إلى هذا الحد".

"ستكون كذلك لو رأت هذه العلامات".

ثبت في النهاية أن حثّه على اتّباع روتين في الدرس أسهل مما توقعت. لقد كانت مقاومته رمزية بسبب عدم وجود ما يشغله عن درسه. فمنذ شجاره مع أوم، نادراً ما كانا يتكلمان مع بعضهما، بالرغم من استمرار إيشفار في محاولته إعادة إلهاب صداقتهما. كما أنّه دعم محاولة دينا حمل مانيك على العمل بجدّ أكبر.

قال: "فكّر في مدى سعادة والدَيك".

قالت: "لنضع والدَيك جانباً. ادرُس لصالحك، أيها الفتى الأحمق، أصغِ أنت أيضاً يا أوم. عندما تُرزَق بأبناء، احرص على إرسالهم إلى المدرسة والكلّية. انظر كيف يتعيّن عليّ الكدّ في العمل لأنني مُنعتُ من التعلّم. لا شيء أهم من التعلّم".

قال إيشفار: "هذا صحيح تماماً. ولكن، لماذا مُنعتِ من التعلّم يا سيدة دينا؟".

"إنها قصة طويلة جداً".

قال إيشفار ومانيك وأوم معاً: "أخبرينا". فحملها ذلك على الابتسام، ولا سيما عندما قطّب الفَتيان جبينيهما للتبرّؤ من المصادفة.

بدأت: "لا أحب أبداً العودة إلى ماضيّ وطفولتي بأسف ومرارة".

فأومأ إيشفار برأسه.

"ولكن، أحياناً، ورغماً عني، تعود ذكريات الماضي إلى رأسي. فأتساءل عن سبب اتخاذ الأمور ذلك المنحى الذي ألقى بظلاله على المستقبل المشرق الذي توقعه الجميع لي عندما كنت في المدرسة، وكنت لا أزال أحمل اسم دينا شروف...".

* * *

أعلنت الأصوات على الشرفة استعداد الخياطَين للنوم. لقد فُرشت عدة النوم ونُفضت. وبعد وقت قليل، بدأ أوم بتدليك قدمَي عمه، وكان باستطاعة مانيك تخيّل ما يفعله أوم انطلاقاً من تنهدات السرور والرّاحة التي كان يسمعها. بعد ذلك، قال إيشفار: "أجل، ذلك المكان، بقوة أكبر، يؤلمني كاحلي كثيراً". في الداخل، حسدهما مانيك على مدى تقرّبهما من بعضهما، منحنياً فوق كتابه المدرسي.

تثاءب ونظر إلى ساعته؛ كل يهتم بشؤونه. لقد افتقد إلى رفقتهما، والنزهات، والتجمّعات بعد العشاء في الغرفة الأمامية مع الخالة دينا وهي تعمل على اللحاف، فيما يقومون هم بمراقبتها، وتبادل أطراف الحديث، والتخطيط لعمل اليوم التالي أو لما يجب طهوه لعشاء الغد: الأعمال الروتينية البسيطة التي تعطي شكلاً آمناً وذا معنى لحياتهم جميعاً.

في غرفة الخياطة، كان المصباح لا يزال مُضاءً ودينا مستمرة في السهر حتى يغلق مانيك كتبه، متأكدةً من عدم إنهاء فترة الدراسة قبل دقائق قليلة من الوقت المحدد.

ورنّ جرس الباب.

فانتصب الخياطان مُجفلَين وتناولا قميصَيهما. وقدمت دينا إلى الشرفة وسألت من خلف الباب: "من هناك؟".

"آسف للإزعاج، يا أختاه".

لقد عرفت صوت جامع الإيجارات. من السخافة، قالت لنفسها، أن يأتي في هذه الساعة. "ما الأمر في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟".

"آسف لإزعاجك يا أختاه، ولكن المكتب أرسلني".

"الآن؟ ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟".

"قالوا إن الأمر طارئ، يا أختاه. أقوم بما يُطلب مني".

فهزت كتفَيها للخياطَين، وفتحت الباب، مُمسكةً بالمِقبض. بعد لحظات، اندفع رجلان من وراء إبراهيم وفتحا الباب بخشونة، دافعَين إيّاها جانباً ومتصرّفَين بتهوّر كما لو أنهما يتوقعان مواجهة مقاومة كبيرة.

كان أحدهما شبه أصلع، وللآخر كتلة كثيفة من الشعر الأسود، ولكنّ شاربَيهما الأشعثَين، وأعينهما الباردة، وجذعيهما المترهّلَين والضخمَين جعلت منهما توأماً يشكّل تهديداً. يبدو أنهما يقلّدان الأشرار في الأفلام السينمائية بتصرفاتهما، قال مانيك لنفسه.

قال إبراهيم مُطلقاً ابتسامته الآلية: "آسف يا أختاه. لقد أرسلني المكتب لتسليمك إشعاراً نهائياً، شفهياً. رجاءً، أصغي بانتباه شديد. يجب عليك إخلاء الشقة في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة بسبب انتهاك شروط الإيجار وأنظمته".

احمرّ وجه دينا قليلاً بسبب الخوف قبل أن تُخفي مشاعرها قائلة: "سأتصل بالشرطة في الحال إذا لم تأخذ مشاغبَيك وتغادر! هل يعاني صاحب الملك من أي مشكلة؟ قل له أن يلجأ إلى المحكمة، سأراه هناك!".

تكلم الرجل الأصلع برِفق وبطريقة مهدّئة: "لماذا تشتميننا بنعتنا بالمشاغبَين؟ نحن موظفا صاحب الملك، كما أن هذين الخياطَين هما موظفاك".

قال الآخر الذي يمضغ التّبان: "نحن نلعب دور المحاكم والمحامين. إنهم يضيّعون الوقت والمال. يمكننا في هذه الأيام تحقيق نتائج أكثر سرعة". كان يتكلم بصعوبة ويتسرّب من زاويتي فمه سائل أحمر قاتم اللون.

قالت دينا: "يا سيد إيشفار، اركض إلى الزاوية وأَحضر الشرطة!".

فسدّ الرجل الأصلع الباب. حاول إيشفار المرور بجانبه، فدُفِع إلى الطرف الآخر من الشرفة، مترنّحاً.

قال إبراهيم ولحيته البيضاء ترتعش: "رجاءً، رجاءً! لا قتال".

قالت دينا: "إذا لم تغادر سأبدأ بالصراخ طلباً للمساعدة".

قال الشريك الأصلع بنبرته المطمئنة: "إذا صرختِ، فسنوقفك". وواصل حراسة الباب الأمامي في حين تجوّل الرجل الذي يمضغ التبغ داخل الغرفة الخلفية. وتبعه إبراهيم ودينا والخياطان بامتثال. كان مانيك يراقب من غرفته.

وتسمّر الرجل في مكانه، ملقياً نظرةً على أرجاء الغرفة كما لو أنه يتأمل المكان. وانفجر غضباً بعد ذلك. فالتقط أحد الكراسي وبدأ يضرب به آلتي الخياطة. وعندما تحطمت قائمتاه الخشبيتان، واصل الضرب بالكرسي الثاني حتى تحطّم.

فرماه جانباً، وركل آلتي الخياطة، وبدأ بتمزيق الملابس المنجَزة المكدَّسة على الطاولة. لقد بذل جهداً كبيراً للقيام بذلك لأن الملابس الجديدة والدرزات الحديثة لم تستسلم بسهولة. قال للملابس متمتماً: "تمزّقي! هيا، تمزّقي!".

استعاد إيشفار وأوم شجاعتهما، وأسرعا لإنقاذ نتاج عملهما. فقُذف بهما إلى الوراء كرزمتَي قماش.

قالت دينا لإبراهيم، ممسكةً بذراعه ودافعةً إيّاه باتجاه منطقة الشغَب: "أوقفه! أنت من أحضر هذين المشاغبَين! تصرّف!".

ففرك إبراهيم يدَيه بعصبية، وقرر جمع الملابس الممزَّقة. كان يلتقطها بسرعة قيام الرجل ببعثرتها، ويطوي البقايا ويضعها بحرص على الطاولة.

قال الشريك عند الباب: "هل تحتاج إلى أي مساعدة؟".

"لا، كل شيء بخير". وبعد انتهائه من تمزيق الملابس، حان دور لفّات الأقمشة التي رفضت التمزق لكثرتها.

كانت نصيحة الرجل الأصلع: "أضرم بها النار". وقدّم له قدّاحة السجائر.

قال إبراهيم مذعوراً: "لا! قد يحترق المبنى بأكمله! لن يروق ذلك لصاحب الملك!".

فوافقه الرجل الذي يمضغ البّان الرأي. ونشر قطع القماش على الأرض، ورشّها بعُصارة البّان من فمه. "رحيقي الأحمر مُحرق كألسنة اللهب".

متوقفاً لإلقاء نظرة على الغرفة، رأى المقص الكبير المسنَّن الذي أهداه العم أشرف للخياطَين، وتفحّصه. "جيد"، قال بتقدير، ورفع يده لقذفه خارج النافذة.

صرخ أوم: "لا!".

ضحك المشاغب، وأفلت من يده المقص العزيز على قلب الخياطَين. وسُمع صوت تحطم المقص في أثناء انقضاض أوم على الرجل. كان الهجوم الضعيف بمثابة تسلية للرجل قبل اتخاذه القرار بوضع حد له، فصفع أوم مرتَين، ووجّه لكمة له على معدته.

قال مانيك: "أيها الوغد". والتقط المظلة المماثلة لمعبد هندوسي والمدلاّة من الخزانة، وتوجّه نحو الرجل الذي يهاجم أوم.

قال إبراهيم متوسّلاً: "رجاءً! من دون قتال! لا حاجة إلى القتال!".

تلقّى الرجل خبطة قوية على كتفه، ورأى القضيب الفولاذي، وحاول المراوَغة متنقلاً حول آلتي الخياطة المعطوبتَين. فقام مانيك بحركة مخادِعة، متلذّذاً بتفوّقه، خلال قيام الرجل بالتراجع. وقام مانيك بحركة مخادعة أخرى، ووجّه له ضربتَين قويتَين على رأسه.

دخل الرجل الأصلع الغرفة بهدوء، ووقف وراءهما، وسحب سكيناً صغيراً ذا نابض ووجهه نحو السقف. كممثل في فيلم سينمائي، فكر مانيك في سرّه مرتجفاً.

قال الرجل الأصلع بصوته الهادئ: "حسناً، لقد انتهت تسليتك الصغيرة".

فاستدار الآخرون ونظروا، وصرخت دينا عندما رأت السكين، واستشاط إبراهيم غضباً: "أبعد ذلك الشيء! واخرجا كلاكما! لقد انتهى عملكما، أنا المسؤول!".

قال الرجل الأصلع: "اصمت، نعرف عملنا". وانتزع شريكه المظلة ووجّه لكمة إلى وجه مانيك، فسقط على الجدار، وسال الدم من فمه على غرار سيلان عصارة البّان من بين شفتَي الرجل.

"توقف! كنت موجوداً عندما تلقيتما أوامركما! لم يكن هناك شيء عن الضرب أو استخدام السكاكين!". وضرب جامع الإيجارات قدمه بالأرض، وهزّ قبضة يده.

شعر الرجل الأصلع بالتسلية لدى مشاهدته الغضب العاجز. "هل تقتل الصراصير بحذائك؟". وضحك متحسّساً النَّصل بإصبعه قبل إعادته إلى داخل السكين. وأخرجه بعد ذلك، وشقّ وسادات دينا والفراش، ورمى محتوياتها في أرجاء الغرفة مراقباً تبعثر الحشوة. وعوملت مساند الأريكة في الغرفة الأمامية بالطريقة نفسها.

قال: "هل رأيتِ؟ الآن، الأمر بين يدَيك، يا سيدتي. لا تريديننا أن نعود مع إشعار ثانٍ، أليس كذلك؟".

ركل الرجل الآخر قصبتَي ساق مانيك لدى مروره بجانبه. وبصق على السرير وحوله، مُفرغاً السائل الأحمر الموجود في فمه على أكبر قدر ممكن من محتويات الغرفة. سأل إبراهيم: "هل ستأتي أم لا؟".

قال الرجل عابساً بغضب: "في وقت لاحق، لم أنتهِ بعد".

أُقفل الباب الأمامي. فنظرت دينا إلى جامع الإيجارات باشمئزاز، وقصدت مانيك حيث كان إيشفار يمسك برأسه ويطمئن إلى أنه بخير. وتبعه إبراهيم، هامساً تكراراً: "سامحيني، يا أختاه".

كان أنف مانيك ينزف وشفته العليا مجروحة. مرّر مانيك لسانه على أسنانه؛ لا أسنان محطمة. فمسحوا الدم بقصاصات قماش ملقاة حول آلتي الخياطة. وحاول مانيك قول أمر ما، ونهض مترنّحاً.

قال أوم الذي التقط أنفاسه: "لا تتكلم، سينزف جرحك أكثر فأكثر".

قالت دينا: "شكراً لله على عدم استخدام السكين".

سُمع صوت تحطم الزجاج في الغرفة الأمامية. فركض جامع الإيجارات إلى الشرفة

قائلاً: "توقفا، أيها المجنونان!"، صاح، "ما القصد من ذلك!؟ صاحب الملك هو من سيتكبد النفقات!". وحطمت أحجار قليلة إضافية ألواح الزجاج المتبقية، وساد الصمت بعد ذلك.

ساعد إيشفار وأوم ودينا مانيك على الوصول إلى المغسلة لغسل وجهه، فتمتم: "يمكنني السير بمفردي". وبعد أن نظّفوا وجهه قليلاً، اصطحبوه إلى الأريكة مع قطعة قماش مضغوطة على أنفه.

قالت دينا: "ما تحتاج إليه هذه الشفة هو الثلج".

قال أوم متطوّعاً للقيام بذلك: "سأشتري بعضاً منها من فيشرام".

قال مانيك: "ليس الأمر ضرورياً". ولكنّ الآخرين خالفوه الرأي معتبرين أن عشر بايزات ستفي بالغرض. وأخرج إبراهيم بسرعة قطعة نقود من شروانه وقدّمها لأوم.

فصرخت دينا قائلة: "لا تلمس هذا المال!". وأحضرت حقيبة يدها. فتوسل إليها جامع الإيجارات لقبول تقدمته قبل أن يعيدها إلى جَيبه.

في أثناء انتظار عودة أوم، قام إيشفار ودينا بتفحّص الأضرار. كان زَغَب من الوسادات الممزّقة يطفو في أرجاء الغرفة ويسقط ببطء على الأرض. والتقطت دينا القِرابات المشقوقة، وشعرت بأنها قذرة كما لو أن أيدي المشاغبَين لوّثت كيانها. وبدأت الملابس الممزقة ولفات القماش الملوّثة بعصارة البّان تُثقل كاهلها. كيف ستشرح الأمر لأوروفوار إكسبورتس؟ ما الذي يمكن أن تقوله للسيدة غوبتا؟

قالت وهي على شفير ذرف الدموع: "لقد قُضي عليّ".

قال إيشفار باذلاً جهداً لمواساتها: "ربما يمكننا إصلاح الجلابيب، يا سيدة دينا، ويمكننا غسل البُقع الحمراء".

لكن كلماته بدت ميؤوساً منها، حتى بالنسبة إليه، لدرجة أنه التفت إلى إبراهيم قائلاً: "ألا تخجل؟ لماذا تحاول تدمير هذه السيدة المسكينة؟ أي نوع من المسوخ أنت؟".

فشعر إبراهيم بالذَّنْب، وكان مستعداً للإصغاء. لقد رحّب بتوجيه الانتقادات والشتائم إليه، ورغب في المزيد منها للتخفيف من هذا الشعور.

قال إيشفار: "لحيتك بيضاء تماماً ولكن قلبك متعفّن".

همست دينا: "يا لك من رجل شرير خاطئ! أنت عار على السنّ المتقدّمة!".

"أرجوك يا أختاه! لم أرغب في أن يقوما...".

"أنت من قام بذلك! أنت من اصطحب هذَين المشاغبَين إلى منزلي!". كانت ترتجف خوفاً وغضباً.

ولـم يعُـد إبراهيـم قادراً على كبت مشـاعره، فوضـع يدَيه على وجهه، وأصدر صوتاً غريبـاً. ولـم يتضـح علـى الفـور أنـه يحاول البكاء بصمـت. قال: "لا فائـدة من الأمر، لا يمكنني القيام بهذا العمل، أنا أكرهه! آه، كيف غدت حياتي!". ومدّ يده تحت الشـروان وسحب منديله لينظف أنفه.

قال ناشجاً: "سامحِيني يا أختاه، لم أكن أعلم عندما أحضرتهما أنهما سيتسببان بهذا القـدر مـن الضـرر. لقـد نفّذتُ أوامـر صاحب الملك طوال سـنوات كطفل عاجز. يطلب منـي تهديـد أحدهـم، فأهـدّد. يطلب مني التوسـل، فأتوسـل. وإذا هـذى بأنه يجب إجلاء مسـتأجر ما، فعليّ تكرار الهذيان نفسـه عند باب المسـتأجر. أنا خادمه. الجميع يعتقدون أنني شـخص شـرير، ولكنني لسـت كذلك. أريد رؤية العدالة محقَّقة لي ولك وللجميع. ولكن العالم يتحكم به أشـخاص أشـرار، وليس بيدنا حيلة، وكل ما يمكننا القيام به هو المعاناة والأسى...".

استسلم كلّياً لعواطفه. فأمسك إيشفار بذراعه وقاده إلى كرسيّ، فخفّت حدة استيائه. "اجلس هنا ولا تبكِ. لا يبدو الأمر مستحسَناً".

"ما الذي يمكنني القيام به سوى البكاء؟ هذه الدموع هي كل ما أملك. سامحيني يا أختاه، لقد أسـأتُ إليك. الآن، سـيعود المشـاغبان بعد ثمانٍ وأربعين ساعة ويرميان أثاثك ومقتنياتك على الرصيف. يا لأختاه المسكينة! إلى أين ستذهبين؟".

"لن أفتح لهما الباب، هذا كل شيء".

لقد حرّك تأكيدها الطفولي مشـاعر إبراهيم، وبدأ يبكي مجدداً: "سـيصطحبان رجال الشرطة لخلع القفل".

"كما لو أن الشرطة ستساعدهما".

"أزمنة حالة الطوارئ هذه رهيبة يا أختاه. باسـتطاعة المال شـراء الشـرطة لإصدار الأمر الضروري. العدالة تُباع للمزايِد بأكبر قدر من المال".

"ولكـن، مـا الـذي يزعـج صاحب الملك إذا كنّا نخيط هنـا؟"، قالت بصوت مرتفع من دون أن تتمكن من التحكم به. "إلى من أسيء بعملي هذا؟".

"صاحب الملك بحاجة إلى ذريعة يا أختاه. هذه الشقق تساوي ثروة، وقانون الإيجار يسمح له بتقاضي قيمة الإيجار القديم، لذا فهو...".

توقـف إبراهيـم فجـأةً عن الكلام ومسـح عينَيه. "ولكنـك تعرفين كل ذلك يا أختاه. لست الوحيدة التي تواجهه هذه المتاعب، فهو يقوم بالشيء نفسه مع مستأجرين آخرين، أولئك الضعفاء الذين لا يتمتعون بأي نفوذ".

عاد أوم حاملاً قطعة ثلج كبيرة جداً لدرجة أنه لا يمكن تثبيتها على الشفة بشكل مريح. فغطاها بقطعة قماش وضربها بالأرض. "قدِمتَ كبطل حقيقي لإنقاذي"، قال وابتسم ابتسامة عريضة، محاولاً الترفيه عن مانيك الذي بدا شديد الشحوب. "لقد قفزت عليه مثل أميتاب باشان".

رفع اللفافة عن قِطع الثلج، والتفت نحو الآخرين قائلاً: "هل رأيتم ما جرى؟ لقد ذُعر ذلك الوغد لدى رؤيته مظلّة مانيك".

قالت دينا: "لا أريد سماع كلام بذيء".

فابتسم مانيك، مما أدى إلى تمدّد الشفة المجروحة. ولكنه سيطر على مشاعره وتناول قطعة ثلج.

"لقد اتُخذ القرار. إنه اسمك الجديد"، قال أوم، "مظلة باشان".

قالت دينا وهي تنظر إلى جامع الإيجارات بغضب: "ماذا تنتظر؟ أخبر صاحب الملك أنني لن أغادر. لن أتخلى عن هذه الشقة".

قال إبراهيم بحزن: "لا أعتقد أن ذلك سيساعد في أي شيء يا أختاه، ولكنني أتمنى لك الحظ الأوفر". وغادر.

فقال مانيك إنه لا يريد أن يكون حضوره سبباً لمواجهة الخالة دينا المزيد من المتاعب. "لا تقلقي بشأني"، تمتم بأقل قدر من تحريك شفته، "باستطاعتي على الدوام العودة إلى المنزل".

أجابته دينا: "لا تتفوّه بهذه الأمور، بعد كل هذه الأشهر، وقطع أكثر من منتصف الطريق باتجاه حصولك على شهادة الدبلوم، كيف يمكنك تخييب أمل والدَيك؟".

قال إيشفار: "لا لا، إنه مُحق. الأمر غير مُنصف، نحن من تسبب لك بكل هذه المعاناة. سنعود إلى الحارس الليلي".

خاطبتهما دينا بحدّة: "كفّا عن التفوّه بالهراء، دعوني أفكر لدقيقة واحدة فقط". فقالت إنهم لم يفهموا المقصود. "لقد سمعتم كلمات إبراهيم. يريد صاحب الملك عُذراً ليس إلا. إن مغادرتكم لن تنقذ شقتي".

فالأمر الوحيد الذي يمكنها الاعتماد عليه، برأيها، هو قدرة شقيقها على إيجاد تسوية للنزاع؛ بالمال، بالكلمات المعسولة، أو بكل ما يجيد الاستفادة منه خلال قيامه بصفقاته. "مرة أخرى، عليّ التخلي عن اعتدادي بنفسي، وطلب مساعدته، هذا كل ما في الأمر".

علامة القدر

قـام إيشـفار وأوم بأعمـال الغسـل والتنظيـف وإعداد الشـاي الصباحية بشـكل آلي. كانت معدة أوم تؤلمه حيث تلقى اللكمة، ولكنه لم يخبر عمه. وتسللا إلى غرفة مانيك للاطمئنان عليه. كان لا يزال نائماً، وتوجد بُقَع على وسادته؛ لقد نزفت شفته وأنفه مجدداً في الليل. فاستدعيا دينا لرؤيته.

كانـت تتمـرّن ذهنيـاً على لقائها نوسـوان، متخيّلةً وجهه المُشـبَع بالغـرور لتيقّنه من عدم تمكنها من الاستغناء عنه. وانحنت فوق مانيك. يا لبراءته خلال نومه! قالت لنفسها. وشعرت بالرغبة في تحسّس جبينه. كانت الشفة سوداء حيث تخثّر الدم، والتقاطر البطيء للـدم مـن أنفـه قـد توقف. خرجوا من الغرفة بهدوء. همسـت: "إنـه بخير. الجرح جاف، دعاه ينام".

وبينما كانت تستعد للمغادرة إلى مكتب شقيقها، وصل سيد المتسولين إلى الباب، والحقيبة مربوطة بِرسـغه الأيسـر بسلسـلة معدنية. إنه اليوم المحدد للقبض، وكان إيشـفار قد اقتطع من مدخول الأسبوع السابق المبلغ ووضعه في خزانة دينا.

فحثّته على مصارحة الرجل بأنه سيكون من الصعب عليه تأمين الدفعة التالية. "من الأفضل أن تخبره الآن بدلاً من أن يأتي بحثاً عنك حاملاً العصا".

أصغى سـيد المتسـولين بارتياب. فاسـتناداً إلى خبراته الخاصة، بدت رواية الهجوم الليلـي للمشـاغبَين مبالَغـاً فيهـا. فشـك فـي قيـام زبونَيه بتلفيـق القصة اسـتعداداً للنكوث بتعهّدهما.

اصطحباه بعد ذلك إلى الداخل، وأرياه النوافذ المحطمة، وآلتي الخياطة المعطوبتين، والملابس الممزّقة والأقمشـة الملوَّثة، فاقتنع. قال: "إنه أمر سـيّئ، سـيّئ جداً. لا بد من أنهما هاويان ليتصرفا على هذا النحو".

قالـت دينـا: "لقـد قُضـي علـيّ، والخياطان لا يتحملان مسـؤولية عـدم تمكنهما من الدفع لك في الأسبوع القادم".

قال بقسوة: "صدّقيني، سيفعلان".

قال إيشفار متوسّلاً: "ولكن، كيف؟ ماذا نستطيع أن نفعل إذا رُمينا خارجاً ولم يعُد بإمكاننا العمل؟ ارحمنا!".

غير آبهٍ بما يقوله إيشفار، جال سيد المتسوّلين في الغرفة، متفحّصاً، وضارباً ببراجمه على الطاولة، ومدوِّناً على مفكرته. "أخبريني كم سيكلّفك تصليح كل الأضرار".

صاحت دينا: "ما نفع ذلك؟ هذان المشاغبان سيعودان غداً إذا لم نُخلِ الشقة! وأنت تريد تضييع الوقت ووضع تقرير حول الخسائر؟ لديّ أمور أكثر إلحاحاً في عقلي، وهي الحرص على تأمين ملجأ لي!".

فرفع سيد المتسولين نظره عن مفكّرته، متفاجئاً بعض الشيء، ثمّ قال: "لديك ملجأ. هنا بالذات. إنها شقتك، أليس كذلك؟".

فأومأت برأسها بنفاد صبر بسبب السؤال السخيف.

أضاف: "لقد ارتكب هذان المشاغبان خطأً كبيراً، وسأقوم بتصحيحه".

"وعندما يعودان؟".

"لن يعودا. أنتما أيها الخياطان سدّدا دفعاتكما بانتظام كي لا يتوجب عليكما الشعور بالقلق. أنتم تحت حمايتي. سيتم الاهتمام بكل شيء. ولكن، ما لم أعرف قيمة الأضرار، فكيف سأعوّض عليك؟ هل تريدين معاودة الخياطة أم لا؟".

لقد حان دور دينا للنظر إليه بارتياب. "من أنت، شركة تأمين؟".

فابتسم بتواضع إجابةً عن سؤالها.

ليس هناك ما تخسره، قالت لنفسها، وشرعت بضرب طول لفات القماش التالفة العائدة لأوروفوار بسعر الياردة الواحدة. وبلغ المجموع تسعمئة وخمسين روبيّة إضافةً إلى الضريبة. وقدّر إيشفار تكلفة تصليح آلتي الخياطة بستمئة روبية تقريباً. كانت الأحزمة مقطوعة والإبر محطَّمة، ويتعيّن تقويم دولابَي ضبط السرعة والدواستَين أو استبدالها، إضافةً إلى فحصها بشكل عام.

فدوّن سيد المتسولين المعلومات، مُضيفاً تكلفة الفراش الممزَّق، والوسادات، والكرسيَّين الخشبيَّين، والأريكة، والمساند، والنوافذ. "هل هناك شيء آخر؟".

قال مانيك الذي أيقظته أصواتهم: "المظلة، لقد حطّما بعض الأضلع".

أضاف سيد المتسولين ذلك إلى اللائحة، وسجّل بعد ذلك عنوان مكتب صاحب الملك وأوصاف الرجلَين. قال: "جيد، هذا كل ما أحتاج إليه. إذا لم يكن صاحب الملك يعرف أنكما زبائني، فسيكتشف الأمر لاحقاً. سيقوم بتسديد قيمة الأضرار عندما أقوم بزيارته. الآن، لا تقلقوا. انتظروني فحسب، سأعود هذا المساء".

سألت دينا: "هل يُفترض بي التقدم بشكوى إلى الشرطة؟".

فرمقها بنظرة سئِمة. "إذا شئتِ. ولكن، يمكنك أيضاً التقدم بشكوى إلى ذلك الغراب الذي يقف قرب نافذتك". فنعق الطائر وطار؛ لقد شعر أن الحديث يدور حوله.

لم تتمكن كل تأكيدات سيد المتسولين من تخفيف شكوك دينا. فقصدت مكتب نوسوان لإعلامه بالوضع. فهو قد يكون ذا فائدة إذا دعت الحاجة في وقت لاحق. وإلا فسيقول: أكنت تحفرين بئراً في أثناء اشتعال المنزل؟

لقد أبلغها الحاجب بحزن أن نوسوان خارج المدينة في اجتماع؛ هو يشعر بالحزن على الدوام بسبب شقيقة صاحب عمله. "لن يعود حتى ليل غد".

فغادرت دينا المكتب، ورغبت في التوقف عند فينوس بيوتي سالون للتحدث إلى زنوبيا. ولكن ما الفائدة من ذلك؟ المواساة الفارغة لن تحل أي شيء. إضافةً إلى ذلك، سيكون عليها تحمّل تأنيب زنوبيا: "لقد حذّرتك ولكنك لم تستمعي".

عادت إلى الشقة، طالبةً من الله أن يحضر سيد المتسولين كما وعد. وتبعتها رائحة كريهة منذ أن دخلت من الباب، فحيّرها الأمر. سألت إيشفار: "هل يمكنك شمّها؟".

جالوا في الغرف كافة، متفحّصين المطبخ والحمّام أيضاً. لقد سحبتهم الرائحة النتنة إلى كل مكان من دون الكشف عن نفسها. قال أوم: "ربما تكون من الخارج، من قناة تصريف المياه". ولكن عندما مدّوا رؤوسهم من النافذة، بدا أن حدة الرائحة تتضاءل.

قالت دينا: "لا بد من أنها من مخلّفات ذَينك المشاغبَين". ووافقها إيشفار الرأي. لكن أوم الذي كان جاثماً على الأرض يلتقط آخر كِسَر الزجاج اكتشف أن الرائحة قادمة من حذائها؛ فلقد داست على شيء ما على الرصيف. فخرجت، ونظّفت القذارة البنّية عن نعل حذائها، وغسلته.

لازم مانيك السرير طوال اليوم تقريباً، شاعراً بألم هادر في رأسه. وحاولت دينا والخياطان إزالة الفوضى من الشقة. فكنسوا حشوة القطن وأعادوها إلى داخل القرابات، وخاطوا التمزقات، ولكن المساند بدت منفوشة.

لم تستطع عملية ملء القرابات والتربيت عليها إزالة واقع صعوبة تحركهم. وعالجوا بعد ذلك بقع عصارة البّان التي كانت تملأ المكان.

قالت: "وحده الله يعلم لماذا نهدر طاقتنا. مساء غد، قد يُرمى بنا في الخارج إذا كانت وعود سيد المتسولين جوفاء".

قال إيشفار: "أظن أن الأمور ستكون بخير، يقول شانكار باستمرار إن سيد المتسولين يتمتع بنفوذ كبير".

عندما أعاد ذلك للمرة الرابعة في وقت متقدّم من اليوم، شعرت دينا بانزعاج: "إذاً، إن متسوّلاً مسكيناً من دون ساقَين هو مصدر حكمتك ونُصحك، أليس كذلك؟".

قال إيشفار مُربَكاً: "لا، ولكنه يعرف سيد المتسولين منذ مدة طويلة. أعني... لقد ساعدنا في معسكر العمل".

"إذاً، لماذا لم يأتِ بعد؟ كاد المساء ينقضي".

قال أوم: "لقد خاننا سيد المتسولين". ولم ينفِ عمُّه كلامَه.

وخبت آمالاهم بإمكانية إنقاذهم عند الغسق. ومع ازدياد ظلمة الليل، جلس الأربعة بصمت، محاولين تبيّن وجه الغد. لقد انتهى الأمر، قالت دينا لنفسها، إنها نهاية الحياة المستقلة التي ناضلت طويلاً للاحتفاظ بها. ولم يكن هناك ما يدعو لوضع آمالها في نوسوان؛ حتى إن محاميه لن يتمكن من تحقيق الكثير إذا وضع مشاغبا صاحب الملك أثاثها على الرصيف. وعلى أيّ حال، إن فكرة الحياة المستقلة ضرب من ضروب الخيال. فكل شخص يعتمد على شخص آخر. فإذا لم تعتمد على نوسوان، فسيكون عليها الاستمرار في الاعتماد على الخياطَين وعلى أوروفوار إكسبورتس؛ وتبقى النتيجة واحدة... ويمكن لنوسوان إحضار شاحنة لنقل أغراضها إلى منزل والدَيها الذي يحب أن يدعوه منزله. كان يقول باستمرار إن من واجبه الاهتمام بشقيقته، فليهتمّ بها الآن قدر ما يشاء.

وماءت هرّة خارج نافذة المطبخ، فجلسوا مُجفلين. وتوالى مواء الهررة. قال إيشفار باضطراب: "أتساءل عما يخيفها".

قال مانيك: "إنّها تحب المواء أحياناً". ولكنه ذهب لإلقاء نظرة، وتبعه الآخرون. لم يكن هناك ما يشير إلى وجود أي شيء غير عادي في الزقاق.

قال أوم: "هل تظنون أن المشاغبَين سيعودان الليلة؟".

قالت دينا: "منحَنا إبراهيم مهلة ثمانٍ وأربعين ساعة، ربما يأتيان ليلة غد. اسمعوا، بالرغم من أنني سأقصد شقيقي لطلب مساعدته، تبقى فرصنا غير جيدة. فالمدة قصيرة جداً، ومن يعلم ما الذي سيحدث؟ لا أريد المزيد من القتال هنا. غداً صباحاً، يجب عليكما أخذ مقتنياتكما والمغادرة. في وقت لاحق، يمكنكما العودة إذا سارت الأمور بشكل جيد".

قال إيشفار: "كنت أفكر في الأمر نفسه، سنقصد الحارس الليلي. وبإمكان مانيك أن يحاول العودة إلى النُّزل".

قال أوم: "ولكن، يجب علينا البقاء على اتصال، ربما يمكننا الخياطة في منزل

شقيقك. ستوكل إليك شركات أخرى مهمة إنجاز أعمال خياطة لصالحها حتى وإن توقفتِ عن العمل في هذه الشركة".

"أجل، لن نجلس مكتوفي الأيدي"، قالت من دون أن تمتلك الجرأة لتقول لهم إن نوسوان سيمنعهم من ذلك. "ولكن لا يُفترض بكما الاعتماد عليّ فقط، يجب عليكما البحث أيضاً عن عمل في مكان آخر".

لزم مانيك الصمت خلال مواظبتهم على إنقاذ فُتات رِزقهم. لن تتمكن كل مهاراتهم في استخدام الإبرة والخيط من تعويض خسائرهم، قال لنفسه. هل عاملت الحياة الجميع بطريقة لا ترحم، ممزقةً الأمور الجيدة وتاركةً الأمور السيئة تنمو كالفطر على الطعام غير المبرَّد؟ يقول فاسانتراو فالميك، مصحِّح التجارب الطباعية، إن كل ذلك جزء من الحياة، وإن سر البقاء يُحدث توازناً بين الأمل واليأس ويحتضن التغيير. ولكن هل يحتضن البؤس والدمار؟ لا. فلو كانت هناك ثلاّجة كبيرة لَتمكّن من الاحتفاظ بالأيام السعيدة التي مرّت عليهم في هذه الشقة، وإبقائها على الدوام بعيداً عن أي فساد، ولاحتفظَ أيضاً بأفيناش وبلعبة الشطرنج التي لم يتسنَّ له الوقت لممارستها طويلاً، ولأنقذهما أيضاً، ولأنقذ جبال الثلج والمتجر العام، قبل أن تصبح ذكرى داكنة، وقبل أن يصبح والد مانيك غريباً عنه إلى حدٍّ ما ووالدته جاريته المُطيعة.

لكنه عالمٌ غير موضوع في الثلاجة، وكل شيء انتهى على نحو سيّئ. هل هناك ما يمكنه القيام به؟ كانت فكرة النُّزل مسبّبة للغثيان أكثر من أي وقت مضى. فلا مخرج له، والأمر بالنسبة إليه بمثابة موت الشاه.

قال إيشفار: "أصغوا، توقفت الهررة عن المواء، هناك هدوء تام". وركّزوا انتباههم لسماع أي شيء؛ كان السكون مُقلقاً كالمواء.

في الصباح الباكر، تمكّن الخياطان من الاغتسال بسرعة قبل أن يجف الماء في الصنبور. فلا أحد يعلم متى سيحظيان مجدداً برفاهية الاغتسال في حمّام. فالأزقّة ومواسير المياه هي كل ما سيكون متوافراً لهما في المستقبل القريب.

لم يكن مانيك على عجَلة من أمره. فشفته أفضل اليوم، ولقد تقلّص الورم، وزال ألم رأسه. كان يجلس فاقداً النشاط، أو يتنقل من غرفة إلى أخرى كما لو أنه يبحث عن أمر ما.

قالت دينا: "هيا، يا مانيك، الوقت يمر بسرعة. قم بشيء ما، وضّب صناديقك. أو اقصد النُّزل أولاً وتحقق من وجود مكان لك".

فعاد إلى غرفته، وسحب حقيبة ملابسه من تحت السرير وفتحها. وعندما تفقّدته بعد

دقائق قليلة، كان يقف أمام لوحة الشطرنج وهو يحدّق إلى الأحجار.

صاحت في وجهه: "هل جُننت؟ الوقت ينفد، وهناك الكثير من الأمور التي يتوجب عليك القيام بها!".

"سأقوم بها عندما أشعر بالرغبة في ذلك. أنا شخص مستقل حتى وإن كنت تستسلمين". لقد اختار متعمِّداً الكلمة التي استخدمتها في أثناء حديثها عن نفسها.

لقد ترك ذلك أثراً في نفسها، ولكنها تجاهلت الأمر. "الكلام الأجوف سهل. سنرى مدى استقلالك عندما يعود المشاغبان ويكسران رأسك. لم تكن ضربة واحدة كافية لك كما يبدو".

"لماذا تهتمّين؟ أنت توضّبين أغراضك وسترحلين من دون الشعور بأي أسف".

"الأسف رفاهية لا يمكنني تحمّل تكلفتها. ولماذا تبدو مكتئباً؟ كنت سترحل على أيّ حال عندما تحصل على شهادة الدبلوم. إن لم ترحل الآن فإنك سترحل بعد ستة أشهر". وغادرت الغرفة بغضب.

ترك إيشفار الصندوق الكبير الذي يضع أغراضه فيه على الشرفة، ودخل المنزل. جلس على السرير في غرفة مانيك، ووضع ذراعه حول هذا الأخير، وقال له: "أنت تعلم يا مانيك أن لوجه الإنسان حيّزاً محدوداً. كانت والدتي تقول لي إنك إذا ملأت وجهك بالضحك فلن يكون هناك مكان للبكاء".

قال بمرارة: "يا له من قول مأثور جميل!".

"الآن، لا مكان للضحك في وجه السيدة دينا، ووجه أوم، ووجهي. نحن قلقون على العمل والمال والمكان الذي سننام فيه الليلة، ولكن ذلك لا يعني أننا نشعر بالحزن. قد لا يظهر ذلك على الوجه، ولكنه موجود في الداخل هنا". ووضع يده على قلبه، ثم تابع: "هنا في الداخل، يوجد مكان لا محدود - السعادة، اللطف، الأسى، الغضب، الصداقة - كل شيء يتّسع له هذا المكان".

قال مانيك: "أعلم، أعلم". وبدأ بوضع أحجار الشطرنج في العلبة. "هل ستقابلان الحارس الليلي الآن؟".

"أجل، سنتفق معه ونعود لمساعدة السيدة دينا على توضيب أغراضها".

قال أوم: "لا تنسَ أن تعطينا عنوان نُزلك قبل المغادرة، سنقوم بزيارتك".

أفرغ مانيك الخزانة، وطوى ثيابه، ووضعها داخل حقيبة الملابس. فقصدته دينا للثناء على سرعته. "هل يمكنك أن تقدّم لي صنيعاً يا مانيك؟".

فأومأ برأسه.

"هـل يمكنـك إحضـار مِفك البراغـي من المطبخ ونزع اللوحـة المعلّقة قرب الباب والتي تحمل اسمينا أنا وزوجي؟ أريد أخذها معي".

فأومأ برأسه مجدداً.

عاد إيشـفار وأوم بأخبار سـيّئة. لقد تم اسـتبدال الحارس الليلي، ولم يشـأ الرجل الجديد مواصلة ما دأب سلفه على القيام به. في الواقع، لقد ظن أنهما يحاولان الاستفادة من خبرته.

قال إيشفار بسأم: "الآن، لا أعرف ما الذي يتعيّن عليّ القيام به، سيكون علينا التنقل من شارع إلى آخر بحثاً عن مكان للنوم".

قال أوم: "وسيكون عليّ حمل الصندوق الكبير".

قالـت دينـا: "لا، لا يجـب عليك القيام بذلك، سـتؤذي ذراعـك مجدداً". وعرضت عليهمـا فكـرة أخـذ الصنـدوق معهـا إلى منزل نوسـوان، والادعاء بأنه جزء مـن مقتنياتها. وباسـتطاعة الخياطَين القدوم إلى الباب الخلفي كلما احتاجا إلى ملابس. إنه منزل كبير، قالـت، ولـن يـرى نوسـوان شـيئاً؛ فهـو لا يدخل المطبخ إلا عندما يقـوم بإحدى حملات التفتيش للكشف عن التبذير.

قال مانيك: "اسمعا، أعرف أين يمكنكما النوم".

"أين؟".

"في غرفتي في النُّزل. يمكنكما التسلل إلى داخل النُّزل في الليل، والخروج منه في الصباح الباكر. يمكن لصندوقكما البقاء هناك أيضاً".

وفيما كانا يفكّران مليّاً بإمكانية تنفيذ فكرته رنّ جرس الباب. إنه سيد المتسولين.

قال إيشفار ودينا معاً: "شكراً لله على قدومك!". وأسرعا لاستقباله كما لو أنه مُنقِذ.

لقد ذكّر الأمر أوم بشانكار الذي كان يئنّ على منصته المدولَبة وأسرع لملاقاة الرجل الذي ظهر في مشروع الريّ. لقد تضايق من الذكرى؛ كم كان فخرهما كبيراً عندما أبلغا سيد المتسوّلين آنذاك بأنهما خياطان وليسا متسوّلَين.

سألت دينا: "ماذا حدث؟ قلتَ إنك ستعود مساء أمس".

"آسف، لقد أخّرتني حالة طارئة". أجاب مستمتعاً بالانتباه الذي حظي به. لقد اعتاد قيام المتسوّلين برفعه إلى مستوى رفيع، ولكن احترام الناس العاديين له أكثر إمتاعاً.

"حالة الطوارئ البائسة هذه تتسبب بالمتاعب للجميع".

قال سـيد المتسـولين: "لا، ليسـت حالة الطوارئ. إنها مشـكلة مرتبطة بالعمل. بعد مغادرتي لكم صباح أمس، تلقيت رسالة تفيد أن اثنَين من متسوّلِيّ؛ زوجاً وزوجة، وُجدا

مقتولَين. لذلك، كان عليّ الإسراع إلى المكان".

قالت دينا: "قُتلا! أي شخص شرير يقتل متسوّلَين مسكينَين؟".

"آه، هذه الأمور تحدث. لقد قُتلا بسبب تسوّلهما. ولكن هذه الحالة شديدة الغرابة؛ إذ لم يُؤخذ مالهما. لا بد من أنه شخص مهووس، فلقد أُخذ شعرهما فقط".

فأجفل إيشفار وأوم بشكل ملحوظ، وازدردا ريقهما بصعوبة.

قالت دينا: "شعرهما؟ تعني من رأسَيهما؟".

قال سيد المتسولين: "أجل، لقد جُزّ شعرهما. كان للزوج والزوجة شعر طويل وجميل، وهو أمر غير مألوف. فالغريب في الموضوع أن معظم المتسولين لديهم شعر طويل لأنهم لا يستطيعون تحمّل تكلفة قصه، ويكون قذراً على الدوام؛ ولكن هذين الشخصين مختلفان. لقد اعتادا تمضية ساعات في تنظيف أحدهما شعر الآخر من الحشرات، وتمشيطه، وغسله كلما أمطرت أو جرت الماء من الأنبوب على الرصيف".

قالت دينا: "رائع". وأومأت برأسها تعاطفاً مع الوصف الرقيق للزوج المُحِبّ.

"ستتفاجئين بمدى الشبه بين المتسولين والناس العاديين. كان شعرهما الجميل نتاج كل ذلك التنظيف والترتيب، ولكن لا خير منه في هذه المهنة. فغالباً ما كنت أطلب منهما عدم ترتيبه وجعله يبدو مثيراً للشفقة، ولكنهما كانا يقولان إن شعرهما هو الشيء الوحيد الذي يملكانه في هذا العالم ويفخران به، فهل سأحرمهما من حقهما هذا أيضاً؟".

توقف، مفكراً في المسألة من جديد: "ما الذي كان بإمكاني القيام به؟ أنا رقيق القلب، لقد استسلمت. والآن، لقد كلّفتهما تلك الضفائر الجميلة حياتيهما، وحرمتني من متسولَين جيّدَين".

والتفت إلى الخياطَين: "ما خطبكما؟ أنتما الاثنان تبدوان شديدَي الاستياء".

قال إيشفار متلعثماً: "لا، لسنا مستاءَين، نحن مصدومان ليس إلا".

قال سيد المتسولين: "أجل، هذا ما كانت عليه حال رجال الشرطة أيضاً؛ كانوا مصدومين. لقد تلقوا بعض الشكاوى من أن الضفائر الطويلة وتسريحات ذَيل الحصان تختفي بشكل عجيب. فالنساء يذهبنَ إلى البازارِ، ويتسوّقنَ، ويعُدنَ إلى منازلهنّ، وينظرنَ إلى المرآة فلا يجدنَ شعرهنّ. ولكن، بالرغم من ذلك، لم يتعرّض أحد للقتل أو للإصابة. وهكذا، فإن المحققين يُبدون اهتماماً بالغاً بحالة متسوّلِيّ. إنّهم يحبون التنوّع ويطلقون على هذه القضية اسم **القاتل التوّاق إلى الشعر**".

فتح الحقيبة المربوطة برِسغه وأخرج رزمة كبيرة من الروبيّات. وصلصلت السلسلة المعدنية في أثناء قيامه بعدّ الأوراق النقدية. "بالعودة إلى العمل، إليكم المال لتغطية

أضراركم. يمكنكم الشروع بالعمل مجدداً".

وعهد إيشفار إلى دينا بمهمة تسلّم الأموال؛ إذ كانت يداه ترتجفان بقوة.

ممسكةً بألفي روبيّة، كانت دينا لا تزال تجد صعوبة في تصديق قيام سيد المتسوّلين بإلحاق الهزيمة بصاحب الملك. "أتعني أنه باستطاعتنا البقاء؟ هل الأمر آمن حقاً؟".

"بالطبع يمكنكم البقاء. لقد قلت لكم إن أحداً لن يسبّب لكم العناء. لقد اقترف ذانك الرجلان خطأ".

فأومأ الخياطان برأسَيهما بسرعة معبّرَين لدينا عن ثقتهما بقدرته. قال إيشفار: "هناك مشكلة واحدة فقط. ماذا لو أرسل صاحب الملك مشاغبين آخرين؟".

"طالما أنكما تدفعان لي، فلن يجد صاحب الملك رجلاً واحداً لإرساله إلى هنا. لقد اهتممتُ بالأمر".

"ومتى تنتهي الدفعات؟".

"يعود الأمر لكما. يمكن باستمرار تجديد عقدنا. سأمنحكما أسعاراً جيدة، أنتما صديقا شانكار. و... آه، أجل، يرسل لكما شانكار تحيّاته، ويقول إنه لم يرَكما مؤخراً".

قال إيشفار: "مع كل العناء الذي سبّبه لنا صاحب الملك، لم نقصد فيشرام منذ أيام قليلة، سنلتقيه غداً. وكنت أتساءل عن حال رجل السعادين وابني شقيقته".

"إنهما في حال جيدة... أعني الطفلَين. هما يتعلمان بسرعة. لم أرَ رجل السعادين مجدداً. لم أعد إلى معسكر العمل، ولكنه تعرّض لضرب شديد، ومن المحتمل أن يكون قد لقي حتفه".

قال أوم: "إذاً، لقد تحقق توقع المرأة المسنّة تقريباً".

سأل سيد المتسولين: "أي توقع؟".

فروى له الخياطان ما حدث تلك الليلة في مستوطنة الأكواخ عندما اكتشف رجل السعادين مَقْتَل سعدانَيه من قِبَل كلبه، والكلمات الغامضة التي قالتها المرأة المسنّة. قال أوم: "أتذكّر تماماً ما قالته لنا، فقدان السعدانين ليس أسوأ خسارة سيعانيها، وقتل الكلب ليس أسوأ عملية قتل سيرتكبها. وفي وقت لاحق قتل تيكا ثأراً لليلى وماجنو".

قالت دينا: "يا لها من قصة رهيبة!".

قال سيد المتسولين: "إنها مَحض صدفة، لا أثق بالتوقعات أو الخرافات".

فأومأ إيشفار برأسه: "وهل الطفلان سعيدان من دون رجل السعادين؟".

لوّح سيد المتسولين بيده غير المربوطة بالسلسلة المعدنية في إيماءة تشير إلى عدم معرفته. "سيتوجب عليهما اعتياد الأمر. الحياة لا تضمن السعادة". ورفع اليد نفسها

مودِّعاً، وهمّ بالخروج من الباب، ومن ثم توقف.

"هناك أمر يمكنكما القيام به لأجلي. أنا بحاجة إلى متسوّلَين جديدَين. إذا صادفتما شخصاً يملك المواصفات المناسبة، هلاّ أعلمتماني بذلك؟".

قال إيشفار: "بالتأكيد، سنُبقي أعيننا مفتوحة".

"ولكن يجب أن يتمتع المرشحون بميزة فريدة. دعاني أُريكما". أخرج من حقيبة يده دفتر رسم كبيراً يحتوي على مدوّناته ورسومه التوضيحية المرتبطة بالفن المسرحي للتسوّل. كان تجليد الدفتر بالياً وزوايا الصفحات مثنيّة.

فتح الدفتر على صفحة تحتوي على رسم قديم بقلم رصاص يحمل عنوان **روح التعاون**. "هذا ما كنت أحاول ابتكاره طوال مدة من الزمن".

احتشدوا حوله لرؤية الرسم التقريبي. رأوا شخصين أحدهما جالس على كتفَي الآخر. "لأجل ذلك، أنا بحاجة إلى متسوّل كسيح ومتسوّل ضرير. سيقوم المتسوّل الضرير بحمل الكسيح على كتفَيه. إنها صورة تنبض بالحياة لقصة قديمة عن الصداقة والتعاون. أنا على ثقة تامة بأن هذه الحالة ستجمع ثروة من النقود المعدنية لأن الناس لا يهبون المال بسبب الشفقة أو التقوى، بل بسبب الإعجاب أيضاً". كانت العقبة هي العثور على متسوّل ضرير يمتلك قوة كافية، أو على متسوّل كسيح خفيف الوزن.

سأل مانيك: "ألن يكون شانكار مناسباً؟".

"من دون ساقَين، وبوجود ربع فخذَيه فقط، لن يتمكن أبداً من الجلوس بشكل متوازن على كتفَي أحدهم؛ سينزلق بسرعة. أنا بحاجة إلى كسيح لا تكون ساقاه مبتورتَين، بل يكون فاقداً نشاطه ومشوَّهاً، ليكون بإمكان ساقَيه التدلّي بشكل جيد فوق صدر حامله. على أيّ حال، شانكار ناجح جداً على منصته المدولَبة. لا نريد إفساد ذلك".

وعدا بتلبية طلب سيد المتسولين، وقال إنه يرحّب بأي اقتراحات: "بالمناسبة، هل تعرفين المشاغبَين اللذين قدما مع جامع الإيجارات؟".

"ماذا عنهما؟".

"إنهما يرسلان اعتذاراتهما بسبب عدم تمكنهما من الحضور لإزالة حالة الفوضى التي تسببا بها".

"حقاً؟".

"أجل. وقع لهما حادث مؤسف؛ لقد حطّما كل أصابعهما. من يعلم؟ إذا تعرّضا لمزيد من الحوادث، قد يكونان مؤهّلَين للانضمام إلى فريق متسوّليّ". وسُرّ بسرعة خاطره، وأطلقوا ابتسامات واهية.

قال: "الآن، يجب أن تعذروني حقاً، عليّ الذهاب للاهتمام بمتسوّلَيّ المقتولَين".

"هل ستُحرقانهما اليوم؟".

"لا، الأمر مكلّف جداً. عندما تُفرج المشرحة عن الجثتَين، سأرسلهما إلى عميلي". ولدى رؤيته تعابير الصدمة على وجوههم، شعر سيد المتسولين بضرورة تبرير تصرّفه: "مع ارتفاع الأسعار والتضخم، لا أملك خياراً آخر. إضافةً إلى ذلك، هذا الحل أفضل من ترك الجثتَين في الشارع لعمال البلدية كما في الأيام الغابرة".

قالت دينا: "أجل، بالطبع". موافقةً إيّاه الرأي، كما لو أنها تبيع جثثاً وتشتريها كل يوم. "وماذا يفعل عميلك بالجثتَين؟".

"يبيع بعضها للكلّيات بهدف تعليم الطلاب الذين يريدون أن يصبحوا أطباء. تخيّلي فقط أن متسوّلَيّ يشاركان في اكتساب المعرفة". اتخذ وجهه مظهراً رؤيوياً، وحدّق عبر النافذة إلى أُفق لا محدود. "يشتري مزاولو الشعوذة بعض الجثث أيضاً. ويتم تصدير كميات كبيرة من العظام لصنع الأسمدة منها، كما أعتقد. يمكنني تعداد مزيد من الاستخدامات إذا شئتِ".

فهزت دينا رأسها رافضةً الطلب.

تركت مغادرة سيد المتسولين برودة في الجو بعد مغادرته. قالت: "يجب علينا الحذر من ذلك الرجل. يا له من رجل غريب! وتلك الحقيبة المربوطة بمعصمه؛ إنه عبد للمال. يبدو قادراً على بيع عظامنا قبل أن نلاقي حتفنا".

قال مانيك: "إنه مجرد رجل أعمال عصري يتوق إلى العُلى. لقد رأيت الكثيرين من أمثاله في مهنة صناعة الكولا عندما كانوا يأتون لمقابلة والدي، حاثّين إيّاه على بيع الكولاز كولا".

هز إيشفار رأسه بحزن: "لماذا يكون رجال الأعمال عديمي الشفقة إلى هذا الحد؟ مع كل ما يملكونه من أموال، يبدون غير سعداء باستمرار".

قالت دينا: "إنه داء لا دواء له، كالسرطان، وهم لا يعرفون أنهم مُصابون به".

قال مانيك بعد أن ارتفعت معنوياته مجدداً: "على أيّ حال، أوم هو الوحيد الذي يجب أن يخشى سيد المتسولين الذي قد يرى فيه هيكلاً عظمياً متنقلاً".

رد أوم: "من الأفضل لك أن تلتزم جانب الحذر أنت أيضاً، إن عظامك المكتنزة التي نمت في الجبال وارتوت بثلوج الهملايا الذائبة والنقية ستعود عليه بالمال أكثر من عظامي".

قالت دينا: "كفّا عن هذا الكلام المرعب".

لكن مانيك كان عاجزاً عن كبح جماح رغبته في التفوّه بكلام سخيف بسبب شعوره بالارتياح لبقاء أمور الأسرة على حالها. "فكري فقط، يا خالتي. بعد أن أصبحت أسناننا متلألئة بسبب تنظيفها ببودرة الفحم، لا بد من أنها ازدادت قيمة. يمكننا بيعها سنّاً سنّاً أو بالدزينة، أو ربما كقلادة".

"كفى، قلت. ضع المُزاح جانباً، يجب الحذر من هذا الشخص، تذكّر".

قال إيشفار: "ما دام يتلقى الدفعة في الوقت المحدد، فلا شيء يدعونا للقلق".

"آمل في ذلك. من الآن فصاعداً سأدفع نصف القسط بما أنه يحميني أنا أيضاً".

قال إيشفار بغضب: "أبداً، لم أذكر ذلك لهذا السبب. أنت لا تتقاضَين أي إيجار، لذلك نحن مسؤولان عن دفع كامل القسط". ورفض تبديل رأيه.

قصد إيشفار ودينا غرفة الخياطة لاحتساب قيمة التعويض عن الخسائر التي مُنيت بها أوروفوار إكسبورتس. فهمس قائلاً إنه سعيد لرؤية مانيك وأوم يضحكان ويمازحان بعضهما مجدداً.

قالت موافقةً إيّاه الرأي: "أجل، كان هذان اليومان الأخيران مزعجَين لنا جميعاً". ومن ثم طلبت من الفَتيَين إعادة تثبيت اللوحة على الباب الأمامي.

قال أوم تلك الليلة فيما كان يفرش عدة النوم: "لن نرى راجارام مجدداً بالتأكيد، إذا كان القاتل".

قال عمه: "إنه القاتل بالتأكيد". وحدّق إلى مصباح الشارع من نافذة الشرفة، مفكراً في صديقهما السابق. "أمر لا يصدَّق. شخص يبدو بهذا اللطف يقتل متسوّلَين. كان يُفترض بنا أن نكون أكثر حذَراً في صباح ذلك اليوم الأول في مستوطنة الأكواخ، مع كل حديثه البذيء عند خطوط سكك الحديد. أي شخص سليم العقل يكسب رزقه من جمع الشعر؟".

"ليست النقطة الرئيسة. الناس يجمعون ويبيعون مختلف أنواع الأمور: من خِرَق، وورق، وبلاستيك، وزجاج، لا بل عظام أيضاً".

"ولكن، ألستَ سعيداً لأنني لم أسمح لك بتطويل شعرك؟ لو أطلته لَذبحك ذلك القاتل بهدف الحصول عليه خلال نومك في الكوخ المجاور".

فهز أوم كتفَيه. "أنا قلق على السيدة دينا. افترض أن الشرطة وجدت عدة قص الشعر التي أعطتها لراجارام؟ إن بصمات أصابعها وأصابعنا موجودة عليها. سيتم اعتقالنا وشنقنا".

"لقد شاهدتَ الكثير من الأفلام السينمائية المجنونة مع مانيك. ذلك النوع من الأمور

لا يحدث إلا في الأفلام السينمائية. ما يقلقني هو قدومه إلينا مجدداً طلباً للمساعدة. ما العمل حينذاك؟ هل نتصل بالشرطة؟".

استلقى إيشفار مستيقظاً لمدة طويلة، وهو غير قادر على إخراج راجارام من رأسه. لقد عاشا قرب هذا القاتل في مستوطنة الأكواخ، وتناولا طعامه. لقد جعلته الذِّكرى يرتعد.

علم أوم أن عمه لم يتمكن من النوم. فرفع نفسه على أحد مِرفقَيه وضحك في الظلام: "هل تعرف الطاهي والنادل في فيشرام اللذين يستمتعان بقصصنا؟ ألن يكونا سعيدَين بسماع هذه القصة".

حذّره إيشفار: "لا تمزح بهذا الشأن، وإلا وقعنا في فخ المشاكل اللامتناهية مع الشرطة".

* * *

كان الرصيف مكتظاً في الصباح بالخادمات المنزليات، وتلامذة المدارس، وموظفي المكاتب، والباعة المتجوّلين. فانتظر الخياطان هدوء حركة المشاة، فيما كان شانكار يتحرّك باتجاه الزقاق الخلفي لفيشرام. واستمر في التلويح لهما، مما أثار قلق إيشفار؛ فكلما كان لفت الانتباه إليهما أقل كان ذلك أفضل.

بعد دقائق قليلة، نفد صبر شانكار وغامر بعبور الرصيف عبر حشد المشاة. "احذروا!". كان ينادي، متفادياً هياجاً غير متناهٍ من السيقان والأقدام.

اصطدمت المنصة بقصبة ساق أحدهم، فانهمرت الشتائم على شانكار، ورفع نظره بخجل. فهدّده الرجل بركل رأسه. "تظن أنك تملك الرصيف! ابقَ في مكان واحد!".

فالتمس شانكار السماح، وانطلق مسرعاً مما أدى إلى سقوط الرزمة عن المنصة. فراقب الخياطان بقلق، غير متجرّئَين على الذهاب لمساعدته. فناضل شانكار وتمكن بطريقة ما من إنقاذ الرزمة.

قال إيشفار: "أحسنتَ". وتخيّل رجل شرطة السير وهو ينظر إليهما بارتياب من التقاطع الناشط؛ ماذا لو قدم إليهما وطلب منهما فتح الرزمة؟ "إذاً"، قال مُبقياً صوته مستقراً قدر الإمكان. "متى سلّم صديقنا طويل الشعر هذه الرزمة؟".

أجاب: "منذ يومين". وكاد إيشفار يُلقي بالرزمة جانباً. قال شانكار مبدِّلاً رأيه: "لا، أنا مخطئ". وفاركاً جبينه براحة يده الملفوفة بضِمادات. "ليس منذ يومين، بل في اليوم التالي لرؤيتي لكما آخر مرة؛ منذ أربعة أيام".

فأومأ إيشفار برأسه لأوم بارتياح. لم تكن الرزمة تحتوي على ذلك الشعر. "لن يأتي

صديقنا لرؤيتك منذ الآن فصاعداً".

خاب أمل شانكار: "لا؟ لقد اعتدت الاستمتاع باللعب برزمه. يا للشعر الجميل!".

"أتعني أنك نظرت إلى ما في داخلها؟".

سأل بقلق: "هل أخطأتُ؟ لم أُلحق الضرر بأي شيء. لقد وضعته على خدّي فحسب لأنه يمنحني شعوراً بالارتياح. كان ناعماً وجميلاً".

قال أوم: "إنه ذلك الشعر بالتأكيد، صديقنا لا يجمع إلا أفضل نوعية من الشعر".

قال متنهداً: "ليتني أستطيع الاحتفاظ بحزمة لنفسي، باستطاعتي وضعها على منصتي في الليل، وأنام واضعاً وجهي عليها. كم ستريحني بعد خساسة الناس طوال اليوم. حتى الذين يرمون نقوداً معدنية ينظرون إليّ كما لو أنني أسرقهم. كم سيمنحني الشعر الراحة".

قال أوم بشكل مفاجئ: "لِمَ لا؟ احتفظ بهذه الرزمة، صديقنا ليس بحاجة إليها".

كان إيشفار على وشك الاعتراض، ولكنه لم يفعل. فأوم مُحق، ما الضرر في ذلك الآن؟

أضفى امتنان شانكار الدفء على شعورهما بالبرودة حيال ما قام به راجارام. وحين عادا إلى الشقة قال إيشفار: "أريد إخراج كل تلك القمامة من صندوقنا ورميها. لا أحد يعلم مصدرها وعدد الذين قتلهم إلا الله".

في تلك الليلة، وعندما نامت دينا ومانيك، أخرج إيشفار الضفائر من الصندوق، ووضعها في علبة كرتونية للتخلص منها في ما بعد. لقد شعر بالارتياح لأن ملابسهما لم تعد منجَّسة بمجموعة الرجل المجنون.

* * *

استيقظت دينا باكراً على صوت الضجيج الصادر من المطبخ، وذلك قبل حلول موعد تعبئة الماء بفترة طويلة، وبينما كان الظلام لا يزال مخيّماً. كان قد مضى شهران بسلام منذ أن وفى سيد المتسولين بوعده، وعادت الحياة في الشقة إلى طبيعتها. ولكن، فيما كانت تتقلب في سريرها نصف مستيقظة، كانت تفكر في أن صليل الأوعية والطناجر يعني أمراً واحداً: عاد مشاغبا صاحب الملك. بقلب خافق ويدَين مُثقلتَين بالنعاس، التقطت أصابعها الغطاء في محاولة لرفعه عنها.

ربما كان حُلُماً مزعجاً مرة أخرى... إذا بقيت مستلقية... وأبقت عينَيها مُغمَضتَين...

وخبت الأصوات. جيد، لقد نجحت الاستراتيجية. ليس هناك مشاغبون، إنه مجرد حلم. أجل، وسيد المتسولين يحمي الشقة. لا شيء يدعو للقلق، قالت لنفسها، وطفت

مجدداً فوق تخوم النوم.

في نهاية المطاف، دفعها مواء متواصل إلى الاستيقاظ بشكل كامل، فجلست مُجفَلة. يا للهر المزعج! ومتخلصةً من الغطاء، خرجت من السرير وتعثرت بالكراسي الخشبية، فسقط أحدها مُحدثاً صوتاً مكتوماً بخلاف الأوعية والطناجر التي أحدثت صوتاً مدوّياً، واستيقظ مانيك في الغرفة المجاورة.

"هل أنت بخير، يا خالتي؟".

"أجل، إنه هر شرير في المطبخ. سأحطّم رأسه. عُد إلى النوم".

فعثر على خفَّيه، وتبع دينا للحرص على عدم إيذائها الهر. وحين أضاءت النور، رأيا هرته البنّية والبيضاء العِتابيّة المفضلة، فيجايانتيمالا.

قالت بغضب: "يا لهذه الهرة الشريرة! الله يعلم ما الذي كانت تلعقه بلسانها القذر".

تفحّص مانيك سياج الدجاج الممزّق الموجود تحت لوح الزجاج المحطَّم. "لا بد من أنها كانت يائسة حقاً لتقوم بذلك. آمل في ألا تكون قد ألحقت الأذى بنفسها".

"أنت قلق على هرّتك القذرة أكثر من قلقك على ما تسبّبه لي من عناء". وبدأت بالتقاط أدوات المائدة التي سقطت من مكانها، وكان يتعيّن عليها فركها جيداً لتنظيفها.

قالت:"انتظر. ما هذا الصوت؟".

بعد عدم سماع أي شيء، واصلا ترتيب المطبخ. وبعد لحظات، تسمّرت مجدداً في مكانها، وهذه المرة، شق أنين منخفض طريقه عبر السكون. كان صادراً من المطبخ من دون شك.

في الزاوية، وفي التجويف حيث كان يتم الطهو على نيران الفحم في الأيام الغابرة، رأيا ثلاث هررة صغيرة بنّية وبيضاء. فرحّبت أصوات مواء الهررة الصغيرة بدينا ومانيك في أثناء انحنائهما لتفقّدها.

قالت لاهثة: "ما أجملها!".

قال: "لا عجب في أن فيجايانتيمالا كانت تبدو سمينة في الفترة الأخيرة. وأطلق ابتسامة عريضة.

ناضلت الهررة الصغيرة لبلوغ أقدامهما، وشعرت دينا بأنه لم يسبق لها أن رأت شيئاً مماثلاً. "أتساءل عما إذا كانت قد وضعتها هنا بالذات".

فهز رأسه: "يخيَّل إليّ أن عمرها لا يتجاوز أياماً قليلة. لا بد من أنها أدخلتها في أثناء الليل".

"أتساءل عن السبب. آه، إنها جميلة جداً".

"هل ما زلتِ ترغبين في وضع حاجز شبكي خارج النوافذ، يا خالتي؟".

فرمقته بنظرة مؤنِّبة. ولكن عندما مرّر يده عليها برِفق، سحبته إلى الوراء. "لا تلمسها. هل تعرف أي نوع من الجراثيم تحمل؟".

"إنها مجرد هرر صغيرة".

"حتى لو كانت صغيرة، لا يزال بإمكانها نقل المرض". وفتحت ورقة من الصحيفة القديمة وأمسكتها من الوسط.

سأل مذهولاً: "ماذا تفعلين؟".

"أحمي يدَيّ. سأضع الهررة الثلاث خارج النافذة حيث يمكن للهرة الأم أن تراها".

"لا يمكنك القيام بذلك!". وجادل قائلاً إن الهررة الثلاث الصغيرة قد تتضوّر جوعاً إذا تخلّت عنها والدتها، هذا إذا لم تقم الغربان والجرذان بمهاجمتها أولاً، ونقر عيونها الصغيرة، وشقّ أجسادها الصغيرة، وتمزيق أحشائها، وقرض عظامها الطريّة.

أجابت دينا: "لا حاجة إلى مزيد من التفاصيل". وأصدرت الهررة الصغيرة مواء مثيراً للشفقة مؤاتياً للسيناريو المريع. "ماذا تريد أن تفعل؟".

"إطعامها".

"مُحال". وفكرت دينا في أنه عندما يتم إطعامها لن تغادر أبداً، كما أن الوالدة ستتهرّب من واجباتها حتى وإن كانت تفكر في العودة إليها. "لا يمكنني تحمل مسؤولية كل المخلوقات المشرّدة في العالم".

تمكّن أخيراً من إرجاء عملية نقل الهررة الصغيرة إلى الخارج. لقد وافقت على عدم نقلها في الوقت الحاضر لمنح فيجايانتيمالا فرصة سماع جِرائها تناديها. ربما أقنعتها صيحاتها بالعودة.

أشار إلى الخارج: "انظري، بزغ الفجر".

"يا له من يوم جميل"! وتوقفت، محدّقةً عبر النافذة بطريقة حالمة.

بدأ الماء يخرج من الصنابير، ممّا قطع عليها فترة شرودها الذهني. فهرعت إلى الحمّام خلال قيام مانيك بالبحث عن الهررة النائمة في الفناء. وحدّق إلى البعيد حيث تبدأ منطقة الأزقة. ومع ذلك الضوء الأول التفاؤلي، أشرق وعد التغيير فوق المدينة النائمة. كان يعلم أن شعوره لن يدوم أكثر من دقائق قليلة؛ فلقد اختبر الأمر في السابق، وهو يتلاشى دائماً مع ازدياد ضوء النهار سطوعاً.

مع ذلك، كان ممتنّاً لدوام هذا الشعور. وعندما استيقظ الخياطان، أطلعهما على ما جرى، واصطحبهما إلى المطبخ. لقد تسبب اقترابهم بارتفاع وتيرة الأنين المنتظم.

قامت دينا بإخراجهم. "بوجود هذا الحشد الكبير، لن تعود تلك الهرة أبداً". بعد ذلك، دخلت بمفردها لإعداد الشاي كما ادعت، فوقفت في الزاوية مبتسمة، ومتنهدة، ومراقبةً الهررة الصغيرة وهي ترتعش داخل مدفأة الفحم، ثم تتسلق فوق بعضها بمشقّة، وتسقط في كومة بعد انهيار قواها. لقد اختارت والدتها المكان بعناية، قالت لنفسها، لأن التجويف عميق بما يكفي لمنعها من التسلق إلى الخارج كي لا تهيم على وجهها.

لم يتم القيام بكثير من الأعمال في صباح ذلك اليوم. لقد ادعى مانيك أن لا صفوف دراسية في الكلّية حتى الظهر. "كم الأمر مناسب"، قالت دينا بسبب تنقّله بين باب المطبخ وغرفة الخياطة لنقل أحدث الأنباء. وكثيراً ما كان الخياطان يوقفان آلتيهما للإصغاء إلى الهررة الصغيرة.

مرّ الوقت، وغدا مواؤها أكثر ارتفاعاً بما يكفي ليُسمَع بالرغم من صوت الآلتين. قال أوم: "إنها تنادي بقوة. لا بد من أنها جائعة".

قال مانيك: "كأطفال البشر تماماً، تحتاج إلى التزوّد بالطعام بانتظام". وراقب دينا من طرف عينه؛ كان يعلم أن أنينها بدأ يزعجها. فاستعلمت عرَضاً عما إذا كانت هذه المخلوقات الصغيرة تتحمّل حليب البقر.

أجاب بسرعة: "أجل. ولكن، يجب تخفيفه بالماء، وإلا كان ثقيلاً جداً على معِداتها. بعد أيام قليلة، يكون بإمكانها أيضاً تناول قِطع من الخبز منقوعة بالحليب. هكذا يُطعم والدي جِراء الكلاب والهررة في قريتنا".

رفضت دينا الاستسلام لمواء الهررة الصغيرة لساعة أخرى، متجاهلةً الالتماسات الصادرة من المطبخ. بعد ذلك، قالت: "الأمر ميؤوس منه. تعالَ يا سيد ماك، أنت الخبير بهذا الأمر".

فسخّنا مزيج الحليب والماء قبل سكبه في صحن من الألومنيوم. ونُقلت الهررة الصغيرة المتلوّية إلى خارج مدفأة الفحم، ووُضعت على صحيفة على الأرض. قال أوم لمانيك: "دعني أحملها أنا أيضاً". فسمح له مانيك بنقل الأخيرة.

جثمت الهررة الثلاث على الورقة، غير قادرة على الكف عن الارتجاف. ودنت منها رائحة الحليب شيئاً فشيئاً، فلعقت بضع لعقات مترددة على امتداد حافة الصحن، وسرعان ما احتشدت حوله، لاعقةً الحليب بشكل ناشط. وعندما أنهته وقفت في الصحن، ورفعت أنظارها. فأعاد مانيك ملأه، وعادت إلى لعق الحليب مجدداً، ورفعه بعد ذلك.

قالت دينا: "لماذا أنت شديد البخل؟ أعطها المزيد".

"بعد ساعتين. ستمرض إذا أفرطت في الأكل". وأحضر من غرفته علبة كرتونية

فارغة ووضع في قعرها ورقة صحيفة جديدة.

قالت معترضة: "لن أضعها في المطبخ، إنه أمر غير صحي".

فتطوع أوم لوضع العلبة على الشرفة.

"حسناً"، قالت. ومع ذلك، أرادت عودة الهررة الصغيرة إلى تجويف المدفأة في الليل. كانت لا تزال تأمل في قيام الوالدة باسترداد هررها. وتُرك لوح الزجاج المحطم من دون تصليح للترحيب بعودة الهرة.

طوال سبع ليالٍ، قامت دينا بتنظيف الأواني والطناجر في المطبخ، وأحكمت إغلاق الخزانة، وأغلقت باب المطبخ. وقصدت مدفأة الفحم عند الفجر طوال سبعة أيام متتالية بعد استيقاظها مباشَرةً، متمنّيةً أن تجدها فارغة، ولكن الهررة الصغيرة كانت ترحب بها بسعادة، متلهّفة لتناول فطورها.

بدأت تتطلّع إلى الاجتماع الصباحي. وفي نهاية الأسبوع، شعرت بالقلق عندما ذهبت إلى السرير - ماذا لو حدث الأمر الليلة، ماذا لو قامت الهرة بأخذها؟ فركضت إلى المطبخ لدى استيقاظها و... آه، حمداً لله! لم تختفِ!

توقف النقل الليلي من العلبة إلى المدفأة، وكان الخياطان سعيدَين بمشاطرة الهررة الصغيرة مسكنهما. وبنموّها بسرعة، بدأت الهررة الثلاث باستكشاف الشرفة، وكان يتعيّن إبقاء الأبواب مغلَقة لمنعها من التجول في غرفة الخياطة والعبث بقطع القماش. وبعد وقت قليل، بدأت تقوم بغزوات وجيزة إلى الخارج عبر قضبان نافذة الشرفة.

خاطب إيشفار السيد دينا ذات ليلة بعد العشاء: "أتعلمين يا سيدة دينا؟ لقد عبّرت الهرة عن ثقتها بك بترك صغارها هنا. فهي بقيامها بذلك تقول إنها تثق بهذا المنزل، وهو أمر مشرِّف بالنسبة إليك".

لم تقتنع دينا بهذا الهراء العاطفي: "إنه كلام سخيف، لقد جاءت الهرة مع صغارها إلى هنا بشكل طبيعي. إنها النافذة التي يرمي منها ثلاثة أغبياء رقيقي القلب الطعام لها".

لكن إيشفار كان عازماً على استخراج عِبرة ما؛ حقيقة أسمى من وحي الوضع. "لا أهمية لما تقولينه، هذا المنزل مبارَك. إنه يعود على قاطنيه بالحظ السعيد. حتى إن صاحب الملك الشرير لم يستطع إلحاق الأذى بنا في هذا المكان. والهررة الصغيرة طالع جيد. هذا يعني أن أوم سيُرزَق بعدد كبير من الأطفال سليمي الصحة".

قالت: "أولاً، يجب أن يحصل على زوجة".

قال بجدّيّة: "هذا صحيح تماماً. لقد فكّرت في ذلك بلا كلل، ولا يجب علينا الانتظار مدة أطول".

قالت شاعرةً ببعض الانزعاج: "كيف يمكنك التحدث بهذه الطريقة المجنونة؟ أوم يؤسس حياته، وهو يفتقر إلى المال، وليس لديكما مكان تقيمان فيه، وتفكّر في تدبّر زوجة له؟".

"كل شيء في حينه. يجب علينا التحلّي بالإيمان. أهم ما في الأمر هو أنه يجب عليه الزواج قريباً وإنشاء عائلة".

نادت باتجاه الشرفة: "هل سمعتَ ذلك يا أوم؟ يريد عمك تزويجك قريباً لتنشئ عائلة. تأكد فحسب من ألا تضع أطفالك في مطبخي".

قال أوم بنبرة أبوية: "عليك أن تعذريه. أحياناً، يقول عمي أموراً مجنونة".

قال مانيك: "مهما فعلتَ، لا تعتمد عليّ في ما يتعلق بالمسكن. لم يعد بإمكاني ادّخار مزيد من العلب الكرتونية".

قال أوم متذمراً: "ماذا دهاك؟ كنت آمل في أن تقوم بوضع علبتَين فوق بعضهما لإعداد بيت لي بطابقَين".

قال إيشفار: "من الجيد الهزل بشأن الأحداث المبارَكة". شاعراً بقليل من الانزعاج. لم يكن يظن أن اقتراحه سيكون محط سخرية.

عادت الهررة الصغيرة من تجوالها عند موعد الطعام بالتحديد، ومرّت بين قضبان نافذة الشرفة. "انظروا إليها"، قالت دينا بوَلَع: "إنّها تذهب وتعود متى تشاء كما لو أنها تقيم في فندق".

بعد ذلك، زادت مدة غيابها عندما تعلّمت البحث عن الطعام، ملازمةً الأزقة. كانت أكوام النفايات تومئ إليها بروائحها التي لا تقاوَم، فتلبّي الهررة الصغيرة الدعوة.

كان غيابها العشوائي يحزن الجميع، وحرص مانيك وأوم على الاستمرار في تكديس أطعمة شهية في طبق واحد، وكانا يأملان يومياً في أن تتلطّف الهررة الصغيرة بالظهور. وبعد الانتظار حتى وقت متأخر من الليل، كانا يتخلصان من فَضلات الطعام قبل أن تجتذب الحشرات المؤذية، فيُطعمان كل ما يتجوّل في الظلام بعينَين برّاقتَين خارج نافذة المطبخ.

وعندما كانت الهررة الصغيرة تظهر يبتهج الجميع. وإذا لم تكن هناك بقايا طعام مناسبة، يسرع مانيك وأوم لشراء خبز وحليب من فيشرام. وتتلكأ الهررة الصغيرة أحياناً بعد الوجبة السريعة قبل المغادرة، مستعدةً للّعب قليلاً، ملاعبةً قصاصات القماش بجانب آلتي الخياطة. وفي كثير من الأحيان، تغادر على الفور.

قالت دينا: "تأكل وتركض، كما لو أنها تملك المكان".

بعد مدة قصيرة، أصبحت الزيارات أقل تواتراً وأقصر مدة. وزال فضول الهررة الصغيرة، وتجاهلت الحليب والخبز كلّياً، وباتت تبحث في الخارج عما يُشبع حاسة الذّوق لديها.

للفت انتباهها، كان أوم ومانيك ينزلان على الأرض متكئَين على أيديهما وركَبهما بجانب الوعاء، ويقولان معاً مياو! مياو!، ويشمّ أوم بصوت مرتفع حافة الوعاء، في حين يحرّك مانيك لسانه إلى الخارج والداخل كما لو أنه يلعق بطريقة جنونية. ولكن ذلك لم يكن يُثير اهتمام الهررة الصغيرة. كانت تراقب أداءهما بتجرّد، ثم تتثاءب، وتبدأ بتنظيف نفسها.

بعد ثلاثة أشهر من اكتشافها في مدفأة الفحم، اختفت الهررة الصغيرة تماماً. وبعد مرور أسبوعين على عدم ظهور أيّ منها، اقتنعت دينا بأنها دُهِست. وقال مانيك إنها ربما تعرّضت أيضاً لهجوم من قِبل أحد كلاب المنبوذين.

قال أوم: "أو من قِبل الجرذان الكبيرة تلك. فحتى الهررة الكبيرة تخشاها".

مفكرين مليّاً في هذه الاحتمالات المحزِنة شعروا بالكآبة، عِلماً أن إيشفار استمر في الاعتقاد أن الهررة الصغيرة بخير. إنها مخلوقات صغيرة، وذكية، وقوية، قال للآخرين، ومعتادة على حياة الشوارع. ولكن أحداً لم يشاطره تفاؤله، وانزعجوا منه كما لو أنه اقترح مصيراً كئيباً للهررة.

في خضمّ حزنهم واكتئابهم، وصل سيد المتسولين للحصول على القسط. كان الغسق يبدو أكثر ظُلمة بسبب عدم إضاءة مصابيح الشارع. سأل: "ما الأمر؟ هل يزعجكم صاحب الملك مجدداً؟".

قالت دينا: "لا، ولكن هررنا الصغيرة الجميلة اختفت".

فشرع سيد المتسولين بالضحك، وأجفلهم الصوت لأنها المرة الأولى التي سمعوا فيها ضحكته. قال: "انظروا إلى وجوهكم الكئيبة، لم تبدوا على هذه الدرجة من الاستياء حتى من ذينك المشاغبَين". وضحك مجدداً. "آسف لأنني لا أستطيع مساعدتكم. أنا لست سيد الهررة الصغيرة. ولكنني أحمل أنباء سارة قد تُبهجكم".

سأل إيشفار: "ماذا هناك؟".

"يتعلق الأمر بشانكار". وأطلق ابتسامةً عريضة. "لا أستطيع إطلاعه على الخبر في الحال، وذلك لصالحه. ولكن، عليّ مشاطرتكما إيّاه ببساطة - إنه خبر رائع - وأنتما صديقاه الوحيدان. يجب عليكم جميعاً أن تُقسموا على عدم ذكر أي شيء له".

فتعهّد الجميع بذلك.

"حدث ذلك قبل أسابيع؛ بعد أن اصطحبتُكما وشانكار من مشروع الريّ ذاك. وشرعت إحدى متسوّلاتي، التي كانت شديدة المرض بإطلاعي على أمور عن طفولتها وعن صبا شانكار. وكلما قصدتها لجمع المال، كانت تبدأ باسترجاع الذكريات. كانت في الأربعين من عمرها، ولا تسمح لها سنّها بالعمل كمتسوّلة. لقد توفّيت أخيراً الأسبوع الماضي. ولكن، قبل وفاتها، قالت إنها والدة شانكار".

شرح سيد المتسوّلين قائلاً إن هذا النبأ لم يفاجئه لأنه كان يشتبه في الأمر على الدوام. فعندما كان صغيراً ويرافق والده في جولاته، غالباً ما كان يراها تُرضع طفلاً، وكان الجميع يدعونها نوزي لأنها لم تكن تملك أنفاً. كانت شابةً آنذاك، في الخامسة عشرة من عمرها تقريباً، مع جسد مثالي لا عيب فيه ويحصّل سعراً لائقاً كما ارتأت ناظرات بيوت الدعارة لو لم تكن مشوَّهة الوجه. لقد قيل إنها عندما وُلدت، قطع والدها المخمور أنفها من شدة غضبه وخيبة أمله بسبب إنجاب الوالدة ابنة وليس ابناً. وعالجت الوالدة الجرح وأنقذت حياة المولودة الجديدة، عِلماً أن الوالد استمر في القول لها: "دعيها تموت، وجهها القبيح هو دوطتها الوحيدة، دعيها تموت". وبسبب مضايقته واضطهاده المتواصلَين، تم تسليم الطفلة لتتعلّم التسوّل.

قال سيد المتسولين: "لا أعلم بالتحديد في أي عمر اكتسب والدي نوزي، أذكر فقط رؤيتي إيّاها مع طفلها الصغير". من ثم، وبعد أشهر قليلة، فُصل الطفل الذي دُعي شانكار عنها وأُرسل لتلقي بعض التعديلات المهنية.

ولم يعُد الطفل إلى والدته. فتنقُّله بين متسوّلة وأخرى في أحياء متنوعة يحقّق المزيد من الربح، كما أن الغريبات اللواتي كنّ يَقمن بإرضاعه وجدنَ أنه من الأسهل في هذه الحالة ظهور أمارات اليأس التام على وجوههنّ، مما يُنجح عملية التسوّل، في حين أنه لو أُبقي الطفل مع نوزي لَبَدت السعادة على وجهها عندما تضمّه إلى صدرها طوال اليوم، ولكان من المستحيل إزالة ومضة الفرح من عينَيها، مما يؤثّر سلباً في المداخيل.

قال سيد المتسولين: "وهكذا، نشأ شانكار وحصل على منصته المدولَبة من دون أن يعرف والدته، وعندما تولّت شؤون العمل، كنت قد نسيت الشك الذي ساورني في طفولتي وهو أنه ابن نوزي، حتى الفترة الأخيرة".

فنوزي هي التي ذكّرته بذلك خلال لفظها أنفاسها الأخيرة على الرصيف، كما ادّعت أن والد سيد المتسولين هو والد شانكار أيضاً. في بادئ الأمر، صُعق سيد المتسولين من امتلاكها الجرأة للإيحاء بأمر مُهين إلى هذا الحد، وهددها برفع اسمها عن لائحته إذا لم تعتذر. فقالت إن الأمر سيّان بالنسبة إليها لأن الموت قريب منها ولا تأبه بذلك.

مستمراً برفض تصديقها، تساءل عن مغزى قيامها بإطلاق كذبة عبثية. ما الذي تأمل في تحقيقه؟ وراقب بغضب استمرار المشاة في رمي نقودهم داخل صفيحة نوزي المعدنية. وغير مدرك لحلول المأساة، توقف بعضهم وبدأوا ينظرون إليه بارتياب.

قال مانيك: "ربما ظنوا أنك تنتظر لتسرقها".

"أنت مُحِق. وشعرتُ باستياء كبير لدرجة أنني أردت الصياح في وجوههم".

فجفلت دينا، كان الظلام قد ساد في الغرفة الأمامية، فأضاءت النور مما جعل الجميع يطرفون عيونهم ويغطّونها للحظات.

قال سيد المتسولين: "ولكنني سيطرت على أعصابي. ففي مهنتي، لدينا قول مأثور: مانح الصدَقة دائماً على حق".

هكذا، كفّ عن البحث والاستقصاء، مركِّزاً على ادّعائها، وجاء الشك بعد الصدمة. فاتهمها بإطلاق كذبة رخيصة، وبخداعه بطريقة حاقدة وهي على فراش الموت، تاركةً إيّاه في شك دائم.

"اهدأ وأصغِ"، قالت لسيد المتسولين، "أنا زوجة والدك سواء أأحببتَ ذلك أم لا، ولديّ برهان. هل سبق لك أن دلّكتَ ظهر والدك وكتفَيه؟".

"أجل"، أجاب، "كنت فتى صالحاً وأقوم بتدليك ظهر والدي بانتظام كلما طلب مني ذلك حتى يوم وفاته".

"في تلك الحالة"، قالت نوزي، "أنت على عِلم بالتأكيد بوجود انتفاخ أكبر من المعتاد، تورّم كبير في مؤخر عُنُق والدك حيث تبدأ العظام تماماً".

قال سيد المتسولين: "لقد تساءلتُ عن كيفية معرفتها بذلك التورم، ولكنها أصرّت على الحصول على جواب، هل كان لديه انتفاخ في ذلك المكان أم لا؟ ورفضتْ قول أي كلمة أخرى حتى اعترفتُ بالأمر، وبتردد، بأن والدي يحمل تلك العلامة الفارقة التي قامت بوصفها. بعد ذلك، كانت متلهّفة للمتابعة".

حدث ذلك منذ وقت طويل جداً عندما كانت نوزي صغيرة في السنّ، وبدأت عادتها الشهرية للتوّ. فجاء والد سيد المتسولين إلى زاويتها على الرصيف في إحدى الليالي في وقت متأخر، وكان ثملاً، ثملاً جداً بحيث إن وجهها المشوّه لم يكن رادعاً بالنسبة إليه. لقد جعلتها رائحة الشراب المُسكر الكريهة التي تفوح من فمه ترغب في رفض الأمر، ولكنها أبعدت وجهها وسيطرت على أعصابها. فاستلقت بلا حراك كما لو كانت ميتة، سامحةً له بالقيام بكل ما يشاء. وبعد انتهائه، جلست وتقيأت بجانب جسده الشاخر والمزمجر. وخلال الليل، استيقظ وتقيّأ، وطالها رذاذ القيء الصفراوي. في وقت

لاحق، سمعت صوت امتصاص ففتحت عينَيها؛ وشاهدت الجرذان وهي تتناول السائل المنبعث من فمه.

لقد افترضت نوزي أنه استمتع بالأمر لأنه استمر في العودة في ليالٍ أخرى حتى عندما لا يكون ثملاً. وتراجعت حدة كرهها له. كان ينظر إلى وجهها من دون أن يكون مخموراً، فبدأت تحب الأمر، واستمتعت بحب متبادل، جاعلةً يدَيها تستكشفان جسده، وتكتشفان الكتلة الكبيرة في مؤخر عُنُقه. فقهقهت وسألته عنها، فقال ممازحاً إنه قام بتنميتها للمتعة.

هكذا، وجد ذلك الرجل الذي كان باستطاعته النظر إلى وجهها القبيح والاستمرار في حبّها مكاناً في قلبها. وشرح لها ما قاله له الطبيب عن عظمته المميَّزة. لقد وُلد مع أربع وثلاثين فِقرة بدلاً من ثلاث وثلاثين، وهو العدد العادي، وظهرت الفِقرة الإضافية في أعلى العمود الفِقري وهي مسؤولة عن ألمه المزمن.

"أليس والدك هو الذي أقوم بوصفه"، قالت نوزي، "هل لا زال لديك أي شك الآن؟".

فأقرّ سيد المتسولين بصحة ذلك، ولكنه دليل على ارتكاب والده الفاحشة أثناء الثمالة ليس إلا.

"لم يكن ثملاً فحسب"، صححت له باعتداد في النفس، "بل كان صاحياً أيضاً". كان هذا الواقع أعزّ شيء على قلبها في حياتها، وذا أهمية قصوى بالنسبة إليها؛ حتى وإن كانت على فراش الموت.

فاعترف بالأمر على مضد، وأصرّ على أنّه لا وجود لما يُثبت بأن شانكار هو ابن والده وأخوه غير الشقيق الوحيد "أجل، إنه كذلك"، قالت نوزي، "لأن شانكار يملك الجزء الناتئ نفسه في مؤخر عُنُقه، ولا يتطلب الأمر سوى لحظات للتحقق من ذلك. فباستطاعة سيد المتسولين الادعاء بالطبع بأنه مَحض صدفة، ولكنه يعرف الحقيقة في صميم قلبه".

"وكانت مُحقة، فأنا في صميم قلبي أعرف أنها الحقيقة. وكان في قلبي أيضاً مزيج من الأحاسيس التي لا طائل منها. كنت غاضباً وخائفاً ومُربَكاً، ولكنني كنت سعيداً أيضاً لأنني أدركت أنّه قد أنعم عليّ فجأة، أنا الوحيد في هذا العالم، من دون والدين وأنسباء، بشقيق وزوجة ووالد حتى وإن كانت في سنّي تقريباً، وعلى فراش الموت".

هكذا، وبتقبّله الحقيقة، حلّ الامتنان مكان كل ما شعر به من غضب وكره تجاه المرأة المنازعة. وسألها عن سبب عدم إطلاعها إيّاه على الأمر من قَبل، فقالت له إنها كانت خائفة مما قد يقوم به إذا أغضبه السرّ أو أخجله؛ إذ ربما قام بقتلها وشانكار، أو

باعهما إلى مالك أقل لطفاً في مكان بعيد يكونان فيه غريبَين. كان خوفها الأكبر فقدان الأرصفة التي ألفتها منذ صباها.

لكن، الآن لم يعد الأمر ذا أهمية، فهي ستموت بعد فترة قصيرة، وسيكون المالك الوحيد للحقيقة، وسيحقّ له التصرّف بها كما يشاء، ويعود له قرار إطلاع شانكار عليها أم لا.

فطمأنها بأن جرأتها لم تحمل له سوى السعادة، وتبقى المسألة الملحة ضرورة نقلها إلى مستشفى جيد. أراد أن تشعر بالراحة في الوقت المتبقّي لها، وغادر لإحضار سيارة أجرة.

لقد رفض سائقو سيارات الأجرة نقل الراكب عندما رأوا المتسوّلة المريضة، وذلك بسبب قلقهم ممّا سيحلّ بسياراتهم. أخيراً، أشار إلى سيارة للأجرة للتوقف، ملوّحاً للسائق برزمة سميكة من الروبيّات. كان لسيارة الأجرة مصباح أمامي مكسور ومِصَدّ مصلصل. في المقعد الخلفي، وبوجود نوزي بين ذراعَيه طوال الرحلة، سمع سيد المتسولين قصة السائق المؤسفة عن شرطي ألحق الضرر بسيارته لأنه تأخر في ذلك الأسبوع بدفع المتوجبات.

حصل تأخير كبير في المستشفى. فقد تُركت نوزي على الأرض في ممرّ مكتظ بالمُعوَزين الذين ينتظرون تلقّي العلاج. وامتزجت رائحة الفينول المطهِّر المنبعثة من الآجرّ الحجري برائحة الناس الكريهة. وبذل سيد المتسولين قُصارى جهده لحث المسؤولين على الاهتمام بنوزي، وتحدّث إلى طبيب يبدو اللطف على وجهه. كان معطفه الأبيض ممزّقاً عند الجَيب السفلي الكبير حيث دسّ سمّاعته. فطلب منه سيد المتسولين الإسراع في الاعتناء بوالدته لأن حالتها جديرة بالاهتمام. فطلب منه الطبيب بصوت رفيق عدم القلق لأنه سيتم الاهتمام بالجميع. وغادر بعد ذلك مسرعاً، واضعاً يده في الجَيب الممزق.

فافترض سيد المتسولين أن الأشخاص العاملين في الميدان الطبي، والذين يكرّسون وقتهم لمهنتهم النبيلة، لم يكترثوا بلُفافة الروبيّات على غرار معظم أفراد المجتمع. ولكنه لم يتمكن من اختبار مزيد من الأطباء والممرضات للتوصل إلى استنتاج سليم. ماتت والدة شانكار قبل تلقّي أي علاج. فواسى نفسه بإقامة جنازة جيدة لها بقيمة الفاتورة التي كان يتعيّن عليه دفعها للمستشفى.

قال سيد المتسولين متنهّداً: "وعندما اهتممت بالموضوع، ذهبت لأرى شانكار. لم أُبلغه الخبر الرئيس على الفور بالطبع، لأنني أردت أولاً التفكير بسلام وهدوء في ما أخبرتني إيّاه نوزي".

فسأل شانكار عن حال التسوّل، وعما إذا كانت المنصة تعمل بشكل جيد، وإن

كانت الدواليب تحتاج إلى تشحيم؛ أي المحادثة العادية التي يجريها في أثناء الجولات التفتيشية. فشكا شانكار من تراجع قيمة الهبات في هذا الحيّ، ومن حدّة طباع الناس. وجثا سيد المتسولين بجانبه ووضع يده على كتفه قائلاً إن الجميع يواجهون المشكلة نفسها في كل مكان. إنها أزمة حقيقية تتعرض لها الطبيعة البشرية، والحاجة ماسّة إلى ثورة في قلوب الناس. ولكنه وعده بالنظر في الأمر، وربما قام بتعيينه في موقع جديد. وربّت على ظهر شانكار وطلب منه عدم القلق، وترك بعد ذلك أصابعه تنزلق تحت الياقة وصولاً إلى مؤخر عُنُقه.

"وهناك، تحت أطراف أصابعي، كانت عظمة ظهر والدي. إنه الانتفاخ نفسه، وبدأت يدي ترتعش من شدة التأثر. ارتعش جسمي كله من فَرط الإثارة، وبالكاد تمكنت من المحافظة على توازني فيما كنت جاثماً. كان شقيقي أمامي، ووالدي أيضاً في ذلك العمود الفِقري. وبذلت قُصارى جهدي كي لا أقوم بمعانقة شانكار، وضمّه إلى صدري، والاعتراف له بكل شيء".

لقد كبح جماح رغبته بجهد يفوق طاقة البشر؛ إذ إن إفشاء سر قبل الأوان يتسبب بعذاب لا يقدَّر. كان عليه أولاً اتخاذ قرار بشأن أفضل وسيلة لنقل الخبر إلى شانكار، واصطحابه إلى منزله، والسهر على راحته طوال حياته، والعيش معاً بسعادة. فهذه الأحلام رخيصة لأنها متوافرة للناس في كل وقت.

لكن، ماذا لو لم يتمكن شانكار من التكيف مع الحياة الجديدة؟ لنفترض أنها بدت من دون هدف، أو أسوأ من كونها من دون هدف؟ سِجن حيث يسلَّط الضوء على نواحي القصور لديه بدلاً من استخدامها في التسوّل على الرصيف؟ والأهم من ذلك، ماذا لو أصبحت القصة الرهيبة التي تعود لسنوات خلت جرحاً في نفس شانكار يتآكله من الداخل، محوّلاً بقية حياته إلى اتهام مرير ومدمِّر موجَّه لسيد المتسولين ووالده؟ بعد ذلك، هل يكون هناك مكان للصفح؟

"شعرت بأنه من الأفضل لي التصارع مع ذاتي والاحتفاظ بالحقيقة التي أفشتها نوزي. إن إقحام شقيقي المسكين سيئ الحظ في البؤس لتأمين راحتي أمر أناني". وفكر في شكل منطقي قائلاً إن حياة شانكار تحطمت ذات مرة في طفولته، ولكنه تعلّم كيفية التعايش مع ذلك الحُطام. والتسبب له بدمار ثانٍ أمر لا يمكن الصفح عنه.

"لذلك، قررت الانتظار. الانتظار والتحدث إليه عن طفولته. ربما شاطرتُه أموراً صغيرة وراقبتُ رد فعله. وبعد مرور وقت قصير، سأعرف الحل الأفضل لكلينا، وأنا بحاجة إليكما في هذه المرحلة".

سأل إيشفار: "ما الذي باستطاعتنا القيام به؟".

"اطرح أسئلة على شانكار، احمله على التحدث عن ماضيه. اكتشف نوع الذكريات التي لديه. إنّه لا يزال يخافني بعض الشيء، ربما يُخبرك المزيد. هلاّ أبقيتماني على اطلاع دائم؟".

"بالتأكيد، يمكننا القيام بذلك".

"شكراً لكما. في غضون ذلك، أريد جعل حياته على الرصيف سعيدة قدر الإمكان. بدأت أشتري له كعكاته المحلاّة المفضّلة كل يوم - اللادو والجالبي - والراسمالاي أيام الآحاد. لقد حسّنتُ منصته أيضاً بإضافة وسادات إليها، وأمّنت له مكاناً أفضل للنوم في الليل".

قال إيشفار: "الآن، اتضح الأمر. إنّه يستمر في إخبارنا عن مدى حسن معاملتك له".

"إنه أقلّ ما يمكنني القيام به. أخطط أيضاً لإرسال حلاّقي الخاص له، وتأمين الرفاهية له: قصّ الشعر، الحلاقة، تدليك الوجه، تقليم أظفار اليدَين؛ كل شيء. وإذا منحه الناس هبات أقل بسبب تهندمه، فلتحل اللعنة عليهم".

وكبحت دينا مجدداً جماح رغبتها في القول: راقب ألفاظك. فقالت: "الخبر الذي نقلتَه إلينا رائع. كم سيكون شانكار سعيداً عندما تُطلعه على الأمر".

"ليس عندما، بل إذا. هل سأتمتع بالشجاعة يوماً؟ هل أملك الحكمة لاتخاذ القرار الصائب؟".

أغرقته وطأة هذين السؤالين فجأةً في اليأس. لقد أصبح الخبر الذي يُسعد أي شخص سحابة تحجب الشمس.

قال إيشفار: "أنا على ثقة بأن الأمور ستنجلي في الوقت المحدد".

"ما اتضح حتى الآن هو خط رفيع بين شانكار وبيني، إنّه أشدّ رفعاً من الشعرة الحريرية لمتسوّلَيّ المسكينَين المقتولين. لم أقم برسمه. إنها علامة القدر. ولكنني أتمتع الآن بالقدرة على محوه." وتنهّد. "يا لها من قدرة مَهيبة ومخيفة! هل أملك الجرأة؟ ما إن يُمحى ذلك الخط، فلن يعود بالإمكان رسمه مجدداً". وارتجف. "يا لهذا الميراث الذي تركته لي زوجة والدي!".

فتح حقيبته، وأخرج دفتر الرسم وأراهم رسمته الأخيرة. "لقد رسمتها في الليلة الماضية عندما كنت أشعر بحزن كبير ولا أتمكن من النوم".

يظهر في الصورة ثلاثة أشخاص. فالأول يجلس على منصة ذات دواليب صغيرة، ليس لديه ساقان ولا أصابع، وجَذَعتا فخذَيه ناتئتان كخيزران مجوَّف. والشخص الثاني

امـرأة نحيلـة مـن دون أنـف، وفي وسـط وجهها ثقب. ولكن الشـخص الثالث هو الأكثر غرابـة: رجـل مـع حقيبة مربوطة بمعصمه بسلسـلة معدنية يقـف على أربع أقدام عنكبوتية متباعدة حدّقوا إلى الرسم كما لو أنها في نزاع دائم حول الوجهة الصحيحة. وفي كل من يدَيه عشـر أصابع، ويخرج من راحتَي يدَيه موز عديم النفع، وفي وجهه أنفان متلاصقان ولكنهما يتخذان وجهتَين معاكستَين كما لو أن أحدهما لا يُطيق رائحة الآخر.

حدّقـوا إلـى الرسـم، غيـر واثقيـن مـن رد فعلهم حيـال المخلوق الذي ابتكره سـيد المتسولين. لقد جنّبهم الشعور بالإحراج من خلال عرضه تفسيره الخاص. "مسوخ؛ هذا ما نحن عليه جميعاً".

كان إيشفار على وشك القول إنه يقسو على نفسه، وإنه لا يُفترض به تحمّل مسؤولية مصيرَي شـانكار ونوزي، ولكن سيد المتسـولين أوضح ما قاله. "أعني كل بشـري. ومن يستطيع إلقاء الملامة علينا؟ ما هي فرصنا عندما تكون بداياتنا ونهاياتنا غريبة الشـكل؟ الموت والحياة. وهل هناك ما هو أكثر هَولاً؟ نحب أن نخدع أنفسنا، ونعتبر ذلك رائعاً وجميلاً ومَهيباً، ولكنه غريب الشكل، فلنواجهه".

أغلق دفتر الرسـم، وأعاده إلى حقيبته بترتيب، مشـيراً إلى أن سلسـلة سعادته وبؤسه وارتيابه واكتشـافه قد انتهت، وطُويت أحاسيسـه البشـرية، وحان وقت العودة إلى العمل. "ينتهي عامكم بعد أربعة أشهر. أريد أن أعرف مُسبَقاً، هل تخططون لتجديد العقد معي؟".

قال إيشفار: " أجل، وإلا عاود صاحب الملك مضايقة السيدة دينا".

تبعوا سـيد المتسـولين إلى الشـرفة لتوديعه. في الخارج، كان المكان لا يزال مُظلِماً بسـبب عطـل فـي محطـة الطاقـة الكهربائية كما يبدو لأن صـف المصابيح بأكمله لم يكن مُضاءً.

قال سـيد المتسـولين: "آمل في أن يكون عمود مصباح شـانكار مضاءً. من الأفضل لي الإسراع لتفقّده، فهو يشعر بالخوف عندما يكون الرصيف مُظلِماً".

عَبَر الإسفلتَ الأسود بخطى واسعة بقميصه وسرواله الأبيضَين كما لو أن طبشورة تعبر لوحاً من الأَردواز. واستدار مرة واحدة للتلويح بيده، وتوارى عن الأنظار شيئاً فشيئاً.

قال أوم: "يا لها من قصة غريبة أسيستمتع أصدقاؤنا في فيشرام بها. فيها كل شيء: مأساة، قصة غرام، عنف، ونهاية غير مبتوت فيها ومليئة بالتشويق".

قال إيشفار: "ولكنك سمعت ما قاله سيد المتسولين، يجب إبقاء الأمر سرّاً من أجل شانكار. إنها قصة أخرى لا يمكن إضافتها إلى المهابارات".

زفاف وديدان

لم يكن ظهور الهررة الصغير مجدداً خارج نافذة المطبخ بعد شهر مناسبةً للابتهاج. فلم تعد هذه المخلوقات تعتبر الأمر أكثر من مجرد توقف لاستجداء الطعام. ولو ظهرت علامات تشير إلى قدومها لَشَعر أوم ومانيك بالسعادة؛ كصوت مواء مرتفع ربما، أو نظرة، أو خرخرة، أو تقويس الظهر. بدلاً من ذلك، أمسكت الهررة الصغيرة برأس سمكة وفرّت للاستمتاع بتناولها في عُزلة.

قالـت دينـا: "لمـاذا فاجأكمـا الأمر؟ نكران الجميل ليس أمراً غير مألوف في العالم. ذات يـوم، ستنسـونني أنـا أيضـاً؛ كلكـم. وعندما يسـلك كل منكم طريقه وتسـتقرون، لن تعرفوني بعد ذلك". وأشـارت إلى مانيك. "بعد شـهرين سـتخضع للامتحان النهائي، ثم ستوضّب أغراضك وتختفي".

قـال معترضـاً: "لسـت أنـا من يتصـرّف بمثل هذه الطريقة يا خالتي، سـأتذكرك على الدوام، وأزورك، وأكتب إليك أينما كنت".

قالـت: "أجـل، سـنرى. وأنتما أيها الخياطان ستشـرعان ذات يـوم بعملكما الخاص وستغادران أيضاً. هذا لا يعني أنني لن أكون سعيدة من أجلكما عندما يحدث ذلك".

قال إيشـفار: "يا سـيدة دينا، سـأبارك فمك بالسـكّر لو حدث ذلك يوماً. ولكن قبل أن تتوافر منازل أو مشـاغل لأشـخاص مثلنا، سـيكون على السياسيين أن يتمتعوا بالصدق والاسـتقامة". ورفع سـبّابته، وثناها، ومن ثم مدّدها. "ربما يسـتقيم العود المنحني، ولكن الحكومة لن تسـتقيم". في الواقع، قال، إن همّه الأكبر هو كيفية تزويج أوم إذا لم يكن باستطاعتهما العثور على مكان للإقامة فيه؟

قالت دينا: "سيحدث أمر غير متوقع بالتأكيد عندما يكون مستعداً للزواج".

قال إيشفار: "أعتقد أنه مستعد الآن".

قـال أوم بغضـب: "لا أعتقـد ذلـك. لماذا تسـتمر في التكلم عن الـزواج؟ انظر إلى مانيك، هو في مثل سنّي، ولا أحد يستعجله لتحديد موعد زواجه. هل والداك على عجَلة من أمرهما يا مانيك؟ هيا، تكلم، علّم عمّي بعض المنطق".

فهز مانيك كتفَيه وقال: لا، لم يكونا على عجَلة من أمرهما".

"هيا، أخبره بالجزء الآخر، وهو أن والدَيك سينتظران حتى تلتقي فتاة تحبها. وإذا قررتَ الزواج، عندها فقط سيتخذان الإجراءات المناسبة. هكذا أريد أن يكون الأمر بالنسبة إليّ أيضاً".

قال عمه بغضب رداً على اقتراحه: "يا أومبراكاش، أنت تتفوّه بكلام سخيف، نحن من مجتمعين مختلفين، وعاداتنا مختلفة. وبما أن والدَيك ليسا معنا، فمن واجبي أن أعثر لك على زوجة".

فتجهّم وجه أوم.

قال مانيك محاولاً منع حدوث المعركة: "وجه مصفرّ كالليمون الحامض. على أيّ حال، دعيني أحذّرك يا خالتي، قد لا تتخلصين مني بعد شهرين".

"ماذا يعني ذلك؟".

"لقد قررتُ ارتياد الكلّية لثلاث سنوات إضافية، والحصول على إجازة جامعية لائقة بدلاً من شهادة تقنيّة".

فبدا السرور على وجهها، وحاولت إخفاءه قائلة: "إنه قرار حكيم. الإجازة الجامعية أكثر أهمية من الشهادة التقنية".

"إذاً، هل يمكنني البقاء معك؟ أعني، بعد تمضية العطلة في المنزل".

"ما رأيكما؟ هل يُفترض بنا السماح لمانيك بالعودة؟".

فابتسم إيشفار: "بشرط واحد وهو ألا يغرس أفكاره الجامحة في رأس ابن شقيقي".

لازمت مسألة تزويج أوم تفكير إيشفار، وكان يطرحها في كل مناسبة، ولكن دينا كانت تُثبط عزيمته بلطف. "العمل كثير، وأنت الآن تدّخر بعض المال. لماذا تجازف بتحمل مسؤولية جديدة سيما وأن الأمور تتحسن؟".

قال إيشفار: "إنه سبب إضافي لضرورة زواجه، ربما ساءت الأمور مجدداً".

قال مانيك: "إنه أمر حتمي سواء أتزوّج أوم أم لا. كل شيء ينتهي على نحو سيّئ. إنه قانون الكون".

نظر إليه إيشفار كما لو أنه تلقى صفعة، وقال بصوت يعتصره الألم: "ظننتُ أنك صديقنا".

"ولكنني صديقكما. لا أقول ذلك عن ضغينة. انظر فقط إلى العالم من حولك. تبدو الأمور واعدة أحياناً، ولكن في النهاية كل شيء...".

قالت دينا: "كفاك فلسفة، إذا لم تستطع قول شيء جيد، فلا تقل أي شيء. احتفظ

بأفكارك السوداء لنفسك. أنا لا أوافق إيشفار الرأي أيضاً، ولكن ذلك لا يخوّلك التفوّه بكلمات منحوسة".

"ولكنني أوافقه الرأي لأن...".

"كفى! لقد أسأتَ إلى إيشفار بما يكفي!".

لم تَحُل الإساءة دون ازدياد هاجس إيشفار. وأعلن بعد يومين بصوت غير واثق أنه اتخذ قراره. "تتمثل أفضل طريقة بتوجيه رسالة إلى العم أشرف والطلب منه نشر الخبر في مجتمعنا".

فكفّ أوم عن الخياطة، ونظر إلى عمه باستهزاء. "في بادئ الأمر، كنت تحلم بادّخار المال، والعودة إلى قريتنا وشراء مشغل صغير. الآن، لديك حلم جديد. لماذا لا تستيقظ من حلمك؟".

"ما الخطأ في استبدال حلم مستحيل بحلم ممكن؟ امتلاك مشغل يتطلب وقتاً طويلاً، ولكن الزواج لا يمكن إرجاؤه. سأكتب للسيد أشرف".

"أنا أحذّرك، اكتب له إذا كنتَ تريد زوجة لنفسك".

"هل سمعتما ذلك؟ ابن شقيقي يحذرني". فكفّ عن التظاهر بالهدوء، وظهرت أمارات الغضب على خدّه الأيسر المتضرر. "ستمتثل لما يُطلب منك. هل هذا مفهوم؟ كنت شديد التساهل معك يا أومبراكاش؛ شديد التساهل. لو كان هناك شخص آخر مكاني لَلَيّن عظامك على مرّ السنوات".

"انسَ الأمر، أنت لا تخيفني".

"أصغيا إليه. قبل أشهر قليلة فقط، في معسكر العمل، كنتَ تبكي بين ذراعَيّ كل ليلة بسبب الخوف والمرض، وتتقيّأ كطفل. الآن، أصبحتَ قوياً ومتمرّداً. ولماذا؟ لأنني أريد الأفضل لك؟".

قالت دينا مُقاطِعة: "لا أحد ينكر ذلك". آملةً في أن يدرك إيشفار الأمر إذا وقفت إلى جانب أوم. "ولكن هذه العجَلة العمياء غير حكيمة. لو كان أوم يتوق إلى اتخاذ زوجة له، لكان الأمر مختلفاً. ما سبب إصرارك؟".

فشعر بأنهم يتآمرون ضده. "إنه واجبي". تمتم بطريقة تنمّ عن حكمة. وعاد بعد ذلك إلى العمل، ومدّ يده لتناول قطعة قماش فأوقع كل الكدسة.

قالت: "رائع! أحسنت! أَنزل السقف بأكمله، هيا. هل ترى كيف أن واجبك المُلح يؤثّر فيك؟ الهَوَس هو الهوس. الهوس ليس واجباً". وساعدته على رفع قطع القماش عن الأرض. "ليت تلك الهرة الشريرة لم تترك صغارها في مطبخي. فلقد زرعت هذه

الفكرة المجنونة في رأسك".

في الأيام القليلة التالية، تحوّل غضب إيشفار إلى أعمال خرقاء وراء آلة الخياطة. واستمرت الأخطاء تُرتَكب في خياطته كبطاقات غير صحيحة في خدعة سحرية، فكانت مناسبة لِدِينا للإشارة إلى خطورة الأمر. "إن هَوَسك بالزواج سيدمّر عملك. ستجعل الطعام يختفي من أطباقنا".

قال إيشفار: "آسف، هناك أمور كثيرة تشغل تفكيري. ولكن لا تقلقي، ليست سوى مرحلة وتنقضي".

"ماذا تعني بقولك لا تقلقي؟ كيف تمر؟ عندما تكون هناك زوجة، يكون هناك أطفال. عندئذٍ، ستزداد الأمور التي تشغل تفكيرك. أين سيقيمون كلهم؟ وكيف ستتمكن من إطعام كل تلك الأفواه؟ كم حياة تريد أن تدمّر؟".

"قد يبدو الأمر دماراً بالنسبة إليك. ما أقوم به هو وضع الأساس لسعادة أوم. لا يحدث الزواج في شهر واحد أو شهرَين. يتطلب الأمر عاماً على الأقل قبل أن نخطو أي خطوة. إذا كانت الفتاة صغيرة في السنّ، فقد يرغب الوالدان في الانتظار لمدة أطول. كل ما أريده هو العثور على الفتاة المناسبة والاحتفاظ بها لابن شقيقي".

قال مانيك: "كبطاقة قطار". وضحك أوم.

قال إيشفار: "لديك عادة سيئة جداً. فأنت تسخر باستمرار من الأمور التي لا تفهمها".

هل هناك خيار آخر، قال مانيك لنفسه. ولكن المجازفة بإغضاب إيشفار أكثر فأكثر أبقته صامتاً.

جاء جواب أشرف في مغلّف يحمل خطوطاً سوداء فوق الطابع البريدي، ويظهر التاريخ، والرمز البريدي للإقليم، وشعار: **عصر انضباط**، تليه علامة تعجّب مهدِّدة على صورة هِراوة.

فانتظروا بفارغ الصبر قيام إيشفار بفتحه ومشاطرتهم الأنباء. جالت عيناه فوق الصفحة برَيبة من لم يعتَد القراءة، متعثّراً بخط يد أشرف المرتجف. فأطلق ابتسامة عريضة مرة واحدة، وبدا بعد ذلك محتاراً، وتجهّم وجهه حين وصل إلى نهاية الرسالة، مما جعل أوم عصبيّ المزاج.

بدأ إيشفار: "السيد أشرف بصحة جيدة، لقد اشتاق إلينا. يقول إن الوقت يمر بسرعة، وهو سعيد لأن أوم سيتزوج، ويقول إنه يوافقني الرأي على عدم وجوب إرجاء الأمر".

"ماذا هناك أيضاً؟".

تنهّد إيشفار. "لقد تحدّث إلى أشخاص من مجتمعنا".

"وماذا أيضاً؟".

"هناك أربع عائلات شامارية مهتمة". وتنهد مجدداً.

قال مانيك، ضارباً على ظهر أوم: "فلتكن سعيداً، أنت مطلوب بشدة". وأبعد أوم يده.

"ولكن، يا سيد إيشفار، يُفترض بك أن تكون مسروراً بالنبأ"، قالت دينا، "لماذا أنت شديد القلق؟ أليس هذا ما أردتَه؟".

أعاد ترتيب الورقتَين كما لو أنه يتمنى وجود المزيد. "هذا الجزء يُسعدني. تكمن الصعوبة في الجزء الآخر".

وانتظروا. سأل أوم: "هل تخطط لإخبارنا اليوم أم غداً؟".

حك إيشفار بإصبعه خدّه المشوّه. "العائلات الأربع المهتمة على عَجَلة من أمرها. كما ترون، هناك أفرقاء آخرون لديهم أبناء للزواج. لحسن الحظ، دعم السيد أشرف موقفنا، مدّعياً أن أوم يعمل لصالح شركة تصدير كبيرة في المدينة، وهو خيار جيد لأي فتاة. لذلك، تريدنا العائلات أن نختار في مهلة لا تتخطى الأسابيع الثمانية القادمة".

قالت دينا: "إنه سريع جداً، سيكون عليك رفض ذلك".

خلال العام الذي أمضاه وابن شقيقه في العمل لدى دينا، لم يرفع إيشفار صوته قطّ. وعندما قام بذلك في تلك اللحظة، أجفل الجميع، وهو أيضاً.

"من تكونين لتُبدي رأيك!؟ من تكونين لتقولي لي ما هو الأفضل لابن شقيقي في هذا القرار الأكثر أهمية في حياته؟ ما الذي تعرفينه عنا، وعن نشأته، وعن واجبي!؟ أتعتقدين أنه يمكنك تقديم النُّصح في هذه المسائل!؟".

لقد ثار غضب إيشفار المسالم، اللطيف، ومعسول اللسان، ولوّح بيدَيه. "أتظنين أنك تملكينني وابن شقيقي؟ لسنا عبدَيك، نحن نعمل لديك فقط! أم أنك تريدين أن تُملي علينا كيف يجب أن نعيش ومتى نموت؟".

بعد ذلك، وبسبب عدم تمرّسه بمشاعر الغضب، وعدم معرفته كيفية وجوب إنهاء ثورة الغضب، انفجر باكياً وفرّ إلى الشرفة.

قالت: "حسناً! افعل ما يحلو لك! ولكن، لا تتوقع مني أن أوفر الملجأ لزوجة وأطفال وأحفاد!".

صاح بصوت حزين: "لا أتوقع أي شيء منك!".

غادرت دينا إلى الغرفة الأمامية لتختلي بنفسها؛ لم تكن واثقة من نفسها أو من لسانها. وجلست على الأريكة بجانب مانيك، مرتجفة.

"اهدئي، يا خالتي، لم يعنِ ذلك حقاً".

قالـت بصـوت مرتجـف: "لا يهمّنـي مـا يعنيـه. ولكنك رأيت ما حصل؟ وسـمعتَ بأذنَيك. بعد كل ما فعلتُه ـ استقبالهما في منزلي، ومعاملتهما وكأنهما من أفراد عائلتي - يصيح في وجهي ككلب. يُفترض بي رميهما في الخارج في الحال".

صاح إيشـفار من الشـرفة: "ارمينا! ارمينا! لا أبالي!". ونخر لتنظيف أنفه الراشـح، وتذوّق الملوحة.

واضعاً إصبعه على شـفتَيه، أشـار مانيك لها بتجاهله. "إنه غير منطقي تماماً في ما يتعلق بهذا الزواج"، قال هامساً، "ما النفع من مجادلته؟".

"فقط لأنني أشـعر بالأسـف على أوم. ولكنك مُحق، الأمر بينه وبين عمه. يمكنهما القيام بما يشاءان. لقد أصبح هذا الأمر مشكلة مع حرف ميم كبير".

سمعهما أوم في الغرفة الخلفية، ووضع وجهه بين يدَيه.

انقضت سـاعات بعد الظهر عبَثاً من دون أن تكشـف عن أي شـيء. كانت رسـالة أشرف موضوعة على طاولة الطعام، وكان عقرب الثواني يتحرّك على الجدار بتثاقل. لم يقم أحد بإعداد الشـاي، ولم يخرج أحد لتناوله. فإيشـفار على الشـرفة، وأوم في الغرفة الخلفية، ومانيك ودينا في الغرفة الأمامية: لم يكن أهل المنزل يقومون بأي حركة.

مالت الشـمس باتجاه الأفق، وبدأ ضوء النهار يتبدل. وهبّ نسـيم عبر كل النوافذ، فحرّك الرسـالة على الطاولة مُصدِراً حفيفاً. سـيحل موعد العشـاء بعد قليل؛ موعد إعداد التشوباتي. كان أوم جائعاً.

جـال أوم بخفَّيـه بخطـى متثاقلة متعمّداً، وشـرب الماء مُصـدراً صوتاً بالكوب. أراد التأثيـر فـي الآخريـن من خلال إحداث ضجيج؛ باسـتطاعة الأصوات الودودة تبديد الجو العدائـي. وجلـس، وضـرب بيدَيـه علـى المقعد قـرب آلة الخياطة كما لـو أنه يقرع طبلاً، وصلصل المقص، وملأ ستة مكّوكات. وقصد بعد ذلك الغرفة الأمامية.

لقد شعرا بالارتياح لدى وصوله، وغمزه مانيك قائلاً: "عليك طلب كبير". ثم انفجر ضاحكاً كقنبلة ذرّيّة في الديفالي.

فضحك أوم ضحكة قصيرة متكلّفة، وقال بصوت منخفض: "لا أعرف كيف أتصرف مع عمي، أنا قلق بشأنه".

سُـرّت دينا حين سـمعت كلماته لأنها تكرار للكلمات التي اعتاد إيشـفار استخدامها في الماضي عندما كان أوم يتصرف بفظاظة، ويخيط بشكل سيّئ، ويسيء التصرف بشكل عام. قالت: "تحلَّ بالصبر".

"ما أمر الزيجات والزفافات التي تُفقد الناس صوابهم؟! يصبح مجنوناً في هذا الموضوع فقط".

قالت دينا مقطَّبة الوجه: "أجل، أليس كذلك؟ إنه يذكّرني بشقيقي".

"انتظري فحسب، سأقوّم اعوجاج عمي". قصد الشرفة حيث كان إيشفار متربِّعاً على الأرض بجانب عدة النوم.

"هل أنت مجنون لتوجّه هذا الكلام إلى شخص أحسن إلينا؟". وشرع أوم بتوبيخه، طاوياً ذراعَيه على صدره.

فرفع إيشفار نظره، وابتسم قليلاً. لقد سمع ابن شقيقه، على غرار دينا، يكرر كلماته. وبعد ثورة غضبه الغريبة، شعر بالارتباك، والسُّخف، والاستعداد للتعويض.

"اذهب في الحال وأعرب للسيدة دينا عن أسفك. قل لها إنك فقدت عقلك ولم تكن تعني تلك الأمور القاسية التي تفوّهتَ بها. اذهب في الحال. قل لها إنك تحترم آراءها، وإن ما تقولَه لا يعنينا. الآن، انهض واذهب".

فرفع عمه يده، وأمسكها أوم وانحنى إلى الوراء ورفعه. وجرّ إيشفار قدميه إلى الغرفة الأمامية، ووقف بخجل أمام الأريكة للاعتذار. بالنسبة إلى دينا، إنه لا طائل من تكرار ما قاله أوم لعمه على الشرفة. ولكنها تسمّرت في مكانها، محدّقةً إلى الجدار إلى يمينها.

بعد نفاد الكلمات منه، تنهّد إيشفار وقال: "يا سيدة دينا، أشكرك على لطفك، وألتمس منك السماح بسبب فظاظتي، وها أنا أجثو عند قدمَيك". وشرع بالانحناء، ولكن تهديدها حال دون متابعته الأمر.

قالت: "لا تجرؤ على القيام بذلك، تعرف ما هو شعوري حيال الأمر. لن نتحدث عن كل ذلك بعد الآن".

"حسناً. إنها مشكلتي، أوافقك الرأي على ضرورة معالجة الأمر في رأسي".

"حسناً. إنه ابن شقيقك، وتقع على عاتقك مسؤولية الاهتمام بمستقبله".

خرق إيشفار الاتفاق في مساء اليوم التالي. كان يتعيّن عليه التعاطي مع المراسلات التي شرع بها، وها هي المحنة القاسية تسبب له نوبات من الشك المعذِّب. لقد خرجت من شفتَيه، وبشكل متقطع، تنهّدات مُرفَقة بطلب العون من رام، واتضح للجميع السبب الحقيقي لانفجاره غضباً في اليوم السابق.

قال متأمِّلاً: "الفرصة مثالية لو لم يصادف حلولها قبل أن نكون مستعدّين لاقتناصها".

قال مانيك: "أوم شاب وسيم، انظر إلى تسريحة شعره. إنه ليس بحاجة إلى حجز

للزواج. إن الفتيات من الدرجة الأولى سيصطففن من أجله بالعشرات".

فدار إيشفار حوله بسرعة، وأشار بإصبعه واضعاً إيّاها على بُعد بوصة واحدة من وجه مانيك قائلاً: "توقف عن الاستهزاء بهذه المسألة الجدّية".

لقد بدا للوهلة الأولى أنه سيضرب مانيك، ولكنه أنزل يده بعد ذلك، وقال: "أَنظر إليك كابن، وكشقيق لأوم. فهل تعاملني بهذه الطريقة؟ تتهكم وتسخر مما هو على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة إليّ؟".

لم يندهش مانيك، وخُيّل إليه أنه يرى دموعاً تتشكل في عينَي إيشفار. وقبل أن يتمكن من طمأنته، تدخّل أوم: "لقد جُننتَ بالتأكيد. لم تعُد تتحمّل المزاح. كل ما تقوم به هو جعل الأمور مأساوية كلما سنحت لك الفرصة".

فأومأ عمه برأسه بوداعة، وقال: "ما العمل؟ أنا شديد القلق حيال هذا الأمر. سأُبقي فمي مُطبَقاً منذ الآن فصاعداً وأفكر بهدوء".

لكنه كان يريد معرفة وجهات نظرهم بشدة، وإجراء نقاش ملائم معهم، والتوصل إلى تسوية مؤاتية للتخلص من هاجسه. بعد دقائق، شرع بالكلام مجدداً: "من يستطيع القول إن فرصة ذهبية كهذه ستتكرر؟ الاختيار من بين أربع عائلات جيدة. يقضي بعض الناس عمرهم من دون العثور على شريك حياة ملائم".

كرر أوم بسأم: "لا يزال الوقت مبكّراً لي للزواج".

"خير البرّ عاجله".

قالت دينا: "ماذا لو توقف عملكما بسبب إضراب أو أمر آخر؟ إنها أزمنة رديئة، لا يمكنك اعتبار أي شيء أمراً مسلّماً به".

"إنه سبب إضافي للزواج. من شأن زوجة جديدة أن تبدّل حياتنا جميعاً نحو الأفضل".

"حتى لو كان ذلك صحيحاً، هل هناك مكان في هذه الشقة الصغيرة؟".

"لن أحلم بطلب مساحة إضافية. الشرفة تكفينا".

"لك ولأوم، ولزوجته؟ ثلاثتكم على الشرفة؟ تبدو الفكرة بالغة السخف. هل تسخر مني؟".

"لا يا سيدة دينا. عندما أذهب في المرة القادمة بحثاً عن مسكن، يُفترض بك مرافقتي لرؤية العائلات أين تقيم. ثمانية، تسعة، أو عشرة أشخاص يقيمون في غرفة صغيرة، وينامون فوق بعضهم على رفوف كبيرة تمتد من الأرض وحتى السقف، أو في الخزائن، أو في الحمام. إنهم يعيشون وكأنهم سلع في مستودع".

"أعرف كل ذلك. ليس عليك أن تُلقي عليّ محاضرة بهذا الشأن. لقد عشت طوال حياتي في هذه المدينة".

قال بحرارة: "مقارنةً مع هذا البؤس، تُعتبر إقامة ثلاثة أشخاص على الشرفة أمراً مريحاً، ولكنني لا أصرّ. إذا لم ترغبي في ذلك، فسنعود إلى قريتنا. فزواج أوم هو الأمر الهام. وما إن يتم ذلك، حتى ينتهي واجبي، ولا تعود هناك أيّ أهمية للأمور الباقية".

بعد أسبوع من وصول رسالة العم أشرف، وجد إيشفار الشجاعة لمواصلة الاختيار بين الزوجات الأربع العتيدات. فكتب رسالة جوابية، مختاراً الكلمات بعناية، وذاكراً أنه سيصل مع أوم بعد شهر. "مما سيمنحنا الوقت لإنجاز الملابس التي أحضرتِها يوم أمس"، قال لدِينا. وما إن وضع رسالته في البريد، حتى عاد الهدوء إليه.

لقد وجدت دينا الأمر محيِّراً: رجل حساس مثل إيشفار يصبح فجأةً غير منطقي. هل يقوم بنوع من أنواع الابتزاز؟ هل يأمل في أن تحملها حاجتها إلى مهاراتهما على استقبال زوجة أوم؟

تعاظم ارتيابها، وكان يتفاقم عندما يشدد على تبدّل حظ دينا إذا أسكنت العروس في هذه الشقة. "ستلاحظين الفَرق لحظة عبورها عتبة منزلك يا سيدة دينا. عُرف عن الكنّات تغييرهنّ مصير أُسَر بأكملها".

أوضحت دينا: "لن تكون كنّتي أو كنّتك".

لكن، لم يكن بالإمكان صدّه بسهولة بسبب اصطلاح تافه. "الكنّات مجرد كلمة. ادعيهنّ كما تشائين. الحظ السعيد لا يتوقف على كلمات".

فهزت رأسها بمزيج من الإحباط والتسلية: إيشفار والخداع لا يجتمعان. فعدم قدرته على إخفاء مشاعره أمر معروف. وإذا كان عقله مشوَّشاً، فإن أصابعه تُظهر ارتباكه؛ فعندما يُسعده أمر ما، تتألّق ضحكته الجزئية بطريقة لا يمكن التحكم بها، وتكون ذراعاه مستعدّتَين لمعانقة العالم. فالاستراتيجيات الماكرة لا تصدر عن طبيعة منفتحة.

تخلّت عن ارتيابها من محاولة الابتزاز. فهذا الأمر يكتسب معنى أكبر لدى التعاطي مع شخص مثل نوسوان قادر على الاحتيال؛ قد يُجَنّ المرء لدى محاولة توقّع أعماله. وتساءلت عما ستكون عليه الحال عندما يحين موعد زواج الفَتيَين. فكزرسس وزارير لم يعودا طفلَين بل صارا رجلَين بالغَين. فهل سيحاول نوسوان اختيار زوجتين لهما، مستخدماً كل الممارسات التي اعتمدها في أثناء محاولته إيجاد زوج لها؟

تذكرت السنوات التي كان فيها ابنا شقيقها صغيرَين. كم كان وقتاً مرحاً، ولكنه قصير جداً. وكم كانا تعيسَين خلال تجادلها مع نوسوان وروبي، ولدى ارتفاع الصراخ والصياح،

غير عالمَين جانب من يتخذان، فهل يركضان إلى والدهما أو إلى عمتهما التماساً لإحلال السلام بينهما. في النهاية، كانت تفتقد إلى الكثير من الأمور: سنواتهما في المدرسة، التقارير المدرسية، أيام توزيع الجوائز، مباريات الكريكيت، أول سروالَين طويلَين لهما. كان ثمن استقلالها مرتفعاً؛ دَيْناً مع جدول للتسديد بواسطة عُملة المشاعر المجروحة والندم. ولكن الخيار الآخر – العيش تحت سلطة نوسوان ـ لم يكن بالإمكان تخيّله.

كالعادة، ولدى العودة إلى الماضي، تقتنع دينا أنها تكون في حال أفضل عندما تعيش بمفردها. لقد حاولت أن تتخيل أوم رجلاً متزوجاً وبجانبه زوجة ذات وجه صغير وناعم الملمس كوجهه؛ صورة فوتوغرافية عن الزفاف: أوم يرتدي ملابس جديدة منشّاة، ويضع عِمامة زفاف باهظة الثمن، وزوجته ترتدي الساري الأحمر، وتضع قِلادة متواضعة، وحلقات في الأنف والأُذُنَين، وأساور، ومُقرِض المال سعيد بربط الحبل حول عُنُقَيهما. كيف ستبدو؟ كيف ستبدو الحال عندما تعيش امرأة أخرى في هذه الشقة؟

بدأت صورة تتشكل في ذهن دينا، وتركتها تتّضح لمدة يومين، مُضيفةً إليها العمق والتفصيل، واللون والجوهر. زوجة أوم واقفة عند الباب الأمامي، رأسها منخفض بوقار، وعيناها تتلألآن عندما ترفع نظرها، وفمها يبتسم خجلاً، وشفتاها مغطاتان بأصابعها. وتمر الأيام. فتجلس المرأة الشابة أحياناً بمفردها قرب النافذة، وتتذكر الأماكن التي هجرتها. وتجلس دينا بجانبها، وتشجعها، وتتحدث إليها، وتخبرها أموراً عن الحياة. وتبدأ زوجة أوم بالتحدث أخيراً. مزيد من الصور، ومزيد من الروايات...

في اليوم الثالث، قالت دينا لإيشفار: "إذا كنت تظن بحدّية أن الشرفة كبيرة بما يكفي بحيث يمكن أن تتّسع لثلاثة أشخاص، يمكننا المحاولة".

لقد سمع ما قالته وسط الأصوات التي تُصدرها آلة الخياطة، وأوقف دولاب ضبط السرعة، واضعاً يده فوقه.

قالت: "من الجيد أنك تقود آلة خياطة وليس سيارة، ففي حال كنت تقود سيارة لاقتدت ركابك إلى العالم الآخر مباشَرةً".

فقفز عن كرسيّه ضاحكاً وهو يقول: "يا أوم! يا أوم! اسمع!"، نادى باتجاه الشرفة، "قالت السيدة دينا أجل! تعالَ إلى هنا. تعالَ واشكرها!". وأدرك بعد ذلك أنه لم يشكرها بنفسه بعد. "شكراً لك يا سيدة دينا!". وضمّ يدَيه. "مرةً أخرى، أنت تساعديننا بطرائق لا يمكننا مجازاتك عليها!".

"إنها مجرد محاولة. اشكرني لاحقاً إذا نجح الأمر".

"سينجح، أعدك بذلك! كنت مُحِقاً بشأن الهرة... وعودة الهررة الصّغار... وسأكون

مُحِقاً في هذا الأمر أيضاً، صدقيني"، قال وقد انقطعت أنفاسه من شدة فرحه، "النقطة الرئيسة هي أنك راغبة في المساعدة. الأمر أشبه بتلقّي أفضل تمنياتك وبركاتك. إنه الأمر الأكثر أهمية، الأكثر أهمية".

تبدّل الجوّ العام في الشقة، ولم يتمكن إيشفار من التوقف عن الابتسام للدرزات. "سيكون الأمر ممتازاً، يا سيدة دينا، صدّقيني، سيكون أفضل لنا جميعاً. ستكون مفيدة لك أيضاً. يمكنها تنظيف المنزل، والذهاب إلى البازار، والطهو لـ ...".

استفهمت بنبرة تهكمية: "هل تتدبّر زوجة لأوم، أم خادمة؟".

قال لائماً: "لا لا، لن تكون خادمة. لماذا يجعلها ذلك خادمة إذا كانت تقوم بواجباتها كزوجة؟ أين يجد الناس السعادة إذا لم يقوموا بواجباتهم؟".

قالت: "لا يمكن أن تكون هناك سعادة من دون إنصاف. تذكّر ذلك، يا أوم... لا تدَع أحداً يقول لك غير ذلك".

قال مانيك مُخفياً عن وجهه الحزن الذي لا يمكن تفسيره: "بالضبط، وإذا أسأتم التصرف، ستنهال عليكم ضربات مظلة باشان والمظلة المماثلة للمعبد".

شعرت دينا بأن مَنحها موافقتها على زواج أوم وإقامته مع زوجته على الشرفة قد أضفى الشرعية على الدور الذي تلعبه في زواج أوم، ومنحها بعض الحقوق. كان يتصرف بشكل جيد في الأشهر القليلة الماضية، قالت لنفسها. لقد زال حكاك رأسه وبات شعره سليماً، ولم يعُد يتقطّر منه زيت جوز الهند. يعود الفضل في هذه النقطة الأخيرة لمانيك ولكرهه وضع مواد دهنية على الشعر.

ببطء، ولكن بطريقة مؤكدة، أعاد أوم قَولبة نفسه وفقاً للصورة المنطبعة في ذهن مانيك، بدءاً بطريقة تصفيف الشعر، مروراً بالشاربَين غير الكثيفَين، وانتهاءً بالملابس. وأعدّ لنفسه في الآونة الأخيرة سروالاً يتّسع تدريجياً باتجاه الأسفل، بعد أن اقترض سروال مانيك لإعداد النموذج. حتى إن رائحته باتت شبيهة برائحة مانيك، وذلك بفضل صابونة سينتول سووب وبودرة لاكمي تالكوم باودر. وأخذ مانيك بعض الأمور عن أوم أيضاً. فبدلاً من انتعاله حذاءً وارتدائه جوارباً باستمرار في الطقس الحار، فتفوح من قدمَيه رائحة كريهة في نهاية اليوم، بات ينتعل خفَّين.

لكن التقليد لم يؤدِّ إلا إلى إظهار الفارق بين الاثنين: مانيك قوي البنية، وأوم نحيل كعصفور. فإذا كان على أحدهما أن يصبح زوجاً، قالت لنفسها، فهو مانيك لأنه أكثر استعداداً لذلك، وليس أوم، ذلك الفتى الهزيل في الثامنة عشرة من عمره.

مرة أخرى، أدركت النُّحول المُجهِد الذي يندفع بسرعة في أرجاء الشقة، ولا

سيما في المطبخ، وفي الأمسيات، عندما يفتنها منظر أصابعه المكسوّة بالدقيق حين يُعِدّ العجين والتشوباتي، ويتحرك المِشبَك تحت يدَيه. كانت مهارته وسروره بالقيام بهذا الأمر يستحوذان على انتباهها ويحملانها على الرغبة في التخلي عن مهامها الروتينية للوقوف والتحديق إلى ما يقوم به.

فكّرت مليّاً في الوقت الذي أمضاه أوم في شقتها. لقد راقبته وهو يلتهم وجبات طعام منشّطة، ولكن بكميات ضئيلة، مما يشطب أحد الاحتمالات: لم يكن دون الوزن الطبيعي لأنه يتناول طعاماً غير مغذٍّ. وظهرت مجدداً ريبتها الأصلية التي انتابتها منذ عام.

قالت خلال مناقشة المسألة مع إيشفار: "لن يكون ذلك كافياً. بفضلك، سيضطلع الفتى بمسؤولية كبيرة. ولكن، أي زوج ووالد سيكون بمعِدة مليئة بالديدان؟".

"كيف يمكنك أن تكوني واثقة إلى هذا الحد يا سيدة دينا".

"إنه يشكو من ألم في الرأس، ويحك أماكن خاصة، وهو يأكل كثيراً ويبقى نحيلاً. إنها دلالات واضحة".

في اليوم التالي، أرت إيشفار قنينة الدواء داكنة اللون المحتوية على طارد ديدان الأمعاء، والتي اشترتها من الصيدلية. "إنها أفضل هدية زفاف يمكنني تقديمها للفتى".

كان يتعيّن عليه تناول السائل زهريّ اللون جرعةً واحدة. فتفحّصه، وفتح السدادة ليشم الرائحة. كم سيكون الأمر جيداً لو شفي أوم قبل الزفاف، قال لنفسه. "ولكن ماذا لو لم تكن الديدان هي السبب؟".

"لا بأس، لن يشكل الدواء أي ضرر. إنه مطهِّر ليس إلا. عليه الامتناع عن تناول الطعام هذا المساء، وتناوله في وقت متأخر من الليل. انظر، طريقة تناول الدواء مشروحة على اللُّصاقة هنا".

لكن التوجيهات كانت معقَّدة بالنسبة إليه نظراً إلى معرفته المحدودة باللغة الإنكليزية والمقتصرة على بعض الكلمات كالصدر، والكمّ، والياقة، والخصر. ووعد بحمل ابن شقيقه على ابتلاع الدواء قبل خلوده إلى النوم.

الجزء الأكثر صعوبة كان إقناع أوم بإغفال العشاء. قال متذمّراً: "إنه أمر غير عادل، تجعلون الطاهي الذي يُعدّ لكم التشوباتي يتضوّر جوعاً".

"إذا أكلتَ، فستأكل الديدان أيضاً. يجب إبقاؤها جائعة ومنتظرة داخل معدتك، وأفواهها مفتوحة على اتساعها. وهكذا، عندما تتناول الدواء، ستبتلعه بلهفة وتموت".

فقال مانيك إنه شاهد ذات مرة فيلماً سينمائياً عن طبيب أصبح بالغ الصِّغر بهدف دخول جسم المريض ومكافحة المرض. "يمكنني اصطحاب سلاح بالغ الصِّغر وإطلاق

النار على ديدانك".

قال أوم: "بالتأكيد، أو مظلة بالغة الصِّغر لطَعنها. عندها، لن أكون بحاجة إلى تناول هذا الشيء المثير للاشمئزاز".

قال إيشفار: "أنت تنسى أمراً واحداً، إذا كنتَ بالغ الصِّغر داخل المعدة، فستكون الديدان كأفاعي الكوبرا والأصَلات العملاقة، وستحتشد المئات منها حولك، وتهتاج غضباً، وتهسهس".

قال مانيك: "لم أفكر في ذلك، انسَ الأمر. أنا أُلغي رحلتي".

توقفت دينا عن العدّ بعد دخول أوم الحمّام سبع مرات في صباح اليوم التالي. قال متأوّهاً: "قُضي عليّ، لم يتبقَّ منّي شيء".

وفي وقت متقدّم من بعد الظهر، خرج من الحمّام مرتجفاً ولكن منتصراً. "لقد خرجت! بدت كما لو أنها أفعى صغيرة!".

"هل كانت تتلوّى أو ميتة؟".

"تتلوّى بجنون".

"هذا يعني أنه لا يمكن للدواء أن يقضي عليها. يا لها من طُفيلية قوية! كم كان حجمها؟".

ففكّر للحظات ورفع يده. "من هنا إلى هنا"، وأشار من طرف إصبعه حتى المَعصم. "ثماني بوصات تقريباً".

"الآن تعرف سبب كونك شديد النحول. هذه المخلوقة الشريرة وأبناؤها تأكل غذاءك. هناك مئات المَعِدات داخل معدتك، ولم يصدّقني أحد منكم عندما قلت إنها ديدان. لا تقلق، لن يمر وقت طويل حتى تَسمُن بعض الشيء. ستكون بنيتك الجسدية قوية مثل مانيك قريباً".

قال مانيك: "أجل، أمامنا ثلاثة أسابيع لجعلك زوجاً قويّاً".

أضاف إيشفار: "ولجعلك والداً لنصف دزينة من الأبناء".

قالت دينا: "لا تُسئ النُّصح. ابنان فقط، أو ثلاثة. ألم تسمع بالمخطط العائلي؟ تذكّر يا أوم، عامل زوجتك باحترام. لا تصرخ في وجهها أو تزعق أو تضربها. وهناك أمر واحد أكيد، لن أسمح بوجود أي جهاز طبخ يعمل على الكيروسين على شرفتي".

فهم إيشفار ما تُلمح إليه، فاعترض قائلاً إن الوفيات التي يعود سببها إلى الدوطات وإحراق الزوجات تحدث وسط أفراد الطبقة العليا الجشعين، وإن مجتمعه لا يقوم بمثل هذه الأمور أبداً.

"حقاً؟ وماذا يقول مجتمعك عن الأطفال الذكور والإناث؟ وعن الأفضليات؟".

قال: "لا يمكننا تحديد هذه الأمور".

تطلّب شفاء أوم من ديدان الأمعاء يوماً واحداً. وفي مساء اليوم التالي، وضع مانيك خططاً للاحتفال بعودة شهية أوم، وذلك بتناول طعام لذيذ وشرب ماء جوز الهند على الشاطئ.

قال إيشفار: "أنت تُفسد ابن شقيقي".

"ليس حقاً. إنها المرة الأولى التي أدعوه فيها لتناول الطعام. في السابق، كانت دودته تأكل كل شيء".

حدّق إيشفار إلى الرجل الواقف عند مدخل الباب، محاولاً تمييزه، لأن صوته مألوف بخلاف وجهه. وأجفل بعد ذلك عندما عرف جامعَ الشعر الذي بات مختلفاً إلى حدٍّ كبير. كانت فروة رأسه ملساء وبرّاقة، وشارباه محلوقَين.

"أنت! من أين أتيت؟". وتساءل عما إذا كان عليه أن يطلب منه الكفّ عن إزعاجهم، أم تهديده بالاتصال بالشرطة.

وقف راجارام متهدّل الكتفَين ومطأطئ الرأس، من دون أن ينظر إلى عيني إيشفار وقال: "لقد جرّبتُ حظي، مرّت عدة أشهر، ولم أعرف ما إذا كنتما لا تزالان تعملان هنا".

"ماذا حلّ بشعرك الطويل؟"، سأل أوم، وطقطق إيشفار بلسانه، غير موافقٍ على طرح هذا السؤال. لم يشأ قيام علاقة وديّة مع هذا المجرم مجدداً.

قال راجارام: "لا بأس بالسؤال عن شعري". ورفع رأسه. كان فاتر الهمة والنشاط، وعيناه خاليتَين من أي تعبير. "أنتما صديقاي الوحيدان، وأنا بحاجة إلى مساعدتكما. ولكنني أشعر بالسوء... لم أُعِد بعد القرض الذي أدين لكما به".

فكبت إيشفار اشمئزازه. إن التورط مع الشرطة مع تبقّي أيام قبل رحلة الزفاف سيكون الأمر الأكثر دلالةً على سوء الطالع. فإذا كان باستطاعة بضع روبيّات التخلص من القاتل، فإنه سيلجأ إلى ذلك. وعاد إلى الخلف ليسمح لراجارام بدخول الشرفة. "إذاً، ما الخَطب هذه المرة؟".

إنها "مشكلة رهيبة. لا شيء سوى المشاكل. فمنذ تدمير أكواخنا، امتلأت حياتي بعقبات هائلة. أنا على استعداد للتخلي عن العالم".

الحمد لله على الخلاص منه، قال إيشفار لنفسه.

قالت دينا: "اعذروني. أنا لا أعرفك حق المعرفة، ولكنني كمؤمنة يدفعني إيماني إلى القول إن الانتحار عمل غير صحيح، ولا يجب على البشر اختيار وقت موتهم وإلا

لكان سُمح لهم باختيار لحظة ولادتهم".

حدّق راجارام إلى شعرها، ومرت لحظات قبل أن يجيب. "إن اختيار النهاية لا علاقة له باختيار البداية. فالاثنان منفصلان. على أيّ حال، لقد أسأتِ فهمي. كل ما عنيتُه هو أنني أريد الابتعاد عن العالم المادّي، وأن أصبح ناسكاً وأمضي حياتي في التأمل داخل كهف".

فاعتبرت ذلك تهرّباً وقالت: "الأمران متماثلان".

قال مانيك: "لا أوافقك الرأي".

قالت: "رجاءً، لا تقاطعني يا مانيك". والتفتت إلى راجارام مجدداً. "وكيف هي مجموعة قص الشعر الخاصة بي؟ هل لا تزال تعمل جيّداً؟ إنها من صنع إنكليزي، تذكّر".

فشحُب وجهه: "أجل، إنها من الدرجة الأولى".

بعد ذلك، كفّ عن التكلم عن نفسه بحضور مانيك ودينا. "هل يمكنني شراء كوبَين من الشاي لصديقَيّ؟ ما هو المطعم الذي تقصدانه؟ أرام؟".

قال إيشفار: "فيشرام". وتحقق مما إذا كان يملك ما يكفي من المال في جَيبه لدفع ثمن الشاي. فبالرغم من أن جامع الشعر هو من دعاهما، فقد ينتهي به الأمر بتسديد التكلفة.

ساروا بصمت إلى الزاوية، وجلسوا إلى الطاولة المنعزلة. فلوّح الطاهي من زاويته بيدٍ ملوَّثة بالزيت وقال: "وقت القصة!"، صاح بسعادة، "وما هو موضوع اليوم؟".

ضحك الخياطان، هازّين رأسَيهما. قال إيشفار: "يرد في القصة أن صديقنا عطشان إلى شايك المميَّز. لقد قدم من مكان بعيد جداً لرؤيتنا".

فنظر إليه راجارام بحرَج؛ لقد نسي مدى صِغر فيشرام وكثرة روّاده. ولكنه كان ممتناً للخصوصية التي تؤمّنها ضوضاء أجهزة الطبخ الهادرة.

سأل أوم: "إذاً، ما قصة النُّسك الزائفة تلك؟".

"لا، أنا جَدّي. أريد التخلّي عن العالم".

"ماذا حلّ بالحلاقة؟".

"هنا بدأت كل المشكلة. لقد باءت محاولتي بالفشل منذ اليوم الأول. لقد جعلتني السنوات التي أمضيتها في جمع الشعر عديم النفع في الحلاقة".

لم يكن إيشفار راغباً في تصديق كلمة واحدة مما يخرج من فم القاتل. "أتعني أنك نسيت كيفية قص الشعر؟".

"أسوأ من ذلك. فكلما جلس زبون على الرصيف وطلب قص شعره، ينتهي به

الأمر أصلع تقريباً".

"وكيف حدث ذلك؟".

"شيء ما يحدث لي. فبدلاً من تشذيب الشعر للقيام بقصة محدَّدة، أقصّ كل شيء. الأمر مُضحك بطريقة ما. كان بعضهم لطفاء ومهذّبين، وقالوا لي بعد أن رفعتُ المرآة، جيد، جيد جداً، شكراً لك. لم يريدوا على الأرجح جرح مشاعري والقول لي إنني حلاّق رديء. ولكن معظم الزبائن لم يكونوا لطفاء، بل كانوا يصرخون غاضبين، ويرفضون دفع أُجرتي، ويهددون بضربي. ولم أستطع التحكم بمِقراضي ومِقصي. لقد غدت عادة جمع الشعر لديّ قوية جداً لدرجة أنني أصبحت كالمسخ".

انتشر خبر المهووس مع مِقصه، ولم يعُد أحد يتوقف عند كشكه على الرصيف. وسرعان ما نفدت منه الخيارات؛ كان عليه العمل كجامع شعر مرة أخرى، وبدوام كامل. ولكن، هناك مشكلة: لا مكان لديه لتخزين أكياس قُصاصات الشعر ذات القيمة المنخفضة. "وما كان باستطاعتكما الاحتفاظ بها في صندوقكما الكبير أيضاً. أنتما بحاجة إلى مستودع صغير لذلك. لقد رأيتما كوخي في المستوطنة وكم كان مكدَّساً من الأرض حتى السقف".

ففرك راجارام يدَيه وهز رأسه قائلاً. "لو كان بإمكاني الحصول على مجموعة واحدة فقط من الشعر بطول اثنتَي عشرة أو أربع عشرة بوصة في الأسبوع، لتمكنتُ من الاستمرار في عملي وضمنتُ لنفسي وجبة واحدة في اليوم. ولكن لم يكن هناك شعر طويل في بَختي".

قال أوم، مقاطعاً: "ماذا عن الرُّزَم التي تركتها مع شانكار؟ كانت تحتوي على شعر طويل".

قال: "حدث ذلك في وقت لاحق، كن صبوراً، أنا أُدلي باعتراف كامل"، وحدّق بلهفة بائسة إلى البعيد كما لو أنه موكب استعراضي لجميلات طويلات الشعر ثم قال: "لن أفهم أبداً سبب تعلّق النساء بشعرهنّ الطويل. إن النظر إليه ممتع، صحيح، ولكن الاعتناء به يسبب كثيراً من العناء".

تناول رشفة من الشاي، ولعق شفتَيه وتابع: "لم أكن مستعداً للاستسلام، ليس بعد، وبدأتُ بتقديم قصات مجانية للمتسوّلين، والمتشرّدين، والمخمورين". ففي وقت متأخر من الليل، وبعد الانتهاء من تناول الشراب المُسكِر، يقترب من ذوي الشعر الطويل. كان القليلون بحاجة إلى الإغواء بقطعة نقدية صغيرة. وإذا كانوا في غيبوبة، أو يشعرون بوهَن كبير لإدراك ما يحدث، يتمكن من قص شعورهم.

لكن المغامرة فشلت؛ كانت غلاله منخفضة الجودة، وقال العميل إن هذا النوع

من الشعر الطويل المشبَّك والقذر يوازي بجودته قُصاصات حلاّقي الرصيف. كما وأن عمليات التسليم أصبحت غير منتظمة عندما بدأت الشرطة بأخذ المتسوّلين من الشوارع عملاً بحالة الطوارئ وفقاً لقانون التجميل.

جائعاً ومتشرّداً، كان راجارام يحدّق بتَوق كبير إلى النساء اللواتي يمررنَ بضفائرهنّ المتدلّية والمُغرية، مستفزّات إيّاه بالثروة التي يحملنَها على رؤوسهنّ. كان يختار إحداهنّ أحياناً ويلحق بها؛ سيدة مجتمع أنيقة مرشَّحة لزيارة مصفف الشعر لتشذيب ضفائرها. لقد أوصلته النساء اللواتي تبعهنّ إلى منازل صديقاتهنّ، وعيادات الأطباء، ومعالجي الأمراض عن طريق الادعاءات، والمطاعم، ومتاجر الساري، ولكن ليس إلى صالون لتصفيف الشعر.

ودقّق بالرجال طويلي الشعر أيضاً: هيبيّين، أجانب ومحليّين، بخرَزاتهم ولِحاهم... الأجانب بأحذيتهم الخفيفة وبيجاماتهم، والمحليين بصنادلهم، وسراويلهم العريضة عند الأقدام وقمصان التي-شيرت، وتفوح من الجميع رائحة كريهة. فتساءل عن المبلغ الذي يعود عليه رأس من الشعر الأشقر أو الأحمر، ولكنه لم يتكبد عناء اللحاق بهم لأنه يعرف أنهم لن يقصوا شعرهم أبداً.

من المؤسف، قال مفكراً، أن يكون ذلك الشعر موثَّقاً بإحكام برأس مالكه، مما يجعل سرقته أمراً شديد الصعوبة؛ أكثر إحكاماً من حقائب اليد التي يتم التشبّث بها، وأكثر التصاقاً بالجسم من محفظة مكتنزة في سروال ضيّق جداً، وبعيداً عن متناول أصابع النشّالين الأكثر مهارة أو أصابع نشّالي الشعر. فمن المُذهل حقاً التفكير في أن شيئاً جميلاً وخفيف الوزن كالشعر يمكنه التشبّث بالرأس إلى هذا الحد. وطريقة تشبّث جذوره في فروة الرأس أشبه بشجرة تين بَنغال متجذّرة في الأرض، ما لم يُصَب بالصلَع، بالطبع، ويسقط الشعر.

ولتمضية الوقت، أخبر راجارام الخياطَين بحلم رآه، وكان فيه أول من يمتهن نَشل الشعر. وحلم بتطوير نظام يتغلّب على الممانعة الطبيعية للشعر السليم بالتخلي عن الرأس، كابتكار مادة كيميائية مثلاً تُذيب جذور الشعر لدى رشّها على فروة رأس الضحية من دون إفقاد الشعر بريقه، أو كلمات عجيبة تفتن لبّ الفرد وتجعل الشعر يقفز عن رأسه كما كان النساك الهندوس يفعلون لحمل ألسنة اللهب على القفز من قُرمة حطَب مشتعلة، أو لجعل المطر يهطل.

استنتج أن نشّال الشعر لا يحتاج في الواقع إلى ابتكار جديد أو قوة خارقة: إن التقنيات المتوافرة لنَشل الجيوب تكفي مع إدخال بعض التعديلات عليها. فمن السهل اعتماد هذه التقنيات تقريباً في الأماكن المكتظة. لقد عُرف عنهم استخدام شفرة حادّة

لإخضـاع جَيـبٍ مُحكَـم الإغلاق. كان لا يزال يحتفظ بمقصّه القاطع؛ بحركة قَصّ واحدة يحصل على الشعر.

في مرحلة من المراحل، اتخذت أفكار راجارام الخيالية مظهراً جدّياً. لقد بدأ يعتقد بعدم وجود رابط أخلاقي بين نَشـل الجيوب وقص الشـعر عُنوةً. فأحدهما جريمة تجرّد الضحايـا مـن أموالهـم، والآخر عمل جيد، يخفّف شـيئاً مُعرقِلاً، إزالة مرعى حيث يتكاثر القمل، مما يوفر على الضحايا الوقت والجهد وفروات رأس مثيرة للحكاك، ناهيكم عن نفقات الشامبو والمستحضرات الخاصة بالشعر. لقد شعر بأن كلمة ضحية تكاد لا تكون الكلمة الصحيحة في هذه الحالة. أما كلمة مسـتفيد فهي أكثر دقة بالتأكيد. ومما لا شـك فيه أن الغرور هو ما يحول دون تحقيق الناس مصلحتهم الخاصة، ومن الضروري مدّ يد العون لهم. على أيّ حال، إن ما يفقدونه هو مؤقت لأن الشعر ينبت مجدداً.

قـال: "بـدأتُ بالتـدرب بجدّيـة"، ممرّراً يده على رأسـه الأصلع عندما قام الخياطَين بتبديل مكانَيهما على المقعد في فيشرام الذي ساد الصمت فيه في أثناء سرد جامع الشعر قصته، "لقد تنقلت بين الضواحي حتى عثرت على مكان في الريف القاحل حيث يكون باستطاعتي التدرب على الأداء".

هناك، وبعيداً عن أنظار الناس المحدّقة، ملأ كيساً بالصحف لصنع كرة بحجم رأس الإنسان، ولكن أكثر خفة منه بما يكفي ليتأرجح عند أقل لمسة بينما يكون مدلّى من غصن بواسطة خيط مصّيص. وثبّت بالكيس مجموعات كثيفة من الخيطان، ومن ثمّ شرع بقطعها من الأسـفل من دون هزّ الكيس. ولمزيد من التنويع، كان يصنع ضفائر من الخيطان، أو يعلّقها على صورة تسريحة ذَيل حصان، أو يُفلتها كخُصَل مُسدَلة كشلال.

بتحسّـن مهاراته، عدّل النموذج ليحاكي واقع الحياة، فكان يحمل كيسـاً من قماش تحـت الضفيـرة لالتقاطها بعد سـقوطها، ويُلقـي بالمقص داخل الكيس، ويُقفله؛ كل ذلك بحركـة سلسـة. وتمـرّن فـي أماكـن ضيّقة جداً لتدريب يدَيه على العمل وسـط الحشـود. وعندما أنهى تمريناته، عاد إلى شوراع المدينة وبازاراتها المكتظة.

سأل إيشفار: "ولكن، لماذا قمتَ بهذا العمل المجنون؟ إذا انهار عملك في الشعر، ألـم يكن من الأسهل جمع شيء آخر؟ صحف، قناني؟".

"كنت أطرح على نفسي السؤال نفسه. الجواب هو أجل. فهناك عشرات الاحتمالات، وأسوأها أن أصبح متسوّلاً. ولكن التسوّل أفضل من المهنة الرهيبة التي شرعتُ بها؛ يسهل عليّ ملاحظة الفرق الآن، ولكنني أُصبت بالعمى آنذاك. فجمع الشعر هو الأكثر صعوبة، وكنـت راغبـاً بشـكل يائـس فـي النجاح به كما لو أن حياتي تعتمـد على ذلك. وهكذا لم

يبدُ مخططي جنونيًّا البتّة".

في الواقع، عندما شرع بتنفيذه، أدرك أنه طوّر نظاماً بارعاً. فقد كان يخترق الحشود، دافعاً الناس بمِرفقه وحاملاً الكيس والمقص، ويختار الضحية (أو المستفيد) بعناية من دون الشعور بنفاد الصبر أو الجشع. لم يكن رأس يحمل ضفيرتَين يُغريه للحصول على الاثنتَين - كان سعيداً بالحصول على واحدة فقط، ويقاوم على الدوام رغبته في قصّ الضفيرة إلى مستوى العنق - إذ قد تكون البوصة أو البوصتَان الإضافيتَان من الشعر سبباً لفشله.

في البازار، بقي راجارام بعيداً عن المتسوّقات اللواتي يصطحبنَ خادماتهنّ مهما كان الشعر نَضِراً. وعلى نحو مماثل، تجنّب النساء اللواتي يسحبنَ وراءهنّ أطفالاً؛ لا يمكن التوقع بردود فعل الأحداث. يجب على المرأة التي يختارها لتحصل على امتياز الاستفادة من مقصه أن تكون بمفردها، والأفضل أن تكون مرتدية ملابس رديئة، منهمكة بشراء الخضار لعائلتها، متأثرة بالأسعار المرتفعة، مساومة بإصرار، أو مستغرقة بمراقبة أوزان البائع وميزانه للتأكد من عدم تعرّضها للاحتيال.

ولكنها سرعان ما تكتشف أنها باتت بلا شعر وتعرّضت لضرب من ضروب الاحتيال. فوسط المتسوّقين المختلِطين ببعضهم بعضاً، تظهر آلة راجارام الحادة من دون أن يلاحظها أحد، وتقص شعر المرأة بسرعة وبشكل جيد. وتسقط الضفيرة داخل كيس القماش، ويتوارى عن الأنظار بعد أن يُريح شخصاً آخر من العائق الذي يُثقل كاهله من دون أن يُدرك ذلك.

عند مواقف الحافلات، اختار راجارام المرأة الأكثر قلقاً على حقيبة يدها التي تثبّتها بقوة تحت ذراعها، شاعرةً بالضيق بسبب الحرارة القوية التي تسبّبها حقيبتها الجلدية أو البلاستيكية لبشرتها، وتسيل على بلوزتها دوائر نصفية من التعرّق الذي ينتشر كالوباء. فانضمّ إلى الركاب كأي عامل آخر مُرهَق يعود إلى منزله. وعندما احتشد الركاب في صفٍّ لدى وصول الحافلة، لم يتمكن المقص من القيام بعمله بسبب عصبية مزاج المرأة.

لم يسبق له أن عمل مرتَين في السوق أو في موقف الحافلات نفسه؛ قد يكون في الأمر مجازفة. ومع ذلك، كان يعود في غالب الأحيان بيدَين فارغتَين إلى مسرح الجريمة (أو الاستفادة) للاستماع إلى الحديث الجاري في البازار.

لم يكن يسمع شيئاً عما جرى. ربما كانت النساء مُحرَجات بإظهار اهتمام زائد بعملية سرقة شعر بعضهنّ، أم إنهنّ لا تصدّقنهنّ أو تظنّنّ أن المسألة لا ترتدي طابع الجدّية.

وفي النهاية، تظهر ملاحظات ساخرة وبارعة عن شعر مفقود أو مسروق. وسرَت فكاهة في المتاجر مفادها أن نسلاً جديداً من القوارض المدينية تطوّر في ظل حالة الطوارئ بعد إزالة الأحياء الفقيرة، ولديه مَيل إلى الشعر النسائي وليس إلى القمامة. وعند أحواض السفن، أبدى عمال إفراغ السفن إعجابهم بالأعمال البطولية لصائد الشعر الغامض، مقتنعين بأنه عملُ أخٍ لهم من الطبقة الدنيا يثأر للقمع، والحِرمان، والاغتصاب، وحلق الرؤوس، التي مارستها الطبقة العليا طوال قرون بحق نساء عشائرهم. وفي أكشاك الشاي والمطاعم، كان أهل الفكر يعلّقون بسخرية قائلين إن برنامج إزالة الأحياء الفقيرة طال أمده بسبب الفساد البيروقراطي: خطأ مطبعي في مذكرة صادرة من منصب عالٍ استبدل عبارة الشرطة المتخصصة بتجميل المدينة بشرطة اختصاصيي التجميل في المدينة، وكيف أن هؤلاء يعالجون مسألة سرقة الشعر كما عالجوا مسألة الأحياء الفقيرة بخشونة. ولم تغِب اليد الأجنبية أيضاً عما يجري، فتجسّدت عميلات في السي آي أيه ينشرنَ روايات عن فقدان الشعر بهدف إثباط عزيمة الأمّة.

قال راجارام: "بما أن الجميع كانوا يُطلقون فُكاهات عن ذلك، لم يكن الأمر مُقلِقاً، وتعززت ثقتي بنفسي، وفكرتُ في التوسع".

فالهيبيون الذين طالما اعتبرهم مستفيدين مثاليين ولكن مستحيلين، أصبحوا محط تركيزه. واكتشف أنهم ينامون في الساعات الأولى من الصباح حول المتجر الذي يزوّدهم بالحشيش.

فإراحة الأجانب المصابين بالخمول من خُصَل شعرهم أمر سهل جداً. وإذا صودف أن أحدهم فتح عينَيه ورأى رفيقاً يُجَزّ شعره، يفترض أن الأمر لا يعدو كونه مجرد هلوسة؛ فيضحك بغباء، أو يهمس بشيء مثل "رجل رائع" أو "واو، برودة حقيقية"، ويعود للنوم.

شعر راجارام بازدهار تجارته أخيراً. فرحّب باجتياح الأجانب للبلد، وذلك بخلاف الجزء المحافظ من المواطنين الذين تذمّروا من الأميركيين والأوروبيين المنحطّين الذين ينقلون عاداتهم القذرة وسلوكهم الاجتماعي الفاسد للشباب سريع التأثر. وما دام الغرباء يملكون شعراً مُسدَلاً حتى أكتافهم أو ما دون ذلك، كان راجارام سعيداً بتدفّقهم إلى المدينة.

في تلك الفترة، استعاد المتسوّلون أماكنهم على الأرصفة بينما كان قانون التجميل في نزاعه الأخير. لقد لاحظت عينا جامع الشعر الاحترافيتان ذلك على الفور. بالطبع، مع ازدهار أعماله، لم يعُد يسعى وراء شعر المتسوّلين القذر والمليء بالعُقد. كان بعضهم يعرفونه ويطلبون منه قص شعرهم مجّاناً، ولكنه كان يتجاهلهم.

قـال راجـارام متنهّـداً بصعوبـة: "ليتني اسـتمررت بتجاهلهم، لكانـت حياتي مختلفة اليـوم. ولكـن مصائرنـا منقوشـة علـى جباهنـا منذ الـولادة. والمتسـوّلون هم من تسـبّبوا بسقوطي، وليس النساء الجميلات في البازارات اللواتي كنت أخشى جداً الاقتراب منهنّ، أو الهيبيّين الذين يتعاطون الحشـيش وكنت أظن أنهم سـيعتدون عليّ بالضرب ذات يوم. لا... فمن تسبب بسقوطي هما متسوّلان عاجزان".

سكت راجارام قليلاً، مُلقياً نظرة على النادل الذي كان يبتسم من وراء المنضدة ولا يزال يأمل دعوته لمشـاطرته القصة. ولكن الخياطَين لم يسـلّما بصحة روايته. قال إيشـفار بهدوء: "نعرف كل شيء عن المتسوّلَين، لماذا كان عليك قتلهما؟".

قال راجارام المروَّع بتعجّب: "تعرفان! ولكن بالطبع! إنه سيد المتسولين... ولكنني لم أقتلهما! أعني، لم... أعني... كان خطأً!"، وأخفى رأسه بين يدَيه فوق الطاولة، عاجزاً عن النظر إلى صديقَيه. ثمّ جلس بعد ذلك بشـكل مستقيم، فاركاً أنفه قائلاً: "تفوح من هذه الطاولة رائحة نتنة. ولكن، ساعداني، رجاءً! رجاءً! لا تدَعا...!".

قال إيشفار: "اهدأ، لا بأس، لا يعلم سيد المتسولين بشأنك. لقد ذكر مقتل متسوّلَيه فقط وسرقة شعرهما. لقد فكرنا فيك على الفور".

قال راجارام وقد بدا مجروح الكبرياء: "تعلمان، كان بالإمكان أن يكون جامع شعر آخـر. هنـاك المئـات منهـم في المدينة. لم يكن عليكمـا التفكير فيّ على الفور"، وازدرد، "إذاً، لم تقولا له شيئاً؟".

"لا شأن لنا بذلك".

"الشـكر للـه. لـم أقصد إلحاق الأذى بالمتسـوّلَين، بل كان خطـأً رهيباً لجهة طريقة حدوثه، صدّقاني".

ذات ليلة، وخلال قيامه بجولاته، التقى صدفة بمتسوّلَين، رجل وامرأة، نائمَين تحت رُواق معمَّد، ورُكبهم مثنيّة في اتجاه معدتَيهما المجوّفتَين. ولو لم يكشف مصباح الشارع عن شـعرهما لَمرّ بقربهما ومضى. لكن الشـعر كان جميلاً، وفي الرأسَـين لمعان جارف، إشـراق قلّما رآه في أثناء أسـفاره الطويلة، شـعر يحلم به المدراء التنفيذيون في الميدان الإعلانـي، ويناضـل الزبائـن للحصول عليه؛ كان بالإمكان اسـتخدام هذا اللمعان للترويج لمنتجات مثل صابون شيكاكاي سوب أو زيت جوز الهند المعطَّر للشعر من إنتاج تاتا.

لكن من الغريب، قال راجارام لنفسه، كيف أن هذا الكنز يزيّن رأسَي متسوّلَين! فجثا بقربهما ولمس الضفائر المتلألئة بأطراف أصابعه بلطف؛ لقد بدت حريرية. وقام بتكويمها بيـده، عاجـزاً عـن المقاومة، ووجد متعةً في ملمَسـها. وتصلّبـت أصابعه كما لو أنها تريد

سرقة سرّ اللمعان والسلاسة.

فتحـرّك المتسـوّلان، مبدّدَيـن أهمية اللحظـة. تذكر راجارام واجبـه المهني، وأخرج مقصه، وشـرع بالعمل بدءاً بالمرأة. لقد شـعر بالأسـف للمرة الأولى في تاريخ مهنته. إن فصـل هـذا الشـعر الرائـع عـن جذوره هو جريمة، قال لنفسـه؛ سـيخبو توهّجـه كما يخبو احمرار زهرة مقطوفة.

ووضع خُصل الشـعر في يده، ولفّ الضفائر ودسّـها في كيس من القماش. وشـرع بعد ذلك بقص شعر الرجل الذي لم يكن بالإمكان تمييزه عن شعر المرأة.

بعد أن فرغ من عمله، اسـتيقظت ورأته جاثماً بجانبها، والمقص يومض في الظلمة كسـلاح فتـاك. فأطلقـت صرخة توقـف القلب عن الخفقان، فاسـتيقظ الرجل الذي أطلق بدَوره صيحات تجعل الدم يتخثّر.

قال راجارام مرتعداً كما لو أنها لا تزال ترنّ في أُذُنَيه: "تلك الصيحات، لقد أخافتني كثيراً. كنت على ثقة تامة بقدوم الشـرطة وضربي حتى الموت. فتوسّـلتُ إليهما لإيقاف الضجيـج. كان كل شـيء بخيـر، ولـم أكـن أريـد إيذاءهما. وقصصتُ خصلة من شـعري لأُريهما بأن ما أقوم به لا يتسبب بأي أذى. فناشدتهما، وأخرجتُ أوراقاً نقدية وعملات معدنية من جَيبي، وأمطرتهما بالمال. ولكنهما واصلا الزعيق من دون توقف! لقد قادني ذلك إلى الجنون!".

فذُعر، ورفع مقصه وطعن المرأة أولاً، ومن ثم الرجل، في الصدر والمعدة: في كل الأماكـن البائسـة التـي تضخّ النفَس وتحثّ الأعضـاء على إصدار تلك الصيحات الرهيبة. وطعن مراراً وتكراراً حتى ساد الصمت أخيراً.

لـم يـأتِ أحـد للتحقـق من الأمر. كانت الشـوارع معتادة على مشـاجرات المجانين الذين يشـعرون بالوحدة وولولة المهووسـين بالمشـروبات. وكان أحدهم يضحك بشـكل هستيري في الجانب الآخر من الطريق، والكلاب تنبح، وجرس المعبد يُقرَع. ففرّ راجارام من المكان، سائراً بسرعة بقدر ما سمحت له جرأته بالقيام بذلك من دون لفت الانتباه.

في وقت لاحق، رمى المقص، وملابسه الملطّخة بالدماء، والشعر. وعندما سنحت له الفرصة، حلق رأسه وشاربَيه لأنه عندما تطرح الشرطة أسئلة على الناس في المنطقة، سـيحرص المتسـوّلون على وصف الشـخص الذي اعتاد التردد على ذلك المكان بانتظام، قاصّاً وجامعاً الشعر.

قـال راجـارام: "ولكننـي لسـت في أمان، بالرغم من مرور أشـهر علـى الحادث، لا تزال الشرطة تبحث عني. الله وحده يعلم لماذا تفتنهم قضيتي، فهناك المئات من الجرائم

الأخرى التي تُرتكب كل يوم". وبرد الشاي في كوبه، وعبس خلال ابتلاعه، ثمّ تابع كلامه: "هكذا، بتّما الآن على معرفة بكل أمر سيّئ الطالع حدث لي. هلاّ تساعدانني؟".

قال إيشفار: "ولكن كيف؟ ربما من الأفضل تسليم نفسك. يبدو وضعك ميؤوساً منه".

"هناك أمل"، سكت راجارام قليلاً، وانحنى في اتجاههما، مثبّتاً عينَيه اللتين كانتا تشعّان قليلاً عليهما وأضاف: "كما قلت لكما في بادئ الأمر، أريد التخلي عن عالم المشاكل والأسى هذا. أريد عيش حياة الناسك البسيطة. أريد التأمل لساعات طويلة في كهف بارد ومُظلم في جبال الهملايا. سأنام على مسطحات صلبة، وأنهض مع الشمس، وأنسحب مع النجوم. أيّاً تكن شدة المطر والريح، فإن ذلك سيكون مفيداً لجسدي الذي سيُمات عن شهواته. سأرمي مشطي، وأُطلق شعري ولحيتي. ستجد مخلوقات بالغة الصغر ملجأ مسالماً فيها، فتحفر وتشق أنفاقاً كما يحلو لها لأنني لن أزعجها".

رفع إيشفار حاجبَيه، وقلّب أوم عينَيه، ولكن راجارام لم يلاحظ أيّاً منهما. فأزاح كوب الشاي ببطء، وعن عَمد، كما لو أنه يؤدي أول عمل لنكران الذات. كانت صورة الناسك المستسلم والشاعري حافزاً لمخيّلته، وقد انعكس ذلك على وجهه.

"سأسير حافي القدمَين، بأخمصَي قدمَيّ وكاحلَيّ المتشققة، الممزقة، والدامية بسبب عشرات الآفات والتشققات، من دون وضع أي بَلسم أو مرهم عليها. ولن تخيفني الأفاعي المتلوّية في طريقي في الأدغال المُظلمة، وستعضّ الكلاب الشاردة كاحلَيّ في أثناء تجوالي في بلدات غريبة وقرى نائية. سأتسوّل طعامي، ويسخر مني الصغار، والبالغون أحياناً، ويرشقونني بالحجارة بسبب خوفهم من ملامح وجهي الغريبة وعينَيّ المضطربتَين المحدّقتَين بداخلي. سأجوع وأتعرّى عند الضرورة، وأتعثّر في السهول الصخرية والتلال شديدة الانحدار. لن أتذمّر أبداً".

كان قد أبعد نظره عن الحاضرَين، وركّزه بحزن وشوق على البعيد، مستهلاً رحلته عبر شبه القارة. لقد بدا متمتعاً بذلك كما لو أنه يخطط لرحلة يقوم بها في إجازة. وفي زاوية الطاهي، فرغ جهاز الطبخ من الوقود، وساد الصمت التام المكان.

لقد أعاد السكون راجارام من حُلم اليقظة إلى الطاولة المنعزلة ذات الرائحة الكريهة في فيشرام. وذهب الطاهي إلى الناحية الخلفية لإحضار صفيحة كيروسين معدنية. فراقبوه يضع القمع ويملأ جهاز الطبخ.

قال راجارام: "لقد أودت بي الحياة الدنيوية إلى كارثة، هذا ما تقوم به معنا جميعاً. ولكن ذلك لا يكون جليّاً كما في حالتي. وها أنا تحت رحمتكما الآن".

قال إيشفار: "ولكننا لا نعرف شيئاً عن كيفية تحوّل المرء إلى ناسك، ماذا تريد منا؟".

"مالاً. أنا بحاجة إلى ثمن تذكرة قطار لبلوغ الهملايا. لديّ أمل بالتكفير عن آثامي... إذا تمكنت من الفرار من الشرطة".

عادا إلى الشقة، وانتظر راجارام عند الباب في حين دخل إيشفار وطلب من دينا السماح له بأن يأخذ من مدّخراتهما ثمن تذكرة للدرجة الثالثة على متن فرونتيير مايل.

قالت: "إنه مالكما، وليس لي أن أُملي عليكما كيفية إنفاقه، ولكنه إذا أراد أن يتخلى عن العالم، فلماذا يحتاج إلى أُجرة قطار؟ يمكنه الوصول إلى هناك سيراً على قدمَيه، مستجدياً على امتداد الطريق على غرار نساك آخرين".

قال إيشفار: "هذا صحيح، ولكن ذلك يتطلب وقتاً طويلاً. إنه في عجَلة من أمره لتخليص روحه".

أخذ المال إلى راجارام على الشرفة، فعدّه، وتردد بعد ذلك قائلاً: "هل يمكنني الحصول على عشر روبيّات أخرى؟".

"لأي غرض؟".

"كلفة إضافية للنوم في مرقد. إن الجلوس طوال الليل في رحلة طويلة على متن القطار هو أمر غير مريح البتة".

قال إيشفار، وكان على وشك استرداد الأوراق النقدية من يدَيه عُنوةً: "آسف، لم يعُد بإمكاننا ادّخار مبلغ أكبر. ولكن، رجاءً، قم بزيارتنا عندما تكون في المدينة، إذ يمكننا تناول الشاي معاً".

قال راجارام: "أشك في ذلك، النساك لا يحصلون على إجازات". بعد ذلك، ضحك بكآبة وغادر.

فتساءل أوم عما إذا كانا سيريانه مجدداً، ثمّ قال: "عادته في اقتراض المال مزعجة، ولكنه شخص مثير للاهتمام. كان يحمل لنا أخباراً عن العالم".

قال إيشفار: "لا تقلق، ستكون كل الكهوف مليئة عندما يصل إلى هناك، وسيعود مع قصة عن وجود لافتة تشير إلى عدم وجود إجازات في جبال الهملايا".

عودة الوحدة

عطست دينا بسبب الغبار وذرّات النسيج خلال قيامها بتنظيف غرفة الخياطة، وفرزت البقايا. كان قد تم تسليم الملابس الأخيرة إلى أوروفوار، وأُعلمت السيدة غوبتا باستراحة الأسابيع الستة.

بدأت دينا تنظر بفضول إلى اقتراب شغور وقتها من أي عمل؛ كما لو أنها تخضع لدورة دراسية تذكيرية في الوحدة، قالت في سرّها. سيكون الأمر بمثابة ممارسة جيدة: من دون الخياطَين، من دون ضيف مستأجِر، بمفردها مع ذكرياتها وتعود إليها كلاً بمفردها وتتفحصها كمجموعة من النقود المعدنية بلمعانها، وفقدان بريقها، ونقوشها النافرة. فإذا نسيت كيفية العيش بمفردها، فستجد في الأمر صعوبة ذات يوم.

وُضِعت جانباً أفضل عيّنات القماش للّحاف، أمّا المتبقّي فقد كُدِّس أسفل الرف، كما دُفعت آلتا الخياطة إلى الزاوية، ووُضع الكرسيّان الخشبيان فوقهما، فتوافرت فسحة إضافية حول السرير. كان صندوق الخياطَين جاهزاً على الشرفة، وخُزّنت الأغراض التي لن يصطحباها معهما في صناديق كرتونية.

مع تبقّي يومَين لرحيلهما وعدم وجود ما يقومان به، بدت الساعات المنقضية غريبة بالنسبة إليهما، متقلقلة ولا تتبع نمطاً واضحاً كما لو أن الدرزات مقطوعة، وخيمة الزمن متهدّلة تارةً ومتماوجة تارةً أخرى.

بعد العشاء، واصلت دينا العمل على اللحاف. فباستثناء فجوة في نهايته تبلغ مساحتها قدمَين مربّعَين، لقد بلغ اللحاف الحجم الذي تريده: سبع أقدام طولاً وستّ أقدام عرضاً. كان أوم جالساً على الأرض يدلّك قدمَي عمه مُراقباً إيّاهما، بينما تساءل مانيك عما ستكون عليه الحال عندما يقوم بتدليك قدمَي والده.

قال أوم: "يبدو ذلك اللحاف جيداً، بالتأكيد، يُفترض به أن يكون مكتملاً عندما نعود".

قالت: "إنه أمر ممكن إذا أضفتُ مزيداً من قطع الأقمشة المتبقية من الأعمال القديمة، ولكن التكرار مُملّ. سأنتظر حتى تتوافر لنا مواد جديدة". وأمسكا بطرفَي اللحاف

ومدّاه. كانت الدرزات المرتّبة تتقاطع كأعمدة متماثلة من النمل.

قال إيشفار: "يا لَجماله".

قالت بتواضع: "يمكن لأي شخص أن يصنع لحافاً، إنها مجرد خِرَق من أقمشة قمتما بخياطتها".

"أجل، ولكن المهارة في جمع القِطع كما تفعلين".

أشار أوم: "انظر، انظر إلى تلك... إنها خِرقة من البوبلين تعود إلى عملنا الأول".

قالت دينا بسرور: "تتذكر ذلك، وكم كنتما سريعَين في إنهاء تلك الملابس الأولى. ظننت أنني عثرت على نابغتَين".

قال إيشفار ضاحكاً في سره: "كانت معدتان فارغتان تحركان أصابعنا".

"ومن ثمّ جاء ذلك الكاليكو الأصفر مع خطوط برتقالية. ويا للفترة الشاقة التي أمضيتها مع هذا الشاب؛ يتشاجر ويجادل حول كل شيء".

"أنا؟ أجادل؟ أبداً".

قال مانيك: "أعرف هذه الزهور الزرقاء والبيضاء، من التنانير التي كنتما تخيطانها يوم انتقالي إلى هنا".

"هل أنت واثق من ذلك؟".

"أجل، إنه اليوم الذي لم يأتِ فيه إيشفار وأوم إلى العمل... كانا قد اختُطفا لحضور اجتماع رئيسة الوزراء الإلزامي".

"صحيح. وهل تتذكر قماشة الشَّف هذه يا أوم؟".

فتبدّل لون وجهه وتظاهر بعدم تذكّرها. قالت مشجّعةً إيّاه: "هيا، تذكّر، كيف يمكنك أن تنسى؟ هي التي أرقتَ عليها دماءك عندما جرحتَ إبهامك بالمقص".

قال مانيك: "لا أتذكر ذلك".

"حدث ذلك في الشهر الذي سبق قدومك. وكان الشيفون مسلّياً لأنه يحمل أوم على فقدان رباطة جأشه. يصعب التعاطي مع هذا النموذج لأنه زَلِق جداً".

انحنى إيشفار للإشارة إلى مربّع من النسيج القطني الخفيف وقال: "هل ترون هذا؟ دمّرت الحكومة منزلنا يوم شرعنا بالعمل بهذا القماش. هذا يحملني على الشعور بالسوء كلما نظرت إليه".

قالت، ممازحة: "أعطني المقص، سأقطعه وأرميه بعيداً".

"لا، لا، يا سيدة دينا، دعيه، يبدو جميلاً في مكانه هناك". ومرر يده على النسيج القطني، مستعيداً الذكريات قائلاً: "إن اعتبار قطعة قماش واحدة مثيرة للحزن هو أمر لا

معنى له. هل رأيتم، إنها متصلة بقطعة قماش أخرى تمنح السعادة؟ النوم على الشرفة. والمربّع التالي؛ التشوباتي. ومن ثم تلك القطعة البنفسجية، عندما أعددنا الماسالا وادا وبدأنا بالطهو معاً. لا تنسوا رقعة الجورجيت هذه عندما أنقذنا سيدُ المتسولين من مشاغبَي صاحب الملك".

عاد إلى الوراء مسروراً بنفسه، كما لو أنه شرح قاعدة رياضية معقَّدة. "إذاً، إليكم القاعدة التي يجب أن تتذكروها: اللحاف ككل أكثر أهمية من أي مربّع منفرد".

"فاه، فاه!"، صاح الفَتيان مع جولة من التصفيق.

قالت دينا: "يبدو ذلك حكيماً جداً".

"ولكن هل هي فلسفة أم زيفٌ؟".

فنفش إيشفار شعر ابن شقيقه انتقاماً.

"توقف، يجب عليّ أن أبدو أنيقاً لأجل زفافي". وسحب أوم مشطه ورتّب فرق الشعر والمكان المنتفخ.

قال مانيك: "تُعدّ والدتي كتلة مستديرة من الأغراض، اعتدنا ممارسة هذه اللعبة عندما كنت صغيراً، فنقوم بفكّها محاولَين تذكر مصدر كل غرض".

قال أوم: "لنجرّب تلك اللعبة باللحاف". فحدّد مع مانيك مكان أقدم قطعة قماش، منتقلَين إلى الأخرى، قطعة تِلوَ أخرى، وفقاً للترتيب الزمني للأحداث، مُعيدَين بناء سلسلة الحوادث التي تعرّضا لها والانتصارات التي حققاها، حتى بلغا الزاوية غير المكتملة.

قال أوم: "نحن عالقان في هذه الفجوة، نهاية الطريق".

قالت دينا: "سيكون عليكما الانتظار، يعتمد الأمر على نوع القماش الذي سنتلقاه لدى تسلّم العمل التالي".

"يا سيد، يجب أن تكون صبوراً. قبل أن تتمكن من تذكر تلك الزاوية، يجب أن ينقضي مستقبلنا أولاً".

سقطت كلمات إيشفار الجذِلة على مانيك كسقوط المطر البارد. المستقبل يصبح ماضياً، كل شيء يتبدد في الفراغ. ومدّ يده للإمساك بشيء ما؛ ماذا؟ خيط، خِرَق قماش، ظلال الزمن الذهبي. ليت أحدهم يستطيع عكس المسار، وتحويل الماضي إلى مستقبل، والإمساك به في أثناء قيامه برحلة عبر خط الحاضر المتبدّل باستمرار...

سألت دينا: "هل تُصغي؟ ما مدى قوة ذاكرتك؟ هل يمكنك تذكّر كل شيء عن هذه السنة من دون النظر إلى لحافي؟".

قال أوم: "يبدو أطول من عام بالنسبة إليّ".

قال مانيك: "لا تكن غبياً، إنه العكس تماماً".

قـال إيشـفار: "كيـف يمكـن للوقـت أم يكون طويلاً أم قصيـراً؟ لا طول ولا عرض للوقـت. تكمـن المسـألة فـي الأحـداث التي جرت خلال مروره. ومـا حدث هو أن حياة كل منا انضمّت إلى حياة الآخر".

قال أوم: "كهذه القطع".

قـال مانيـك إنـه ليس على اللحـاف أن ينتهي بعد امتلاء الزاوية المتبقية، ثمّ أضاف: "باستطاعتك الاستمرار في إضافة قطع إليه، يا خالتي، دعيه يكبر أكثر فأكثر".

قالت دينا: "ها إنك تتكلم من دون تفكير مجدداً، ماذا أفعل بلحاف ضخم؟".

كانـت دينـا هادئـة فـي الصباح. لقد أنهت مهامهـا الروتينية المتعلقـة بالماء، ونظفت أطباق الليلة السابقة بالفَرك، وغسلت الثياب. وأمضت بقية اليوم في جوّ من الفراغ من دون تكتكة آلتي الخياطة. فجلست، وشاهدت مانيك يتناول فطوره في وقت متقدّم من الصباح.

قال محاولاً إبهاجها: "كان يُفترض بك مرافقة إيشفار وأوم، لتمكنتِ من المساعدة في اختيار الزوجة".

"هل تتذاكى مجدداً؟".

"لا، أنا على ثقة تامة بأن اصطحابهما إيّاكِ يُسعدهما. كان بإمكانك الانضمام إلى لجنة اختيار العروس". وغصّ بشريحة الخبز المحمّص، بالعاً اللُّقمة بصعوبة.

فربّتت على ظهره: "ألم تتعلّم عدم التكلم عندما يكون فمك مليئاً؟".

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "إيشفار في حَلقي، يثأر لأنني أسخر من حدَثه الميمون".

"رجل مسكين. آمل فقط أن يكون مدركاً لما يقوم به. وآمل أن تحاول الزوجة التي يختارها، أيّاً تكن، التأقلم مع الواقع ومعنا".

"أنا على ثقة تامة من أنها ستقوم بذلك يا خالتي. لن يختار أوم زوجة سيّئة المزاج أو غير ودودة".

"آه! أعلم ذلك. ولكن، قد لا يكون لديه أي خيار. في هذه الزيجات المدبَّرة، يقرر المتوقعـون والعائـلات كل شـيء. بعـد ذلك، تصبح المرأة مُلـكاً لعائلة زوجها، فتتعرض للإساءة. إنه نظام مروِّع يحوّل ألطف الفتيات إلى مشعوذات. ولكنّ هناك أمراً واحداً يجب عليها أن تفهمه وهو منزلي. عليها اتّباع أساليبي على غرار إيشفار وأوم، وإلا سيكون من المستحيل الانسجام معاً".

توقفت، مدركةً أنها تبدو كحماة، ثمّ قالت مبدّلةً الموضوع: "هيا، أَنهِ تلك البيضة، تبدأ امتحاناتك النهائية غداً؟".

فأومأ برأسه ماضغاً. ثمّ أضافت بينما كانت ترفع ما تبقى من الفطور عن الطاولة: "وتغادر بعد خمسة أيام. هل حجزتَ على متن القطار؟".

قال بينما كان يجمع كتبه لإعادتها إلى المكتبة: "أجل، لقد قمتُ بكل شيء، سأعود قريباً، لا تُعطي غرفتي لأحد يا خالتي".

وصل البريد مع مغلّف من والدَي مانيك. ففتحه، وسلّم شيك الإيجار إلى دِينا، ومن ثم قرأ الرسالة.

قالت مراقبةً وجهه الذي بدأ بالاكفهرار: "والدتك ووالدك بخير، كما آمل؟".

"أجل، كل شيء طبيعي. الأمر نفسه كالعادة. الآن، لقد بدأت تذمّراتهما مجدداً. يقولان: لماذا تريد ارتياد الكليّة لثلاث سنوات إضافية؟ رسوم التعليم ليست المشكلة، ولكننا سنفتقدك. هناك الكثير من العمل في المتجر، ولا يمكننا تدبّر أمورنا بمفردنا، عليك الاضطلاع بشؤون العمل". وضع الرسالة على الطاولة قائلاً: "إذا قررت العودة، فسيكون هناك شجار وصياح كل يوم".

رأته يُطبق قبضة يده، فضغطت على كتفه قائلة: "الوالدان يُربكان بالحياة كأيّ شخص آخر. ولكنهما يبذلان جهدهما".

سلّمها الرسالة، وقرأت ما تبقى منها: "مانيك، أعتقد حقاً أنه يُفترض بك القيام بما تطلبه منك والدتك؛ زيارة عائلة سوداوالا. لم ترهم ولو مرة واحدة طوال هذا العام".

فهزّ كتفَيه، وعبس، ودخل إلى غرفته. وعندما خرج، لاحظت وجود العلبة تحت ذراعه، فسألته: "هل تصطحب معك علبة الشطرنج إلى الكليّة؟".

"ليست لي. إنها مُلك صديق. سأُعيدها إليه اليوم".

في طريقه إلى موقف الحافلة، فكر مليّاً في الرسالة؛ ثورة غضب والدي، كَرب والدتي، شكوكهما ومخاوفهما من خلال كلماتهما. ماذا لو كانا يعنيان ذلك حقاً؟ قد يُجدي الأمر نفعاً هذه المرة، ربما ساعد غيابه الذي دام عاماً والدَه على التكيّف مع التغييرات التي دخلت على حياته.

انحرف عن طريقه قليلاً، ومرّ بجانب فيشرام بهدف التلويح لشانكار. ولكن المتسول لم يلاحظه بسبب صرف انتباهه، مادّاً عُنُقه ومحدّقاً في اتجاه الزاوية. انحنى مانيك، ملوّحاً مجدداً، فعرفه شانكار ضارباً المنصة بصفيحته المعدنية، وسألته: "هل أنت بخير؟ هل غادر صديقاي بأمان؟".

قال مانيك: "أمس".

"كم أن الأمر مثيرٌ لحماستهما! واليوم هو يوم مثير لحماستي أيضاً. سيأتي حلاّق

سيدي وصاحب عملي ليحلق لي. ولكنني أتمنى لو كان إيشفار وأوم هنا. كيف سيستمتعان برؤية وجهي بعد ذلك؟".

قال مانيك: "سأكون هنا، لا تقلق! سأراك غداً". وأكمل طريقه إلى موقف الحافلة.

تبعت عينا شانكار مانيك حتى توارى عن الأنظار وراء الزاوية، وواصلتا بعد ذلك البحث عن الحلاّق. كانت المنصة مسمَّرة في مكانها عند حافة الرصيف، وصفيحة التسوّل فارغة، ولا تُسمَع أغنية التسوّل. لم يَقُم شانكار بأي شيء للفت انتباه مانحي الصدَقات. فكل ما كان بإمكانه التفكير فيه هو التهندم الباذخ، والعلاج الممتع الذي ينتظره على يدَي الحلاّق الشخصي لسيد المتسوّلين.

لم يكن شانكار يعلم أن الحلاّق الشخصي كان قد رفض المهمة في الصباح الباكر. فهو لا يعمل على الرصيف، قال لسيد المتسولين، وأوصى بشخص آخر للمهمة: "أعرّفك براجارام. إنه ممتاز ومنخفض التكلفة، ويعمل على الرصيف".

قال راجارام: "يا رام".

قال سيد المتسولين: "اسمع، قد يكون شانكار مجرد متسوّل ولكنني أحبه كثيراً... وأنا أريد الأفضل له. لا أقصد الإهانة، ولكن لا يمكنني تمالك نفسي عن التساؤل حول مهاراتك. ما مدى معرفة رجل أصلع بأمور الشعر؟".

قال راجارام: "ليس سؤالاً منصفاً، هل يملك المتسوّل كثيراً من المال؟ لا. ومع ذلك، فهو يعلم كيفية التعاطي مع الوضع".

لقد أحب سيد المتسولين الجواب ومنح موافقته. إذاً، فراجارام هو من وصل إلى فيشرام، مزوَّداً بعدة الحلاقة.

وظنّ شانكار أنه يعرف الرجل من مكان ما، لذلك سأله: "هل التقيت بك من قَبل؟".

قال راجارام: "لم يسبق لي أن رأيتك في حياتي". ساعياً إلى قطع كل صلة بالمتسوّلَين المقتولَين. هو يعلم أن بقاءه في المدينة ينطوي على مجازفة كبيرة، ولكنه كان قد قرر أنه من الآمن له استهلال رحلته إلى الهملايا مزوَّداً بثوب ناسك. لم تكن الملابس زعفرانية اللون، والخرَز، والطاسة الخشبية المحفورة باليد، منخفضة الثمن، ولكن العلاوة التي سيمنحها سيد المتسولين لهذا العمل المميَّز سيساعده بالتأكيد.

فربط شرشفاً أبيض حول عُنُق المتسول وحرّك كأساً مليئة بالرغوة بفرشاة الحلاقة. وأحنى شانكار رأسه في اتجاهه لشم الرائحة الزكية، وكاد يفقد توازنه. فدفعه شانكار إلى الوراء قائلاً: "لا تتحرك". قال بنبرة فظة لإثباط عزيمة شانكار بالدخول في حديث معه.

كانت الفظاظة قوتاً منتظماً بالنسبة إلى شانكار، ولكنها لم تكن تستطيع الحد من بهجته،

فقال: "يبدو كما لو أنه كعك منفوخ بالكريما"، قال عندما ارتفعت الرغوة داخل الكأس.

سأل راجارام: "لماذا لا تتناول ملء طاسة منها؟". وبلّل الفكّين ووضع الصابون بسرعة. لقد أدى تحريك الفرشاة على نحو مُهمِل إلى إدخال بعض الرغوة إلى فم شانكار المفتوح. ونسي أيضاً الضغط على المِنخرَين لإغلاقهما في أثناء وضع الرغوة على الشفة العليا. وفتح الموسى وبدأ بشحذ الشفرة البرّاقة.

أحب شانكار صوت الشَّحذ، فسأل: "هل سبق لك أن ارتكبت خطأ بواسطة الموسى؟".

" مرات عدة. إن حَلق بعض الأشخاص شديد الغرابة لدرجة أنه يتعرَّض للجَرح بسهولة. ولا يمكن للشرطة اعتقال الحلاّقين بسبب أحداث تقع في أثناء ممارسة المهنة. إنه القانون".

"من الأفضل لك ألا ترتكب خطأً على حَلقي؛ لديه الشكل الأنسب! وإلا عاقبك سيد المتسولين!".

فبالرغم من تظاهر شانكار بالشجاعة، أنهت الموسى المتوترة دورتها الخطرة على خريطة وجهه. ومسح راجارام بقايا الرغوة التي أغفلتها الموسى، ومرّر الشبّة فوق المنطقة المحلوقة للبشرة الغِرّة.

"دعني أرى وجهي في المرآة"، طلب شانكار، شاعراً بوخزات ألم، وقلِقاً من أن تكون الموسى قد أخطأت بالرغم من كل شيء.

فرفع راجارام المرآة، وألقى المتسول القلِق نظرةً على وجهه، ولكن الشبّة كانت قد أوقفت النزيف ولم يرَ أي قطرات حمراء.

"حسناً، المرحلة التالية تدليك الوجه. إنها تعليمات سيد المتسولين". وسكب قليلاً من الكريم من قنينة في صندوقه، ومسح فكَّيه.

فتسمّر شانكار في مكانه، غير واثق مما تقوم به تلك اليدين القويّتَين. وأرخى رأسه بعد ذلك، سامحاً له بالتحرك وفقاً لعملية التدليك. وأعرب عن سروره بتأوّهات رافقت حركة أصابع راجارام على خدَّيه، وتحت عينَيه، وحول أنفه وفوقه، وعلى الجبين والصُّدغَين، مُزيلاً بالتدليك عُمراً من الألم والعناء.

قال للحلاّق مناشداً عندما توقّف ومسح يدَيه: "قليلاً من التدليك الإضافي، دقيقة إضافية أخرى، أرجوك، يا له من شعور رائع".

قال راجارام مغضّناً أنفه: "لقد أنهيت عملي". لم يسبق له أن استمتع بهذا القدر بتدليك الوجوه، ولا حتى لوجوه الطبقة الوسطى عندما كانت مهنته في أوجها. فلوى أصابعه قبل التقاط المقص والمشط وقال له: "الآن، حان وقت قصّ شعرك".

"لا، لا أريد أن أقص شعري".

"حدّد لي سيد المتسولين ما يتعيّن عليّ القيام به". وأنزل رأس شانكار لتشذيب الشعر الزائد في الناحية الخلفية من العُنُق، والمغادرة.

"لا أريد أن أقصّه!"، بدأ شانكار يصرخ، "قلت إنني لا أريد أن أقصّه! أحب الشعر الطويل!". وهزّ صفيحته المعدنية ليُحدث ضجيجاً، ولكنه لم يجمع المال في ذلك الصباح، ولم تُصدر الصفيحة أي صوت. فضرب الرصيف بها بشدة.

أبطأ المارّون بقربهما لمراقبة الثنائي بفضول، وكفّ راجارام عن الضغط عليه، قلقاً في شأن لفت الأنظار إليه. ثمّ قال بهدوء: "لا تخف، سأقص شعرك بانتباه كبير لتبدو وسيماً".

"لا أبالي بوسامتي! لا أريد أن أقص شعري!".

"لا تصرخ، رجاءً. قل لي ماذا تريد، فأفعل. تدليك فروة رأسك؟ معالجة القشرة؟".

مدّ شانكار يده تحت المنصة وأخرج رزمة وقال: "أنت خبير الشعر، أليس كذلك؟".

فأومأ برأسه.

"أريد منك أن تُصلح شعري". ودفع الرزمة في اتجاهه.

ففتحها راجارام، وانكمش خوفاً عندما انزلقت الضفيرتان إلى الخارج، فسأله: "أتريد منّي ربطهما بشعرك؟".

"ليس ربطهما فحسب. أريد منك تثبيتهما إلى الأبد، وجعلها تنمو في رأسي".

هنا، وقع راجارام في حيرة من أمره. فعندما كان حلاّقاً، حصل على نصيبه من المهام غير العادية: إعداد سيدة ملتحية للسيرك، صنع ضفائر صغيرة لشاب، تصميم تسريحات فنّية لماخور يهدف إلى اجتذاب وزراء ومدراء تنفيذيين في الشركات... لقد تعاطى راجارام مع هذه التحديات وغيرها بثقة بالنفس واحترافية. ولكن طلب شانكار كان يتخطى مهاراته.

قال: "مستحيل".

صاح شانكار: "يجب عليك القيام بذلك، يجب عليك، يجب عليك!". ورفض شانكار الإصغاء إلى شرح الحلاّق وصاح: "يمكن غرس وردة! إذاً، اغرس الضفيرتَين في شعري! أنت الخبير! وإلا شكوتُك لدى سيد المتسولين!".

فتوسّل إليه راجارام التكلم بهدوء، ونسيان أمر الضفيرتَين قليلاً لأنه سيعود في اليوم التالي مع تجهيزات خاصة للعمل المعقّد.

صاح شانكار: "أريد إنجاز الأمر اليوم! أريد شعري الطويل الآن في الحال!".

كان النادل في فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل يراقب من مدخل الباب على غرار

الطاهي. وتوقف مزيد من عابري السبيل، متوقعين حدوث أمر مثير للاهتمام. بعد ذلك، ذكر بائع قسائم اليانصيب المتسولَين اللذين قُتلا منذ أشهر بسبب شعرهما. يا لها من صُدفة، قال، أن تكون الضفيرتان الكثّتان بحوزة المتسوّل.

ازدادت التخمينات. ربما كانت هناك صلة... شعائر يقوم بها المتسولون تتضمن تقديم أُضحية بشرية، وإلا كان هذا المتسول مصاباً بمرض نفسي. وذكر أحدهم سلسلة عمليات القتل التي ارتكبها رامان راجاف المريع قبل سنوات قليلة؛ يوحي مقتل المتسولَين بنموذج مماثل للتعطش إلى الدماء.

مرتجفاً من الخوف، حاول راجارام النأي بنفسه عن شانكار. فوضّب عدّته، وعاد إلى الوراء حتى أصبح جزءاً من الحشد المواجه للمتسول. وانسلّ هارباً في الفرصة الأولى.

فالتفّ الناس حول شانكار، مقتربين منه أكثر فأكثر. لقد أخافه الأمر، وأسف بسبب إحداث كل تلك الجَلَبة مع الحلاّق، ونسيان القاعدة الرئيسة لكل مانحي الصدَقات: يمكن رؤية المتسولين، وسماعهم أيضاً، ولكن ليس بصوت مرتفع؛ ولا سيما في مسائل غير مرتبطة بالتسول.

فشعر برُهاب الأماكن المُغلَقة عندما حجب الحشد نور الشمس عنه، وأصبح رصيفه مُظلماً. فحاول تهدئتهمْ من خلال غناء أغنية التسوّل، لامساً جبينه تكراراً براحة يده المضمَّدة. ولكن الأمر لم ينجح.

صرخ أحدهم: "من أين سرقتَ هذا الشعر، أيها المحتال؟".

قال شانكار باكياً: "أعطاني إيّاه صديقاي". وبدا خائفاً ومغتاظاً بسبب الاتهام الموجَّه إليه.

"قاتل!".

قال آخر مندهشاً: "يا له من مسخ!"، ويتنازعه شعور بالاشمئزاز والإعجاب في آن، "يا لمهارته! حتى من دون أصابع أو ساقَين، يمكنه ارتكاب هذه الجرائم العنيفة!".

"ربما يُخبّئ أصابعه وساقَيه. لدى هؤلاء الأشخاص طرائق لتعديل أجسامهم".

بكى شانكار قائلاً إنه لم يرتكب أي أعمال سيّئة، فهو متسول صالح لم يزعج أحداً ويلازم مكانه الخاص به. ثمّ قال: "ليحفظكم الله إلى الأبد! اسمعوا رجاءً، أحيّي باستمرار الناس الذين يمرّون بي! حتى عندما أشعر بالألم، ابتسم لكم! بعض المتسولين يشتمون إذا كان المبلغ الممنوح لهم مهيناً، ولكنني أمنح بركتي على الدوام سواء أكانت قيمة العملة النقدية كبيرة أم صغيرة! اسألوا كل الذين يمرّون من هنا!".

اقترب رجل شرطة للتحقق من سبب الاضطراب، فانحنى ورأى شانكار وجهه خارج غابة السيقان. وتفرّق الحشد للسماح للشرطي بإلقاء نظرة أفضل. فقرر شانكار

القيام بذلك على الفور أم عدم القيام به البتة، واندفع على منصته وانطلق عبر الفسحة.

فضحك الحشد لدى رؤيته يُلصق جسده بالمنصة، مجذّفاً بذراعَيه. "شالتي كا نام غادي!"، قال أحدهم، مثيراً ضحك أولئك الذين تذكّروا الفيلم السينمائي القديم.

قال آخر: "السباق العالمي للمتسولين!".

بعد مئة متر من فيشرام، وجد شانكار نفسه في أرض لم يختبرها من قَبل. هناك، كان الرصيف منحدراً بشدة، وبدأت الدواليب بالدوران بسرعة أكبر، ومن المستحيل الاستدارة عند الزاوية بهذه السرعة العالية. ولكن شانكار لم يستبق الأمر، وهرب الحشد المروّع.

بلغ نهاية الرصيف وصرخ. وطارت المنصة في اتجاه تقاطع الطرقات الناشط بحركة المرور.

* * *

بقي مانيك في وسط بيت الدرَج، بعيداً عن قوائم الدرابزين الملطّخة بعصارة التبغ وبالتلوّثات الذميمة التي يعلم الله فقط ماهيّتها. وعاد إليه الاشمئزاز القديم في أثناء صعود درجات النُّزُل. كانت الممرات متّسخة بعلب السجائر الفارغة، وحطام مصباح، وقشرة موز مسودّة، وتشوباتي في ورقة صحيفة، وقشرة برتقال. حينها، تساءل إن كان جامع النفايات قد تأخّر أم إن القُمامة ظهرت بعد الانتهاء من عملية التنظيف الصباحية؟

لم يتوقع أن يجد أفيناش في الداخل، ولكنه قرر ترك العلبة مع أحدهم، وربما على المنضدة في الرَّدهة. ولدى الوصول إلى طابقه، التقط أنفاسه في أثناء المرور بجانب الحمّامات. فالرائحة الكريهة التي يمكن تذوّقها في الحَلق تؤكد استمرار حالتها السيئة.

كانت غرفته القديمة شاغرة، والباب غير مُقفَل. فلم يشغلها أحد منذ مغادرته، وكانت لا تزال على حالها كما تركها. لقد بدا الغموض على وجهه كما لو أنه مقسوم إلى نصفَين: نصف لا يزال يقيم هنا، والنصف الآخر يقيم مع الخالة دينا. والسرير الموجود على بُعد قدم من الجدار تستقرّ قوائمه داخل علب صفيحية من الماء. إنها طريقة أفيناش الناجحة لإثباط عزيمة الزواحف. لقد اعتاد أفيناش المزاح قائلاً إنه خيرٌ لمانيك أن يجهل ما يعرفه عن الصراصير وبقّات الأسرّة التي اعتاد تربيتها في مساكن المصنع.

اقترب مانيك، غير متوقّع رؤية ماء في العلب الصفيحية. كانت جافّة وفارغة باستثناء بيوض الصراصير البنّية، وعثّة ميتة، وعنكبوت نعسان. لقد تركت الماء حلقات على القوائم الخشبية. إنها علامته المائية: مرّ مانيك من هنا. والطاولة والكرسي، وهما الشاهدان الأمينان للعديد من جولات الشطرنج، موجودان بقرب النافذة حيث نُقلا للحصول على

إضاءة أفضل. بدا الأمر كما لو أن فترة طويلة قد مرت.

انسحب، وأغلق الباب على الماضي بهدوء. وتفاجأ بسماع أصوات صادرة من الغرفة المجاورة. ماذا سيقول أفيناش عندما يراه؟ ماذا سيقول لأفيناش؟ فاستجمع قواه، ولم يشأ أن يبدو على وجهه القلق وعدم الثقة بالنفس.

فقرع الباب.

فُتح الباب، وحدّق إليه اثنان متوسطا العمر متسائلَين. كانا ذوَي شعر رمادي، وكان خدّا الرجل مجوّفين ويسعل بشكل رهيب، وعينا المرأة حمراوين. لا بد من أنهما والداه، قال في نفسه.

"مرحباً، أنا صديق أفيناش"، ربما كانا يتوقعان انتظار عودته قريباً، وقد يكون في مكان ما من المبنى، "هل تنتظرانه؟".

قال الرجل بصوت ضعيف: "لا، لقد انتهى الانتظار. انتهى كل شيء". وتحركا نحو الداخل ببطء، مُثقلَين بأعباء غير مرئية، وأشارا إليه بالدخول. ثمّ قال الرجل: "نحن والدته ووالده. لقد أحرقنا جثته اليوم".

"عفواً؟ ماذا فعلتما اليوم؟".

"أحرقنا جثته اليوم، أجل، وبعد إرجاء طويل جداً. كنا نبحث عن ابننا طوال أشهر. لقد قصدنا مختلف مراكز الشرطة، ملتمسَين المساعدة، لكننا لم نحظَ بمساعدة أحد".

ارتعش صوته، فسكت، باذلاً الجهد للتحكم به ثمّ قال: "منذ أربعة أيام، أخبرونا بوجود جثة في المشرحة، وطُلب منا التحقق منها".

شرعت الوالدة بالبكاء، وخبّأت وجهها بطرف ساريها. وسدّد سعال الوالد طعنة للهواء في أثناء محاولة مواساتها؛ لقد لمس ذراعها بأصابعه وبرِفق. وأُغلق باب بقوة في مكان ما من الممر.

"ولكن ماذا... أعني... لا شيء، لا أحد..."، قال مانيك متلعثماً. ووضع الوالد يده على كتفه.

فتنحنح مانيك وحاول الكلام مجدداً: "كنا صديقَين"، وأومأ الوالدان كما لو أن حركة رأسَيهما العاجزة تشعرهما بالتعزية، "ولكنني لم أعرف... ماذا حدث؟".

تكلمت الوالدة بكلمات غير مسموعة تقريباً قائلة: "لا نعرف أيضاً. قدمنا إلى هنا مباشَرةً بعد إحراق الجثة. لقد جرت بشكل جيد. لا مطر، واشتعلت المَحرقة بتوهج. لقد بقينا معها طوال الليل".

أومأ الوالد برأسه وقال: "قالوا لنا إنه تم العثور على الجثة منذ أشهر عدة على

خطوط سكة الحديد من دون التمكن من التعرف إلى هويّته. قالوا إنه توفّي بسبب سقوطه من قطار سريع، ولا بد من أنه كان مُدلّىً من الباب أو جالساً على السطح. ولكن أفيناش كان حريصاً، فهو لم يقم أبداً بأمور مماثلة". دمعت عيناه مجدداً، وسكت لمسحهما، فلمست الوالدة ذراعه بأصابعها وبرِفق.

لم يتمكن من المتابعة، وبعد حينٍ قال: "أخيراً، وبعد وقت طويل، رأينا ابننا. رأينا حروقاً على أجزاء عديدة مُخجِلة من جسده، وعندما أمسكت والدته بيده لوضعها على جبينها، أدركنا أن أظافره غير موجودة. فسألناهم في المشرحة عن كيفية حدوث ذلك لدى السقوط من القطار، فقالوا إن أي شيء يمكن حدوثه، ولن يساعدنا أحد".

قال مانيك، محاولاً حبس دموعه بغضب: "يجب رفع تقرير بذلك! يجب عليكما! لـ... لرئيسة الوزراء... أعني، للحاكم. أو لمفوّض الشرطة!".

"لقد قمنا بذلك وتقدّمنا بشكوى. فدوّن رجال الشرطة كل شيء على دفترهم".

وواصلا مهمة جمع مقتنيات أفيناش، وراقبهما مانيك، عاجزاً عن القيام بأي شيء، في أثناء قيامها بحمل ملابسه، وكتبه المدرسية، وأوراقه، ووضعها في الصندوق الكبير بكل احترام، مقبّلَين بعض الأغراض من حين إلى آخر قبل توضيبها. وساد السكون الغرفة باستثناء وقع خطاهما المنخفض.

قالت الوالدة فجأةً: "هل أخبرك عن شقيقاته الثلاث؟ عندما كنّ صغيرات، اعتاد مساعدتي على الاهتمام بهنّ. كان يستمتع جداً بإطعامهنّ، ويعضضن أصابعه أحياناً ويُضحكنه. هل أخبرك بذلك؟".

"لقد أخبرني بكل شيء".

باتا مستعدَّين للمغادرة بعد دقائق قليلة. فأصرّ على حمل الصندوق لهما حتى أسفل الدرَج، سعيداً بالجهد الكبير الذي بذله لعدم ذَرف الدموع. وذكّره امتنان الوالدَين بالقليل الذي باستطاعته تقديمه لهما للتخفيف من حزنهما. فكل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو ذلك اليوم الأول، عندما ظهر أفيناش على الباب مع مضخّة فليت. لقد قتلا الصراصير، ولعبا بالداما، وأخبرا بعضهما قصصاً عن حياتهما. ولكنه قد توفي.

فألقى عليهما تحية الوداع، وتوجّه إلى المبنى التقني. وتذكّر بعد ذلك أنه لا يزال يملك أحجار الشطرنج واللوحة، وأسرع إلى البوّابة. لم يكن هناك أي أثر للوالدَين. يا لغبائي، قال في سرّه، فذِكرى الجائزة التي فاز بها أفيناش في دورة المدرسة الثانوية تعني لهما الكثير.

عاد على غير هدى، ووجد نفسه في رَدهة النُّزل مجدداً. فتوقف، وقال في سرّه:

علي"إعادة مجموعة الشطرنج بطريقة ما إلى والدي أفيناش. لقد شعر بأنه يسرق منهما مصدر تعزيتهما، وكلما احتفظ بها أكثر فأكثر طال أمد حزنهما.

باتت مهمة إعادة المجموعة أمراً مُلحّاً كما لو أنها مسألة موت أو حياة. كان يبكي بصمت خلال صعود الدرَج، فقامت مجموعة من الطلاب الفضوليين بمراقبته، وصفّر أحدهم وصاح قائلاً أمراً ما لم يسمعه جيداً. وبدأوا يغنون: "أيها الطفل، لا تبكِ، والدتك تُعدّ لك الفلفل الأحمر المقليّ، ووالدك يلتقط الفراشات...".

انسلّ إلى داخل غرفته القديمة، وجلس على السرير. ربما وجد شيئاً في غرفة أفيناش داخل سلة الأوراق المهمَلة؛ مغلّفاً قديماً أو رسالةً تحمل عنواناً. فذهب لإلقاء نظرة. لا شيء، ولا حتى قصاصة ورق. وباستطاعته طرح بعض الأسئلة في هذا الطابق، ولكن أولئك الأوغاد في الممر سيبدأون بمضايقاتهم الصبيانية مجدداً خلال مراقبتهم إيّاه وهو يدخل ويخرج من الغرف، جاعلاً من نفسه أضحوكة.

ضامّاً العلبة إلى صدره، أغمض عينَيه محاولاً التفكير بهدوء: العنوان؛ كان الجواب سهلاً... مكتب المشرف. يمكنه إرسال العلبة عبر البريد إلى والدَي أفيناش.

فتح عينَيه، وحدّق إلى العلبة البنّية المصنوعة من خشب رقائقي والدموع تنهمر عليها. وتذكّر ذلك اليوم في المطعم: اللعب بالشطرنج هناك، ومن ثم تقيّؤ النباتيين. لقد حملته الذكرى على الابتسام. ثورة الاجترار، قال أفيناش آنذاك، وطلب منه الاهتمام بمجموعة الشطرنج.

لم يطالب باسترجاعها قطّ. إنها هديته، لعبة الحياة، ومن الخطأ إرسالها. سيحتفظ بها إلى الأبد.

* * *

حثّت دينا مانيك على التزام الهدوء، وتلاوة دعاء في قلبه قبل قراءة ورقة الامتحان، ومعاودة الكرّة قبل البدء بكتابة الأجوبة. قالت: "لستُ متديّنة، ولكنني أفكر في الدعاء كضمانة. أجد أنه يساعدني. وحظاً سعيداً".

"شكراً، يا خالتي". فتح الباب للمغادرة، وكاد يتعثر بسيد المتسولين في أثناء استعداده للضغط على الجرس بإصبعه.

قال سيد المتسولين: "عُذراً، قدِمتُ حاملاً نبأً سيّئاً". كان مُنهَكاً تماماً، وعيناه مُجهَدَتان بسبب البكاء. "هل يمكنني رؤية الخياطَين؟".

"ولكنهما غادرا منذ يومين".

"لقد نسيتُ... الزفاف". نظر كما لو أنه سينهار.

قالت دينا: "ادخل".

فدخل الشرفة، وأخبرهما عن وفاة شانكار، مُمسكاً نفسه عن النشيج.

فعدم التصديق، ذاك الذي يسمح للوقت بالتعاطي مع الصدمة، هو ما حاول مانيك الوصول إليه. "ولكننا تحدثنا إليه منذ ثلاثة أيام - إيشفار وأوم وأنا - عندما ذهبنا لتناول الشاي. وحدّثني صباح أمس عن قدوم الحلاّق. كان قويّ الجسم ونشيطاً، ويتحرك على منصته كالعادة".

"أجل، حتى صباح أمس".

"ماذا حدث حينذاك؟".

"حادث مريع. فقد السيطرة على منصته، وطار عن الرصيف... باتجاه حافلة ذات طابقَين". ثم ازدرد ريقه بصعوبة وقال إنه لم يرَ ذلك بنفسه ولكنه تعرّف إلى الجثة. "طوال كل سنواتي في هذه المهنة، لم ترَ عيناي أمراً فظيعاً إلى هذا الحد. لا يمكن أن يحدث أمرٌ أكثر ترويعاً. لقد سُحق شانكار والمنصة تماماً؛ يستحيل الفصل بين الاثنَين. إن فصل الخشب والدواليب المغروسة في لحمه يعني بتر جسد المسكين أكثر فأكثر. يتعيّن حرقها معه".

تأملوا بصمت في الصورة المروِّعة. انهار سيد المتسولين، وبكى بطريقة لا يمكن التحكم بها. لقد جعلته محاولات كتم نشيجه يرتجف. "كان يُفترض بي أن أخبره بأننا شقيقان. لقد انتظرتُ طويلاً، والآن فات الأوان. لو كان هناك مكابح في منصته... لقد فكرت في الأمر ذات مرة، ولكن الفكرة بدت سخيفة. بالكاد كان قادراً على جرّ نفسه في الأرجاء... ليست سيارة سريعة أو ما شابه. ربما كان يُفترض بي سحبه من الشارع".

قالت دينا: "لا يجب أن تلوم نفسك، كنت تحاول تقديم الأفضل له، كما قلتَ".

"هل كنتُ كذلك؟ هل قمتُ بذلك؟ كيف يمكنني أن أكون واثقاً من صوابية ما قمتُ به؟".

قال مانيك: "كان شخصاً لطيفاً، أخبرنا إيشفار وأوم كيف قام بالاعتناء بهما عندما كانا مريضَين في معسكر العمل ذاك. أنت لم تلتقي به قطّ، يا خالتي، ولكنه كالآخرين بطريقة ما. حتى إنه كان يُطلق دُعابات أحياناً".

"أشعر بأنني أعرفه. لقد حمل إيشفار وأوم مقاساته، ووصفاه لي، هل تتذكر؟ والصُّدرة الخاصة التي صممتها له؟".

قال سيد المتسولين: "كان ذلك لطفاً كبيراً منك". وانهمرت الدموع من عينيه مجدداً

عندما فكر كيف أنه مزّق الثوب ولوّثه ليتماشى مع متطلبات شانكار.

سألته:"هل ترغب في كوب من الماء؟". فأومأ برأسه، وقام مانيك بإحضاره.

فاستعاد سيد المتسولين رباطة جأشه بعد أن شرب. "أردت دعوة الخياطَين إلى مراسم إحراق جثة شانكار، غداً عند الساعة الرابعة. كانا صديقَيه الوحيدَين. سيكون هناك الكثير من المتسوّلين، ولكن حضور إيشفار وأوم مميَّز". وأعاد الكوب الفارغ.

قال مانيك: "سأذهب".

فأضاء تفاجؤ سيد المتسولين أساه. "هل ستذهب حقاً؟ سأكون شديد الامتنان". وأخذ بيد مانيك وصافحه. "تبدأ مراسم الجنازة خارج فيشرام. لقد اعتبرتُ أنه مكان ملائم للجميع للتجمّع فيه؛ احتراماً لشانكار. ما رأيك؟ مقرّ إقامته الأخير؟".

"أجل، سألتقيك هناك".

سألت دينا: "ماذا عن امتحاناتك؟".

"تنتهي عند الثالثة".

"أجل، ولكن ماذا عن امتحان بعد غد؟"، سألت محاولةً ثنيه عن الذهاب. لقد جعلتها فكرة حضوره جنازة متسول تشعر بالاضطراب. "ألا يُفترض بك العودة إلى المنزل مباشَرةً للدرس؟".

"سأقوم بذلك بعد حضور مراسم إحراق الجثة".

قالت لسيد المتسولين: "اعذرني لدقيقة". وانسحبت إلى الداخل: "يا مانيك!"، نادت من الغرفة الخلفية. فهز كتفَيه وتبعها.

"ما هذا الهراء؟ لماذا يجب عليك أن تذهب؟".

"لأنني أريد ذلك".

"لا تُعطِ إجابات بارعة! تعرف كم يخيفني هذا الرجل. السبب الوحيد الذي يحملني على تحمّله هو حمايته الشقة. لا حاجة إلى التقرّب منه أكثر فأكثر".

"لا أريد الجدال، يا خالتي. سأذهب إلى مراسم إحراق الجثة". كان صوته هادئاً وهو يشدد على كل كلمة.

وربطت سلوكه بالضغط الذي يشعر به بسبب امتحاناته النهائية. "حسناً، لا يمكنني منعك. ولكن، إذا ذهبت، فسأذهب معك". لا لشيء إلا لمراقبته، قالت لنفسها.

عادت إلى الشرفة وقالت: "كنا نناقش مسألة بعد ظهر غد، سنحضر كلانا".

قال سيد المتسولين: "هذا رائع، كيف يمكنني شكركما؟ أتعلمان، كنت أفكر في أنه من الجيد بطريقة ما أن يكون إيشفار وأوم قد غادرا قبل يومين. لأَفشل الحزن الزفاف.

والزواج كالموت لا يحدث إلا مرة واحدة".

قالت: "صحيح تماماً، ليت مزيد من الأشخاص يفهمون ذلك". لقد تفاجأت لدى سماعها كلماته التي تعبّر تماماً عن مشاعرها حيال المسألة.

طلب سيد المتسولين من كل المتسولين التوقف عن العمل بعد الظهر لحضور مراسم إحراق الجثة. وسرعان ما اجتذب تجمّع المُقعَدين، والعميان، والذين لا أذرعة لهم أو سيقان، والمرضى، والمشوَّهين، مجموعة من المشاهدين استعلموا عما إذا كان أحد المستشفيات يدير عيادة خارجية بسبب افتقاره إلى المكان في الداخل.

انضمت دينا ومانيك إلى سيد المتسولين الذي يتناول الشاي داخل فيشرام. قال باشمئزاز: "انظرا إلى الحشد، يظنون أنه سيرك".

قالت دينا: "ولا يمنحون أي عملة نقدية".

"الأمر ليس مفاجئاً. لا يمكن إظهار الشفقة إلا بجرعات صغيرة. عندما يكون هناك هذا العدد الكبير من المتسولين في مكان واحد، يقف الجمهور موقف المتفرّج". ووضع قبضتَي يدَيه حول عينَيه كما لو أنهما منظارٌ ثنائي. "إنه عرض غريب. ينسى الناس مدى هشاشتهم بالرغم من قمصانهم وأحذيتهم وحقائبهم اليدوية، وكيف يقوم هذا العالم الجائع والقاسي بتجريدهم من كل شيء ووضعهم في مستوى متسوِّلِيّ".

فكّر مانيك في ثرثرة سيد المتسولين المفرَطة، ومحاولته إخفاء حزنه العميق. لماذا يتصرف الناس على هذا النحو بمشاعرهم؟ سواء أكانت غضباً أم حباً أم حزناً، يحاولون على الدوام وضع شيء آخر مكان شعورهم. وهناك أيضاً أولئك الذين يتظاهرون بأن عواطفهم أكبر وأعظم من عواطف سواهم، فيغضبون بشدة إذا تعرضوا لمضايقة صغيرة، في حين أنهم يضحكون على نحو هستيري مقابل ابتسامة أو ضحكة في السر. في كلتا الحالتين، هناك كذب.

قال سيد المتسولين: "إضافةً إلى ذلك، توضح لامبالاة الناس التي ترونها نقطة هامة. في هذا العمل، كما في أعمال أخرى، إن الموقع، والموقع، والموقع، هي الأمور الثلاثة الأكثر أهمية. إذا نقلتُ هؤلاء المتسولين في الحال من فيشرام إلى معبد كبير أو مزار أو معتزل، يتدفق المال عليهم".

كان جثمان شانكار مُلقى على نعش من الخيزران المقطوع حديثاً خارج الباب الخلفي لفيشرام، بجانب حظيرة للتخزين تحتوي على أطباق، وأوعية، وأجهزة طبخ احتياطية، ووقود. فشرح سيد المتسولين قائلاً إنه لم يتم إبقاء الوجه مكشوفاً كي يراه المشيّعون لأن المنظر لا يُحتمَل. كانت الجثة المشوّهة مغطاةً بملاءة وُضع فوقها غطاء

من الزهور النضرة: ورود وزنبق.

محدّقاً إلى النعش، تساءل مانيك عما إذا كان والدا أفيناش قد انطلقا بمسيرة الجنازة من المشرحة، أم أنه سُمح لهما بنقل الجثمان إلى المنزل؟ ربما يعتمد الأمر على حالة تحلّله، وكم يمكن إبقاؤه في حرارة طبيعية، في العالم غير المبرَّد حيث ينتهي كل شيء على نحو سيّئ.

قالت دينا: "من اللُّطف أن يسمح فندق فيشرام فيدجيتريان أوتل بإبقاء شانكار هنا قبل الجنازة".

"لا علاقة للّطف بذلك. لقد دفعتُ للطاهي والنادل مبلغاً كبيراً من المال". ومدّ سيد المتسولين عُنُقه للنظر عبر النافذة، ولوّح لأربعة رجال وصلوا للتوّ. "جيد، يمكننا البدء الآن".

كان الرجال الأربعة حمّالين في محطة سكة الحديد تم استخدامهم لحمل النعش. شرح بأسف: "لم يكن أمامي أي خيار آخر، أنا نسيبه الوحيد. بالطبع، سأحمل شقيقي على كتفَيّ من حين لآخر لأكرّمه، ولكن، لا يمكنني السماح للمتسولين بالقيام بذلك. ليسوا أقوياء بما يكفي، وقد ينهار الأمر برمّته".

لم يبخل على شانكار بأي نفقات. لقد اشترى أفضل سَمن وبخور، وكميات كبيرة من خشب الصَّندل. كان كل شيء موجوداً في موقع إحراق الجثة، إضافةً إلى مرنّم كفوء للقيام بالشعائر الدينية. كانت هناك سلال من بتْلات الورد تنتظر قيام المشيّعين بإمطار النعش بها خلال المسيرة الطويلة. وبعد مراسم الجنازة، كان سيد المتسولين يخطّط لتقديم هِبة للمعبد باسم شانكار.

قال: "هناك أمر واحد يقلقني، آمل في ألا يفترض المتسولون الآخرون أنه إجراءٌ معياري وأن كلاً منهم سيحظى بالوداع المُسرِف عينه".

لم تبدأ المسيرة البطيئة التي شقّت طريقها عبر شوارع المدينة باتجاه باحة إحراق الجثة إلا بعد الساعة الرابعة. لقد جعلها عدد المُقعَدين الكبير تتقدم بسرعة بزّاقة. لقد تسببت عاهات البعض بالضُّمور لأجسادهم، جاعلةً إيّاهم يبدون كالضفادع، وهم يسيرون بحركات إيقاعية متكئين على أذرعهم. وكان باستطاعة عدد قليل منهم الكف عن جرجرة أقدامهم كالسرطان، في حين زحف الآخرون على أيديهم وأقدامهم، رافعين مؤخّراتهم كحدَبات الجمال. وبإجماع ضِمني، تقدّم الموكب بأبطأ سرعة مألوفة ولكن بمعنويات مرتفعة، ضاحكين ومتبادلين أطراف الحديث في ما بينهم، ومستمتعين بخبرة جديدة؛ بحيث إن الجنازة بدت أشبه باحتفال.

قالـت دينـا غيـر موافقـة: "الأمر محزن جداً، هناك شـخص متوفًّى ولكن ليس هناك حزن. ولا يطلب سيد المتسولين منهم التصرف بالشكل المناسب".

قال مانيك: "ماذا تتوقعين يا خالتي. ربما كانوا يحسـدون شـانكار". على أيّ حال، قال لنفسه، ما الذي سيبدّله الحزن؟ قد يكون أي من هؤلاء في النعش من دون أن يتبدل شيء في العالم.

تنقّـل سـيد المتسـولين علـى امتـداد صف المتسـولين المشـيّعين كما لـو أنه عريف مراقب، متأكداً من عدم وجود توانيات يمكن تجنّبها. فأومأت إليه دينا خلال اقترابه من الجـزء الأخيـر مـن المسـيرة. "لـم يسـبق لمانيك أو لي أن شـاركنا في جنازة هندوسـية"، اعترفت، "ما الذي يُفترض بنا القيام به عندما نصل إلى هناك؟".

قال سـيد المتسـولين: "لا شـيء. أنتما تكرّمان شـانكار بمجرد حضوركما. سـيقوم المرتّم بواجبه، وسـيكون عليّ إشـعال النعش وكسـر الجمجمة في النهاية بما أن شـانكار ليس لديه أولاد".

"هل يصعب احتمال المشهد؟ أخبرني أحدهم بانبعاث رائحة قوية جداً. هل يمكنك في الواقع رؤية اللحم يحترق؟".

"أجل. ولكن، لا تقلقي، إنه منظر جميل. سـيعتريك شـعور جيد لأن شـانكار مضى في رحلته المتواصلة. وآمل في ألا يكون بحاجة إلى منصة بعد الآن. في الواقع، ولذلك السـبب، أحضر مراسـم إحراق جثث الغرباء. وكلما تسـنّى لي الوقت، أنضم إلى موكب جنازة".

أسـرع إلى صف المشـيّعين لتطييب خاطر بعض رجال الشـرطة السـاخطين. كانت الجنازة البطيئة تضايق شرطة السير الذين شعروا بخَطب ما في سرعة الموكب. "واصلوا التقدم". كان ينتباهم رُهاب من كل شيء يتحرك ببطء، سواء أكانت سيارات، أو عربات نقـل تُدفَـع باليـد، أو كلاب المنبوذيـن، أو أشـخاصاً. وإذا قامـوا باسـتثناء واحـد فلأجـل الأبقار. وحرصوا على حثّ المشـيّعين على التقدم بسـرعة، ملوّحين بأذرعهم، ومُطلقين صفّاراتهـم، وصائحيـن وملتمسـين، ومحرّكيـن أيديهـم، ومقطّبيـن وجوههـم، وممسـكين بجباههـم، ومحرّكيـن قبضـات أيديهـم. ولكـن هـذه الطرائق التي أُثبتـت فاعليتها لم تُجد نفعاً: فالأطراف المفقودة لا تستجيب مهما كانت الصفارة قويّة أو التلويح باليد ناشطاً.

لقد وجد حمّالو سـكة الحديد المعتادون على التنقل بسـرعة بأحمال ثقيلة صعوبةً في التكيف مع سرعة تقدم الموكب. فكلما بدأ صوت الترانيم يخبو وراءهم، أدركوا أنهم سبقوا الموكب كثيراً، فيتوقفون منتظرين المجموعة المتأخرة.

في منتصف الطريق إلى فناء إحراق الجثة، وبعد ساعة من السير البطيء، هجمت مجموعة صغيرة من شرطة مكافحة الشغب يعتمر أفرادها خوذات على موكب الجنازة من دون سابق إنذار، ملوّحين بعصيّهم. فتدحرجت جثة شانكار عن النعش في أثناء قيام الحمّالين بتفادي الضربات، وصاح المتسوّلون ذُعراً وسقطوا على الأرض. وتبعثرت بتلات الورد من ست سلال، وانتشرت رقعة زهرية اللون على الطريق.

قالت دينا لاهثةً في أثناء توجهها ومانيك رَكضاً إلى أمان الرصيف: "هل رأيت؟ لهذا السبب خشيتُ من السماح لكَ بالقدوم، إنها أزمنة رديئة؛ فقد يحدث اضطراب من دون سابق إنذار. ولكن، ما الذي أصاب رجال الشرطة الأغبياء؟ لماذا يضربون المتسولين؟".

"ربما يُمسكون بهم لاصطحابهم إلى معسكر عمل آخر، كما حدث مع إيشفار وأوم".

بعد ذلك، انسحب رجال الشرطة فجأةً على غرار انقضاضهم المفاجئ. ودنا ضابطهم من سيد المتسولين، وأعرب عن أسفه الشديد بسبب إفساد رجاله المناسبة. "أنا رجل حساس جداً في ما يتعلق بالمسائل الدينية. إنه خطأ يؤسَف له. كل ذلك بسبب معلومات استخباراتية غير دقيقة".

فكشف عن تلقيه تقريراً على اللاسلكي يشير إلى قيام جنازة مزيَّفة يجري خلالها إلقاء تصاريح سياسية، مما يخالف أنظمة حالة الطوارئ. وتعززت الشكوك بصفة خاصة بسبب تجمّع هذا العدد الكبير من المتسولين، كما شرح. "ظنوا أنهم ناشطون سياسيون بملابس وهمية؛ مشاغبون يحققون مُرادهم على مسرح الشارع، ويصفون الشخصيات الحكومية بأنهم محتالون ومجرمون يُفقرون الأمّة. هذا النوع من الأمور كما تعلم".

قال سيد المتسولين: "إنه خطأ يمكن تفهّمه". مُتقبّلاً الشرح. كان أكثر استياءً من الأشخاص الذين أعدّوا النعش؛ يجب عليهم أن يكونوا شديدي الحرص في أثناء ربط جثة شانكار لأنها تنزلق بسهولة. وفي الوقت نفسه، قال لنفسه محلِّلاً إنهم لا يتحملون كامل المسؤولية بسبب افتقارهم إلى الخبرة في التعامل مع بقايا مقطَّعة كبقايا شانكار.

مستمراً بالشعور بالحرَج، واصل الضابط الاعتذار. "عندما تحققنا من أن الجثة ليست دمية رمزية، أدركنا خطأنا. إنه أمر مؤسف حقاً". ورفع قلنسوته ذات الحافة الأمامية السوداء. "هل يمكنني تقديم تعازيّ؟".

قال سيد المتسولين: "شكراً لك". وصافحه.

قال الضابط واعداً: "ثِق بي، ستتدحرج رؤوس بسبب هذا الخطأ الفادح". في حين سارع رجاله لالتقاط الرأس الذي تدحرج من النعش على الطريق مع قليل من أجزاء

أخرى من جسده.

للتعويض عن الكارثة، أصرّ الضابط على تأمين مواكبة رسمية في ما تبقى من الطريق. فطُلب من فرقة مكافحة الشغب إعادة تجميع النعش وملء سلال المتسولين مجدداً ببتلات الورد المبعثَرة على الإسفلت. "لا تقلق"، طمأن سيد المتسولين. "سنحمل الجميع على التوجه بنظام إلى باحة إحراق الجثة".

بإخلاء الموكب ساحةَ الهجوم، توقفت سيارة بجانب حافة الرصيف، وأطلقت بوقها. قالت دينا: "لا، إنه شقيقي. إنه في طريقه على الأرجح من المكتب إلى المنزل".

فلوّح نوسوان من المقعد الخلفي، وأنزل زجاج النافذة. "هل تشاركين في الموكب؟ لم أكن أعلم أن لديك أصدقاء هندوساً".

قالت دينا: "لديّ أصدقاء هندوس؟".

"لمن هذه الجنازة؟".

"لمتسول".

وشرع بالضحك، ومن ثم توقف وخرج من السيارة. "لا تمازحيني في مسائل جدّية". لقد تصوّر أن المتوفّى شخص هام لكي يحظى بمواكبة الشرطة. مدير كبير من شركة أوروفوار ربما، أو رئيس مجلس إدارة، أو مدير إداري. "هيا، كفاك سخرية، من هو؟".

"لقد قلت لك. إنه متسول".

وفتح نوسوان فمه وأغلقه: فتحه سُخطاً، وأغلقه مصدوماً بعد أن تحقق من شخصية المتوفّى. لقد أدرك أنها لا تمزح.

وفتح فمه مجدداً فقالت له دينا: "أغلقه يا نوسوان، وإلا دخلت فيه ذبابة".

فأغلقه. لم يكن باستطاعته تصديق ما حدث له. قال ببطء: "لقد فهمتُ، وكل هؤلاء المتسولين هم... أصدقاء المتوفّى؟".

فأومأت برأسها.

لقد تبادرت إلى ذهنه مئات الأسئلة: لماذا تُقام جنازة لمتسول؟ بمواكبة الشرطة؟ ولماذا تشارك مع مانيك؟ من يدفع تكلفة الجنازة؟ ولكن، باستطاعة الإجابات أن تنتظر حتى وقت لاحق. أمرها: "ادخلي". فاتحاً باب السيارة.

"ماذا تعني، ادخلي؟".

"هيا، لا تجادلي. ادخلا كلاكما. سأعيدكما إلى شقتك". والتمعت لائحة التذمرات في ذهنه، تلك التي أعدّها طوال ثلاثين عاماً، وها هو يكشف عن تذمّر جديد. "لن تسيري

خطوة واحدة أخرى في الموكب! إضافةً إلى كل ما تقومين به، أنت تسيرين في جنازة متسول! إلى أي حد بلغ انحطاطك؟ ماذا سيقول الناس إذا رأوا شقيقتي...".

دنا منهم سيد المتسولين والضابط. "هل يزعجك هذا الرجل؟".

قالت دينا: "لا أبداً، إنه شقيقي. وهو يقدّم تعازيه بسبب وفاة شانكار".

قال سيد المتسولين: "شكراً لك. هل يمكنني دعوتك للانضمام إلينا؟".

فتلعثم نوسوان: "آه... أنا شديد الانشغال، مرة أخرى". وانسلّ إلى داخل سيارته، وأغلق الباب بسرعة.

فلوّحوا بأيديهم، ولحقوا بالموكب الذي لم يبتعد سوى بضعة أمتار. ذهب سيد المتسولين إلى الأمام وحلّ محلّ أحد الحمّالين في حمل النعش.

خاطبت دينا مانيك: "كان الأمر مسلّياً، سيرى كوابيس سيئة الليلة، كما أعتقد. سيرى كوابيس مزعجة عن نعوش الجنازات؛ سيتبخّر صيته".

ابتسم مانيك، ولكن أفكاره كانت مع المراسم الأخرى الخاصة بإحراق جثة صديقه، منذ ثلاثة أيام، حيث كان يُفترض به أن يكون، وحيث لا يعترف الموت بتراتب الأجيال. لا بد من أن والد أفيناش قد أشعل النعش، وفرقعت عيدان الحطب الصغيرة، ولذع الدخان العيون، وداعبت أصابع النار الجثمان، ولاعبته، ودغدغته، متسببةً بتقوّسه. لقد اعتاد أفيناش التقوّس أحياناً في أثناء لعب الشطرنج، والاستلقاء على السرير، وبَرْم رأسه من جانب إلى آخر متأملاً في لوحة الشطرنج، والاتكاء على مِرفقه ليمد يده ويلتقط الحجر ويحركه.

مات الملك، ومن ثم ألسنة اللهب.

* * *

مرّ الوقت ببطء كما لو أنه فقد اهتمامه بالعالم. فرفعت دينا الغبار عن الأثاث عن آلتي الخياطة في زاوية الغرفة. لا شيء يبدو بلا حياة بقدر ما تبدو عليه آلتا الخياطة، قالت لنفسها.

شغلت نفسها باللحاف مرة أخرى، مقوّمةً درزة، ومزيّنةً رقعة، ومعدّلةً ما لا يبدو صحيحاً بنظرها. وظهرت على المربعات الموجودة في حضنها بقع شمس بعد الظهر من خلال زجاج مروحة التهوئة.

قال مانيك: "أزيحيها قليلاً إلى يسارك، يا خالتي".

"لماذا؟".

"أريد أن أرى كيف يبدو اللون الأصفر مع دوائر نور الشمس".

فطقطقت بلسانها، وامتثلت لطلبه.

قال: "جميل".

"هل تتذكر كم كنتَ متشككاً عندما رأيته للمرة الأولى؟".

فضحك مستهجناً ما بدر منه: "لم أكن أملك أي خبرة مع الألوان والتصاميم في تلك الأيام".

"وأصبحتَ الآن خبيراً بارعاً، أليس كذلك؟". جرّت الزاوية المقابلة إلى حضنها.

"هل ستضعينه على سريرك عندما ينتهي؟".

"لا".

"إذاً، هل تخططين لبيعه يا خالتي؟".

فهزت رأسها: "هل يمكنك الاحتفاظ بسر؟ سيكون هدية زفاف أوم".

لم تكن سعادته لتكون أكبر لو فكّر في ذلك بنفسه. فلان وجهه متأثّراً بعزمها.

قالت: "لا تستأ إلى هذا الحد، سأصنع لك واحداً لزفافك أيضاً".

"لست مستاءً، أظن أنها فكرة رائعة".

"ولكن، لا تُفشي السر لإيشفار وأوم حين تراهما مجدداً. سأُنهيه عندما تُستأنف الخياطة، وبعد أن نحصل على قطع قماش جديدة من أوروفوار. لا تتفوّه بأي كلمة حتى ذلك الحين".

أنهى مانيك امتحاناته، وشعر بأنه لم يُبلِ حسناً في معظمها. فتمنى أن تكون العلامات جيدة بما يكفي على الأقل لتخوّله تنفيذ مشروعه القاضي بإكمال دراسته لمدة ثلاث سنوات والحصول على إجازة جامعية.

وحين سألته دينا عن الامتحانات، أجاب أنه أبلى بلاءً حسناً.

لقد سمعت في صوته افتقاراً إلى الاقتناع. "سيكون علينا انتظار صدور النتائج للتحقق من مدى حسن نتائجك".

في مساء ذلك اليوم، استسلم لمناشدات والدته في رسالتها، وذهب أخيراً لزيارة أنسبائه بِحَثّ من دينا. لقد عانى طوال ساعتَين من تكلّم عائلة سوداوالا بحماسة واندفاع، ومن تجنّب أنواع عديدة ومختلفة من وجبات الطعام السريعة والمشروبات الباردة. "شكراً لكم، ولكن سبق لي أن تناولت الطعام".

فقالوا له: "في المرة القادمة، عليك أن تأتي فارغ المعدة، نريد أن نشعر بالسعادة لدى إطعامك". فوضعوا وجبات الطعام السريعة جانباً، وحاولوا حمله على الانضمام

إليهم لمشاهدة فيلم سينمائي وتناول العشاء في وقت متأخر من الليل، ودعوه لتمضية الليل في منزلهم.

قال مانيك عندما شعر بأنه أمضى الوقت المناسب لديهم: "اعذروني رجاءً، يُفترض بي المغادرة الآن، عليّ أن أستيقظ غداً صباحاً".

بعد عودته إلى شقة دينا، اتهمها بإفساد أمسيته. "لن أذهب إلى هناك مجدداً يا خالتي. يتكلمون من دون توقف، ويتصرفون كأطفال أغبياء".

"لا تقسُ عليهم، إنهم عائلة والدتك".

ساعدته على إنزال حقيبة ملابسه الفارغة عن ظهر الخزانة، ومن ثم رفعت الغبار عنها. وخلال مراقبته وهو يوضّب أغراضه، كانت تقاطعه أحياناً بتوجيه نصيحة إليه، وتذكيرات، وتعليمات: لا تنسَ، خذ هذه، افعل ذاك. "والأهم من كل ذلك، أحسن معاملة والدَيك، لا تدخل في جدال معهما. لقد اشتاقا إليك كثيراً هذا العام. استمتع بعطلتك".

"شكراً لك يا خالتي. ورجاءً، لا تنسَي إطعام الهررة".

"أجل، سأُطعمها. حتى إنني سأطهو لها أطباقها المفضَّلة. هل أقدّم لها أدوات المائدة؟ أم بإمكانها أن تتناول الطعام بأصابعها؟".

"لا يا خالتي، وفّري أدوات المائدة لكنّتك. ستأتي إلى هنا بعد ثلاثة أسابيع".

فهددت بضربه على كفله. "المشكلة هي أن والدتك لم تضربك على كفلك بما يكفي عندما كنتَ صغيراً".

في الصباح الباكر من اليوم التالي، عانقها وغادر.

لم تكن العودة إلى الوحدة تامة كما توقعت دينا. فلقد اكتسبت طوال هذه السنوات العديدة فضيلة الواقع المحتَّم، قالت لنفسها، داعيةً إيّاه سلاماً وهدوءاً. ومع ذلك، كيف يُعقَل أن تشعر بالوحدة مجدداً بعد العيش بمفردها معظم حياتها؟ ألم يتعلّم القلب والعقل شيئاً؟ هل يمكن لعام واحد أن يُلحِق كل هذا الضرر بمرونتها؟

لقد راجعت للمرة المئة التواريخ على الروزنامة: ثلاثة أسابيع قبل عودة إيشفار وأوم؛ ومن ثم ثلاثة أشهر حتى عودة مانيك.

كانت الأيام تمر ببطء شديد، فقررت أن الفرصة ملائمة لإجراء إصلاح شامل للشقة. كانت تسمع في كل غرفة المُزاح المتعَب للخياطَين الذي يلاحقها في أثناء تنقّلها في المطبخ، وقيامها بكنس السقوف بالمكنسة ذات المِقبض الطويل، وتنظيف النوافذ ومراوح التهوئة، وغسل كل الأرضيات.

في غرفة مانيك، وجدت علبة الشطرنج الخاصة بصديقه موضوعة في خزانة

الملابس. لقد افترضت أنه سيُعيدها إليه عندما تفتح الكلّية أبوابها مجدداً.

بعد ذلك، أفرغت كل خزانتها باستثناء الرف السفلي. ثم مسحت داخلها، وكدّست فيهـا بقايـا أقمشـة أوروفـوار، وفرزت ملابسـها. فالثياب التي لم تعـد ترتديها وضعتها في كومة منفصلة لتقدّمها لزوجة أوم إذا كان قياسها مناسباً بالتأكيد، ووفقاً لسلوكها.

بعـد ذلـك، رتّبـت دينا الرف السـفلي المحشـوّ بقصاصات متبقّية من الأقمشـة التي خيطـت طـوال عـام، والتـي لا تصلـح إلا كحشـوة للفـوَط الصحيـة. فدسّـت ذراعَيها في الخزانـة، وقلّبـت كومـة القصاصـات الكبيـرة، ممـا حملها على الضحك عاليـاً. لن تكون خمسة عشر عاماً إضافية كافية لاستهلاك هذا الكَمّ من الحشوات القطنية. فملأت حقيبة بمقدار معقول من هذه الحشوات، واستعدت للتخلص من الكمية المتبقية.

فكّـرت بعـد ذلـك فـي زوجـة أوم. مـن المؤكـد أنهـا قـد تسـتخدم الكثيـر من هذه الحشوات نظراً إلى شبابها وحيويّتها. من الأفضل الاحتفاظ بها الآن، قالت لنفسها، مُعيدةً القصاصات بسعادة إلى الرف.

لقـد سـهّل انهماكهـا فـي التنظيف مرور عدد كبير مـن الأيام. وركّزت اهتمامها على الشرفة التي ستصبح قريباً مسكن الزوجَين والعم. فعدة النوم الخاصة بالخياطَين غير كافية، وقررت إعداد ملاءات وأغطية إضافية من هبات أوروفروار.

لقد وجدت صعوبة في تحريك دوّاسـة آلة خياطة إيشـفار. لم يسـبق لها أن عملت علـى هـذا النوع من الآلات خلال سـنوات ممارسـتها الخياطـة. فانتقلت إلى آلة الخياطة الصغيرة الخاصة بالعمة شيرين، والتي تشغَّل باليد، وكان الأمر مسلّياً. ومع كل درزة كانت تقول لنفسها: كم أنا محظوظة بامتلاك كل هذه الأقمشة لتلبية حاجاتنا.

لقد أزعجتها صورة إيشفار، وأوم وزوجته، نائمين على الشرفة. تخيّلي فقط، قالت لنفسـها، لو كان العم داراب والعمة شـيرين نائمَين في الغرفة نفسـها، معي ومع راسـتوم في ليلة زفافي.

الحل الوحيد الذي وجدته مناسباً في هذه الحالة هو وضع ستارة في وسط الشرفة. فقاسـت المسـافة، ووصلـت الأقمشـة الأكثـر سـماكة التي اختارتهـا من مجموعـة البقايا ببعضها. من الأفضل وجود جدار رمزي بدلاً من عدم وجود أي شيء.

أملت في أن يُسَرّ إيشفار وأوم بجهودها. لقد قامت بكل ما تستطيع القيام به. وإذا بذلت الزوجة الجديدة نصف الجهد التي بذلته، فمن المؤكد أنهما سينسجمان معاً.

بعـد تثبيـت مسـمارَين وخيـط مصّيـص، وُضع الحاجـز الرمزي. فعـادت إلى الوراء متفحّصةً جانبَي الستارة. إن حياة الفقراء مليئة بالرموز، قالت لنفسها.

التخطيط العائلي

أسرع شخص هزيل ومُلتَح باتجاه الخياطَين في أثناء نضالهما لسحب صندوقهما خارج المقصورة إلى رصيف الركّاب قائلاً: "أخيراً عدتما".

"يا عم أشرف! كنا سنفاجئك في المتجر!". وجرّا مقتنياتهما ووضعاها جانباً، وتصافحوا، وتعانقوا، وضحكوا لا لشيء إلا بسبب سرورهم بالتواجد معاً.

كان إيشفار وأوم الراكبَين الوحيدَين اللذين ترجّلا من القطار. وبقي عاملان يستريحان بجانب صنبور الماء جالسَين على كفَلَيهما؛ لقد أنبأهما حَدسهما بأن خدماتهما غير مطلوبة. واستيقظت المحطة الهامدة شيئاً فشيئاً على وقع صوت المحرك، وأحاط بالقطار بائعو الفاكهة، والشراب البارد، والشاي، والباكورا، والغولا المثلّج، والنظارات الشمسية، والمجلات، وزيّنوا الجوّ بصيحاتهم.

قال أشرف: "تعاليا، لنذهب إلى المنزل. لا بد من أنكما مُتعَبان. سنأكل أولاً، ومن ثم يمكنكما إخباري عن الأمور المدهشة التي صادفتماها في المدينة".

كانت هناك امرأة تحمل سلة صغيرة من التين تغنّي بجانبهم. وبدأت تنادي بحدة كما لو أنها تلتمس، وتحوّلت مناداتها إلى توبيخ في أثناء مرورهم بجانبها. ولم تتكرر الصيحة. وحاولت مع الركاب الموجودين قرب نوافذ القطار كمعرض لوحات متنقّل، مُسندةً السلة إلى خصرها ومهدهدةً إيّاها كطفل، وراكضةً ببطء على امتداد المقصورات. وأطلق الحارس صفارة التنبيه، فأجفل كلب هجين بلون القشدة مستلقٍ بجانب خطوط سكة الحديد. فحك بكسل وراء أُذُنه، ووجهه مشدود كوجه رجل يحلق.

قال أوم: "يا عمّ أشرف، أنت عبقري، لم نُعلمك بتاريخ وصولنا، ومع ذلك تقوم بانتظار قطارنا. كيف عرفتَ بقدومنا اليوم؟".

ابتسم وقال: "لم أعرف، ولكنني علمت بأنكما ستأتيان هذا الأسبوع. ويصل القطار في الوقت نفسه كل يوم".

"إذاً، كنت تنتظر هنا كل يوم؟ وماذا عن المشغل؟".

"العمل قليل". وهمّ بمساعدتهما على حمل أمتعتهما. كانت يده مضلّعة بأوردة

ناتئة، وتهتز بطريقة لا يمكن التحكم بها. وأُطلقت الصفارة مجدداً، وهدر القطار بجانبهم، واختفى البائعون. وعلى غرار منزل مهجور، انتقلت المحطة من حالة النعاس إلى حالة الهجران.

لكن الفراغ كان مؤقتاً. لقد خرج أكثر من عشرة أشخاص ببطء من ظلال الأكواخ والمخازن، ملفوفين بخِرَق، ومدثَّرين بالجوع، أحنوا أجسادهم الهشة فوق حافة رصيف الركاب، ونزلوا إلى سكة الحديد، وبدأوا يتنقلون على نحو منهجي من عارضة إلى أخرى باحثين عن المُهملات التي تُلقى بين الرحلات، ومنحنين من حين لآخر، جامعين فضلات المسافرين. وعندما تمسك يدان بالجائزة نفسها، تحدث مشادّة. كانت الأخشاب والحصى تحتهم حيث تُفرَّغ محتويات المراحيض مبلَّلة، وتفوح منها رائحة نتنة، وتعجّ بالذباب، فيسحب الجيش رثّ الملابس أوراقاً، وفضلات طعام، وأكياساً بلاستيكية، وسدّات قنانٍ، وزجاجاً محطَّماً، وكل كِسرة قيّمة أُلقيت من القطار المغادر، ويضعونها في حقائب من الخَيش ويتوارون بعد ذلك في ظلال المحطة ليفرزوا مجموعاتهم وينتظروا وصول القطار التالي.

قال أشرف في أثناء عبورهم التقاطع المستوي إلى الجهة الأخرى: "إذاً، كانت المدينة جيدة بالنسبة إليكم، أليس كذلك؟ تبدوان موفَّقَين".

قال إيشفار: "يا عم أشرف، عيناك كريمتان". وأشعرته يده المرتجفة بالكَرْب. لقد علّم التقدّم في السنّ كتفَيه الانحناء، مستفيداً من غياب الخياطَين. "لا نتذمر من أي شيء. ولكن، كيف حالك؟".

بأفضل حالٍ نظراً إلى سنّي". وقوّم أشرف جلسته، مربّتاً على صدره، وعاد للانحناء بعد ذلك مباشَرةً. "وماذا عنك يا أوم؟ لقد ترددتَ في الذهاب. انظر إلى نفسك الآن، فعلى وجهك إشراقة الصحة".

"هذا لأن الديدان أخلت المكان". وشرح بحماسة كيف تمّ التغلب على الطُفيليات بواسطة الدواء الطارد للديدان.

"تلتقي العم أشرف بعد عام ونصف، وما حصل مع الديدان هو كل ما يمكنك إخباره إيّاه؟".

قال أشرف: "لِمَ لا؟ الصحة هي الأمر الأكثر أهمية. انظر، لَما تمكنتما أبداً من الحصول على هذا الدواء الجيد لو بقيتما هنا. إنه سبب إضافي لشعوركما بالسعادة لأنكما غادرتما، أليس كذلك؟".

أبطأ إيشفار وأوم عند الزاوية بالقرب من النُّزُل، ولكن أشرف قادهما إلى مشغله.

"لماذا تهدران المال على سرير مليء بالبقّ؟ ابقيا معي".

"لا نريد أن نزعجك".

"ولكنني أُصرّ، يجب عليكما استخدام منزلي للتفكير في أمر الزفاف. قدّما لي صنيعاً. كان العام الأخير موحِشاً جداً".

قال أوم: "لن تكون العمة ممتاز مسرورة لدى سماعك تقول ذلك، ألا تُحتسب رفقتها؟".

شابت الحَيرة ابتسامة أشرف: "ألم تتلقيا الرسالة؟ لقد توفيت ممتازي بعد ستة أشهر من مغادرتكما تقريباً".

"ماذا؟". وتوقفا، وتركا أمتعتهما تنزلق من أيديهما، فاصطدم الصندوق بالأرض.

قال أشرف: "حذارِ!". وانحنى لرفعه. "ولكنني كتبتُ لكما على عنوان نوّاز".

قال أوم بغضب: "لم يسلّمنا إيّاه".

"ربما وصلت الرسالة متأخرة؛ بعد انتقالنا إلى مستوطنة الأكواخ".

"كان باستطاعته إيصال الرسالة إلينا".

"أجل، ولكن من يعلم إذا كان قد استلمها أم لا".

فتخلّيا عن تخميناتهما وتناوبا على معانقة العم أشرف؛ فقبّلا خدَّيه ثلاث مرات مواساةً لهما بقدر ما كان الأمر مُواسياً له.

قال: "قلقتُ عندما لم أتلقَّ أي جواب، ظننتُ أنكما شديدا الانشغال في محاولة العثور على عمل".

قال إيشفار: "مهما كنا منشغلَين، لَكَتبنا لك لو علمنا بما جرى، لَقدِمنا إليك. هذا رهيب. كان يُفترض بنا أن نكون حاضرَين في الجنازة، كانت بمثابة والدتي، لم يكن يُفترض بنا المغادرة قطّ...".

"الآن إنه كلام مجنون. لا أحد يستطيع كشف المستقبل".

واصلوا سيرهم، وأخبرهما أشرف عن المرض الذي ألمّ بالعمة ممتاز وأودى بحياتها. وخلال تكلمه عن خسارته، اتّضح سبب انتظاره على رصيف الركاب في المحطة كل يوم لاستقبال قطارهما: كان يمتحن حصافته مع الوقت، المعذِّب الأكبر.

"إنه أمر غريب. عندما كانت ممتازي حية، كنت أجلس بمفردي طوال اليوم، أخيط أو أقرأ، وتجلس بمفردها في الناحية الخلفية تطهو وتنظف وتصلي. ولكنني لم أكن أشعر بالوحدة، وتمرّ الأيام بسهولة. فشعوري بوجودها كان كافياً بالنسبة إليّ. أما الآن، فأنا أفتقد إليها كثيراً. يا للوقت! لا يمكننا الاعتماد عليه. عندما أريده أن يمر، تلتصق

بـي السـاعات كالغِـراء وكـم هـو قابـل للتغييـر، أيضـاً. فالوقت هو خيـط المصّيص الذي يربـط حياتنـا بالسـنوات والأشـهر، أو الحـزام المطاطي الذي يلائـم مخيّلتنا، أو الخطوط في وجهك التي تسـرق لون شـبابك وشـعرك". وتنهّد وابتسـم بحزن. "ولكن في النهاية، الوقت هو أُنشوطة حول العُنُق تخنقنا ببطء".

اعترت إيشفار مشاعر مُزعجة؛ ذَنْب، أسى، شيخوخة تترصّد مستقبله. فتمنّى لو كان باسـتطاعته التأكيـد للعـم أشـرف بأنهما لن يتركاه بمفرده مجـدداً، ولكنه قال: "نرغب في زيارة ضريح العمة ممتاز".

لقد سُـرّ أشـرف بالطلب كثيراً: "يصادف تاريخ الذكرى السـنوية لوفاتها في الأسبوع القـادم. يمكننـا الذهـاب معـاً. ولكنكمـا قطعتمـا مسـافة طويلة مـن أجل مناسـبة مُبهِجة. لنتحدث عنها الآن".

كان عازماً على عدم السماح للخبر الحزين بإثباط عزيمتهما. فشرح قائلاً إن اللقاءات التمهيدية مع كل من العائلات الأربع تبدأ بعد ثلاثة أيام. "شـعر البعض بالقلق في بادئ الأمر؛ لأن مسلماً يتخذ التدابير المناسبة لأجلكما".

قال إيشفار بغضب: "كيف تجرّأوا على ذلك، ألم يعرفوا أننا عائلة واحدة؟".

قـال أشـرف: "ليـس فـي بـادئ الأمـر". لكن أولئـك الذين كانوا يدركـون العلاقات الوطيدة بينهم قالوا إنه ليس هناك سبب يدعو للقلق. "كل شيء بخير الآن. لا بد من أن العريس قلق"، ووكز معدة أوم، ممازحاً. "عليك التحلّي بالصبر قليلاً. سيسـير كل شـيء بخير، إن شاء الله".

قال أوم: "لست قلقاً. إذاً، أخبرني ما الجديد في البلدة؟".

"ليـس هنـاك الكثيـر من الأمور الجديـدة. لقد افتُتِح مركز للتخطيط العائلي. لا أظن بـأن ذلـك يهمّـك"، وضحـك ثـمّ قال: "وكل شـيء آخر، سـواء أكان جيداً أم سـيّئاً، بقي على حاله".

اعترت الحماسـة أوم وسـرّعت خطاه عندما رأى شـارعهم، ومن ثم لافتة مؤسسـة مظفّر للخياطة. فسـار نحوها، وحيّا مالك متجر الخردوات، والسـمّان، والطحان، وتاجر الفحم الحجري، الذين وقفوا عند مداخل متاجرهم وأعربوا عن أفضل تمنّياتهم للحدث الميمون.

* * *

قال أشرف: "أعلماني عندما تجوعان، لقد طهوتُ الطعام المفضَّل لديكما".

فلعق أوم شفتَيه: "من الممتع أن نعود".

"من الجيد أنكما عدتما".

قال إيشفار: "أجل. أتعلم يا عم أشرف؟ السيدة دينا شديدة اللطف، ونحن على وفاق تام الآن، ولكن المكان هنا مختلف. نحن في مسقط رأسنا. هنا يمكنني الاسترخاء أكثر. في المدينة، أشعر بقليل من الخوف كلما خرجتُ إلى أي مكان".

قال أوم: "لا تدَع كل تلك المشاكل تقضّ مضجعك. انسها الآن، لقد مرّ على ذلك زمن طويل".

"مشاكل؟".

قال إيشفار: "لم يحدث الكثير، سنُخبرك في وقت لاحق. هيا، لنتناول الطعام قبل أن يبرد".

فجلسوا في المشغل متبادلين أطراف الحديث حتى وقت متأخر من الليل، وحرص إيشفار وأوم على تلطيف تفاصيل مِحَنهم. لقد قاما بذلك فطرياً، راغبَين في تجنيب العم أشرف الألم بعد أن رأياه يجفل تعاطفاً مع كل تفصيل.

قُرابة منتصف الليل، بدأ أوم يحني رأسه، فاقترح أشرف الذهاب إلى السرير. "يستطيع رأسي الهرِم الاستمرار في الاستماع إليكما طوال الليل. فهو ليس بحاجة إلى الكثير من النوم، ولكن يجب عليكما أن ترتاحا".

فأزاح إيشفار الكراسي جانباً ليوفر مكاناً لعدة النوم على الأرض، ولكن أشرف أوقفه قائلاً: "لماذا هنا؟ لا أحد سواي في الطابق العُلوي. هيا". وصعدوا الدرَج من المشغل إلى الغرفة العُلوية. "كم كانت الحياة جميلة في هذا المكان ذات يوم. ممتاز، وبناتي الأربع، وتلميذاي. كم استمتعنا معاً، أليس كذلك؟".

أحضر ملاءات إضافية وأغطية من الصندوق الذي تفوح منه رائحة النفتالين. "وضّبت ممتازي كل شيء بعد زواج بناتنا الأربع ورحلت. كانت حريصة جداً، وتقوم بتهوئتها كل عام، وتضع كُرات نفتالين جديدة".

نام أوم ما إن لمس رأسه الوسادة، فهمس أشرف: "يذكّرني بك وبنارايان، عندما جئتما إلى هنا للمرة الأولى وكنتما فتيَين، هل تتذكر؟ كنتما تنزلان إلى المشغل بعد العشاء وتفرشان بساطَيكما، وتنامان بسلام على هذا النحو كما لو أنه منزلكما الخاص. كان ذلك بمثابة شكر لي".

"لقد بدا كما لو أنه منزلنا بسبب طريقة اعتنائك والعمة ممتاز بنا". واسترجعا الذكريات لبضع دقائق قبل إطفاء النور.

أراد أشرف تقديم قمصان جديدة لإيشفار وأوم. قال: "سنخيطها بعد ظهر هذا اليوم".

"هذا كثير يا عم أشرف".

قال معترضاً: "هل تريدان رفض هديتي والتسبب لي بالتعاسة؟ بالنسبة إليّ، زواج أوم هام جداً. دعاني أفعل ما أريده". وأراد أن يرتدي إيشفار وأوم القمصان الجديدة في الحفلات الأربع لمشاهدة العرائس، وحين يتم التفاوض على ملابس الزفاف في وقت لاحق مع عائلة الفتاة التي يختارانها.

لان إيشفار، ولكن بشرط واحد؛ أن يقوم وأوم بمساعدته على خياطة القمصان. ولكن كَدح العم أشرف بمفرده على آلة الخياطة بات أمراً غير وارد.

قال أشرف: "لكن، لا حاجة إلى أحد ليخيط، هناك متجر يبيع الملابس الجاهزة في البازار. ذلك الذي سرق زبائننا. كيف يمكنكما أن تنسيا. ذلك المتجر هو سبب مغادرتكما".

أخبرهما عن الزبائن المُخلصين الذين اضطُروا إلى التخلي عن مؤسسة مظفر للخياطة واحداً تِلوَ الآخر، بمن فيهم أولئك الذين كان أفراد عائلاتهم زبائن لدى المؤسسة منذ زمن والده. "لقد زال ولاء جيلَين كالدخان في يوم عاصف بسبب التلويح بأسعار أكثر انخفاضاً. كم أن المال شرير! لقد قمتما بعمل جيد عندما غادرتما لأنه لا مستقبل لكما هنا".

لم يمر وقت طويل حتى تطرق أوم إلى سبب فرارهما إلى المدينة. "ماذا عن التاكور دارامسي؟ لم تَذكره. هل لا يزال حيّاً؟".

"عيّنه الإقليم مسؤولاً عن مشروع التخطيط العائلي".

"إذاً، ما هو أسلوبه المعتمَد؟ هل يقتل الأطفال للحد من النَّسل؟".

تبادل عمه والعم أشرف نظرات سريعة قلقة.

"أظن أنه يُفترض بشعبنا الاتفاق على قتل ذلك الكلب".

حذّره إيشفار: "لا تبدأ بالتفوّه بالهراء، يا أومبراكاش". لقد بدا أن الغضب القديم لابن شقيقه على شفير الظهور مجدداً، وأقلقه الأمر.

فأخذ أشرف يد أوم قائلاً: "يا بني، ذلك الشرير قويّ جداً. منذ بدء حالة الطوارئ، بسط نفوذه من قريته إلى هنا. إنه رجل هام الآن في حزب المؤتمر، ويقال إنه سيصبح وزيراً في الانتخابات التالية؛ إذا قررت الحكومة إجراء الانتخابات. في هذه الأيام، يريد أن يبدو جديراً بالاحترام، متجنّباً ارتكاب أي أمر شنيع. فعندما يريد تهديد شخص ما، لا يقوم بإرسال رجاله، بل يُخبر الشرطة التي تعتقل الرجل المسكين، وتُبرحه ضرباً، ومن

ثم تُطلق سراحه".

قال إيشفار بغضب: "لماذا نضيّع وقتنا في التحدث عن ذلك الرجل؟ نحن هنا لمناسبة مُفرِحة، لا علاقة لنا به، فالله يحاسب التاكور دارامسي".

قال أشرف: "تماماً. هيا، لنذهب لشراء القمصان". وعلّق في الخارج لافتة تشير إلى إعادة فتح المشغل عند السادسة. "إنها غير ذات أهمية، فلا أحد يأتي". وبذل جهداً لإغلاق الباب الفولاذي القابل للطيّ، فسارع أوم لمساعدته. كان الباب عالقاً في سكّته ويتعيّن سحبه نحو الأعلى مجدداً.

قال لاهثاً: "يحتاج إلى تشحيم، كعظامي الهرمة".

سلكوا الطريق الترابي إلى البازار، واطئين الأرض الجافة والقاسية مروراً بأكواخ الحبوب ومنازل الفلاحين الحقيرة. كانت صنادلهم تسحق التراب، قاذفةً ألسنة صغيرة من الغبار.

"كيف كان المطر في المدينة؟".

قال إيشفار: "غزيراً، لقد فاضت الشوارع عدة مرات. ماذا عن هنا؟".

"كان قليلاً جداً. لقد وضع الشر مظلته فوقنا. لنأمل في أن يُغلقها هذا العام".

لقد جعلهم الطريق المؤدي إلى متجر الملابس يمرون بجانب مركز التخطيط العائلي، فأبطأ أوم، محدّقاً إلى الداخل. "قلتَ إن التاكور دارامسي مسؤول هنا؟".

"أجل، ويجني الكثير من المال".

"كيف؟ ظننتُ أن الحكومة تدفع للذين يخضعون للعملية".

"يضع الوغد كل تلك السيولة النقدية في جَيبه. فالقرويون عاجزون عن تدبّر أمورهم، ولا يحمل لهم التذمّر إلا المزيد من العناء. وعندما تخرج عصابة التاكور للبحث عن متطوعين، يرسل المساكين زوجاتهم بهدوء، أو يتقدّمون بأنفسهم للخضوع للعملية".

"عندما يُسمح لشرير مماثل بالازدهار، فلا بد من أن العالم يمر حقاً بظُلمة كاليوغ".

قال أوم مستهزئاً: "وتقول لي إنني أتفوّه بالهراء، إن قتل ذلك الوغد هو الطريقة الفضلى لإنهاء ظُلمة كاليوغ".

قال أشرف: "اهدأ، يا بنيّ، من يبصق عصارة التبغ على السقف لا يُعمي إلا نفسه. في العالم الآخر، ينال كل منا جزاء ما ارتكبه في هذا العالم".

فقلّب أوم عينَيه: "أجل، بالتحديد. ولكن، أخبرني، ما هو مقدار المال الذي يمكن أن يجنيه في ذلك المكان؟ فالمكافأة التي يحصل عليها مقابل العملية ليست كبيرة".

"ولكنه ليس المصدر الوحيد. فعندما يتم اصطحاب المرضى إلى العيادة، يبيعهم

بالمزاد العلني".

"ماذا يعني ذلك؟".

"كما تعلم، يجب على موظفي الحكومة تأمين حالتَي عُقم أو ثلاث حالات. فإذا لم يؤمّنوا العدد المتوجّب عليهم، تُلغي الحكومة مرتّباتهم لذلك الشهر. لذلك، يدعو التاكور كل معلّمي المدارس، ومديري تطوير المجمعات السكنية، وجُباة الضرائب، ومفتشي الأغذية، إلى العيادة. ويمكن لمن يشاء المشاركة في المزايدة ليكون القرويون من نصيبهم. وكل من يعرض سعراً أكبر تُسجَّل الحالات في الكوتا الخاصة به".

فهز إيشفار رأسه شاعراً باليأس. وقال، وهو يضع يدَيه على أُذُنَيه: "هيا، لنذهب، لا أريد سماع المزيد".

قال أشرف: "لا ألومك، إن الاستماع إلى الأمور التي تحدث في حياتنا كمن يشرب سُمّ الأفاعي؛ إنه يسمّم شعوري بالسلام. أصلّي كل يوم لتنقشع غمامة الشر تلك عن بلدنا، ويُحاسبُ الأشخاص الخاطئون".

خلال ابتعادهم عن المبنى، وقف شخص من مركز التخطيط العائلي عند الباب. وقال: "رجاءً، ادخلوا، لا انتظار، الطبيب متوافر، يمكننا إجراء العملية في الحال".

قال أوم: "أَبعد يدك عن رُجولتي".

بدأ الرجل يشرح بسأم قائلاً إن الناس أساءوا فهم إجراء قطع قناة المنيّ، ولا علاقة للرُّجولة بالأمر، حتى إن الطبيب لا يلمس أبداً ذلك الجزء.

قال أشرف مبتسماً: "لا بأس، نعرف ذلك. الفتى يمازحك ليس إلا". ولوّح بلطف، وأكملوا طريقهم.

خارج متجر الملابس الجاهزة، كانت مجموعات من القمصان والسراويل تخفق على علاّقات سلكية، ومُدلاّة من الظُلّة كفزّاعات طيور لا رؤوس لها. كان المخزون الرئيس موجوداً في علب كرتونية موضوعة على الرفوف. وبعد تخمين قياساتهما، قام البائع بعرض بعض القمصان. فتجهّم وجه أوم.

"لم تُعجبك؟".

هز أوم رأسه. ودفع الرجل العلب جانباً، وكشف عن مجموعة من الخيارات المتعاقبة. وراقب زبائنه بقلق.

قال إيشفار: "إنها جميلة". من دون أن يكون لوجود الرجل أي تأثير في قراره. وتفحّص قميصاً ذا كمّين قصيرَين عليه نقوش مربَّعة وقال: "إنه كالقميص الذي يرتديه مانيك تماماً".

اعتـرض أوم قائـلاً: "أجـل، ولكن انظر كيف أن طريقة خياطة الأزرار سـيئة، غسـلة واحدة وتُنتزَع كلها".

قال أشرف: "إذا أعجبك القميص خذه وسأثبّت لك الأزرار".

قال البائع: "دعني أُريك المزيد، في هذه العلبة نماذجنا المميَّزة وعالية الجودة من شركة ليبرتي غارمنت". ووضع ست عيّنات على المنضدة. "النقشات المقلَّمة تلقى رواجاً كبيراً في هذه الأيام".

التقـط أوم قميصـاً باللـون الأزرق الفاتـح مقلَّمـاً بخطوط زرقـاء داكنة، وأخرجه من كيسه الشفاف. قال باشمئزاز: "انظر إلى الجَيب، إنه مائل، والخطوط غير متراصفة".

أقـرّ البائـع: "أنـت مُحِـق". رافعـاً أغطية مزيد من العلب. "أنا أبيع الملابس فقط ولا أصنعها. ما العمل؟ لم يعد أحد يأبه بالعمل المُتقَن".

قال إيشفار: "تماماً، إنه واقع الحال في كل مكان".

أسـفوا علـى الزمـن المتبدل الذي بات من السـهل فيه العثـور على قمصان مُرضية. فطـوى الرجـل الملابـس المختـارة وفقاً لثنياتهـا الأصلية، وأعادها إلى الأكياس الشـفافة، وطقطق السلوفان بقوة. "رجاءً، عودوا، سأكون سعيداً بخدمتكم".

قال أشرف: "شكراً لك".

وقفوا في الشارع وناقشوا الخطوة التالية. قال أوم: "يمكننا القيام بجولة في البازار، ونرى إذا كان هناك من نعرفه".

قال أشـرف: "لديّ خطة أفضل، غداً هو يوم السـوق. لِنعُد في الصباح. كل من في القرى سيكونون هنا، وسيتسنّى لكم لقاء كثير من الأصدقاء".

وافق إيشـفار: "إنها فكرة جيدة، والآن دعاني أدعوكما للتمتع بمزيج جوز الكَوثَل، والشونام، والتبغ، قبل العودة إلى المنزل".

قال أشرف غير موافق: "لا تقل لي إنك تمارس هذه العادة".

"لا لا، لنقُم بذلك فقط لأنه يوم مميّز، فنحن نراك بعد فترة غياب طويلة".

عادوا إلى مؤسسة مظفر للخياطة ماضغين المزيج، ومارّين بمركز التخطيط العائلي مجدداً حيث أفرغ أشـرف فمه المليء بالعُصارة في الخندق، وأشـار إلى سـيارة متوقفة. "تلك هي سيارة التاكور دارامسي الجديدة. لا بد من أنه في الداخل يَعُدّ ضحاياه".

فدفعهما إيشفار على الفور، حاملاً إيّاهما على مواصلة السير.

قال أوم: "لماذا تركض؟ ليس علينا أن نخشى من ذلك الكلب".

"من الأفضل تجنّب الدخول في أي متاعب".

قال أشرف: "أوافقك الرأي، لماذا نرى وجه الشر إذا كنا لا نريد النظر إليه؟".

عندئذٍ، خرج التاكور دارامسي من المبنى، فتوجّه أوم نحوه بخطوات واسعة كما لو أنه يعتزم التصادم معه. وحاول إيشفار سحبه إلى جانب العم أشرف، فانزلق النعلان الجلديان لصندل أوم على الرصيف، وشعر بالغباء. لقد فاز عمه بحرب الشدّ، وتحوّل تحدّيه إلى إذلال أمام التاكور.

بصق أوم.

لم تصل نهاية القوس الأحمر إلى التاكور، بل سقطت مضغة التبغ أمامه على مسافة بضع أقدام، وبلّلت العُصارة الدَّبِقة الأرض بينهما. فتوقف التاكور، وانتظر الرجلان اللذان يرافقانه التوجيهات. وتوارى الناس الموجودون في الجوار عن الأنظار بسرعة خوفاً من رؤية ما قد يلي ذلك.

فقال التاكور بهدوء تام: "أعرف من تكون". ودخل السيارة، وأغلق الباب بقوة، وغادر.

في طريقهم إلى المنزل، كان إيشفار مضطرباً بسبب الغضب والقلق. "أنت مجنون! إذا كنت تريد الموت فلماذا لا تبتلع سُمّ الجرذان؟ هل أتيتَ من أجل زفاف أم جنازة؟".

"زفافي، وجنازة التاكور".

"دَعك من كلامك الذكي! يُفترض بي صفعك على وجهك بظاهر يدي!".

"لو لم توقفني، لتمكنت من البصق على وجهه تماماً".

فرفع إيشفار يده لضربه، ولكن أشرف منعه من القيام بذلك. "ما حدث قد حدث. علينا البقاء بعيداً عن طريق الشرير الآن".

قال أوم: "لست خائفاً منه".

"لستَ كذلك بالطبع. ما نريده هو عدم الدخول في أي متاعب تُفشل استعدادات الزفاف، هذا كل شيء. لسنا بحاجة إلى أن يُظلم فرحنا في ظلمة ذلك الشرير".

كان على إيشفار الاستمرار في تقديم النُّصح كما لو أنه يضع البلسم على عذابه. ولكن الذُّعر كان ينتابه من حين لآخر ويظهر على صورة إدانة مريرة لغباء ابن شقيقه. "تتصرف كبطل وتفكر كنكِرة. خطئي الوحيد هو أنني اشتريت لك مزيج التبغ. أنت بومة سيئة الطباع، كما اعتادت السيدة دينا مناداتك. ماذا حدث لحس الفكاهة لديك ومزاحك؟ من دون مانيك، لقد نسيتَ الضحك والاستمتاع بالحياة".

"كان يُفترض بك اصطحابه معك إذا كنت تظن بأنه رائع، وكان بإمكاني البقاء هناك".

"أنت تنطق بالهراء. نحن هنا لأيام قليلة فقط. سنعود قريباً إلى أعمالنا. لا يمكنك

التصرف بحكمة في هذه المدة القصيرة؟".

"هذا ما قلتَه في المدينة. سنبقى هناك لمدة قصيرة فقط، وسنعود قريباً إلى قريتنا الأم".

"ماذا تقصد؟ هل أنا المخطئ لأنه كان علينا المرور بظروف عسيرة أكثر مما توقعنا لجني المال في المدينة؟".

بعد ذلك، كفّا عن التطرق إلى الموضوع ليجنّبا العم أشرف البؤس الكامن في التفاصيل.

كان يوم السوق أكثر ضجيجاً من العادة بسبب قيام مركز التخطيط العائلي بالترويج لمعسكر العُقم انطلاقاً من حُجَيرة في الساحة، مُطلقاً العنان لمكبّرات الصوت، واللافتاتُ مدلاّةٌ من سلك يمرّ فوق الطريق وتحضّ على الخضوع لعمليات العُقم. واستُخدمت البالونات، والزهور، وفقاقيع الصابون، والأضواء الملوَّنة، والأفاعي، في ساحة السوق لإغواء أهل البلدة والقرويين الزائرين. كانت أغاني الأفلام السينمائية تُقاطَع في غالب الأحيان بإعلانات عن حاجة الأمّة إلى تحديد النَّسل، وإلى توفير الازدهار والسعادة لأولئك الراغبين في اعتماد العُقم، وإلى المكافآت السخية لقاء عمليات قطع قناة المنيّ واستئصال قناة فالوب.

تساءل أوم: "أين يُجرون العمليات الجراحية؟ هنا بالذات؟".

قال إيشفار: "لماذا؟ هل تريد المشاهدة أم ماذا؟".

فقال أشرف إن المركز ينصب في العادة خِيَماً خارج البلدة. "هم يديرونها كمصنع. اقطع هنا، قُصّ هناك، بضع قُطَب، وتكون البضاعة جاهزة للتسويق".

"يبدو كما لو أنها خياطة".

"في الواقع، نحن الخياطون نفتخر بعملنا أكثر من سوانا، ونهتم بالقماش أكثر من الاهتمام الذي يوليه هؤلاء المسوخ للناس. إنهم مصدر الخزي لأمّتنا".

ليس بعيداً من حُجيرة تحديد النَّسل، كان هناك رجل يبيع شراباً علاجياً للعجز الجنسي والعُقم. قال إيشفار: "يحظى الطبيب الدجال بشعبية أكبر من موظفي الحكومة".

كان الرجل ممشَّط الشعر، ويضع جِلد حيوان على كتفَيه، وعاري الصدر، ويشدّ سَيراً جِلدي على الجزء الأعلى من ذراعه مما يجعل الأوردة تنتأ على امتداد الذراع في عرض للقوة، ويلوّح بساعده المفتول كلما احتاجت مسألة تناسلية إلى برهان.

كانت هناك عدة أوعية زجاجية موضوعة أمامه على بساط، وتحتوي على أعشاب وكميات كبيرة من اللحاء. وكي لا يُظَنّ خطأً بأنها زخارف صيدلانية تافهة، أضاف إليها

مجموعة منوَّعة من العِظاءات والأفاعي لإضفاء طابع الفحولة الوحشية على العرض. وتوجد في إحدى الزوايا جمجمة بشرية، وفي وسط البساط رأس دب ذو عينَين كبيرتَين وبرّاقتَين، وفكَّين مفتوحَين على اتساعهما. لقد عانى هذا التذكار من كثرة التنقّل، فاقداً سنَّين تم استبدالهما بشكلَين مخروطيَّين خشبيَّين أبيضَين. وتَحدّ مجموعة الأسنان الضَّحوكة من شراسة الدب المُبهِرة للنظر. فالمشهد هزليّ.

كان بائع القُدرة الجنسية المتجوّل يشير بعصا إلى مخططات بيانية تعدّد الأعراض والعلاجات، وإلى رسوم بيانية لدارات كهربائية ربما. وفي أثناء التفسير، رفع هُدب ردائه كاشفاً عن رَبلتَي ساقَيه، وركبتَيه، وأخيراً عن فخذَيه العضليَّين. كانت بشرته البنّية تسطع تحت الشمس، وساقاه ملساوين مقارنةً مع صدره المكسوّ بالشعر. وللتشديد على ما يقوله، قام بصفع لحم فخذَيه الصلب عدة مرات. كان التقرير واضحاً كوضوح التصفيق بيدَين مثاليّتَين.

بالرغم من وجود حشد كبير حول البائع، كان الزبائن الفعليّون قليلي العدد، أما الباقون فكانوا واقفين من أجل التسلية. كما أن شراء المنتجات في وَضح النهار يعني إقراراً علنياً بالقصور. فالمبيعات تجري في وقت لاحق بعد انتهاء الأداء ومغادرة الساعين إلى المرح.

"هل تخطط للشراء؟". سأل إيشفار مدغدغاً مشاعر أوم الذي كان يُصغي بانتباه كبير.

"لست بحاجة إلى كل هذا الهراء".

قال أشرف واضعاً ذراعه فوق كتف أوم: "بالطبع لا، إن شاء الله يظهر الأبناء والابنات في الوقت المناسب".

وأكملوا سيرهم في البازار حتى وصلوا إلى بساطات البيع الخاصة بالشاماريين. قال أوم: "لا تقل شيئاً، قف فقط بهدوء، لنرَ كم سيمر من الوقت قبل أن يكتشفوا وجودنا".

فتظاهروا بمعاينة الصنادل، وقِرابات الماء، وحقائب اليد، والزنانير، ومشاحذ الحلاقين الجِلدية، والأحزمة. كانت الرائحة القوية للجِلد تخترق الأنوف عميقاً، موقِظةً الذكريات المنسيّة. فعرفهما شخص من القرية.

أُطلقت صَيحة سرور، تلتها صيحات الآخرين. كان الاستقبال مملوءاً بالغِبطة. وتجمّع الناس حولهما، وبدأت المحادثات. كان الجميع متلهّفين لملء الفراغ الذي أحدثه غياب الخياطَين الطويل.

فعلم إيشفار وأوم من القرويين بوفاة غامبير مؤخراً، وهو صديق العمر لدوكي، الذي سُكب جِلد مُذاب في أُذُنَيه قبل عدة أعوام. فبالرغم من التقيّح المستمر للحرق، توفّي

بسبب تسمّم في الدم ناجم عن جرحه قدمه بمِنجل صدئ. وتوفّيت أيضاً النساء المُسنّات: آمبا، بياري، بادما، وسافيتري. كنّ أكثر من يتذكّر عائلة الخياطَين؛ فقصتهما المفضَّلة هي الذهاب على متن الحافلة مع روبا ودوكي وعشرات آخرين لمعاينة زوجة نارايان العتيدة.

بعد الإشادة بالمتوفّين والمسنّين، عادوا إلى الحاضر. كان خبر مشاهدة العروس الوشيك قد انتشر في المجتمع الشاماري. فحمل رجلان أوم على مناكبهما، وجالا به كبطل فاتح كما لو أن الزفاف قد تمّ. وتدفّقت التهاني من كل فم، مما أحرج أوم. لقد شعر للمرة الأولى بعجزه عن القيام بردّ ذكي وسريع، في حين كان عمّه يومئ بوجه مُشرق.

فللمناسبة معنى مميَّز بالنسبة إلى أولئك الذين عرفوا والده. كانوا سعداء لأن ذرّيّة نارايان، وهو الشاماري الذي تحوّل إلى خياط متحدّياً الطبقة العليا، لن تزول. قالوا: "صلّينا من أجل عودة الابن ذات يوم، واستُجيبت صلواتنا. يجب على أوم مواصلة عمل والده. وسيقوم الأحفاد بذلك أيضاً".

بالنسبة إلى أُذُنَي إيشفار، لم يكن تَوق مجتمعه مراعياً للظروف خَوفاً مما يخبّئه القدَر. لقد وُلد هذا الخوف من تصرّف أوم المتهوّر مع التاكور دارامسي في اليوم السابق، وما زال يرتجف بسبب ذلك. فقاطع مُطلقي التمنيات الطيبة قائلاً: "ليست هناك فرصة للعودة. لدينا عمل جيد في المدينة. ومستقبل أوم مُشرِق هناك".

تحدّث الشاماريون عن السنوات التي شهدت مغادرة إيشفار وشقيقه القرية للمرة الأولى للعمل كمبتدئَين لدى مؤسسة مظفر للخياطة. وأخبروا أوم كم كان والده خياطاً لامعاً، في حين ابتسم أشرف، وهو المعلّم الفخور، وأومأ برأسه موافقاً على صحة ذلك. قالوا: "كان الأمر رائعاً، كان باستطاعة نارايان أخذ فضلات صاحب ملك سمين وتحويلها بواسطة آلته إلى ملابس جديدة لنا. كان باستطاعته أخذ خِرَقنا وتحويلها إلى ملابس تليق بمَلك. لن نرى مثله أبداً. كان شديد السخاء وشجاعاً جداً".

فبدّل إيشفار الموضوع مرة أخرى، قلِقاً من الأثر الذي ستتركه عملية استرجاع الذكريات في نفس أوم. قال: "يخبرنا العم أشرف عن الأيام القديمة منذ وصولنا، ويُطلعنا على ما يحدث في هذه الأيام".

هكذا، علم إيشفار وأوم بتعرّض النهر للجفاف مؤخراً، واكتُشف أن قعره الصخري كرويّ الشكل يتمتع بمواصفات تشفي الأمراض. في قرية أخرى، قام ناسك هندوسي بالتأمل تحت شجرة، وعندما غادر، خرجت أغصان من الجِذع على صورة غانيش. وفي مكان آخر، وفي أثناء القيام بمسيرة دينية إكراماً لماتا كي ساواري، دخل أحدهم في غيبوبة ورأى تحوّل امرأة إلى مشعوذة تُنزل المصائب بالمجتمع. لقد ضُربت حتى الموت، وتوقعت القرية أوقاتاً أفضل مذاك الحين؛ ولكن لسوء الحظ، وبعد عام، ما زالوا ينتظرون

حلول هذه الأوقات.

قبل انجراف الحديث مجدداً إلى الماضي، قال إيشفار: "نراكم في الزفاف، إذا سار كل شيء بخير". وغادروا في جوّ من الابتهاج والضحك.

جالـوا داخـل قسـم الخضار حيث اشـترى البـازلاء، والكُزبرة، والسـبانخ، والبصل. "سأطهو الليلة طبقي المميَّز".

قال أشرف واضعاً ذراعه حول أوم مجدداً: "وسيمنّ علينا خبير التشوباتي بمهاراته". لقد كان من الصعب عليه الامتناع عن الاستمرار في ملامسـة الاثنَين ومعانقتهما لأنهما بمثابة ابن وحفيد له. إضافةً إلى ذلك، كان يحاول النأي بنفسـه عن يوم الرحيل الرهيب الذي يبزغ فجره بعد انتهاء الاحتفالات.

قال إيشـفار: "توقفٌ واحد فقط قبل أن نعود إلى المنزل". واصطحبهما إلى متجر السّـلع الدينية، واشـترى سُـبحة خرز مرتفعة الثمن. قال لأشـرف: "إنها هدية صغيرة منا، نأمل في أن تستخدمها لسنوات عديدة قادمة".

قال: "إن شاء لله"، وقبّل حبّات الكهرمان. "لقد اخترتَ الغرض المناسب لي".

ادّعى أوم: "إنها فكرتي، لاحظنا أنك تمضي معظم وقتك في العبادة".

"أجـل، إنهـا تأثيـرات الكهولـة علينـا، ونتيجة تفكيرنا في حتميـة موتنا". وطلب من البائـع التوقـف عـن إعـداد ورقـة صحيفة لتوضيب السُّـبحة. قائـلاً: "لا حاجة إلى ذلك". ولفّ الهدية الثمينة حول أصابعه.

نادى بائع غزل البنات على بضاعته بالقرب منهم.

قال أوم: "أريد واحدة".

"كل أكثر، احصل على اثنَين!". ورنّ جرسه النحاسي.

فرفع إيشفار إصبعاً واحدة، وشغّل البائع الآلة.

فراقبوا وسط الآلة يطنّ ويئزّ، غازلاً خُصَلاً صغيرة زهرية اللون. وحرّك الرجل عصا داخل الحوض لجمع الخيوط حلوة المذاق. وعندما بلغ حجم الكرة رأساً بشرياً، أوقف عمل الآلة.

قال أشرف: "تعرف كيف تعمل؟ هناك مِغزَل كبير في الداخل يوجد فيه سكّر وصباغ زهريّ اللون. عندما يدير الرجل الآلة يبدأ بغزل خيوطه".

قـال أوم: "بالتأكيـد". وربّـت لـه تحـت ذقنه متحسساً لحيته البيضـاء الجميلة. "هل صُنعت لحيتك بهذه الطريقة أيضاً؟".

كان الوقت يشـارف على بلوغ الثانية عشـرة ظهراً، والشـاحنات تهدر على الطريق

الرئيس وتركن خارج ساحة السوق. لم يكن أحد يعير الأمر اهتماماً. فحركة السير كثيفة في هذا اليوم من الأسبوع.

"هل تريد أن تتذوّق؟". ومدّ أوم العود.

فرفض إيشفار، ولكن أشرف قرر تذوّق القليل، وحاول عبَثاً تجنّب التصاق الزغَب بلحيته. لون زهريّ اللون على لون أبيض، فزمجر أوم واقتاده إلى نافذة متجر الساري ليُريه لحيته. "تبدو جميلة، يا عم أشرف. باستطاعتك اعتماد موضة جديدة".

قال أشرف: "بتَّ تعرف الآن لماذا تُدعى غزل البنات". منظّفاً لحيته.

كان إيشفار يراقب برِضى، مبتسماً بسعادة. فبالرغم من كل شيء، إن الحياة جيدة، قال لنفسه. كيف يمكنه التذمّر عندما يُنعَم عليه وأوم بصداقة أشخاص كالعم أشرف، والسيدة دينا، ومانيك.

ظهر مزيد من الشاحنات حول الساحة، شاغلةً الطرقات الضيّقة المؤدية إلى داخل البازار. إنها شاحنات القُمامة ذات السقوف المستديرة مع فتحات في الخلف.

تساءل أشرف: "لماذا جاءت باكراً؟ ما زال أمام السوق عدة ساعات قبل الإقفال، ولا يبدأ التنظيف حتى المساء".

"ربما يريد السائقون القيام ببعض التسوق".

فجأةً، دوّت الصفارات، ودخلت عربات الشرطة السوق، وتفرّقت مجموعات المتسوّقين. لقد توقفت العربات في الوسط وأنزلت كتيبة من رجال الشرطة الذين توزعوا في مواقع داخل الساحة.

قال إيشفار: "حراس من الشرطة للبازار؟".

قال أشرف: "هناك خَطب ما".

كان المتسوّقون يراقبون بذهول. وبدأت الشرطة بعد ذلك بالتقدم وإلقاء القبض على الناس. فقاوم المعتقَلون المُربَكون صائحين وسائلين: "قولوا لنا قبل كل شيء! ماذا فعلنا!؟ كيف يمكنكم إلقاء القبض على الناس بهذه الطريقة؟ يحقّ لنا التواجد هنا، إنه يوم السوق!".

فأجاب رجال الشرطة بمواصلة الاعتقالات، وقوبلت المقاومة بالتلويح بالهراوات. وساد الذُّعر في السوق مع تدافع الناس، والتوسّل إلى رجال الشرطة، ومحاولة خرق الحصار. ولكن الساحة حوصرت بشكل فعّال، وتعرض أولئك الذين بلغوا الطَّوق للضرب والتراجع فالوقوع بين أيدي الشرطة.

حُطِّمت الأكشاك والمنصات، وقُلبت السلال، وسُحقت الصناديق. وفي غضون

ثوانٍ، امتلأت أرض الساحة بالبندورة والبصل، والسبانخ، والكزبرة، والفلفل الأحمر... بقع برتقالية وبيضاء وخضراء اللون مبعثَرة خارج صفوفها المرتَّبة. وسقط دب بائع القُدرة الجنسية تحت الأقدام، فاقداً المزيد من أسنانه، في حين تعرّضت العِظاءات والأفاعي المَيتة إلى مِيتة ثانية. واستمرّ دويّ الموسيقى الصادرة عن حُجَيرة التخطيط العائلي.

قال أشرف: "تعاليا إلى هذه الجهة، بسرعة، سنحتمي هنا". واقتادهما إلى مدخل باب تاجر أقمشة اعتاد تحويل الزبائن إلى مؤسسة مظفر للخياطة. كان المتجر مُقفَلاً. فقرع الجرس، ولم يُجب أحد. "لا تهتما، سنبقى هنا حتى تهدأ الأمور. لا بد من أن الشرطة تبحث عن مجرمين بين الحشد".

لكن الشرطة كانت تُمسك بالناس عشوائياً. وكانوا يقتادون مُسنّين، وشبّاناً، وسيدات منازل مع أطفالهنّ إلى الشاحنات. لقد تمكن قليلون من الفرار، وحوصر معظم الناس كالدجاج، عاجزين عن القيام بأي شيء بانتظار قيام مطبّقي القانون بجمعهم.

قال أشرف: "انظرا، هناك منفَذ واحد في تلك الزاوية. إذا ركضتما بسرعة فستتمكنا من الخروج عبره".

"ماذا عنك؟".

"سأكون بأمان هنا، سألتقيكما في المتجر لاحقاً".

قال إيشفار رافضاً المغادرة: "لم نرتكب أي خطأ، ليس علينا الركض كاللصوص".

راقبوا من مدخل الباب الشرطة وهي تواصل مطاردة أولئك الذين يشقون طريقهم وسط الفاكهة والحبوب المبعثَرة والزجاجيات المحطَّمة. فتعثّر أحدهم، وسقط على الشظايا الزجاجية وجرح وجهه. وفقد مطارده الاهتمام به، واختار فريسة أخرى.

قال إيشفار. "انظر إلى تلك الدماء! وها هم يتجاهلونه الآن! ماذا يجري؟".

قال أشرف: "لا أتفاجأ إذا كان ذلك الشرير دارامسي وراء ذلك، فهو يملك شاحنات القُمامة تلك".

ومع امتلاء الشاحنات، بدأت أعداد الناس في الساحة تتضاءل. وكان على الشرطة بذل مزيد من الجهد لإلقاء القبض على المتبقّين. وبعد قليل، أحاط ستة رجال شرطة بالخياطين. "أنتم الثلاثة! اصعدوا إلى داخل الشاحنة!".

"ولكن، لماذا؟".

قال أحدهم، رافعاً عصاه: "رافقونا فحسب، لا تجادلوا".

فوضع أشرف يدَيه أمام وجهه، والتقط الشرطي السُبحة وشدّ، قاطعاً الخيط. وهوت الخرزات على الرصيف بكسَل.

فصاح شرطيان آخران خلال انزلاقهما على حبّات الكهرمان كرويّة الشكل. ولدى رؤية رفيقَيه يسقطان، شرع الشرطي الغاضب بالضرب بعصاه.

فأنّ أشرف وانهار ببطء على الأرض.

قال إيشفار متوسّلاً: "لا تؤذِه رجاءً. لقد حدث ذلك خطأً!". وجثا وأوم ليمسكا برأسه.

قال الشرطي: "قفا. إنه بخير، وهو يتظاهر فحسب. لقد وجّهتُ له ضربة خفيفة".

"ولكن رأسه ينزف".

"قليلاً. هيا، ادخلا الشاحنة".

تجاهل الخياطان الأمر، رغبةً منهما في الاهتمام بالعم أشرف. فركلهما الشرطي كلٌّ بمفرده، فصرخا وأمسكا بأضلاعهما. وبينما كان يسحب قدمه إلى الوراء للركل مجدداً، وقفا، فاقتادهما إلى الشاحنة.

صاح إيشفار: "ماذا عن العم أشرف؟ هل ستدَعونه على الرصيف؟".

"لا تصرخ في وجهي، أنا لست خادمك أو ما شابه! سأوجّه لك ضربة مُحكمة على وجهك!".

"آسف، سامحني رجاءً! ولكن العم أشرف مصاب، أريد مساعدته!".

فاستدار الشرطي لينظر مجدداً إلى الرجل المُسنّ. كانت الدماء ترشح من شعره الأبيض الضئيل، ثمّ تنزل ببطء على حافة الرصيف. ولكن التوجيهات تقضي بعدم وضع فاقدي الرشد على متن الشاحنات. قال دافعاً إيّاهما للصعود إلى متن الشاحنة: "سيعتني به الآخرون، لا تقلقا بشأنه".

على الرصيف، كان كلب يشمّ غزل البنات، فالتصق الزغَب بخَطمه، وحرك الحيوان اللحية زهرية اللون بقدمه، وضحك طفل جالس في حضن والدته في الشاحنة بسبب حركات المخلوق المُضحكة. أوقفت الشرطة جولتها بعد امتلاء شاحنات القُمامة، ووجد الناس المتبقّون في الساحة فجأةً أنهم أحرار ويسمح لهم بالمغادرة.

* * *

كان معسكر التعقيم على مسافة قصيرة من البلدة، وقد نُصبت فيه عشرات الخِيَم في حقل في الضواحي حيث تنتشر الشُعَيرات التي خلّفها الحصاد الأخير. ورحّبت بشاحنات القُمامة لافتاتٌ، وبالونات، وأغانٍ مماثلة لتلك الموجودة في السوق. وارتفع عويل الركاب المذعورين لدى رَكن العربات في منطقة مفتوحة وراء الخِيَم، بجانب سيارة

إسعاف ومولّد للطاقة الكهربائية يعمل على المازوت.

كانت هناك أسلاك كهربائية ممتدة من المولّد الهادر إلى داخل خيمتَين أكبر حجماً وأقوى بنية، ويوجد خارجهما مستوعَبان أحمران أسطوانيّا الشكل للمواقد العاملة على الغاز. وفي الداخل، أُعدّ مكتبان مغطّيان بملاءات من النايلون ليكونا طاولتَين للعمليات الجراحية.

فرك الموظف الطبّي المسؤول عن المعسكر أنفه وهو يقف إلى جوار الشاحنات. لقد التصقت بمنخريه رائحة التعفّن الملازمة لشاحنات القُمامة، فقال لرجال الشرطة: "انتظروا عشر دقائق ريثما ننتهي من احتساء الشاي. وأدخلوا أربعة فقط في كل مرة؛ أدخلوا رجلين وامرأتين". لم يكن يريد أن يضع في الخيمتَين عدداً أكبر مما يمكن للأطباء الحاضرين التعاطي معه وإلا أدى الأمر إلى حالة أكبر من الذُّعر.

قال رجال الشرطة لأحدهم الآخر، متذمّرين: "لا أحد يقدّم لنا الشاي، وهذه الموسيقى السخيفة. الأغاني نفسها مراراً وتكراراً".

بعد نصف ساعة، كان عليهم الشروع بالعمل. فتم اختيار أربعة أشخاص من الشاحنة الأقرب، واقتيدوا إلى الخيمتَين الرئيستين صارخين، ودُفعوا إلى الطاولات. قال الطبيب: "كفّوا عن المقاومة، إذا انزلق السكين، فإنه سيؤذيكم دون سواكم". فأخافهم التحذير وامتثلوا بصمت.

راقب رجال الشرطة الخِيَم بحِرص، محاولين تزويد الأطباء بالمرضى بشكل مستمر وفقاً للتوجيهات. ولكن عدداً منهم شعر بالارتباك بسبب عدم إجادتهم القراءة، فكانوا يرافقون النساء إلى خيمة قطع قناة المنيّ. كان بالإمكان فهم الارتباك الذي يشعرون به: فباستثناء اللوحات المكتوبة باليد، كانت الخيمتان متماثلتَين، ويبدو الموظفون الطبيّون بزيهم الأبيض متشابهين.

"الرجال إلى الخيمة اليسرى، والنساء إلى اليمنى"، كان الأطباء يذكّرونهم تكراراً. وازداد تكدّرهم بعد أن اشتبهوا بأن هذا اللغط يحدث عَمداً؛ ربما هو نوع من أنواع حس الفكاهة التافه لدى رجال الشرطة. أخيراً، رسم مساعد طبّي صور أشخاص بقلم تأشير أسود على اللافتات كتلك الموجودة في المراحيض العامة. وبرسم عِمامة للذكور، وسارٍ مع ضفيرة طويلة للنساء، لم يعُد بالإمكان الوقوع بالخطأ، وتمكن رجال الشرطة من العمل بدقة أكبر.

لقد حاولت امرأة مُسنّة مناقشة الطبيب بشكل منطقي. قالت: "أنا مُسنّة، رَحمي عقيم، ولا وجود للبويضات فيه. لماذا تهدرون وقتكم عليّ؟".

فدنا الطبيب من المسؤول الإقليمي الذي يحتفظ بسجلّ عن إجراءات اليوم قائلاً: "هذه المرأة تخطت سنّ الحَمْل، يُفترض بك شطبها عن اللائحة".

"هل هو استنتاج طبّي؟".

قال الطبيب: "بالطبع لا، لا وجود لتجهيزات هنا للتحقق من الأمر".

"في تلك الحالة، أجرِ لها العملية. غالباً ما يكذب هؤلاء الناس بشأن سنّهم، والمظاهر مخادعة. فمن خلال أسلوب حياتهم، قد تبدو تلك البالغة من العمر ثلاثين عاماً كما لو أنها في الستين بسبب تغضّن بشرتها بفعل الشمس".

بعد مضيّ ساعتَين على الشروع بعمليات التعقيم، أسرعت ممرضة إلى رجال الشرطة مع توجيهات جديدة. قالت: "رجاءً، أبطئوا في إدخال المريضات، هناك مشكلة تقنية في خيمة استئصال قناة فالوب".

اغتنم رجل متوسط العمر الفرصة للاحتكام إلى الممرضة، وقال باكياً: "أتوسّل إليك، أَجري العملية لي، لا آبه. لقد أنجبتُ ثلاثة أبناء. ولكن ابني الموجود هنا في السادسة عشرة من عمره فقط! لم يتزوج قطّ! اعفي عنه!".

أجابت: "لا سلطة لديّ، عليك التحدث إلى الطبيب". وأسرعت بالعودة للمساعدة على حل المشكلة التقنية. لم يكن جهاز التعقيم يعمل، وعليها غلي الماء لتطهير المعدات.

همس إيشفار لأوم، مقرِّباً إيّاه منه بذراعيه المرتجفتَين: "هل رأيت؟ كنت مُحِقاً، سيُفرج عنك الطبيب، هذا ما قالته الممرضة للتوّ. يجب علينا التحدث إلى الطبيب وإخباره بأنك لم تُنجب أطفالاً بعد".

في الشاحنة التي يتواجد فيها الخياطان، كانت هناك امرأة تُطعم طفلها، غير آبهة بالكَرْب المحيط بها، وهي تدندن أغنية بحنان، جاعلةً جسدها يتمايل لمساعدة الطفل على النوم. سألت إيشفار:"هل تحمل لي طفلي عندما يحين دَوري؟".

"لا تقلقي، يا أختاه".

"لستُ قلقة. أنا أتطلّع لذلك. سبق لي أن أنجبتُ خمسة أطفال، ولن يسمح لي زوجي بالتوقف عن الإنجاب. وبهذه الطريقة، لن يكون أمامه خيار آخر؛ لقد أوقفت الحكومة الولادات". وشرعت بالغناء ثانيةً: "نا-نا-نا-نا نارايان، يا طفلي نارايان النعسان...".

بعد قليل، أومأ الشرطي إليها، فأبعدت الطفل عن صدرها، وانفصلت حلمة الثَّدي المنتفخة عن فم الطفل مُحدِثةً فرقعة خفيفة. وراقبها أوم وهي تدسّ ثديها داخل ثوبها. فمدّ إيشفار ذراعَيه بلهفة وأخذ الطفل الذي شرع بالبكاء بينما كانت والدته تنزل من

الشاحنة.

فأومأ إيشفار لطمأنتها، وهدهد الطفلَ برِفق في حضنه. وحاول أوم إلهاء الطفل من خلال القيام بحركات مُضحكة بالوجه. بعد ذلك، بدأ إيشفار يغنّي كالوالدة، مقلِّداً اللحن: "نا-نا-نا-نا نارايان، يا طفلي نارايان النعسان".

فتوقف الطفل عن البكاء، وتبادلا نظرات ظافرة. بعد دقائق، انهمرت الدموع على خدَّي إيشفار، وأشاح أوم بنظره؛ لم يكن بحاجة إلى سؤاله عن السبب.

مُحبَطين بسبب الخلل في عمل التجهيزات، أجرى الأطباء العمليات ببطء طوال بعد الظهر، ومُدِّدت فترة عمليات حتى ما بعد موعد الإقفال عند السادسة مساءً. وتعطّل جهاز التعقيم الثاني أيضاً. وقرابة السابعة، وصل كبير مديري مركز التخطيط العائلي مع مساعده الخاص.

فعدّل رجال الشرطة وقفتهم في أثناء قيامهم بتفقّد المعسكر. وأعرب المدير عن استيائه من عدد المرضى الموجودين في الشاحنات. ودنا بعد ذلك من الأطباء الموجودين بجانب الموقدَين العاملَين على الغاز في انتظار غلي الماء، وقرر التعبير لهم عن رأيه.

قال بغضب خلال قيامهم بتمنّي أمسية جيدة له: "كفّوا عن تضييع الوقت، أليس لديكم حسّ بالواجب؟ هناك عشرات العمليات المتبقية. يمكن لأحدهم إعداد الشاي لكم".

"نحن لا نُعِدّ الشاي. الماء مخصَّص لتنظيف المعدات. الآلة متوقفة عن العمل".

"المعدات نظيفة بما يكفي. كم من الوقت تعتزمون تسخين الماء؟ الفعالية فائقة الأهمية في مؤسسة النوسباندي ميلا، ويجب تحقيق الأهداف ضمن الميزانية المحدَّدة. من سيدفع ثمن المستوعَبات أسطوانية الشكل؟". وهدد برفع الأمر إلى السلطات العُليا إذا لم يتعاونوا، وإلغاء الترقيات، وتجميد الرواتب.

فاستأنف الأطباء العمل بواسطة تجهيزات معقَّمة جزئياً. لقد بلغهم أن زملاء لهم عانوا مما يعانون منه.

راقب المدير لفترة من الزمن، محتسباً مدة العمليات ومتوسط مدة إجراء العملية الواحدة، ثم قال لمساعده الشخصي: "إنهم شديدو البطء، يحوّلون مهمة قص بسيطة إلى انهماك لا حاجة إليه".

وقبل المغادرة، أطلق التهديد الأخير الموجود في جعبته. "تذكّروا، سيأتي التاكور دارامسي في وقت لاحق للتحقق من مجموع العمليات. وإذا لم يكن مسروراً من عملكم، فتضطرّون إلى تقديم استقالاتكم".

قال الأطباء: "أجل، يا سيدي".

مكتفياً بذلك، ذهب لمعاينة الخِيَم الأخرى، وبقي مساعده الشخصي بجانبه كمترجم تعبّر ملامح وجهه عن وجهة نظر رئيسه.

أسرّ المدير لمساعده: "علينا أن نكون حازمين مع الأطباء، إذا تُرك لهم أمر درء خطر الانفجار السكاني، فستغرق الأمّة، وتُثبَّت على وتد حتى الموت، وتنتهي حضارتنا. لذلك، يجب علينا التأكد من الفوز في الحرب".

قال المعاون: "أجل، سيدي. تماماً، يا سيدي". وكان يشعر بالسعادة بسبب تلقّيه هذه الحكمة التي خصّه بها.

كانت الشمس تتوارى في الأُفق عندما حان دور الخياطَين. فناشد إيشفار الشرطي الذي يمسك بسلاحه: "يا صديقي الشرطي، لقد حدث خطأ. نحن لا نُقيم هنا. جئنا من المدينة لأن ابن شقيقي يريد الزواج".

"لا أستطيع شيئاً حيال ذلك". ووسّع خطواته.

رفع إيشفار قدمَيه عن الأرض، وقال لاهثاً بصوت متقلّب: "هل يمكنني رؤية المسؤول؟".

"الطبيب هو المسؤول".

داخل الخيمة، تحدث إيشفار إلى الطبيب بخجَل: "هناك خطأ، أيها الطبيب. نحن لا نقيم هنا".

فلم يُبدِ الرجل المُرهَق أي رد فعل.

"يا سيدي الطبيب، أنت بمثابة الوالدة والوالد لنا نحن الشعب المسكين، فعملك الصالح يحفظ صحتنا. وأظن أن الخضوع لعملية التعقيم أمر شديد الأهمية. أنا لن أتزوج أبداً يا سيدي الطبيب، رجاءً أجرِ لي العملية وسأكون ممتنّاً، ولكن أطلق سراح ابن شقيقي، يا سيدي الطبيب، هو يدعى أومبراكاش وسيتزوج قريباً، رجاءً أصغِ إليّ، يا سيدي الطبيب، أتوسّل إليك!".

فدُفع بهما إلى الطاولتَين وخُلع بنطالاهما. وشرع إيشفار بالبكاء: "رجاءً، يا سيدي الطبيب! ليس ابن شقيقي! اقطع ما يحلو لك من أعضائي! ولكن اعفُ عن ابن شقيقي! لقد انتهت ترتيبات زفافه!".

لم يقل أوم شيئاً. لقد تمنى قيام عمه بإيقاف توسلاته المُذلة والمحافظة على كرامته. وتموّج السقف المصنوع من الخَيش قليلاً مع هبوب ريح خفيفة. كان يحدّق بخدَر في أثناء تمايل المصابيح الكهربائية.

كان الغسق قد أصبح ليلاً عندما تلقّى الخياطان المساعدة من قِبَل الممرضات للنزول عن الطاولة. قال أوم: "الأمر مؤلم!".

قال الطبيب: "الألم طبيعي لمدة ساعات قليلة، ليس هناك ما تقلق بشأنه".

وتم اقتيادهما عبر الحقل المُظلم في اتجاه خيمة النقاهة، وهما يعرجان. قال إيشفار ناشجاً: "الآن، لماذا تُبقونا هنا؟ ألا يمكننا العودة إلى المنزل؟".

قالت الممرضة: "يمكنكما ذلك. ولكن من الأفضل لكما أن ترتاحا قليلاً".

بعد قيامهما بخطوات قليلة، ازدادت حدة الألم. فقررا الأخذ بنصيحتها والاستلقاء على فراشَين من القش. ولم يلاحظ أحد بكاء إيشفار: فكل من في الخِيَم كانوا يشعرون بالحزن ويذرفون الدموع. وقُدِّم لكل منهما القليل من الماء وبسكوتتان.

قال باكياً، ومُمرِّراً البسكويتتين لأوم: "لقد دُمِّر كل شيء، لن توافق أي من العائلات الأربع أبداً على تزويجك من بناتها".

"لا أبالي".

"أنت فتى غبيّ لا تفهم ما يعنيه ذلك! لقد خذلتُ والدك المتوفّى! سيموت اسم عائلتنا من دون أطفال، إنها نهاية كل شيء. لقد ضاع كل شيء!".

"ربما بالنسبة إليك. ولكنني ما زلت أحتفظ بكرامتي. أنا لا أبكي كطفل".

كان رجل جالس على الطبلية المجاورة يتعمّد الإصغاء إلى حوارهما. فرفع نفسه على أحد مِرفقَيه وقال: "لا تبكِ، انظر إليّ، سمعتُ بأن العملية قابلة لأن تُعكَس".

"ولكن، كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ بعد قطع قناة المنيّ؟".

"لا، إنه أمر ممكن. باستطاعة الأخصائيين في المدن الكبيرة إعادة وصل قناة المَنيّ".

"هل أنت واثق من ذلك؟".

"واثق تماماً. ولكن تكلفة العملية مرتفعة جداً".

مسح إيشفار وجهه: "هل سمعتَ ذلك، يا أوم؟ ما زال هناك أمل! لا تبالي بالتكلفة العالية. سنُجريها لك! سنخيط لدى السيدة دينا كالمجانين، ليلاً ونهاراً! وسأجعلهم يُعيدون وصل قناة المَنيّ لديك!".

التفت إلى فاعل الخير."ليباركك الله على هذه المعلومة ويمكّنك من إجراء عملية إعادة الوصل أيضاً".

قال الرجل: "لا أريد ذلك، لديّ أربعة أبناء. في العام الماضي، قصدتُ طبيبي وخضعتُ للعملية بملء إرادتي. لقد أجرى هؤلاء الحيوانات العملية لي للمرة الثانية".

"الأمر أشبه بإعدام رَجل مَيت. ألا يُصغون إلى أي شيء؟".

"ما العمل عندما يتصرف الناس المثقَّفون كالهمجيين؟ كيف تتحدث إليهم؟ عندما يفقد أصحاب النفوذ عقلهم، لا يعود هناك أي أمل". وشاعراً بألم حاد في مَشعَبه، أنزل مِرفقه واستلقى.

مسح إيشفار عينَيه واستلقى أيضاً. ومدّ يده باتجاه الفراش المجاور، وربّت على ذراع ابن شقيقه. "لقد وجدنا الحل، يا بنيّ، لا حاجة إلى القلق الآن. سوف نعود إلى المدينة، ونعكس عملية قطع قناة المَنيّ، وسنعود في العام التالي للزفاف. ستكون هناك عائلات أخرى مهتمة. وربما تكون حالة الطوارئ اللعينة تلك قد انتهت حينذاك، وعادت الحكومة إلى رشدها".

سُمع صوت مماثل لصنبور مفتوح، وهسهسة؛ كان أحدهم يتبوّل خارج الخيمة. لقد أغضب صوت الدَّفق المرتفع المصطدم بالأرض الرجلَ الذي خضع للعملية مرتَين. فنهض على مِرفقه مجدداً. "هل رأيت؟ إنهم كالحيوانات، كما قلت لك. حتى إن رجال الشرطة هؤلاء لا يتمتعون باللياقة للذهاب إلى الحقل للتبوّل".

كان الظلام يهبط، والأطباء يُجرون عملياتهم القليلة الأخيرة عندما وصل التاكور دارامسي. فاحتشد رجال الشرطة والعاملون في مركز التخطيط العائلي للانحناء أمامه، وتدافعوا في محاولة للمس قدمَيه. فتحدث بإيجاز إلى الأطباء والممرضات، ومن ثم توجّه بخطى واسعة إلى خِيَم النقاهة، ملوّحاً للمرضى بيده، وشاكراً إيّاهم لتعاونهم في إنجاح معسكر التعقيم.

همس إيشفار بإلحاح في أثناء دنوّ التاكور من صفهما: "بسرعة، أَدِر وجهك يا أوم، وغطِّه بذراعيك، وتظاهر بأنك نائم".

توقف التاكور دارامسي عند أسفل فراش أوم وحدّق إليه. ثم تمتم ببضع كلمات لشخص ما بجانبه. وغادر الرجل، وعاد بعد لحظات مع أحد الأطباء.

فكلّمه التاكور بهدوء، وانكمش الطبيب خَوفاً، هازّاً رأسه بحماسة. وهمس التاكور ثانيةً، فشحب وجه الطبيب.

بعد قليل، وصلت ممرضتان، وساعدتا أوم على الوقوف. فقال معترضاً: "ولكنني أريد أن أرتاح، ما زلت أشعر بالألم".

"يريد الأطباء رؤيتك".

صاح إيشفار: "لماذا؟ لقد أنهيتم عمليته للتوّ! الآن، ماذا تريدون؟".

في خيمة العمليات، كان الأطباء واقفين وظهورهم إلى المدخل، وهم يراقبون الماء يغلي بشدة. كان المِشرط في القعر يلمع تحت الفُقاعات. فأومأ للمرضتَين لوضع المريض

على الطاولة.

شرح لهما بعد أن وجد نفسه مضطراً إلى القيام بذلك: "ورم في الخصيتَين، سمح التاكور بإزالتهما خدمة للفتى". لقد فضح الارتعاش في صوته الكذبة.

فنُزع سروال أوم للمرة الثانية، ووُضعت خِرقة منقوعة بالكلوروفورم على أنفه. فشدّها للحظات، وفقد القوة بعد ذلك. أزال الطبيب الخِصيتَين بعملية شق سريعة، وخاط الجُرح البليغ، ووضع ضمادة كبيرة عليه.

قال: "لا ترسلا هذا المريض إلى المنزل مع الآخرين، سيكون بحاجة إلى النوم هنا الليلة". وغطتاه بملاءة وجرّتاه إلى خيمة النقاهة على حمّالة.

صاح إيشفار: "ماذا فعلتما به؟ لقد خرج على قدمَيه، وأعدتماه فاقد الوعي! ماذا فعلتما بابن شقيقي؟".

قالتا محذّرتَين: "هدوء". أنزلتا أوم من الحمّالة إلى السرير. "كان شديد المرض، وأجرى له الطبيب عملية جراحية لإنقاذ حياته. يُفترض بك أن تكون ممتنّاً بدلاً من الصراخ. لا تقلق، سيكون بخير عندما يستيقظ. طلب منه الطبيب الاستراحة هنا حتى الصباح. يمكنك البقاء أيضاً".

ذهب إيشفار إلى جانب ابن شقيقه للتحقق من الأمر، وتكلّم معه. فلم يُجب أوم؛ كان نائماً. وسحب إيشفار الملاءة وبدأ بفحصه: يداه وأصابع يدَيه وقدمَيه سليمة. وتحقق من الظهر؛ لم تكن هناك آثار لضربات بالسَّوط. وكان الفم في حال جيدة، واللسان والأسنان غير متضررة. وبدأ خوفه يتراجع؛ ربما تركه التاكور بمفرده.

ومن ثم عثر على لطخات دم على الجانب السفلي من المَشعب. هل يمكن أن يكون ذلك بسبب عملية قطع قناة المَنيّ؟ ونظر إلى نفسه باتجاه الأسفل، فلم يجد أي دماء. وفك سروال أوم بأصابع مرتجفة، ورأى الضمادة الكبيرة. وفك سرواله لإجراء مقارنة: كانت هناك قطعة شاش صغيرة وشريط لاصق للعمليات الجراحية. فوضع أصابعه على ضمادة أوم ولم يجد شيئاً. مزدرداً ريقه بصعوبة، حرّك أصابعه فوق منطقة المَشعب باضطراب، آملاً في تحسس الخِصيتَين، رافضاً التصديق أنهما غير موجودتَين.

وصاح بعد ذلك.

"انظروا إلى ما فعلوه بابن شقيقي! انظروا! لقد خصوه!".

فنهض أحدهم من الخيمة الرئيسة وطلب منه التزام الهدوء. "لماذا تصرخ مجدداً؟ ألم تفهم؟ كان الفتى شديد المرض، كان يشكو ذلك الجزء من ورم خطِر استلزم إزالته".

كان الرجل الذي خضع لعمليتَي قطع المَنيّ قد غادر، والمتبقّون في الخيمة منشغلين

بأساهم ويحاولون التأقلم مع الغثيان والدُّوار. وعندما شعروا بالقوة، نهضوا وعادوا إلى منازلهم خَجلين، ولم يتبقَّ أحد لمواساة إيشفار.

لقد بقي وحيداً طوال الليل، منحنياً وباكياً بصوت مرتفع، ثم خلد إلى النوم لدقائق قليلة عندما شعر بالإرهاق، وحين استيقظ عاود البكاء مرة أخرى. واستيقظ أوم بعد منتصف الليل، وحاول التقيّؤ، ونام مجدداً.

* * *

بعد عملية إلقاء القبض على الناس في ساحة السوق، نُقل العم أشرف إلى المستشفى البلدي، وأُعلم أنسباؤه الموجودون في فناء الأخشاب. وتوفّي بعد ساعات قليلة، واعتبر المستشفى سبب الوفاة عَرَضياً، وذلك عملاً بالأوامر الصادرة: "بسبب تعثّره، وسقوطه، وارتطام رأسه بالرصيف". دفنه أنسباؤه بجانب العمة ممتاز في اليوم التالي، في أثناء مغادرة إيشفار وأوم معسكر عمليات التعقيم.

لم يكن إيشفار يشعر بأي ألم، باستثناء الألم في منطقة الأُربيّة. ولكن أوم كان يشعر بألم حادّ. وعاد النزيف بعد قيامه بخطى قليلة. فحاول عمه حمله على ظهره، ولكن ألمه ازداد. ولم يشعر أوم بالراحة إلا عندما حمله عمه بين ذراعَيه كطفل، وبشكل مسطَّح، ولكن هذه الوضعية أرهقت إيشفار. وكان يتعيّن عليه وضعه على الطريق كلما قطع بضع ياردات.

قُرابة الظهر، توقف رجل يجرّ عربة نَقل قربهما وسأل: "ما خَطب الفتى؟".

فأخبره إيشفار. عندها، عرض عليهما المساعدة. فمدّدا أوم على العربة، وخلع الرجل عِمامته وجعل منها وسادة. ودفع إيشفار العربة معه. لم تكن ثقيلة الوزن، ولكن كان عليهما الإبطاء على الطريق المليء بالأخاديد التي تسببت بألم حاد لأوم، وقيست المسافة بعدد صرخاته المكدِّرة.

كان الظلام قد حل عندما وصلوا إلى مؤسسة مظفر للخياطة. ورفض مالك العربة تلقّي أي أَجر. قال: "كنتُ متجهاً إلى هذه الناحية على أيّ حال".

كان ابن شقيق أشرف في الداخل، وقد جاء للاطمئنان على محتويات المشغل. قال: "لديّ خبر مُحزن، تعرّض العم أشرف لحادثة وتوفّي".

كان الخياطان يشعران باضطراب فكري شديد بحيث إنهما لم يتمكنا من الحزن على الخسارة أو استيعابها تماماً. لقد أُضيفت أحداث اليوم السابق في ساحة السوق إلى كل المآسي في حياتهما. استمر إيشفار في القول بشكل آلي "شكراً لأنك أبلغتنا بالأمر،

سأحضر الجنازة، وسيرافقني أوم أيضاً، أجل، سيكون بحال أفضل غداً".

كرّر الرجل ذلك أربع مرات قبل أن يدرك أن العم أشرف قد دُفن. قال: "لا تقلق، يمكنك البقاء هنا تتحسن حالكما، لم أتخذ قراراً بعد حول كيفية التصرف بهذا الملك. رجاءً، أعلماني إذا احتجتما إلى أي شيء".

فخلدا إلى النوم من دون تناول الطعام، إذ لم تكن لديهما الرغبة في ذلك. ولتجنّب صعود مجموعة الدرَجات، أعدّ إيشفار فراشاً في الطابق السفلي بجانب المنضدة. وفي الليل، تخبّط أوم في مكانه هاذياً. "لا! ليس مقص العم أشرف! أين المظلة؟ أعطني إيّاها، سألقّن المشاغبَين درساً!".

فاستيقظ إيشفار مذعوراً، وبحث عن مفتاح الإنارة. فرأى بقعة داكنة على الملاءة، ونظّف جرح أوم، وبقي طوال الليل جالساً لمنع أوم من التخبّط كي لا تُفلت الضمادة.

في الصباح، قام بنقله إلى مستوصف خاص في البلدة، جارّاً إيّاه تارةً، وحاملاً إيّاه طَوراً. فاشمأز الطبيب من الخِصاء ولكنه لم يتفاجأ. كان يعالج ضحايا العنف الطبَقي في القرى المجاورة من حين لآخر، وعجز عن محاولة حمل القانون على تطبيق العدالة. دليل غير كافٍ لعرض الحالة على القضاء، كان هذا الجواب الروتيني سواء أكان العضو المفقود إصبعاً أو يداً أو أنفاً أو أُذُناً.

قال الطبيب: "أنتما محظوظان، لقد جرت العملية بنظافة تامة، وقُطِّبت بالشكل الملائم. إذا ارتاح الفتى لمدة أسبوع، فسيشفى". وطهّر الجرح، ووضع ضمادة جديدة عليه. "لا تدَعه يسير، فالسير يجعل الجرح ينزف مجدداً".

دفع إيشفار الأُجرة من مال الزفاف، ومن ثم سأل بالرغم من معرفته الجواب: "هل سيكون قادراً على الإنجاب؟".

فهز الطبيب رأسه.

"حتى وإن كانت قناة المنيّ سليمة؟".

"لقد قُطعت الأوعية التي تُنتج السائل المَنَويّ".

متذكراً نصيحة الطبيب، تمايل إيشفار في المنزل، حاملاً ابن شقيقه بين ذراعَيه، ووضعه في السرير. وعثر على قنينة وإناء يمكّنان أوم من قضاء حاجته من دون اضطراره إلى السير نحو المرحاض. لقد تجنّبهما جيران العم أشرف. وفي المطبخ الصغير حيث كانت العمة ممتاز قد طهت لأفراد عائلتها الخمسة، إضافةً إلى متمرّنَين، أعدّ إيشفار وجبات طعام خالية من أي فرح. كانت أشباح طفولته الودودة عاجزة عن مواساته، وكانا يتناولان الطعام على حافة سرير أوم.

بعد انتهاء الأيام السبعة، حمله إيشفار مجدداً إلى المستوصف الخاص. كان من السهل رؤية ضحايا عمليات قطع قناة المنيّ في الشارع، ولا سيما أولئك الذين لا يملكون سوى قطعة ملابس واحدة. فبُقع القَيح عند المَشاعب خير دليل على ذلك.

قال الطبيب: "لقد اكتملت عملية الشفاء تقريباً. لا بأس بالسير الآن، ولكن لا تستعجل". ولم يأخذ أَجر الزيارة الثانية.

توجها من المستوصف إلى مركز الشرطة بخطى صغيرة ومحترِسة، وقالا إنهما يريدان التقدم بشكوى. قال إيشفار: "لقد حُوِّل ابن شقيقي إلى مخصيّ". عاجزاً عن التحكم بنشيجه في أثناء التكلم.

فقلق الشرطي المناوِب، وتساءل عما إذا كان ذلك يعني اندلاع اضطرابات طبقية جديدة والتسبب بآلام في الرأس لزملائه وله. "من قام بذلك؟".

"إنها مؤسسة النوسباندي ميلا. في خيمة الطبيب".

فأراح الجواب الشرطي. "لا تندرج هذه الحالة ضمن صلاحيات الشرطة، بل ضمن صلاحيات مركز التخطيط العائلي. يتلقى مكتب المركز الشكاوى من الأشخاص الذين قام بمعالجتهم". فقال لنفسه إنه من المحتمل أن يكون مثالاً آخر عن الخلط بين التعقيم والخِصاء، ومن شأن القيام بزيارة إلى المركز إيضاح الأمور.

وغادر الخياطان مركز الشرطة، وسارا ببطء إلى مركز التخطيط العائلي. كان إيشفار ممتنّاً بسبب عدم الاستعجال في السير. فلقد شعر بألم رهيب حول منطقة الأُربيّة قبل ثلاثة أيام، وتجاهله إيّاه بسبب قلقه على ابن شقيقه.

لاحظ أوم مشية عمه الغريبة، وسأله عن السبب.

"لا شيء". وجفل مع تمدّد موجات الألم حتى أسفل ساقَيه. "مجرد صعوبة بسبب العملية الجراحية. ستزول". ولكنه كان يعلم بأن حاله ستزداد سوءاً؛ ففي صباح ذلك اليوم، ظهر تورّم في ساقَيه.

في مركز التخطيط العائلي، رفضوا الاستمرار في الإصغاء إليه عندما لفظ إيشفار كلمة مَخصي. أمر المسؤول: "اخرجا، لقد سئمنا منكم أيها الناس الجهّال. كم مرة يجب علينا أن نشرح. لا علاقة للتعقيم بالخصي. لماذا لا تستمعون إلى محاضراتنا. لماذا لا تقرأون المنشورات التي نوزّعها لكم؟".

قال إيشفار: "أفهم الفَرق، إذا ألقيتَ نظرةً واحدة فقط، فستدرك ما الذي قام به طبيبكم". وأومأ لأوم لإنزال سرواله.

لكن، ما إن شرع أوم بفك الأزرار حتى ركض المسؤول وأمسك بالبنطال قائلاً:

"أمنعك من خلع ملابسك في مكتبي. أنا لست طبيباً، وأيّاً تكن الحال تحت سروالك فالأمر لا يهمّني. إذا بدأنا بتصديقكما، فسيأتي كل المخصيين في البلد للوثوب أمامنا، وسيحمّلوننا مسؤولية ما آلت إليه حالهم، محاولين الحصول على المال. نحن نعرف خِدَعكم. سيتوقف برنامج المخطط العائلي برمّته، ويسوء وضع البلد ويختنق بسبب النموّ السكاني غير المضبوط. الآن، اخرجا قبل أن أستدعي الشرطة".

توسّل إليه إيشفار لإعادة النظر بالأمر وإلقاء نظرة سريعة على الأقل. وهمس أوم في أُذُن عمه، محذِّراً إيّاه من عدم الشروع بالبكاء مجدداً. واستمر الرجل في إطلاق التهديدات، وأُجبِرا على التراجع. وعندما أصبحا في الشارع، أُغلق الباب وعُلّقت عليه لافتة **مُقفَل بسبب الغداء.**

سأل أوم: "هل ظننتَ حقاً أنهم سيساعدوننا؟ ألا تفهم؟ نحن أدنى مستوى من الحيوانات بنظرهم".

قال إيشفار: "أطبق فمك، غباؤك هو من وضعنا في هذا الموقف".

"كيف؟ فقدتُ خصيتَيّ بسبب غبائي. ولكن، كيف يكون قطع قناة المَنيّ لديك بسببي؟ كان ذلك ليحصل على أيّ حال. لقد حدث للجميع في السوق". وتوقف قليلاً، وأكمل بمرارة: "في الواقع، أنت المُخطئ وحدك. بسبب جنونك ورغبتك في القدوم إلى هنا وتدبّر زوجة لي. كان بإمكاننا أن نكون بأمان في المدينة على شرفة السيدة دينا".

فترقرقت عينا إيشفار بالدموع قائلاً: "إذاً، أنت تقول إنه كان يُفترض بنا مواصلة الاختباء على الشرفة طوال حياتنا؟ أي نوع من الحياة نحيا، وأي بلد هو هذا البلد، عندما لا نستطيع المجيء والذهاب كما يحلو لنا؟ هل من الخطأ زيارة قريتنا الأم؟ لتزويج ابن شقيقي؟". ولم يعد باستطاعته السير، فجلس على الرصيف مرتجفاً.

هسهس أوم: "هيا، لا تتسبب بمأساة في الشارع، تبدو حالك سيّئة".

ولكن عمه واصل البكاء، وجلس أوم بجانبه قائلاً: "لم أقصد ما قلتُه، لستَ المُخطئ، لا تبكِ".

قال إيشفار مرتجفاً: "الألم، إنه في كل مكان... ألم كبير... لا أعرف ماذا أفعل".

قال أوم بلطف: "لنذهب إلى المنزل، سأساعدك. يجب أن ترتاح وترفع قدمَيك إلى الأعلى".

نهضا، وسار إيشفار وهو يعرج ويجرّ قدمَيه، مرتجفاً من الألم، وبلغا مشغل العم أشرف. لقد اتفقا في الرأي على أن النوم طوال الليل سيشفيه. فرتّب أوم الفراش والوسادتَين بطريقة تريح عمه، ومن ثم قام بتدليك ساقَيه. واستغرقا في النوم، وبدا أوم

ممسكتان بقدمَي عمه.

بعد أسبوع، انتفخت قدما إيشفار، وارتفعت حرارته. وأصبح اللحم أسود بين الأُربيّة والركبة. فعادا إلى مركز التخطيط العائلي، وألقيا نظرة مضطربة عبر المدخل. لحسن الحظ، كان هناك طبيب هذه المرة، ولم يكن الرجل الذي تحدّثا إليه في أثناء الزيارة الأخيرة موجوداً.

قال الطبيب بعد إلقاء نظرة عاجلة: "أنت في حال جيدة، لا علاقة للأمر بمرض ساقَيك. هناك سمّ في جسدك يتسبب لك بالانتفاخ. يُفترض بك الذهاب إلى المستشفى".

بعد التحقق من عقلانية الرجل، أشار إيشفار إلى خِصاء ابن شقيقه، ولكن موقف الطبيب تبدّل على الفور. قال: "اخرجا! إذا كنت تريد النطق بالهراء، اغرُب عن وجهي في الحال!".

قصدا المستشفى حيث أُعطي إيشفار علاجاً: أربع مرات في اليوم لمدة أربعة عشر يوماً. لقد خفّضت الحبوب الحرارة، ولكن ساقَيه لم تتحسنا. وفي نهاية العلاج الذي دام أسبوعَين، لم يعُد بإمكانه السير مطلقاً. لقد انتشر السواد في الأسفل كبقعة، وامتدّ حتى أصابع قدمَيه، مذكّراً إيّاه بصباغ الجِلد الذي كان يخضّب بشرته في صباه في أثناء عمله مع والده والشاماريين.

بعد ظهر ذلك اليوم، التقى أوم رجل العربة في السوق، وطلب مساعدته: "إنه عمي هذه المرة. لا يستطيع السير، ويجب نقله إلى المستشفى".

كان الرجل يُفرغ شحنة من البصل، والهواء مُثقَلاً برائحة كريهة حادة بسبب سحق بضع بصلات في أثناء عملية النقل. فمسح عينَيه، ورفع كيساً فوق كتفَيه، وحمله إلى المستودع. ودخلت الأبخرة في عينَي أوم أيضاً بالرغم من وقوفه على مسافة من المكان.

قال رجل العربة بعد عشرين دقيقة: "حسناً، أنا جاهز". فرفع الغبار عن ظهر العربة، وتوجّها إلى مؤسسة مظفر للخياطة لنقل إيشفار. فوضعا العربة أمام الدرَجات مباشَرةً ورفعاه إليها. كان الجيران يراقبون تدحرج العجَلات باتجاه المستشفى، مختبئين وراء الستائر.

انتظر رجل العربة خارج المبنى، في حين تكوّم إيشفار في المدخل وانطلق أوم بحثاً عن قسم الطوارئ. قال الطبيب المناوِب بعد فحصه: "لم تُفِده الحبوب، السمّ في الدم قويّ جداً. يجب قطع الساقَين للحؤول دون انتشار السم إلى الناحية العليا من الجسم. إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذ حياته".

في صباح اليوم التالي، بُترت الساقان المسودّتان. وقال الطبيب الجرّاح إنه يتعيّن

مراقبة القُرمتَين لعدة أيام للتأكد من زوال السم بأكمله. لقد أمضى إيشفار شهرَين في المستشفى، وكان أوم يحمل له الطعام كل يوم ويلازمه حتى الليل.

قال إيشفار لأوم مذكّراً إيّاه تكراراً: "يجب عليك أن توجّه رسالة إلى السيدة دينا، أخبرها بما حدث. لا بد من أنها قلقة علينا".

قال أوم: "أجل". ولكنه لم يجرؤ على القيام بالمهمة. ماذا سيكتب؟ كيف سيبدأ بشرح ما جرى على ورقة؟

في نهاية الشهرَين، عاد رجل العربة إلى المستشفى وساعد أوم على إعادة إيشفار إلى مؤسسة مظفر للخياطة. قال إيشفار باكياً: "لقد انتهت حياتي، ارمِني في النهر الذي يمر في قريتنا. لا أريد أن أكون عبئاً عليك".

قال أوم: "دَعك من ذلك، لا تقل كلاماً سخيفاً. ماذا تعني بقولك إن حياتك قد انتهت؟ هل نسيتَ شانكار؟ حتى إنه لم يكن لديه أصابع أو إبهامان. ما زالت يداك موجودتَين، ويمكنك أن ترى. لدى السيدة دينا آلة خياطة قديمة، وستسمح لك باستخدامها عندما نعود".

"أنت فتى مجنون. لا أستطيع الجلوس، وها أنت تتحدث عن الخياطة".

قال رجل العربة: "أعلماني إذا كنتما تريدان أن أُقلّكما إلى مكان ما". وأضاف بسرعة: "سأُقلّكما لقاء ثمن بطاقة حافلة منذ الآن فصاعداً".

قال أوم: "أجل، سندفع لك، لا تقلق، سيكون عمي بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى. وربما يمكنك اصطحابنا إلى محطة القطار بعد أسابيع قليلة إذا أصبح أفضل حالاً. سنعود قريباً إلى مدينتنا".

كانت فترة النقاهة بطيئة، ومالهما ينفد. لقد افتقر إيشفار إلى الشهية، وكان يمضي لياليه في أحضان الحمّى والأحلام المزعجة، فيستيقظ أحياناً باكياً، فيواسيه أوم ويسأله عما إذا كان يريد شيئاً.

"دلّك قدميّ، إنهما تؤلمانني جداً"، يقول على الدوام.

ذات مساء، قدِم ابن شقيق العم أشرف من فناء الأخشاب لرؤيتهما. لقد عثر على شارٍ للمشغل. "آسف جداً بسبب طلبي منكما المغادرة. ولكن، من يعلم متى أحصل على عرض آخر؟". فاقترح عليهما الانتقال إلى حظيرة أو كوخ، واثقاً من تأمين مسكن لهما في إحدى زوايا فناء الأخشاب.

قال أوم: "لا، لا بأس، سنعود إلى المدينة وسنبدأ بالخياطة مجدداً".

هذه المرة، وافقه إيشفار الرأي. لقد شعر أنه من الأفضل الذهاب بدلاً من البقاء

في هذا المكان الذي لا يحمل إلا البؤس. فكل يوم يمضيانه في القرية يحملهما على الشعور بالذلّ بين الأشخاص الذين يعرفونهما، ولا سيما الجيران الذين يحدّقون إليهما خلال ذهابهما إلى المستشفى وعودتهما منه، هامسين في ما بينهم، ومتوارين عن الأنظار عندما يرون العربة قادمة.

سأل أوم ابن شقيق العم أشرف: "هل يمكنك تقديم خدمة أخيرة لنا؟ هل يمكنك الطلب من نجّارك في فناء الأخشاب أن يصنع لعمي عربة صغيرة؟".

فقال إنها مسألة بسيطة. وفي اليوم التالي، أوصل المنصة المدولَبة إلى المشغل. كانت هناك عَقيفة في الناحية الأمامية وحبل ليقوم أوم بجرّ المنصة.

أصرّ إيشفار: "هذا الحبل غير ضروري، سأدفعها بيدَيّ على غرار شانكار. أريد أن أكون مستقلاً".

"حسناً، سنرى".

فأزال الحبل، وبدأ إيشفار يتدرّب في الأماكن الداخلية ليتعلم كيفية الجلوس بشكل مستقر من دون ساقَيه. وازداد شعوره بالإحباط لأنه لم يتمكن من دفع المنصة في حالتهِ الضعيفة، وكان لا بد من المجازفة بقيادة المنصة في الشارع.

قال أوم: "صبراً، ستتمكن من القيام بذلك عندما تزداد قوةً".

قال إيشفار، باكياً: "أي صَبر!؟ لن يجعل الصبر ساقَيّ تنموان مجدداً". وشاعراً بالإحباط، سمح بإعادة ربط الحبل.

بعد أربعة أشهر تقريباً من القدوم إلى القرية من أجل ترتيبات الزواج، انطلق الخياطان إلى محطة القطار في رحلة العودة إلى المدينة. وفي طريقهما إلى المحطة، توقفا عند ضريحَي العم أشرف والعمة ممتاز. قال إيشفار: "أنا أحسدهما، هما يرقدان في سلام الآن".

قال أوم: "لا تتفوّه بهذا الهراء مجدداً". مبدّلاً وجهة المنصة للمغادرة.

"ألا يمكننا البقاء مدةً أطول؟".

"لا، علينا الذهاب". وشدّ أوم الحبل، واهتزّت الدواليب فوق تراب فناء المقبرة. إنّ عمي خفيف الوزن، قال لنفسه، إنه خفيف كطفل. ودفعه من دون بذل أي جهد.

الدائرة مكتملة

إن الستارة المرقَّعة المنصوبة وسط الشرفة هي أول ما رأته زنوبيا عندما فتحت دينا الباب. "ما هذا، غسيلك؟"، وقهقهت، "أم أنك تبدأين عملاً لغسل ملابس الناس؟".

قالت دينا منفجرةً في الضحك: "لا، إنه جناح العروس". لقد عانت طوال أربعة أسابيع من الوحدة القَسرية مع شعور بالامتعاض. كان مرور صديقتها مصدر ارتياح كبيراً بالنسبة إليها.

وجدت زنوبيا الدُّعابة مُضحكة للغاية من دون أن تفهم معناها، ودخلتا الغرفة الأمامية. وبين قهقهة وأخرى، عرفت سبب تقسيم الشرفة.

قالت دينا: "يُفترض بهم العودة في أي يوم، ليست الستارة سميكة بما يكفي لكتم ضجيج العروسَين، ولكنها أفضل ما يمكنني القيام به".

لم تعد زنوبيا تجد الأمر مُضحكاً. فحدّقت إلى دِينا كما لو أنها جُنَّت. "كم تغيّرتِ. هل تسمعين ما تقولينه؟ قبل عام فقط، كنتِ ضد إبقاء ضيف مستأجِر مأمون الجانب. لقد تطلّبني الأمر يومَين لإقناعك أن ابن آبان كولاه لا يشكل أي تهديد وأنه لن يأكل شقتك".

"وكنتِ مُحِقةً جداً. مانيك فتى صالح. سيعود بعد أسبوعين أيضاً. انظري إلى هذا اللحاف الذي صنعته. سيكون هدية زفاف أوم".

فتجاهلت زنوبيا الأمر وأضافت: "لقد أصبحتِ شجاعة فجأةً، وسمحتِ للخياطَين بالعيش هنا. كان عملاً سيّئاً جداً. وها أنت الآن تسمحين لهما بإحضار زوجة؟ ستندمين على ذلك، صدّقيني. ستمتلئ الشرفة بأفراد العشيرة، ونصف قريتهما، ولن تتمكني أبداً من التخلص منهم. سيتحول المكان إلى زريبة مع كل العادات البدائية غير الصحية".

لقد سُرّت دينا بالتوقع المخيف، ولكنها هذه المرة ضحكت بمفردها. واستخدمت نبرة أكثر جدّية لتطييب خاطر صديقتها: "لن يستغلاّني أبداً. فإيشفار سيد كريم الأخلاق، وأوم فتى صالح وذكي على غرار مانيك. ولكنه أقل حظاً منه".

بقيت زنوبيا نصف ساعة أخرى متوسّلة، ومهددة، ومتملقة، وباذلةً قُصارى جهدها لتغيير قرار صديقتها. "لا تكوني غبية، اطرديهما. باستطاعتنا على الدوام إيجاد خياطَين

آخرين لك. ستساعدنا السيدة غوبتا، أنا واثقة من ذلك".

"ولكنها ليست النقطة الرئيسة. سأسمح لهما بالبقاء حتى لو لم يعملا لدي".

وحين استنفدت زنوبيا مشاعرها في الجدال، وأدركت أنها لن تحقق أي نتيجة، غادرت مستاءة لإنقاذ اعتدادها بنفسها.

* * *

ارتجفت يدا دينا في أثناء فتحها رسالة تلقّتها من مانيك. جاء في الرسالة: "عمتي العزيزة، آمل في أن تكوني في حال جيدة وفي أتمّ الكمال كما هو حالنا جميعاً عندما نحقق أهدافنا. والدتي ووالدي يرسلان إليك أفضل تمنّياتهما، ويقولان إنهما سعيدان جداً برؤيتي وإنهما افتقدا إليّ.

صدرت نتيجة امتحاناتي مؤخراً. آسف لإبلاغك بأن علاماتي لم تكن جيدة. لقد رفضوا قبولي في برنامج الإجازة، لذلك سيكون عليّ الاكتفاء بشهادة العام الواحد".

كانت تعلم أن هذا سيحدث، ولكنها واصلت القراءة، محاولةً تجاهل الشعور بالغثيان في معِدتها. "كان يُفترض بك رؤية ردود الفعل عندما وصلنا قرار الكلّية. إذا كنت تتذكرين، عندما اقترحتُ تمضية ثلاث سنوات إضافية، كان والداي ضد الأمر. ولكنهما الآن مستاءان مني للسبب المعاكس. ما الذي ستفعله بحياتك؟ يستمر والدي بالقول، لقد انتهى كل شيء. لا يملك هذا الفتى أي فكرة عن هذه الكارثة. كانت كل حياتي كوارث، كارثة تلو الأخرى. ظننتُ أن ابني سيغيّر النمط، ولكن كان يُفترض بي أن أعرف أن الخطوط المحفورة على راحة يَدي دائمة. إنه قدري، ولا يمكنني مواجهته.

هل تذكرين عروض إيشفار المسرحية لتدبّر زوجة لأوم؟ لم يكن ذلك شيئاً يا عمتي، مقارَنةً مع أداء والدي. لم يكن يُفترض بي قطّ أن أخبرهما بأنني أخطط لدخول ذلك البرنامج السخيف للحصول على إجازة.

لحسن الحظ، وبعد انتهاء كل التمثيل، حمل أحد أصدقاء والدي خبراً جيداً. للعميد غريوال صِلات بتلك الدول الثرية في الخليج. لقد وعدني بأن يتدبّر لي عملاً جيداً في شركة للتبريد وتكييف الهواء هناك. يعتقد العميد أنه شخص هزلي عظيم. لقد قال إن كل شخص يملك وحدة تبريد، وبوجود عواصف رملية ورياح صحراوية حارة تعطّل المحرك والمروحة، تكون هناك حاجة دائمة إلى عاملين إضافيين في مجال التبريد وتكييف الهواء.

نظراً لحس الفكاهة المثير للشفقة الذي يتمتع به العميد غريوال، قررت قبول العمل. فإذا ذهبتُ إلى هناك، لن يكون عليّ الإصغاء إلى دُعاباته. والراتب، والفوائد، والمعيشة،

رائعـة. يقولـون إن باسـتطاعة الشـخص هنـاك أن يدّخـر ثروة صغيرة فـي غضون أربع أو خمس سـنوات. ربما أتمكن من العودة لتأسـيس شـركة خاصة بي للتبريد وتكييف الهواء فـي المدينـة. لا بـل أفضـل من ذلك، يمكننا الشـروع بعمل فـي الخياطة. فمع كل الخبرة التي اكتسبتها في العام الماضي، سأكون صاحب العمل بالطبع. (ها ها، إنها دُعابة)".

كان من الصعب عليها القراءة والدموع تلسع عينَيها. كانت تطرف بسرعة مرات قليلة وتأخذ نفَساً عميقاً. "عليّ أن أكون هناك بعد ثلاثة أسابيع، لذلك فإن والدتي تقود الجميع إلـى الجنـون، محاوِلـةً تجهيـز أغراضـي. هو أمر مماثـل لِما مررت به فـي العام الماضي عندما غادرتُ إلى الكلّية. ووالدي لا يزال كما كان في السابق. لم يتحدث إليّ بالطريقة الملائمـة ولـو لمـرة واحـدة منذ عودتي، عِلمـاً أنني نفّذتُ بالتحديد مـا طلبه مني، ولكنه يجعل الأمر يبدو كما لو أنني أتخلى عنه وعن المتجر العام. يريد الحصول على كعكته وأكلها أيضاً. ما الذي يتوقع تحقيقه إذا أدار الأمور بالطريقة القديمة نفسها؟ فعندما أحاول تقديم اقتراحات، يرمقني بنظرته المأساوية تلك. سيشعر بحال أفضل متى غادرتُ، فهو لا يستمتع بوجودي في المنزل. علمتُ ذلك يوم أرسلني إلى المدرسة الداخلية في الصف الخامس.

رجاءً، أبلغي أوم أسفي لعدم تمكّني من لقاء زوجته. أنا على ثقة تامة بأنها ستشعر بسـعادة كبيـرة مـع حمـاة رائعـة مثلك. (ها ها، إنها دُعابة أيضاً، يـا عمتي). ولكن، عندما أعود في العام القادم لتمضية الإجازة، فأنا أخطط للمرور إلى منزلك ورؤية الجميع.

أخيراً، أريد أن أشكرك على السماح لي بالبقاء في شقتك وعلى اعتنائك بي جيداً". وكانت الجملة الأخيرة قد شُـطبت، ولكنها تمكنت من حلّ رموز بعض الكلمات تحت الخربشات: الحياة و الأكثر سعادة.

انتهت الرسـالة بعد هذه العبارة. "حظاً سـعيداً في الخياطة. أرسـل الكثير من الحب إلى إيشفار وأوم، وإليك".

أضاف تحت اسـمه حاشـية. "طلبت من والدتي تحرير الشـيك المُرفَق لتغطية إيجار ثلاثـة أشـهر، بمـا أننـي طلبـتُ منك الاحتفـاظ بالغرفة لي. آمل فـي أن أكون قد أنصفتك حقك. شكراً مجدداً".

أصبح الخط مُبهَماً. فرفعت نظارتها ومسحت عينَيها. يا له من فتى رائع! هل ستعتاد يوماً على عدم وجودها برفقته؟ سـتفتقد إلى مزاحه، وثرثرته الدائمة، وطبيعته المسـاعِدة، وابتسـامته لـدى تمنّـي صباح سـعيد لها، وسـلوكه المضحك مع الهـررة، حتى ولو كانت أفكاره حول الحياة والموت كالحة قليلاً. وكم كان الشيك سخياً! إنها على ثقة تامة بأنه

مارس ضغطاً على والدته لتحريره.

لكن من الأنانية الشعور بالحزن، قالت لنفسها، إذ يُفترض بها أن تكون سعيدة لأجل فرصة العمل المناسبة التي حظي بها مانيك. إنه مُحق، لقد جمع العديد من الناس ثروات من خلال عملهم في الدول النفطية الثرية.

بعد يومين من تلقّي الرسالة، ذهبت دينا إلى فينوس بيوتي سالون. وعادت موظفة الاستقبال من الناحية الخلفية، وأعلنت أن زنوبيا منشغلة مع إحدى الزبونات. "رجاءً، انتظري في منطقة الانتظار، يا سيدتي".

فجلست دينا بجانب نبتة ذابلة، والتقطت إصداراً قديماً لمجلة وومنز ويكلي، مبتسمةً لنفسها. من الواضح أن زنوبيا لا تزال مستاءة من مسألة زوجة أوم، وأرادت إعلامها بالأمر من خلال تأخّرها في المجيء، وإلا لَقَدمت مسرعة، ممسكةً بالمقص والمشط لاهثة، ومُلقيةً التحية، وعادت مسرعة.

مرت خمس وأربعون دقيقة قبل ظهور زنوبيا، مواكِبةً زبونتها إلى الباب. لم تكن السيدة التي حظيت بالتسريحة سوى السيدة غوبتا. قالت: "لقد فاجأتني رؤيتك هنا يا سيدة دينا. هل تقوم زنوبيا بتسريح شعرك؟". فبالرغم من ابتسامتها، أوحت إيماءة بالزاوية اليسرى لشفتها العليا بأنها غير موافقة على الفكرة.

"آه لا. لا يمكنني أبداً تحمّل أَجرها! مررتُ فقط لتبادل أطراف الحديث".

قالت السيدة غوبتا، مقهقهة: "آمل في أن تكون تكلفة تبادل أطراف الحديث أكثر منطقية من تسريح الشعر، ولكنني لا أتذمر، إنها عبقرية. انظري فقط؛ إن أداءها اليوم يُعتبَر انجازاً". وبرمت رأسها بشكل بطيء من اليسار إلى اليمين، وبالاتجاه المعاكس مجدداً، وجمّدته كالتمثال في أثناء نظرها إلى مروحة السقف.

قالت دينا من دون تضييع الوقت: "جميل جداً". كانت السيدة غوبتا قادرة على الاستمرار في وقفتها إلى ما لا نهاية لو أنها شعرت بوجود مزيد من الإطراء.

قالت بفَخر: "شكراً لك". وسمحت لجمجمتها بالتحرك مجدداً. "ولكن، متى سنراك في أوروفوار؟ هل عاد خياطاك أم لا؟".

"أظن أننا سنبدأ في الأسبوع القادم".

"لنأمل ألا يطالبا بإجازة شهر عسل بعد انتهاء إجازة الزفاف، وإلا حدث ازدياد إضافي في السكان". قهقهت السيدة غوبتا مجدداً، مُلقيةً نظرةً سريعة إلى المرآة وراء منضدة الاستقبال، ثمّ ربّتت على شعرها، وغادرت بتردد؛ لقد منحتها تلك المرآة اكتفاءً كبيراً.

بعد أن أصبحت بمفردها مع صديقتها، ابتسمت دينا، مشاطرةً رأيها بالسيدة غوبتا من دون التفوّه بأي كلمة. ولكن جواب زنوبيا كان بارداً: "هل أردتِ أن تطلبي مني شيئاً؟".

"أجل، تلقّيتُ رسالة من مانيك كولاه. لم يعد بحاجة إلى غرفتي".

قالت زنوبيا متنشقة بصوت مسموع: "لستُ متفاجئة. لا بد من أنه سئم من العيش مع الخياطَين".

"في الواقع، كانوا منسجمين تماماً". كانت مدركة خلال تفوّهها بالكلمات أنّ ما قالته لم يحسّن صورتها. ولكن ماذا تقول غير ذلك؟ هل يمكنها أن تصف لزنوبيا مدى تقرّب مانيك وأوم من بعضهما، وكيف يعتبر إيشفار الفتيَين كما لو أنهما ابنان له؟ وأن أربعتهم يطهون معاً ويأكلون معاً، ويتشاطرون أعمال التنظيف والغسيل والتسوق والضحك والقلق؟ وأنهم يهتمون لأمرها، ويمنحونها احتراماً أكبر من الاحترام الذي تلقّته من بعض أنسبائها؟ وأنها عرفت معنى العائلة خلال هذه الأشهر القليلة السابقة؟

كان يستحيل عليها الشرح، لأن زنوبيا ستقول لها إنها تتخيّل أموراً وهمية وسخيفة، محوّلةً الضرورة المالية إلى أمر عاطفي؛ أو ستتهمها بقيام الخياطَين بالتحكم بها من خلال التملّق والمداهَنة.

لذلك أضافت دينا: "لن يعود مانيك لأنه حصل على عمل جيد في الخليج".

قالت زنوبيا: "حسناً، أيّاً تكن حقيقة الأمر، أنت بحاجة إلى ضيف مستأجِر بديل".

"أجل، هذا هو سبب قدومي. هل لديك شخص ما؟".

"ليس في الحال. سأهتم بالأمر". ونهضت لتعود إلى العمل. "سيكون الأمر صعباً. فكل من سيرى ستارتك \التكنيكولور وقبيلةً من الخياطين على الشرفة سيهرب من تلك الغرفة".

"لا تقلقي. سأُزيل الستارة". لقد توقعت دينا تطرّق صديقتها إلى هذا الموضوع، فعندما تكون زنوبيا مستاءة، يتطلبها الأمر أياماً قليلة لتهدأ، هذا كل ما في الأمر.

عادت إلى المنزل، وحرصت على تنظيف غرفة مانيك جيداً. لقد عزمت على التوقف عن التفكير في أنها غرفة مانيك. وخلال رفع الغبار والتنظيف، وجدت علبة الشطرنج في خزانة الملابس. هل يُفترض بها إرسالها إلى مانيك؟ عندما تصل إلى مكتب البريد، سيكون مانيك قد غادر. من الأفضل الاحتفاظ بها حتى قدومه في العام التالي، كما ذكر في رسالته.

أحبت دينا الفكرة، ودسّت العلبة بين ملابسها في غرفة الخياطة. لقد بدا الأمر كما لو أنها تثبّت زيارة مانيك. كانت فكرة مريحة، وأبعدت الفكرة الأخرى المؤلمة عن رأسها؛

وهي أنه لن يعيش في منزلها أبداً مجدداً.

في الليل، ذهبت إلى نافذة المطبخ وأطعمت الهررة، منادية إيّاها بالأسماء التي أطلقها مانيك عليها.

* * *

انقضت الأسابيع الستة وكانت لا تزال تنتظر بصبر، واثقة من عودة إيشفار وأوم كلما قُرِع جرس الباب. بعد ذلك، وصل رجل الشراء بالتقسيط وطالب بالأقساط المتأخرة المستحقة على آلتي الخياطة.

قالت مُماطِلة: "الخياطان قادمان في الأسبوع القادم، أنت تعرف مدى الانشغال عندما يكون هناك زفاف".

قال الرجل متذمّراً: "يتأخران عن الدفع كثيراً، تصرخ الشركة في وجهي قائلةً إنني لا أحصّل الأقساط في الوقت المحدد". ووافق على الانتظار سبعة أيام إضافية.

في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم، قُرِع جرس الباب مجدداً. فأسرعت إلى الشرفة.

إنه سيد المتسولين، وكان يحمل هدية زفاف صغيرة. "غلاّية شاي من الألومنيوم"، قال، خائب الأمل بسبب عدم عودة الخياطَين بعد.

قالت دينا: "آمل في وصولهما الأسبوع القادم على الأكثر، ينفد صبر شركة التصدير أيضاً".

"سأُحضر الهدية يوم الخميس القادم".

كانت تعلم ما الذي يسعى وراءه؛ أي الحصول على الأقساط المتأخرة. "لن نواجه مشكلة مع صاحب الملك، أليس كذلك؟ لأن الخياطَين لم يدفعا؟ يمكنني إعطاؤك القليل من المال في الحال إذا أصررت".

"لا أبداً، أنا أهتم بالشقة، لا تقلقي. مع هذين الشخصين الطيّبين، لست قلقاً بشأن المتأخرات المؤقتة. لقد أتيتِ إلى جنازة شانكار، لن أنسى ذلك".

فدوّن ملاحظة على مفكرته وأغلق الحقيبة. "ربما حان الوقت لأتخلى عن هذا العمل وأكرّس نفسي للعبادة والتأمل".

"هل أنت جدّي؟ ماذا سيحلّ بكل متسوّليك؟ وبالخياطَين وبي؟".

فأومأ سيد المتسولين برأسه: "إنها النقطة الرئيسة. لأجل واجباتي الدنيوية، يجب عليّ كبح جماح رغباتي الروحية الشديدة. لا تقلقي، لن أتخلى عن أي من الذين يعتمدون

عليّ". وصلصلت قليلاً السلسلة المعدنية التي تربط الحقيبة بمِعصمه في أثناء مغادرته. فلاحظت أنها بدأت تصدأ.

تبخر في دقائق شعورها بالاطمئنان الذي وفّره لها التعهّد الرزين لسيد المتسولين. فبعد زائرَي الصباح، عاد إليها القلق شيئاً فشيئاً. لقد باتت واثقة من أن تلكؤ الخياطَين في العودة يعني مزيداً من الإرجاء. حتى إنهما لم يتكبّدا عناء إرسال بطاقة بريدية مع بضع كلمات: رجاءً اعذرينا يا سيدة دينا، لقد قررنا الاستقرار مجدداً في قريتنا، لقد فضّل أوم وزوجته ذلك. بضعة سطور فقط. هل ما أتوقعه منهما كثير؟ كانت زنوبيا مُحِقة، فمن الغباء الثقة بهذا النوع من الناس. لقد استغلاّها وتخلّيا عنها.

ليكتمل يومها، قُرع الجرس للمرة الثالثة في وقت متأخر من بعد الظهر. فأدارت المِقبض من دون وضع السلسلة. لقد جعلت الشمس الساطعة الاحتراس يبدو غير ضروري، وكشف الباب المفتوح عن مشهد مروِّع.

"آه!". صاحت بخوف شديد. كان الرجلُ الضعيف الذي توجد على جبينه ندوب شُفِيت حديثاً، ونظرة مستسلمة في عينَيه، يبدو كما لو أنه نهض من فراش الموت.

فحاولت إغلاق الباب، ولكنه تكلم وتضاءلت مخاوفها. قال لاهثاً: "لا تجزَعي، لا أريد إلحاق الأذى بك"، أضاف بنبرة مخلوق مصاب، وبأزيز رئتَين متضررتَين: "هل هناك خياطان يعملان هنا؟ إيشفار وأومبراكاش؟".

"أجل".

فانهار الرجل تقريباً من فَرط الارتياح. "رجاءً، هل يمكنني رؤيتهما؟".

"إنهما خارج المنزل لأيام قليلة"، قالت دينا، راجعةً إلى الوراء؛ كانت تفوح منه رائحة قوية.

"هل سيعودان قريباً؟". كانت كلماته تتلمس بيأس الحصول على إجابة.

"ربما. من أنت؟".

"صديق. كنا نقيم في الحي الفقير نفسه حتى قيام الحكومة بإزالته".

تساءلت دينا للحظات عما إذا كان من الممكن أن يكون راجارام، ذاك الذي أراد التخلي عن العالم ليصبح ناسكاً. لم يسبق لها أن رأته سوى مرة واحدة أو مرتين فقط؛ هل يكون العُسر الذي يواجهه النساك هو من بدّله إلى هذا الحد؟ سألته: "أنت لست جامع الشعر، أليس كذلك؟".

فهز رأسه. "أنا رجل السعادين. ولكن سعدانَيّ ماتا". ولمس جبينه بأصابعه، متحسساً برِفق الندوب المثيرة للحكاك. "أخبرني الخياطان بأنهما يعملان في هذا الحيّ. منذ يوم

أمس، وأنا أتنقل من مبنى إلى آخر على هذا الطريق، قارعاً باب كل شقة. والآن، ليسا هنا". وبدا على شفير البكاء. "إيشفار وأوم ما زالا مع سيد المتسولين، أليس كذلك؟".

"أظن ذلك".

"هل تعرفين أين يقيم؟".

"لا. يأتي سيد المتسولين إلى هنا على الدوام للحصول على مال. في الواقع، كان هنا اليوم".

أشرقت عينا رجل السعادين. "كم مضى على مغادرته؟ إلى أين ذهب؟".

"لا أعرف. منذ ساعات، في الصباح". وزال الأمل عن وجهه. كَنور مصباح، قالت لنفسها، يُضاء وينطفئ.

"لديّ عمل هام معه، ولا أعرف كيف يمكنني العثور عليه".

لقد أجفلت دينا بسبب حالته العاجزة، ومنظر جسده المعطوب تحت تأثير الضربات، ونبرة اليأس في صوته. قالت: "سيد المتسولين قادم مجدداً يوم الخميس القادم".

لمس رجل السعادين جبينه وانحنى. "ليباركك الله ويحقق كل أمنياتك بسبب مساعدتك بائساً مثلي".

عاد رجل الشراء بالتقسيط في الأسبوع التالي وقال إنه لا يستطيع الانتظار مدة أطول للحصول على الأقساط المتوجِّبة. كان عازماً على اعتماد الحَزم هذه المرة، متوقعاً تقديم دينا المزيد من الأعذار.

قالت بغضب: "لا أريدك أن تنتظر، خذ هاتين الآلتين في الحال، أرفض إبقاءهما عندي دقيقة أخرى".

قال مذهولاً: "شكراً لك، ستنقلهما عربتنا صباح غد".

"هل سمعتني؟ قلت في الحال. إذا لم يتم نقلهما في غضون ساعة، فسأرميهما إلى خارج شقتي وأتركهما في وسط الطريق". فخرج الرجل مسرعاً للاتصال بالمكتب كي يتم نقل آلتي الخياطة على الفور.

لقد حملها إبعاد آلتي الخياطة على الشعور بحال أفضل. فَلْيعُد الوغدان ويجدا أن آلتي الخياطة قد اختفتا. سيلقّنهما ذلك درس الحياة.

بعد ذلك، انتظرت سيد المتسولين وهدية الزفاف. لقد قررت تغيير تكتيكاتها معه أيضاً وإعلامه باختفاء الخياطَين. فقد تحمله الأقساط المتوجّبة على الخياطَين على التصرف بسرعة وتقفّي آثارهما أينما كانا.

ولكن سيد المتسولين لم يأتِ في موعده. فهو لم يلتزم بدقة مواعيده على غير

عادة، فكّرت في سرّها في أثناء انقضاء اليوم. هل تحالف مع الخياطَين ضدها، مخططين للتخلص منها والاستيلاء على الشقة؟ وحفّز القلق مخيّلتها، وسيطرت مؤامرات شريرة على ذهنها، وكانت مصدر إزعاج لها حتى الصباح عندما كشف قَرع على الباب الحقيقة أخيراً.

خيبة الأمل، الخيانة، الفرح، الحزن، الأمل؛ كلها دخلت حياتها عبر الباب نفسه، فكّرت في سرّها. فأصغت علّها تسمع صليل سلسلة حقيبة سيد المتسولين. لا شيء. وقُرع الباب مجدداً برِفق. ففتحت الباب، مُبقيةً على سلسلة الأمان.

دخلت خصلة صغيرة للحية بيضاء عبر الفتحة الضيّقة، وتلا ذلك صوت قائل: "رجاءً يا أختاه، دعيني أدخل! سأعاقَب إذا رآني أحد من المكتب، لا يُفترض بي أن أكون هنا!".

سحبت السلسلة بتردد، وأدخلت إبراهيم: "ماذا تعني، بأنّه لا يُفترض بك أن تكون هنا؟ أنت جامع الإيجارات".

لم أعد كذلك، يا أختاه. لقد صرفني صاحب الملك من العمل في الأسبوع الماضي. قال إنني ألحقت الخراب بممتلكات المكتب، وإنني أتلفت عدداً كبيراً من الإضبارات. وأراني سجلات القرطاسية التي تورد التكلفة منذ شروعي بالعمل هناك قبل ثمانية وأربعين عاماً. لقد استخدمتُ سبع إضبارات: واحدة ذات حافة جلدية، وثلاث إضبارات مصنوعة من القماش المقوى، وثلاث إضبارات بلاستيكية. العدد سبعة هو الحد الأقصى، قال لي صاحب الملك: سبع إضبارات وتُصرَف من العمل".

قالت دينا: "يا للهراء! طالما كنتَ شديد الحرص على إضبارتك، محافظاً على نظافتها، فاتحاً ومُغلِقاً إيّاها بهدوء. لست المخطئ إذا أعطوك إضبارات بخسة الثمن ومنخفضة الجودة تتلف بعد سنوات قليلة".

"كان يريد عُذراً للتخلص مني، يا أختاه. أعرف السبب الحقيقي".

فانتظر كما لو أنه يفكر في أمر مشاطرتها السبب، وتنهّد. "السبب الحقيقي هو أنني لم أعُد أحب القيام بواجباتي. لم أعُد خسيساً بما يكفي مع المستأجرين، ولا أقوم بتهديدهم بطريقة تخيفهم، وفقدت حماستي. وهكذا، فقد أصبحت عديم الفائدة لصاحب الملك".

"ألا يمكنك المحاولة بجهد أكبر؟ اعتمد أسلوباً أكثر تهديداً أو ما شابه؟".

هز رأسه. "متى خمد الاتقاد، فلن يعود بالإمكان إلهابه. حدث ذلك هنا بالذات، في هذه الشقة، يا أختاه. ألا تتذكرين؟ ليلة اصطحبتُ ذَينك المشاغبَين منذ أشهر؟ بعد ما حدث هنا، لم يعد باستطاعتي إخافة طفل. ولله الفضل في ذلك".

أعاد إلى ذاكرتها الذُّعر الذي ألمّ بها في تلك الليلة، ولكن بدلاً من الشعور بالغضب

اعتبرت نفسها مسؤولة بطريقة ما عن فقدانه وظيفته. "هل عثرتَ على عمل جديد؟".

"في سنّي؟ من سيوظفني؟".

"إذاً، كيف تتدبر أمورك؟".

نظـر إلـى الأرض خجِلاً. "يسـاعدني بعض المسـتأجرين قليـلاً. مؤخراً، اتخذتُ لي بعض الأصدقاء من بينهم. أنا أقف خارج المبنى ويقومون - تعرفين - بمنحي... مساعدة. ولكن لا تبالي بكل ذلك يا أختاه، دعيني أُطلعك على سبب زيارتي. جئتُ لأحذّرك من أنك في خطر داهم من قِبل صاحب الملك".

"أنا لا أخشى ذلك الوغد. سيد المتسولين يهتم بي".

"ولكن، يا أختاه، لقد توفّي سيد المتسولين".

"ماذا تقول؟ هل جُننت؟".

"لا، لقـد قُتـل يـوم أمـس. لقد رأيت كل شـيء، كنت واقفاً فـي الخارج، كان الأمر رهيباً! رهيباً!". وبدأ إبراهيم بالارتجاف متمايلاً إلى الجانبَين. فقادته إلى كرسي وأجلسته.

قالت: "الآن، خُذ نفَساً عميقاً وأخبرني كما يجب".

فأخذ نفَساً عميقاً: "صباح أمس، كنت واقفاً قرب البوّابة مع صفيحتي المعدنية في انتظار تلقّي المساعدة من المستأجرين. أعني، أصدقائي. لقد تمكنتُ من رؤية كل شيء. قالت الشرطة إنني شاهد عَيان، واصطحبوني للإدلاء بإفادة كاملة. لقد استمروا في طرح الأسئلة عليّ حتى الليل".

"من قتل سيد المتسولين؟".

أخذ نفَساً عميقاً آخر. "رجل معتلّ المظهر. كان يختبئ وراء العمود الحجري للبوّابة. فعندما دخل سيد المتسولين، قفز على ظهره وحاول طعنه. ولكنه رجل ضعيف، وكانت طعناته خفيفة لدرجة أنها لم تخترق جسـده. بإمكان أي شـخص النجاة من هذا المهاجم الضعيف".

"إذاً، لماذا لم ينجُ سيد المتسولين؟".

"لأن سيد المتسولين لم يكن موفور الحظ في ذلك اليوم".

شرح إبراهيم أن سيّد المتسولين كان يحمل حقيبة كبيرة مربوطة بمِعصمه بسلسلة، وأنها مليئة بنقود معدنية كان قد جمعها من متسوليه. لقد وقع في الفخ بعد سقوطه على الأرض، إذ لم يتمكن من تحرير يده من الوزن المميت. فقاتل بذراعه الطليقة وفشـل، راكلاً بساقَيه خلال قيام القاتل الضعيف بالإجهاز عليه، جالساً على ظهره منفرج الساقَين، ومخترقاً بسكينه ملابس الضحية وجلده ولحمه وصولاً إلى القلب.

"بدا الأمر هزلياً جداً في بادئ الأمر، كما لو أنه يلعب بسكين بلاستيكي قابل للطيّ حصل عليه من بائع البالونات. ولكن الأمر تطلبه بعض الوقت، وتوقف سيد المتسولين أخيراً عن الحراك. هو الذي عاش من تسوّل الضعفاء العاجزين مات بسبب ثقل تلك التسولات. أترين يا أختاه؟ تظهر العدالة في العالم من حين لآخر".

تذكرت دينا كل المتسولين الذين شاركوا في جنازة شانكار. لقد أصبحوا أحراراً حقاً. ولكن، بماذا تفيدهم الحرية؟ سيصبحون مبعثَرين على الأرصفة البائسة في المدينة، وهم مُهمَلون. ألم يكونوا أفضل حالاً برعاية سيد المتسولين؟

قالت: "لم يكن رجلاً مجنوناً تماماً".

"من نكون لنتخذ قراراً بشأن صلاحه أو سوئه؟ ولكنها المرة الوحيدة التي تتساوى فيها كفّتا الخير والشر. صِدقاً، يا أختاه، عندما رأيت سيد المتسولين يقترب، كنت أفكر في طلب المساعدة منه؛ ليختار لي مكاناً جيداً أتسوّل فيه. ولكن القاتل وصل إليه أولاً".

"هل حاول سرقة المال؟".

"لا، لم يكن مهتماً بالكيس. ولو كان كذلك، لاضطر إلى قطع مِعصمه. لا، لقد رمى السكين فحسب وصاح قائلاً إنه رجل السعادين، لقد قتل سيد المتسولين انتقاماً".

فشحُب وجه دينا، وانزلقت على الكرسي. وبذل إبراهيم جهداً للمس ذراعها. "هل أنتِ بخير، يا أختاه؟".

"ذلك الذي قال إنه رجل السعادين، هل كان لديه ندب كبير على جبينه؟".

"أظن ذلك".

"لقد جاء إلى هنا في الأسبوع الماضي، راغباً في التقاء سيد المتسولين لأجل عمل ما. فقلت له إنه سيزورني يوم الخميس؛ يوم أمس". فأطبقت أصابعها وغطت فمها بقبضة يدها. "لقد ساعدتُ المجرم".

"لا تقولي ذلك يا أختاه. أنت لم تعرفي أنه سيُقتَل". فربّت على يدها، ورأت أظفاره القذرة. لو قام بذلك قبل أشهر، لصدّته لمجرّد لمسها، أما في تلك اللحظات فقد كانت ممتنّة لذلك. وشعرت بالدهشة والأسى بسبب بشرته المتجعّدة والحرشفيّة كما لو أنها بشرة حيوان زاحف غير مؤذٍ. لماذا كنت أكرهه بشدة؟ سألت نفسها. فالدهشة من قدرة البشر على التحمل، والشعور بالأسى بسبب يأسهم وقنوطهم، هما الأمران الوحيدان اللذان يمكن فهمهما. ربما كان مانيك مُحِقاً عندما قال إن كل شيء ينتهي على نحو سيّئ؟

"لا تلومي نفسك، يا أختاه"، قال مربّتاً على يدها مجدداً.

"لماذا تستمر بدعوتي أختك؟ أنت تفوق والدي عمراً".

"حسناً، إذاً سأقول ابنتي". وابتسم بطريقة غير تلقائية. "أتعلمين؟ كان رجل السعادين هذا سيعثر على سيد المتسولين عاجلاً أم آجلاً سواء أساعدته أم لا. قالت الشرطة إنها حالة عقلية، حتى إنه لم يحاول الفرار، بل وقف هناك مُطلِقاً أنواع التفاهات كافة، قائلاً إن سيد المتسولين سرق طفلَين منه عندما كان فاقد الوعي، وقطع أيديهما، وأفقدهما البصر، ولوى ظهريهما، وحوّلهما إلى متسولَين، ولكنه ثأر لهما. من يعلم أي نوع من الأفكار الشريرة كانت تملأ رأس الرجل المسكين؟".

لمس يدها مجدداً. "أما وقد مات سيد المتسولين، فإن صاحب الملك سيرسل قريباً من يرمي بك خارجاً. لهذا السبب جئت لأحذّرك".

"لا شيء يسعني القيام به في مواجهة مشاغبيه".

"عليك التصرف قبله. قد يكون لديك قليل من الوقت. لقد رحل ضيفك وخياطاك، لذلك سيكون بحاجة إلى عذر. اقصدي محامياً و...".

"لا يمكنني تحمل تكلفة المحامين مرتفعي الأَجر".

"محام منخفض الأجر يفي بالغرض. يجب...".

"لا أعرف كيف أجد أحدهم".

"اقصدي دار القضاء. هم من سيجدونك. فحالما تدخلين من البوّابة، سيأتون إليك راكضين".

"وبعد ذلك؟".

"أَجري مقابلة معهم، واختاري الذي يمكنك تحمّل تكلفته. قولي له إنك تريدين الحصول على أمر قضائي يمنع صاحب الملك من القيام بأعمال تهديدية وأنواع أخرى من المضايقات، ويحافظ على الوضع القائم حتى...".

"دعني أدوّن ذلك، لن أتذكّر ما قلته". فأحضرت ورقة وقلم رصاص. "هل تعتقد أن الأمر سينجح؟".

"إذا تصرّفتِ بسرعة. لا تضيّعي الوقت، يا ابنتي. اذهبي... اذهبي الآن".

فبحثت داخل حقيبة يدها، وعثرت على ورقة نقدية من فئة خمس روبيّات. قالت: "إنها لك حتى تجد عملاً". داسّةً إيّاها في يده الحرشفية.

"لا، لا يمكنني أن أقبلها منك. أنت تعانين قدراً كافياً من المتاعب".

"هل يمكن لابنة ألا تساعد والدها المُسنّ؟".

فترقرقت عيناه بالدموع وهو يأخذ منها المال.

* * *

كانت بوّابتا دار القضاء تعجّان بحركة ناشطة لبازار ارتجالي أُقيم خارج الفناء حيث يحاول الناس الذين أمضوا ساعات في السعي وراء العدالة شراء قُوتٍ من الباعة، وكان عليهم تمضية أيام وأسابيع وأشهر إضافية في هذا السعي. وكان تمييز المتقاضين عن سواهم أمر سهل؛ فهم الذين قدِموا مع علب طعام، ويقفون جانباً ماضغين إيّاه بهدوء. لقد اجتذب بائع البهاجيا المقليّة حشداً كبيراً من الجائعين. لا عجب، قالت دينا لنفسها، فالرائحة زكية. وكانت بجانبه ثمرة أناناس مبرَّدة على لوح كبير من الثلج. فتأملت بإعجاب الشرائح مسنَّنة الأطراف بترتيب، وراقبت امرأة تثلّم الثمرة بسكينها الطويل القاطع.

يلعب العاملون على الآلات الكاتبة خارج دار القضاء دوراً محورياً. كانوا جالسين متربِّعين على كراسيهم أمام أندروودس المهيب كما لو أنهم في مزار مبجل، طابعين مستندات للمدَّعين والملتمسين. وكانت هناك أوراق بالحجم القانوني، ومشابك ورق، وإضبارات ملفات، وشرائط قماشية قرمزية اللون تضمن سلامة ملخَّصات الدعاوى، وأقلام رصاص زرقاء وحمراء، وأقلام حبر، وحبر معروضة للبيع.

كان العاملون في الهيئة القضائية الذين يرتدون سُترات سوداء يتجوّلون بين الحشود، صائدين القضايا. فتجنّبتهم دينا بحِرص، مقررةً التجوّل في أنحاء دار القضاء في بادئ الأمر. "لا، شكراً لك". كانت تكرر لأولئك الذين يعرضون عليها تقديم المساعدة.

في مكان قريب من المبنى الرئيس، ازدادت الحشود كثافةً، وكان هناك إحساس غامر بوجود جوّ من الاضطراب. كان الناس يدخلون ويخرجون عبر المدخل، فيلوّح أولئك الذين في الداخل بأيديهم لمعارفهم، ويصيح آخرون في الخارج طالبين ممّن هم في الداخل الخروج. وكان البعض يوقعون مستنداتهم القيّمة من حين لآخر، ويحدث تدافع لدى محاولتهم التقاطها فتسقط أشياء أخرى بدَورها كالمناديل، والقلنسوات.

خلال تدفق موجة من الأشخاص إلى الداخل، سمحت دينا لنفسها بالانسياق معهم. ووجدت نفسها في رِواق مُشرف على الباحة. هناك، كان الناس أيضاً في حركة دائمة، وهم يدخلون قاعات المحاكم المكتظة أو يخرجون منها، صاعدين ونازلين الدرَج، كما لو أن وباءَ التشوُّش ألمّ بالجميع. وكان صدى ضوضاء الأصوات يتردد في الغرف والمداخل، ويُسمع أزيز منتظم أحياناً مع لحظات متقطعة من الصَخَب. فتساءلت عن كيفية تمكن هؤلاء من متابعة الجدالات القانونية.

لقد وقفت لوقت قصير في مدخل إحدى القاعات حيث يتم النظر في إحدى القضايا. كان القاضي يضع أحد طرفَي نظارته في فمه، متأملاً، خلال قيام محامي الدفاع بتولّي الكلام. لم يكن بالإمكان سماع أي كلمة، وكانت حركات يده المضبوطة وأوتار حَلقه المنتفخة هي الدلالات الوحيدة على قيامه بعرض الوقائع.

من حين لآخر، كان الناس يتوقفون من دون حراك في الرواق ويصيحون بإلحاح مُنادين على اسم أو رقم. يقوم فريق البحث أحياناً بالانتشار في مختلف الاتجاهات بَحثاً عن ذلك الاسم أو الرقم. هل حدث خَطْب ما في النظام القضائي؟ تساءلت دينا، إضراب ربما؟ ربما شعر كتّاب المحكمة والسكرتيرات بالملل، وأدخلوا دار القضاء في هذه الفوضى المجنونة.

قررت تعقّب عائلة عن كثب بدا أفرادها على معرفة تامة بما يقومون به. كانت تركض حيث يركضون، وتُصغي إلى ما يقولونه، وتتبع أنظارهم المحدِّقة. وبعد مراقبة دقيقة، فهمت بعض ما يجري وسط الاضطراب والفوضى؛ تماماً كما لو أنها تعمل على ثوب جديد، قالت لنفسها. وبدت النماذج الورقية عشوائية أيضاً حتى تم جمعها بطريقة منهجية.

بدأت تُدرك أن كل الهيَجان المسعور جزء من يوم عادي في دار القضاء. لقد كانت الحشود المتدافعة في الأروقة مثلاً، تحاول العثور على لوحة الإعلانات التي تُدرَج عليها أرقام قضاياهم وأماكن الغرف حيث يتم النظر في القضايا. ومجموعة الأشخاص الذين يحتشدون في الزوايا المُظلمة على نحو يدعو للارتياب وسطاء يناقشون الرشاوى. وأولئك الذين ينادون على الأسماء هم المحامون الذين يبحثون عن موكّليهم، أو بالعكس، بسبب اقتراب موعد انعقاد الجلسات الخاصة بهم. فبعد أشهر من الانتظار، وسنوات أحياناً، يمكن فهم اضطراب المتقاضين. فأكثر ما يدعو للاستياء هو قيام المحكمة بإرجاء الجلسة لأن المحامي اختار في تلك اللحظة الحساسة دخول الحمّام، أو تناول كوب من الشاي من دون إعلام كاتب المحكمة.

وعندما تقفّت دينا أثر شُعَيرة النظام وسط الإرباك، شعرت بثقة أكبر. فخرجت إلى الباحة بحثاً عن محامٍ للاستعانة بخدماته. كان بعض المحامين يضعون لافتات تعدد خدماتهم وتخصصاتهم: قضايا الطلاق تعالَج هنا؛ التركات وإثبات صحتها؛ تدبّر بيع الكِلى؛ شهادات توضَع بسرعة ووضوح بإنكليزية جيدة.

يفضّل آخرون المناداة على ما يقدّمونه من خدمات كالباعة في السوق: "نسخات حقيقية، خمس روبيّات فقط! إقرارات كتابية رسمية، خمس عشرة روبيّة! القضايا كافة،

الجُنَح كافة، أسعار منخفضة!".

توقفت بجانب أحدهم ورد في أعلى اللائحة الموجودة على لوحته الإعلانية: نزاعات حول قانون الإيجار، 500 روبيّة فقط. وخلال استعدادها للتحدث إليه، التفّ حولها حشد من المحامين بسترات سوداء خافقة لاقتناص الفرصة. كان سواد العديد من هذه السترات باهتاً بسبب غسلها.

لقد سعى المحامون إلى لفت انتباهها، ولكنهم حافظوا على وقارهم مُبقين سياق الحديث في إطار غير شخصي. لم تكن المنافسة المهنية ظاهرة على وجوههم، فليس هناك تجهّم أو تقاطع في الحديث. لقد بدا كل منهم غافلاً عن حضور الآخرين، وساعياً إلى أخذ عرضه بعين الاعتبار.

فوقف أحدهم أمام الآخرين ودفع بشهاداته تحت أنظارها. "رجاءً، يا سيدة! انظري إلى هذه. إنها إجازة حقيقية من جامعة جيدة! يدّعي العديد من المحتالين امتهان المحاماة! أيّاً يكن الشخص الذي تختارينه، احذري، تذكّري دائماً ضرورة التحقق من مؤهلاته!".

"عرض خاص!"، صاح رجل من الخلف، "لا رسوم إضافية على طباعة المستندات، أُجرة منخفضة تشمل كل الخدمات!".

لقد أحاطوها من كل جانب تماماً. وحاولت تخليص نفسها من الصَّخَب بسبب انزعاجها من الاهتمام غير المرغوب فيه. "اعذروني رجاءً، أنا...".

"ما هي التُّهم، يا سيدتي؟". صاح شخص واقف على أطراف أصابع قدمَيه لتراه. "أستطيع تسلّم قضايا جنائية ومدنية!".

طالت بُقَع من لعابه نظارتها وخدَّيها. فأجفلت، وحاولت تحرير نفسها مجدداً.

انسحبت إلى ناحية أقل اكتظاظاً في الباحة بجانب المبنى. كانت المنطقة هادئة بسبب خلوّها من المحامين، وكانت المقاعد الخشبية موضوعة على امتداد الدرابزين. كان الناس مستلقين على العشب في قيلولة، واضعين صنادلهم تحت رؤوسهم لحمايتها من السرقة ومستخدمين إيّاها كوسادات؛ وآخرون يتناولون وجبات غداء خفيفة من علب برّاقة مصنوعة من فولاذ لا يصدأ؛ ووالدة تقشّر حبة شيكو بمِطواة وتُطعم طفلها الفاكهة البنّية حلوة المذاق.

في هذا المكان الهادئ، كان هناك رجل يجلس على مقعد مكسور وهو يحدِّق إلى شجرة المانغو، وكان ثلاثة فتيان صغار يرمون الحجارة على حبات الفاكهة الخضراء القاسية خلال نوم والدَيهم على المَرجة. لقد أثمرت جهودهم فسقطت حبة مانغو واحدة. فتناولوا قضمات منها ومرّروها إلى المحيطين بهم، وانكمشت أفواههم بسبب اللُّب النَّيء

لاذع الطعم، وكَزّوا أسنانهم مهتزّين من فَرط المتعة وعيونهم مُغمَضة بإحكام.

ابتسم الرجل الجالس على المقعد المكسور وأومأ برأسه، مستمتعاً بذكريات مُستلهَمة من الأطفال. كان جَيب قميصه منتفخاً بأقلام موضوعة داخل علبة بلاستيكية خاصة، وتوجد عند قدمَيه قطعة كرتونية مستطيلة الشكل يبلغ طولها خمس عشرة بوصة وعرضها عشر بوصات مُسنَدة إلى قطعة آجرّ.

شاعرةً بالفضول، اقتربت دينا وقرأت العبارة المكتوبة على اللوحة: فاسانتراو فالميك، بكالوريوس في الآداب والفنون، بكالوريوس في القانون. غريب، قالت لنفسها، كيف يقنع محامٍ بالجلوس هنا بهدوء من دون ارتداء سترة سوداء وبذل جهد للحصول على عمل.

قال السيد فالميك: "يا سيدتي، نيابةً عن مهنتي، أودّ الاعتذار عن ذلك العرض المُعيب بالقرب من المدخل".

قالت دينا: "شكراً لك".

"لا، رجاءً، أنا من يجب أن أشكرك لأنك قبلت اعتذاري. كان الأمر مُخزِياً بسبب طريقتهم في الاحتشاد حولك. لقد رأيت ذلك من هنا". فأبعد ساقَيه المتربعتَين عن بعضهما، ودفعت إصبعُ قدمه اللافتةَ الكرتونية، مما جعلها تسقط. فقوّمها، وأسندها إلى قطعة الآجرّ مجدداً.

"من مكاني هنا على المقعد، أشاهد الكثير من الأمور كل يوم. ومعظم ما أراه يصيبني باليأس. ولكن ماذا نتوقع عندما يصبح القضاء بين أيدي وحوش، ويستبدل قادةُ البلد الحكمةَ والحكمَ الجيد بالجُبن وتعظيم الشأن؟ مجتمعنا يبلى من أعلى الهرم إلى أسفله".

انتقل إلى حافة المقعد المتداعي، مُفسحاً لها المجال للجلوس على الناحية الأكثر متانة. "رجاءً، تفضّلي بالجلوس".

فوافقت دينا، وقد ترك خطابه وسلوكه الاجتماعي انطباعاً جيداً في نفسها. فشعرت بأنه غير منتمٍ إلى محيطه. لكان من الأنسب له أن يكون موجوداً في مكتب مجهَّز بذَوق حسن مع طاولة من خشب الماهوغاني، وكرسي جِلديّ منجَّد، وخِزانات كتب مرتَّبة. قالت: "في هذا الجانب من دار القضاء كل شيء هادئ".

"أجل، أليس الأمر جميلاً؟ العائلات تسترخي بسلام، ممضية الوقت حتى تطحن عجلات العدالة قضاياهم. من يظن أن هذا المكان الجميل هو المسرح الخسيس للحقد والثأر، وهو المنصة المجزَّأة حيث تؤدّى المسرحيات التراجيدية والهزلية؟ هنا، تبدو

المنطقة كما لو أنها أرض للنزهات أكثر منها ساحة معركة. قبل أشهر قليلة، رأيتُ امرأةً تدخل المخاض وتضع مولودها هنا بالذات بسعادة غامرة. لم تشأ الذهاب إلى المستشفى، ولم ترغب في مزيد من الإرجاءات لقضيتها. كانت موكّلتي. لقد فزنا".

"إذاً، أنت محامٍ تزاول المهنة؟".

"أجل، في الواقع"، وأشار إلى اللافتة، "أتمتع بكفاءات عالية. ولكن، عندما كنت في عامي الأول في الكلية قبل عدة سنوات أتخصص في الفنون، كان أصدقائي يقولون إنني لست بحاجة إلى الدرس، وإنني أحمل سلَفاً إجازة بكالوريوس في القانون".

"كيف ذلك؟".

قال السيد فالميك، مبتسماً: "لقد منحوني لقب سيد المقعد الأخير الفخري لأنني كنت أجلس في المقعد الأخير في الصف؛ كان يسمح لي برؤية الأمور بشكل جيد. وعليّ الاعتراف بأن الموقع علّمني أموراً عن الطبيعة البشرية والعدالة أكثر مما كان بإمكاني تعلّمه من محاضرات الأساتذة".

لمس رزمة الأقلام الموضوعة في جَيب قميصه كما لو أنه يتأكد من وجودها بأجمعها. كانت منتصبة بشكل رائع في علبتها البلاستيكية كجعبة مليئة بالسهام. "وها أنذا مع إجازة جديدة: سيد المقعد الأخير. ودراستي مستمرة". فضحك، وانضمت إليه دينا بالضحك بتهذيب، واهتزّ مقعدهما المتقلقل.

"لكن، لماذا لستَ يا سيد فالميك في الواجهة على غرار المحامين الآخرين لتحاول الحصول على زبائن؟".

فوجّه نظره إلى شجرة المانغو وقال: "أجد هذا النوع من السلوك فظاً تماماً، ودون المقام". وأضاف بسرعة: "إنه دون مقامي (infra dig)". وشعر بالقلق من أن تفسر إجادته اللغة اللاتينية ضرباً من ضروب العجرفة.

"ولكن، إذا بقيتَ جالساً هنا، فكيف ستكسب رزقك؟".

"رزقي يأتي إليّ بنفسه؛ القليل منه في كل مرة. يكتشفني الناس أخيراً؛ أشخاص مثلك مشمئزون من أولئك الشبّان الفظّين، ومن المزعجين الزائفين. بالطبع، ليسوا جميعاً سيّئي الخُلُق؛ إنهم متلهّفون للعمل فحسب". ولوّح باعتدال لكاتب محكمة مارٍّ ولمس أقلامه مجدداً. "حتى ولو كان طَبعي يقودني إلى سلوك فظ، لن يمكّنني صوتي من التنافس في هذه المباراة الصاخبة. أترَين؟ أنا مصاب بإعاقة جدّية في الحنجرة. إذا رفعتُ صوتي، أفقده تماماً".

"آه، يا لسوء الحظ".

"لا، ليس حقاً". وطمأنها السيد فالميك. كان يعتبر التعاطف الحقيقي حاجة قيّمة ويكره التفريط به. "لا، لا تترك تلك الإعاقة أي أثر في نفسي. فلا حاجة في هذه الأيام إلى محامين يصدحون بأصواتهم في قاعة المحكمة، خالبين لُبّ القاضي وهيئة المحلَّفين بفن الخطابة". وضحك. "لا حاجة هنا إلى كلارنس دارو؛ لقد توقفت المحاكمات المماثلة لتلك التي كان سعدان سكوبس حاضراً فيها، عِلماً أنه يوجد في كل قاعة محكمة الكثير من السعادين الراغبة في أداء دورها لقاء موز وفول سوداني".

تنهّد بعمق، وحلّ الأسى محلّ التهكّم. "ماذا علينا أن نقول يا سيدتي؟ ما الذي يجب أن نفكر فيه بشأن دولة هذه الأمّة؟ عندما تحوّل المحكمة العليا في البلد ذَنْب رئيسة الوزراء إلى براءة، فإن كل هذا" - وأشار إلى الصَّرح الحجري المَهيب - "يصبح متحفاً للخِدَع الرخيصة وليس للقانون الحيّ الذي يقوّي عضلات المجتمع".

متأثّرة بمدى ألمه سألت دينا: "لماذا تقوم المحكمة العليا بذلك؟".

"من يعرف السبب يا سيدتي. لماذا يوجد هناك مرض وجوع ومعاناة؟ يمكننا الإجابة فقط عن كيفية حدوث ذلك، ومكان حدوثه، وتاريخ حدوثه. رئيسة الوزراء تغشّ في الانتخابات، وقد عُدّل القانون ذو الصلة بسرعة. لذلك، هي غير مذنبة. يجب علينا نحن البشر أن نقبل بأن الأحداث الماضية خارج متناول قبضتنا، في حين أن رئيسة الوزراء تتلاعب بوقائع الماضي".

توقف السيد فالميك فجأةً، مدركاً أنه يُكثر من الاستطراد، في حين أن هناك زبوناً محتمَلاً يجلس بجانبه. "ولكن، ماذا عن قضيتك يا سيدتي؟ يبدو أنك تترددين كثيراً على هذه المؤسسة".

"لا، لم يسبق لي أن قدِمتُ إلى المحكمة من قَبل".

قال متمتماً: "إذاً، لقد عشتِ حياة مبارَكة، لا أريد أن أكون فضولياً، ولكن هل هناك حاجة إلى محامٍ؟".

"أجل، الأمر يتعلق بشقتي. بدأت المشاكل قبل تسعة عشر عاماً بعد وفاة زوجي". وأخبرته عن كل شيء بدءاً بالإشعار الأول لصاحب الملك بعد أشهر قليلة من وفاة راستوم في ذكرى زواجهما الثالثة، وعن الخياطَين، والضيف المستأجِر، واستمرار مضايقة جامع الإيجارات، وتهديد المشاغبَين، وحماية سيد المتسولين ووفاته.

كان السيد فالميك يصغي، ولم يتحرك قطّ حتى لملامسة أقلامه المحبوبة. لقد اندهشت من إصغائه بحِرص شديد؛ كالحِرص الذي أبداه في أثناء تكلمه.

أنهت قصتها، فقال بصوته الهادئ الذي أُصيب ببحّة: "إنه وضع شديد الصعوبة.

أتعلمين يا سيدتي؟ قد يبدو من التسرع التصرف بطريقة تُفقدك الحق في أن تُؤخذ دعواك بعين الاعتبار. ولكن، في النهاية يؤدي ذلك إلى مزيد من المشاكل. صحيح، هناك مشاغبون بوفرة في زمننا الهمجي. بالرغم من كل شيء، إنه زمن الاستعمار البريطاني. إذاً، من يستطيع أن يلومك على سلوكك هذا الطريق؟ من يريد دخول معبد العدالة الملوَّث من حيث توجد جثة العدالة التي ذبحها حرّاسها؟ وها هم قتلتها يسخرون من الموكب المبجل، بائعين صوراً طبق الأصل عن فضيلتها العمياء لمقدِّمي أفضل الأسعار".

بدأت دينا تتمنى توقف السيد فالميك عن التكلم بإبهام. كان حديثه مسلّياً لبعض الوقت، ولكنه أصبح مُملاً بسرعة. كم يحب الناس إلقاء الخطب، قالت لنفسها. الكلام الطنان واللغة المنمَّقة أصابا الأمّة بالمرض بدءاً بالوزراء ووصولاً إلى المحامين وجباة الضرائب وجامعي الشعر.

قالت مُقاطعةً إيّاه: "إذاً، هل تقول إنه لا وجود لأي أمل؟".

"هناك أمل على الدوام؛ أمل يكفي ليوازي يأسنا، وإلا ضعنا".

أخرج مجموعة ورق من حقيبته، واختار بمحبة قلماً من جَيبه، وبدأ يدوّن ملاحظات. "ربما لا يزال شبح العدالة يطوف في الأرجاء، راغباً في مساعدتنا. فإذا أصغى قاضٍ محترَم إلى التماسنا، ووافق على حقنا برفع دعوى قضائية، فستكون قضيّتنا في أمان حتى يتم النظر فيها في المحكمة. ما اسمك يا سيدتي؟".

"السيدة دلال. دينا دلال. ولكن، كم يبلغ أجرك؟".

"ما يمكنك دفعه. سنقلق بشأن ذلك لاحقاً". ودوّن على عجَل اسم صاحب الملك وعنوان مكتبه، إضافةً إلى تفاصيل ذات صلة عن تاريخ القضية. "نصيحتي لكِ، لا تدعي الشقة شاغرة. التملك هو تسعة أعشار القانون. والمشاغبون جبناء في الأساس. هل من الممكن أن يقيم معك نسيب أو صديق؟".

"ليس هناك أحد".

"أجل، لم يعُد يوجد أحد، أليس كذلك؟ اعذريني على سؤالي". وتوقف قليلاً، ومن ثم دخل في نوبة سعال مخيفة، ثم قال بصوت أجشّ: "اعذريني، أظن أنني تخطيت قدرة حنجرتي على المحادثة".

قالت دينا: "يا الله! يبدو الأمر سيّئاً".

قال بنبرة شبيهة بالتبجّح: "هذه هي حالي بعد العلاج، كان يُفترض بك سماعي قبل عام. كل ما كان بإمكاني القيام به هو إطلاق صوت قصير وحاد كالفأرة".

"ولكن، ما الذي ألحق الضرر بحنجرتك إلى هذا الحد؟ هل تعرّضتَ لحادث أو

ما شابه؟".

"بطريقة ما"، وتنهّد، "بالرغم من كل شيء، ليست حياتنا سوى سلسلة من الحوادث، سلسلة من الأحداث العرَضية. سلسلة من الخيارات، العرضية أو المتعمَّدة، تُضاف إلى تلك الفاجعة الكبيرة التي ندعوها الحياة".

ها هو يتكلم مجدداً بالألغاز، قالت لنفسها. ولكن كلماته بدت صحيحة، وقارنتها بخبرتها الخاصة. فالأحداث العشوائية توجّه كل شيء: وفاة والدها عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، حياة الخياطَين بأكملها؛ مانيك الذي كان يريد العودة ولكنه سافر وقد لا تراه مجدداً، وإيشفار وأوم اللذان دخلا حياتها من العدَم واختفيا في العدَم.

في غضون ذلك، لمس السيد فالميك أقلامه الثمينة، وبدأ يروي قصته نزولاً عند رغبتها. فشعرت دينا بوجود بعض المجون في عادته. فلَمْس الأقلام أفضل من لمس المَشعب، كما يفعل بعض الرجال.

كان صوته أجش عندما أخبرها عن ذلك الطالب الشاب المتحمس في كلية الحقوق الذي وجد فيه مدرّسوه باكراً بشائر النجاح، ولكنه التمس السلام والوحدة بعد ممارسة المحاماة، ووجدهما في تصحيح المواد الطباعية. "لقد استمتعتُ بالرِفقة المتمدّنة للكلمات طوال خمسة وعشرين عاماً حتى ذلك اليوم عندما أصبحت عيناي حسّاستَين، وانقلب عالمي رأساً على عقِب".

كان الصوت الخشن الصادر من حنجرته شديد التشوّه بحيث إن دينا وجدت صعوبة في فهم ما يقوله. ولكنّ أُذُنَيها أصبحتا متكيّفتَين مع نوعيات الصوت النادرة والذبذبات غير المألوفة. وأدركت أن لا وجود لأي شيء عَرَضي في سَرده البارع بالرغم من وصف السيد فالميك الحياة بأنها سلسلة من الحوادث. كانت جُمله تتدفق كدَرزات لا عيب فيها، مُمسكاً بقماشة قِصته من دون لفت الانتباه إلى القُطَب. هل كان يتعمّد سرد الأحداث لها بترتيب معيَّن؟ ربما لا. ربما أدّت عملية السرد ذاتها إلى ظهور تصميم طبيعي. ربما يعود السبب إلى مهارة البشر في إزالة الشوائب من وجودهم غير المرتَّب... سلاح البقاء المخبّأ على غرار الأجسام المضادة في مجرى الدم.

في أثناء تكلمه، سحب قلم حبر سائل، ورفع الغطاء، ووضع رأس القلم على أنفه. وراقبت بذهول عملية إغلاق كلٍّ من منخرَيه وتنشّق رائحة الحبر بعمق.

شاعراً بالقوة من خلال قلمه من ماركة رويال بلو، أضاف: "وبات عليّ تحمّل عالم المسيرات الاحتجاجية الصاخبة لكسب الرِّزق. وأصبح وضع الشعارات والمناداة بها مهنتي الجديدة. وهكذا بدأت عملية تدمير وترَيّ الصوتيَّين".

لقد ذكّرتها قصة المحامي بلحافها المرقَّع، هدية زفاف أوم. فللسيد فالميك خِرَقه الخاصة به لصنع لحافه الصوتي؛ كلاعب خفة يسحب سلسلة لامتناهية من اللفاعات الحريرية من فمه.

"في النهاية، كان هناك حدث عرَضي آخر؛ عثوري على الرقيب الأول. كان الصياح عادة متأصلة لديه، فيصيح حتى عندما لا تكون هناك حاجة إلى ذلك لأن حنجرته الخام قادرة على ذلك، وبإمكانه أخيراً إراحة حنجرتي".

وتوقف ليقدّم لها قُرصاً للسعال، فرفضت. ووضع قُرصاً في فمه. "كم كانت لديّ خطط للتوسّع، وافتتاح مكاتب فرعية في كل مدينة كبيرة. لقد تخيّلت شراء حوّامة، وتدريب وحدة من مُطلقي الشعارات المحلّقين. فحيثما يحصل إضراب أو اضطراب، وكلما تطلّب الأمر خروج مسيرة احتجاجية، ينزل رجالي من السماء بعد تلقّي اتصال هاتفي مباشَرةً، وتكون لافتاتي جاهزة للعمل".

خبا البريق في عينَيه: "لسوء الحظ، حظّرت الحكومة التظاهرات والاحتجاجات في ظل حالة الطوارئ هذه. لذلك، كان عليّ الجلوس طوال العام الماضي على هذا المقعد المكسور، مسلَّحاً بإجازة القانون. لقد اكتملت الدائرة".

قضم القُرصَ الممصوص جزئياً، بعد نفاد صبره من تنقيله من خد إلى آخر. "كم خسرتُ في أثناء رسم الدائرة! لقد خسرت الطموح، والحدة، الكلمات، قوة الإبصار، والوتَرين الصوتيّين. في الواقع، إن الخسارة هي الموضوع الرئيس لقصة حياتي. لكن، ألا تكون الخسارة مرافقة لكل قصص الحياة؟ الخسارة أمر أساسي. الخسارة جزء لا يتجزّأ من تلك الكارثة المدعوة حياة".

فأومأت برأسها، غير مقتنعة تماماً.

"تذكّري أنني لا أتذمر".

نفد صبر دينا من السيد فالميك إلى حدٍّ كبير. لقد بدت المعلومة الأخيرة كلاماً سخيفاً. قالت مقاطِعة: "للأفعى جِلد قشيب (جديد) تحت جِلدها القديم، أفضّل عدم فقدان شقتي ما لم أجد شقة جديدة بديلة".

بدا السيد فالميك كما لو أنه تلقى ضربة على حجابه الحاجز، ولكنه استفاق من الصدمة بسرعة وابتسم، مقدِّراً رأيها. "جيد جداً. جيد جداً يا سيدة دلال. لقد أعطيتُ مثالاً رديئاً وفاجأتِني. جيد جداً. ولديك حس فكاهة أيضاً. أحد عيوب مهنتي هو الافتقار التام إلى حس الفكاهة. فالقانون صارم لا يبتسم، ولكن العدالة مختلفة؛ فهي ظريفة ومتقلّبة ولطيفة ومكترثة".

التقط اللوحة ووضعها جانباً بعيداً عن الأنظار، واحتفظ بقطعة الآجرّ تحت المقعد إلى أن يصبح بحاجة إليها مجدداً. ونفض غبارها الأحمر عن يدَيه وقال بلهجة خطابية: "سأنهض وأذهب الآن لكتابة هذا الالتماس بشغَف".

لقد حملها أسلوب كلامه على النظر إلى السيد فالميك بفضول. وتساءلت عما إذا كانت قد اختارت المحامي المناسب.

قال: "لا تذكّريني، إن الشاعر ييتس يُلهمني. أجد كلماته معبِّرة بصفة خاصة عن حالة الطوارئ المُخزية هذه. الأمور تنهار، المركز يفقد جاذبيته، غياب السلطة يعمّ العالم، وذلك النوع من الأمور".

قالت دينا: "أجل، وكل شيء ينتهي على نحو سيّئ".

قال السيد فالميك: "الآن، يبدو هذا الأمر تشاؤمياً جداً بالنسبة إلى السيد ييتس. ما كان ليكتب هذه الجملة مطلقاً. ولكن تعالي إلى مكتبي، رجاءً، بعد غد، وسأزوّدك بآخر المستجدات".

"المكتب؟ أين؟".

"هنا بالذات"، وضحك، "هذا المقعد المكسور هو مكتبي". وربّت برِقّة على القلم الذي كان قد أعاده إلى العلبة البلاستيكية: "يا سيدة دلال، يجب أن أشكرك على إصغائك إلى قصتي. لا يملك كثير من الناس الوقت في هذه الأيام للتساهل معي. كانت الفرصة الأخيرة التي حظيت بها منذ عام مع طالب في الكلّية. لقد كنا معاً في رحلة طويلة على متن القطار. شكراً لك مجدداً".

"على الرَّحب والسَّعة، يا سيد فالميك".

بعد مغادرته، انشغلت مجموعة جديدة من الفتيان بسرقة الكنز الأخضر من شجرة المانغو. لقد كان من الممتع مشاهدة جهودهم وحماستهم. فجلست دينا لدقائق قليلة قبل أن تتوجّه إلى شقتها.

* * *

انضم نقيب في الشرطة مع شرطي إلى الجدال الدائر بين رجلين حول مسألة قفل الباب الأمامي. كانت دينا قد تدرّبت على المشهد في ذهنها؛ لذا لم تكن تشعر بحدوث أزمة. لقد انقضت مرحلة من حياتها، وبدأت مرحلة جديدة. لقد حان موعد القسط الأخير، قالت لنفسها؛ إضافة رُقعة جديدة إلى اللحاف.

عرفت الرجلَين؛ إنهما مشاغبا صاحب الملك. كانت أيديهما تبدو مختلفة بفضل

سيد المتسولين، والأصابع منحنية على نحو مشوَّه، وطولها غير منسجم، كما في رسوم الأطفال. لقد مات الرجل ولكن عمله باقٍ.

قالت متظاهرةً بالقوة: "ما الأمر ماذا تريدون؟".

"أنا الرقيب كيسار، يا سيدتي". قال، مُخرجاً إبهامَيه من حزامه حيث كان قد دسّهما على نحو عدواني في أثناء التحدث إلى المشاغبَين. "آسف جداً بسبب الإزعاج. هناك أمر بإخلاء هذه الشقة".

"لا يمكنك القيام بذلك. أنا قادمة للتوّ من مكتب محامِيّ، وهو يتقدم بطلب للحصول على حكم قضائي".

فابتسم المشاغب ابتسامة عريضة: "آسف يا أختاه، لقد جئنا أولاً".

احتكمت إلى الرقيب كيسار: "ماذا يعني بقوله، أولاً؟ نحن لا نخوض سباقاً أو ما شابه. أملك حق رفع قضيتي أمام المحكمة".

هزّ رأسه بحزن؛ إنه على دِراية طويلة بأعمال المشاغبين، وينتظر اليوم الذي يستطيع فيه وضعهما في السجن. "في الواقع، يا سيدتي، لا أستطيع شيئاً حيال ذلك. يعمل القانون أحياناً كما لو أننا في سباق بين الليمونة والملعقة. يجب تنفيذ الإخلاء، ويمكنك الاستئناف لاحقاً".

"يمكنني أيضاً ضرب رأسي بالجدار".

فوافقاها المشاغبان الرأي، وأومأا برأسيهما بتعاطف. "لا جدوى من المحاكم. المجادلات والإرجاءات، والشهادة، والدليل، كلها تدوم إلى الأبد. كل تلك الأمور الغبية غير ضرورية في ظل حالة الطوارئ". وصلصل شريكه بالقِفل للمُضيّ قُدُماً.

قال الرقيب كيسار: "رجاءً، يا سيدتي، هل ستفتحينه الآن؟".

"وإذا رفضتُ؟".

قال بأسى: "حينذاك، سيكون عليّ كسر القفل".

"ماذا سيحدث بعد أن أفتحه؟".

"سيتم إفراغ الشقة من محتوياتها"، قال متمتماً، وبدا عليه الخجل في أثناء التكلم بطريقة غير واضحة.

"ماذا؟".

كرّر بصوت أعلى: "سيتم إفراغها من محتوياتها، سيتم إفراغ شقتك".

"وستُرمى أغراضي على الرصيف؟ لماذا؟ لماذا يتصرفون كالحيوانات؟ أمهلوني يوماً أو يومَين على الأقل كي أتمكن من القيام ببعض التدابير".

"في الواقع، يا سيدتي، الأمر عائد لصاحب الملك".

قال المشاغب الأصلع: "لقد انتهى الوقت. كوننا عاملَين لدى صاحب الملك، لا يمكننا أن نسمح بأي تكتيكات تأجيلية".

التفت الرقيب كيسار إلى دينا قائلاً: "لا تقلقي، يا سيدتي، سيكون أثاثك بأمان. سأحرص على التعامل مع كل شيء بحِرص شديد. سيقوم الشرطي المرافق بحماية الأثاث. إذا أردتِ، يمكنني إرساله لاستئجار شاحنة لك".

أخرجت دينا المفتاح من حقيبة يدها، وفتحت قفل الباب. وحاول المشاغبان الدخول كما لو أنه قد يُقفَل مجدداً، ولكن الرقيب كيسار أفشل محاولتهما بذراعه. لقد رفعها كشرطي سَير لإعاقة مرورهما.

"من بعدك، يا سيدتي". وانحنى، وسار خلفها.

كان أول ما رأوه هو العلب الكرتونية الخاصة بالخياطَين المكدَّسة في إحدى زوايا الشرفة. وشرع المشاغبان بنقلها إلى الخارج.

"تلك العلب ليست لي، لا أريدها"، صاحت دينا بغضب، موجّهةً غضبها إلى الخياطَين الغائبَين. لقد تخلّيا عنها وتركاها لتواجه مصيرها بنفسها.

"ليست لك؟ جيد، إذاً سنأخذ العلب".

وضعت الملابس والتحف الرخيصة داخل الأدراج والخزائن، محاوِلةً التقدُّم على المشاغبَين بخطوات قليلة في أثناء نقل الأثاث إلى الخارج. كان الرقيب كيسار يتبعها بخطى قصيرة ومتمايلة، سَعياً إلى تقديم يد العون. "هل اتخذت قراراً بشأن المكان الذي ستنتقلين إليه كل شيء، يا سيدتي؟".

"سأقصد فيشرام وأتصل بشقيقي. سيكون باستطاعته إرسال شاحنة المكتب".

"حسناً، سأراقب هذَين عن كثب. هل يمكنني القيام بأي شيء آخر خلال غيابك، يا سيدتي؟".

"هل يُسمح لك بمساعدة مجرم؟".

فهز رأسه بحزن: "في الواقع، يا سيدتي، هذان الاثنان هما المجرمان، وصاحب الملك أيضاً".

"ومع ذلك، فقد رُميتُ خارجاً".

"إنه العالم المجنون الذي نعيش فيه. لو لم تكن لديّ عائلة أُطعمها، فهل تظنين أنني كنت سأقبل بهذا العمل؟ ولا سيما بعد ما تسبب لي من قروح؟ فمنذ بدء حالة الطوارئ، بدأت قروحي. في بادئ الأمر ظننتُ أنها حموضة في المعِدة. ولكن الطبيب

أكد التشخيص، ويتعيّن عليّ إجراء عملية في وقت قريب".

"آسفة جداً لسماع ذلك". وعثرت على مِفك البراغي على رف المطبخ وسلّمته إيّاه. "إذا شئتَ، يمكنك رفع لوحة الاسم عن الباب الأمامي".

فأمسك بالأداة بفرح. "بكل تأكيد. سأكون سعيداً بذلك، يا سيدتي". وخرج بعد أن خفّت حدة شعوره بالذّنب، وسرعان ما بدأ بالنفخ واللهاث فوق اللوحة النحاسية الملطَّخة، متعرّقاً خلال نضاله لفك البراغي.

صرخ نوسوان عبر الهاتف: "ماذا؟ أُخليَ المكان؟ أتتصلين بي بعد أن أصبح الأثاث على الرصيف؟ أكنت تحفرين بئراً في أثناء اشتعال المنزل؟".

"حدث الأمر فجأةً. هل يمكنك إرسال شاحنتك أم لا؟".

"هل لديّ خَيار آخر؟ إنه واجبي. من سيساعدك إن لم أقم بمساعدتك؟".

كان الرجلان قد أنهيا نقل الأثاث تقريباً عندما عادت إلى الشقة، وآخر ما حملاه إلى الخارج كان القِدر والطناجر وجهاز الطبخ من المطبخ. كان الشرطي يحرس كل شيء عند ممر المشاة. لا تبدو الأغراض المكدَّسة على هذا النحو قادرة على ملء الغرف الثلاث، قالت لنفسها، أو السنوات الإحدى والعشرين التي أمضتها فيها.

لقد شعر الرقيب كيسار بالارتياح لأن الشاحنة قادمة. "أنت محظوظة جداً يا سيدتي، لديك مكان تذهبين إليه على الأقل. أرى يومياً حالات يُضطر فيها الناس إلى إقامة منازلهم على الرصيف، فيستلقون هناك مُنهَكين، وضائعين، ومُحبَطين. والأمر المثير للدهشة هو مدى سرعتهم في تعلّم استخدام الكرتون والبلاستيك والصحف".

طلب من دينا معاينة الغرف قبل تسليم الشقة. همس: "هل أنت واثقة من أنك لا تريدين الأغراض الموجودة على الشرفة؟".

"ليست لي. إنها قُمامة. هي لا تهمّني".

"تروي، يا سيدتي، كل ما يُترك هنا يصبح تلقائياً مُلكاً لصاحب الملك".

قال المشاغبان ملتقطَين العلب: "لقد أنهينا العمل". وأقفلا الباب الأمامي ووضعا قفلاً جديداً في الرِّتاج. وأكمل الرقيب كيسار الإجراءات الشكلية؛ لقد تم توقيع المستندات في ثلاث نُسخ.

بعد ذلك، ركّز المشاغبان انتباههما على العلب، متلهّفَين لتفحص مكافأتهما غير المتوقعة. "انتظر قليلاً"، قال الأصلع، حاملاً ملء يد من خُصل الشعر السوداء. "ما هذه القُمامة؟".

"لماذا تعتبرها قُمامة؟"، وضحك شريكه، "الشعر هو ما أنت بحاجة إليه".

فلم يُسَرّ الأصلع بذلك: "انظر إلى ما يوجد في العلبة الأخرى".

فراقبهما الرقيب كيسار للحظات، ودسّ إبهامَيه في حزامه بعد ذلك. كان مستعداً للتحرك. لقد تذكر مقتل المتسولَين في قضية القاتل التوّاق إلى الشعر. إنها الفرصة التي ينتظرها. ففك زرّ قِراب مسدسه تحسُّباً، ووجّه تعليماته إلى الشرطي هامساً.

قال للمشاغبَين بتهذيب: "اعذراني، أنتما معتقَلان بتهمة القتل".

فضحكا: "هه-هه، يصبح الرقيب كيسار شخصاً مُضحكاً". وعندما قام الشرطي بتكبيل مِعصمَيهما، اعترضا قائلَين إن الدُّعابة تخطت حدودها. "ما الذي تتحدث عنه؟ لم نقتل أحداً!".

"في الواقع، لقد فعلتما: لقد قتلتما متسوّلَين مُسنَّين. إنها قضية مثالية من النظرة الأولى. لقد قُصّ شعر المتسوّلَين وسُرق. ولديكما الشعر الآن. كل شيء واضح".

"ولكننا وجدناه هنا! رأيتنا نفتح العلبة!".

"في الواقع، لم أرَ شيئاً".

"لا دليل لديك على القتل! كيف تعرف أنه الشعر نفسه؟".

"لا تقلق بهذا الشأن. كنتما تقولان من قَبل إن الأمور الغبية كالأدلة لم تعُد ضرورية. في هذه الأيام، لدينا أمور كحالة الطوارئ والتقاد".

سألت دينا: "ما هي التقاد؟".

"تطبيق قانون الأمن الداخلي، يا سيدتي. إنه ملائم جداً. هو يسمح بالاعتقال لمدة عامَين من دون محاكمة. وتمديد المدة ممكن عند الطلب". وابتسم، ثم التفت إلى المشاغبَين مجدداً: "كدتُ أنسى أن أقول لكما أمراً؛ لديكما الحق بالتزام الصمت. ولكن، إذا قمتما بذلك فإن أتباعي في المركز سيحطمون عظامكما ليساعدوكما على الاعتراف".

أُجلس الاثنان القرفصاء وأيديهما مكبَّلة فوق رأسَيهما. لم يكن الرقيب كيسار جاهزاً بعد لاقتيادهما إلى المخفر. فأعاد الشعر إلى العلبة. قال لدينا: "لا تقلقي، يا سيدتي، سأنتظر هنا حتى وصول شاحنتك. من يعلم مقدار ما سيختفي من مقتنياتك إذا غادرتُ. عندما تغادرين بأمان، سأصطحب هذَين الكلبَين إلى المركز".

قالت دينا: "شكراً جزيلاً لك".

"لا، الشكر لك. لقد جعلتِ يومي ناجحاً". وتحقق من قِراب مسدسه. "هل تحبين أفلام كلينت إيستوود السينمائية، يا سيدتي؟ هاري القذر؟".

"لم يسبق لي أن شاهدتها. هل هي جميلة؟".

"إنها مثيرة جداً. روايات مُفعَمة بالحركة". وأضاف بابتسامة مليئة بالحزن والشوق:

"هـاري القـذر تحـرٌّ ممتـاز يحقـق العدالـة حتى عندما يسـتحيل علـى القانـون تحقيقها".
ومخفِّضاً صوته إلى درجة الهمس سـأل: "بالمناسـبة، يا سـيدتي، كيف وصل الشـعر إلى الشرفة؟".

"لا أعرف بالتحديد. كان هناك خياطان يعملان لديّ، ولديهما صديق، جامع شعر، و... لست واثقة، لقد اختفيا".

قـال هـازاً رأسـه: "عـدد كبيـر مـن النـاس اختفـوا في زمـن حالة الطـوارئ. ولكن، أتعلمين؟ ربما تكونين متورطة من دون أن تعلمي مع مهووسَين في القتل. اشكري حظك، يا سيدتي، لأنك أفلتِ من قبضتهما سليمةً مُعافاة".

"ولكنّ هذَين المشاغبَين ليسا مذنبَين في الواقع، أليس كذلك؟".

"في الواقع، إنهما مُذنبان بارتكاب جرائم أخرى. وهما يسـتحقان السـجن تماماً يا سيدتي. الأمر أشبه بالمبلغ المَدين والجانب الدائن؛ القَيد المزدوج لمسك الدفاتر. بطريقة ما، هاري القذر محاسب أيضاً، وما يهمّه هو الميزانية النهائية".

فأومـأت برأسـها، مراقبـةً مجموعـة من الغربان تنقّب في أخـدود تصريف المياه في الناحية الأخرى من الشـارع. كانت تتشـاجر على الطعام الشـهي. ووصلت الشـاحنة بعد ذلك.

سألت الرقيب كيسار خلال قيام رجال نوسوان بتحميل الأثاث: "هل لديك أبناء؟".

قـال بفخـر مسـروراً بالسـؤال: "نعـم، لديّ ابنتان. إنهما في الخامسـة والتاسـعة من عمرهما".

"هل ترتادان المدرسة؟".

"أجل. الكبرى تتلقى دروساً في السيتار أيضاً مرةً واحدة في الأسبوع بعد المدرسة. التكلفة باهظة، ولكنني أقوم بعمل إضافي بعد سـاعات العمل المعتادة من أجلها. الأبناء هم ثروتنا الوحيدة، أليس كذلك؟".

عندما باتت الشاحنة جاهزة للمغادرة، صعدت إلى المقعد المجاور لمقعد السائق، وشـكرت الرقيـب كيسـار مجـدداً على مسـاعدته. قـال: "من دواعي سـروري. أتمنى لك الأفضل، يا سيدتي".

"ولك أيضاً. آمل في نجاح عمليتك الجراحية".

لقد تطلب الأمر بعض الوقت لقيام السائق بتغيير وجهة الشاحنة بسبب ضِيق الطريق. ولدى خروجها من البوابة، رأت إبراهيم وراء العمود، مادّاً صفيحته المعدنية أمام عابري السبيل.

خلال مرور الشاحنة، حاول رفع يده إلى طربوشه، مودِّعاً. ولكن الألم في كتفه منعه من ذلك. فأمسك بياقة شروانه بدلاً من ذلك، ولوّح.

* * *

قال نوسوان مقبّلاً خدّ روبي، ومُعانقاً شقيقته بعد ذلك: "آسف، لقد تأخرتُ. هذه اللقاءات لا تنتهي". وفرك حاجبه. "هل أحضرت الشاحنة كل شيء بسلامة؟".

قالت دينا: "أجل، شكراً لك".

"أفترض أن متسوّليك وخيّاطَيك وضيفك المستأجِر قد ألقوا عليك تحية الوداع، أوروفوار". وضحك لدُعابته.

قالت روبي: "توقف، يا نوسوان، كُن لطيفاً معها، لقد عانت الكثير".

"أنا أمازحها فقط. لا يمكنني أن أخبرك بمدى سعادتي لعودة دينا".

غدا صوته أكثر رقّة ومليئاً بالأحاسيس: "لقد صلّيتُ سنوات وسنوات كي يعيدك إلى المنزل. لقد آلمني كثيراً اختيارك العيش بمفردك. في النهاية، وحدها العائلة تمد يد المساعدة؛ عندما يُدير بقية العالم ظهره لك".

ازدرد ريقه، فتأثرت دينا. وساعدت روبي على إعداد المائدة، وإحضار الماء والأكواب؛ كانت في مكانها المعتاد في خزانة غرفة الطعام. لم يتبدل شيء هنا في هذه السنوات العديدة، قالت لنفسها.

قال نوسوان: "لا مزيد من الإذلال مع الخياطَين والمتسولين. أنت لا تحتاجين إليهم، لم يعد عليك القلق بشأن المال بعد الآن. ساعدي في أعمال المنزل ليس إلا، هذا كل ما أطلبه".

قالت روبي موبّخة: "نوسوان! لقد اعتادت دينا المسكينة مساعدتي على الدوام. هي ليست كسولة أبداً".

"أعرف، أعرف"، وضحك، "هي عنيدة وليست كسولة".

بعد العشاء، قاموا بتفحص حالة الأثاث الذي كان في الشقة، فرُوِّع نوسوان. "أين عثرتِ على هذه النفايات؟".

فهزت كتفَيها. لم يكن الجواب الكلامي ضرورياً على الدوام. إنه أمر مفيد تعلّمته من مانيك.

"حسناً، لا مكان لكل ذلك هنا. انظري إلى طاولة العشاء القبيحة تلك. ولا بد من أن تلك الأريكة تعود إلى زمن باوا أدام". ووعد بالتخلص منها في غضون أيام قليلة.

فلم تجادله ولم تدافع عن الذكريات التي جعلت مقتنياتها هزيلة.

فتساءل نوسوان عمّا بدّل شقيقته. إنها ليّنة العريكة، ووَديعة وهادئة جداً، بخلاف ما كانت عليه في ما مضى. لقد أقلقه الأمر. هل تتظاهر بذلك؟ هل هو جزء من خطة لا يتوقعها؟

لقد نقلوا محتويات خزانتها التي تحتوي على أدراج إلى خزانة الملابس الموجودة في غرفتها القديمة. أسرّت إليها روبي: "إنها في انتظارك منذ زمن بعيد، خزانة ملابس والدك. أنا سعيدة جداً بعودتك".

فابتسمت دينا. ورفعت الغطاء عن الفراش ووضعته في أسفل الخزانة، وفرشت لحافها مكانه، وطوت الطرف غير المكتمل.

قالت روبي: "كم هو جميل!". ثم بسطته وتأمّلته قائلةً: "رائع تماماً! ولكن، ماذا حدث في تلك الزاوية، لماذا هذه الفجوة؟".

"لقد نفدت مني الأقمشة".

"وا أسفاه". فكّرت للحظات. "أتعلمين؟ لديّ بعض الأقمشة الجميلة. ستساعدك على وضع اللمسات الأخيرة المثالية. يمكنك إكماله بواسطتها".

"شكراً لك". ولكن دينا كانت قد قررت أن لا وجود لما تضيفه.

في السرير خلال الليل، تغطّت باللحاف واستعادت الأحداث الوافرة التي تسردها مجموعة الرُّقَع المُخاطة بإحكام، بقايا الأقمشة تلك التي عالجتها بالإبرة والخيط بمحبة. وإذا تعثرت في مكان ما، يقوم اللحاف بتذكيرها. كان المصباح في الشارع ساطعاً بما يكفي لتمييز مجموعة الألوان المختلَطة؛ إنها قصة وقت النوم.

ذات مرة، وبعد منتصف الليل، قرع نوسوان وروبي الباب ودخلا ببطء بينما كانت تستعيد ذكرياتها. "هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟".

"لا".

"هل أنت بخير؟".

"أنا بخير طبعاً".

قالت روبي: "لقد سمعنا أصواتاً، اعتقدنا أنك تتكلّمين في نومك، أو ترَينَ كابوساً مزعجاً أو ما شابه".

فعلمت دينا أنها انتقلت من الذكريات الصامتة إلى قراءة الأحداث بصوت عالٍ. "كنت أتلو دعائي فحسب. آسفة لإزعاجكما".

قال نوسوان: "لا بأس. ولكنني لم أتمكن من معرفة المقطع. من الأفضل لك أخذ

بعض الدروس لدى خلَف داب-شاب". وضحكا لهذه الدُّعابة، وعادا إلى السرير.

همس في أذن روبي: "هل تذكرين كيف كانت حالها بعد وفاة راستوم؟ وكيف كانت تنادي اسمه كل ليلة تقريباً؟".

"أجل، ولكن ذلك حدث منذ زمن طويل. لماذا يُفترض بها الاستمرار في الشعور بالكَرْب؟".

"ربما لن تتمكن أبداً من تخطّي الأمر".

"أجل. أنت من قد لا يتعافى أبداً من بعض الأمور".

في غرفتها، طوت دينا اللحاف. لقد حوّلت قطع القماش المرقَّعة صمتها إلى كلمات خرجت من تلقاء نفسها، وبات من الضروري الإقفال عليه في الخزانة. كانت تخشى الطريقة الغريبة التي يؤثّر فيها في عقلها، وما ستؤول إليه حالها. لم تشأ عبور تلك الحدود بشكل مستمر.

كفّ نوسوان عن إغاظة دينا لأن عدم قيامها برد الإساءة بمِثلها لا يُعتبر أمراً مسلّياً. وعندما كان يجلس بمفرده في غرفته في بعض الأوقات، كان يفكر في شقيقته العنيدة التي لا تلين، ويأسف لحالها، فيقول لنفسه متنهّداً، حسناً، هذا ما تفعله الحياة بأولئك الذين يرفضون الاتعاظ بدروسها: إنها تسحقهم وتُضعف معنوياتهم. ولكن أيام الكدح اللامتناهية باتت وراءها على الأقل. الآن، يُفترض الاعتناء بها وقيام عائلتها بتوفير أسباب العيش لها.

لم يمضِ وقت طويل حتى صُرفت الخادمة التي تأتي كل صباح للكنس والمسح ورفع الغبار عن الأثاث. قال نوسوان: "أرادت المرأة اللعينة المزيد من المال. وهي تقول إن هناك شخصاً إضافياً في المنزل يُرتّب عليها المزيد من العمل لمكنستها وممسحتها. إنها أعذار تلك الوغدات".

ففهمت دينا هدفه، واضطلعت بالمهام الروتينية. كانت تستوعب كل شيء كإسفنجة كبيرة، وتعصر نفسها في لحظاتها الخاصة وتكون مستعدة لاستيعاب المزيد.

باتت روبي تمضي معظم نهارها خارج المنزل. ولكنها تقوم باستمرار في الاستعلام عما يمكنها تقديمه من عون قبل المغادرة، فتشجعها دينا على الانصراف، مفضّلةً البقاء بمفردها.

قالت لنوسوان في المساء: "بفضل دينا تمكنتُ أخيراً من الاستفادة من عضويتي في نادي ويلينغدون، كانت الرسوم تضيع هَدراً في السابق".

"دينا فريدة من نوعها"، وافقها الرأي، "طالما قلت ذلك. كثيراً ما كنا نتشاجر

ونتجادل، أليس كذلك، يا دينا؟ ولا سيما بشأن الزواج. ولكنني أُعجبت على الدوام بصلابتك وعزمك. لن أنسى أبداً تصرفك الشجاع عندما توفّي راستوم المسكين في ذكرى زواجك الثالثة".

"يا نوسوان! هل عليك تذكيرنا بذلك على العشاء وتكدير دينا المسكينة؟".

"آسف، آسف جداً". وغيّر الموضوع بامتثال، متطرّقاً إلى حالة الطوارئ. "تكمن المشكلة في تراجع اندفاع حالة الطوارئ. فالخوف الأساسي الذي علّم الناس الانضباط، والمحافظة على دقة المواعيد، والكد في العمل قد اختفى. يُفترض بالحكومة القيام بأمر ما للدفع بالبرنامج قُدُماً".

لم يعُد يتم التطرق إلى موضوع الزواج خلال محادثات العشاء. ففي سنّ الثالثة والأربعين، يفقد الزواج بريقه.

كانوا يلعبون الورق في أمسيات الآحاد. "هيا انضمّا إليّ". كان نوسوان يستدعيهما بلا توانٍ عند الساعة الخامسة. "حان وقت الورق".

وكان نوسوان يراقب اللعب بورع، مُظهراً رغبته في عائلة متماسكة. كانوا يلعبون البريدج أحياناً عندما ينضمّ صديق زائر إليهم، ولكنهم يكونون بمفردهم في غالب الأحيان، ويسعى نوسوان إلى تأمين السعادة العائلية من خلال تمضية ساعات في لعبة الرامي.

سأل: "هل كنتما تعلمان أن لعبة الورق مصدرها الهند؟".

قالت روبي: "حقاً؟". فالمواضيع المماثلة التي يتطرق إليها نوسوان تُحدث في نفسها على الدوام انطباعاً جيداً.

"أجل، على غرار الشطرنج. في الواقع، إن لعبة الورق مشتقة من الشطرنج نظرياً، ولم تصل هذه الألعاب إلى أوروبا حتى القرن التاسع عشر من خلال الشرق الأوسط".

قالت روبي: "تخيّلا ذلك".

أعاد ترتيب الورق، ورمى ورقة وجهها إلى الأسفل، وقال: "الرامي!".

بعد كشفه عن سلسلة الورق الكاملة، حلّل الأخطاء التي ارتكبتها روبي ودينا. قال لدينا: "لم يكن يُفترض بك رمي ورقة شاب الكُبّة مطلقاً، لذلك خسرتِ".

"لقد جازفتُ".

فجمَع الورق، وشرع بإعادة ترتيبه. "حسناً، من حان دَوره في توزيع الورق؟".

قالت دينا: "إنه دَوري". واستلمت مجموعة الورق.

عنـد الصبـاح، هبطـت الطائـرة القادمـة من الخليج التي تُقِلّ مانيـك إلى الوطن، في العاصمـة بعـد مغـادرة مؤجَّلـة. لقد حاول النوم على متـن الطائرة ولكن الوميض المزعج لفيلم سينمائي عُرض في الدرجة السياحية كان كأضواء فلوريّة مُصابة بخلل. ووقف في الصف مُعمَش العينَين للخضوع للتفتيش الجمركي.

كان هنـاك مشـروع لتوسـيع المطـار، فجُمـع الـركاب فـي قاعـة مؤقّتـة مصنوعة من حديـد مضلَّـع. كانـت أعمـال البنـاء قد بـدأت لتوّها عندما غادر قبل ثماني سـنوات، وها هـي موجـات الحـرارة تنبثق من المعدن الممتص للشـمس وتطال الحشـود، فتملأ رائحة التعـرّق، ودخـان السـجائر، والعطر غير المستسـاغ، ومبيـدات الجراثيم، الجوّ. كان الناس يستخدمون جوازات السفر واستمارات التصاريح الجمركية كمراوح. فأُغمي على أحدهم، وحاول عاملان إنعاشـه من خلال وضعه أمام تيار مروحة مدير الجمارك الموجودة على الطاولة. وأُرسل إليه الماء.

استؤنفت عملية تفتيش الأمتعة بعد التوقف القَسري. تذمّر راكب واقف وراء مانيك من البطء، وهز مانيك كتفَيه: "ربما بلغتهم معلومة عن قدوم مهرِّب كبير اليوم".

قـال الرجـل: "لا، هـذا هـو الإجراء المتّبَع على الـدوام، حيال كل الرحلات الجوية القادمة من الشرق الأوسط. ما يبحثون عنه هو المجوهرات، والخزَفيات المذهَّبة، والسلع الإلكترونية". وشرح قائلاً إن الجمارك أصبحت أكثر حماسة بسبب التوجيهات الجديدة للحكومة التي تمنح مكافآت خاصة؛ نسبة مئوية لقاء كل عملية ضبط للممنوعات. "لذلك، فهم يضايقوننا أكثر من أي وقت مضى".

تذمّرت زوجة الرجل: "سـيتم تجعيد كل ملابسـي الموجودة في حقيبتي والمطويّة بعناية".

دسّ الموظف الباحث في حقيبة مانيك أصابعه تحت الملابس، متحسسـاً. فتسـاءل مانيك عن مدى إمكانية تعرضه لعقوبة إذا لجأ إلى وضع مِصيدة فئران داخل حقيبته. وبعد كثير من التحسس، سحب الموظف يدَيه وسمح له بالمرور غير راضٍ.

فضغط مانيك على الحقيبة وأقفلها، وأسرع إلى الخارج باتجاه سيارة أُجرة، وطلب إقلاله إلى محطة القطار. لم يكن السائق راغباً في القيام بالرحلة. "إنها وسط بؤرة أعمال

شغب. الأمر شديد الخطورة".

"أي أعمال شغب؟".

"ألا تعلم؟ يُضرَب الناس ويُذبحون ويُحرَقون أحياء".

فحاول مانيك مع سائق سيارة أجرة أخرى بدلاً من الدخول في جدال معه. ولكن كل سائق اقترب منه رفض الأُجرة، محذِّراً إيّاه. ونصحه البعض بالإقامة في فندق بالقرب من المطار حتى تهدأ الأمور.

شاعراً بالإحباط، قرر تقديم حافز للسائق التالي. "تحصل على أُجرة مضاعَفة للمسافة المسجَّلة على العدّاد، اتفقنا؟ عليّ الوصول إلى المنزل، لقد توفّي والدي. إذا أغفلتُ القطار، فسأُغفل جنازة والدي".

"ما يُقلقني ليس العدّاد، فحياتك وحياتي تساويان أكثر من ذلك. ولكن، ادخل، سأبذل قُصارى جهدي". ومدّ يده إلى العدّاد، ناقراً مؤشر **الأُجرة**، فأحدث رنيناً.

لقد تمكن السائق من تخطّي سرب السيارات التي تُعيق حركة المرور في مسارب المطار، وسرعان ما وصلا إلى الطريق العام. وخلال التحقق من حركة المرور، كان السائق يراقب الراكب من خلال مرآة الرؤية الخلفية. فشعر مانيك بعينَي الرجل ترمقانه.

قال السائق: "يُفترض بك التفكير في حلق لحيتك، فقد يعتقدون أنك من السّيخ".

كان مانيك فخوراً جداً بلحيته؛ ماذا لو اعتقد الناس أنّه من السّيخ؟ لقد بدأ بإطلاقها قبل عامين، مشذباً إيّاها بعناية حتى غدت على ما هي عليه. "كيف سيعتقدون أنني من السّيخ. فأنا لا أعتمر عِمامة".

"الكثيرون من السّيخ لا يعتمرون عِمامة. ولكنني أعتقد أن حلاقة لحيتك ستكون أكثر أمناً لك".

"أكثر أمناً؟ ماذا تعني؟".

"هل تقول إنك لا تعلم؟ السّيخ هم من يُقتلون في أعمال الشغب. لقد استمروا ثلاثة أيام في إحراق متاجر السّيخ ومنازلهم، وتقطيع فتيانهم ورجالهم. ورجال الشرطة يركضون هنا وهنالك، متظاهرين بحماية الأحياء".

فتوقف في أقصى يسار الطريق في أثناء اقتراب قافلة من الشاحنات العسكرية من الناحية الخلفية من السيارة. فصاح لمانيك من فوق كتفه بسبب هدير الشاحنات. "إنهم قوات الأمن الحدودية! ذكرت الصحيفة أنهم أُرسلوا اليوم!".

مرّت القافلة، وعاد صوته إلى حالته الطبيعية. "أفضل جنودنا. خط الدفاع الأول في مواجهة اجتياح العدوّ. الآن، يجب أن يحرسوا الحدود داخل مدننا. كم هو الأمر

مُخجل للبلد كله".

"ولكن، لماذا السّيخ فقط؟".

"ماذا؟".

"قلتَ إن السّيخ دون سواهم هم من يتعرضون للهجمات".

فحدّق السائق إليه من المرآة، غير مصدّق. هل الراكب يتظاهر بالجهل؟ ولكن السؤال طُرح بجدّية في الواقع: "بدأ الأمر عند مقتل رئيسة الوزراء منذ ثلاثة أيام. لقد أطلق عليها النار حراسُها الشخصيون السّيخ. لذلك، من المفترض أن يكون ذلك ثأراً".

التفت ونظر إلى مانيك مباشَرةً. "أين كنتَ، ألم تعرف شيئاً عما حدث؟".

"علمتُ بشأن الاغتيال. ولكن، لم أعرف شيئاً عن أعمال الشغب". نظر إلى مسار الخطوط على المقعد القائم أمامه والمصنوع من الفينيل، وإلى ياقة السائق البالية التي يمكن رؤيتها من فوق ظهر المقعد. كانت هناك على عُنُق الرجل بَثرات صغيرة لم يحِن وقت انبثاقها. "كنت شديد الانشغال، محاولاً العودة في الوقت المحدد من أجل جنازة والدي".

قال السائق بتعاطف: "أجل، لا بد من أن الأمر صعب جداً بالنسبة إليك". انحرف ليتجنّب كلباً في الطريق؛ حيواناً هجيناً أصفر، أجرَب وشديد الهزول.

ألقى مانيك نظرة سريعة عبر النافذة الخلفية ليرى إذا كان الحيوان قد وصل إلى برّ الأمان، ولكن شاحنة خلفهما دهسته. قال مقدِّماً عُذراً آخر: "تكمن المشكلة في أنني بقيت ثماني سنوات خارج البلد".

"إنه وقت طويل جداً. ذلك يعني أنك غادرتَ قبل انتهاء حالة الطوارئ، قبل الانتخابات. بالطبع، لم يتبدّل شيء بالنسبة إلى الناس العاديين. فالحكومة لا تزال تهدم منازل الفقراء والأحياء الفقيرة. في القرى، يقولون إنهم لن يحفروا آباراً إلا إذا توافرت حالات تحديد نسل عديدة. قالوا للمزارعين إنهم لن يحصلوا على الأسمدة إلا بعد الخضوع لعمليات التعقيم. فالحياة تطالعهم كل يوم بحالة طارئة أو أخرى". وأطلق بوق السيارة لشخص يكدّ في السير. "لقد سمعتَ بالهجوم الذي تعرّض له المعبد الذهبي، أليس كذلك؟".

قال مانيك: "أجل. يصعب إغفال أمور مماثلة". من أي مكان يظن الرجل أنه عائد، القمر؟ وفي الصمت الذي تلى ذلك، أدرك أنه يعرف القليل عما حدث في السنوات التي أمضاها في الخارج. فتساءل عن المآسي والفكاهات الأخرى التي حدثت في البلد في أثناء إشرافه على تبريد الهواء في الصحراء الحارة.

شجع السائقَ على مواصلة الكلام: "ما رأيك بالمعبد الذهبي؟".

فسُرّ الرجل بطرح السؤال عليه. وخرج عن الطريق العام بالقرب من ضواحي العاصمة. ومرّا بهيكل عربة محترق، دواليبه نحو الأعلى. "سيكون عليّ سلوك طريق أطول إلى المحطة. من الأفضل تجنّب بعض الطرقات". ومن ثم عاد إلى سؤال مانيك. "قالت رئيسة الوزراء إن الإرهابيين السّيخ كانوا مختبئين داخل المعبد الذهبي. لم يشنّ الجيش هجومه إلا بعد أشهر قليلة. ولكن السؤال الهام الذي ينبغي طرحه هو كيفية بدء الأمر برمّته قبل عدة سنوات، أليس كذلك؟".

"أجل. كيف؟".

"بدأت كل المشاكل بالطريقة نفسها. من خلال قيامها بإيقاع الشقاق، كما هو الحال في سريلانكا، وكشمير، وأسام، وتاميل نادو. في البنجاب، كانت تساعد مجموعة للتسبب بالمتاعب لحكومة البلد. بعد ذلك، أصبحت المجموعة قوية جداً وقاتلت في سبيل انفصال كاليستان، ولم تتسبب بالمتاعب إلا لنفسها. لقد منحت بركتها للأسلحة والقذائف، ومن ثم بدأت هذه المعدات العنيفة والشريرة بتوجيه ضربات إلى حكومتها. كيف تُقال بالإنكليزية: عادت كل دجاجاتها إلى الخُمّ لتُشوى، أليس كذلك؟".

تمتم مانيك: "عادت إلى الخُمّ لتبيت".

قال السائق: "أجل، بالتحديد، حينذاك، ساءت الأمور أكثر فأكثر، وطلبت من الجيش مهاجمة المعبد الذهبي واعتقال الإرهابيين. لقد دخلوا بدباباتهم وكل الأسلحة الثقيلة كالمشاغبين. ولحق ضرر كبير بالمقام. إنه المكان الأكثر تبجيلاً للسّيخ، وجُرحت مشاعر الجميع".

لقد تأثر مانيك بطريقة التعبير المتخفظة. أضاف السائق: "لقد أنتجت وحشاً، وابتلعها الوحش. وها هو الآن يبتلع الأبرياء. ثلاثة أيام من سفك الدماء". وضغط بأصابعه على عجَلة القيادة، وكان صوته يرتجف. "هم يسكبون الكيروسين على السّيخ ويُضرمون بهم النار، ويمسكون الرجال، وينتفون الشعر عن وجوههم أو يقطعونه بالسيوف، ويقتلونهم بعد ذلك. لقد احترقت عائلات بأكملها في منازلها".

مرّر إحدى يدَيه على فمه، وأخذ نفساً عميقاً، وأكمل وصف المذبحة التي شهد وقوعها. "كل هذا حدث في عاصمة بلدنا. حدث كل ذلك في أثناء تصرّف الشرطة بشكل مُخزٍ. ويقول السياسيون إن الناس مستاؤون ويثأرون لمقتل قائدتهم، ما الذي يمكننا القيام به؟ هذا ما أقوله للكلاب التي تفوح منها رائحة نتنة - فتووو!". وبصق خارج النافذة.

"لكنني كنت أعتقد أن الناس لا يحبون رئيسة الوزراء كثيراً. فلماذا هم مستاؤون

إلى هذه الدرجة؟".

"هذا صحيح. لم تكن محبوبة من الناس العاديين، عِلماً أنها كانت تطوف الأماكن كما لو أنها ديفي في سارٍ أبيض. ولكن، لنفترض أنها كانت محبوبة؛ هل تعتقد أن الناس العاديين يتصرفون بهذه الطريقة؟ إنه عمل العصابات الإجرامية التي تتلقى أموالاً من حزب رئيسة الوزراء. حتى إن بعض الوزراء يساعدون العصابات، مزوّدين إيّاها بلوائح بمنازل السّيخ ومؤسساتهم، وإلا لكان من المستحيل على القتَلة العمل بهذه الفعالية والدقة في هذه المدينة الكبيرة".

عبرا الشوارع حيث تشاهَد على امتداد الطريق الأطلال التي يرتفع منها الدخان، وأكوام الحطام. وكانت النساء والأطفال يجلسون وسط الأنقاض مذهولين أو باكين. فالتوَت قسمات وجه السائق، وظن مانيك أنّه يشعر بالخوف فقال: "لا تقلق، لن نواجه أي مشاكل بسبب لحيتي. إذا تم إيقافنا، سيعرفون على الفور أنني زِرادشتي؛ سأُريهم القلادات التي أضعها حول عُنُقي".

"أجل، ولكن قد يرغبون في التحقق من رخصتي".

"وماذا في ذلك؟".

"ألم تحزر؟ أنا من السّيخ؛ لقد حلقتُ لحيتي وقصصت شعري منذ يومين. ولكنني ما زلت أضع سِواري". ورفع يده كاشفاً عن السِّوار الحديدي حول مِعصمه.

تأمّل مانيك وجه السائق، واتضح له الدليل فجأةً: بشرته غير المعتادة على آلة الحلاقة مجروحة في عدة أماكن. فكل الأحداث التي رواها الرجل ـ عن التمثيل بالناس، وضربهم بالهراوات، وقطع رؤوسهم، والطرق العديدة التي اعتمدها الغوغائيون لكسر العظام، وشَقّ اللحم، وإراقة الدماء ـ وكل ما كان يُصغي إليه مانيك بتجرّد، أصبح فجأةً واقعاً واضح المعالم من خلال الجراح التي أحدثتها آلة الحلاقة. وربما كانت بُقع الدم المتخثّر على الذَّقن والفكّين أنهاراً من الدم بسبب ظهورها الواضح على البشرة الشاحبة.

فشعر مانيك بالغثيان، وأصبح وجهه بارداً ومتعرّقاً. قال بغصّة: "الأوغاد! آمل في أن يتم إلقاء القبض عليهم وشنقهم!".

"لن تتم معاقبة القَتلة الحقيقيين أبداً. إنهم يلعبون بحياة الناس من أجل الحصول على أصوات المقترعين والنفوذ. اليوم دور السّيخ. في العام الماضي، كان دور المسلمين؛ وقبل ذلك الهاريجان. ذات يوم، قد لا تكون قلاداتك كافية لحمايتك".

توقفت سيارة الأجرة عند محطة القطار. فتحقق مانيك من العدّاد، وأخرج من محفظة جَيبه ضعف القيمة، ولكن السائق رفض تقاضي أكثر من الأُجرة الفعلية. قال

مانيك: "رجاءً، رجاءً، خذها". وأصرّ على ذلك كما لو أن المبلغ سيساعد السائق على تخطّي حالة الذُّعر التي مرّ بها، وقَبِل الرجل أخيراً.

قال مانيك: "اسمع، لمَ لا تخلع سِوارك وتخبّئه في الوقت الحاضر؟".

"لن يخرج". ورفع مِعصمه وشدّ السِّوار الحديدي بقوة. "كنت أخطط لقطعه. ولكن، عليّ العثور على الشخص الذي يمكن التعويل عليه كي لا يخبر الأشخاص غير المناسبين".

"دعني أحاول". فأمسك مانيك يد السائق، شادّاً وبارماً السِّوار. ولكنه لم يتخطَّ أسفل الإبهام.

فابتسم السائق. "إنه صلب كالصَّفَد. أنا مقيَّد بدِيني؛ سجين سعيد".

"إذاً، ارتدِ ثياباً ذات أكمام طويلة على الأقل. غطِّ السّوار، أَبقِ مِعصمك مخبّأً".

"ولكن، يتعيّن عليّ أحياناً وضع يدي خارج النافذة للتنبيه إلى انعطافاتي، وإلا أوقفني شرطي السير بسبب قيادتي غير الصحيحة".

استسلم مانيك، مُفلتاً السِّوار. فأخذ السائق يد مانيك بين يدَيه وضغط عليها. وقال: "اذهب بأمان".

* * *

بدأت آبان كولاه بالبكاء لدى وصول ابنها. إنّ رؤيته مجدداً أمر رائع، فكّرت، ولكن لماذا بقي في الخارج طوال ثماني سنوات؟ هل كان شيء ما يُغضبه؟ هل شعر بأنه غير مرغوب فيه؟ وعانقته وربّتت على خدَّيه، وملّست شعره خلال تكلّمه.

قالت: "أحببت لحيتك، تجعلك تبدو وسيماً جداً. كان يُفترض بك إرسال صورة لنا، لَتمكّن والدك من رؤيتها أيضاً. ولكن، لا تُبالِ، أنا على ثقة تامة بأنه يراقب من فَوق".

كان مانيك يُصغي بصمت. لم يمرّ يوم واحد خلال غيابه الطويل من دون أن يفكّر في منزله ووالدَيه. لقد شعر بأنه واقع في شرَك تلك الشابة التي التقاها بعد اتصالها لإصلاح برّادها. لقد قدِمت إلى الخليج لتعمل كخادمة لأن الأَجر الذي وُعدت بتلقّيه بدا جيداً.

قالت السيدة كولاه، ملتمسة: "ما الأمر يا مانيك؟ ألم تعد ترغب في العيش هنا في التلال؟ هل هذا هو السبب؟ هل تجد هذا المكان مُمِلاً جداً؟".

قال مربّتاً على يدها بذهول: "لا، إنه جميل". لم يستطع التوقف عن التساؤل عما حلّ بتلك الخادمة. كانت مُجهَدة في العمل، وعُرضةً للمعاكسة تكراراً من قِبل رجال

المنزل، وقد أقفل عليها في غرفتها ليلاً، فيما صودر جواز سفرها.لذا، توسّلت إليه لمساعدتها، وكانت تكلّمه باللغة الهندية كي لا يفهم مستخدِمها. ولكن تم استدعاؤها قبل أن يتمكن مانيك من قول أي شيء. فكل ما قام به هو الاتصال بالسفارة الهندية من دون ذكر اسمه بسبب شعوره بالقلق من مغبّة التدخل شخصياً.

كم هو محظوظ مقارنةً مع تلك المرأة المسكينة، قال لنفسه. لماذا يشعر إذاً بالعجز على غرارها، حتى هنا في المنزل؟

تمنى لو كانت لديه إجابات عن أسئلة والدته. ولكنه لم يكن قادراً على شرح ما ينتابه، ليس لها أو لنفسه. فكل ما باستطاعته تقديمه هو الأعذار العادية المبتذَلة: عمل متطلب، ضغوط في العمل، الافتقار إلى الوقت؛ تكرار الكلمات الفارغة التي كان يخطّها بسرعة في رسالته السنوية إلى والدته.

قالت: "لا، أطلعني على السبب الحقيقي، لا تُبالِ، سنتحدث لاحقاً بعد أن ترتاح. مسكين والدك، كم افتقد إليك، ومع ذلك فهو لم يتذمر قطّ. ولكنني كنت أعلم أن شيئاً ما يتآكله من الداخل".

"إذاً، أنت تحمّلينني مسؤولية إصابته بالسرطان".

"لا! لم أعنِ ذلك!". وأمسكت والدته وجهه بين يدَيها، مكررةً الإنكار حتى تأكدت من تصديقه لها. "أتعلم؟ قال لي والدك ذات مرة إن أسوأ يوم في حياته هو عندما سمح للعميد غريوال بإقناعه بأن عملاً في الخارج سيكون أمراً جيداً لك".

كانا جالسَين في الرُّواق الخارجي عندما أخبرته عن تدابير الجنازة التي ستجرى في صباح اليوم التالي: سيأتي رجال دين من دار العبادة الأقرب التي تقع على مسافة بعيدة. لقد بذلنا جهداً للعثور على اثنَين مستعدَّين لإقامة المراسم، ولكن معظمهم رفضوا المهمة عندما اكتشفوا أنه يتعيّن إحراق جثة المتوفّى، قائلين إن خدماتهم تقتصر فقط على المنتمين إلى أبراج الصمت؛ لا يهمّ، فقد كانت رحلة طويلة في القطار.

قالت هازّةً رأسها: "يا لتصلّب هؤلاء الناس! بالطبع، نحن نحرق الجثة لأنها رغبة والدك. ولكن، ماذا عن الأشخاص الذين لا يستطيعون تحمّل تكلفة نقل الجثمان؟ هل يُنكر هؤلاء عليهم حقهم برفع الصلوات عن راحة نفس موتاهم؟".

لم يكن من المخطط أن تُقام المَحرَقة في الهواء الطلق، شرحت. كان قد تم حجز المَحرقة الكهربائية في الوادي؛ من شأنها أن تكون أكثر وقاراً. ولم يكن والدك محدِّداً في هذا الشأن، لذلك لم يكن الأمر هاماً.

كان المتجر العام لا يزال مُغلَقاً منذ وفاته، وعزمت على إعادة فتحه في الأسبوع

التالي كالعادة. "هل تخطط للاستقرار هنا؟". جازفت بطرح السؤال بخجل، مخافة أن يبدو الأمر تدخّلاً في شؤونه.

"لم أفكر في الأمر بعد".

كان ضوء النهار قد بدأ يخبو. فراقب عِظاءة تقف على الجدار الحجري بلا حراك. كان لسانها النحيل ينطلق فجأةً كالسهم بين حين وآخر لالتقاط ذبابة.

"هل أنت سعيد حيث كنت؟ هل عملك مشوِّق؟".

"لا بأس".

"أخبرني المزيد عنه. لقد كتبتَ قائلاً إنك مدير الآن؟".

"أنا مشرف على فريق للصيانة؛ التبريد المركزي".

فأومأت برأسها. "وكيف تبدو المدينة حيث تقيم؟".

"لا بأس بها". بحث في ذاكرته عن أشياء يضيفها، فأدرك أنه لا يعرف مكانها، أم أنه لا يريد معرفة مكانها. فالناس، وعاداتهم، واللغة، باتت غريبة بالنسبة إليه كما كانت عندما هبطت طائرته هناك قبل ثمانية أعوام. لم تكن تبدو في الأُفُق نهاية لاضطراره إلى مغادرة الوطن. "الكثير من الفنادق الكبيرة، ومئات المتاجر التي تبيع مجوهرات ذهبية وأجهزة ستيريو وأجهزة تلفاز".

أومأت برأسها مجدداً: "لا بد من أنه مكان جميل". لقد شعرت بتعاسته كما لو أنها أمر ملموس، ووجدت أن اللحظة باتت مناسبة للتحدث مجدداً عن عودته إلى الوطن. "المتجر ملكٌ لك أنت. أنت تعرف ذلك، إذا أردتَ العودة لتدير شؤونه وتحدّثه كما يحلو لك. وإذا أردتَ بيعه واستخدام المال للبدء بعمل خاص بك في مجال التبريد وتكييف الهواء، فإنه أمر ممكن أيضاً".

لقد سمع النبرة المختلفة في صوتها وشعر بالبؤس. إنها والدة تخشى التحدث إلى ابنها؛ هل يوقع الرهبة في النفس حقاً؟ كرر: "لم أفكر في كل ذلك".

"خُذ وقتك، ليس هناك أي عجَلة. افعل ما يحلو لك".

أجفلته جهودها لمراضاته. لماذا لا تقول له إنها مشمئزة من سلوكه، ومن غيابه الطويل، ومن رسائله السطحية النادرة؟ وإذا قالت ذلك؛ فهل يدافع عن نفسه؟ هل سيعطي أسباباً، ويحاول أن يشرح لها كم بدت كل محاولته بلا جدوى بالنسبة إليه؟ لا، لأنها عندما تبدأ بالبكاء مجدداً، سيطلب منها التوقف عن ارتكاب الحماقات، فتطلب منه حينذاك إطلاعها على التفاصيل، ويطلب منها الاهتمام بشؤونها الخاصة.

قالت السيدة كولاه، منتقلةً إلى موضوع أخفّ وطأة: "كنت أفكر، بما أنك قدمت بعد

سنوات عديدة، ربما يُفترض بك اغتنام الفرصة لزيارة أنسبائك. كل أفراد عائلة سوداوالا متلهّفون لرؤيتك مرةً أخرى".

"المكان بعيد جداً، لا وقت لديّ".

"ولا حتى يومَين أو ثلاثة؟ يمكنك البقاء أيضاً وإلقاء التحية على السيدة التي أقمتَ معها خلال ارتيادك الكلّية. ستكون سعيدة جداً برؤيتك".

"لقد نسيتني بعد كل هذه المدة، بالتأكيد".

"لا أظن ذلك. لولاها لما حصلتَ على شهادتك. لم تكن تحب نُزل الكلّية، وأردتَ العودة إلى المنزل على الفور، هل تذكر؟ أنت تدين لدينا دلال ولمنزلها بنجاحك".

"أجل، أذكر". لقد شعر بالانقباض لدى سماع والدته تلفظ كلمة نجاح.

حلّ الغسَق، بدأت العظاءة التي كان يراقبها بالامتزاج مع الجدار الحجري. وعندما تتحرك، كانت تصبح مرئيّة مجدداً. ولكن لا بد من أنها قد شبعت، قال لنفسه، لأنها لم تعُد تندفع باتجاه الذباب - لقد بدا بطنها منتفخاً.

قالت: "يا مانيك". وانتظرت قيامه بالالتفات إليها. "يا مانيك، لماذا أنتَ بعيد جداً؟".

فضيّق عينَيه لتفحّص وجهها؛ لم تكن والدته تطرح في العادة أسئلة سخيفة مماثلة. "هذا لأنني أعمل بعيداً".

"لم أكن أقصد المسافة، يا مانيك".

لقد جعلته إجابتها يشعر بالغباء. فلامست كتفه برِفق، وقالت: "حان وقت إعداد العشاء". ودخلت.

فأصغى في الرُّواق الخارجي إلى الأصوات الصادرة من المطبخ، والتي كانت خجِلة على غرار كلمات والدته. القِدَر والطناجر، ومن ثم السكين؛ دَفْق من الخبطات الخفيفة على اللوح الخشبي خلال قيامها بتقطيع شيء ما؛ ماء جارٍ في حوض الغسيل؛ صوت مكتوم وصلصلة مِزلاج، وأقفلت النافذة لتجنّب برودة المساء.

كان مانيك يبدّل جلسته على الكرسي بقلق. فأصوات الطهو، وقُشعريرة الشفَق، والضباب المنبثق من الوادي، بدأت كلها بمواكبة مجموعة من الذكريات في عقله المشوَّش: الفترات الصباحية في طفولته، الاستيقاظ، الوقوف عند المشهد الواسع الذي توفره نافذة غرفته، مراقبة قمم الجبال المكسوّة بالثلوج في أثناء شروق الشمس وشروع الضباب الرقيق بالرقص، بينما تقوم والدته بإعداد الفَطور ويستعد والده لفتح المتجر، ومن ثم تُشعره رائحة شرائح الخبز المحمّص والبيض المقلي بالجوع، فيدفع قدمَيه الفاترتَين داخل خفَّيه الباردَين، مستمتعاً بالقشعريرة التي تنتاب جسده، ويفرك أسنانه،

ويُسرع إلى الطابق السفلي، ويعانق والدته متمنّياً لها صباحاً سعيداً ويهرع إلى كرسيه. بعد قليل، يدخل والده فاركاً يدَيه، ويتناول في أثناء وقوفه جرعات كبيرة من الشاي من كوبه الخاص، محدّقاً إلى الوادي قبل الجلوس لتناول فطوره وارتشاف المزيد من الشاي، فتقول والدته...

"يا مانيك، الطقس بارد في الخارج. هل تريد كنزة صوفية؟".

لقد قاطع تدخل والدته الذكرى، وانهارت أفكاره كمنزل من ورق. "لا، سأدخل قريباً"، أجاب منزعجاً من المقاطعة كما لو أنه كان باستطاعته استعادة تلك الأوقات السعيدة، وعيشها مجدداً، لو مُنح المزيد من الوقت.

كانت العظاءة لا تزال ملتصقة بالجدار الحجري، مموَّهة بلون الحجر. فقرر مانيك الدخول عندما لا يعود بإمكانه رؤيتها. كان يكره شكلها ولونها؛ وطريقة إطلاقها لسانها؛ وكيفية ابتلاعها الذبابات والسعادة البشرية من دون رحمة. إنه الزمنُ، السيدُ المطلَق الذي لا يمكن أبداً إلحاق الهزيمة به والخروج من بطنه المتمدّد. لقد أراد تدمير العظاءة المقيتة.

فتناول عُكازاً موضوعاً في زاوية الرُّواق الخارجي، وتسلل، وضرب به العظاءة. فارتطمت العصا بالحجر بقوّة، وعاد مانيك إلى الوراء بسرعة، متفحصاً الأرض تحت قدمَيه استعداداً لتوجيه ضربة أخرى إذا لزم الأمر. ولكن لم يكن يوجد شيء. فنظر إلى الجدار. لا شيء. لقد ضرب الهواء.

شعر بالارتياح لأنه لم يقتل العظاءة. فتساءل عن المكان الذي انتقلت إليه، متخيّلاً وجودها في كل ظل عِظائي. وحدّق إلى الجدار عن كثب، ومرّر أصابعه عليه للعثور على المكان الذي أصابته العصا. لا بد من وجود علامة غير عادية على الحجر، شِقّ أو فراغ كان قد ضلّل عينَيه.

لكن الخط الكفافي اختفى. وحاول مجدداً من دون التمكن من تخيّل الصورة. لقد فرّت العظاءة المفترَضة بسرعة العظاءة الحقيقية.

* * *

في صباح اليوم التالي لإحراق الجثة، انطلق مانيك ووالدته مع العلبة الخشبية لنثر رماد والده على سفح الجبل حيث كان يحب السير بين تلك المناظر والتغلغل فيها قدر الإمكان. استخدمي شخصاً من الشيربا إذا اضطررتِ إلى ذلك، كان يقول ممازحاً. لا ترميني في مكان واحد.

"أظن أن والدك يُجبرني على مرافقته في نزهة طويلة على الأقدام"، قالت السيدة

كولاه، ماسحةً دموعها بظهر يدها، ومُبقيةً أصابعها جافة لنثر الرماد.

فتمنى مانيك لو أنه قام بمرافقة والده أحياناً في نزهاته. وتمنى لو أن المتعة واللهفة اللتَين شعر بهما في صباه دامتا حتى السنوات الأخيرة عندما كان والده بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى. ولكنه أُحرج بسبب فَيض مشاعر والده حيال جداول الماء والطيور والأزهار، وشروع سكان البلدة بالتحدث عن سلوك السيد كولاه الغريب إذ كان يربّت على الصخور ويمرّر يدَيه على الاشجار.

كان الهواء هادئاً في الصباح، ولا وجود لأي نسيم يساعد على بعثرة الرماد. فتناوب مانيك ووالدته على مهمة الغرف من العلبة ونثر البودرة الرمادية.

عندما فرغت نصف العلبة، شعرت آبان كولاه بوخزة ذَنب وبأنهما لا يقومان بالأمر بإتقان وِفقاً لرغبة زوجها. فغامرت بدخول أماكن أكثر صعوبة، محاولةً رمي حفنة من الرماد في شلال متردد، وعلى مجموعة من الأزهار البرّية التي لا يمكن الوصول إليها، ونثر القليل منه حول شجرة تنتأ عن حافة.

قالت: "إنه المكان المفضَّل لدى والدك، غالباً ما كان يصف هذه الشجرة، وغرابة نموّها على هذا النحو".

قال مانيك: "احذري، يا أمي. قولي لي أين تريدين نثره، لا تنحني كثيراً فوق الحافة".

لكن الأمر لن يكون مماثلاً قالت لنفسها، وواصلت تسلّق الأماكن الخطرة بمشقة على دروب شديدة الانحدار. أخيراً، وقع ما خشي مانيك من حدوثه. لقد زلّت قدمها، وانزلقت إلى أسفل المنحدر.

فركض إلى مكان سقوطها، وفرك ركبتها. قالت: "آه!". ثم نهضت وحاولت السير.

قال: "لا تفعلي. انتظري هنا فحسب، سأُحضر من يساعدنا".

"لا، لا بأس، أستطيع التسلق". وخطت خطوتَين ووقعت على الأرض مجدداً.

فوضع علبة الرماد في مكان آمن وراء جُلمود، وأسرع بعد ذلك للوصول إلى الطريق، صارخاً لشخص يمرّ بالمكان بأن والدته مُصابة. وبعد ثلاثين دقيقة، جاءت مجموعة من الأصدقاء والجيران للقيام بعملية إنقاذ، وعلى رأسها السيدة غريوال المدهشة.

لقد ازدادت رغبة زوجة العميد غريوال في تولّي منصب القيادة بعد وفاة زوجها. فحيثما تحلّ، تضطلع على الفور بالأمور. لقد رحّبت معظم صديقاتها بذلك لأنه يعني بالنسبة إليهنّ عملاً أقلّ، سواء أكان تخطيطاً لحفلة عشاء أو الإعداد لنزهة.

مقدّرةً حالة السيدة كولاه، أرسلت السيدة غريوال في طلب حمّالَين يعملان كنادلَين في فندق من الدرجة الأولى. كان الثنائي يحمل في ما مضى مُسنّين وسائحين ضعفاء

علـى كرسـي ذي ذراعَيـن على الطرقـات والدروب الجبلية للاسـتمتاع بالمناظر الطبيعية. وبعد إنشاء الطريق الجديد الواسع الذي يتّسع لحافلات مخصصة لزيارة الأماكن الهامة، أصبح الحمّالان بلا عمل.

لكن الاثنَين كانا سـعيدَين بإخراج الكرسـي من المخزن لأجل السـيدة كولاه. وسأل مانيك عما إذا كان باسـتطاعتهما حملها بشـكل آمن لأنهما ربما فقدا ثبات أقدامهما بعد سنوات من العمل السهل في الفندق، متنقّلَين ببطء بين المطبخ وغرفة الطعام.

قالا: "لا تخف، هذا العمل تقليد عائلي، إنه يجري في عروقنا". لقد كانا متحمّسَين جداً للفرصة السانحة، مهما كانت وجيزة، لممارسة مهاراتهما القديمة.

سـألت السـيدة كولاه في أثناء حملها على الكرسـي: "يا مانيك، هل سـتبقى وتُنهي نثر ما تبقى من الرماد الموجود في العلبة؟".

قالت السـيدة غريوال: "أجل سـيبقى. مانيك، أَنهِ نثر الرماد واتبعنا لاحقاً. سـتكون والدتك في أمان معي".

أومـأت للحمّالَيـن، فرفعـا الكرسـي على أكتافهما ومشـيا بانسـجام تام، وسـيقانهما وأذرعهما تتحرك كآلة حسـنة التزييت، مُتَّبعَين إيقاعاً سلسـاً على الدروب الوعِرة لتجنيب الراكـب ارتجاجـات غيـر ضروريـة. لقد ذكّر ذلك مانيك بالمحرك البخاري الذي أراه إيّاه والـده ذات مـرة... فـي أثنـاء حمله بين ذراعَيه في المحطة، وقيام السـائق بإطلاق صفّارة القطار... مَحاور كبيرة وأذرع تدوير ومكابس تندفع بقوة، وتصلّ بتناسق...

قالت السيدة كولاه، مبتسمة وباكية: "لو كان بإمكان فاروك رؤية ذلك، زوجته تذهب إلى المنزل محمولة بعد نثر رماده. كم كان ليضحك بسبب ذلك".

راقـب مانيـك الحمّالَيـن وهمـا يتواريان عن الأنظـار وراء المنعطف التالي، ومن ثم سـحب العلبة المخبّأة وراء الجُلمود، وواصل نثر الرماد. بعد قليل، هبّت ريح، وشـرعت السـحب المنسـاقة بكسـلٍ بسباق فوضوي في السـماء، وظلالها تهدد الوادي في الأسفل. فسـمح للرمـاد بالتقاطـر ببـطء مـن أصابعه إلى قبضة الريح. ونظّف داخـل العلبة، وقلبها، وربّت على ناحيتها الخارجية، فطارت البقايا الأخيرة لاستكشاف ملء الكون.

من وقت لآخر، كانت السيدة غريوال السائرة بخطوات واسعة وراء الحمّالَين مباشَرةً تُصدر توجيهات. "احذرا، ذلك الغصن منخفض جداً. فأنتما لا ترغبان في اصطدام رأس السيدة كولاه به".

"لا تخافي، يا سيدتي"، أجابا، لاهثَين، "لم ننسَ عملنا بعد".

قالت السيدة غريوال: "انتبها الآن، إنه حجر كبير، لا تتعثّرا".

هـذه المـرة، قامت السـيدة كولاه بطمأنة السـيدة غريـوال: "لا تقلقي، إنهما خبيران. أنا مرتاحة جداً".

وقـام الأصدقـاء والجيـران المرافقـون بالتصفيـق بعـد الخـروج من الـدرب الجبلي وسـلوك الطريق المؤدّي إلى البلدة. لقد مرت أعوام على مشـاهدة كرسـيّ سياحيّ يطوف الشـوارع. لقد رحّب كل الذين التقوا شـبح الماضي بمشـهد الكرسـيّ بسـرور كبير، وقرر العديدون الانضمام إلى صفوف الموكب في احتفال عفَويّ.

من حين لآخر، كان يتعيّن على الموكب التوقف جانباً لتمكين الشاحنات والحافلات من المرور. وبعد التوقف الخامس، غضبت السيدة غريوال. قالت: "كفى هراء، هيا، ليسِر الجميع في وسـط الطريق من دون توقف. لن نُفسـح الطريق لأحد. ليس اليوم. للسـيدة كولاه أفضلية المرور، إنه يوم خاص بالنسبة إليها. يمكن للسير الانتظار".

فوافقهـا الجميـع الرأي، وسـاروا إلى البلدة في مسـيرة عازمـة طوال خمس وثلاثين دقيقة مجيدة، تتبعهم صفوف عربات مغتاظة يُطلق سـائقوها أبواق سـياراتهم ويصيحون. لقـد تجاهلتهـم السـيدة غريـوال معظـم الوقـت، عازمةً على عـدم إعطاء أهمية لنشـازهم الرخيـص مـن خـلال الرد علـى تصرفاتهم. ولكن غضبها كان يحملها على التوقف أحياناً لتصيح: "أَظهروا بعض الاحترام! المرأة أرملة!".

بعد ساعة تقريباً من انطلاق مسيرتهم، وصل فريق الإنقاذ إلى المنزل بأمان، ووُضعت السيدة كولاه على كرسيّ مريح مع صُرّة ثلج على رُكبتها. وجلست السيدة غريوال قبالتها على كرسي مستقيم الظهر، منتصبة كحارس. ورفضت تركها مع الأخريات، مُعلنةً بحزم: "لا يمكنك البقاء بمفردك في اليوم التالي للجنازة".

كان سلوكها مصدر تسلية للسيدة كولاه الممتنّة للرفقة. واستعادتا الذكريات المتعلقة بازدهار المتجر العام، وحفلات الشاي والعشاء، وأيام القاعدة العسكرية الدائمة. كم كانت الحياة رائعة، وكم كان الهواء جميلاً وصحّياً. "كلما شعرت بتوعّك صحّي أو تعَب، فإنّ كل مـا عليـك القيـام بـه هـو الخروج من المنزل وتنشّـق الهواء بعمق، فتشـعرين بتحسّـن علـى الفـور مـن دون ابتـلاع أي حبـوب دواء أو فيتامينـات"، قالت السـيدة غريوال: "في هذه الأيام، تغيّر الجوّ برمّته".

حينئذٍ، دخل مانيك، وساد صمت مُربِك. فتساءل عن الموضوع الذي تتمّ مناقشته.

قالت السـيدة غريوال: "لقد عُدتَ بسـرعة كبيرة، شـباب وسـيقان قوية. وهل تدبّرتَ أمرك جيداً مع الرماد؟".

"أجل، شكراً لك".

استعلمت والدته: "هل أنت واثق من قيامك بالأمر على أفضل وجه، يا مانيك؟".

"أجل".

كان هناك صمت آخر.

"وماذا كنت تفعل في سفرك؟". سألت السيدة غريوال. "إضافةً إلى إطلاق لحيتك؟".

فابتسم.

"أنت شديد التكتّم. تجني الكثير من المال، كما آمل".

فابتسم مجدداً. وغادرت بعد دقائق قليلة، قائلةً إنه لا حاجة إلى بقائها. "يمكنك الاعتناء بوالدتك الآن". أضافت بشكل معبّر.

فتحقق مانيك من صُرّة الثلج، وعرض عليها بعد ذلك إعداد شطائر بالجبن للغداء.

قالت والدته، آسفةً على حالها: "يقوم ابني بزيارتنا بعد ثماني سنوات ولا أستطيع إعداد طعامه".

"هل هناك فَرق بيني وبينكِ لإعداد الشطائر؟".

فشعرت بالتحذير في صوته ولزمت الهدوء، وحاولت مجدداً: "مانيك، رجاءً لا تغضب. ألن تُطلعني على سبب حزنك؟".

"لا شيء لديّ لأُطلعك عليه".

"نحن حزينان بسبب وفاة والدك. ولكن لا يمكن لهذا الأمر أن يكون السبب الوحيد لحزنك. كنا نتوقع وفاته منذ تشخيص إصابته بسرطان القولون. هناك أمر آخر بشأن حزنك، باستطاعتي الشعور بذلك".

فانتظرت، مراقبةً إيّاه وهو يقطع الخبز، ولكن الانفعال لم يبدُ على وجهه. "هل السبب أنك لم تقم بزيارته عندما كان حيّاً؟ لا يُفترض بك الشعور بالسوء. لقد فهم والدك أنه يصعب عليك القدوم".

ألقى سكين الخبز من يده واستدار. "هل تريدين حقاً معرفة السبب؟".

"أجل".

فالتقط السكين مجدداً، مقطّعاً الرغيف بحِرص إلى شرائح، ومُبقياً على مستوى صوته. "لقد أرسلتماني بعيداً، أنت ووالدي. وبعد ذلك، لم أتمكن من العودة. لقد فقدتماني، وفقدت كل شيء".

انتقلت إلى جانبه عارجةً، وأمسكت ذراعه، وقالت دامعةً: "انظر إليّ، يا مانيك! أنت مخطئ في ظنّك هذا، أنت كل شيء بالنسبة إليّ وإلى والدك! مهما فعلنا، فقد فعلناه لأجلك! رجاءً، صدّقني!".

سحب ذراعه بلطف، وواصل إعداد الشطائر.

"كيف يمكنك قول أمر مؤلم إلى هذا الحد وتلزم الصمت؟ لقد اعتدتَ دائماً التذمر من ولَع والدك بالسلوك المبالَغ فيه. ولكنك تتصرف مثله الآن".

رفض مناقشة الأمر. فتبعته في أرجاء المطبخ، عارجةً وملتمسة.

قال مغتاظاً: "ما الفائدة من قيامي بإعداد الشطائر إذا كنت ستستمرين في السير على تلك الركبة؟".

جلست حتى أنهي تحضير العشاء، ووضعه على الطاولة. وخلال تناولهما الطعام، كانت تتأمل وجهه على نحو متقطع عندما تتأكد من عدم نظره إليها. وبدأت السماء بالاكفهرار بشدة. فغسل طبقَيهما ووضعهما على المِنصب ليجفّا. وتردد دويّ الرعد في الوادي.

قالت مع بدء هطول المطر الخفيف: "كنا محظوظَين جداً هذا الصباح، سأصعد لأرتاح الآن. هل بإمكانك أن تغلق النوافذ إذا دخل المطر؟".

فأومأ برأسه، وساعدها على صعود الدرَج. فابتسمت بالرغم من شعورها بالألم، متّكئةً بسرور على كتف ابنها، ومفتخرةً بقوّته وصلابته.

بعد خلود والدته إلى السرير، عاد مانيك إلى الطابق السفلي ووقف أمام النافذة لمشاهدة عرض البَرق، والاستمتاع بقصف الرعد. لقد افتقد إلى المطر منذ ثماني سنوات. وكان الوادي يتوارى تحت غطاء من الضباب، فجال في أنحاء المنزل بلا كلل، ودخل بعد ذلك إلى المتجر.

لقد تفحّص الرفوف، مستمتعاً برؤية العلامات التجارية الموجودة على المراطبين والصناديق التي لم يرها منذ سنوات. ولكن كم المتجر صغير ورثّ، قال لنفسه؛ هذا المتجر الذي كان ذات يوم مركز عالمه وابتعد عنه كثيراً بحيث إنه شعر باستحالة عودته إليه. فتساءل عن السبب الذي يبقيه بعيداً؛ ليست المدينة النظيفة والوامضة بالتأكيد.

نزل الدرجات إلى قبو المؤونة حيث ترقد آلة تعبئة القناني. كانت خيوط العنكبوت تغطّي الجهاز المهزوم. لقد تلاشى الطلب تقريباً على الكولاز كولا في الآونة الأخيرة، كما أخبره والداه في الرسالة؛ ست قنانٍ فقط في اليوم للأصدقاء والجيران الأوفياء.

تلهّى في أرجاء المكان وسط القناني الفارغة والسلال الخشبية. كان يوجد في زاوية القبو كدسة من الصحف المتعفّنة، مخبَّأة جزئياً وراء حزمة من أكياس الخَيش. فربّت على كيس الجوت الخشن، متحسساً قرصة النسيج، وشامّاً الرائحة المُغوية للخشب والنبات. تعود تواريخ الصحف إلى عشر سنوات، فعاد إلى الوراء عقداً من الزمن. إنه أمر غريب،

قال لنفسه، لأن والده كان يستخدمها بانتظام في المتجر. لا بد من أنها أُغفلت.

فقرر أخذها إلى الطابق العلوي وتصفّحها. لقد بدت قراءة الصحف القديمة وسيلة ملائمة لتمضية فترة بعد الظهر الداكنة والممطرة.

جلس على كرسيّ بجانب النافذة، وفتح العدد الموجود في أعلى الكدسة بأوراقه الصفراء المكسوّة بالغبار، والذي يعود إلى مرحلة ما بعد إعلان حالة الطوارئ عندما خسرت رئيسة الوزراء الانتخابات في مواجهة الائتلاف المعارض. كانت هناك مقالات عن إساءة المعاملة في أثناء حالة الطوارئ، وشهادات لضحايا التعذيب، وفظاعات ارتُكبت بحق عدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من الأشخاص الذين لاقوا حتفهم في سجون الشرطة. ودعت الافتتاحيات التي مُنع ظهورها في أثناء حكمها إلى تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في الإساءات ومعاقبة المُذنِب.

انتقل إلى صفحة أخرى بعد أن نفد صبره من التحقيق الصحافي المتّسم بالتكرار. لم يكن عجز الحكومة الجديدة عن التعاطي مع رئيسة الوزراء السابقة أمراً مثيراً كما يبدو، باستثناء ما جاء في مقالة واحدة تنقل عن وزير في الحكومة قوله: "يجب معاقبتها، إنها امرأة رهيبة، إنها شريرة مثل كليوباترا". القرار الوحيد الذي اتخذته الحكومة المشلولة بالإجماع هو طرد كوكا كولا من البلد بسبب رفضها التخلي عن صيغتها السرّية وإدارة الشركة؛ بقليل من التحريف والتحوير، بات القرار ملائماً للإيديولوجيات الموجودة في الائتلاف كافّة.

تبخّر الائتلاف في وقت لاحق بسبب منازعات لامتناهية، واتُّخذ قرار بإجراء انتخابات جديدة. كانت رئيسة الوزراء السابقة واثقة من قدرتها على العودة إلى السلطة. فتوقفت الافتتاحيات عن مهاجمتها، متبنّيةً النبرة المتذلّلة التي تذكّر بالأسلوب المعتمَد خلال حالة الطوارئ.

بعد شعوره بالسأم، بحث مانيك عن صفحات الرياضة. كانت هناك صور لمباريات في لعبة الكريكيت، وتصريح لرئيس الفريق الأسترالي حول مجموعة من متسوّلي العالم الثالث يظنون أن باستطاعتهم ممارسة لعبة الكريكيت". تلا ذلك، ابتهاج وألعاب نارية واحتفال عندما هزمت مجموعة المتسوّلين أستراليا في الجولة الاختبارية.

شرع بتصفّح الصحف بسرعة أكبر، وبدت له الصور متماثلة: خروج قطار عن السكة، فيضانات الريح الموسمية، انهيار جسر؛ وزراء يزيّنون بالأكاليل، وزراء يُلقون خُطَباً، وزراء يزورون مناطق الكوارث الطبيعية وتلك التي تسبب بها الإنسان. وقلّب الأوراق، مُلقياً بين الفَينة والفَينة نظرات سريعة عبر النافذة إلى مسرح الطقس؛ المطر الغزير، أرز الهملايا

في مهب الريح، سهام البرق.

بعد ذلك، لفت شـيء ما في الصفحة التي قام بقلبها انتباهه. فعاد إليها لإلقاء نظرة أخرى. إنها صورة فوتوغرافية لثلاث شابات متدليات من مروحة السقف، وقد رُبط أحد أطراف زيّ الساري الخاص بكل منهنّ بعلاّقة المروحة، في حين لُفّ الطرف الآخر حول العُنُق. كانت رؤوسهنّ مائلة، وأذرعهنّ مترهّلة كأطراف دُمى مصنوعة من خِرَق قماشية.

فقـرأ القصـة المُرفَقـة بالصـورة، وكانت عيناه تهيمان تكراراً باتجاه المشـهد المماثل لمشـهد تمثيلي مروِّع. كانت الشـقيقات الثلاث في سـنّ الخامسـة عشرة، والسابعة عشرة، والتاسـعة عشـرة، وقد شـنقنَ أنفسـهنّ في أثناء وجود والدَيهنّ خارج المنزل. لقد كتبنَ ملاحظة يشـرحنَ فيها تصرّفهنّ. كنّ يعلمنَ أن والدهنّ غير سـعيد بسـبب عدم تمكّنه من تحمّل تكلفة دوطاتهنّ. وبعد كثير من الجدال والقلق، قرّرنَ القيام بهذه الخطوة لتجنيب والدتهنّ ووالدهنّ عار وجود ثلاث بنات غير متزوجات لديه. لقد التمسـنَ السـماح من والدَيهنّ بسبب هذا العمل الذي قد يسبب لهما الحزن؛ غير أنه لم يكن هناك بديل آخر.

نظر مانيك إلى الصورة الفوتوغرافية، إلى الحدث المقلق والمزعج بسكونه الشفاف. فالشقيقات الثلاث يبدينَ مُحبطات، فكّر في سرّه.

فبذل جهداً لرفع عينَيه عن الصورة وقراءة بقية المقالة. لقد التقى المراسل الوالدَين، وكتب أنهما نالا حصة أكبر من الحزن؛ فقد فقدا ابنهما البِكر في أثناء حالة الطوارئ في ظروف لم يتم شـرحها بشـكل مُقنع. لقد ادّعت الشـرطة أنه حادث قطار، ولكن الوالدَين تحدّثا عن جراح رأياها على جسد ابنهما في المشرحة. ووفقاً للمراسل، كانت الإصابات مطابقة لأحداث تعذيب أخرى مؤكَّدة: "فضلاً عن ذلك، ونظراً إلى المناخ السياسي خلال حالـة الطـوارئ، وواقـع كـون ابنهما، أفيناش، ناشـطاً فـي اتحاد الطلاب، يبـدو أنها حالة إضافية عن الموت اللا قانوني في سجون الشرطة".

تتواصـل المقالـة معلّقـةً على التحقيق الذي تجريه اللجنة البرلمانية بشـأن تجاوزات حالة الطوارئ، ولكن مانيك توقف عن القراءة.

أفيناش.

كان المطر ينهمر بغزارة على السطح ويدخل من النوافذ. فحاول طيّ الصحيفة الرثة علـى امتـداد ثَنياتهـا، وبترتيـب، ولكن يدَيـه كانتا ترتجفان والصحيفـة تخفق وتتغضّن في حضنه. كانت الغرفة خانقة، فبذل جهداً لدفع نفسـه بعيداً عن الكرسـي. طارت الصحيفة المتعفّنـة والباليـة علـى الأرض. فذهـب إلى الرُّواق الخارجي، سـارقاً جُرعات عميقة من الهواء الغنيّ والمُثقَل بالمطر. دخل الهواء بسرعة عبر الباب المفتوح، وطارت الصفحات

في أرجاء الغرفة وخفقت الستائر على النافذة. فأغلق الباب، وذرع الرُّواق المبلَّل ذهاباً وإياباً لبعض الوقت، ومن ثم خرج إلى المطر والدموع تنهمر على وجهه.

لقد تبللت ملابسه في غضون ثوانٍ، والتصق شعره على جبينه كالجصّ. ودار حول المنزل: إلى أسفل المنحدر، في اتجاه الباحة الخلفية، وحول المستوى الأكثر انخفاضاً، وصولاً إلى الناحية الأخرى. ورأى عبر جدار المطر المتساقط الأسلاك الفولاذية التي تربط أساس المنزل بالجُرف الصخري. تلك الأسلاك الجديرة بالثقة التي حافظت على متانتها طوال أربعة أجيال. ولكن، باستطاعته أن يُقسم أن موقع المنزل تبدّل عندما كان بعيداً عنه طوال سنوات. منزل ذو ميول انتحارية، هذا هو الاسم الذي كان أفيناش قد أطلقه عليه. إنه يتحرك من مكانه شيئاً فشيئاً، وفي النهاية يقطع المراسي ويسقط على وجهه إلى أسفل الهضبة. بدا الأمر ملائماً؛ فكل شيء يفقد مرساه، وينزلق من دون التمكن من استرداده.

سلك الطريق الممتدّ إلى خارج ساحة البلدة، راكضاً تقريباً، من دون أن يلاحظ الناس المحدّقين. فتلك الصورة الفوتوغرافية هي كل ما يراه. ثلاثة فساتين تقبض على تلك الأعناق الهشة... شقيقات أفيناش الثلاث... لقد اعتاد الاستمتاع بإطعامهنّ عندما كنّ صغيرات، واعتدنَ عضّ أصابعه مرَحاً. والوالدان المسكينان... هل سيكون للعالم معنى؟

فنظر مانيك إلى السماء. لقد نُثر رماد والده في ذلك الصباح، وتبلّل، وجرفته المياه. لم يكن بإمكانه تحمّل الفكرة لأنه لم يتبقَّ شيء... وأصبحت والدته بمفردها...

ركض بأقصى سرعة على الطريق الذي أصبح زلقاً، آملاً في العثور على مكان ما لا يزال فاتناً وممتعاً، مكان تملأه السعادة والهدوء حيث يسير والده بنشاط وثقة واضعاً ذراعه على كتف ابنه.

خاض في الوحل وانزلق؛ فمدّ ذراعَيه لتجنّب السقوط. لقد شعر بيأس والده عندما كان العالم المألوف يتوارى شيئاً فشيئاً من حوله، فتختفي الغابات وتتجرّح الوديان وتغدو قبيحة. كان والدي مُحِقاً، قال لنفسه، فالتلال تموت وكنت غبياً جداً عندما ظننت أن التلال أزلية وباستطاعة الوالد أن يبقى صغيراً في السن إلى الأبد. ليتني تحدثت إليه فحسب. ليته سمح لي بالتقرب منه.

لكن الرماد، موزّع في كل مكان مع هذا المطر البارد والجارف. فركض إلى المكان الذي أفرغ فيه العلبة الخشبية في الصباح، وتوقف لاهثاً في كل مكان قامت والدته بالتمهّل فيه، ولكنه لم يتمكن من العثور على أي أثر للرماد. كان نفَسه يخرج على صورة نشجات كبيرة، فيما كان يزيح الأوراق بيدَيه، ويُلقي نظرة من فوق صخرة، وينقل غصناً كبيراً من

مكانه.

لا شيء. لقد تأخر كثيراً. فتعثّر وسقط على ركبتَيه، فغرس أصابعه في الطين الرَّخو. كان المطر ينهمر بقسوة، وشعر بعجزه عن النهوض. فغطى وجهه بيدَيه الموحلتَين وبكى، وبكى، وبكى.

اقترب كلب من مانيك بخطوات سريعة، ولكنه لم يتمكن من سماعه بسبب ضجيج المطر. واقترب أكثر فأكثر مشمشماً. فأجفل وكشف عن وجهه عندما شعر بخَطمه على يده. فلعق الكلب خده، وربّت مانيك على جسمه. هل ينتمي إلى المجموعة التي كان والده يُطعمها في الرُّواق الخارجي؟ ولاحظ وجود قَرح متقيّح على وَرِكه، وتساءل عما إذا كان المرهم الذي اعتاد والده معالجة الكلاب الشاردة بواسطته لا يزال موجوداً على الرف تحت المنضدة.

خفّت حدة تساقط المطر الغزير، فوقف، ومسح وجهه بكمّه المبلَّل، وألقى نظرة على امتداد سفح التلة. كانت الفجوات قد بدأت بالظهور في السُّحب، وانقشع الضباب عن أجزاء من الوادي.

فلازم مكانه حتى توقف المطر عن الهطول بقوة، وحل مكانه رذاذ دقيق للغاية أخفّ من نفَس الإنسان على البشرة. وعاد إلى المكان حيث نمت شجرة على الحافة، وتبعه الكلب لمدة قصيرة. لقد جعله الجرح يعرج ربما بسبب وصول الالتهاب إلى العظم. لم يتبقَّ لهذا المخلوق المسكين سوى أسابيع قليلة من الحياة، قال مانيك لنفسه، بسبب عدم وجود من يعتني به ويشفيه. بغياب والدي، فمَن سيهتم؟

اغرورقت عيناه بالدموع، وشرع بالسير باتجاه المنزل. كان المطر قد تسبب بظهور عدد كبير من الجداول الصغيرة الجارية باتجاه أسفل التلة للانضمام إلى السواقي الجبلية الكبيرة التي تغذي الشلالات التي أحدثها المطر. غداً ترتدي الطبيعة اللون الأخضر. وتخيّل الرماد محمولاً بواسطة هذه المياه البرّاقة، عابراً كل مكان من سفح الجبل. لقد حقق والده رغبته، وتم نثر رماده بإتقان كبير يعجز أي إنسان عن القيام به: لقد تولت يد الطبيعة القوية والمعتنية كلَّ التفاصيل المهمة، فكان في كل مكان لا يفصله شيء عما أحبه بشدة.

كانت السيدة كولاه تنتظر بقلق في الرُّواق الخارجي، لافّةً نفسها بلِفاع كشميري، ومحدّقةً إلى الطريق. ولوّحت بقوة عندما رأت مانيك، فزاد من سرعته.

"مانيك! أين كنت؟ استيقظتُ من قيلولتي ولم تكن موجوداً! والمطر ينهمر بغزارة، فقلقت"، وأمسكته بذراعه وأضافت: "انظر إلى نفسك، أنت مبلَّل تماماً! وهناك وحل على

وجهك وملابسك! ماذا حدث؟".

قال بلطف: "كل شيء بخير، أنا بخير، شعرت بالرغبة في القيام بنزهة. لقد انزلقت"، أضاف ليشرح سبب وجود الوحل.

"أنت مثل والدك، تقوم بأمور مجنونة. كان يحب أيضاً التنزه تحت المطر. ولكن اذهب وبدّل ملابسك. سأُعدّ شاياً وشرائح خبز محمّص لك". لقد جرف المطر كل تراكمات السنين، وعاد ابنها الصغير مجدداً، المبلَّل والعاجز.

"كيف حال ركبتك؟".

"أفضل بكثير. لقد ساعدتها صُرّة الثلج".

وصعد إلى غرفته، واغتسل، وارتدى ملابس جافة. وعندما عاد إلى الطابق السفلي، كان الشاي جاهزاً. لقد سكبت له والدته الشاي في كوب والده، ووضعت فيه ملعقتَي سكّر، في حين وضعت ملعقة سكّر واحدة في كوبها. وحرّكت الشاي قبل تقديم الكوب له. "هل تتذكر كيف كان والدك يشرب الكوب الأول، متمشّياً في أرجاء المطبخ؟".

فأومأ برأسه.

ابتسمت. "كان يقف في طريقي عندما أكون شديدة الانشغال. ولكنه توقف عن القيام بذلك في السنوات القليلة الأخيرة. كان يدخل ويجلس بهدوء". ولمست رأس مانيك قليلاً بأصابعها، متكئةً على الكرسي بشكل جانبي. "انظر إلى ذلك، لا يزال شعرك يقطر ماءً".

أحضرت فوطة مائدة من الخزانة، وبدأت بتجفيف شعره بحركات قصيرة ونشيطة مما جعل رأسه يتمايل إلى الوراء والأمام. كان على وشك الاحتجاج، ولكنه وجد الأمر مُريحاً، فسمح لها بالاستمرار، وأغمض عينَيه. كان باستطاعته رؤية المدلّكين في المدينة قبل ثماني سنوات مع أوم على الشاطئ، حيث يجلس الزبائن على الرمال لتدليك رؤوسهم، وفركها، والأمواج تتكسر على الشاطئ، ويهب نسيم الغسَق، وتفوح رائحة الياسمين الزكية من باعة عقود الأزهار البيضاء كالحليب التي تقوم النساء بلفّها على شعرهنّ.

"أعتقد أنني سأقوم بزيارة أنسبائنا، والخالة دينا أيضاً". وأضافت جهودها الرشيقة لتجفيف شعره المبلَّل تهدّجاً غير عادي إلى صوته.

"كم تبدو مضحكاً. كما لو أنك تحاول التكلم والغرغرة في آن واحد". وضحكت، ووضعت الفوطة جانباً. "سيشعرون بسعادة غامرة لدى رؤيتك. متى تغادر؟".

"صباح غد".

"غداً؟". وتساءلت عما إذا كان يخدعها للابتعاد عنها. "ومتى ستعود إلى هنا؟".

"أعتقد أنني سأسافر مباشَرةً من هناك. من الأفضل لي القيام بذلك".

كانت تدرك أن الحزن بادٍ على وجهها، ولم يكن يَعي ذلك كما يبدو. فغدت كلماته مُبهَمة على مسامعها، وها هو يستعد لقطع المسافة التي تُبعده عنها.

أضاف: "ما أريد القيام به هو العودة إلى عملي بسرعة، ومحاولة ترك العمل بأسرع وقت ممكن".

"أتعني أنك ستستقيل؟ وماذا بعد ذلك؟".

"قررت العودة والاستقرار هنا".

تسارع نفَسها. قالت كابحةً جماح رغبتها في إطلاق العنان لمشاعرها: "إنها خطة رائعة، يمكنك الشروع بعملك من خلال بيع المتجر و...".

"لا. المتجر هو سبب عودتي".

"لأَحب والدك ذلك".

غادر الطاولة وتوجه إلى النافذة. ليس من الضروري أن تنتهي الأمور على نحو سيّئ؛ سيثبت ذلك لنفسه. سيلتقي أولاً كل أصدقائه: أوم السعيد بزواجه، وزوجته، وأولاده الذين أصبحوا ثلاثة ربما؛ ماذا أسماهم؟ إذا كان هناك فتى، سيكون اسمه نارايان بالتأكيد. وإيشفار، العم-الجد الفخور، مع وجهه المشرق وراء آلة الخياطة، وهو يؤدّب الصغار ويوبّخهم إذا اقتربوا كثيراً من الدواليب التي تُحدث صريراً، ومن الإبر الواثبة. والخالة دينا تشرف في شقتها الصغيرة على الملابس التي يجري إعدادها للتصدير، مُديرةً شؤون الأسرة، وممارسةً سلطتها في ذلك المطبخ حيث تنتظرها أعمال كثيرة.

أجل، سيرى كل ذلك بأمّ العين. فإذا كان هناك الكثير من البؤس في العالم، فهناك أيضاً قدر كبير من الفرح. أجل، ما دمنا نعرف المكان الذي نبحث فيه عن الفرح. قريباً، سيعود للاهتمام بكولاز كولا والمتجر العام. وأسلاك الأساسات بحاجة إلى الانتباه أيضاً. وسيتم تجديد المنزل، وسيحصل على آلة جديدة لتعبئة القناني. لقد ادّخر مالاً وفيراً.

ذهبت السيدة كولاه للوقوف بجانبه عند النافذة. كانت يداه لا تزالان على إطار الصورة الفوتوغرافية للمنظر الطبيعي، ممسكتَين به بإحكام، وبراجمه بيضاء. يداه قويّتان كيدَي والده، قالت لنفسها.

قال: "تتجمّع السُّحب مجدداً، سيهطل المزيد من المطر الليلة".

قالت موافقةً إيّاه الرأي: "أجل، مما يعني أن كل شيء سيكون أخضر ونضراً غداً. سيكون يوماً جميلاً".

وضـع ذراعـه حـول والدتـه، وعانقهـا معانقـة تمنّي صباح سـعيد لها كمـا اعتاد في طفولتـه، بالرغـم مـن حلـول المسـاء. كان تنهّدهـا الراضي عن كيفية سَـير الأمور لا يزال غير مسموع، وهي تمسك يده الموضوعة على كتفها بإحكام وحرارة.

* * *

تبع المطر مانيك نزولاً عبر التلال ومروراً بالسهول طوال اثنتين وثلاثين ساعة على متن القطار المتجه إلى الجنوب. كاد يُغفل القطار: كان موعد انطلاق الحافلة من ساحة البلدة إلى محطة القطار قد أُرجئ بسـبب انزلاقات طينية. ولم يتحقق وعد اليوم السـابق بشمس مشرقة، واخضرار، ونضارة، مع استمرار هبوب العاصفة بقوة. وفي نهاية الرحلة، وعندمـا خـرج مـن سـاحة المحطة المكتظـة بالحشـود والمليئة بالصخَب، كانت شـوارع المدينة تسطع بسبب المطر الغزير.

كان موقف سيارات الأجرة فارغاً. فانتظر عند حافة الرصيف مُحاطاً ببُرك الماء. لم يكن هناك مكان لوضع حقيبته، فحمل الحقيبة باليد الأخرى.

ولاحظ بعد ذلك الشقوق في بلاط الشارع وراءه. كانت الديدان تخرج منها، وتنزلق بشـكل غيـر منتظـم بلونهـا الأحمر القاتـم على الرصيف الزَّلِق بسـبب المطر. إنها الفيلوم أنيليـدا. وسُـحق العديـد منها تحت أقدام المشـاة، واسـتمرت العشـرات فـي الخروج من الشقوق، منزلقةً على امتداد غشاء من الماء، ومتموّجةً فوق الديدان الميتة.

خـلال مراقبتهـا، انعكـس جهـاز نقل حركـة الزمن من دون عنـاء، وتحوّل الرصيف الناشط بحركة المشاة إلى حمّام الخالة دينا. حدث ذلك في صباح يومه الأول في شقتها، عندما نادته عبر الباب، وتسمّر في مكانه، مُبقياً نظره على تقدّم الكتيبة المتلوّية. كم قامت دينـا بممازحتـه فـي ما بعد بهذا الشـأن. فابتسـم لهذه الذكرى. وسـحبت الديدان الأخيرة نفسها من الشقوق إلى برّ الأمان في أُخدود تصريف المياه.

فقرر تمضية المساء مع أنسباء والدته للانتهاء من هذه المسألة. قد يكون اليوم التالي مكرَّساً بكامله للخالة دينا وإيشفار وأوم.

صلصلت سيارة تاكسي بجانبه. لقد بدا السائق الذي يمد ذراعه خارج النافذة مترقِّباً إقلاله.

قال مانيك: "غران أوتيل". فاتحاً الباب.

لقـد اغتسـل، وبـدّل قميصـه، وانطلق ليتحمّل معاناة تودّد عائلة سـوداوالا إليه بوَلَه. وفي المساء، تقبّل مناداته باسم ماك، منكمشاً خلال قيامهم بمعانقته، والتربيت على ظهره،

وتملّقه. كان أشبه بكلب جائزة في عرض للكلاب.

قالوا: "كم كانت الصدمة رهيبة عندما بلغَنا خبر وفاة والدك، وأنتم تُقيمون في مكان بعيد جداً، فلم نتمكن من حضور الجنازة. نحن آسفون جداً".

"لا تُبالوا، أفهم الوضع". وتذكّر ما كان والده يقوله عن الأنسباء من عائلة سوداوالا؛ إنهم مُمِلّون لدرجة أنهم يواجهون خطر إضجار أنفسهم حتى الموت. وفي النهاية، فقد والده هذه الحماسة.

شعر مانيك فجأةً بالضيق في المنزل بعد أن أرهقته الزيارة، وبأنه قد ينهار إذا أمضى المزيد من الوقت مع أنسبائه. فنهض ومدّ يده. "أسعدتني رؤيتكم مجدداً".

قالوا مُصرّين: "ابقَ لمدة قليلة إضافية من الوقت. أمضِ الليل معنا، سيُسعدنا ذلك. وفي الصباح، نتناول عُجّة البيض معاً".

فرفض بإصرار قائلاً: "لديّ موعد عمل على العشاء، إضافةً إلى بعض اللقاءات الصباحية الباكرة على الفطور. عليّ العودة إلى الفندق".

فتفهّموا الأمر، ولكن فكرة اللقاءات الصباحية على الفطور ملأتهم رهبة. فودّعوه وأعربوا عن أفضل أمنياتهم له، طالبين منه العودة قريباً في زيارة أخرى. قالوا: "لا تحرمنا مشاهدتك لسنوات عديدة".

في طريق عودته إلى الفندق، توقف عند مكتب الخطوط الجوية وتحقق من الحجز. فأكد له العميل ذلك: "بعد غد، يا سيدي. وتُقلع رحلتك الجوية عند الحادية عشرة والنصف مساءً. رجاءً، كن في المطار قبل الساعة التاسعة مساءً".

قال مانيك: "شكراً لك".

في غران أوتيل، تناول طبق لحم غنم في غرفة الطعام. بعد ذلك، طالع الصحيفة في الرَّدهة لدقائق قليلة، ومن ثم أحضر مفتاحه وذهب إلى السرير. لقد نام وهو يفكر في الخالة دينا وفي جلوسهما في وقت متأخر من الليل لإنجاز الملابس لأوروفوار عندما فُقد أثر إيشفار وأوم. كان زمنَ المشاكل بحرف ميم كبير.

* * *

لقد جعلت التصليحات المكان غير معروف، وظن مانيك للوهلة الأولى بأنه أخطأ العنوان. درَجات رخامية، حارس أمني، وجدران البهو مكسوّة بغرانيت برّاق، مكيّفات هواء في كل شقة، حديقة على السطح... تم تحويل المساكن منخفضة الإيجار إلى شقق فخمة.

تحقق من لوحات الأسماء قرب المدخل. لقد تخلّص صاحب الملك أخيراً من الخالة دينا؛ انتهى الأمر على نحو سيّئ بالنسبة إليها. وماذا عن الخياطَين، أين يعملان الآن؟

في الخارج، شعر بعودة قبضة اليأس إليه، وبأشعة الشمس القوية. ربما كانت الخالة دينا تعرف مكان إيشفار وأوم. فهناك مكان واحد يمكنها الذهاب إليه: إلى منزل شقيقها، نوسوان. ولكنه لا يملك العنوان. لماذا يتكبد العناء؛ هل ستكون مسرورة حقاً برؤيته؟ باستطاعته البحث عنه في دليل الهاتف، ولكن ما هو اسم العائلة؟

ففكر ملياً في اسم الخالة دينا قبل زواجها. لقد ذكرته ذات مرة، في إحدى ليالي تلك السنوات الغابرة عندما جلس وإيشفار وأوم وهم يُصغون إليها وهي تخبرهم عن حياتها. حدث ذلك بعد العشاء، وكانت تضع اللحاف في حضنها، وتقوم بوصل رِقعة قماش جديدة. لا تعودوا أبداً إلى الماضي بأسف، قالت الخالة دينا، وضاع أمر ما بشأن مستقبلها المزهر... لا، المكفهرّ... عندما كانت تلميذة واسمها... دينا شروف.

وتوقّف عند الصيدلي لمراجعة دليل الهاتف. كان هناك عدد كبير من المنتمين إلى عائلة شروف، باستثناء نوسوان شروف واحد، ودوّن العنوان. وقال الموظف المكتبي إن منزله غير بعيد. فقرر السير.

بعد الخروج من الحي القديم، أصبح الطريق غير مألوف بالنسبة إليه. فاستعلم عن الاتجاه، سائلاً نجّاراً يجلس عند حافة الرصيف مع كيس يضع فيه أدواته. كانت إبهام النجار مضمَّدة. فطلب من مانيك الانعطاف إلى اليمين عند التقاطع التالي مباشَرةً بعد ميدان الكريكت.

كانت هناك خيمة عند حافة الحقل بالرغم من عدم قيام أي مباراة كريكت. وكانت الحشود المستعلِمة تدور حول الخيمة، محدّقة إلى داخلها، وعلى المدخل لافتة كُتب عليها: صاحب التبجيل بال بابا يرحّب بالجميع؛ دارشان متوافر بين العاشرة صباحاً والرابعة بعد الظهر. كل يوم بما في ذلك الآحاد وأيام العُطَل العامة.

هو رجل يكدّ في العمل بالتأكيد، قال مانيك لنفسه، متسائلاً عن اختصاصه؛ يُخرج ساعات ذهبية من الهواء، ودموعاً من عيون التماثيل؟

لكن اسمه يوحي بخُدعة ما تتعلق بالشعر. فسأل أحدهم عند المدخل: "من هو بال بابا؟".

قال الخادم: "بال بابا هو رجل شديد التبجيل، عاد إلينا بعد سنوات عدة من التأمل في كهف في الهملايا".

"ماذا يفعل؟".

"لديه قوة شـديدة التبجيل ومميزة جداً. يُطلعك على أي نوع من الأمور التي تريد معرفتها. كل ما يحتاج إليه هو إمساك بعضٍ من شعرك بين أصابعه لمدة عشر ثوانٍ".

"وكم تبلغ التكلفة؟".

قال الرجل بغضب: "لا يتقاضى بال بابا أي رسم"، ومن ثم أضاف بابتسامة متملّقة، "ولكن مؤسسة بال بابا ترحّب في الغالب بكل الهِبات، أيّاً يكن المبلغ".

فشعر مانيك بالفضول ودخل. لقد عرف الرجل من النظرة الأولى؛ فهو أحدثُ مدَّعٍ ومتخصـص فـي الخـداع فـي المدينة، كما يقول أوم. سـيكون من الممتع إخبار الخياطَين بما رآه. أمر يثير الضحك بعد ثماني سنوات.

كان الحشد أكبر عدداً خارج الخيمة منه في داخلها. فعدد قليل فقط من الأشخاص كانـوا ينتظـرون بجانـب سـتار فاصـل يجلس وراءه بال بابا شـديد التبجيـل. لا يُفترض به الانتظار طويلاً، قال مانيك لنفسه، بمعدل عشر ثوانٍ من التأمل للزبون الواحد.

انضـم إلـى الصـف، وسـرعان مـا حان دوره. فالرجـل الجالس وراء السـتار، أصلع وحليـق الذَّقـن، ويرتـدي رداءً زعفرانـي اللـون. حتـى إن حاجبيه وأهـداب جفونه منتوفة بالكامل. لم تكن تظهر أي شعرة على وجهه أو على البشرة التي لا يغطيها الرداء.

مع ذلك، فقد عرفه مانيك بالرغم من ملامحه البرّاقة والملساء. "أنت راجارام جامع الشعر!".

أجفل بال بابا بما يكفي للكف عن تظاهره بالتبجيل. واستعاد رباطة جأشه بعد ذلك، ورفـع رأسـه، وقـال بغبطـة وبكلمات منمَّقة، محرِّكاً يـده وأصابعه بلطف: "تخلى راجارام جامع الشعر عن حياته، وأفراحه وأحزانه، ومساوئه وفضائله. لماذا؟ ليتمكن بال بابا من استخدام موهبته المتواضعة لمساعدة البشرية على بلوغ الموكشا".

كف عن القيام بحركاته غير العادية بعد هذا التصريح، وأحنى رأسـه وسـأل بصوت طبيعي: "ولكن من أنت؟".

"هـل تذكـر إيشـفار وأوم؟ إنهمـا الخياطـان اللذان اعتادا إقراضـك المال في أيامك الشَـعرانية؟ كنت أُقيم في تلك الشـقة نفسـها معهما". وخلال قيام جامع الشـعر باستيعاب الأمر، أضاف مانيك: "لقد أطلقتُ لحية. ربما لهذا السبب لم تعرفني".

قـال بمهابـة: "لا، البتـة. لا وجـود لقصة شـعر أو لحية يمكنهـا تضليل بال بابا، إذاً، ما هو سؤالك لي؟".

"أنت تمزح".

"لا، اختبرني فحسب. هيا، اسأل. اسأل عن العمل، الصحة، فُرَص الزواج، زوجة، أطفال، تعليم، أي شيء. سأعطيك الجواب".

"سبق لي أن حصلت على الجواب. أبحث عن السؤال".

فنظر إليه بال بابا شزَراً، وشاب القلقُ وجهه الأملس. فالتفوه بكلام غامض من هذا النوع هو آخر ما ينتظره. ولكنه سيطر على تكدّره، وأعاد ابتسامة التنور الضرورية إلى وجهه.

قال مانيك: "بعد إعادة النظر في الأمر، لديّ سؤال، كيف تساعد شخصاً لديه رأس أصلع على غرارك؟".

"إنها عقبة صغيرة ليس إلا. تبيع مؤسسة بال بابا منشّطاً خاصاً للشعر بسعر الكلفة، مع تكاليف إضافية تشمل البريد والتسليم. إنه مصنوع من أعشاب نادرة تنبت في الهملايا، ومفعوله مضمون. فبعد أسابيع قليلة، يغطّي شعرٌ كَثّ الرأس الأصلع. بعد ذلك، يأتي الزبون إلى هنا، وأُمسك بالشعر النابت حديثاً للتأمل وإعطائه الجواب".

"هل تشعر بالرغبة في قصه؟ لضمّه إلى مجموعتك؟".

فغضب بال بابا: "كانت حياة أخرى، كنت شخصاً آخر. لقد انتهى كل ذلك، ألا تفهم؟".

"لقد فهمت. وهل زرتَ إيشفار وأوم منذ عودتك من كهفك؟ ربما كانت لديهما أسئلة ليطرحاها عليك".

"لا يستطيع بال بابا التنعّم بزيارة أحد. إنه مقيَّد بهذا المكان ليمنح الناس فرصة معرفة الإجابة عن تساؤلاتهم".

قال مانيك: "صحيح، في تلك الحالة، من الأفضل لي عدم تضييع وقتك. هناك آلاف ينتظرون في الخارج".

قال بال بابا رافعاً يده بتحية وداع متسامية: "أسأل أن تجد نعمة القناعة قريباً". كانت عيناه لا تزالان غاضبتَين.

فقرر مانيك العودة مجدداً في صباح اليوم التالي، واصطحاب أوم وإيشفار معه. لم يكن عليه المغادرة إلى المطار حتى ليل اليوم التالي. إن حمل بال بابا على الإقلاع عن التباهي بما آلت إليه حاله سيكون دُعابة رائعة. فإنزاله درجة أو درجتَين سيُعيده إلى أيامه السابقة.

كان المَخرج وراء الخيمة، مروراً برجل يكتب على طاولة مهتزة توجد عليها كدسات من الرسائل والمغلفات. فحدّق مانيك، محاولاً تذكر المكان الذي التقيا فيه. ورأى بعد

ذلك العلبة البلاستيكية في جَيب قميص الرجل، مع مجموعة متشابهة من الأقلام. وتذكّر القطار، والراكب ذا الصوت المبحوح.

"اعذرني، أنت مصحح المواد الطباعية، أليس كذلك؟".

قال: "في السابق، فاسانتراو فالميك في خدمتك".

"أنت لا تعرفني بسبب لحيتي، ولكنني كنت الطالب على متن القطار معك، منذ سنوات عدة، عندما كنتَ مسافراً لمعالجة مشكلة حنجرتك على يدَي اختصاصي".

قال السيد فالميك، مبتسماً ومسروراً: "لا تقل المزيد، أتذكر تماماً، لم أنسك قطّ. تحدثنا كثيراً في تلك الرحلة، أليس كذلك". فضحك في سره، ووضع غطاء القلم. "أتعلم؟ من النادر جداً العثور على مستمع جيد لقصتك. فمعظم الناس يضطربون عندما يقوم شخص غريب بإخبارهم أموراً عن حياته. ولكنك كنت مستمعاً ممتازاً".

"آه، لقد استمتعتُ بالاستماع. لقد قصّر ذلك مدة الرحلة، كما وأن حياتك مثيرة للاهتمام جداً".

"أنت شديد اللطف. دَعني أُطلعك على سر: لا مثيل لحياة مثيرة للاهتمام".

"جرّب حياتي".

"أودّ ذلك. ذات يوم، يجب عليك أن تخبرني قصتك الكاملة بكل تفاصيلها، غير مختصَرة وغير منقَّحة. يجب عليك ذلك. سنوفّر الوقت لذلك يوماً ما، ونلتقي. الأمر شديد الأهمية".

فابتسم مانيك قائلاً: "ما سبب أهميته؟".

اتسعت عينا السيد فالميك وأجاب: "ألا تعلم؟ إنه شديد الأهمية لأنه يساعدك على تذكير نفسك بشخصك. بعد ذلك، يمكنك المضيّ قُدُماً في حياتك من دون خوف من فقدان نفسك في هذا العالم المتغيّر".

سكت قليلاً، لامساً الجَيب الذي توجد فيه أقلامه ثمّ تابع: "لا بد من أنني محظوظ حقاً لأنني تمكنت من إخبار قصتي الكاملة مرتَين. أولاً لك على متن القطار، ومن ثم لسيدة لطيفة في دار القضاء. ولكن، حدث ذلك قبل سنوات عدة أيضاً. أنا متعطش للعثور على مستمع جديد. آه، أجل، فمشاطرة القصة مع آخرين تُعيد إلى الذاكرة كل شيء".

"كيف؟".

"كيف؟ لا أدري بالتحديد. ولكنني أشعر بذلك هنا". ووضع يده فوق جَيب قميصه مجدداً.

يشعر بذلك في أقلامه؟ وأدرك مانيك بعد ذلك أن مصحح المواد الطباعية يعني

قلبه. "وماذا تفعل في هذه الأيام، يا سيد فالميك؟".

"أنـا مسـؤول عـن بريـد بـال بابـا. يقـوم بالتوقع بالمراسـلة أيضاً. يرسـل إليه الناس قُصاصات من الشَّعر. أفتح المغلفات، وأضع الشعر جانباً، وأقبض قيمة الشيكات، وأكتب الإجابات عن أسئلتهم".

"هل تستمتع بذلك؟".

"كثيراً في الواقع. المجال غير محدود. يمكنني اسـتخدام أنواع أسـاليب الكتابة في إجاباتي كافة؛ على صورة مقالة، شِعر نثري، نثر شِعري، قول مأثور". وربّت على الجَيب الذي يحتوي على الأقلام وأضاف: "عطاء أحبائي الصغار في أوجه. فأقلامي تبتكر قصة خيالية بعد أخرى وتصبح أكثر واقعية في حياة المستلِمين مقارنةً مع واقعهم الحزين".

قال مانيك: "سررتُ برؤيتك".

"ومتى نلتقي مجدداً؟ يجب عليك أن تخبرني كل شيء عنك".

"ربما غداً. أخطط لاصطحاب صديقَيّ إلى بال بابا".

"جيد، جيد. أراك قريباً".

عنـد المَخـرج، مـدّ الخادم وعاء نحاسـياً يحتوي على قليل مـن الفكّة. "نرحّب بأي تبرّع مالي".

فرمى مانيك في الوعاء بعض النقود المعدنية، شاعراً بأنه حصل على المقابل.

تطلّب الأمر وقتاً قليلاً قبل فتح الباب لمانيك بعد أن قرع الجرس. لم يكن الشخص ذو المعصمَين النحيلَين سوى الخالة دينا التي غادرها قبل ثماني سنوات. ثماني سنوات مع الضريبة المتوجّبة، ولكن ما رآه لم تكن ضريبة بل سرقة.

"أجل؟"، سألت، منحنية إلى الأمام. كانت عيناها بالغتَي الصِّغر وراء عدستَين بلغت سـماكتهما ضعف السـماكة التي عهدها لدى مغادرته شـقتها. وتغلّب اللون الرمادي على اللون الأسود في شعرها.

قال بصوت متهدّج: "يا خالتي، أنا مانيك".

"ماذا؟".

"مانيك كولاه، ضيفك المستأجِر".

"مانيك؟".

"لقد أطلقتُ لحيتي. لذلك لم تعرفيني".

فاقتربت منه قائلةً: "أجل. لقد أطلقتَ لحيتك".

فشـعر بالبرودة في صوتها. من الغباء توقّع أي شـيء آخر، قال لنفسـه. "ذهبت إلى

شقتك... و... لم تكوني هناك".

"كيف يمكنني أن أكون هناك؟ فهي ليست شقتي".

"أردت أن أراك مجدداً، والخياطَين، و...".

"لم يعد هناك خياطَان. ادخل". وأغلقت الباب، سائرةً أمامه بخطى صغيرة محترسة، مستعينةً بالجدران والأثاث لمعرفة طريقها في المدخل المُظلم.

قالت عندما بلغا غرفة الجلوس: "اجلس، لقد ظهرتَ فجأةً، من العدَم".

فسمع الاتهام، وأومأ برأسه. لم يكن يملك أي عذر يدافع به عن نفسه.

"اللحية. يُفترض بك حَلقها. تبدو كفرشاة حمّام".

فضحك، وضحكت مثله قليلاً. لقد شعر بالارتياح، ولكن ذلك لم يكن كافياً لإزالة شعوره بالإحباط. كانت الغرفة التي يجلسان فيها توحي بالثراء: أثاث قديم فخم، أوان أثرية من البورسلان في خزانات العرض، سجادة فارسية حريرية نفيسة على الجدار.

"عندما ترينني في المرة التالية، ستكون لحيتي قد زالت بالتأكيد يا خالتي، أعدك".

"ربما عرفتك حينذاك بسرعة أكبر". وناضلت لرفع مِشبك عن شعرها، ووضعته جانباً. "عيناي مريعتان الآن. تلك الجزرات التي حملتَني على تناولها ذهبت هَدراً. لا شيء يمكنه إنقاذ عينَيّ".

فضحك بتردد، ولكنها لم تشاركه الضحك هذه المرة.

"قدمتَ بعد وقت طويل جداً. لو جئتَ بعد سنوات قليلة، لما استطعتُ رؤيتك أبداً. حتى الآن، أنت ظل في هذه الغرفة".

"كنت خارج البلد أعمل في الخليج. آسف. ولكنني لم أوجّه رسالة إلى أحد. بدا الأمر بالنسبة إليّ... بلا جدوى".

قالت: "أجل، بلا مجدوى. لقد تبدّل عنواني على أيّ حال".

"ولكن، ماذا حدث للشقة يا خالتي؟".

فأخبرته.

وانحنى باتجاهها وهمس: "وأنت بخير هنا؟ هل يعاملك نوسوان جيداً؟". وخفّض صوته أكثر فأكثر، "هل يُطعمك جيداً؟".

"ليس عليك أن تهمس، لا يوجد أحد في المنزل". وخلعت نظارتها، ومسحتها بقميصها، ووضعتها مجدداً. "هناك طعام أكثر مما تطلبه شهيّتي".

غيّر الموضوع قائلاً: "وماذا عن إيشفار وأوم؟ أين يعملان الآن؟".

"هما لا يعملان".

"إذاً، كيف يتدبران أمورهما؟ لا سيما بوجود زوجة أوم وأطفالهما؟".

"لا وجود لزوجة أو أطفال. لقد أصبحا متسوّلَين".

"آسف... ماذا يا خالتي؟".

"هما متسوّلان الآن".

"مستحيل! يبدو الأمر جنونياً! أعني، ألا يخجلان من التسوّل؟ ألم يكن باستطاعتهما القيام بعمل آخر غير الخياطة؟ أعني...".

قالت مقاطِعة: "تريد الحكم عليهما من دون معرفة أي شيء؟".

لقد جعلته نبرتها المنتقدة يكفّ عن التساؤل. "رجاءً، أخبريني بما حدث".

في أثناء تكلمها، اخترقت البرودة أحشاءه كسكين. فجلس مسمَّراً كأحد التماثيل الصغيرة الموضوعة في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية الموجودة في الغرفة.

عندما وصلت إلى نهاية القصة، كان لا يزال بلا حراك. فانحنت باتجاهه وهزت ركبته. "هل تُصغي؟".

فأومأ برأسه قليلاً، ولكن عينَيها أغفلتا الحركة الصغيرة، فسألت مجدداً بانزعاج، "هل تُصغي أم أن نفَسي يذهب هَدراً؟" .

فأجاب هذه المرة بكلمات: "أجل، يا خالتي. أنا أُصغي". كان صوته بلا حياة.

"ما كنتَ لتعرفهما إذا رأيتهما. لقد تقلّص إيشفار بأكمله، وليست ساقاه فقط هما اللتين بُترتا. وأصبح أوم سميناً جداً. إنها إحدى نتائج الخِصاء".

"أجل، يا خالتي".

"هل تتذكر كيف كنتم تطهون معاً؟".

فأومأ برأسه.

"هل تذكر الهررة الصغيرة؟".

فأومأ برأسه مجدداً.

فحاولت مرة أخرى بثّ الحياة فيه. "كم الوقت؟".

"الثانية عشرة ونصف".

"إذا لم تكن على عجَلة من أمرك، يمكنك التقاء إيشفار وأوم. سيحضران إلى هنا عند الساعة الواحدة".

فعادت الحياة إلى صوته، ولكن ليس بالطريقة التي كانت تأملها. "آسف، لا يمكنني البقاء". كان الرفض ممزوجاً بالرُّعب، وكانت كلماته تخرج من فمه بسرعة. "عليّ القيام بكثير من الأمور... قبل مغادرة طائرتي غداً. أنسباء والدتي، وبعض التسوّق، ومن ثم إلى

المطار. ربما أراهما عندما آتي في المرة المقبلة".

"في المرة المقبلة. أجل، حسناً. سنكون كلنا بانتظار المرة المقبلة".

نهضا، وعبرا المدخل. "انتظر". قالت عندما بلغا الباب. "لديّ شيء لك".

فعادت بخطاها الصغيرة المحترسة. "لقد تركتَ هذه العلبة في شقتي".

كانت مجموعة الشطرنج الخاصة بأفيناش.

"شكراً لك". فتمايل ولكن صوته بقي هادئاً. ومدّ يده لاستلام الشطرنج والعلبة البنّية المصنوعة من الخشب الرقائقي. وقال بعد ذلك: "في الواقع، لست بحاجة إليها، يا خالتي. احتفظي بها".

"وماذا أفعل بها؟".

"أعطها لشخص ما... لابنَي شقيقك؟".

"كزرسس وزارير لا يلعبان الشطرنج. إنهما رجلان كثيرا الانشغال".

فأومأ مانيك برأسه، وقال مجدداً: "شكراً لك".

"على الرحب والسعة".

وتردد، مقلّباً العلبة بين يديه، ممرّراً أصابعه بلطف على امتداد الحافة. "إلى اللقاء، يا خالتي".

فأومأت برأسها بصمت. وانحنى وقبّلها على خدّها برِفق وبسرعة. فرفعت يدها كما لو أنها تلوّح له، وعادت إلى الوراء، وشرعت بإغلاق الباب. فاستدار، وأسرع بعبور الممر المرصوف بالحجارة.

توقف عندما سمع صوت إغلاق الباب. كان تحت شجرة عند نهاية الممر، وهناك عصفور يغرّد بين الأغصان. فأصغى، محدّقاً إلى لوحة الشطرنج والعلبة بين يدَيه. وسقط شيء ما على رأسه، فقفز جانباً لتجنّب زَرق الطائر. فشعرت أصابعه باللطخة الدبِقة. وباستخدام أوراق الشجرة، مسح شعره ونظر إلى الأعلى. كان هناك غراب واحد فقط، في حين طار العصفور المغرّد. فتساءل عما إذا كان الرَّوث الموجود على شعره للغراب أو للعصفور. كان والده يقول إن زَرق الغراب المألوف يجلب حظاً سعيداً غير مألوف.

نظر إلى ساعته: الواحدة إلا عشرين دقيقة. لا بد من أن يصل إيشفار وأوم بعد قليل. إذا أمضى بضع دقائق هنا، فباستطاعته رؤيتهما، ولكنهما سيريانه. ولكن، ماذا سيقول؟

في الشارع الهادئ خارج المنزل، بدأ يذرع ممر المشاة بخطى واسعة ذهاباً وإياباً، بين نهاية الشارع ومنزل الخالة دينا. وبعد جولات عدة، رأى متسوّلَين ينعطفان عند الزاوية من الطريق الرئيس.

كان أحدهما يجلس على منصة منخفضة تتحرك على دواليب، ولم تكن لديه ساقان. والآخر يدفع المنصة بحبل مرفوع فوق كتفه، ويرتدي ملابس كما لو أنها مبطَّنة على نحو غريب، ويحمل تحت ذراعه مظلة ممزَّقة.

ماذا أقول؟ سأل نفسه بشكل يائس.

فاقتربا، وكان الجالس على المنصة يهزهز النقود المعدنية في صفيحته المعدنية، ملتمساً مساعدة الناس، وناظراً إلى الأعلى بخجل.

يا إيشفار، هذا أنا. ألم تعرفني! لقد تسابقت الكلمات داخل رأسه من دون فائدة، عاجزةً عن الخروج من فمه. قل شيئاً، أمر نفسه، قل شيئاً!

التمس المتسول الآخر المساعدة. كان صوته ذا طبقة عالية، ومتحدّياً، ونظرته مباشَرة وساخرة. وتوقفا مترقّبَين، اليد ممدودة، والصفيحة تصلصل.

يا أوم! يا صاحب الوجه المصفرّ كالليمون الحامض، يا صديقي! هل نسيتني!

لكن كلمات الحب والأسى والأمل بقيت بكماء كالحجارة.

سعل المتسول مبتور الساقَين وبصق. فألقى مانيك نظرة سريعة على الفم؛ كانت عليه بعض الدماء. وبدأت المنصة بالتدحرج بجانبه، ولاحظ جلوس إيشفار على مِسند. لا، ليس مِسنداً. فقد كان شيئاً قذراً وبالياً ملفوفاً على صورة مِسند. إنه اللحاف.

انتظر، أراد أن ينادي... انتظرني. وأراد الإسراع خلفهما، والعودة إلى الخالة دينا معهما، وإخبارها بأنه بدّل رأيه.

لكنه لم يحرّك ساكناً. وانعطف الاثنان سالكَين ممر المشاة المرصوف بالحجارة، وتواريا عن الأنظار. كان باستطاعته سماع الدواليب تطقطق قليلاً فوق الحجارة غير المستوية. وغاب الصوت، وأكمل طريقه.

حثّ مانيك خطاه مروراً بميدان الكريكت، وخيمة بال بابا، والنجار المصاب عند حافة الرصيف، حتى بلغ المحيط المألوف مجدداً. فرأى اللافتة الفلوريّة الجديدة لفندق فيشرام فيدجيتريان أوتل. لقد بدا المكان كمطعم مزدهر واسع ابتلع المتاجر من كلا الجانبَين، وأضواؤه تئزّ وتومض ببلاهة في شمس بعد الظهر. **كل واشرب، استمتع براحتنا المكيَّفة**، كُتب على اللوحة الأصغر حجماً تحت المصباح الفلوريّ.

فدخل، وتم اصطحابه إلى طاولة برّاقة وُضع عليها لوح زجاجي. وظهر نادل مهندَم بلباسه الرسمي، حاملاً لائحة طعام كبيرة مصقولة. ووضع مانيك مجموعة الشطرنج على كرسيّ فارغ بجانبه، وطلب قهوة.

كانت قاعة الطعام ناشطة؛ إنه وقت الغداء. وعاد النادل مسرعاً مع كوب ماء. "نُعدّ

قهوة طازجة. دقيقتان فقط وتكون جاهزة".

فأومأ مانيك برأسه. وكان هناك مِجهار على رف مرتفع وراء طاولة النقد يبثّ موسيقى مُملّة غير مسموعة تقريباً بسبب الحركة الناشطة في الفندق. حدّق إلى الطاولات المحيطة به، وإلى موظَّفي المكاتب الذين يرتدون قمصاناً، وسُترات ويضعون ربطات عُنق، ويأكلون بنشاط، وتُتَمّم محادثاتهم المتحركة طقطقة أدوات المائدة؛ حديث مكتبي عن غَدر الإدارة ومكافأة وفائهم لها، وعن الميزانيات والترقيات. إنها فئة جديدة من الزبائن مختلفة تماماً عن العمال المتعرّقين الذين اعتادوا تناول الطعام هنا في ما مضى.

وصلت القهوة. فأضاف مانيك السكّر، وحرّك بإسهاب، وارتشف قليلاً. وسأله النادل المارّ قربه: "هل هي جيدة؟".

"أجل، شكراً لك".

عدّل النادل مكان مستوعبَي الملح والفلفل، ومسح المنفضة بعزم. "إذاً، لقد تولّى ابن رئيسة الوزراء السلطة. هل تعتقد أنه سيكون حاكماً جيداً؟".

"من يعلم. سيكون علينا الانتظار لنرى".

"صحيح. كلهم يقولون الأمر نفسه، ويفعلون أمراً آخر". وغادر ليخدم طاولة أخرى حيث انتهى الزبائن من تناول الطعام. فراقبه مانيك وهو يكدّس الأطباق، ويضيف إلى الكدسة أطباق الطاولتَين المجاورتَين قبل التوجه إلى المطبخ مترنّحاً.

عاد بعد قليل وعاين كوب مانيك الفارغ جزئياً، ثم سأله: "هل تريد تناول أي شيء؟".

فهز مانيك رأسه.

"لدينا أيضاً مثلّجات لذيذة".

"لا، شكراً لك". وبدأ الاهتمام المُفرط يثير حفيظته؛ ابتسامة مهذّبة كما لو أنها جزء من الديكور الجديد في فيشرام الجديد، قال لنفسه، حيث يجلس وحيداً. في فيشرام القديم، كان يأتي على الدوام مع أوم وإيشفار في فترات بعد الظهر ويجلسون إلى طاولة منفردة كريهة الرائحة، وشانكار يتدحرج على منصته في الخارج ملوِّحاً بيدَيه غير المكتملتَين، هازّاً ساقَيه المبتورتَين، مبتسماً، ومحرّكاً صفيحته المعدنية. وبعد ذلك، نعش جنازته، وترنيم المرنم، وخشب الصندَل المحترق، والدخان زكي الرائحة؛ مراسم مكتملة، ولكن رائحة الدخان الزكية لم تكن موجودة خلال إحراق جثة والده؛ كان من الأفضل إقامة المَحرقة في الهواء الطَّلق.

دفعت مجموعة من الزبائن الذين يُحدثون صخَباً كراسيهم إلى الوراء للمغادرة؛

وحلت مكانهم دُفعة جديدة. فاستقبلوا الموظَّفين بأسمائهم؛ إنهم زبائن منتظمون كما يبدو. والتقط مانيك علبة الخشب الرقائقي البنية وفتح الغطاء المنزلق، وأخرج حجراً بشكل عشوائي. بَيدق. ودحرجه بين إبهامه وأصابعه، ولاحظ أن الأخضر الذي يشعر بوجوده في أسفل الحجر ينقشر.

ورأى النادل ذلك أيضاً. "يُفترض بك استخدام كامل باست، سيثبّته بقوة".

فأومأ مانيك برأسه. وشرب ما تبقّى من القهوة، وأعاد البيدق إلى العلبة.

قال النادل بفخر: "ابني يمارس هذه اللعبة أيضاً".

فنظر مانيك إلى الأعلى. "هل يملك مجموعته الخاصة؟".

"لا، إنها مرتفعة الثمن كثيراً. هو يلعب في المدرسة فقط". ملاحظاً الكوب الفارغ، قدّم له لائحة الطعام مجدداً. "إنها الساعة الثانية، سيُقفل المطبخ قريباً. لدينا دجاج بالكاري لذيذ جداً وبيرياني، أم تفضّل طبقاً صغيراً؟ كُتل لحم غنم، باكورا بالشُتني؟".

"لا، أريد كوباً آخر من القهوة فقط". ونهض مانيك وذهب إلى الخلف، باحثاً عن الحمّام.

كان مشغولاً. فانتظر في الممر حيث كان باستطاعته مراقبة المطبخ الناشط، ومساعد الطاهي المتعرّق الذي يقطّع ويقلي ويحرك، وفتى صغير نحيل يفرك الأطباق القذرة وينقعها في حوض الغسيل.

فبالرغم من الكروم والزجاج والمصابيح الفلوريّة، بقي شيء ما من فيشرام القديم، قال مانيك لنفسه؛ الكيروسين والفحم للمواقد. بعد ذلك فتح باب الحمّام، ودخل.

عندما خرج، وجد أنه تم إخلاء الطاولة الأقرب إلى المطبخ. فقرر الجلوس إليها. ودنا منه النادل ليذكّره أن كوب قهوته الثاني ينتظر على الطاولة الأخرى.

قال مانيك: "سأرتشفها هنا".

"ولكنّ المكان غير مناسب. ضجيج المطبخ، والروائح، وكل شيء".

"لا بأس".

فأذعن النادل، وأحضر القهوة ومجموعة الشطرنج قبل أن يغادر ليناقش مع زميله نزوات الزبائن وخصوصياتهم الفردية.

نادى أحدهم طالباً شيش كباب من المطبخ. فأوقد مساعد الطاهي الفحم، وعندما اتّقد، وضع بعضاً منه على مَنقل، وقام برصف أسياخ لحم غنم وكَبِد فوقه. كان الفحم يتأجّج لدى استخدام المروحة لنفخ الهواء عليه.

يا لتوهّجها! قال مانيك لنفسه؛ كأنها مخلوقات حية تتنفس وتنبض بالحياة. هي تبدأ

صغيرة بحرارة متواضعة، وتكبر بعد ذلك وتتوهج بلون أحمر قوي، مطقطقةً، وتفرقع ألسنتها النارية من شدة التوتر والانفعال، محوِّلةً، ومهدِّدةً، وملتهمة. وبعد ذلك، تخمد ثورة غضبها، وتعتدل حرارتها، وتُذعن، وتدخل أخيراً في سكون تام...

انتهت ساعات الغداء في فيشرام. وبعد حلول الساعة الثالثة، بدأ النادل يُلمح للزبائن على نحو اعتذاري وبقليل من حس الفكاهة. "الجميع عادوا إلى مكاتبهم منذ مدة طويلة"، وابتسم، "خائفين من أصحاب عملهم. أنتم أصحاب عمل بالتأكيد، ولكنكم ما زلتم هنا".

أجل، ولكنني ما زلت هنا، قال مانيك لنفسه. وحدهم المدرِّبون البطيئون يتخلّفون عن الآخرين.

"أنت في إجازة؟".

"أجل. الفاتورة، رجاءً". وألقى نظرة سريعة إلى داخل المطبخ مجدداً. لقد أُطفئت المواقد، وكان مساعدو الطهاة ينظفون المكان استعداداً لاستقبال زبائن العشاء. في المَنقل، تحوّل الفحم إلى رماد.

بلغ ثمن كوبَي القهوة ست روبيّات. فوضع مانيك عشر روبيّات في الصحن وتوجه نحو الباب.

نادى النادل، راكضاً وراءه: "انتظر، انتظر! لقد نسيتَ محفظة جَيبك على الكرسي! ومجموعة الشطرنج أيضاً!"

"شكراً لك". ودسّ مانيك محفظته في الجَيب الخلفي لسرواله، وأخذ مجموعة الشطرنج.

"هي كل أغراضك التي نسيتها اليوم"، قال النادل، وضحك قليلاً، "احترس".

فابتسم مانيك وأومأ برأسه، ومن ثم فتح الباب، وخرج من برودة مكيِّف الهواء في فيشرام إلى أحضان شمس بعد الظهر القاسية.

شيئاً فشيئاً، أصبح من الصعب على مانيك شق طريقه على امتداد الرصيف. لقد أدرك أنه يسير عكس التيّار. كان المساء قد حل خلال تجوّله في شوارع المدينة، وبدأ الناس بالتدفق خارج مباني مكاتبهم، متوجهين إلى منازلهم. لقد أشارت ساعته إلى السادسة والربع. فاستدار وتوجّه إلى محطة القطار، سامحاً للمد البشري بحمله إلى الأمام.

كانت وطأةُ فترة الازدحام قد زالت، ولكن صدى الحشد استمر في التردد مع دويّ القطارات تحت السقف المرتفع. كان هناك صف عند نافذة التذاكر، فتذكّر قصة سمعها عن السفر من دون تذاكر ذات يوم.

خرج من الصف، واندفع بين الحشود للوصول إلى رصيف الركاب. كانت اللوحة

تشير إلى أن القطار التالي هو قطار سريع لن يتوقف هناك.

فنظر من حوله إلى الركاب المنتظرين...كانوا تائهين داخل الصحف، ومتحركين باضطراب مع أمتعتهم، ومتناولين الشاي؛ وكانت هناك والدة تشدّ أُذُن طفلها. وسُمع هدير بعيد، فانتقل مانيك إلى الجهة الأمامية لرصيف الركاب، وحدّق إلى السكك وإلى وميضها الذي بدا كوعد الحياة نفسها ممتدةً إلى ما لا نهاية بالاتجاهين، وإلى شرائط فضية تنساب فوق طبقة الحصى، واصلةً الرباطات الخشبية المسودّة والبالية لسكة الحديد.

لاحظ وجود امرأة مُسنّة تضع نظارة قاتمة بجانبه. فتساءل عما إذا كانت ضريرة. قد يكون من الخطر عليها الاقتراب من الحافة إلى هذا الحد. ربما يُفترض به مساعدتها للتنقل بأمان.

فابتسمت وقالت: "قطار سريع، لن يتوقف هنا. لقد تحققت من اللوحة". وعادت خطوة إلى الوراء، ملوّحةً له بيدها للرجوع إلى الوراء أيضاً.

لم تكن ضريرة إذاً؛ إنها الموضة. فردّ لها الابتسامة وبقي في مكانه، ضامّاً مجموعة الشطرنج إليه. وبات بالإمكان رؤية القطار السريع من بعيد. وأصبح هديره أكثر ارتفاعاً خلال اقترابه. وعندما دخلت المقصورة الأولى المحطة، قفز عن رصيف الركاب إلى السكك الفضية البرّاقة.

كانت المرأة المُسنّة بنظارتها القاتمة أول من صاح. وبعد ذلك، طغى زعيق الفرامل العاملة بالهواء المضغوط على سواه من أصوات، وتطلّب الأمر قطع القطار بضع مئات من الأمتار قبل أن يتوقف.

كانت فكرة مانيك الأخيرة احتفاظه بأحجار الشطرنج الخاصة بأفيناش.

* * *

تحت الشجرة حيث ممر المشاة المرصوف بالحجارة يتقاطع مع الرصيف، أفلت أوم حبل المنصة، وقررا الانتظار. فأُجفل طائر بين أوراق الشجرة الكثّة فوقهما. واستمرا في استراق النظر إلى ساعات عابري السبيل.

عند الواحدة، غادرا الرصيف وتدحرجا على الدواليب. لقد حجبتهما الشُّجَيرات المزروعة على جانب جدار حديقة منزل شروف عن أنظار الجيران. وتوجها مباشَرةً إلى الباب الخلفي، ملازمَين جانب المنزل، وقرعا برِفق.

فرافقتهما دينا إلى الداخل، وملأت كوبَي ماء لهما، وسكبت لهما طعاماً في طبقَين من مجموعة روبي الموجودة على خزانة غرفة الطعام والتي تستخدمها كل يوم. لِكَم

سنة يمكنها الاستمرار في القيام بذلك قبل اكتشاف روبي ونوسوان الأمر، تساءلت. "هل رآكما أحد تدخلان؟".

فهزا رأسَيهما.

قالت: "تناولا الطعام بسرعة، ستعود زوجة أخي في وقت أبكر من المعتاد".

قال إيشفار: "إنه لذيذ جداً". واضعاً الطبق على حضنه بشكل متوازن.

وهمهم أوم موافقاً إيّاه الرأي، وأضاف: "أرغفة التشوباتي جافة قليلاً، ليست جيدة كيوم أمس. لم تتّبعي طريقتي أم ماذا؟".

قالت لإيشفار متذمّرة: "يعتقد هذا الرجل أنه ذكي جداً".

قال إيشفار ضاحكاً: "ما العمل، إنه بطل العالم في إعداد التشوباتي".

قالت دينا: "إنها متبقّية من الليلة الماضية، لم أُعدّ تشوباتي طازجة. كان لديّ زائر. لن تحزرا أبداً من هو".

قالا: "مانيك".

قال إيشفار: "رأيناه يمرّ قبل نصف ساعة. لقد عرفناه بالرغم من لحيته".

"ألم تتحدثا إليه؟".

فهزا رأسَيهما.

قال أوم: "لم يعرفنا، أو أنه تجاهلنا. حتى إننا حاولنا لفت انتباهه".

"لقد تغيّرتما كثيراً". ورفعت طبق التشوباتي. "تناولا المزيد". فأخذ إيشفار رغيفاً وتشاطر نصفه مع أوم.

أضافت: "قلت له إنكما ستأتيان عند الواحدة، طلبتُ منه الانتظار ولكنه تأخر على موعده. قال إنه سيراكما في المرة القادمة".

قال إيشفار: "سيُسعدنا ذلك".

هزّ أوم كتفَيه بغضب. "لانتظر مانيك الذي نعرفه ليرانا اليوم".

"أجل"، قال إيشفار، جارفاً آخر قطعة من التشوباتي من طبقه، "ولكنه ذهب بعيداً. عندما تبتعد إلى هذا الحد، تتغيّر. المسافة أمر صعب. لا يُفترض بنا إلقاء اللوم عليه".

فوافقته دينا الرأي. "الآن تذكّرا، غداً هو يوم السبت، ويكون الجميع في المنزل، لا يجب عليكما القدوم خلال اليومين التاليَين". ووضعت طبقَيهما في حوض الغسيل وفتحت الباب لإخراجهما.

قال إيشفار: "هوي-هوي، ما هذا؟". لقد حُلّ خيط من اللحاف الجالس عليه، وعلق بالعجلات.

"أَرِنـي". مـدّ أوم يـده لسـحب اللحـاف فـي أثنـاء قيـام عمه بدفع نفسـه إلى الأعلى بواسطة ذراعَيه. فعثرا على الرُّقعة التي حُلّ منها الخيط.

قالت دينا: "من الجيد أنكما رأيتماه، وإلا حُلّت خيطان تلك القطعة بأكملها".

قال إيشفار: "من السهل إصلاحها. هل يمكنني استعارة إبرتك، يا سيدة دينا؟ لدقائق قليلة؟".

"ليـس الآن. قلـت لـك إن زوجـة شـقيقي سـتعود باكـراً". ولكنها قصـدت غرفتها، وأحضـرت بَكَـرة خيطـان مـع إبـرة مغـروزة فيها. "خذ هـذه معك". وفتحـت الباب لهما مجدداً. "لا تنسَ المظلة". ودسّتها تحت ذراع أوم.

قـال: "كانـت مفيـدة جداً في الليلة الماضية، لقد ضربتُ لصاً بها كان يحاول سـرقة نقودنا المعدنية". ورفع الحبل وشـدّ. وأصدر إيشـفار صوت طقطقة بلسـانه، مقلّداً سـائق عربة يجرّها ثور مخصي. فضرب ابن شقيقه الأرض بقدمَيه، ومدّ رأسه.

قالـت موبّخـة: "توقفـا، إذا تصرّفتمـا بهذه الطريقة على الرصيف، فلن يعطيكما أحد بايزا واحدة".

قـال إيشـفار: "هيـا، أيهـا الحيـوان الأميـن، ارفـع حافرَيك وإلا أطعمتـك جرعة من الأفيون". مبتسماً بدأ أوم بالسير. وكفّا عن التهريج عندما خرجا إلى الشارع.

فأغلقت دينا الباب، هازةً رأسها. كان هذان الاثنان يحملانها على الضحك كل يوم. لقد اعتاد مانيك القيام بذلك في السـابق. فغسـلت الطبقَين، وأعادتهما إلى الخزانة ليقوم نوسـوان وروبي بتناول طعام العشـاء فيهما. ومن ثم، جفّفت يدَيها، وقررت أخذ قيلولة قبل الشروع بإعداد وجبة المساء.

«رائعة رشيقة وضّاءة. على غرار الكتابات الأدبية العظيمة، تغيّر فهمنا للحياة».

– صحيفة «الغارديان»، المملكة المتحدة

«تملك هذه الرواية الجرأة على تذكيرنا، فرداً فرداً، بما نحن عليه، وطمأنتنا؛ إنها مستمرة في تقدير الروح البشرية المتألّقة التي لا يمكن إخمادها».

– صحيفة «غلوب إند مايل»

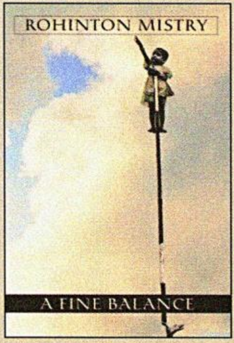
«قليلون هم الذين فهموا، على غرار ميستري، الأسى الحقيقي في الهند ومقدرتها التي لا يمكن تفسيرها، والاعوجاج والحَلاوة غير المعلّلَين».

– مجلة «تايم»

«رائعة شامخة لكاتب نابغة...».

– صحيفة «ذي إنديبندنت»، المملكة المتحدة

«بين اليأس والأمل»، هو الكتاب الرائع والأكثر مبيعاً لروينتن ميستري والذي لقي استحساناً دولياً، وُضع في أواسط السبعينيات في الهند. هو يُخبر قصة أربعة أشخاص ارتبطت حياة كل منهم بحياة الآخر في زمن الاضطراب السياسي الذي حدث بعد إعلان الحكومة حالة الطوارئ الداخلية. وفي أيام موحِشة ومليئة بالأمل، أصبحت ظروف حياتهم متشابكة بطرائق لا يمكن لأحد توقعها. إن نَثْر ميستري حيّ بالصور الصابرة على الألم والصعوبات، وبشخصيات لا يمكن نسيانهم. لقد كُتب بتعاطف، وحس فكاهة، ونفاذ بصيرة. «بين اليأس والأمل» رواية مُفعَمة بالحياة، غنيّة في الجوهر، ومؤثِّرة، وضعها أحد الكتّاب الأكثر تمتعاً بالموهبة في زمننا.



وُلد روينتون ميستري في بومباي عام 1952 وقدِم إلى كندا عام 1975. فازت روايته هذه بالعديد من الجوائز الدولية القيّمة، بما في ذلك «جائزة غيلر»، و«جائزة أفضل كتاب لكتّاب الكومنولث»، و«جائزة الحاكم العام»، و«جائزة الكتابات الأدبية الكندية–الأسترالية»، و«جائزة الرواية الأولى من سميثبوكس / بوكس» في كندا، و«جائزة لوس أنجلوس تايمز بوك للفن الروائي»، و«جائزة وينيفريد هولتبي من المجتمع الملَكي للكتابات الأدبية»، و«جائزة كيرياما باسيفيك ريم بوك للكتابات الأدبية». أدرجت رواية «بين اليأس والأمل» ضمن المجموعة المختارة لـ«أوبراه بوك كلوب».

ISBN 978-614-01-0274-3

9 786140 102743

نيل وفرات.كوم

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم

www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف Cover photo © Karsten Koehler - Fotolia.com